

معارج التفكر ودقائق التدبر

تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول
وفق منهج كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل»

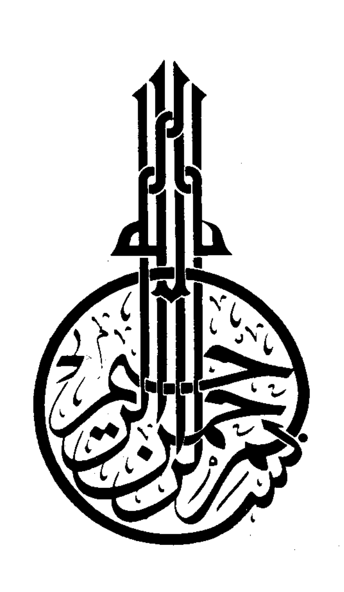
المجلد الثاني

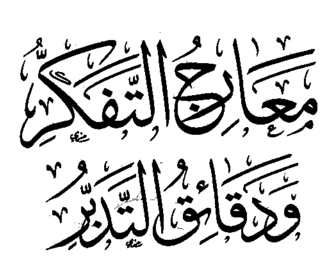
تفسير سور

الفيل (١٩) - الفلق (٢٠) - الناس (٢١) - الإخلاص (٢٢) - النجم (٢٣)
عبس (٢٤) - القدر (٢٥) - الشمس (٢٦) - البروج (٢٧) - التين (٢٨)
قريش (٢٩) - القارعة (٣٠) - القيامة (٣١) - الهمزة (٣٢) - المرسلات (٣٣)

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

دار القلم
دمشق


بسم الله الرحمن الرحيم


معارج التفكر
ودقائق التدبر

الطّبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

سورة الفيل

١٠٥ مصحف ١٩ نزول



(١)
نص السورة
سورة الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

(٢)
معاني مفردات لغويّة

كيدَهُمْ: الكيد: التدبير الخفيّ أو الظاهر بحقّ أو بباطل، وفيه مكروهٌ لِمَنْ كانَ ضِدَّهُ. والكيدُ: الحربُ، وإعْدادُ وَسَائِلِهِ، والاحتيالُ والاجتهاد، وتدبير الأمور وإعداد الوسائل لتحقيق مطلوب ما.

في تَضْليل: أي: في مُحِيطٍ من الضياع والهلاك. **ضَلَّلَهُ**: أي: ضيّع مسعاه، وأفْسَد تدبيره، وأبطل كيْدَه، وأهلكه.

أَبَابيل: أي: جمَاعَات متلاحقات يَتْبَعُ بَعْضُها بعضاً.

من سجيل: أي: من طين متحجّرٍ مُتَصَلّب، وربّما كان للنار أثرٌ في جعله متحجّراً.

كعَصْفٍ مَأْكول: العصْفُ في اللّغة، هو ما تأكُلُه الدّوابّ من نباتاتِ الأرض، كالزّرع الذي يؤخذ حبُّهُ، ويُتْرَكُ سَائِرهُ طَعاماً للدّواب، وكالفِصْفِصَة والبرسيم، والتِّبْن، ونحوها.

(٣)
موضوع سورة الفيل

يظهر لكُلِّ مُتَدَبّرٍ أنَّ موضوع سورة (الفيل) يدور حول تذكير مشركي أهل مكّة وما حولَها إبّانَ التنزيل، بما أنزل الله عزّ وجلّ من عذابٍ وإهلاكٍ بأصحاب الفيل، الجيْشِ الّذي قَدِم من اليمن بقيادة أبرهة الحبَشِيّ والذي جاء قاصداً تدمير الكعبة بيت الله الحرام.

وفي هذا التذكير تهدِيدٌ ضِمْنِيٌّ لهم بأَنَهُمْ إذا أرادوا رسولَهُ محمّداً ﷺ بسوءٍ أو بشرٍ كانوا عُرضَةً لِعَذابٍ من اللّهِ وإهلاك، كالذي تعرَّض له جيش أَبْرَهَة لمَّا قصدَ هدْمَ بيْتِه أوّلِ بيْتٍ وُضِعَ للناس، وهو بناء مِنْ أحجار أرضِ مكة، وُضِعَ لعبادة اللّهِ وحْدَه، أمَّا رسُولُهُ محمّد ﷺ فهُو مبلّغ دينه الّذي اصطفاه للنّاس أجمعين، فهو أعظم وأجلُّ عند اللّهِ تَبارَكَ وتعالَى من بناء من الأحجار يُمْكن تجديده، أو إعادة بنائه إلى مثل ما كان عليه.

وفي هذا التهديد للمشركين طَمْأَنَةٌ ضمنيَّةٌ للرسول محمّد ﷺ وللذين آمنوا به واتَّبَعُوهُ، بأنّ اللّهَ عزّ وجلّ ناصرُه، وحافظه، وحاميه، من كلّ الّذين يُرِيدُون به شرّاً.

ويمتاز هذا التهديد في المراحل المبكّرة من دعوة الرسول ﷺ، بأنّ حادثة إهلاك أصحاب الفيل حادثَةٌ قريبة، لم يَمْضِ على حدوثها إلاّ أقلُّ من نِصْف قَرْنٍ، وقد عاصَرَها وشهد أحداثها كثيرٌ مِنْ أهل مكّة وما حولها،

وكثيرٌ مِنهُمْ يتّخذ وسائل كيْدِيَّةً ضِدَّ رسُول اللّهِ ﷺ وضدّ دعوته والدّين الّذي يبلّغه عن ربّه.

وقد سَبَقَ هذا التَّهْدِيدَ في نجوم التنزيل تَهْدِيدٌ آخرُ جاء في سورة (الفجر/٨٩ مصحف/١٠ نزول) وَهو ما تضمنَّنَهُ قول الله عزّ وجل فيها:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾.

(٤)
قصة أصحاب الفيل

جاء عند أصحاب السِّيَرِ والأخبارِ بِشأْنِ قِصَّةِ أصْحَابِ الفيل ما يلي:

وقَعَتِ الْيَمَنُ تَحتَ حُكْمِ الأَحْبَاشِ، وقد كَانوا يَدِينونَ بالنصرانيّة، وكانَ على اليمَنِ من الأحْبَاشِ أَمِيرَان حَبَشِيَّانِ، هما: أَرْيَاط، وأَبْرَهَة، فاختلفا، وتصاوَلاَ، وَتقَاتَلا، حَتَّىٰ قُتِلَ أَرْيَاطُ، واستَبَدَّ بالسُّلْطَانِ أَبْرَهَةُ، وكَانَ قَدْ ضَرَبَهُ أَرْيَاطُ بالسَّيْفِ عَلى وَجْهِهِ في مُبَارَزَةٍ بيْنَهُمَا، فَشَرَمَ أَنْفَه وفَمَهُ، وشَقَّ وَجْهَهُ، فصارَ يُقَالُ: أَبْرَهةُ الأَشْرَمُ.

واسْتَقَرَّ أَمِيراً عَلى الْيَمَنِ كُلِّهِ مِنْ قِبَلِ النَّجَاشِي ملك الحبَشة.

وسَاءَ الأَمْرُ مَلِكَ الحبَشَة، فحاوَلَ أَبْرَهَةُ اسْتِرْضَاءَه، حتَّى رَضِيَ عَنْه، وأرادَ أَنْ يُبَالِغَ في اسْتِرْضائِهِ، فكَتَبَ إِلَيْهِ يقول: سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم يُبْنَ قبلها مِثْلُهَا.

وَلَمَّا بَنَى الكنيسة كَتَبَ إلى النجاشي: إِنّي قَدْ بنَيْتُ لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ كَنيسَةً لَمْ يُبْنَ مِثْلُها لِمَلِكٍ كَانَ قَبْلَكَ، ولسْتُ بِمُنْتهٍ حتَّى أَصْرِفَ إِلَيْهَا حَجَّ العَرَبِ. أي: بدَلَ أَنْ يحجُّوا إلى الكعْبَة.

وسمَّى العربُ هذِهِ الكنيسَةَ «الْقُلَّيْس» لأنَّ الناظِرِينَ إلَى أعلاها تَتَساقَطُ قَلانِسُهُمْ عن رؤوسهم، بسبب ارْتفاعِها وعُلُوّ بنائها.

وبَلَغَ العربَ عَزْمُ أبْرَهَةَ على تحويل حجّهِمْ إلى كنيسَتِهِ فكَرِهُوا ذَلِكَ، وغَضِبَتْ قُرَيْشٌ مِنْ هَذَا الأَمْرِ غضباً شَدِيداً.

قالوا: فجاء رجلٌ من الْعَرَب، هُو أَحَدُ بَنِي فُقَم، ثُمَّ أَحَدُ بَنِي مَالِكٍ، وَدَخَلَ «الْقُلَّيْسَ» وَتَبَرَّزَ بِهَا، إعْلاناً عَنْ تَسخُّطِ العرب، وإشعاراً بأن هٰذِهِ الكنيسَةِ لا تَسْتَحِقُّ في نُفُوسِ الْعَرَبِ أنْ يحُجُّوا إليها، وَخرجَ الرَّجُلُ وفَرَّ إلَىٰ أرْضِه.

ورأَىٰ رُعاةُ الكنيسَةِ «الْقُلَّيْس» مَا فُعِلَ فيها، فرفعُوا الأمْرَ إلى أبْرَهَةَ، وقالُوا له: إنَّما صَنَعَ هذا بعْضُ قُرَيشٍ، غضباً لبَيْتِهم.

فَأَقْسَمَ أَبْرَهَةُ لَيَسِيرَنَّ إلَىٰ بيْتِ مَكَّة، ولَيُخَرِّبَنَّهُ حجراً حجراً.

وذكَرَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمانَ، أَنَّ فِتْيَةً مِنْ قُرَيْشٍ دخَلُوا «الْقُلَّيْسَ» فَأَحْرَقُوهَا، فَسَقَطَتْ إلَىٰ الأَرْض، فعزَمَ أبْرَهَة علَىٰ هَدْمِ الكَعْبَة.

وَحَشَدَ «أَبْرَهَةُ» جَيْشاً كثيفاً من الْحُبْشَان، واسْتَصْحَبَ مَعَهُ فيلاً عظيماً كبير الجثَّة، لَمْ يُرَ مِثْلُهُ، يُقَالُ لَهُ «محمود» وكان قد بَعَثَهُ إلَيْهِ النَّجاشيُّ مَلِكُ الحبشَةِ لذلك.

وسمِعَتِ العَرَبُ بمَسِيرِ أبْرَهَةَ وَجَيْشِهِ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الأَمْرُ واسْتَفظَعُوه.

فخَرَجَ رَجلٌ من أشرافِ اليَمَنِ ومُلُوكهم يُقالُ لهُ: «ذُو نَفر» فَدَعا إلى حَرْبِ أبْرَهَةَ وجَيْشِهِ، دِفاعاً عَنِ الكعبَةِ، فَأَجابَهُ جَمْعٌ من قَوْمِهِ وَمِنْ غيرهم، فَقَاتَلوا أبرَهَةَ وَجَيْشَهُ، لكِنَّهُمْ هُزِمُوا، وَأُسِرَ «ذُو نَفر» واسْتَصْحَبَهُ أَبْرَهَةُ معه.

وسَارَ أَبْرَهَةُ بِجَيْشِهِ، فاعْتَرَضَهُ نُفَيْلُ بن حَبِيب الْخثْعَمِيُّ في قَوْمِهِ، فقاتلُوهُ، فَهزَمَهُمْ أَبْرَهَةُ، وأُسِرَ نُفَيْلُ بن حَبِيب، واسْتَصْحَبَهُ أَبْرَهَةُ مَعَهُ، ليكُونَ دَلِيلَهُ فِي بِلَادِ الْحِجاز.

ولَمَّا اقْتَرَبَ مِنْ أَرْضِ الطَّائِفِ خَرَجَتْ إِلَيْهِ ثَقِيفٌ، فَصَانَعُوهُ، وبَعَثُوا مَعَهُ «أَبَا رِغال» دَليلاً إِلَىٰ مَكَّة، فَلَمَّا وَصَلُوا «الْمُغَمِّس» وَهُو مَكانٌ قريبٌ مِنْ مَكَّة مَاتَ «أبو رغال» فَدُفِنَ هُنَاكَ، فصارَتِ الْعَربُ تَرْجُمُ قَبْرَهُ بَعْد ذلِكَ.

وبعثَ «أَبْرَهَةُ» رَجُلاً من الحبشَةِ، يُقال له: «الأَسْوَدُ بْنُ مقصود» في خيْلٍ له، حتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ مكَّة، فسَاقَ إِلَيْهِ أَمْوَالَ أَهْلِ تِهامَةَ، مِنْ قُرَيشٍ وغَيْرِهِمْ، وأَصَابَ فيها مِئَتَيْ بَعِيرٍ لِعَبْدِ المطَّلِبِ بن هاشم، وهُوَ يَوْمَئِذٍ كَبيرُ قُرَيشٍ وَسَيِّدُها.

فهَمَّتْ قُرَيشُ، وكِنَانَةُ، وهُذَيلٌ، وَمَنْ كانَ بمكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا من سائر النّاس بقتالِهِ، ثُمَّ عَرَفُوا أَنَّهُمْ لاَ طاقَةَ لَهُمْ بِهِ، فَأَحْجَمُوا عن ذَلِكَ.

وبعث «أَبْرَهَةُ الأَشْرَمُ» رَسُولاً إِلَىٰ مكَّة يُقَالُ لَهُ: «حُناطَةُ الحِمْيَرِيّ» وقال له: سَلْ عَنْ سَيِّدِ أَهْلِ هٰذَا الْبَلَد وشَرِيفِها، ثُمَّ قُلْ له: إِنَّ الْمَلِكَ يَقُولُ لَكَ: إِنِّي لَمْ آتِ لحِرْبكُمْ، وَإِنَّمَا جِئْتُ لهَدْمِ هٰذا البيْتِ، فإِنْ لَمْ تَعْرِضُوا دُونَهُ بحَرْبٍ فَلاَ حَاجَةَ لِي بدمائِكُمْ، فإِنْ هُوَ لَمْ يُرِدْ حَرْبِي فأْتِنِي بِه.

فلمَّا دَخل «حُنَاطَةُ الحِمْيَرِيُّ» مكَّة، سألَ عن سَيِّدِ قُرَيشٍ وشَرِيفها، فقِيلَ لَهُ: «عَبْدُ المطَّلِبِ بن هاشم».

فجاءَهُ، فقال لَهُ ما أَمَرَهُ بِهِ أَبْرَهَةُ، فقالَ له عبد المطَّلب: واللَّهِ مَا نُرِيدُ حَرْبَهُ، وَمَا لَنَا بذلِكَ من طاقة، هذا بيْتُ اللَّهِ الحرام، وبَيْتُ خَلِيلِه إِبْرَاهيم عليه السلام، فَإِنْ يَمْنَعْهُ مِنْهُ فهُو بيتُه وحَرَمُه، وَإِنْ يُخَلِّ بيْنَه وَبَيْنَهُ، فواللَّهِ مَا عِنْدَنَا دَفْعٌ عَنْه.

فقال له «حُنَاطَةُ الحِمْيَرِي»: فانْطَلِقْ مَعِي إِلَيْه، فإِنَّهُ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ آتِيَهُ بك.

فانْطَلَق معَهُ عبد المطَّلب، ومَعَه بعْضُ بَنِيهِ، حَتَّىٰ أَتَى الْمُعَسْكر، فسأَل عن «ذي نفر» وَكان له صَدِيقاً، حتَّىٰ دَخَلَ علَيْه وهُوَ في مَحْبِسِه، فقالَ له: يا ذا نَفر، هَلْ عِنْدَكَ مِنْ غَنَاءٍ فيما نزَل بنا؟.

فقال له «ذُو نفر»: وَمَا غَنَاءُ رَجُلٍ أَسيرِ بِيَدَيْ مَلِكٍ يَنْتَظِرُ أَنْ يَقْتُلَهُ غُدُوّاً أَوْ عَشِيّاً، مَا عندنا مِنْ غَنَاءٍ في شَيْءٍ ممَّا نزَلَ بكَ، إلاَّ أَنَّ «أُنَيْساً» سَائِسَ الْفِيلِ صَدِيقٌ لِي، وَسَأُرْسِلُ إلَيْهِ فَأُوصِيهِ بكَ، وَأُعَظِّمُ عَلَيْهِ حقَّكَ، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَأْذِنَ لَكَ علَىٰ الْمَلِكِ، فَتُكَلِّمَهُ بما بَدَا لك، وَيَشْفَعَ لكَ عندَهُ بخَيْرٍ إن قَدَرَ على ذلِك.

فقال «عبْدُ المطَّلب»: حسْبِي.

فبعَثَ «ذُو نَفَر» إلَىٰ «أُنَيْس» فقال له: إنَّ عَبْدَ المطَّلب سَيِّدُ قُرَيشٍ، وصَاحِبُ عِيرِ مَكَّة، يُطْعِمُ النَّاسَ بالسَّهْلِ، والْوُحُوشَ في رُؤُوسِ الجِبَال، وقَدْ أَصَابَ لَهُ الملِكُ مِئَتَيْ بَعيرٍ، فاسْتَأْذِنْ لَهُ عَلَيْهِ، وانْفَعْهُ عِنْدَهُ بما اسْتَطعْتَ.

فقال «أُنَيسُ»: أَفْعَلُ. فكلَّمَ أُنَيْسُ «أَبْرَهَة» كمَا أوصَاهُ «ذُو نَفر» فَأَذِنَ أَبْرَهَةُ لِعَبْدِ المطَّلب.

وكان «عبد المطلب» أوسَمَ النّاس، وأَجْمَلَهُم، وأعظمهم، فلمَّا رَآهُ «أبرهة» أجلة وأَعْظَمَهُ وَأَكْرَمَهُ عَنْ أنْ يُجْلِسَهُ تَحْته، وَكَرِهَ أنْ تَرَاهُ الحبشَةُ يَجْلِسُ معَهُ على سَرِيرِ مُلْكِهِ، فنَزَلَ عن سَرِيرِهِ، فجلَسَ علَىٰ بِسَاطِهِ، وَأَجْلَسَهُ معَهُ علَيْهِ إلَىٰ جنْبِهِ، ثُمَّ قَالَ لتَرْجُمانِهِ: قُلْ له ما حَاجَتُك؟

فقال «عبد المطَّلب»: حاجتي أنْ يَرُدَّ علَيَّ الملِكُ مِئَتَيْ بَعِيرٍ أَصَابَهَا لي.

فلمَّا قال له ذلك قال «أَبْرَهَة» لتَرْجمانه: قل له: قَدْ كنْتَ أعجبتني حين رَأَيْتُكَ، ثُمَّ قَدْ زَهِدْتُ فِيك حِينَ كلَّمْتَنِي، أَتُكلِّمُنِي فِي مِئَتَيْ بَعِيرٍ أَصَبْتُهَا لَكَ، وتَتْرُكُ بيْتاً هو دينُك وَدِين آبائِكَ، قَدْ جئْتُ لهَدْمِهِ لا تُكَلِّمُنِي فِيه؟!

قال له «عبد المطَّلب»: إنِي أَنَا رَبُّ الإِبلِ، وإنَّ للبيْتِ رَبّاً سيَمْنَعُه.

قال «أَبْرَهَةُ»: ما كان لِيَمْتَنِعَ مِنِّي.

قال «عبد المطّلب»: أَنْتَ وَذَاكَ.

فَرَدَّ «أَبْرَهَةُ» على «عَبْدُ المطَّلب» الإِبلَ الّتي أصابها له.

وانصَرَفَ «عبد المطّلب» إِلَى قُرَيشٍ، فأَخْبَرَهُمُ الْخَبَرَ، وَأَمَرَهُمْ بالخروج مِنْ مَكَّةَ، والتحرُّزِ فِي شَعفِ الْجِبَالِ (أي: في رُؤُوسِها) وَفي الشّعاب.

ثُمَّ قام «عبد المطّلب» فأخذ بحَلْقَةِ باب الكعبَة وقام مَعَهُ نَفرٌ مِنْ قُريشٍ، يدْعُونَ اللَّهَ وَيَستَنصِرُونه على أَبْرَهَة وجُنْدِهِ، وقال «عبد المطّلب» وهو آخِذٌ بحَلْقَةِ بَاب الكَعْبَة:

لاَ هُمَّ إِنَّ الْعَبْدَ يَمْنَعُ رَحْلَهُ فَامْنَعْ حِلاَلَكْ

لاَ يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ. وَمِحَالُهُمْ غَدْواً مِحَالَكْ

إِنْ كُنْتَ تَارِكَهُمْ وَقِبْلَتَنَا فَأَمْرٌ ما بَدَا لَكَ

ثمَّ انْطَلَقَ «عبد المطّلب» هو ومَنْ مَعَهُ مِنْ قُرَيشٍ إِلَىٰ شَعَفِ الجِبَالِ، فَتَحَرَّزُوا فيهَا، يَنْتَظِرُونَ مَاذَا يكون مَن أَحْدَاث.

فلمَّا أصْبَحَ «أبْرَهَةُ» تهيّأ لِدُخُولِ مكَّةَ، وأعَدَّ عُدَّته، وأمَرَ جيشَهُ بالتوجُّه شطر مكَّة.

فبَرَكَ الفيل، ورفَضَ التوجُّهَ لمكَّة، فضرَبُوهُ، وأرادُوا إِلْجَاءَه، فأبَى وامْتَنَع عليهم. فوجَّهُوهُ راجعاً إلى الْيَمَنِ فَقَامَ يهرولُ، ووجّهوه شطر الشّام وشطر المشرق ففعل مِثْلَ ذَلِكَ مُطَاوِعاً، ووجَّهُوهُ شَطْرَ مكَّةَ فبَرَكَ.

فأرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طيْراً أَبَابيل، ترمِيهِمْ بحجارة مِن سِجّيل، لا تُصِيبُ أحداً إلاَّ هلَكَ، ولَيْسَ كُلَّهُمْ أصَابَتْ.

وخرجوا هاربين يتبادرون الطّريقَ الذي جاءوا منه، ويتساقطون بكلّ طريق، ويَهْلِكُونَ بكلِّ مَهْلِكٍ وعلى كلِّ منْهَلٍ.

وأُصِيبَ «أَبْرَهَةُ» في جَسَدِهِ، وخَرَجَ بِهِ بَعْضُ جُنْدِهِ يحملونه معهم، وصارَتْ أَنامِلُه تَسقُطُ أنملةً فأنملة، حتَّى قَدِمُوا به صَنْعاءَ فماتَ فيها.

قالوا: إنَّ أوّلَ مَا رُئِيَتِ الْحَصْبَةُ والْجُدَرِيُّ بأَرْضِ الْعَرَبِ كان في ذلِكَ العام.

وقد وُلِدَ سيّدُنَا محمَّد ﷺ عامَ حَادِثَةِ الفيل، وكان نزول سُورَةِ (الفيل) في الرُّبْعِ الأَوَّل من تاريخ سيرته المكيَّة، لأنَّها السورة (١٩) بحسَبِ ترْتيب النزول.

(٥)
التدبّر التحليلي لآيات السورة

تمهيد:

أوجز الله عزّ وجلّ قِصَّةَ أصحاب الفيل بذكْرِ عنوانات عناصِرها الكبرى، وهي أربعة:

العنوانُ الأوّل العام: ما فعل الله بأصحاب الفيل، وفي هذا إشارةٌ إلى مَقْدَمهم إلى مكة بجيشٍ، بُغْيَةَ هَدْمِ الكعْبَةِ، بيْتِ اللّهِ الحرام.

فذِكْرُ أصحاب الفيل وما فعل الله بهم كافٍ في الإشارة إلي ذلك. لأنَّ قصَّتهُمْ مَعْرُوفَةٌ لدَىٰ العرب إبَّانَ التنزيل.

العنوان الثاني: أَنَّهُمْ دَبَّرُوا كيْداً، فجَمَعُوا جيشاً وسِلاحاً وأَعْتِدَة، وقَدِمُوا من اليَمَنِ مجتازين عقابتِ خُصُومهم من العرب المعظمين للبيت الحرام. والّذين يحجُّونَ إليه اتّباعاً لما بقي لدَيْهم من ميراث الدّينِ الذي ورثوهُ عن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السّلام، فجعل اللّهُ كيْدَهُمْ فِي تضليل، أي: في ضياعٍ وباطِلٍ وهَلاَكٍ، فضَيَّع أَسْبَابَهُمْ، وأبْطَل وسائلهم، وأهلَكَهُمْ.

العنوان الثالث: أنَّ وَسِيلَةَ إهْلاَكِهِمْ وَتَعْذِيبِهِمْ، قَدْ كَانَتْ بإرْسال جماعاتٍ مِنَ الطَّيْر، تَحْمِلُ بأَرْجُلِهَا وَمَنَاقِيرِهَا حِجَارَةً مِنْ سِجّيلٍ، أي: حجارة أَصْلُها طِينٌ تحجَّر، ورُبَّمَا كَان تَحجُّرُها بتأثيرِ نَارٍ جعَلَتْهَا صُلْبَةً قَاسيَةً.

العنوان الرابع: أنَّ عَاقِبَتَهُمْ فِي الدُّنيا قَدْ كَانَتْ عَذَاباً وَهَلاَكاً، صاروا فيه كعَصْفٍ مَأْكُول، وهذا التشبيه يَدُلُّ عَلىٰ أَنَّهُمْ صَارُوا على أصناف ثلاثة:

- فصِنْفٌ منهم تَفَسَّخَ وَأنْتَن، وتحوَّل حتَّىٰ صَارَ كَرَوْثِ الدَّوابّ.
- وصِنفٌ تَجَمَّعَ مُتَحَطّماً، متداخِلاً بعْضُه في بَعْض، كالْحَشِيش والزَّرْع الذي أكَلَتِ الدَّوَابُّ ما استطابَتْ منه، ورَمَتْ سائرَهُ، فداسَتْهُ، ومَرَّتْ عَلَيْهِ ذَهَاباً وعَوْداً.
- وصُنْفٌ كالأعواد التقَطَتْ مِنْها الدَّوابُّ الأَوْراق الصّالحةَ لِلأَكْلِ، فارتمتِ الأَعْوادُ مُتَنَاثِرَةً هُنَا وهُنَاكَ وَهُنَالِكَ.

التدبّر التحليليّ للآيات

- قوْلُ الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ①﴾؟

تكرّر في القرآن الكريم استعمالُ هذا الأسلوب الاستفهاميّ الموجَّهِ على سبيل الخطاب الإفرادِيّ، لكلّ مُفْرَدٍ صَالح للخطاب، حتَّىٰ يشْعُرَ بأن اللَّهَ عزَّ وجلَّ يُحادِثُهُ حَدِيثاً مُوَجّهاً لَهُ، بُغيَةَ تحميله مسؤليته تُجاه مضمون الخطاب بصورَةٍ فَرْدِيَّة.

والاستفهام في عبارةِ ﴿أَلَمْ تَرَ ؟﴾ ليس على حقيقته لطلَب الإخبار عن عَدَمِ الرؤيَة، بل هو مُسْتَعْمَلٌ مجازاً لِأَغراضٍ أُخرَىٰ، ويَصْلُحُ مِنْ هٰذِهِ الأغراض هُنَا ما يلي:

(١) التَّقْرِيرُ، بحَمْلِ المخاطَب علي الإقرار بأنَّهُ رأَىٰ رأيَ عِلْمٍ.

(٢) توجيه النظر الفكريّ للمستَفْهَم عنهُ، بغية إحضاره في الذهن، والاعتبار والاتعاظ به.

وجواب الاستفهام عن عدم الرؤية يكون بلفظ «نعم» إذا لم تحدُثِ الرؤية، وبلفظ «بلَى» إذا كانت الرُّؤْية واقعة فعْلاً.

وعلى أنّهُ استفهام تقريريٌّ يُرادُ به الإقرارُ بحُدوث الرُّؤية فالمعنى: قد رأيْتَ أيُّها الرائي عن طريق الشهودِ البصري، أو عَنْ طريقِ العِلم اليقيني الخبريّ، المماثل للرُّؤيَةِ البصريَّةِ، كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بأصْحَابِ الفيلِ، مِن تَعْذِيبِ وإهْلاكٍ، فاعتَبِرْ بهذا الحدَثِ التاريخيّ، المتَضَمِّن سُنَّةً من سُنَنِ اللَّهِ في عباده، واحْذَرْ مُعَجَّل عِقَابِ اللَّهِ عزّ وجلَّ، إنْ كنتَ مِنَ مُكَذِّبي الرَّسُول وبما جاء به.

أمَّا إنْ كنتَ من المؤمنين به وبما جَاءَ بِهِ فَاطْمَئِنَّ لنَصْرِ اللَّهِ لَهُ، على أعدائه وخُصُومه.

﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾: كَيْفَ: مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ في محلِّ نِصْبٍ، وفعْلُهُ ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾ والمعنَى: أَلَمْ تَرَ فِعْلَ رَبّكَ بأصْحَابِ الْفِيلِ فِعلاً ذَا حَالَةٍ رهيبَةٍ فيها اعتبارٌ وعِظَةٌ، وذا كَيْفِيَّةٍ عَجِيبَةٍ سُخِّرَت فيها جماعاتٌ من الطير.

﴿بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾: هُمْ أبْرَهَةُ الحبشيّ وَجَيْشُهُ مِنَ الْحُبْشَان، أصل الصاحب المرافق الملازم، ويكَنَّى بهذا اللّفظ عَنْ كلِّ مُقْتَرِنِ بشَيْءٍ يتَمَيَّزُ بِهِ، فيقالُ: صاحب الراية، وصاحب العِمَامةِ الخضراء، وصاحِبُ الثَّوْبِ الأبيض. ويُسْتَعْمَلُ الجمع، فيقالُ مثلاً: أصْحَابُ النار، وأصْحَابُ الجنَّة، وأصْحَابُ الجَملِ، وأصحابُ الفتنة.

- قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾

الاستفهامُ في هذه الآية الثانية من السّورة نظير الاستفهام الذي جاء في الآية الأولى منها.

والمعنى: إنَّكَ تَعْلَمُ أيُّها المخاطَبُ المعاصِرُ لتنزيل السورة، أَوْ مِنَ الْيَسِير جدّاً عليك أَنْ تَعْلَمَ من مُشَاهِدِي إهلاك أصْحَاب الفيل من أهل مكة وما حولها، أنَّ كَيْدَ أصْحَابِ الفيل الّذي كادُوهُ لِهَدْم الكَعْبَةِ وتَحْوِيل حجِّ العربِ عَنْها إلى الكنيسة «الْقُلَّيْسِ» قد جَعَلَهُ رَبُّكَ في ضياعٍ وهلاك، إذْ قَدِمُوا بِجَيْشٍ كَبِيرٍ مُزَوَّدٍ بأسْلِحَةِ الْحَرب وأَعْتِدَتِها، يتَقَدَّمُ مَسِيرَتَهُمْ فِيلٌ ضَخْمٌ، وقَدْ هَزَمُوا مَنْ أرادَ أَنْ يَصُدَّهُمْ عَنِ البيْتِ من قبائل العرب، ولَمْ يَكُنْ لدَىٰ أهْلِ الحرَم المكيّ قُدْرَةٌ علَىٰ صَدِّهِ.

كَيْدُهُمْ: هو كُلُّ ما دَبَّروهُ وأَعَدُّوه، مِنْ خطَطٍ ووَسَائِلَ وأَعْمَالٍ وجَيْشٍ لا قِبَلَ لقبائل العرب به، بغْيَةَ هَدْمِ الكَعْبَةِ بَيْتِ اللَّهِ الحرام، وتَحْوِيلِ العرب عن الحجّ إليه.

في تَضْلِيلٍ: أي: في مُحِيطٍ مِنَ الضَّيَاعِ والْهَلاَكِ والتبدِيدِ والتشتيت.

تقول العرب: ضَلَّلَهُ إذَا ضَيَّعَ مَسْعَاهُ. وأَفْسَدَ تَدْبيرَه وأهلكَهُ، وشَتَّتَ شَمْلَهُ، وفرَّقَ جمْعَهُ.

● قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ﴿٤﴾﴾.

أي: وإنَّكَ تَعْلَمُ أَيُّها المخاطَبُ، أَنَّ رَبَّكَ أَرْسَلَ على أصْحابِ الفيلِ، جُنْداً مِنْ جُنْدِهِ الّتي لا يُحْصِيهَا إلاَّ هو، وكانَتْ يَوْمَئِذٍ جَماعَاتٍ مُتَلاحِقَاتٍ مِنْ أَصْنَافِ الطَّيْرِ، تَحْمِلُ بأَرْجُلِهَا وَمَنَاقِيرها حِجَارَةً مِنْ سِجّيلٍ، أي: مِنْ طينٍ مُتحجّرٍ مُتَصَلِّبٍ، لَهُ خَصَائِصُ وَبَائِيَّةٌ تُهْلِكُ أَوْ تُعَذِّبُ مَنْ أَصَابَهُ شَيْءٌ مِنْهَا، وقَدْ غَطَّتْ سَمَاءَ الجيش كالسَّحاب.

أَبَابِيل: أي: جماعات متلاحقات متتابعات من صِنْفٍ من أصناف الطير.

تَرْمِيهِمْ: أي: تُلْقِي عَلَيْهِمْ، أَوْ تَقْذِفُهُمْ، فالرَّمْي يأتي بمعنى إلْقاءِ شيءٍ عَلى شيءٍ، وَيأْتِي بمعنى قَذْفِ شَيْءٍ عَلى شَيْءٍ.

● قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾

أي: فجعلَهُمْ رَبُّكَ الّذِي هو رَبُّهُم وَرَبُّ كلّ شَيْءٍ كَعصْفٍ مَأكول.

عرفنا أنَّ الْعَصْفَ في اللُّغةِ هو ما تأكلُه الأنعام والدّوابُّ من نباتات الأَرض.

إنّ تَشْبيةَ جَيْش «أَبْرَهَةَ» بَعْدَ إِنْزَالِ العذَابِ والإِهْلاَكِ فِيهِ، بالعصْفِ المأكُولِ، يُقَدِّمُ لِفِكْرِ المتَدَبّرِ صُوَراً مُتَعَدِّدَة، على الرُّغْمِ مِنَ الإيجاز الشَّدِيدِ في العبارةِ القُرْآنيّة.

فالْعَصْفُ المأكُولُ، مِنْهُ مَا تبتَعِلُهُ الآكَلاتُ من الأَنْعَامِ والدَّواب، ومِنْهُ مَا تأْكُلُ مِنْهُ شَيْئاً وتَدُوسُ الباقي، ومِنْهُ مَا تَأْكُلُ أَوْراقَهُ وتَتْرُكُ أَعْوَادَهُ وقُضْبَانَهُ، وكلٌّ مِنَ المأكُولِ والمترُوك يُقَالُ له بَعُمِوم العبارَةِ: عَصْفٌ مَأْكُول، على معنَى: مأكُولٌ كُلُّهُ، ومأكُولٌ بَعْضُهُ دُونَ سَائِرِه.

فالْعَصْفُ المأكُولُ أقسامٌ ثَلاثَةٌ: قِسْمٌ هُضِمَ وتَحوَّلَ رَوْثاً، وقِسْمٌ دَاسَتِ الدَّوَابُّ عَلَيْهِ، فَتَقَذَّرَ قُمَامَات، وقِسْمٌ أُكِلَتْ أَوْرَاقُهُ وبَقِيَتْ أَعْوادُهُ وقُضْبَانُهُ حَطَباً ووقُوداً.

وكَذَلِكَ صَارَ أصحاب الفيل أقساماً.

● فقِسْمٌ مِنْهُمْ تَفَسَّخَ وأنْتَنَ، وتحوَّلَ حتَّى صَارَ مِثْلَ رَوْثِ الدَّوَابّ والأَنْعَام.

● وقسْمٌ مِنهُمْ تَجَمَّعَ مُتَحطِّماً مُتَدَاخِلاً بعْضُهُ بِبَعْضٍ، كالْحَشِيشِ والزَّرْعِ الّذِي أَكَلَتِ الدّوابُّ والأنْعَامُ ما اسْتَطَابَتْ مِنْهُ، ورَمَتْ مَا لَمْ تسْتِطبْهُ، فَدَاسَتْهُ وَمَرَّتْ عَلَيْهِ ذَهَاباً وعَوْداً، وصَارَ قُمَامَةً مِنَ الْقُمَامَاتِ المسْتَقْذَرَة.

● وقِسْمٌ مِنهُمْ مُتَنَاثِرٌ هُنَا وهُنَاكَ وهُنَالِكَ، كالأعْوَادِ والْقُضبان التي الْتَقَطَتْ منها الأنعام والدّواب الأوراقَ الصالحةَ للأكْلِ مِنْهَا، وارْتَمَتِ الأعواد والقضبان مُتَنَاثِرَة.

فما أَبْدَع هذا التَّشبيهَ الجامع المتحلّيَ بالصّدْق الفنّي، المطابقِ بفَنِّيَّةٍ رائعَةٍ للواقع.

وتمّ بحمد الله تدبُّر سورة (الفيل).



سُورَتا الفَلَق والنّاس

سُورة الفَلَق ١١٣ مُصحف ٢٠ نزول

سُورة النّاس ١١٤ مُصحف ٢١ نزول

(١)

نص السورتين

سورة الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾.

سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ .

(٢)
ممّا ورَدَ بشأن هاتين السورتين

(١) أخرج مُسْلمٌ والترمذيّ والنسائي وغيرهم عن عقبة بن عامرٍ، قال: قال رسول الله ﷺ:

«أُنزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَاتٌ لم أرَ مِثْلَهُنَّ قَطُّ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ①﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ①﴾».

(٢) وأخرج ابْنُ الضَّرِيس، وابْنُ الأنباريّ، والحاكم وصحَّحه، وابْنُ مَرْدَوَيْهِ في الشُّعَب، عَنْ عُقْبَةَ بن عَامِر، قَالَ: قُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ أَقْرِئْنِي سُورَةَ (يوسف) وسُورَةَ (هود) قال:

«يَا عُقْبَةُ اِقْرَأْ بِقُلْ أعُوذُ بِرَبّ الْفَلَقِ، فإنَّكَ لَنْ تَقْرَأَ سُورَةً أَحَبَّ إِلَىٰ اللَّهِ، وأَبْلَغَ مِنْهَا فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لاَ تَفُوتَكَ فَافْعَلْ».

أي: في موضوع الاستعاذَةِ باللَّهِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ اللَّهُ في كوْنِهِ.

(٣) وأخرج ابْنُ سَعْدٍ والنَّسَائِيُّ والْبَغَوِيُّ والْبَيْهَقِيُّ عَنْ أَبي حَابسٍ الْجُهَنِيّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَال:

«يَا أَبَا حَابِسٍ، أَلاَ أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ مَا تَعَوَّذَ بِهِ الْمُتَعَوِّذُونَ؟»

قَالَ: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قال:

«﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ①﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ①﴾ هُمَا الْمُعَوِّذَتَانِ».

(٤) وأَخْرَجَ الترمذيُّ وحسَّنَهُ، وابْنُ مَرْدَوَيْهِ، والْبَيْهَقيُّ عن أبي سَعيدٍ الْخُدَرِيّ قال:

«كان رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ عَيْنِ الْجَانِّ وَمِنْ عَيْنِ الإِنْسِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ سُورَتَا الْمَعَوِّذَتَيْنِ أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَىٰ ذَلِكَ».

(٥) وأخرج النَّسَائي، وابْنُ الضّرِيس، وابْنُ حبَّانَ فِي صحيحه، وابْنُ الأنباريّ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عبد اللَّهِ رضي الله عنه قال:

«أَخَذَ بِمَنْكِبِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَال: اِقْرَأْ. قُلْتُ: مَا أَقْرَأُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمّي؟. قَال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ ثُمَّ قَال: اِقْرَأْ. قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وأُمّي، مَا أَقْرَأُ؟. قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ وَلَمْ تَقْرَأْ بِمِثْلِهِمَا».

أي: في مَوْضوعِ الاسْتِعَاذَةِ باللَّهِ مِنْ شَرِّ ما خَلَق، ومِنْ شَرِّ وَسَاوِسِ شَيَاطِينِ الجِنِّ والإنْسِ.

(٦) وَأَخْرَجَ مَالِكٌ في الْمُوَطَّأ، عن ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأَخْرَجَهُ البخاريُّ ومُسْلِمٌ فِي صحيحيهما من طريقِ مالِكٍ بالإسنادِ نفسه:

«أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَىٰ يَقْرَأُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ وَيَنْفُثُ، فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ وأَمْسَحُ بِيَدِهِ عَلَيْهِ، رَجَاءَ بَرَكَتِهِمَا».

اشْتَكَىٰ: أي: مَرِضَ، أو تَوَجَّعَ ممّا نَزَلَ به مِنْ مَرَضٍ.

(٧) وأخرج الطَّبَرَانِيُّ فِي الصَّغِير، عَنْ عَلِيّ بْنِ أبي طَالِبٍ رضي اللَّهُ عَنْهُ قالَ:

«لَدَغَتِ النَّبِيَّ ﷺ عَقْرَبٌ وهُوَ يُصَلِّي، فلَمَّا فَرَغَ قَالَ: لَعَنَ اللَّهُ العَقْرَبَ لاَ تَدَعُ مُصَلِّياً وَلاَ غَيْرَهُ، ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ ومِلْحٍ، وجَعَلَ يَمْسَحُ عَلَيْهَا وَيَقْرَأُ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾».

(٨) وأخرج عبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ في مُسْنَدِهِ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قالَ:

«سَحَرَ النَّبيَّ ﷺ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، فاشْتَكَىٰ، فَأَتَاهُ جِبْريلُ، فَنَزَلَ عَلَيْهِ

بالْمَعَوِّذَتَيْنِ، وقَالَ: إنَّ رَجُلاً مِنَ الْيَهُودِ سَحَرَكَ، والسِّحْرُ في بِئرِ فُلاَنٍ، فَأرْسَلَ عَلِيّاً، فَجَاءَهُ به، فَأمَرَهُ أنْ يَحُلَّ الْعُقَدَ، وَيَقْرَأَ آيَةً ويَحُلَّ، حَتَّىٰ قَامَ النَّبيُّ ﷺ كأنَّما نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ».

ورُوي نظيره عن عائشة، وعن ابْنِ عبَّاس.

(٣)
موضوع سُورتي الفلق والناس

يَدُورُ مَوْضوع سُورَتي الفلق والناس، حَوْلَ تعليم المؤمنينَ الْمُسْلِمين الاسْتِعَاذَةَ باللَّهِ مِنْ شِرِّ كلِّ ذِي شَرٍّ ممَّا خَلَقَ اللَّهُ فِي كوْنِهِ، ومِنْ شَرِّ وَسَاوِسِ الْجِنِّ والإِنْسِ الّذِين يُوَسْوِسُونَ فِي صُدُورِ النَّاسِ، بِالتَّحْرِيضِ على مغْصِية اللَّهِ ورسُولِهِ، وارْتِكَابِ الآثام، مِنْ دَرَكَةِ الصَّغائر، حتَّىٰ دَرَكَةِ أقْبَحِ الجرائِمِ الّتِي تَجْعَلُ مُرْتَكِبيهَا فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ.

(٤)
بيان حول كلمة (قل) ودَفْعٌ لشبهة بعض المتَحَذْلقين

جاء في بدْءِ سُورَتي الفلق والناس، وسُورَتَي الإخلاص والكافِرُون، كَلِمَةُ ﴿قل﴾ تَعليماً لكُلِّ مُؤْمِنٍ مُسْلِمٍ أَنْ يَقُولَ مَا جَاءَ بَعْدَ كلمة: ﴿قل﴾.

وهذا الأمْرُ التّعليميُّ في القرآنِ هُوَ جُزْءٌ مِنَ السُّورِ الّتي جَاءَ فيها، فَلاَ تَتِمُّ السُّورَةُ القرآنِيَّةُ إلاَّ بذِكْرِه، لدَىٰ تلاوَتِهَا قُرْآناً.

أمَّا مَنْ أرَادَ أنْ يُحقِّقَ المأمُورَ بِهِ بكَلِمَةِ ﴿قل﴾ دُونَ أنْ يَلْتَزِمَ تلاَوَةَ قُرْآنٍ مُنَزَّلٍ، فلَهُ وَجْهَان:

الْوَجْهُ الأول: أنْ يتْلُو السُّورَة القرآنِيَّة كامِلَةً، مَعَ كلمة ﴿قل﴾ فيها، ويَنْوِيَ أوْ يَقْصِدَ مَا جَاءَ بَعْدَ كَلِمَة ﴿قل﴾.

الوجه الثاني: أنْ يَحْذِفَ كَلِمَةَ ﴿قل﴾ قاصِداً امْتِثَالَ الأَمْرِ، بِتَحْقيق المأمُورِ به.

لكِنَّهُ إذا أرَادَ أَنْ يَتْلُوَ السُورَة فَعَلَيْهِ أَنْ يَتْلُوَهَا كمَا أَنْزَلَهَا اللّهُ.

ويتَحَذْلَقُ بَعْضُ المتحذْلِقِينَ، وَيتنَطَّعُ مُتفلْسفاً على كِتَابِ اللّهِ عزّ وجلّ فيَقُول: ما معنى أنْ نَقُولَ في السُّوَرِ المبْدُوءة بـ(قل): ﴿قل﴾. واللّهُ قَدْ أَمَرَ بأنْ نقُولَ مَا جَاءَ بَعْدَ كَلِمَة ﴿قل﴾ وكانَ يَنْبَغِي أَنْ نَتْلُوَ مباشَرَةً ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ و﴿الله أحد﴾ و﴿يَٰأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

وجوابُ هٰذا الْمُتَحَذْلِق المتنطّع أَنْ نَقُولَ لَهُ: إنّ كلمة ﴿قل﴾ في هٰذِهِ السُّوَر هِيَ جزءٌ من كلٍّ منها، ولو حذَفْنَاهَا لم نعلَمْ أنَّ الله يأمُرنا في كتابه على الدّوام بأن نُحقّقَ المطلوب بهذا الأمر. ولو أسْقَطْنَا كلمة ﴿قل﴾ عند التلاوة فإنّنا لا نكونُ قد تَلَوْنا السّورة كاملة، بل ناقصة كَلِمَةَ ﴿قل﴾ ونحْنُ نعلَمُ أنَّ القرآن يُتَعَبَّدُ بتلاوته كما أُنزل،، فلَيْس مِنْ حقّنا أنْ نحذِفَ أيَّ حَرْفٍ أَوْ كلمةٍ منه لدى تلاوته، ونحْنُ عالمون، عامدون لأنّه من التحريف في كتاب الله، حتَّىٰ مَا جَاءَ في أوائِل السُّوَرِ من الحروف المقطّعة التي نقول بشأنها: الله أعلم بمراده، مثل: (ن) و(ق) و(صٓ).

لكنْ إذا أرَدْنا أنْ نحقّق المطلوبَ بما أمَرَنا الله به بكلمة ﴿قل﴾ دون أن نَقْصِدَ تلاوة السورة فلا مانع من حذف كلمة ﴿قل﴾. وخيرٌ من ذلِكَ تلاوة السورة كاملة مع نيّة تَحْقِيقِ المطلوب.

إنّ آيات القرآن المجيدِ دُسْتُورٌ تعليميٌّ للناس في كلِّ عصورهم، وفي كلِّ أحوالهم، وهذا الدستور لا بُدَّ أنْ يبقىٰ كلُّ أمْرٍ فيه عَلَىٰ وجْهِه كمَا أُنزِلَ، وكذلِكَ كُلُّ نَهْيٍ، وكُلُّ اسْتِفْهامٍ، وكلُّ خبرٍ، وكُلُّ حرْفٍ وكلمة.

ومادّة الدستور يجب أن تُقرأ كما هي في صُلْبِه، ولو كانت مبدوءَةً برقْمٍ أو بحَرْف، وهَذا ما يلتزم به القانونيّون في القوانين والدَّسَاتير، وأيُّ تغييرٍ يعتبرونه تحريفاً وتزييفاً في عُرْفِهم، فما بالُ المُتَحَذْلق يتفاصح على كتاب الله عزّ وجلّ بحماقة أو بغير علم، أو بمكرٍ وكَيْدٍ.

ولتحصيل الفائدة ممّا أمَرَنا الله عزّ وجل به في كلمة ﴿قل﴾ لا بُدَّ من ملاحظة المعنى الإجمالي للألفاظ التي اشتمل عليها النَّص، وإلاَّ اقتصر الأمْرُ على كون ما نتلفّظ به تلاوةً قرآنيّة مأجورة على كُلِّ حرْفٍ بعَشْرِ حسَنات، فمجرّد الترديد للألْفَاظِ دون ملاحظة المعاني لا يُحقّق المطلوب.

(٥)
التَّدبُّر التحليلي لآيات سورة الفلق

● قول الله عَزَّ وجلّ:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾

﴿قل﴾: فعْلُ أمْرٍ مُوجَّهٌ لكلّ مَنْ يَصْلُح للخطاب بصورة إفراديةٍ من المؤمنين المسلمين، وأوّلُهُمْ محمَّدٌ رسُول اللَّهِ ﷺ.

﴿أَعُوذُ﴾ أي: ألُوذُ وأعْتَصِمُ مُلْتَجئاً طالباً الحمايَةَ والوقاية.

يقال لغة: عَاذَ بِهِ يَعُوذُ عَوْذاً وَعياذاً ومَعَاذاً، إذا لاَذَ به واعتصم، ولجأ إليه طالباً حمايتَهُ ووقايتَهُ.

ويُقَالُ: معَاذَ اللَّهِ، أي: عياذاً بالله.

﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾: الرَّبُّ هو السيّد، والمالِكُ، والخالق وَفْق سُنَّةِ الإنْشاءِ المتدرّج شيئاً فشيئاً حتَّى إبْلاغ المخلوق درجة كماله، والمحيي والمميت والمغني، والمتصرّف بمخلوقاتِهِ على ما يشاءُ زيادةً ونقصاً، وبناءً وهَدْماً، وإيجاداً وإعداماً.

وسُنَّة الإنشاء المتدرّج هِيَ سُنَّةُ الخالق في الخلْقِ، فهو ربُّ الْعَالَمِينَ (العالمون: هم ما سِوَىٰ الله عزّ وجَلّ) وهو ربُّ الْفَلَق.

الفلَقُ: يُطْلَقُ في اللُّغَةِ عَلَى وَاحِدِ الْفُلُوقِ، وهِيَ الشُّقُوق.

والفَلْقُ: بسُكُونِ اللاّم هو الشَّقُّ الّذي هو الحدث، وهُوَ مَصْدَرُ فَلَقَ الشيْءَ فَلْقاً إذَا شَقَّهُ.

ويُطْلَقُ (الفَلَقُ) بفتح اللاّم على ما انفلق من عَمُودِ الصُّبْح.

ويَسَمَّىٰ الخلْقُ فَلْقاً بسُكُونِ اللاّم، وعلى هذا فالفلَقُ بفتح اللاّم هو الْمَفْلُوق، أي: المخلوق، فربُّ الْفَلَقِ هُوَ رَبُّ كلِّ مَخْلِوقٍ.

والباحثُ العلميُّ في الظواهر الكونيّة يَجدُ أن سَنَّةَ اللَّهِ في الخلْقِ قائِمةٌ على نظام الفَلْق، فالنوى والحبُوبُ تَنفلِقُ ويَنْبتُ النّبات مِنْها، والْبُيوضُ الْمنتجَةُ تَنفَلِقُ وتخرجُ الأحْيَاءُ مِنها، وبُيَيْضَةُ الأنْثىٰ يدْخُل الْحُوَيْنُ الملَقِّحُ إليها، فيتّحِدَانِ، ثُمَّ يَنْشطران وفق سُنَّةِ الانْفِلاقِ، وينمو المخلوق، وهكذا نظامُ التكاثر في سُنَّةَ الخلْقِ الرَّبَّاني، وهٰذا من أعجب العجب في عمَليّات الْخَلْقِ، إذ البُعْدَ الباطن ينتهي إلى نقطة العدم حتماً، ومن صفات الله أنه يخلُقُ من العدم، كما يَخلُق ممَّا أوجَدَ سابقاً كماء وتراب.

والصّبْحُ يَنفَلِقُ فيظهرُ ضوْءُ النَّهارِ، قال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول).

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

فالمعنى: ألُوذُ وأعْتَصِمُ بِربِّ الْخَلْقِ كُلِّهمْ الّذِي يَخْلُقُ خَلْقَهُ وفْقَ سُنَّةِ الْفَلْقِ والإنْماءِ مِنَ البَاطِنِ إلَى الظَّاهر، ومِنْ خَلْقِهِ فَلْقُ الصُّبحِ، وَأَلْتَجِئُ إلَيْهِ لِيَقِيَنِي ويَحْمِيَني.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾

في هذه الآية دَلالَةٌ علَىٰ أنَّ الشَّرَّ إنَّما يأتي ممَّا خَلَقَ الله وأعْطَاهُ في كَوْنِهِ التمكِينَ والتَّسْخِير.

أمّا اللَّهُ عزّ وجلّ فالشَّرُّ الحقيقيُّ لا يُنسَبُ إليه، ولاَ يَصْدُرُ عَنْهُ، وما يَراهُ النَّاسُ مِنْ مقاديرِ المصائب والآلاَمِ الّتي يُسَمُّونَها شرّاً، هُو في حقيقة أمْرِهِ ليْسَ شرّاً، إنّما هو للامتحان، أو التربية، أو العقوبة، وهٰذِهِ جميعُها تَشْمَلُها الحكْمَة، والأمْرُ الحكِيمُ لاَ يكُونَ شرّاً علىٰ الحقيقة، إنَّهُ قَدْ يُسَمَّى ضُرّاً أوْ مُصيبةً أو ألماً، لكِنْ قد يكون وسيلَةً لخيرٍ عظيم.

إنَّ كلمتي: «الخير والشّر» ذواتا دَلالَتَيْنِ بحَسَبِ رؤى الناس القاصِرَة، المقيَّدَةِ بحُدُودِ إحساساتهم الضعيفة الكَلِيلَة، وبحُدُودِ تفكيرهم في عاجلٍ من الحياة الدنيا. وذواتا دَلالَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ بحَسَبِ الحقيقة الّتي يحيط بها علْمُ الله الشاملُ للظاهر والباطن، والماضي والحاضر والمستقبل، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فما هُوَ خيْرٌ في الحقيقةِ المطلَقة للإنسان، قد يراه الإنسان شرّاً فيكْرَهُهُ، وَمَا هُوَ شرٌّ في الحقيقة المطلقة له قد يراه خيراً فيحِبُّهُ، فَيَدْعُو رَبَّهُ أنْ يُحَقِّقَهُ لَهُ، وقد نبَّهَ الله على هذا بقوله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾

وكلمةُ «مَا» من قول الله عزّ وجلّ: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾ اسم موصول يقَعُ على غيْرِ العاقل وعلى العاقل معه من باب التغليب، وهو من ألفاظ العموم، فيشْمَلُ جَمِيع ما خلَقَ رَبُّ الفَلَق.

والمضافُ إلى العامّ يكْتَسِبُ العُمُومَ منْهُ، فالاستعاذَةُ برَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ تَشْمَلُ كُلَّ شَرٍّ قَدْ يأتي بِهِ أيُّ شيءٍ، مِنْ كُلِّ ما خلَقَ رَبُّ الفلَق.

● قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾﴾

في هٰذِهِ الآية تخصيصٌ بعْدَ التعميم الذي جاء في الآية التي قَبْلها، للاهتمام بهذا المخصوص بالذكر، بعْد أن كان داخلاً في عُمُوم مَا خلَقَ الله في الآية السابقة.

فما هو الغاسِقُ إذا وقَب؟

أولاً: تدور مادّة «غَسَقَ» حول معنيَيْنِ، هُمَا: انْصَبّ، وأظْلَم.

يقولون: غَسقَ اللَّبَنُ من الضّرْعِ غَسْقاً، أي: انْصَبَّ انْصِبَاباً. وغَسَقَتِ السَّمَاءُ تَغْسِقُ غَسْقاً وغَسَقَاناً، إذَا انْصَبَّتْ مطراً. ومنْهُ قولُ عُمَر رضي اللَّهُ عنه: «حِينَ غَسَقَ اللّيْلُ عَلَىٰ الظِّرَاب». أي: حين انْصَبَّ اللَّيْلُ على الجبال.

ويقولون: غَسقَ اللَّيْلُ يَغْسِقُ غَسْقاً وغَسَقَاناً، وأغْسَقَ إغْسَاقاً، أي: انْصَبَّ وأظْلَم.

وغَسَقُ اللَّيلِ، ظُلْمَتُه، وقيل: أوَّلُ ظُلْمَتِه.

فالْغَاسِقُ: هو المنْصَبُّ، أو المظْلِم.

وجاء عند المفسِّرين تفسير الغاسِقِ في سُورَة (الفلق) باللّيل، وجاء تفسيره بالقمر، لأنّ الْقَمَر يَخْسِفُ فيغْسِقُ، أي: يَذْهَبُ نُورهُ ويَسْوَدُّ ويُظْلِمُ.

ثانياً: أمّا كلمة «وَقَبَ» فهي بمعنى دَخَلَ، أَوْ بمعنى دخَلَ في الْوَقْب.

الْوَقْبُ: الكَوَّةُ، ونُقْرَةٌ في الجبَلِ يجْتَمِعُ فِيها الماء، والثَّقْبُ الّذي يَدْخُلُ فيه المِحْوَرُ، وكُلُّ حُفْرَةٍ، أو نُقْرَةٍ أَوْ ثَقْبٍ، يُمكِنُ أن يدخُلُ فِيه شيْءٌ، فِي صَخْرة أوْ أرْضٍ، أو خَشَبَةٍ، أَوْ جِسْمِ حيَوانٍ، أو غير ذلك.

فإذا تدَبَّرْنا عُموم نصِّ الآيَةِ المستفاد من تنكير لفظ غاسِقٍ، أمكَنَنا أَنْ نَفْهَمَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَدْخُلَ مُظْلِماً، فيَنْصَبُّ، أَوْ يَتَسَلَّلُ، في ثَقْبٍ، ويَحْمِلُ بدُخوله شرّاً للمدْخُولِ فيه. أو شرّاً لِغَيْرِه بهذا الدّخولِ، فالاستِعَاذَةُ تَشْمَلُه.

وقد جاء تخصيص المظلم بهذه الاستعاذة، لأنه يدخل دون أَنْ يُرَىٰ، فلا يستطيع الناس اتخاذ الوقاية العامَّة منه.

وقد كشَفْنَا بوسَائِلِ العصر الحديث أنّ الجراثيم والميكروباتِ الضَّارَّة مُظْلِمة لا نراها، لصِغرها، وتدخُلُ في أَوْقَاب الأحياء، فالفتحات الظاهرات ثقوبٌ تَدْخُلُ منها، ومَسَامُ الجسَدِ في الحيوان هي الثقوب الصغيرة التي ترشح، وقد تدخلُ منها الجراثيم بالاحتكاك، فَتَتولّدُ منها الأمراض والأسقام، فكُلُّ ثَقْبٍ منها وَقْبٌ، وجمع وَقْبٍ أوْقَاب.

والغَاسِقُ إذا وَقَبَ: هو المظْلِمُ الذي لا يَرَاهُ الناسُ إذا دخَلَ في الوقْبِ. وكلُّ مظْلِمٍ يدخُلُ في الأوقابِ غاسق.

الْفَمُ وَقْبٌ، والمنْخَرانِ وقْبَانِ، وسائر فتحات الجسد أوقاب. والحشراتُ والْهَوَامُّ، والميكروبَاتُ والجراثيمُ الضّارَّةُ وغيرُها، وكثيرٌ ممّا خلَقَ اللَّهُ غاسِقَاتٌ تَدْخُلُ في الأَوْقَابِ، فتَأْتي الناسَ بشرٌ. وممَّا يَدْخُلُ في الأوقابِ أصْنَافٌ من الجنّ قد تدخُلُ في أجْسادِ الناسِ، فيُصِيبُ الناسَ منها شُرُورٌ وأنواعٌ من الضُّرَّ والأذىٰ.

وصحَّ عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، أنَّ الرسُولَ ﷺ أخذ بيدها، فأراها الْقَمَر حين طلَع، وقال لها:

«تَعوَّذي باللَّهِ مِنْ شَرِّ هٰذا الغَاسِقِ إِذَا وَقَبَ».

وفي مُحَاوَلَةٍ لإيجاد تفسير لهذا يخْطُر لي احتمالُ أنْ يكون المراد ما يحْدُثُ للْقَمَرِ يوم القيامةِ من خَسْفٍ يكُونُ بهِ مظلماً، ثمّ مَا يحْدُثُ له من اقْتِرَابٍ من الشمس، حتَّىٰ ينصَهِر، وينْصَبَّ في وَقْبٍ مِنْ أَوْقابِها، وهو ما أشَارَ إليه قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سُورَة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول):

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠﴾

فَشَرُّ ذلك اليوم شرٌّ عظيم، وهو أعظم ما يستعاذ بالله منه، إنّ وُقُوبَ الْقَمَرُ في الشَّمْسِ لدى اجتماعهما يومئذٍ يكونُ بدخوله في وَقْبٍ مِنْ أَوْقَابِ الشَّمْس، والْوَقْبُ مِنها على كِبَرِهِ العظيم هُو ثَقْب صغيرٌ بالنّسْبَةِ إليها، لا يزيدُ عَلىٰ مِثْلِ حُفْرَةٍ في جَبَلٍ، وَهٰذِهِ الأوقابُ فيها تَقْذِفُ باللَّهَب العظيم، فَتَبْتَلِعُ الْقَمَرَ ومَا هُو أكبر منه.

والله أعلم.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾

(١) عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: ما خَالَطَ السِّحْرَ من الرُّقَى.

(٢) وعن الحسَنِ: أنَّ النَّفَّاثاتِ في الْعُقَدِ السَّوَاحِرُ والسَّحرةُ.

(٣) وعن ابن زيد قال: السَّوَاحِرُ في الْعُقَد.

(٤) ورُوِيَ عن مجاهد أَنّه قال: هُنَّ السَّوَاحِرُ إذا رَقِيْنَ ونَفَثْنَ في الْعُقَد.

ونحو ذلك قال «عِكْرِمة» و«الضَّحَّاكُ» كما ذكر الطبريُّ وابْنُ كثير.

النَّفْثُ: إخراجُ الهواء من الْفَم نفخاً، وقد يصاحبُهُ رَذَاذٌ من الرّيق. ويقالُ لُغَةً: فُلاَنٌ يَنْفُثُ غَضَباً، أي: يَنْفُخ بفِيهِ، تنفيساً عن غضبه.

الْعُقَد: جَمْعُ مفرَدُه «الْعُقْدَة» وهي العُقْدَة التي تُعْقَدُ في الحبْلِ أو الخيْط أو نَحْوِهما، والّتي يُرْبَط بها الْحبْلُ بِالحبْلِ، أو الخيْطُ بالخيط أو بالثوبِ، ونَحو ذَلِكَ، وتكون بإدارة الخيط على الخيْطِ وإدخال الطرف أو الأطراف في الدائِرَةِ، وشدّ الطّرفين فتحصُل الْعُقَد.

والسَّواحِرُ يفعَلْنَ هَذا على الأَدَوَاتِ اللاّتي يَنفُثْنَ سِحْرَهُنَّ عليها، عنْدَ تِلاوَةِ الألفاظ السِّحْرِيَّةِ التي يُسَخِّرْنَ بها الْقُرَناءَ من الجنّ.

وقد جاء تخصيص السَّواحِرِ النَّفَّاثاتِ في الْعُقَد بالاستعَاذَةِ برَبِّ الفلَق مِنْ شرِّهنَّ، مع دُخولِهِنَّ في عُمُومِ مَا سبَقَ، إذْ يدخُلْن في عُموم: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ وقد يَدْخُلْنَ أو يدْخُلُ أثر سحرهِنَّ في عُموم: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ تأكيداً على الاهتمام بما يكيدُهُ بعْضُ النَّاسِ ضِدَّ خُصُومِهِمْ، أَوْ مَنْ يَحْسُدُونَهُمْ عَنْ طريقِ السِّحر، وهو وسيلة مظلمة خفيَّةٌ قد تأتي بشَرٍّ، فَتَدْخُلُ به في أَوْقابِ النَّاسِ، فَتُؤْذِيهم أو تمسُّهُمْ بضُرٍّ ضمن أسْبابٍ خفيَّةٍ، لَهَا مضادَّاتٌ مِنْ جِنْسِهَا، ولَهَا مضادّاتٌ مِنَ الأذكار والاستعاذاتِ باللَّهِ عزّ وجلَّ رَبِّ الْفَلَقِ، رَبِّ العالمين.

والنَّفَّاثاتُ في الْعُقَد: هِيَ النفوسُ الساحرة سواءٌ أكانت نُفُوسَ ذُكورٍ أمْ إِنَاث، لِأنَّ النَّفْسَ عِنْدَ اسْتِخْدَامها وَسيلَةَ السِّحْر تتجرَّدُ من أوْصَافِ الذكورَةِ والأُنوثَةُ، وتَشْتَرِكُ مَعَ قَرِيناتِها من النفوس الخبيثَةِ في فِعْلِ الشَّرِّ والضُّرِّ.

● قول اللَّهِ عزّ وجلَّ:

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

يُعَلِّمنَا اللَّهُ عزّ وجلّ في هذه الآيَة أَنْ نستَعِيذَ برَبِّ الفلَقِ مِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَد.

﴿حَاسِدٍ﴾: اسم فاعل من فعل: «حَسَدَ يَحْسُدُ» واسم الفاعل هنا يَدُلُّ على من يَحْمِلُ في نَفْسِهِ خُلُقَ الْحَسَد، وفي طبْعِهِ مِقْدارٌ مِنْهُ يُشَكِّلُ لَدَيْهِ حالَةً مَرَضِيَّةً قَدْ يتعدَّى أثرُها إلى إيذاء المحسُودِ، أو الإضرار به.

﴿إِذَا حَسَدَ﴾ أي: إذا كَانَ مَنْ في خُلُقِهِ وطَبْعِه الْحَسَدُ قَدْ حَسَدَ فِعْلاً، فتحرَّكَتْ نَفْسُه تُطْلِقُ النَّظَراتِ ذواتِ الكَيْدِ ضِدَّ الْمَحْسُود.

وجاء هذا القَيْدُ الشَّرْطيّ للإشْعَارِ بأنَّ مَنْ في نَفْسِه خُلُق الْحَسَدِ، قَدْ لاَ يَحْسُدُ، فَلاَ يكونُ لمَا في طَبْعِه من حَسَدٍ تَأْثيرٌ بأذى أَوْ ضَرَرٍ على ذِي النِّعمة.

والحسَدُ يبدَأُ بنظر الْحَاسِدِ إلى نِعْمَةٍ أَنْعَمَ اللَّهُ بها على المحسُود، ثُمَّ تتحرَّكُ نَفْسُه فيتمَنّى أَوْ يَتشهّى لنَفْسِه مثْلَها، إذَا لم يَكُنْ لدَيْه نِعْمَةٌ مِثْلُها، أو

يَتَمَنّىٰ أو يَتَشهَّىٰ زوال هذه النعمة عن المحسُود، ولو كان لدَيْهِ مِثْلُها، لِيَنْفَرِد هو وحْدَهُ بحيازَةِ هذه النعمة، أو لئَلاَّ يمتاز عليه المحسُود بنعمةٍ ليس لديه هو منها.

وبعد حركة النفس هذه لدى بعْضِ الْحَاسِدِين يُحِسُّ المحرومُ منْهُم من طُمَأنينة الإيمان بقضاء اللَّهِ وقَدَرِه وحكمته في عَطَائه ومنعه، بغليانٍ في داخل نفسه كغليَانِ المِرْجَلِ على النّار.

وتختلف درجَةُ حرَارَةِ هٰذا الْغَلَيان من حاسِدٍ لآخر، بحَسَبِ قُوَّةِ أو ضَعْفِ الطبيعَةِ الحاسِدَةِ في نَفْسه. وقُوَّةِ أَوْ ضَعْفِ الْمُعَدِّلاَتِ والْكَابِحاتِ لها.

فمن الحاسدين مَنْ تَفُورُ نَفْسُه عَلىٰ مِثْلِ ما تَفُورُ النَّار ذَاتُ الوقود السّريع الاشْتعال، وتتلظّىٰ باللّهب، ولا يُطفِئُ لَهَبَها ويبَرِّدُهُ إلاَّ الإيمانُ باللَّهِ العلِيّ الجليل، وبِحِكْمَتِهِ العظيمة في مقاديره، معَ الإيمان باليَوم الآخرِ، وبالجزاءِ الحكيم، على صالح الْعمل بالفضل، وعلى سَيِّئِ الْعَمل بِالْعَدْلِ، ومن صَالِحِ أعْمَال الْقُلوب والنُّفوس الرضا بمقادير الله. ومن سَيِّئِ أعمال الْقُلوبِ والنُّفوسِ التسَّخُّطُ على ما تَجْرِي به الأحداثُ الكونيَّةُ ضِمْنَ قَضَاء الله وقَدَرِهِ، التِي يُقدِّرُها ويقْضِيها بعلْمِه وحكمته.

وتُوجَدُ لدىٰ بعْضُ نُفُوسِ الحاسدِينَ شِحْنَاتُ طاقاتٍ إشعاعيّة، ذَواتِ آثارٍ مادّيّة، إذَا أصابَت المحسُودَ آذتْهُ، أو أضرَّتْ بهِ، ورُبما قتَلَتْه، وإذا أصابَتْ أشياء من ممتلكاتِه أوقعَتْ بها الأَذىٰ أو الضَّرر.

وهذا هو ما يُسَمَّى بالإصابَةِ بالْعَيْن، والإصابَةُ بالْعَيْنِ حقٌّ، وهي ظاهرةٌ من ظاهرات الطّاقاتِ الإنسانيّةِ الخفيَّةِ، التي تُوجَدُ لدى بَعْضِ الناس، وقد تَنْطَلِقُ دُونَ إرادَةٍ مِنْهُمْ، ويَكْثُرُ انْطِلاقُها لدَىٰ الحاسِدِينَ المزوّدِينَ بِها إذَا حَسَدُوا.

والاستعَاذَةُ بربِّ الْفَلقِ تَحْمِي مِنْ هٰذه الطّاقةِ الإشْعَاعِيَّةِ الحسَدِيَّةِ الخفيَّة. وقَدْ تُوجَدُ أشياءُ في الكَوْنِ تجذِبُها إليها، فتمتَصُّهَا، أو تظهر آثارُها فيها، فتتكَسَّرُ هي، ويَحْمِي اللَّهُ بها المحسُودَ من أذاها وضَرَرِها.

وقد صَحَّ عن النبيّ ﷺ أنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ، أي: أَنَّ الإصابَةَ بنظراتِ الحاسِدِ إذا حسَدَ حقٌّ.

● روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الْعَيْنُ حقٌّ».

● وروىٰ مسلم عن ابن عبّاس، عن النبيّ ﷺ، قال: «الْعَيْنُ حَقٌّ، فَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا».

أي: إذا طُلِبَ مِنَ العائِنِ أَنْ يَغْسِلَ أَطْرَافَهُ، لِيُؤْخَذَ الْمَاءُ ويُصَبَّ مِنْهُ على الْمُصَاب بالْعَيْن لَزِمَهُ أَنْ يَسْتَجِيب للطَّلَب.

وحقيقةُ هذا من الأُمورِ الغَيْبِيَّةِ بالنِّسْبَةِ إلَيْنا، وَقَدْ يَكُونُ فِي جَسَدِ الْحَاسِدِ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْمِلَ الْمَاءُ مِنْهُ شَيْئاً إذا أُلْقِيَ عَلَى الْمُصَابِ بِعَيْنِهِ أَزَالَ مَا كان قد انطلَقَ من نفسه إلَيْه. أو اتَّحَدَ بِه فَبَرِئَ الْمُصَابُ بإذْن الله وبخلقه.

وصحَّ عن النبيّ ﷺ الإذْنُ بالرُّقْيَة من الإصابة بالعين. وعلى المؤمن أنْ يكونَ علىٰ حضورٍ مع الله، فيستعيذَ باللّه من شرّ كُلّ ذي شرّ، ومِنْ ضُرّ كُلّ ذي ضُرّ، فَهُو عزّ وجلّ الواقي، وأفضلُ ألفاظ الاستعاذة ما جاء بيانُه في كتاب الله عزّ وجلّ، ثمّ ما جاءَ في أقوال الرسول ﷺ.

فسورتا المعَوِّذتَيْنِ حِصْنَانِ عظيمان لمَنْ شَاء أنْ يكون في حماية الله عزّ وجلّ، وحفظِه من شرّ ما خلق، ومن شَرّ النفاثات في العُقَد ومن شرّ حَاسِدٍ إذا حسَدَ ومن شر غاسِق إذا وقَب، ومن شرّ الوسْوَاسِ الْخَنَّاس، الّذي يُوسْوِسُ في صُدور النّاس، من الجنَّةِ والنَّاس.

ومن الأدعية الواردة في صِحَاح الأحاديث ما يلي:

● روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنّها قالَتْ: كان إذا اشتكى رسولُ الله ﷺ رقَاهُ جبريل، فقال:

«بِاسْمِ اللَّهِ يُبْرِيكَ، وَمِنْ كلِّ دَاءٍ يَشْفِيكَ، ومِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذَا حَسَدَ، وشرِّ كُلِّ ذِي عَيْنٍ».

● وروى مسلم عن أبي سعيد الخدريّ، أنَّ جِبرِيلَ أَتَى النبيّ ﷺ فقال: «اشْتَكَيْتَ؟»، فقالَ: «نَعَمْ». قال: «بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، ومنْ كلِّ شيءٍ يؤذيك، من شرّ كلِّ نَفْسٍ، أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ».

وقد لا يقتصر الحاسِدُ ذُو النَّفْس الخبيثَةِ على الإصابة بالعيْن، بل يَتخِذُ وسائِلَ كيْدٍ ومَكْرٍ فيها أذىً أو ضُرٌّ، يَكِيدُ بها مَحْسُودَه، إلى حَدِّ الْقَتْلِ ظُلْماً وعُدْواناً.

وربّما قامَت حُروبٌ طاحِنَةٌ دافِعُها الحسَدُ بين النّاس.

ومن أعظم ما جرىٰ في تاريخ الحسَدِ، حَسَدُ إبليس لأبينا آدم عليه السّلام، فقد جَعَلَ هذا الحسَدُ إبليس يتّخذ كلَّ حيلَةٍ ووسيلَةٍ يستَطِيعُها ليُخرِجَ آدم وزَوْجَه مِنَ الجنَّة، وليُتَابِعَ ذُرِّيَّتَهُما بالإغواء والتَّسْويل والوسوسة، ليُدْخِلَهم النّار.

ومن الحسَدِ في تاريخ بَنِي آدَمَ حسَدُ قَابيلَ لهابيل الذي دفَع به حتَّىٰ قتل أخاه.

ومن الحسَد في تاريخ الناس حسَدُ بني إسرائيل، فقد حسَدَ أولادُ يعْقُوبَ عليه السلام أخاهم من أبيهم يوسف عليه السّلام، حتَّىٰ حاولوا قتله، ثُمَّ اقْتَصَرُوا على إلْقَائِه في الْجُبِّ، وهو غُلَامٌ صغير السِّن، وكان من شأنه بقضاء الله وقدرَه وإذْنِه وتمكينه وعنايتِهِ به ما قصَّه الله في سُورة (يوسف).

ثُمَّ حسَدُهُمُ الْعَرَبَ إذْ جاء النبيُّ الخاتم الذي كَانُوا قد بُشِّرُوا به من أولاد إسماعيل عليه السلام، ولم يأتِ منْهم من أولادِ إسحاق، فكفَرُوا به، وَكَادُوهُ كَيْداً عظيماً، وكادُوا دينَهُ وأُمَّتَهُ، وما يزالُون يكيدون.

ومَنْشأُ الحسَدِ الأَنانيَّةُ المفرطة، وكراهِيَةُ الخيْر للغير.

وكلُّ الحسَدِ مَذْمُومٌ إلاَّ مَا أَذِنَ به الرَّسُول ﷺ من حسَدِ الغِبْطَة، وهو الحسَدُ الّذي يتمّنى الحاسد فيه أن يكون له مِثْلُ ما للمَحْسُودِ منْ أمُورٍ تنفَعُهُ في آخِرَتِه عند ربّه.

روى البخاريُّ ومسلم عن ابن مسعود، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«لاَ حَسَدَ إلاَّ في اثْنَتَيْن: رجُل آتاهُ اللَّهُ الْحِكْمةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا. وَيُعَلّمُهَا النَّاسَ، ورَجُل آتاهُ اللَّهُ مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَىٰ هَلَكِتِهِ في الْحَقّ».

(٦)
التدبّر التحليليّ لآيات سورة النّاس

• قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾

يُعَلّمُنَا اللَّهُ جَلَّ جَلالُهُ في هذَا النصِّ أنْ نَسْتَعِيذَ به بوصْفِه رَبَّ النَّاسِ، مَلِكَ النَّاسِ إلَهَ النّاس، ففي ذِكْرِ هٰذِهِ الصّفات مُلاحَظَةُ مَا يتّصل بالشرّ المستَعاذِ بهِ منه.

(١) فالرَّبُّ هو الخالقُ وفْقَ نِظَام التَّرْبية، إذا التربية هي الإنشاء المتدرِّجَ حالاً بعْدَ حَال، وهذا يسْتَلْزمُ الحضور والشّهُود دواماً، ويسْتَلْزمُ الإمْدَادَ المتَتَابع، والْخَلْقَ المتابعَ آناً فآناً دون انقطاع.

إذَنْ فَهُو القادِرُ على مَنْح الإعاذَةِ مِنْ شرّ الوسْواس الخنّاس، الذي هو ملازِمٌ دوامـاً لحـركَـاتِ قَلْبِ الْإنسانِ ونَفْسِه مع الآنَات المُتَتَابعات، يُوسْوِسُ بفِعْلِ الشُّرور، ويُغْري بارتكاب المعاصي، ويُزَيّنُها، ويسْتَدْرجُ للوقُوعِ فيها، مادًّا خُرْطُومَه إلى المواطن المحرّكَة للإنْسَانِ من داخله.

فإذَا ذَكَرَ الإنْسَانُ رَبَّهُ خَنَسَ شيْطانُهُ الموسوس له، وكلّما غَفَل عَنْ

ذِكْرِ رَبِّهِ والاستِعَاذَةِ بهِ جَعَلَ يُوسوسُ له، حريصاً على إسقاطه في آبار المعاصي والمخالفات وارتكاب الآثام.

إنّ هٰذِ المتابعةَ مِنَ الشيطان الوسْواسِ الخنَّاسِ لا يَقِي ولاَ يَحْمِي وَلاَ يُعِيذُ مِنها إلاَّ اللَّهُ جلّ جلالُهُ، بوصْفِه رَبّاً خالقاً حاضراً شاهداً مُمِدًّا في كُلّ الآنَاتِ المتتابعات.

فالاستعاذةُ به مع ملاحظة هٰذا الوصف، هُو الأمْرُ الّذي تقتضيه عُبُودِيَّةُ الْعَبْد لربّه، نظراً إلى أنَّ العبوديَّة في مفْهُومِها النَّفْسِيّ. هيَ رُدُودُ أفْعَالِ النَّفْسِ السَّوِيَّةِ تجَاهَ تَصَوُّرَاتِها لعناصر القاعِدة الإيمانيَّة.

إنَّ عُبودِيَّة الإنسان لربّه في حالة تعرُّضه باستمرار لوسَاوس الشّيْطان الوسواس الخنَّاس، تقتضِي مِنهُ أن يسْتعيذَ بالرَّبِّ الّذي هو شاهدٌ حَاضِرٌ عَلِيمٌ، متَابعٌ لعَمَليَّاتِ الخلْقِ المتجدّدَةِ دواماً مِنْهُ، في كلّ خَلِيَّةٍ وَكلّ ذَرَّةٍ من عَبْدِه، وفي كلّ آناتِهِ المتتابعات.

(٢) ومَنْ كانَ هُو الرّبّ دَوماً، كَانَ هو الْمَالِكَ لِعَبْدِهِ دَواماً، وكانَ هُو الْمَلِكَ الآمِرَ المتصرّف فيه علىٰ ما يشاء دَواماً.

وفي الاستِعَاذَةِ باللَّهِ جَلَّ جلالُهُ بوصْفِهِ مَلِكَ النَّاس، مغْنَى الاستِنْصَارِ بِصَاحِبِ الْمِلْكِ وصَاحِبِ الْمُلْك، لِحمَايَةِ وَوِقَايَةِ وإعَاذَةِ من هو داخِلٌ في مِلْكِهِ لأنَّهُ خالِقُهُ وربُّهُ دَواماً، وداخلٌ في مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، إذْ هُو المَلِكُ وحْدَهُ في الوجود كُلّه، فَلاَ سُلْطانَ لأحَدٍ مع سُلْطانه، وهُوَ مَلِكُ النَّاسِ الذي له حقُّ الأمْرِ والنَّهْي والتكليف والمحاسبة والجزاء، ومِنْ شَأْن رَعِيَّةِ الْمَلِكِ أَنْ تسْتَنْصِرَ بمَلِكِهَا الْقَوِيّ العزيز الغالبِ لأعدائها، ونصره لها يكون بِحِمَايَتِهَا وَوِقَايَتِهَا وَإعَاذَتِهَا من شرّ كُلّ ذي شرّ.

والله جَلَّ جلالُه يَنْصُر عَبْدَه، إذا كان صحيح الإيمان به، وصادقاً في عبوديته له، ومُعْتصماً به، ومُذْعِناً لمُلكه وسُلْطانه، وحريصاً على طاعته.

أمّا الكافر الجاحد، أو المخالف العاصي، أو المتهاون الناسي، فإن حظه من نُصْرَةِ رَبّه له مُنْعَدِمٌ، أو ضعيفٌ، وذلِكَ بحَسَبِ حَاله مع ربِّه.

(٣) ومن كان هُو الرّبّ، وهُوَ الْمَالِكَ والْمَلِكَ، كَانَ هو وحْدَه المستَحِقَّ لِأَنْ يكون الإله المعبود.

إِلٰه النَّاس: أي: هو المستحقُّ لأنْ يَعْبُدَهُ وحْدَه جميع الناس، إذْ هو وحْدَهُ رَبُّهُمْ، وهو وَحْدَهُ مَالِكُهُمْ وَمَلِكُهُمْ، فلا إله غَيْره، أي: لا مَعْبُودَ بحقٍ سواه.

وفي الاستعاذة باللَّهِ بوصْفِهِ إله النَّاس، إلْمَاحٌ إلى أنَّ المستعيذَ بِهِ قائِمٌ بحقِ رَبِّهِ عليه، من توجيه عبادته له وحْدَه، ومِنْها عبادَةُ الدُّعاءِ والاستعاذة، فهو بهذا أهْلٌ لِأَنْ يُكْرِمَهُ اللَّهُ بإجابَةِ دُعائه، وإعَاذَتِهِ مِنْ أَعْدائِهِ الساعِينَ إلى إغوائه وإضلاله، من شياطين الجن، ومن شياطين الإنس.

● قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾:

هٰذه الآيَات تُبَيّن المستعاذَ بالله جلَّ جلاله من شرّه، مع بيان نَوْع الشّر، وهو الوسوسة.

الْوَسْوَاس: بفتح الواو هو الشيطان، وكلُّ ما حَدَّثَكَ وَوَسْوَسَ إليك.

والوَسْوَسَةُ، والْوَسْوَاسُ في اللُّغة: الصَّوْتُ الخفيُّ، من الرّيح، والْوَسْوَاسُ صَوْتُ الْحَلْي، والهمْسُ من الأصوات والأَقوال.

والْوَسْوَسَةُ، والْوِسْوَاسُ: حَدِيث النفس.

يقال لغة: وَسْوَسَ في صَدْرِهِ ووَسْوَسَ إلَيه وَسْوسَةً وَوَسْواساً.

الخنَّاس: صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ وتكْثِيرٍ لصيغة «الْخَانِسِ» اسم فاعل من فعل «خَنَسَ يَخْنِسُ خُنُوساً وَخِنَاساً» أي: تأخَرَ، وانقَبَضَ واسْتَخْفَىٰ.

وقد وُصِفَ الشيطانُ بَأَنَّهُ خنَّاسٌ، لِأَنَّهُ يَخْنِسُ كُلَّمَا ذكَرَ الْعَبْدُ رَبَّهُ، فإذَا غَفَل أو نَسِيَ عَادَ الشيْطانُ فَوَسْوَسَ في صَدْرِه، فإذَا ذَكَرَ اللَّهَ خَنَس، وهَكَذَا دوالَيْكَ وَسْوَاسٌ خنَّاسٌ.

وكذلِك يَفْعَلُ شَيَاطِين الإنْسِ، بلْ شيطان الإنْس أشَدُّ خطراً وأعْظَمُ ضرراً مِنْ شياطين الجنّ، فشَيْطَانُ الإنسِ يُوَسْوِس بالأقوال الّتي تمرُّ عَنْ طريقِ الفكر، حتّى تَصِلَ إلى مراكز الانْفِعَالات والعواطف والشهواتِ والأهواء في الصَّدْرِ. وشيطان الجنّ يقْذِفُ من داخل النَّفْس بالخواطر ويجري من ابْنِ آدم مجْرَىٰ الدَّمّ، فتنتَقِلُ الخواطر إلى مراكز الانفعالات والعواطف والشهوات والأهواء في الصَّدْر.

وحين يَسْتَجيبُ الإنْسَان بإرادته إلى هذه الوساوس فإنّها تُنْتِجُ سلوكاً مُنْحرِفاً يجلُب الشرّ والضُّرَّ للإنسان.

رُوِيَ عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ أنَّهُ قال: الشيطانُ جاثِمٌ على قَلْبِ ابن آدم، فإذا سَهَا وغَفَلَ وَسْوَسَ، وإذا ذكَر اللَّهَ خَنَس.

ورُوِيَ نظير هذا عن مجاهدٍ وقتادة.

● وثبت في الصحيح[(١)] أنَّ الرسول ﷺ قال:

مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ وُكّلَ بِه قَرِينُهُ».

أي: الموسْوِسُ له بالفواحِشِ والمعاصِي من شياطين الجنّ.

قالُوا: وأنْتَ يا رَسُولَ اللَّهِ؟. قال:

«نَعَمْ، إلاَّ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أعانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلاَ يَأْمُرُنِي إلاَّ بخَيْر».

---

(١) كما ذكر ابن كثير في تفسيره للسورة.

● وروى البخاريُّ ومُسْلِمٌ عَنْ أنسٍ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِن ابْنِ آدَمَ مَجْرَىٰ الدَّمَ».

● وروى الحافظ أَبُو يَعْلَىٰ الْموْصِليُّ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسُول الله ﷺ:

«إنَّ الشَّيْطَانَ وَاضِعٌ خَطْمَهُ[1] عَلَىٰ قَلْب ابن آدم، فإنْ ذَكَرَ اللَّهَ خَنَسَ، وإنْ نَسِيَ الْتَقَمَ قَلْبَهُ، فذَلِكَ الْوَسْوَاسُ الخناس». [وهو حديثٌ غريب].

● وأخرج ابْنُ أبي دَاودَ عن ابْنِ عبَّاسٍ في قول الله تعالى: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ قال: مَثَلُ الشَّيْطَانِ كمَثَلِ ابْنِ عِرْسٍ، وَاضِعٌ فَمَهُ عَلىٰ فَم الْقَلْب، فَيُوَسْوِسِ إلَيْه، فَإنْ ذَكَرَ اللَّهَ خَنَسَ، وَإنْ سَكَتَ عَادَ إلَيْهِ، فَهُوَ الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ.

ابن عِرْس: حيوان أصغر من القط يفتك بالدجاج ويتوارى عن الأنظار في مخابئ.

وانتهى تدبّر السُّورة بمعونة الله وتوفيقه.

❁ ❁ ❁

ملاحق لسورتي الفلق والناس

الملحق الأول: نظرة عامَّة حول ما جاء في السّورَتين.

الملحق الثاني: حول فلسفة التمكين من فعل الشرّ.

الملحق الثالث: الاستعاذة في القرآن والسُّنّة.

الملحق الرابع: حول السّحر.

❁ ❁ ❁

(١) خَطْمَهُ: الخطم: الأنف، أو مقدّم الأنف، والمراد مُقَدَّم فَمِهِ، ولعلّه يخرج صوت حديثه من أنفه.

(٧)

الملحق الأوّل

نظرة عامّة حول ما جاء في سورتي الفلق والناس

بعد التدبُّر التفصيليّ لسورتَي المعوِّذَتَين، يَحْسُنُ بنا أَنْ ننظُرَ نظرَةً عامّة إلى ما تدَبَّرْنَاهُ مِنْ آياتهما.

لقد أمرنا الله عزّ وجلّ بأَنْ نَسْتَعيذَ بهِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وبَرَأَ وَذَرَأَ في كَوْنِهِ، لأَنَّ الاستعاذَةَ به منْ شرّ مَا خلَق مظهَرٌ منْ مَظَاهر الإيمان الصادق. وسلُوكٌ نابعٌ من القاعدة الإيمانيّة.

فالمؤمن بالله الّذي له مَلَكوتُ السَّمَاوات والأَرْضِ، وهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قديرٌ، إذَا حَذِرَ أو خاف من شرّ شيءٍ أو من ضرِّهِ أو أذاه، لم يسْتَعِذْ في دُعَائِهِ الموجَّهِ لِلْغَيْبِ بإنسٍ، ولاَ جنٍّ، ولاَ مَلَكٍ، ولا حَيَوانٍ، ولا جَمادٍ، ولا رُوحِ نَبِيٍّ أَوْ رسُولٍ أو وَلِيٍّ أو صالحٍ مِنْ صُلحاء المسلِمين.

إِنَّما يستَعِيذُ باللَّهِ عزّ وجلَّ وحْدَهُ لاَ شريكَ له، فهُوَ رَبُّ الْفَلَقِ، وهو رَبُّ النَّاسِ، وَمَلِكُ النَّاسِ، وَإِله النَّاسِ، وهُو رَبُّ كلِّ شيءٍ من دُونه، وَمَلِكُ كلِّ شيءٍ وَمَلِيكُهُ، والمسْتَحِقُّ وَحدَهُ لأَنْ يُعْبَدَ، والاستعاذَةُ بالغيبيّاتِ لَوْنٌ من أَلْوانِ العبادة.

وفي الاستعاذة باللَّهِ عزّ وجلَّ تمْكينٌ للقاعِدَةِ الإيمانيَّةِ، وَتثبيتٌ عمليٌّ للاعتقاد بأنّه لاَ رَبَّ في الوجود كلِّه إلاَّ الله، وَلاَ إله في الوجود كُلِّهِ يَسْتَحِقُّ الإلهيَّة إلاَّ الله. ولا مُنجِيَ مِنْ كُلِّ المكاره سِوَاه، مع ما في الاستعاذة بالله عزّ وجلّ من عبادةٍ هي من أعْمقِ العباداتِ وأخْلَصها، فالاستعاذَةُ من الدُّعاء، والدُّعاء عبادةٌ، أو هي مُخُّ العبادة كما جاء في بعض الأحاديث النبويَّة، والاستعاذة تتضمَّن ثلاثة أركان، هي:

(١) مسْتَعِيذٌ. (٢) ومُسْتَعَاذٌ به. (٣) ومستعاذٌ منه.

● **أمّا المستَعيذ:** فإنّما يُلجئُه إلى الاستعاذة بغيره شُعُورُهُ بضعفه وعَجْزِهِ عَنْ دَفْعِ أَوْ رَفْعِ شرٍّ أو ضُرٍّ أَوْ أذىً يَخْشَاهُ، أو قَدْ مَسَّهُ مِنْهُ شيْءٌ.

ومَعْلُومٌ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ ضُعَفَاءُ تجَاهَ كَثِيرٍ ممّا خلق اللَّهُ في كوْنه، وهُمْ فُقَرَاءُ إلىٰ اللَّهِ جلّ جلالُهُ دون اسْتِثْناء.

● **وأمَّا المسْتَعَاذُ به:** فالقاعِدَة الإيمانيَّةُ المسْتَقِرَّةُ في قَلْبِ المؤمِنِ تتضَمَّنُ أَنَّ الخلْقَ جميعَهُمْ ضُعَفَاءُ، لا يملكون لغيرهم ولا لأنفُسِهم جلْبَ نَفْعِ ولا دَفْعِ ضُرٍّ، إلاَّ بتمكينٍ من الله وتسْخِيرٍ للأشْيَاء، وإذْنٍ قَدَرِيٍّ مِنْه.

فالسُّلْطانُ كُلُّهُ في الوجود كلِّهِ له وحْدَهُ لاَ شَرِيكَ له، هو الذي خلَق فَسَوَّىٰ، وأخْرَجَ مِنْ ظلْمَة العَدَمِ إلى نور الوجود، وأمَدَّ بالْقُوىٰ، ومَكَّنَ، وسَخَّر، ثُمَّ هُو يأذَنُ إذَا شَاءَ أو لا يأذَنُ.

فهو عزّ وجلَّ الذي يَجِبُ أنْ لاَ يَسْتَعِيذَ المستعيذُون إلاَّ به، وأن لا يَدْعُو الدَّاعُون إلاَّ إيّاهُ.

● **وأمّا الْمُسْتَعَاذُ مِنهُ:** فَهُو كُلُّ شرٍّ أو ضُرٍّ أَوْ أَذَىٰ عاجلٍ أو آجلٍ، من كلِّ مَا خَلَقَ اللَّهُ، ومن غضَب الله وسَخَطه وعِقَابه، وعَذَابه، التي تَجْلُبُها معاصِي العباد. وَمِنْ بَلائِهِ الّذِي قد تقضي به مقاديرُه، ممَّا هو من المكاره، وأذِن اللَّهُ بأن نسْأَلَهُ العافية منه.

والمخلوقاتُ الّتي يمكن أنْ تَجْلُبَ للإنْسَانِ الشَّرَّ أو ما يَكْرَهُ من ضُرٍّ أو أذىً منبثَّةٌ في كلِّ ما خلَقَ الله من أنواع وأصناف، بدْأً مِنْ نَفْسِ الإنسان الأمَّارَةِ لَهُ بالسُّوءِ بَيْنَ جنْبَيْهِ، إلَىٰ شهواته الجامحة، وأهوائه الجانحة، وقُواه الطاغية، ثُمَّ إلى شيطانه الذي يجري منه مجرىٰ الدّم، فإلى سائر شياطين الإنْسِ والجنّ، وسائر ما خلقَ الله من ظاهرٍ مشهود، أو خفِيٍّ محْجُوب.

ممّا تضمنته سورتا المعوّذتين:

وقد تضمَّنَتْ سورتا المعوّذَتَيْنِ أموراً ذاتَ أهمية، منها ما يلي:

الأمر الأول: تنبيهُنا على حقيقة عجزنَا وَضعفنا عن دفْعِ الشرور والمكاره عن أنفسنا، ممَّا قَدْ يُصِيبُنا به كثيرٌ ممَّا خلَق الله في كونه.

الأمر الثاني: تنبيهُنا بصفَةٍ عامَّةٍ على حاملات الشُّرُور المحيطة بنا، أو الدَّاخِلَةِ في ذواتنا والمتغلغلَةِ في أعماقِ نفوسنا.

وتنبيهُنا بصفةٍ خاصّة على شُرورٍ خاصَّةٍ ذاتِ أَهميَّةٍ بالغة في حياتنا، لما لها من آثار سيئَةٍ جدّاً علينا، في أمورنا الدنيويَّة أو الأخرويَّة.

الأمر الثالث: تَعْلِيمنا كيْفَ نسْتَعِيذُ باللَّهِ عزّ وجلَّ، في كلام موجَزٍ جامعٍ، يتضمَّنُ الثناء البليغ على الله عزّ وجلّ، والاستعاذَةَ الْحُلْوَةَ العذْبَةَ الأداء، مع ذكْرِ المستعاذِ بالله منه.

الأمر الرابع: تثبيت إيماننا بأنَّ الله عزّ وجلّ هو وحده القادر على حمايتنا وصيانتنا ودفع الشرور عنَّا، فهو ربُّ الفلق، أي: هو ربُّ الخلق المنفلق من الْعَدَم، وهو مُربّيهِ، ومنمّيه، ومنشّئه، والممدّ له بالبقاء والقوىٰ، وهو رَبُّ الناس، الخالق لهم، والمهيمن عليهم دواماً بالتربية، وهو الرحيم بهم الذي يُعِيذُهم، إذا استعاذوا به، والتَجَؤُوا إليه، وَهُو مَلِكَ النَّاسِ الذي بيَدِه تصْرِيفُ كُلِّ أَمْرِ بِحُكْمِهِ وحِكْمَتِهِ، فمن استعاذ به مُؤْمِناً خاضعاً عابداً أعاذه. وهو إلٰه الناس المعبودُ بحقٍّ، فلا إله في الحقيقة غَيْرُه، ولا مُسْتَحِقَّ للعبادَةِ سواه، ومِنْ عبادته عزّ وجلَّ الاستعاذةُ به، والالتجاء إليه.

(٨)
الملحق الثاني
حول فلسفة التمكين من فعل الشر

من لوازم حكمة ابتلاء الإنْس والجنّ في ظروف الحياة الدنيا، منْحُهم إراداتٍ حُرَّةٍ، يُرِيدُونَ بها ما يشاؤن من اعتقادٍ أو عمل.

ومن لوازم منح الإرادات الحرَّة للممتحنين، تمكينُهم تمكيناً قدريّاً

عاماً بالإمداد والتسخير من تنفيذ ما يريدون، إذا لم يكُنْ للّهِ عزّ وجلّ مرادٌ آخرُ تقتضيه حكمته.

ومع التمكين القدريّ العامّ، لا بُدَّ من الإذْنِ الرَّبَّاني لدى ممارسَتِهم أعمالهم، من أَنْ يُحقِّقُوا مراداتهم.

ومن لوازم كلِّ ما سَبَقَ لتحقيق حكمة الابتلاء أنْ تُؤَثِّر أعْمالُ بَعْضِ المخلوقاتِ في بعض، فيكونَ من نتائج هٰذِهِ التأثيرات نَفْعٌ وَخَيْرٌ من بعْضِ ذوي الإراداتِ الحرَّةِ لغَيْرِهم، أو ضررٌ وأذىً وشرٌّ منهم لغَيْرِهم.

ومنْ تأثيرات بعضهم على بعض، أَعْمالُ إغواء وإغراء ووسوسَةٍ وتسويل، حتَّىٰ يفْعَلَ المستجيبونَ بإرادتِهم شرّاً أو ضرّاً أو أذىً، أو يُحْدِثوا إفساداً في الأرض، مع خضوع كل نتائج أعمالهم لسلطان التمكين القدريّ العامّ، والتسخير للمسخّرات في الكون، ومَعَ الإذنِ من الخالق جلَّ جلاله بتحقيقها للابتلاء.

وممّا قد يكون له آثارٌ ذَواتُ شَرٍّ وضُرٍّ، وهو يتحرَّك في الكَوْنِ بقوانين الله القدريَّة الجبريَّة، ما هو داخل في ذات الإنسان، كنَفْسِه الأمّارة بالسُّوء، وكبَعْضِ دوافعه وغرائزه الّتي قد تنمو في ذات نفسه، فتحرّضُ قُدْرات إرادته على فعل الإثْم والشّرّ، وقد يَدْفَعُها بقُوَّة، كَشِدَّة انفعال الغضب الّذي يُفْسِد ميزان العقل، ويُضْعفُ مقاومة الإرادة، وكَشِدَّةِ انفعال العشق أو البغض أو الحقد، أو شِدَّة ثَوَران الشهوة، أو تملُّك الطَّمَعِ أو الخَوف أو الجبْنِ، أو ضغط الضائقاتِ الْمُحْرِجَاتِ كالفقر والجوع الشَّديدين، وأنْواع التَّعذِيب والآلام الَّتِي تُزْهِقُ قدرات الاحتمال لدى الإنسان.

والإنسُ والجنُّ لهُمْ آثارٌ ذَاتُ شَرٍّ، وهم يتحرَّكون ويتصَّرفُون في الكون بإرادَةٍ حرّة مُخْتارة منحهم الله عزّ وجَلّ إيّاها، ومكَّنَهمْ من تنفيذ بعض مراداتهم، ممّا يدخُل ضِمْنَ استطاعة قُدْراتهم، فيما سخَّرَ لهم في كونه.

فالإنْسُ قد يمكرون ويكيدون ويوسْوِسُون بأسبابٍ خفيّة أو ظاهرة، لإنزال الشرِّ أو الضرّ، أو الأذىٰ، فيمن يكيدونه، وهذا من لوازم التخيير والتمكين والتسخير، للابتلاء في ظروف الحياة الدنيا.

والجنُّ قد يفعلون مثل ذلك، بأسْباب خفيَّةٍ، مكَّنَهُمُ اللَّهُ منها، وسخَّرَهَا لهم، غير أسباب الإنس، وهذا من لوازم التخيير والتمكين والتسخير.

والشياطينُ وهم كفَرَةُ الجنّ ومرَدَتُهُمْ قَدْ يُوَسْوِسُون، ويُغْرُون، ويُسَوِّلُونَ إطماعاً بالباطل، لدفع الناس بوساوسهم، وإغراءاتهم، وتسويلاتهم، إلى الكفر والفسوق والعصيان، وهذا من لوازم التخيير والتمكين والتسخير.

وكلُّ ما لا يَمْلِكُ الناس أسبابَ الحماية منه، واتخاذ الوقاية من أسباب شَرِّه أو ضُرِّه أو أذاه، فقد تكفَّلَ اللَّهُ عزّ وجل للمؤمنين به، المستقيمين على طاعته، والمستعيذين به، بأَنْ يتدخَّل جَلَّ وعلا، ليحميَهُمْ ويَقِيَهُمْ من الشرور، ذواتِ الأثار الضَّارَّةِ في آخِرَتِهم، إذا استعاذوا بِه حقاً وصدْقاً، ولَجَؤُوا إليه من عُمْقِ قُلُوبهم، وتوكَّلُوا عليه، داعين متضرّعين له، وقَدْ يدفع عنهم المضارّ الدُّنيويَّة أيضاً، ما لم تكن حكمتُهُ قد قضَتْ بأن يَبْتَلِيهُمْ ببعْضِها، بشَرْط أن يستعيذوا بِه حقاً وصدْقاً، ويَلْتجِؤُوا إليه من عُمْقِ قُلُوبهم، ويتوكَّلُوا عليه، داعين متضرّعين له، مخلصين في دَعَائهمْ وعبادتهِم له.

وقد عَوَّدَ الله عزَّ وجَلَّ عباده المؤمنين الصّادقين أن يَرُدَّ كيْدَ أعدائهم في نُحورهم، وأنْ يُعيذَهُمْ من شرورِهم، إذا استعاذوا به والتجؤُوا إليه.

ومكّن الرّبُّ الخالق جلّ جلالُه ذوي الإرادات الحرّة من اتخاذ مَقاديرَ مُحَدَّدةٍ من الأَسْبَاب، للوقاية والحماية من أنواع الشرّ والضّرّ والأذىٰ، التي قد تأتي بها القوانين الكونية الجبريّة، والتي مكَّنَ عباده من اتّخاذ أسبابها،

بمقادير محدَّدة أيضاً، ومكَّنَهُمْ أيضاً من دفْعِ الموانع والعقبات والصوارف الّتي تَحُولُ دون تحقيق النتائج الّتي يُرِيدون تحقيقها، بمقادير محدَّدة من الأسْباب أيضاً.

ولكِنَّ وراءَ الأسْباب الظاهرةِ أسباباً كثيرةً خفيَّة، منها ما هو لتحقيق المطلوب، ومنها ما هو لرَفْع الموانع والعقبات والصوارف عن تحقيقه، ومنها ما هو للوقاية والحماية من الشرّ والضرّ والأذى، وهذه الأسباب الخفيَّةُ غيْرُ الظاهرة هي الجمُّ الغفيرُ من الأسباب، وهيَ تَقَعُ فَوْقَ استطاعة المخلوق وقدراته، أو تَقَعُ وراء دائرة عِلْمه، أو يَعْلَمُها ولا يتمكَّنُ من الوصول إليها أو التَّحكُّم بها.

فَمَنْ غيْرُ الله الخالقِ الرَّبّ العليم الحكيم اللّطيف الخبير، يتوَّلىٰ أو يَمْلِكُ دَفع أنواع الشرّ والضرّ والأذي، الّتي لم يُعْطِ عبادَهُ أسْبَابَ دفعها؟!

ومَنْ غير الله الخالق الرَّبّ العليم الحكيم اللّطيف الخبير، يتولّى أو يَمْلِك رَفْعَ الموانع والعقبات والصوارف، الّتي لم يُعْطِ عباده أسْباب رفْعِها؟!.

ومَنْ غيرُ اللَّهِ عزّ وجلَّ يتولّى أو يَمْلِكُ وِقَايَةَ وحِمَايَةَ عباده من أنواع الشرّ والضرّ والأذي الّتي لا يملكونَ وسيلةً للتوقي منها، لأنَّها فوق طاقتهم، أوْ لاَ تَقَعُ في دوائر علمهم؟!!.

إذَنْ: فالإنْسَانُ يَتَّخِذُ مِنَ الأَسباب ما مكَّنه الله من اتَّخاذه، ثُمَّ يَجِدُ نفسه عاجزاً عن اتّخاذ أسبابٍ هي فوق قُدَرَاته، أو لا تَقَعُ في دائرة علمه أصلاً.

فماذا يفْعَلُ إذن؟!

إنّه لا حيلة له إلاّ أن يَرْجع إلَىٰ قاعدة إيمانه برَبّه، الذي هو مَسَبّبُ الأسْبَابِ كلّها، والمهَيْمِنُ علَىٰ كُلّ شيءٍ، والعليم الخبير بكلّ شَيْءٍ، والَّذِي هو على كُلّ شيء قدير.

فإذا رجَعَ إلى قاعدة إيمانه بربّه هَدَاه إيمانُه إلى أنَّ مسؤوليّاته وواجباته السببيّةِ تَنْحَصِرُ فيما يَمْلِكُ اتِّخاذه من أسباب، وهو يتَّخذها مستَعِيناً باللَّهِ عزّ وجلّ، ليُمِدَّهُ بالْعَوْن والتوفيق، وبمزيدٍ من الْقُوَى الغيبيَّةِ المساعدة له في أسبابه.

ولهذا علّمنا رَبُّنا جلّ جلالُه، أن نستعين به في ممارساتنا لكلّ أسبابنا، فنقولَ بقلوبنا وألسنتنا: بسم الله الرحمن الرحيم.

وعلّمَنا رَبّنا جلَّ جلالُه، أَنْ نَتوكَّلَ علَيْهِ ليحقّق لنا ما نِحِبُّ مِنْ خَيْرَي الدنيا الآخرة، وعلّمنا أن نقول بقلوبنا وألسنتنا أذكارا وأدعية أنزلها في كتابه، ومنها:

- ﴿هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ﴾
- ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ﴾.
- ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾
- ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾.
- ﴿هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾.
- ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾.

إنَّ هذا التوكُّلَ على اللَّهِ عزّ وجلَّ، هو من عناصر العبادة له تبارك وتعالى مع ما فيه من استجلاب تحْقِيق مَا لا يَمْلِكُ العبْدُ أسبابه، إذا كان لله حِكْمَةٌ وإرادَة في تحقيقه لِعَبْدِه.

وبالتأمُّل الدقيق العميقِ نُدْرِكُ قَضيَّتَيْن:

القضيّة الأولى: أنَّ اتّخاذ الأسباب يَقَعُ في دائرة الطاعة العمليَّة لله عزّ وجل.

القضيَّة الثانية: أنّ التوكُّلَ على الله عزّ وجلّ يَقَعُ في دائرة العبادة القلبيَّة والنفسيّة لله تبارك وتعالى، ويُسَاعِدُ اللّسَانُ هذه العبادة بالذكر اللفظيّ، الذي قد يجلُب التصوّرَ الذهْنِيَّ، والحضورَ القلبيَّ النفسيَّ.

أمّا موقف العبْدِ المؤمِنِ تُجاهَ ما لا يَمْلِكُ حمايَة نَفْسِه وَوِقايتَها، مما قدْ يَتَّجِه نَحْوَهُ بشرٍّ أَوْ ضرٍّ أَوْ أذىٰ، مِنَ المخْلُوقاتِ غَيْرِ ذَاتِ المسؤوليّة عمّا يَحْدُث بها من أحداث، وكذلك منَ المخلوقات ذوات المسؤوليّة عمَّا تُحْدِثُ بإراداتها مِنْ أحداث. فهو الاستعاذة بالله من شرِّ كلّ ذي شرٍّ، ومن ضُرّ كلّ ذي ضُرّ، ومن أذى كُلّ ذي أذىٰ.

والاستعاذةُ باللَّهِ عزَّ وجلَ، هي في الحقيقة تَوَكَّلٌ على اللَّهِ ودُعَاءٌ له في آنٍ واحد. وهاتان عبادتان في حركاتِ القلْب وذكر اللّسان.

وفي الربع الأوّل من التّنزيل المكيّ أنزل اللَّهُ وجلّ سُورَتَي المعوِّذَتين، يُعَلِّمُنَا فيهما كَيْفَ نَسْتَعِيذُ به مِنْ شَرِّ كلّ ذي شرّ، نظراً إلَىٰ أنّ الاستعاذة به من أوائل مظاهر السلوك الإيماني، بَعْدَ إعلان التوحيد، وبَعْدَ الاستعانَةِ باللَّهِ في كلِّ الأعمال، وبَعْدَ الصَّلاةِ له وبعْضِ ألوان العبادات القوليّة والعمليَّة.

وقد اشتملت سورة (الفلق) على الاستعاذة بالرَّبّ الخالق عزّ وجلّ من شرّ كلّ ذي شرٍّ يأتي بأضرار وشرورٍ دُنيويَّة، كَكُلّ حامل للشرِّ والضُّرّ والأذىٰ يَسْرِي في الظلمات. وهو يسْتَتِرُ ويَتخَفَّىٰ بوسائله وتحرُّكاته، وكَكُلّ مُتَّخِذٍ وَسَائلَ خفيَّةٍ غَيْبيَّةً، لا يَعرِفُهَا إلاَّ ذَوُو اختصاصٍ وممارسَاتٍ خاصَّة، كالسَّحَرةِ، وكُلِّ مُسْتَخْدِم طاقاتٍ خفيةٍ في ذاتِهِ، وهِيَ ذوات تأثيرات في الأجساد أو في الأنفس، كالطاقات الّتي تُطْلِقُها نفوسُ الحاسدين، فيكون لها تأثيرات بشرّ أو بضُرّ أو أذى.

واشتملت سورة (الناس) على الاستعاذة ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

❃ ❃ ❃

(٩)
الملحق الثالث
الاستعاذة بالله في القرآن والسُّنَّة

(١)
الاستعاذة في القرآن

باستقراء ما جاء في القرآن المجيد حول الاستعاذة بالله عزّ وجلّ، تَتَبُّعاً له وفْقَ تَرْتيب نُزُول السُّور، تبيّن لي ما يلي:

أولاً وثانياً:

كان أوّل ما نزل في القرآن حول الاستعاذة بالله جلّ جلاله، مَا جاء في سورتي (الفلق والناس) اللَّتَيْنِ تدبَّرْنَا آياتهما على قَدْرِ أَوْعيتنا الفكريَّة والعلميَّة.

ثالثاً:

ثُمَّ أنزل اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) خطاباً لرسوله، ويُلْحَقُ به كُلُّ حَمَلةِ رِسالَتِه من أمَّتِه قَوْلَه:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾.

نزغ الشيطان: وساوسه وتسويلاتُه التي يَقْصِدُ بها حَمْل الإنسان على ارتكاب الإثم، ومخالفة منهج الله.

في هذا النصّ أبان اللَّهُ عزّ وجلّ للدّاعي إلى الله طرفاً من المنهج القويم في معالجة الذين يدعوهم إلى دين الله، ويتضمّن هذا البيان التعليميُّ أربع موادّ:

المادّة الأولى: أنْ يأخُذَ الْعَفْوَ عمَّنْ أساء إليه من المدعوّين، ومع أنّ العفو عن الإساءة صعْبٌ على معظم النفوس، فقد جاء التعبير عنه بعبارة تُشْعِر بأنه شيء ثمين يأخذُه الدّاعي إلى الله، وفي هذا كناية تدُلُّ على أنّ ثوابه عندا الله ثوابٌ عظيم، وأنَّ على الداعي إلى اللَّهِ أن يكون حريصاً على أن يَنَال هذا الثواب الجزيل ويظفر به، كما يَأْخُذُ النّاسُ ما يُحِبُّون من عطاءات الملوك والعظماء.

المادّة الثانية: أن يأمُرَ بالْعُرْف، أي: أن يكون من اهتماماته الكبرى في المجتمع الذي يدعو إلى الله فيه، أن يَدْعُوَ الموسِرين إلى بَذْلِ الْعُرْفِ للفقراء والبائسين وذوي الحاجات، فالْعُرْفُ في مفهوم الناس إبّان نزول هذا النصّ يُطْلَق على الْجُود والعطاء والبذل لذوي الحاجات ممّا يسُدُّون به حاجاتهم، وبهذا يستعطف الداعي إلى دعوته جُمْهوراً عظيماً من المجتمع.

المادّة الثالثة: أنْ يُعْرِضَ عن الجاهلين، ولا يُوَاجه جهالاتهم بأمثالها.

والمراد بالجاهلين الذين يقابلون دعوة الداعي بالسباب والشتائم، أو بأنواعٍ من الأذىٰ، أو بالاستهزاء والسخْرِية.

فمن أدب منهاج الدعوة إلى الله الإعراضُ عن الجاهلين، وعدم الاشتغال بدفع أذاهم، أو بردِّ شتائمهم واستهزاءاتهم وسخراياتهم بأمثالها.

المادّة الرابعة: أنْ يلتجئ إلى الله مستعيذاً به، ليَدْفع عن نَفْسِه نَزَغَات الشيطان، الّتي تحرّضُهُ على أن يقابل السيّئَة بمثلها، ويَنْتَقِمَ لنفسه من المدعوّ، فإنّ مثل هذا العمل يُفْسِدُ على الداعي دعوته، ويحوّل رسالَتَه من وظيفة رَبّانية يَعْبُد بها ربَّهُ، إلى قضيّة شخصيّة.

وبما أنّ الداعي إلى الله من فئة المتقين في الحدّ الأدنى، إذا لم يكن من الأبرار أو المحسنين في الحدّ الأعلى، فإنّ المتقين إذا مسَّهُمْ طائفٌ من الشيطان تَذَكَّرُوا وَاجباتهم تُجاه ربّهم، فأبْصَرُوا، فاستعاذوا بالله من نزغات الشيطان.

أمّا غير المتقين فهم إخوان الشياطين، وهم يتأثَّرُونَ بنزغاتهم، ويستجيبون لوساوسهم، وإنَّ الشياطين يَمُدُّونهم في الْغَيِّ، فيوقعونهم في المعاصي والآثام، ويجعلونهم يفعلون الشّرور، ثم يتابعون إزْلاَقهم في المنحدرات الوخيمات إلى مهالكهم.

رابعاً:

ثمّ أنزل اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول) حكاية مقالات قالها نفرٌ من الجنّ، اسْتَمعوا تلاوة طائفة من القرآن من الرسول ﷺ، فآمَنُوا به، وأعْلَنُوا أنَّهُمْ لن يُشْركوا بربّهم أحداً، وجاء في مقالاتهم قولهم:

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾.

أي: فزادُوهُمْ تعباً وأحمالاً ثقيلةً على نفوسهم، وزادوهم سَفَهاً وحماقة وجهلاً، وركوبَ شَرٍّ وإثم وظلم.

لأنّ مثل هذه الاستعاذة هي من الشرك بالله، ومعلومٌ في الدّين أنّ الاستعاذة بالغيبيات لا تكون إلاَّ باللَّهِ العزيز العليم، الذي لهُ مُلْكُ السماوات والأرض، وبيده مقاليد كلّ شيء.

خامساً:

ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) ضمن عرض قصة مريم عليها السلام:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾.

لم تكُنْ مَرْيَمُ عليها السّلام تَعْرِفُ أنّه ملَكٌ مُرْسَلٌ إلَيْها منْ رَبّها، لَكِنْ لَمْ تَرَ عَلَيْهِ أيّة علامة على أنّه رجلٌ فاسِقٌ، بل رأَتْ عليه علاماتٍ تَدُلُّ على أنّه تقي، ولهٰذَا استعاذَتْ باسم الرَّحْمٰن منْهُ إنْ كان تقيّاً، لأنَّ دخولَهُ عليها قد يجلُبُ ما يسوؤُها في مجتمعها، وهي الطاهرة العفيفة الشريفة العابدة القانتة لربّها.

ولو أنّها رأت عليه أمارات الْفِسْق لاستعاذَتْ منه بالجبّار القهّار المنتقم.

وفي حكاية هذه القصة تعليم لنا كيْفَ نستعيذ بالله في المواقف الحرجة المشابهة.

سادساً:

ثـمّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) في معرض حكاية لقطات من قصّة نوح وقومه قوله:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

لم يكُنْ نوحٌ عليه السّلامُ يعْلَمُ عن ابنهِ المحكوم عليه بالغرق مع كُفّارِ قَوْمِهِ أنّهُ كافِرٌ، إذْ كان بعيداً عنه، وظنَّ أنّ وعْدَ اللّهِ لَهُ بنجاة أهْلِهِ معه في السفينة يشْمَلُ هذا الابْنَ، فأبانَ اللّهُ لَهُ حقيقة أمْرِهِ، وَقالَ لَهُ: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: أنّي أَعِظُكَ مُحذِّراً لَكَ أَنْ تكونَ مِنَ الجَاهِلين، الّذِين يسألُونَ الله تغييرَ أُمُورٍ هي مِنْ أَحْكَامِهِ الحكيمة العادلة.

عندئذٍ استعاذ نوحٌ عليه السلام بربِّهِ مِنْ أَنْ يسْأَلَهُ مُسْتقبلاً مَا لَيْسَ له به

عِلْم، وسألَ ربَّهُ أن يَغْفِرَ لَهُ ويَرْحمَهُ بشأنِ سُؤالِهِ السَّابِق الّذي سألَهُ مِنْ أجْلِ ابْنِه.

وفي هذا النصّ تعليم لنا أن لا نسألَ اللَّهَ تغيير أحكامه العادلة، فيمن حكم عليهم بالعقاب، ولو كنَّا لا نعلم السَّبَب الحقيقيَّ لما حكم عليهم به، فهو سبحانه عليم بعباده، ولا يظلم أحداً، ودُعَاؤه في أمْرٍ من هذا القبيل يُشْعِرُ بالاعْتِراض على حُكْمه، أو هو جهالَة لا تَلِيق بالمؤمن الذي يعْلَمُ أنَّهُ أحْكَمُ الحاكمين، وأعْدَلُ العادلين.

سابعاً:

ثمَّ علّمنا الله عزّ وجلّ أن نلْجأَ إليه، ونستعيذ به من أن ننزلِق إلى الانغماس في كبائر الإثم، عند المواقف الّتي قد تضعف فيها مقاومَة إرادتنا الرشيدة، وتبدأُ فيها غشاوات الشهوات العارِمَات تتوارد على ساحة بصائرنا الإيمانيَّة، فقصّ علينا في قصّة يوسف عليه السلام، استعاذَته بربّه حينما راودته امرأة العزيز عن نفسه، ودُعاءَه ربَّهُ أن يَصْرِفَ عَنْهُ كَيْدَها، وكيْدَ النّسوة اللّواتي أعْلَنَتْ لَهُنَّ شغَفَها به، وحرصَها الشديد على أن يستجيب لمراودتها.

● فقال الله عزّ وجلّ في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) في أثناء عرض قصّته:

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

مَعَاذَ اللَّهِ: أي: أعوذ بالله مَعَاذاً، أنْ أعْصِيَ رَبّي الّذِي أحْسَنَ مَكانَ إقامَتِي في مِصْرَ، وَأحْسَنَ مَنْزِلَتِي عِنْدَه إذْ آتاني الْحُكْمَ والعلم.

● وقال الله عزّ وجلّ فيها أيضاً مبيِّناً دُعَاءَ يوسف لربّه، إذْ رأَىٰ تواطُؤَ جَمْهَرَةٍ من ذَوات المكانة من نساء عِلْية القوم، يُحَرِّضْنَهُ علَىٰ أن يسْتجيب لرغبة امرأة العزيز العاشقة:

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾: أي: أَمِلْ إِلَيْهِنَّ مَيْلَ مُرْتَكِبٍ لِلْإِثم.

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: أي: وَأكُنْ من مضيّعي الْحَقّ، السُّفَهاءِ العصاة الَّذين يرتكِبُونَ الإثم.

يقال لُغَة: جَهِلَ الْحَقَّ إذا ضَيَّعَهُ. ويقال: جَهِلَ فُلانٌ جهلاً وجهالَةً، إذَا جَفَا وتَسَافَهَ، وركب مراكب الحمقى وتصَرَّفَ بغير عَقْلٍ وَلاَ حِلْمٍ، وحَادَ عَنْ سَواء السبيل.

وجاء في سورة (يوسف) أيضاً بشأنِ استعاذَةِ يوسف عليه السَّلام باللَّهِ من أن يكُونَ مُجَانباً الْعَدْلَ، فيأخُذَ البريء بدَلَ مَنْ دَلَّتِ الأمارَاتُ المادّيّةُ على أنَّهُ هو المتَّهَمُ من إخْوَتِهِ بسَرِقَةِ صُوَاعِ الْمَلِكِ، قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ في أثناء حكايته للقصّة:

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

عَبَّر يوسف عليه السلام بنُون الجمع فقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ إشارةً إلى حَزْمِه في إدارته، وقُوَّة سُلْطَانِهِ على جُنُودِهِ، ومُرَاقَبَتِه لهم، وأنّه لا يُوجَدُ في جُنُودِه من يتجرَّأ عَلىٰ أَنْ يأخُذَ بريئاً غير مُتَّهَمٍ، بدَلَ المتَّهَمِ الّذِي وُجِدَ صُوَاعُ الْمَلِك في رَحْلِه.

ثامناً:

ثمّ أعْلَمنا الله عزّ وجلّ أنّ مُوسَى عليه السَّلام استعاذ بربّه الّذي هو رَبُّ فرعون وجنوده من كلّ متكبّرٍ لا يُؤْمِنُ بيَوْمِ الحسَاب، لمَّا عَلِمَ أنَّ فرعون يستَشِيرُ مَجْلِسَ وُزَرائِهِ أَنْ يقتُلَه.

وفي هذا تَعْليم لنَا أن نَسْتعيذ بالله من كلّ ذي سُلْطانٍ متكبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْم الحساب.

فقال الله عزّ وجلّ في سُورَة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦ نزول) أثناء عَرْضِ لقطاتٍ من قصَّةِ موسَىٰ وقومه:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾.

تاسعاً:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) توجيهاً للداعي إلى الله بأن يدفع بالّتي هي أحسن. وأكّد له ما سَبَق أن أنزلَهُ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بأن يستعيذ بالله السميع العليم، إنْ تحرّكَ في نفسه نزغ من الشيطان يدعوه إلى أن يخالف المنهج الذي أبانه الله للداعي.

وجاءت العبارة في سورة (فُصّلت) مقترنة بمزيدٍ من أدواتِ التوكيد، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

لقد جاءت العبارة في سورة (الأعراف) السابقة نزولاً: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ مُؤَكَّدَةً بِدُونِ قَصْرٍ وحصر.

ثُمَّ جاءت العبارةُ في سورة (فصلت) التي نزلت بعد نزول إحدى

وعشرين سورة: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فاقترنت بضمير الفصل، وتَعْرِيف كلمتي «السميع العليم» فأفادت الجملَةُ التأكيد الشديد مع القصر، وربّما كان الداعي لهذا أنَّ بعض الدُّعاة إلى اللّهِ مِنَ الصحابة قَدْ تأثر بشيءٍ من نزْغِ الشيطان، حين لَقِيَ ما يَسُوءه من الّذين يَدْعُوهم من المشركين.

عاشراً:

ثم أبان الله عزّ وجلّ استعاذة موسى عليه السلام بربّه الذي هو رَبُّ فرعَوْنَ وجنودِه، من أن يَرْجُموه، إذْ بلَغَه أنّ الْمَلأَ أباحوا رَجْمه، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول) في أثناء عرض بعض لقطاتٍ من قصة موسى وقومه، وبعض أقواله لهم:

﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: فاستجابَ الله دُعاءه، وفي هذا تعليم لنا أن نستعيذ بالله ربّنا جلّ جلاله، كُلّما تخوّفْنَا من أعداء الله أن يُنْزِلُوا بنا ضُرّاً أَوْ أذى.

حادي عشر:

ثُمَّ علّمَ اللّهُ عزّ وجلّ رسوله، ويُلْحَقُ به كلُّ حَمَلَة رِسالته من أمّته، أَنْ يستعيذ بربِّه من همَزَاتِ الشّيَاطين، ومن أنْ يكونُوا حاضرين عنده حضور مُوَسْوِسٍ خَنَّاس، فأنزل في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) قوله:

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

همزات الشياطين: خاطراتهم، وهَمَسَاتُهم، ووساوِسُهم، الّتي يُلْقُونها في فِكْر الإنسان وقلبه.

أصل الهمز في اللّغة، مثلُ الغمز والضَّغْط والْعَصْر والنَّخْسِ باليد، أو بأداةٍ ما.

ثاني عشر:

وفي العهد المدنّي أنزل الله عزّ وجلّ بشأن الذين يجادلون في آيات اللَّهِ بغير سلطانٍ أتاهم نَصّاً ضُمَّ إلى سُورَةٍ مكيَّةِ التنزيل هي سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) هو قول الله عزّ وجلّ فيها؛

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾.

في هذا الإجراء الحكيم إشعارٌ بأنّ الْمُرادَ بهذا النَّصّ هم طُغَاةٌ مستكبِرُونَ من مُشْرِكي مكّة، ولَكِنْ اقْتَضَتِ الحكمَة الدعَوِيَّة تأخير إنزاله إلى العمد المدني لئلا يستثير حفيظتهم ويهيّجَ غَضَبَهم، والرَّسُول ﷺ ومعظم المسلمين بينهم وتَحْتَ سلطانهم.

وقد علّم الله رسوله ﷺ وكلَّ حَمَلَةِ رِسَالَتِه من أُمّتِهِ، أنْ يَسْتَعيذُوا بالله من شرور الذين يجادلون في آيات اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ عِلْمِيٍّ أتاهم، إنَّما الدافع الذي يدفعهم إلى الجدال بالباطل كِبْرٌ في صُدُورِهِمْ، يَضَعُونَ بِهِ أنْفُسَهم في مَنْزلَةٍ فكْرِيَّةٍ واجتماعيَّةٍ لَيْسُوا هُمْ أَهْلاً لها، ولا هُمْ ببالغيها.

فاستكبارُهم استكبارُ ظالم مُعْتَدٍ مجانبٍ للحقّ، يدفع المصابَ بِهِ إلى الانتقام السّريع بحماقة، ممَّنْ يَكْشِفُ خبايا نفسه.

ثالث عشر:

ثمّ علّم الله المسلمين ولا سيما حمَلَةُ رسالة الرسول ﷺ من أمّته، أَنْ لا يتَّخِذُوا أيّ عَمَلٍ يُشْعِرُ بالاسْتهزاءِ بالآخَرِين، وأخطر ذلِكَ مَا يكونُ في مسائل الدين.

وعلّمهم أن يستعيذوا باللَّهِ من أنْ يَرْتَكِبُوا هذهِ الحماقة القبيحة الّتِي لا يفعلُها إلاّ الجاهلون.

نفهم هذا مِنْ عَرْضِ قصّة قتيل بني إسرائيل وطلب موسى عليه السّلامُ منهم أَنْ يذبحوا بقرةً، لكَشْفِ قاتله، فظنُّوا أنّه يسْتَهْزِئُ بهم فقال لهم: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول) أوّل سورة نزلت في العهد المدني:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

أي: أعُوذُ بالله مِنْ أنْ أكُون الآنَ وَمُسْتَقبلاً من السُّفَهاءِ الحمقى، العصاة لله، الّذِين يَسْتَهْزِئون بالآخرين، ولا سيَّما في قضيَّةٍ من قضايا الدِّين الَّتي يُبَلِّغُونَها عَنِ الله.

رابع عشر:

ثُمَّ علّمنا رَبُّنا أَنْ نَسْتعيذ به لأولادنا وَذُرّياتنا من الشيطان الرَّجيم.

نفهم هذا من عرضه لقصّة امرأة عمران، عرضاً مشعِراً باستحسان دُعائها لربّها، أن يُعيذ ابْنَتَها مَرْيم، وذُرِّيّتها من الشيطان الرجيم، واستجابته لدعائها.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/٣ مصحف/٨٩ نزول) ثالث سورة نزلت في العهد المدنّي:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا...﴾.

هذه هي النصوص القرآنية حول الاستعاذة باللّهِ عزّ وجلّ، مقرونة بموجزاتٍ تَدَبُّرِيَّةٍ لما جاء فيها بشأن هذا الموضوع.

❊ ❊ ❊

(٢)
الاستعاذة بالله في السُّنة

جاء في السّنَّةِ النّبويّة حوْلَ التوجيه للاستعاذة باللَّهِ عزّ وجلّ، وحول استعاذات الرَّسُول ﷺ بربّه في أدعيته، أحاديث كثيرة، منها ما يلي:

(١) روى مسلم عن أبي هريرة قال:

«كَانَ النبيّ ﷺ يَأمُرُنَا إِذَا أَرَادَ أَحدُنَا أَنْ يَنَامَ، أَنْ يضطجع عَلَىٰ شِقِّهِ الأَيْمَنِ، ثُمَّ يَقُولَ: اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاواتِ وَرَبَّ الأَرَضِينَ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ والنَّوَىٰ، مُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْس قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْس فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اِقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ، وأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ».

(٢) وروى أبو داود والتّرْمِذيُّ عن عبد الله بن عَمْرِو بن الْعَاص، أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ:

«إِذَا فَزِعَ أَحَدُكُمْ مِنَ النَّوْمِ فَلْيَقُلْ: (أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ غَضَبِهِ وَعَذَابِهِ، وَمِنْ شَرِّ عِبَادِه، ومِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِين) فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ».

(٣) وَأَخْرَج الترمذِيُّ وأبُو دَاود عَنْ أبي هُرَيرَة، أنَّ أبا بكر قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مُرْنِي بِكَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ إِذَا أَمْسَيْتُ، وإِذَا أصبحْتُ، قال:

«قِلْ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَعَالِمَ الْغَيْبِ والشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ ومَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، أَعُوذِ بِكَ مِنْ شَرِّ نِفْسِي، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ».

(٤) وروى مسلم عن عبد الله بن مَسْعودٍ، أَنَّ النبيَّ ﷺ كان يقولُ إذا أمْسَىٰ وَإِذا أصْبَحَ:

«أمْسَيْنا وَأَمْسَىٰ الْمُلْكُ لِلَّهِ، أَوْ أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ».

ثم يَقُول:

«وَالْحَمْدِ لِلَّهِ، لاَ إلهَ إلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ له، لَهُ الْمُلْكُ ولَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا، وَأعُوذُ بِكَ مِنْ شرِّ هٰذِهِ اللَّيْلَةِ، وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا، أعُوذُ بكَ مِنَ الْكَسَلِ، وَسُوءِ الْكِبَرِ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ في النَّارِ، وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ».

(٥) وروىٰ مُسْلِمٌ عَنْ عَبْد الله بن عَمْرِو بن العاص، أنَّ النبيّ ﷺ كان يقول:

«اللَّهُمَّ إنّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ».

(٦) وروى البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ جَهْدِ الْبَلاَءِ، وَدَرْكِ الشَّقَاءِ، وسُوءِ الْقَضَاءِ، وشَمَاتَهِ الأَعْدَاءِ».

(٧) وروى أبو داود والنسائي وابْنُ ماجه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنّه قال:

«اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذِ بِكَ مِنَ الْجُوعِ، فَإِنَّهُ بِئسَ الضَّجِيعُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ فَإِنَّهَا بِئْسَتِ الْبِطَانَة».

(٨) وروى البخاريُّ ومسلم عن عُثمان بن أبي العبّاس، أنَّهُ شَكا إلى رسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَعاً يجدُهُ في جَسَدِهِ مُنذُ أَسْلَم، فقال له رسول الله ﷺ:

«ضَعْ يَدَكَ عَلَىٰ الّذي تَأْلَمُ مِنْ جَسَدِكَ، وقُلْ: بِسْم اللَّهِ، ثَلاثاً، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ».

وجاء عند مالك، أن عثمان بن أبي العباس قال: فَفَعَلْتُ ذلِكَ، فأذْهَبَ اللَّهُ مَا كَانَ بِي، فَلَمْ أَزَلْ آمُرُ بِهَا أَهْلِي وَغَيْرَهم.

(٩) وروى مسلم وأحمد وغيرهما، عن زيد بن أرقم، عَنِ النبيّ ﷺ قولُهُ:

«اللَّهُمَّ إنّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ والْكَسَلِ، والْجُبْنِ والْبُخْلِ والْهَرَمِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَفِتْنَةِ الدَّجَّالِ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاها، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَها، اللَّهُمَّ إنّي أَعُوذ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا».

(١٠) وروى أبو داوُد والنسائي والبيهقيُّ والحاكم عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ قوله:

«اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ والْقِلَّةِ وَالذِّلَّةِ، وأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ».

والأحاديث في الاستعاذات النبوية كثيرة، تُكْتَبُ فيها رسالةٌ فَذَّة، وأكتفي منها بهذا المقدار هنا.



(١٠)
الملحق الرابع حول السّحر

السِّحْرُ من الوسائل الخفيَّةِ، إذْ تُسْتَخْدَمُ فيه بعْضِ الْقُوىٰ المحتَجبة عن مدارك الناس، وهي قُوىً يصْعُب الاحتراز مِنها أو تفادي خطَرِها بالوسائل المادّية المشهودة. وهو أيضاً من الوسائل الّتي تُغْرِي الأنْفُسَ بالأذى والضُّرُ لِمَنْ تُعَادِي أو تَحْسُد، مع ما فيه من فِتْنَةٍ لا يَكادُ ينْجُو منْهَا أحَدٌ تعَلَّمَهُ أَوْ مَارَسَه، وفي معظم الأحوال يكُون مقترناً بشركيّاتٍ وكُفْريّات.

لكُلِّ ذَلِكَ شدّد الإسلام في تحريمه والتحذير منه، وجعَلَهُ الرَّسولُ ﷺ بعْدَ الشّرْك باللّهِ في السّبْعِ الْمُهْلِكَاتِ الّتي أمَرَ باجْتِنَابها، أي: بالابتعاد عن حدودها.

روى البخاريُّ ومسلم وأبو داود والنَّسائيُّ عن أبي هريرة، أنَّ الرَّسُول ﷺ قال:

«اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ» أي: المهلكات.

قالوا: وما هُنَّ يا رسُولَ الله؟ قال:

«الشّرْكُ باللّهِ، والسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إلاَّ بالْحَقِّ، وأَكْلُ الرِّبَا، وأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، والتَّوَلّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الغافِلاتِ».

وأبان الله عزّ وجلَّ أنَّ السَّاحِرَ لا يُفْلِحُ حيث أتىٰ، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) لموسى عليه السلام بشأن سِحْر سَحَرَةِ فِرْعَوْن:

﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾.

وقد أجْمَعَ الْفُقَهاءُ على أنَّ السِّحْرَ مِنْ كَبَائر المحرَّماتِ في الشريعة الإسلاميَّة. وأنَّهُ رُبما يؤدّي إلى الكفر، بل قال الإمامُ مالِكُ: «إنَّ السَّاحِرَ كافِرٌ».

ويَرَى معظم علماء المسلمين أنَّ للسِّحْرِ بعْضَ التأثيراتِ الظَّاهراتِ، مع جَهْلِ حقيقة الأسْبابِ الخفيَّةِ الْمُؤَثِّرَةِ فيهِ

والسِّحْر له أنواع ذواتُ مستويات ودركات:

النوع الأول: السِّحْرُ الذي يُخَيِّلُ فيه للحواسّ أنَّها تُحسُّ بعْضَ الأشياء دون أن يكُونَ لهٰذِهِ الأشْيَاءِ حقيقَةٌ واقعة، ويكُونُ عن طريق التأثير على

جهاز التوهُّم في الإنسان، فترَىٰ عَيْنُه، أو تَسْمَعُ أُذُنُه، أو يَشُمُّ أنْفُه، مَا لاَ حقيقة له في مَجَالِ الحِسّ.

ورُبّما استفْحَلَ هذا التأثير التوهُمِيُّ حتَّىٰ يكُون له أضْرَارٌ عضويَّةٌ حقيقيَّةٌ في جسَدِ المسْحُور، كأنْ تكُونَ المرئيَّاتُ التوهميَّةُ حيَّاتٍ وعَقَارِبَ وأشباحاً مُرْعبة، أو نحو ذلك من مخيفات.

النوع الثاني: السّحْرُ الّذي يعْتمد علىٰ بعض الْقُوىٰ الفطريَّة الّتي خلقها الله في بعْضِ الأنفس، فيكُونُ لها من التأثيرات الإشْعاعيَّةِ أحْداثٌ مادّيَّةٌ في الأجساد، دون أن يكون ذلِكَ عن طريق التوهّم الذاتيّ في المسْحُور، وقد تنمو هٰذه القوى الفطريّة برياضات ذوات تأثير في إنمائها، فتكُونُ تأثيراتُها أشدّ.

النوع الثالث: السّحْرُ الّذي يَعْتَمِد على مَعْرِفَةِ بعْضِ خواصّ الأشياء في الطبيعة، واستخدامها في خواصها، أو يعتمد على الحِيَلِ الصّناعيَّةِ الخفيَّةِ، وخِداع الحواسّ بها.

ويَدْخلُ في هذا النوع الألعابُ القائِميَةُ عَلَى خِفّة الحركة، التي قد تكُون أسرع من قدرة الإدراك البصريّ.

النوع الرابع: السّحر الذي تُسْتَخْدَمُ فيه بعض الأنفس الشّريرة الخبيثة من الجنّ، وسطاء للقيام ببعض التأثيرات الوهمية، أوْ للمساعدة في بعض الحِيَلِ والحركات الخفيَّةِ، أو بَثُ القوىٰ الإشْعَاعيّة، أو الدخول إلى الأجساد البشريّةِ والتأثير فيها من داخلها، كالشيطان الذي يجري من ابن آدم مجرى الدّم.

وهذا النوع من السّحْر له رُمُوزٌ ومُصْطَلَحات وألفاظٌ خاصَّةٌ بين السَّحَرةِ وقُرنائهم من الجنّ، وأظْهَرُها وأكثرها استعمالاً ممّا كان معروفاً في الْعُصُور القديمة، رَبْطُ الْعُقَدِ في الْخُيوط، والنَّفْثُ عليها مِن فَم وريقِ

ممارِسِ السِّحْر، مع تلاوة ألفاظِ خاصَّةٍ تَسْتَدْعي القرناء.

ولمّا كانت هذه الأنفُس الشرّيرة الخبيثة من الجنّ لا تُقارِنُ إلاَّ أمْثالها من النفوس البشريَّة، فإنَّ وَسَائِلَ التَّقَرُّب إليها واسْتِخْدامِها إنّما تكون بألفاظٍ وَأفْعَالٍ مَليئَةٍ بالكُفْرِيَّات غالباً، وفيها الكثير من النجاسات والقذارات.

ومن يسْتَخْدِمُ شيئاً من الشركيَّات أو الكفريَّاتِ الأخْرَى في أعمال السّحر، فهو كافرٌ حلال الدّم.

ولهذا قال الإمام مالِك: الساحر كَافِرٌ، حيثُما وُجِدَ قُتِلَ ولا يُسْتَتابُ، وإلى هذا الرأي ذهَبَ الإمام أحمد، وطائفة من الصحابة والتابعين.

أمّا جُمْهُورُ الفقهاء فإنَّهم يقولون بكُفْره، إذا اسْتَخْدم في سِحْره بعض المكفّرَاتِ، أمَّا إذا لم يَسْتَخْدِم شيئاً من المكفّرات القوليَّةِ أو الفعليَّةِ فلا يكْفُر، لكِنَّهُ يكون قد ارتكَبَ كبيرة من كبائر الإثْم العظمى، الَّتي شَدَّدَ الإسْلام في تحريمها، ولَوْ لَمْ يسْتَخْدِمِ السِّحْرَ في الإضرار بأَحَدٍ من النَّاس، لأنَّهُ مَسْلَكٌ خَطِرٌ قلَّما ينجو من فِتْنَتِهِ أحدٌ تعلَّمَه ومارَسَه.

ونَحْنُ نُؤمن بأنَّ الإضرار بالسِّحْر لا يتمُّ إلاَّ بالتمكين والتسخير والإذْنِ من الله عزّ وجلّ، وبقضاء الله وقَدَره، وجَعْل الأسْبابِ تُؤَثِّرُ في تَحْقِيق مُسَبَّبَاتِها، كسائر الأسْباب الظَّاهِرَة غير الخفيَّة.

إنّ الأسْبَابَ الظَّاهِرَةَ والأسْبَابَ الخفيَّةَ سَواءٌ في أنَّها لاَ تُؤَثِّرُ إلاَّ بقضاء الله وقَدَرِهِ، تَمْكِيناً، وتَسْخِيراً، وإذْناً، ولو كان المستخدمُ لها مُذْنِباً عاصياً لله عزّ وجلَّ، كَقَتْلِ مَنْ يقْتُلُ بغَيْر حقٍ عمداً وعُدْواناً، بسَيْفٍ، أو بسلاحٍ ناريّ، أو بدَسِّ سمٍّ، أو بتوجيه شُعَاعٍ قاتلٍ لاَ تُدْرِكُهُ الأبْصار، أو باستخدام قُوىً أخرى خَفِيَّة، كالنفوس الشرّيرة من الجنّ.

ومن هُنَا نُدْرِكَ أنّ تخصيص استعاذة خاصَّةٍ برَبّ الفلَقِ، من شرّ النَّفَّاثاتِ في العقد، بعد التَّعميم بآيَتَيْنِ سابقَتَيْن، فيه معنى الالتجاء الخاصّ

إلى الله، طَلَباً لحمايَتِهِ جلَّ وعلا، من شُرورِ النّفوس السَّواحر الّتي تسْتَخْدِمُ ما خلَقَ اللَّهُ من قُوىً خَفِيَّةٍ، في الإضرار بالنّاس بغير حَقّ.

هذه الأنواع الأربَعَةُ هي ما عرفناه من أنواع السِّحْر.

● أمّا السّحر الذي يكون من قبيل التَّخْييل، فهو ما كان نظير سِحْرِ سَحَرةِ فِرْعَوْن، إذْ ألقَوْا حِبالاً وعِصِياً، فَكانَ من أَثَر سِحْرِهم، أَنْ خُيّل للمشاهدين ولموسَى وهو النبيُّ الرَّسُول عليه السلام، أنَّها ثَعابينُ تَسْعىٰ، حتّىٰ أحَسَّ في نفسه خيفةً مِنْها.

وفي عرض قصّة هذه المباراة بين معجزة موسى عليه السلام، وسِحْرِ سَحَرَة فرعون، قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾.

● وأمّا السِّحْرُ الّذي قَدْ يكونُ له تأثيرٌ في العواطفِ، فقَدْ ذكَرهُ الله عزّ وجلّ أثراً للسِّحْرِ الّذي كانَ يُعَلِّمهُ الملَكانِ ببابلَ هَارُوت ومَارُوتَ، في معْرِض ذمّ بني إسرائيل الّذين اتبعُوا الشّياطينَ الكَفَرَةَ، فيما تَتْلُوا على مُلْكِ سُلَيْمَانَ علَيْه السّلام، وفي مَعْرِض الحديث عن الملكَيْنِ ببابلَ هاروت ومَاروت.

قال الله عزّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول: متحدّثاً عَنْ فريقٍ مِنْ بَنِي إسرائيل:

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

ومع وجود بَعْضِ التّأثيرات السّحْريَّة في الأحداث الكونيَّة، فإنّ المؤمِنَ الراسخ الإيمان لدَيْهِ من عَقِيدَته في الله عزّ وجلّ حِصْنٌ حَصِين، ولدَيْهِ من الالتجاء إلى اللّهِ مَا يقيه ويَحْمِيه، إلاَّ أَنْ يكون لله جلَّ جلالُهُ قضاءٌ وقدَرٌ في نُزُول بعض الضرّ أو الأذىٰ بالسّحر، لحِكْمَةٍ يشاءُ تحقيقَها من حِكَمِه الجليلة.

وقد ثبَتَ في صحيحَي البخاريّ ومُسْلِم وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها أن لَبِيدَ بْنَ الأَعْصَم، وهو رَجُلٌ من زُرَيقٍ من حُلفاءِ اليهود، وكان مُنافقاً، ورُوِي أنّه عربيٌّ تَهَوَّدَ ثمّ دخل في الإسلام نفاقاً، سَحَرَ النبيَّ ﷺ في مُشْطٍ مِنْ أمْشاطِ النبيّ، ومُشَاطَةٍ[1] من شعر رأسِهِ، وجُفِّ طَلْعِ نخلة ذكر[2]، ووضَعَهُ في بئْرِ ذَرْوان، وهِيَ بِئْرٌ في حَيِّ بَنِي زُرَيْقٍ، وهُمْ خَزْرَجِيُّون فكانَ مِنْ أثر هذا السّحْر في جَسَد الرَّسُولِ ﷺ أنّه كان يُخَيَّلُ إلَيْهِ أنّه يَفْعَلُ الشيءَ وهُو لا يَفعلُه، أو أَنَّهُ يأتي زَوْجاتِه وَهُو لاَ يأتيهِنَّ، وهذا أقْصىٰ ما أثّر السِّحْرُ فيه، ممّا هو ثابتٌ في الصحيح، أمّا ما فوقَ ذلِكَ فلَمْ

(١) **المُشَاطة**: ما يخرجُ في المشط من الشعر لدى تسريحه به.

(٢) أي: قِشرِ طَلْعِ نخْلَة ذكر.

يَكُنْ، ولا يُمْكِنُ أيضاً تأثيرُ السحْرُ على فكر الرسُولِ أو قولِه أو شيءٍ مِن سُلُوكِه الذي هو قدوةٌ للناس فيه، لأنه معْصُومٌ في ذلك كلِّهِ بعصْمةِ من اللَّهِ، وكذلك لا يمكن أَنْ يُؤَثِّر السِّحْرِ على حياته، لأنّ الله عزّ وجَلّ قَدْ عَصَمه من الناس، فقال له في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) مبيِّناً دوام عصمته له.

﴿. . . وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾.

روى البخاريُّ في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت:

سَحَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رجُلٌ من بَنِي زُرَيْقٍ، يقالُ لَهُ: لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَم، حتَّى كانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعلَه. حتَّىٰ إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْم ـ أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ ـ وهُوَ عِنْدِي، لَكِنَّهُ دَعَا وَدَعَا، ثُمَّ قَالَ: يَا عَائشَة أَشَعَرْتِ أَنَّ اللَّهَ أَفْتَانِي فيما اسْتَفتَيْتُهُ فيهِ؟.

أَتَانِي رَجُلَانِ،[1] فَقَعَدَ أَحدُهُما عِنْدَ رَأْسِي، والآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِه: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟. فَقَالَ: مَطْبُوبٌ[2]. قَالَ: مَنْ طَبَّهُ؟. قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَم. قَالَ: فِي أيِّ شَيْءٍ؟. قَالَ: في مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ، وَجُفِّ طَلْعِ نَخْلَةٍ ذَكَرٍ. قَالَ: وَأَيْنَ هُوَ؟. قَالَ: فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ.

فَأَتَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ في نِاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ. فَجَاءَ فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ كَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ، وَكَأَنَّ رُؤُوسَ نَخْلِهَا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ.

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلا اسْتَخْرَجْتَهُ؟ قالَ: قَدْ عَافَانِي اللَّهُ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُثِيرَ عَلَىٰ النَّاسِ فِيهِ شرّاً. فَأَمَرَ بِها فَدُفِنَتْ».

وجاء في رواية عند الإمام أحمد أنّ الرسُول ﷺ أرسل إلى البِئْر مَنْ

---

(١) أي: ملَكَانِ على صِفَتَيْ رَجُلَيْنِ.
(٢) **مطْبُوب**: أي: مَسْحُور.

يُحْضِرُ له منها الشيء الذي عقِدَ عليه السِّحْرُ، فأحْضِرَ له، فحلّ الرسول ﷺ عُقَدَهُ، فقَامَ كَأَنما نُشِطَ مِنْ عقال. وجاء في بعض الروايات أن الرسول ﷺ قَرَأ المعوِّذَتَيْنِ فَشَفَاهُ اللَّهُ مِمَّا نَزَل به.



سُورَة الإخلاص

أو سُورَة: قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ

أو سُورَة: الصَّمَد

وذكرت لها أسماء متعدّدة

أخرى بلغت اثنين وعشرين اسمًا

١١٢ مصحف ٢٢ نزول



(١)

نص السورة مع ما فيها من الفرشيات

من القراءات

سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾

القراءات:

﴿كُفُوًا﴾: حفص. كُفْئاً: حمزة، ويعقوب، وخَلَف.

[كُفُؤاً] باقي الْقُرَّاء العشرة.

ووقف حمزة بنَقْلِ حَركةِ الهمزة إلى الفاء وحذف الهمزة.

وبإبدال الهمزة واواً مع إسْكانِ الفاء.

(٢)
سبب نزول السورة

(١) روىٰ الإمام أحمد، والبخاريُّ في تاريخه، والترّمذيّ، وابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُمْ، عَنْ أُبَيّ بْنِ كَعْبٍ: «أنَّ المشركين قالوا للنبيّ ﷺ: يَا مُحَمَّدُ انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ لَيْسَ شَيْءٌ يُولَدُ إلاَّ سَيَمُوت، ولَيْسَ شيْءٌ يَمُوتُ إلاَّ سَيُورَثُ، وَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَمُوتُ وَلاَ يُورَث، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ قال: لم يَكُنْ لَهُ شَبيهٌ وَلا عَدْل، ولَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ».

(٢) وروى الطبَراني في الأوسط، والبَيْهقِي، وابْنُ جَرِيرٍ، وغيرُهُمْ عَنْ جابرٍ، قَال: «جاء أعْرَابِيٌّ إلَىٰ النبيّ ﷺ فقال: أنْسُبْ لنا رَبَّكَ، فنزلتْ هٰذِهِ السُّورَة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ...﴾ إلى آخر السورة. قال السيوطي: [إسناده حسن].

(٣)
فضل السُّورة

(١) روى مُسْلِمٌ والترمذيُّ وصحّحه، وغيرُهما، عَن أبِي هريرَة قال: قَالَ رسُولُ الله ﷺ:

«أحْشُدُوا فَإنّي سَأَقْرأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ».

فَحَشَدَ مَنْ حَشَدَ، ثُمَّ خَرَجَ النبيُّ ﷺ، فقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ ثُمَّ دَخَلَ. فَقَال بَعْضُنَا لبَعْضٍ: قال رسول الله ﷺ فَإنّي سأَقْرأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟!. ثُمَّ خَرَجَ نبيُّ اللَّهِ ﷺ فقال:

«إِنِّي قُلْتُ سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، أَلاَ وَإِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ».

(٢) وروىٰ البخاريُّ وأَحْمَدُ وغيرهما، عَنْ أبي سعيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَال رسول اللَّهِ ﷺ:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ».

يَعْنِي: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ...﴾ إلى آخر السورة.

(٣) وروى البخاريُّ وأحمد وغيرهما، عن أبي سعيد الخدري، قَال: قال رسُول اللَّهِ لأَصْحَابِهِ:

«أَيَعْجَزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ؟»

فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَقَالُوا: أَيُّنَا يُطِيقُ ذَلك؟! فَقَالَ:

«اللَّهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ القرآن»

سَمَّىٰ الرَّسُول السُّورَة بهذا العنوان: «اللَّهُ الواحد الصّمد» أو كَنَّىٰ عنْها بهِ.

(٤) وروى البخاريُّ ومُسْلِمٌ وَغيرهما عن عائشة رضي الله عنها، أنَّ النبيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلاً في سَرِيَّةٍ، فَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فَيَخْتِمُ بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ...﴾.

فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «سَلُوهُ، لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟»

فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمٰنِ، وأَنَا أُحِبُّ أنْ أَقْرَأَ بها، فقال:

«أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهِ تَعَالَىٰ يُحِبُّهُ».

(٥) وروى البخاريُّ من حديث أَنَسٍ قَال: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يَؤُمُّهُمْ في مَسْجِد قُبَاء، فَكَانَ كُلَّمَا افْتَتَحَ سُورَةً فَقَرَأَ بِهَا لَهُمْ فِي الصَّلاةِ، مِمَّا يَقْرأُ بهِ، افْتَتَحَ بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ...﴾ حتَّىٰ يَفْرُغَ مِنْها، ثُمَّ

يَقْرَأُ سُورَةً أُخْرَى مَعها، وَكَانَ يصْنَعُ ذلِكَ في كُلِّ رَكَعَةٍ، فَكَلَّمَهُ أصْحَابُهُ، فقالُوا له: إنَّكَ تَفْتَتِحُ بِهَذِهِ السُّورَةِ، ثُمَّ لاَ تَرَىٰ أَنَّها تُجْزِئكَ حَتَّىٰ تَقْرَأَ بِالأُخْرَىٰ، فإمَّا أَنْ تَقْرَأَ بِهَا وإمَّا أَنْ تَدَعَهَا وَتَقْرَأَ بِأُخْرَى.

قَالَ: مَا أَنَا بِتَارِكِهَا، إنْ أحْبَبْتُمْ أَنْ أَؤُمَّكُمْ بِذَلِكَ فَعَلْتُ، وَإِنْ كَرِهْتُمْ تَرَكْتُكُمْ.

وكانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْ أَفْضلِهِمْ، فَكَرِهُوا أَنْ يَؤُمَّهُمْ غَيْرُهُ. فَلَمَّا أَتَاهُمُ النبيُّ ﷺ أَخْبَرُوهُ الخبر، فقالَ:

«يَا فُلانُ، مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَفْعَلَ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ أصْحَابُكَ؟ وَمَا حَمَلَكَ عَلَىٰ لُزُومِ هٰذِهِ السُّورَةِ في كلِّ رَكْعَةٍ؟»

فَقَال: إنِّي أُحِبُّهَا. قال:

«حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ».

سبب كون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن:

رأىٰ الرازي احتمال أن يكون سبَبُ كَوْنِ سُورَةِ الإخلاص تعْدِلُ ثُلُثَ القرآن، أَنَّ المَقْصُودَ الأَشرفَ مِنْ جَمِيع الشرائع والعبادات، مَعْرِفَةُ ذَاتِ اللَّهِ، ومَعْرِفَةُ صِفَاتِهِ، ومَعْرِفَةُ أفْعَالِهِ، وهٰذه السُّورَةُ مشتملةٌ علَىٰ مَعْرِفَةِ الذَّاتِ، فَكَانَتْ هٰذِه السُّورَة مُعَادِلَةً لِثُلُثِ الْقُرْآن.

أقول:

إنّ مُجَرَّدَ المعرفة دون اعترافٍ وتسْلِيم، بالْإيمان والطَّاعَةِ المعبّرة عن صِدْقِ الْإيمان، لاَ تُخْرِج صاحبَ المعرفَةِ منَ الكُفر، فكثيرٌ من ذوي المعرفة المستيقنين في نُفُوسهم كافرون كُفْرَ جُحودٍ، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) بشأن فرعونَ وقومه:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

ولهذا أرىٰ إجراء التَّعْدِيل التَّالي لما رآه الرازي: فأقول:

إِنَّ المطلوبَ في الدين هو الإيمان، وثمرَةُ صِدْقِ الإيمان المتحركِ الفاعلِ، الْعَمَلُ المعبِّرُ عَنْهُ.

والإيمان يتناوَلُ ثلاثة أقسام:

(١ : قِسْمٌ يتعلَّقُ بِذَاتِ اللَّهِ، وهذا القسم قد أبانته سورة الإخلاص.

(٢) وقسْمٌ يتعلَّقُ بصفاتِ الله.

(٣) وقِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بأفعال اللَّهِ، ومن أفْعالِهِ ابتلاءُ عباده المكلَّفِين، وبيانُ مطلوبه منهم.

ولمَّا أبَانَتْ سورة (الإخلاص) القسمَ الأوَّل من هٰذِهِ الأقسام الثلاثة الّتِي أُنْزِلَ القرآن لبيانها وتفصيلها، كانت بهذا الاعتبار بمثابَةِ ثُلُثِ القرآن، واللَّهُ أعْلَمُ.



(٤)
موضوع السُّورة

يشتمل موضوع السُّورة على بيان ما يستطِيعُ العباد معرفته عَنْ ذاتِ اللَّهِ الغائِبَةِ عَنْ إِدْرَاكاتِ حواسِّهِمْ، وهي: أحَدِيَّتُه، وصَمَدِيتُهُ الّتِي تقتضي غِنَاه عَنْ كُلِّ شيءٍ، وحاجَةُ كُلِّ شَيْءٍ إليه، وتقتضي عَدَمَ قابليَّةِ ذَاتِهِ لانفصال شيءٍ منها، وعَدَمَ قابليَّتِهَا لدُخولِ شيءٍ فيها. وأَنَّهُ لَمْ يَلِدْ فلَمْ يَصْدُرْ عن ذَاتِهِ ذَاتٌ مُشْتَقَّةٌ مِنْهُ، وأَنَّهُ لَمْ يُولَدْ، فَلَمْ تَصْدُرْ ذَاتُهُ عَنْ ذَاتِ

أُخْرَىٰ اشْتُقَّ هو منها. وأنَّهُ لاَ أحَدَ هُوَ كُفْءٌ له، لا في ذَاتِهِ ولا في صفاته ولا في أفْعَالِهِ، فَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شيءٌ. وهٰذِهِ الصِّفَاتُ الخاصَّةُ بذَاتِهِ يلْزَمُ عَنْهَا وُجودُه الأزليُّ الأبَدِيُّ، فَلاَ أوَّلَ لَهُ ولاَ آخِر، هُوَ الأوَّلُ بلا بداية، وهو الآخر بلا نِهَايَة.

هٰذا كُلُّ ما يسْتَطِيعُ العباد معرفته عَنْ ذَاتِ اللَّهِ جلَّ جلالُهُ، فلا يخوضَنَّ الخائضُونَ في البحث عن ذَاتِ اللَّهِ بأَكْثَرَ مِن هذا الَّذِي يَسْتَطِيعُونَهُ، لأنَّهُمْ سيَقَعُونَ حَتْماً فِي مَتَاهَات وضَلاَلاَت وَتكهُّنَاتٍ لاَ حَصْرَ لها، وفي تَصَوُّرَاتٍ مُمَاثِلاَتٍ لبَعْضِ الكائِنَاتِ المخلوقة له جلّ جَلاَله، في هيئَتِهَا الْمُرَكَّبَةِ، أو تَتَأَلَّفُ مِنْ أجزاء مُمَاثِلَةٍ لِأَجزاءٍ مَوْجُودَةٍ في الْكائنَاتِ المخلوقة له.



(٥)
التدبّر التحليلي لآيات السُّورة

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾.

[قُلْ]: فِعْلُ أَمْرٍ مُوَجَّهٌ لكُلِّ مَنْ يَصْلُح لِلْخطابِ بصورةٍ إفراديَّة من المؤمنين المسلمين، وأوَّلُهُمْ مُحَمَّدٌ رسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وقد سبق في مقدّمات سورتي: «الفلَق والناس» بيان الحكْمَةِ مِنْ إثبات كَلِمَةِ: [قُلْ] جزءاً من السّورَةِ، مع الرَّدّ علَىٰ المتَحَذْلِقِين.

[هُوَ]: ضميرٌ يَعُودُ هُنَا علَىٰ غَيْبِيِّ الذَّاتِ الأعْظَم، الَّذِي لاَ تُدْرَكُ ذَاتُهُ، ولَكِنْ تُشَاهَدُ أَوْ تُدْرَكُ آثَرُ صِفَاتِهِ في الكَوْنِ.

أو يقال: ضمير عائد على ما يفهم من السِّيَاق.

ويقول النحويُّونَ: لفظ: «هُوَ» هُنَا ضَمِيرُ الشَّأْنِ، كَكُلِّ ضَمِيرٍ يأتي في بَدْءِ الكَلَامِ دُونَ مَذْكُورٍ سَابقٍ يَعُودُ عَلَيْهِ، وفي ضَمِير المؤنَّث يقولون: ضَمِيرُ الْقِصَّةِ، وفي ضميري الشأن والقصة معنى الأمر العظيم، والجملة بعَدَه خَبَرُه، وهي مفسّرة له.

ويَرى بعْض أهلِ التأْويلِ احْتِمَالَ أنْ يَكُونَ ضَمِيرُ [هُوَ] عَائِداً على لفظ «ربّك». في قول المشركين الذي كان سبب نزول السورة: «يا محمدُ انْسُبْ لنا ربَّك» **أقول**: ويُمكِنُ أنْ يكون عائداً على مبتدإٍ مَحْذُوفٍ تقديره: رَبِّي. أي: ربِّي هُو الله.

﴿ٱللَّهُ﴾ علمٌ على الخالِقِ الرَّبِّ الأَزَليِّ الأبَدِيّ، وهذا الاسْمُ الْجَلِيلُ قَدْ كان مَعْرُوفاً لِلْعَرَبِ بأَنَّهُ عَلَمٌ عَلَىٰ الَّذِي يُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُ خالِقُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ.

ولفظ ﴿ٱللَّهُ﴾ خبر. أو مبتدأ خبرُه «أَحَدٌ». ويجوز أن يكون «الله» خبراً أوّل و«أحد» خبراً ثانياً.

﴿أَحَدٌ﴾: أي: فَرْدٌ في ذَاتِه وَفي صفاته، فلا يُجْمَعُ معَ كُفْءٍ لَهُ أَوْ أَكْفَاءٍ، حتَّى يَكُونَا اثنين أو ثلاثة.

ويجوز أن يكون «أحدٌ» خبرَ مبتدأ محذوف، تقديرُه: هو أحد، وهذا أولى ويرى بعضُهم أنّه لا يُقال: «أحد» في حالة الإثبات[1]، لِمَنْ يُمْكِنُ أن يُجْمَع مع كفْءٍ له، أو أكفاء، حتَّىٰ يكونا اثْنَيْنِ، أو ثلاثة فأكثر، بل يقال فيه «واحد» لكنّ هذا الرأيَ غير صحيح من الناحية اللُّغويَّة، إذْ يُقالُ: جاءني أَحَدُهم. علَىٰ أَنَّ الأَحَدِيَّة والْفَرْدِيَّة الَّتي لَيْسَ لها في الوجود نظيرٌ ولا مُكَافِئٌ، هي من الصِّفاتِ الّتي اختصَّ اللَّهُ بها، فلا يُشَارِكهُ فيها أَحَدٌ.

---

(١) أمّا في حالة النفي فيُمْكِنُ أنْ يُقَالَ نحو: لاَ أَحَدَ في الدار.

ويقول الناسُ على سبيلِ الادِّعَاءِ أو بالإضافة إلى عَدَدٍ مَخْصُوص: فريدةُ العقد، أي: لاَ نظير لها، ولا شبيهَ لَهَا فِي حبَّاتِ الْعِقْد. ويقولون: فُلانٌ وَحِيدُ عَصْرِهِ. وفَرِيدُ عَصْرِه، أي: لا نظير له ولا شبيه. وهذا من المبالغَات الَّتِي لاَ تُعَبِّر عن الواقع.

أمّا الأحَدُ في الْوُجُود كلّهِ فهو الله الَّذِي لاَ شبيه لَهُ، ولا نظيرَ، ولاَ كُفْء، لا في الذَّاتِ ولاَ في الصِّفات، ومنْهَا صفَةُ الأَزَلِيَّةِ، فَلاَ أَزَلِيَّةَ إلاَّ لله وحْدَه، ومنْها صِفَةُ الأَبدِيَّة، فَلا أَبَدِيَّةَ ذَاتِيَّة إلاَّ للَّهِ وحْدَه، لاَ شريكَ لَهُ فيها، وقَدْ يَمْنَحُ اللَّهُ الْخُلُودَ لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَجعَلَهُمْ خَالِدِينَ، وَخُلُودُهُمْ إنَّما يكونُ بإمْدَادِه لهم بالبقاء.

ولئلاَّ يُشَارِكَ الله عزّ وجلّ في أَحَدِيَّتِه شيءٌ، فقد جَعَلَ بحِكْمتِه مِنْ كلّ شيءٍ زَوْجَيْنِ اثْنَيْن، دلَّ على هذا قَوْلُ الله عزّ وجلّ في سورة (الذَّارِيَات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

وقد تَوَصَّلَتِ الْعُلُومُ الإنْسَانِيَّةُ إلى هذِهِ الحقيقة، حتَّى غَدَتْ مِنْ مُقَرَّرَاتِها، في أحْدَثِ مَا توصَّلَتْ إلَيْهِ، حتَّى الذَّرَّةِ، فكُلُّ ما سِوَىٰ اللَّهِ لَهُ كُفْؤٌ ولَهُ نظيرٌ يُجْمَعُ معه على اثنين أو أكْثر.

أمَّا اللَّهُ عزَّ وجلّ فَهُو أَحَدٌ، لاَ كُفْءَ لَهُ وَلا نظيرَ لَهُ، حتَّىٰ يُجْمَع مَعَهُ فيُقَالَ اثنان أو ثلاثة، أو أكثر، وليس كمثله شيءٌ، ولاَ يشاركُهُ شيءٌ في ذَاتِهِ ولا في صِفَاته.

وفي إثباتِ أنَّ اللَّهَ أَحَدٌ بيانٌ لضَلاَلِ الثَّنَوِيَّة، الَّذِينَ زَعَمُوا أنَّ اللَّهَ اثنان، ولِضَلاَلِ الْمُثَلِّثِين، الّذين زَعَمُوا أنَّ الله ثَلاثَةُ أقانيم، أي: ثلاثَةُ أشخاص متفاصِلَةٍ، وقد قال الله بشأنهم في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ... ﴿٧٣﴾﴾.

ولِضَلالِ كلّ الَّذِين زعَمُوا تَعَدُّدَ الخالقين الأربابِ الأزليين الأبديّين.

فَقَوْلُ اللّهِ عزَّ وجلّ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾: أي: قُلْ يا مُحَمَّدُ، وهٰذَا خطابٌ أيضاً لكلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَقُولَ، جواباً لِمَنْ قَال: «أُنْسُبْ لَنا رَبَّكَ»: هُوَ اللّهُ، وَهُوَ أَحَدٌ.

فغيبيُّ الذَّاتِ الأَعْظَمُ الَّذِي مِنْ آثَارِهِ خَلْقُ السَّمَاواتِ والأرض، هُوَ واحِدٌ في الوجود كُلِّهِ، ويلْزَمُ مِنْ تَفَرُّدِهِ عقلاً أنْ لاَ يكُونَ لَهُ نَظِيرٌ وَلاَ شبِيهٌ فِي ذَاتِهِ وَلاَ في صفاته.

أي: فالرَّبُّ الذي أدْعُو إلى الإيمان بهِ، وأدعو إلى عبادتِهِ وحْدَه، والَّذِي هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، هُوَ اللّهُ، أي: هُوَ مَنْ تَعْرِفُونَهُ باسْم الله، وتُؤْمِنُونَ بأَنَّهُ هُوَ الّذِي خَلَق السَّمَاوَاتِ والأرض.

وَهُوَ في ذَاتِهِ أَحَدٌ، وَهُوَ في صفاتِهِ أحَدٌ، فليس كمثْله شيْءٌ، ومَنْ كان أحداً في ذاته وصفاته فلا يُمْكِنُ أَنْ يكون لَهُ نَسَبٌ، حتَّىٰ يُسْأَلَ عَنْ نَسَبه.

كلُّ مَنْ لَهُ نَسَبٌ لا بُدَّ أن يكونَ شبيهَ أفراد نسَبِه في النوع، أَوْ في الجِنْس، وعندئذٍ لاَ يكُونُ أحداً فَرْداً، بَلْ يُمْكنُ أن يُجْمَع مَع أَفْراد نوعه، أو جنْسِه.

لكنَّ اللّهَ أَحَدٌ فَرْدٌ، فلا نسَبَ لَهُ، ومَنْ لاَ نسَبَ لَهُ لاَ يكون له أبٌ يُنْسَبُ إلَيْهِ وَلاَ أُمٌّ يُنْسَبُ إليها، ولاَ يكونُ لَهُ أجدادٌ و جدَّات، ولا تكونُ لَهُ ذُرِّيَّةٌ تَنْتَسِبُ إلَيْه، ولاَ تكُونُ له صاحبَةٌ تُكافِئُه، ولَوْ كانَ له صاحبَةٌ لَكَانَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْن، ولَمَا كانَ أحداً فرداً.

- قول الله عزّ وجل:

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾

﴿ٱلصَّمَدُ﴾: جاء في اللُّغَةِ: أنَّ الصَّمَدَ هو الذي لَهُ غَايَةُ الكَمَال في كُلّ الصِّفَاتِ ذَاتِ الشَّرَفِ والعظمة والسُّؤدد.

وجاء فيها: أنّ الصَّمَد هو الّذي يُصْمَدُ إلَيْهِ في الحوائج، أي: يُقْصَد.

وجاء فيها: أنَّ الصَّمَد هو الغنيُّ بذاته عن كلِّ شيء، فلا يحتاج إلى شيء.

وجاء فيها: أنَّ الصّمَد هو الَّذِي لاَ جَوْفَ لَهُ، أي: فلا يدخُلُ في ذاتِهِ شيءٌ، وأنَّه الذي لا يَخْرُج منه شيءٌ، أي: فَهُو غَيْرُ قَابلٍ لانفِصَالِ شيءٍ مِنْ ذَاتِه.

وجاء فيها: أنَّ الصَّمَد هو الباقي الذي لا يفنىٰ، وهذا الأخير عَنْ قتادة والْحَسَن.

ومن جمع هذهِ المعاني لكلمة: [الصَّمَد] يظهر أنَّ من كانت لَهُ هذِه الصّفات لا يُمْكِن أن يكونَ وَالداً لغيره، ولا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَوْلُوداً مِنْ غَيْرِهِ، فالمولُودُ مُحْتَاجٌ في وُجودِه إلى والِدِه، لِكنَّ الله عزّ وجلَّ غنيٌّ بذاتِهِ، وهُوَ الَّذِي يُصْمَدُ في الحوائج إليه. والوالِدُ لغَيْرِهِ لاَ بُدَّ أَنْ يكونَ ذَاجَوْفٍ، أوْ قابلاً للتجزئة، واللَّهُ عزَّ وجلَّ صَمَدٌ، لاَ جَوْفَ لَهُ، ولاَ يَخْرُجُ مِنْ ذَاتِهِ شَيْءٌ.

ومنْ هو أحَدٌ صَمَدٌ بالِغٌ غايَةَ الكمالاتِ كلّها، لا يُمْكِنُ أن يُكافِئَهُ أن يناظِرَهُ أَوْ يُساوِيَهُ أحَدٌ، فلا صاحِبَة تُكافِئِه، ولا ندَّ يُضَادُّه، سبحانه وتعالى عن المثيل والشَّبِيهِ والنظير، وعن الضّدّ والنّدّ.

فليزَمُ من كَوْنِ اللّهِ جَلَّ جلالُهُ أحداً صَمَداً، أن لا يَكُونَ والداً لغيره، ولا مَوْلوداً مِنْ غيره، وأَنْ لاَ يَكُونَ أَحَدٌ كُفُواً له.

فقال اللَّهُ عزّ وجلّ: .

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝﴾.

﴿لَمْ يَلِدْ﴾ في هَذا رَدٌّ لقوْلِ النّصارىٰ: إنَّ اللَّهَ أبٌ لعيسى ابنِ مَرْيم، ورَدٌّ لِقَوْلِ بَعْضِ الْيَهُودِ: إنَّ اللَّهَ أَبٌ لِلعُزَيرِ، ورَدٌّ لقول كلِّ من له مقالة مشابهة، فاللَّهُ سبحانه وتعالى لَمْ يلِدْ.

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ وفي هذا رَدٌّ لِقَوْلِ النّصارىٰ: إنَّ عيسى ابنَ مريم ابْنٌ للَّهِ. فَهُوَ شَرِيكٌ لِلَّهِ في رُبوبيَّةٍ مُشْتَقَّةٍ مِنْ أبيه، ولقول بَعْضِ اليهود: الْعُزيرُ ابْنُ الله، فهو شريكٌ للَّهِ في رُبُوبيَّةٍ مشتقَّةٍ من أبيه، ورَدٌّ لقول كلّ من له مقالَةٌ مشابهة، فاللَّهُ لَمْ يُولَدْ.

وبما أنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ أَحَدٌ مُتَفرِّدٌ في ذَاتِهِ وَفي صفاته، فلَيْسَ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ.

الكُفْءُ والكُفُؤ: الْمُمَاثِلُ والْمُسَاوِي في الذَّاتِ أَوْ في الصِّفَات، واللَّهَ عزَّ وجَلَّ لاَ يُكَافِئُه أحَدٌ، لاَ في ذَاتِهِ، ولا في صِفَاتِهِ، إذْ هُوَ أحدٌ فِي ذَاتِهِ، وَأَحَدٌ في صِفَاتِهِ، جلَّ جَلاَلُهُ.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝﴾: نَفْيُ الكَوْنِ فِي الْمَاضِي بالنِّسْبَةِ إلَىٰ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ هُوَ نَفْيٌ للشيءِ المنفِيِّ عَنْهُ دَواماً، في الماضي والحاضِرِ والمُسْتَقْبَلِ، مِنَ الْأَزَلِ إلَىٰ الأَبَدِ. والدَّليل الْعَقْلِيُّ يُثْبِتُ أنَّ انْتِفَاءَ وجُودِ الْمُكَافِيء للَّهِ فِي الماضِي، يَسْتَلْزِمُ عقْلاً انتفاء وُجودِه دواماً وإلَىٰ الأَبَدِ، لِأَنَّ المكافِئ لِلأَزَلِي لاَ بُدَّ أَنْ يكُونَ أزلِيًّا، أمَّا الحادثُ فَهُو خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، ولاَ يُمْكِنُ عَقْلاَ أَنْ يكونَ الْمَخْلُوقُ مُكافئاً للخالِقِ بحالَ من الأَحْوالِ.

يُضَافُ إلى هذا أنَّ فعل «كان» إذا اقترَنَ بإثبات صِفَةٍ أَزَلِيَّةٍ لِلَّهِ عزَّ وجلَّ، أَوْ نَفْي صِفَةٍ لا تَليقُ بِهِ، فإنَّ دَلاَلَتُهُ على الزَّمَنِ الماضِي تُلْغَىٰ، ويَبْقَىٰ الفِعْلُ دَالاً، عَلَىٰ الكينُونَةِ المجرَّدَةِ عَنْ كُلِّ زَمَن.

وكَوْنُ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ: لَمْ يَلِدْ، ولَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ، هِيَ لوازِمُ عَقْلِيَّةٌ لِكَوْنِهِ أحداً صَمَداً.

فالصِّفَتَانِ الرئيسَتَان اللَّتَانِ بَيَّنَتْهُمَا سورةُ «الإِخْلَاصِ» جواباً لقَولْ المشركين للرَّسول ﷺ: «أُنْسُبْ لَنَا رَبَّكَ» هُمَا:

الأولى: أَحَدِيَّةُ الخالقِ الرَّبِّ الأَزَلِيِّ الأَبَدِيّ، فلا شريك لَهُ ولا كُفْءَ لَهُ في أحَدِيَّتِه، ومَنْ هُوَ أحَدٌ لا يُمْكِنُ أن يكون له نَسَبٌ حتَّى يُسْأَل عن نسبه.

الثانية: صَمَدِيَّةُ الخالِقِ الرَّبِ الأَزَلِيِّ الأَبَدِيّ، فَلَيْسَ لَهُ أَصْلٌ انْفَصَلَتْ ذَاتُهُ عَنْهُ، ولَيْسَ لَهُ فَرْعٌ انْفَصَلَتْ ذَاتُهُ عَنْ ذَاتِهِ.

ويَلْزَمُ لُزوماً عَقْلِيّاً من أَحديَّةِ اللَّهِ وَصَمَدِيَّتِهِ، أَنَّه لَمْ يَلِدْ، وأنَّه لَمْ يُولَدْ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ.

والصَّمَدُ لاَ يَتَغَيَّرُ، وكلُّ ما سِوىٰ اللَّهِ يَتَغَيَّرُ ويَتَبَدَّلُ فِي دَرَجَاتِ الكمال أَوْ دَرَكَاتِ النَّقْص، ولا يُمْكِنُ أن يَصِلَ بحالٍ من الأحوال إِلَى نِهَايَةِ الكَمَالِ فِي كُلِّ شيءٍ، لأَنَّ اسْتِجمَاعَ كُلِّ الكمالاتِ مِنْ خَصائِصِ الأَحَدِ الصَّمَدِ الخالِقِ الرَّبّ الأَزَلِيِّ الأَبَدِيّ.

وَلَمَّا كَانَ سُؤَالُ المشركين عن نَسَب الرَّبّ الَّذِي يدعو الرسول إلى عبادَته وحْدَه، يَدُلُّ على أَنَّهُمْ يتوَهَّمُونَ أَنَّ لَهُ أُصُولاً نسبيَّة، واحتمالِ أن تكونَ لَهُ ذُرِّيَّة، وأَنْ تَكُونَ لَهُ صاحِبَةٌ تُنجِبُ له الأولاد، أَبَانَ اللَّهُ عزّ وجلَّ أنَّهُ صَمَدٌ.

أَمَّا كُلُّ مَا سِوَىٰ اللَّهِ عزَّ وجلَّ فلَمْ يخلُقْهُ اللَّهُ صمَداً، بَلْ له جوْفٌ قَابلٌ لأن يَدْخُلَ فيه شيءٌ مِنْ غَيْرِهِ، فتتغيَّر بذلِكَ صفته، وقابلٌ لأَنْ يَنْفَصِلَ مِنْهُ شيءٌ، فتتغَيَّرُ بذلِكَ صِفَته.

إنّ الناميَات في الوجود تنشَطِرُ وتَنْقَسِمُ وَتَقْتَاتُ فتَتَنَامَىٰ، في عمليّات الفطر الرَّبَّانيّة، إذْ يخْلُقُها اللَّهُ ضِمْنَ نظامَيْنِ:

- نظام الفلْقِ والْفَطْر، وإخْرَاج المحدَثَاتِ الجديدة، من باطِنِ الكائناتِ قبْلَهَا بِخَلْقِه.
- ونِظام التَّرْبِيَةِ بالإنْمَاءِ المتدرِّجِ، مع المحافظة على نظام الْفَلْقِ والْفَطْرِ.

وتَسْتَمِدُّ النَّامِيَاتُ أقْوَاتَ نَمَائِهَا ممَّا حوْلَها.

وكلُّ وَالِدٍ وَكُلُّ والِدَةٍ يُخْرِجُ مواليدَهُ من داخِلِهِ، مِنْ تجويفاتٍ لَدَيْهِ، فتَحْمِلُ المواليدُ صِفَاتِهَا ميراثاً مِنْ أُصُولِها، فتكُونُ لَهَا شبهاً، أو يكونُ بَيْنَ الفروع والأصول أشْباهُ ونظائِرُ.

وَيَقولُ عُلَماءُ الذَّرَّةِ: إنَّ للذَّرَّاتِ في كُلِّ شيءٍ مِنْ هذا الكَوْنِ نَوَيَاتٍ، وبَعْدَهَا فَرَاغٌ كبيرٌ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ حَجْمِها الصغير، وحَوْلَ هذا الفراغ تَدُورُ أَلكتْرُنَات، وهِيَ وَحَدَاتٌ صُغْرَىٰ تَحْمِلُ شِحْنَاتٍ كَهْرَبَائِيَّةً سالبة.

أمَّا النَّوَيات فهي وَحَدَاتٌ أخرىٰ تَحْمِلُ شِحْنَاتٍ كهربائيّة مُوجِبة، وتُسمَّىٰ هٰذِهِ الشِّحنَات «بُروتُونَات».

ويقولُون: إنَّ ذَرَّة الهيدْروجين الخفيف، هي أبْسَط ذرَّاتِ العناصر في هذا الكَوْن، إذْ هِيَ تَتَألَّفُ مِنْ نَوَاةٍ وَاحِدَةٍ، تحوي بْرُوتُوناً واحداً، ومِنْ ألكترون وَاحِدٍ يَدُورُ حَوْلَهُ بسُرْعَةٍ مُذْهِلَةٍ.

ويقولون: إنّ الألكترون يَدُورُ بسُرْعَةِ الضوء، أي: (٣٢٠) كيلومتر في الثانية الواحدة، أي: يَدُورُ حوْلَ مداره في الذَّرَّةِ عشَرَة آلاف مليون مليون مليون دورة في الثانية الواحدة.

وفوق ذرَّةِ الهيدرُجين الخفيف ذَرَّاتُ العناصرِ الأخرىٰ الّتِي هِيَ أثْقَلُ مِنْها، إذْ تأتي ذَرَّةُ الهِلْيُوم التي تتألّف نواتُها من بْرُوتون بعَدَدِ اثنين، وحول

النواة يَدُورُ ألكترونات، وفي نواتها أيضاً جُسيْمَانِ حيادِيَّان، يسَمَّىٰ كُلٌّ منهما «نيوترون» وهو يَزِيدُ وزن الذرّة، لكِنَّهُ لاَ يُؤَثِّرُ في شِحْنَتِها الكهْرُبائيَّة.

وتترَقَّىٰ الذّرَّاتُ ثِقَلاً، حتَّىٰ يَجِدَ العلماءُ ذَرَّةَ اليورانيوم، الّتِي يوجَدُ في نواتها (٩٢) بروتوناً، و(٩٢) ألِكْترُوناً، و(١٣٢) نيوتروناً.

وتنشطر الذَّرَّاتُ، ويخْرُجُ منْها بعضُ ما في نواتِها وألكتروناتها، فتختلفُ عناصرها، وتنْضَمُّ المنشطرات، فتتداخل ببعضها، فتتألَّفُ ذَرَّاتٌ جَدِيداتٌ مختلفاتٌ في عناصِرِها، والسَّبَبُ في ذلك أنَّها قابلاتٌ لأن يَدْخُلَ فِي أجوافها أشياء، وأنَّ فيها فراغات واسعات بحَسَب حُجُومها، تَسْمَحُ بالدُّخول، وتَسْمَحُ بالتجزئة، ولا يُعَوِّقُ ذلك إلاّ السُّرعة الهائلة في دوران الألكترونات حَوْل نويات الذّرّاتِ، مع العلْم بأنّ ذرَّة الإكسجين مثلاً إذا اصْطَفَّ منها خمسة ملايين ذَرَّة طولاً، لم تَزِدْ أَطوالها جميعاً على عُشْرِ سَنْتي متر، أي: علَىٰ جزءٍ واحد من ألْف جزءٍ من المتر الواحد، وهو يساوي طوله خطّاً نقطتَين (..) فقط بقلم الكتابة العادي.

ولو كانت الذَّرَّةُ كائناً صَمَداً لكانت غير قابلةٍ للانشطار والتجزئة، وغير قابِلةٍ للاتّحاد مع غيرها من الذرّات.

ولو كانت الخليَّةُ الواحدة كائناً صمَداً لكانت غيْرَ قابِلَةٍ للانفطار والفلْقِ، وغير قابلة للازدواج والاتحاد مع غَيْرِها.

لكنَّ اللَّهَ جلَّ جلالُهُ قد خَلَقَ جَمِيعَ خَلْقِهِ ذوات أجواف، فهي قابلَة لأَنْ تَدْخُلَ فيها أشياء، وقابلة لأن تنفصل عنها أشياء، فانْفَرَدَ هُو سبحانه بأنَّهُ هُو الصَّمَد وحْدَه، فلا تقبل ذاتُهُ الانشطار، ولا التجزئة، ولا الانفطار ولا الفلق، ولا تقبل ذاته الازدواج ولا الاتحاد بغيرها، فلم يَلِدْ ولم يُولَدْ سبحانه، ولم ينفصل منه شيءٌ ولن ينفصل، ولم يتّحدْ في ذاتِه شيءٌ ولَنْ يتّحِدَ، ولَمْ يكُنْ له كُفُواً أحَدٌ، فلا صاحبة لَهُ ولا وَلَد.

إنَّهُ جَلَّ جَلاَلُه أَحَدٌ صَمَد، أمّا ما سِوىٰ اللَّهِ سبحانه، فهو خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، لاَ أَحَدِيَّة له ولا صَمَدِيَّة، ولا يَمْلِكُ لنفسه ولا لغَيْره من دونِ تمكين الله وإذْنِه وتسخيره نَفْعاً ولا ضرّاً، ولا شيءَ ممَّا سوىٰ اللَّهِ له من ذاتِه لذاته البقاءُ الأبديّ، لكِنَّ اللَّهَ الأزليَّ الأبَدِيَّ هو الذي إذا شَاءَ أمَدَّ مَا شَاءَ ومَنْ شَاءَ بالبقاء بأمْرِه التكويني، ولا رادَّ لأمرِه، ولا لقضائِه وقَدَرِه وحُكْمِهِ، جلَّ جَلالُه، وَتَبَارَكَ سُلْطانُه، وعَظُمَ شَأْنه.



(٦)
سورة الإخلاص سورة تقريريّة

لم تتضمَّن سورة الإخلاص الدليل على أحَدِيَّة الخالق الرّب جلّ جلالُه، المعروف باسم «الله» ولم تتضمَّن الدليل على صمديَّتِه، ولا الدليل على أنَّهُ لم يلدْ، ولم يولَدْ، ولَمْ يكُنْ له كُفُواً أحَدٌ، بَلْ جَاءَتْ البيانات فيها بأسْلوبٍ تَقْرِيريٍّ للأحكام التي تضمنَتْهَا جُمَلُها.

والسَّبَبُ في هذا أنَّ المرحَلَة الّتي نزلَتْ فيها السُّورَةُ مَرْحلةُ استفسارٍ عَنْ نَسبِ الخالِقِ الرَّبِّ الذي يَدْعو مُحمَّدٌ إلى عبادته وحده، وإلى نَبْذِ عبادَةِ كلِّ المعبودات من دونه، وقد جاء هٰذا الاستفسار على لسانِ بعض المشركين، وهُوَ يقتضي بيان الجواب بطرِيقَةٍ تقريريَّةٍ خبريَّةٍ، لا بطريقةٍ استدلاليّة.

وحين يُنْكِرُ مُنْكِرٌ مَا جاء في هذا التقرير، أو يُناقشُ مُنَاقِشٌ فيه، تَدعُو الحاجَةِ إلَىٰ بيانِ الدّليلِ، وإقامَةِ الحجَّةِ، على مقدارِ ما تَدْعُو إليه الحاجة.

ولـمَّا كان سُؤالُ المشركين مقتصراً على طلَبِ التعريف بنَسَبِ الرَّبّ الّذي يدعو الرَّسُول إلى الإيمان بأنَّه لا رَبَّ غيره، ولا معبُودَ بحَقٍّ سواه، وهذا السؤال يستلزم أنّهم يتوهَّمون أنَّ لَهُ أصولاً انْحدَرَ هو منها، ويتوهّمونَ

إمْكَانَ أنْ يكونَ له ذُرّيَّةٌ وإمكان أنْ تكونَ له صاحبة، أبانَ اللّٰهُ أنَّهُ أحد، وأنّه الصَّمَد، وأنَّهُ لم يَلِد ولم يولَدْ، ولَمْ يكُنْ لَهُ كُفُواً أحَدٌ.

وقد اشتمل القرآن المنزَّلُ بَعْدَ هٰذِهِ السُّورَةِ على أدلّة هذه الحقائق عن الله جلّ جلالُهُ، وتنزّه عمّا لا يَليقُ بأزليَّتِهِ وأبديّته، وبصفات الكمال التي هي له.



سُورَةُ النَّجْمِ
أوْ
سُورَةُ وَالنَّجْمِ

٥٣ مصحف ٢٣ نزول

وهي مكية إلاَّ الآية (٣٢) منها فهي مدنيَّة. وهي قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَٰحِشَ إِلَّا اللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ الْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓا أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰٓ (٣٢)﴾.



(١)

نصّ السورة مع ما فيها من فرشيات القراءات

سورة النجم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ

---

١١ ـ ● قرأ جمهور القرّاءِ العشَرَة: ﴿مَا كَذَبَ﴾ بتخفيف الذال.
● وقرأ هشام وأبو جعفر: [مَا كَذَّبَ] بتشديد الذال.

١٢ ـ ● قَرَأ جمهور القرّاء العشر: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾.
● وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف، ويعقوب: [أَفَتَمْرُونَهُ].

١٩ ـ ● قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿ٱللَّٰتَ﴾.
● وقرأ رُويس: [اللاَّتَّ] بتشديد التاء مع المدّ المشبع.
● ووقف الكسائي بالهاء.

٢٠ ـ ● قرأ جمهور القراء العشرة: ﴿وَمَنَوٰةَ﴾.
● وقرأ ابن كثير: [وَمَنَآءَةَ].

ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾

---

٢٢ ـ ● قرأ الجمهور: [ضيزى] بالياء. وقرأ ابن كثير: [ضِئزى] بالهمز.

٣٢ ـ ● قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾.

● وقرأ حمزة، والكسائيُّ وخلف: [كبير الإثم].

● وقرأ جمهور القراء: ﴿فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ بضمّ الهمزة.

● وقرأ حمزة في الوصل [في بطونِ إِمِّهَاتِكم] بكسر الهمزة والميم.

● وقرأ الكسائي في الوصل: [في بطون إِمَّهَاتكم] بكسر الهمزة وفتح الميم.

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ

٣٣ ـ لِلقرّاءِ وجوه من الأداء في الهمزة الثانية من [أَفرأَيْتَ].

٣٦ ـ في همزة ﴿يُنَبَّأْ﴾ وجوه من الأداء.

٣٧ ـ ● قرأ جمهور القرّاء: [إبْراهِيم]. وقرأ هشام: [إبراهام].

٤٧ ـ ● قرأ جمهور القرّاء: ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾.

● وقرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو: النَّشاَءَةَ].

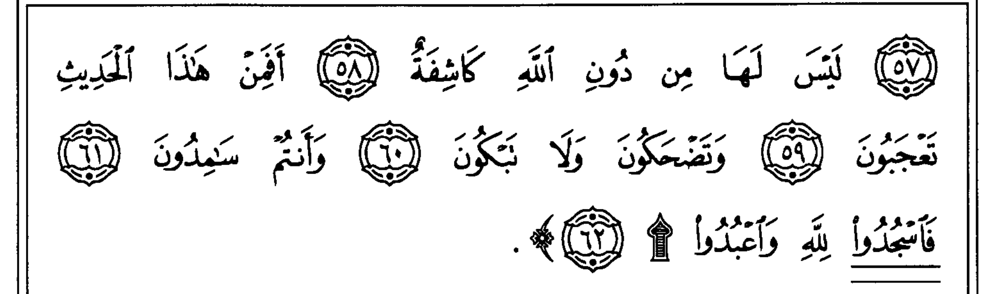
٥٠ ـ للقرّاء وُجوهٌ متعدِّدَةٌ من الأداء.

٥١ ـ قرأ عاصم وحمزة، ويعقوب: [وَثَمُود] دون تنوين.

● وقرأ باقي القرّاء: [وثموداً] بالتنوين.

٥٥ ـ ● قرأ جمهور القرّاءِ: ﴿رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾.

● وقرأ يعقوب في حال الوصل: [ربِّك تّمارى] بإذغام التّاء الأولى بالثانية وجعلهما تاء واحدة مشدّدة.



(٢)
ممّا ورَد من أحاديث بشأنِ سُورَةِ النجم

(١) روى البخاريُّ ومُسْلِمٌ وغيرُهما عن ابنِ مَسْعُودٍ قال: «أوّل سُورَةٍ أُنْزِلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ: (والنجم). فَسَجَدَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ وسَجَدَ النَّاسُ كُلُّهُمْ، إلاَّ رَجُلاً رأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِراً، وهُوَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ».

(٢) ورَوىٰ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عن ابْنِ مَسْعُودٍ قَال:

«أوّلُ سُورَةٍ اسْتَعْلَنَ بِهَا النبيُّ ﷺ يَقْرَؤُها: (والنجم)».

(٣) ورَوىٰ ابْنُ مَرْدَوَيْه والْبَيْهَقِيُّ في سُنَنِهِ عن ابن عُمر قال:

«صَلَّىٰ بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَرَأَ (النَّجْمُ) فَسَجَدَ بِنَا فَأَطَالَ السُّجُودَ».

(٤) وروى ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها: «أَنَّ النبي ﷺ قَرأَ (النَّجْمَ) فَلَمَّا بَلَغَ السَّجْدَةَ سَجَدَ فيها».

(٥) ورویٰ البخاري ومُسْلِمٌ وَأحمد وغَيْرُهُمْ عن زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، قال: «قَرأْتُ (النَّجْمَ) عِنْدَ النبيِّ ﷺ فَلَمْ يَسْجُدْ فِيهَا».

(٣)
سبب نزول السورة

قال ابن عطيَّة: سبب نزولها أنَّ المشركين قَالوا: إنَّ محمَّداً يتَقَوَّلُ الْقُرْآنَ وَيَخْتَلِقُ أَقْوالَهُ، فَنَزَلَتِ السُّورَةُ في ذَلِك.

(٤)
موضوع السُّورة

تضمّنت سورة (النجم) معالجة المشركين بالإقناع المقرون بغمزهم وتلويمهم على الالتزام بآرَاءٍ باطلة يتمسَّكُونَ بها تقليداً، مع الموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، حول طائفة مِنْ مواقفهم الكفريَّةِ البارزة إبَّان نزول السورة.

وجاء في أثنائها توجيه الرَّسول ﷺ ويُلْحَقُ بِهِ كُلُّ داعٍ إلى دين اللَّهِ من أمَّتِه، لمَا يَنْبَغِي معاملة غير المستجيبين للدَّعوة به في تلك المرحلة من مراحل دعوة الرسول، الّتي ما تَزَال في السَّنَواتِ الأُولى مِنْها، وتَتلَّخص هذه المعامَلَةُ بالإعْرَاضِ عمَّنْ تولّى مُدْبراً. والإعراضُ هو وسَطٌ بيْنَ الإقبال والإدْبار.

ويُفْهَم من هذا لزوماً، مُتَابَعَةُ دَعْوَةِ الآخَرِين، الذين لم يتَولَّوْا مُدْبِرين، ولم يُقْبلُوا مُسْتَجيبين، على حَسَب أحوالهم.

وهذا التوجيه يَصْلُحُ تعميمه على كلّ قومٍ بلغ أمْرُهم هذا المبلغ الذي وصل إليه مشركو مكة إبّان نزول هذه السُّورة التي نزل قبلها (٢٢) سورة تضمَّنَتْ عدَّةَ معالجات بالإقناع ذي الوسائل المتَعَدِّدَة والمختلفة، وبالترغيب والترهِيب، والمجادلة بالّتي هي أحسن.

(٥)
دروس السُّورة

اشتملت سورة (النجم) على خمْسَةِ دروس:

الدَّرس الأول: تضمَّنَ توجِيهَ عناصِرَ إقناعيَّة للمشركين، بشأنِ الوحي الذي يُكذِّبُونَ الرَّسولَ بهِ، زاعمين أنَّهُ يَفْتَرِي القرآنَ ويتقَوَّلُهُ على الله جلَّ جلالُهُ.

وهو الآيات من (١ ـ ١٨).

الدرس الثاني: تضمَّن بعض معالجةٍ لشِرْك المشركين، مع بيان سقُوط مذهبهم حول اعتقادهم في أوثانهم: (اللَّات، والعزَّىٰ، ومنَاة).

وهو الآيات من: (١٩ ـ ٢٨).

الدرس الثالث: تضَمَّنَ توجيه الرسول ﷺ للإعراض عن الذين تَوَلَّوْا مُدْبِرين عن دعوته من المشركين، ويُفْهَمُ من هذا مُتَابَعَةُ دَعْوَةِ مَنْ لَمْ يَسْتَجب لكنَّه لم يُدْبر.

الإعراض: وسَطٌ بين الإقْبال والإدْبَار.

وتضمَّنَ إشعارَهُ بحُدُودِ وَظِيفَتِه، وأنَّهُ ليْسَ مسؤولاً عن تحويلهم من الكفر إلى الإيمان، فالحكْمَةُ من الابتلاء في ظروفِ الحياة الدُّنيا كَشْفُ مَا في صُدور الممتَحَنين لتَحْقِيقِ الجزاء يوم الدِّين. وفي هذا ترغيب وترهيب.

وهو الآيات من: (٢٩ ـ ٣٢).

الدرس الرابع: تضَمَّنَ الإقْنَاعَ بِأَنْ مَذْهَبَ الشِّرْكِ مذهَبٌ ساقطٌ، وأنَّ الدَّعْوَةَ الإسْلاميَّةَ اسْتِمْرَارٌ لمَا جَاءَ به المرسَلُونَ السَّابِقُونَ، إيماناً باللَّهِ، ومسْؤُوليَّةً في الحياةِ الدنيا، وجزاءً يَوْمَ الدِّين، وتحذيراً مِنْ مُعَجَّلِ العقاب، كما حصل للمكذِّبِينَ الأوَّلِين.

وهو الآياتُ من: (٣٣ ـ ٥٥).

الدرس الخامس: تضمَّنَ تَوْجيهَ إنْذارٍ عامٍّ بعذابِ اللَّهِ.

وخُتِمَتِ السُّورة بتكليف النّاس أنْ يَسْجُدُوا للَّهِ وأنْ يَعْبُدوه.

وهو الآيات من: (٥٦ ـ ٦٢).



(٦)
التدبّر التحليلي للدرس الأول من دروس السورة

● قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨﴾.

تمهيد

تضَمَّنَ هذا الدَّرْسُ الأوَّل من دُروسِ سورة النجم معالجةَ إقناع المشركين المكذبين لرسول الله محمّد ﷺ في نُبوّتِه: وتَلَقّيه الوحي من ربّه عن طريق أمين الوحي جبريل عليه السَّلام، والمكذبين بما جاءَهُمْ عن اللَّهِ جَلَّ جلاله، ومعالجةَ إقناعهم بشأنِ آيَةِ الْعُرُوج به إِلَىٰ السَّمَاوَاتِ الْعُلَىٰ حتَّىٰ بُلُوغِه سِدْرَةَ المنتَهى.

فهُمَا قضيَّتان:

القضيَّةُ الأولى: مُعالجةُ إقْنَاعِ المشركين بِشَأْنِ إنكارهم تَنَزُّلَ نُجُومِ القرآن على رسول الله ﷺ من رَبِّ السّماوات والأرض العزيز الحميد الحكيم القدير، يَنْزِلُ بها أمين الوحْي جِبْرِيلُ عليه السَّلاَمُ عَبْرَ السَّمَاوَاتِ لِيُبلّغِهَا رَسُولَهُ مُحمَّداً ﷺ، وبشَأْن إنكارهم أنّ محمّداً يُبَلِّغُ هٰذِهِ النجومَ القرآنيَّة للنَّاس عن رَبّه صَادِقاً، غيْرَ مُتوهِّم ولاَ كاذبٍ.

القضيَّةُ الثانية: معالجةُ إقْنَاعِ المشركين بشَأْنِ اصْطِفَاء الله رسُولَهُ بآيَةِ الْعُروجِ بهِ إلىٰ السَّماوات الْعُلَىٰ، حتَّىٰ بُلوغه سِدْرَةَ المنتهىٰ.

إنّ تكذيب المشركين لرسول الله محمّد ﷺ لاَ يَسْتَنِدُ إلى تَشَكُّكٍ في كَمالِ صفاتِه، فَقَدْ خَبَرُوهُ في كلّ ما سلف من عُمْرِه فيهم، فَعَرفُوا أنَّه أمِينٌ وصادقٌ وذُو خُلُقٍ عَظيم، ولَمْ يَعْهدوا أنَّهُ كَذَبَ كذْبةً واحدةً في حَيَاتِه، ولاَ خانَ أدْنَىٰ خيانة.

إنما اسْتَنَدَ تَكْذِيبهم إلى مُجَرَّدِ استِبْعَادِ واستِغْرابِ أنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ علَىٰ مُحَمَّدٍ الْوَحْيَ تِبَاعاً من السَّمَاءِ في أوقاتٍ قَصِيرَةٍ من اللَّيْلِ أو من النَّهَارِ، مع تباعُد مَسَافاتِ آفَاقِ السَّماءِ عَنِ الأرضْ، وأنْ يصْطَفيَهُ بالعروج به إلى السَّمَاواتِ الْعُلَىٰ حتَّىٰ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ فِي سَاعَاتٍ مِن اللَّيل.

فَكَانَ من المناسِبِ أَنْ يشْهَدَ اللَّهُ لَهُ بالصّدْقِ، مؤكّداً شهَادَته بِقَسَمٍ يتَضَمَّنُ الإشارَةَ إلى قُدْرَتِهِ عزَّ وجلَّ على تقديرِ سُرْعَاتِ حركَةِ الأشياء، وإخْضَاعِ كلٍّ مِنْهَا إلَىٰ نِظَامٍ من السُّرعَةِ يخْتَلِفُ عن غَيْرِه.

وقد كان النّاسُ إبَّانَ تَنْزِيلِ القُرْآنِ لاَ يَعرفُونَ من السُّرْعَاتِ العاليات إلاَّ سُرْعَةَ الْبَرْق، وسُرْعَةَ خُرُور الشُّهُبِ من السَّمَاءِ إلى الأرضِ، ويعتبرُونها نُجُوماً.

والشُّهُبُ السماويَّة تدخُل تحت عموم لفظة «النجم» الدالّ على كُلّ جرْمٍ سماويٍّ مُضِيء، لأنّ الشُّهُبَ مهما عظُمَتْ هِيَ أجرامٌ سماويَّةٌ صغرى بالنسبة إلى النجوم العظيمة العليا، ومعظم هذه الأجرام الصغرى أجرامٌ

معدنية، إذا اقتربَتْ من الأرضِ انجذبت إليها، فإذا دَخَلَتِ الهواء المحيط بالأرْض التهبَتْ بالاحتكاك فصَارَتْ كأسْهُم نارِيَّةٍ منقضَّةٍ بسرعَةٍ عظيمة نحو الأرض، فتكونُ بضيائها الملْتَهِب وبحركاتها السّريعةِ جزءاً من زينةِ السَّمَاءِ مع طردها للشياطين إذْ هي تُؤدّي وظيفَتَيْنِ: إحداهما مشهودة، والأخرىٰ غير مشهودة:

فالوظيفة المشهودة: هي وظيفة تزيين السَّماء الدنيا باعتبارها مع النجوم العظيمة العُلْيا زِينَةً كالمصابيح.

والوظيفةُ غير المشهودة: هي وظيفَةُ مُتَابَعَةِ مُسْترِقي السَّمْعِ مِنَ الشياطين لِطَرِدِهم أو إحراقهم.

وعلىٰ هذا نفهم قول اللَّهِ عزَّ وجَلَّ في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول):

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾.

وسَمَّىٰ اللَّهُ هٰذِهِ المصابيحَ الّتي جعَلَها رُجُوماً للشياطين شُهُباً، في سُوَرِ: (الحجْرِ، والصافات، والجن).

والشهابُ في اللُّغَة: يُطْلَقُ على الشُّعلة السَّاطعة مِنَ النار، وعلى النجم المضيء اللاَّمع.

تدبُّر الدرس:

فبدأ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بالْقَسَم بالنجم إِذَا هَوَىٰ، فقال تَعالَىٰ:

- ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾.

النجم: يُطْلَقُ في اللُّغةِ على ثلاثَةِ معَاني:

(١) يطْلَقُ علَىٰ كُلِّ جرم مضيءٍ لامعٍ في السماء.

(٢) ويُطْلَقُ على ما لا ساقِ له من النبات.

(٣) ويُطْلَقُ على الْوَقْتِ المعَيَّنِ لأداءِ عَمَل مَا، وعلى الشيء الّذِي

يُعْمَل أوْ يُؤَدَّىٰ في الوقْتِ المعين، ولمَّا كانَ تَنْزِيلُ القرآنِ مُجَزْءاً على أوقاتٍ، أُطْلِقَ علَىٰ كُلِّ جُزْءٍ يَنَزَّلُ مِنْهُ فِي وقْتٍ ما نَجْماً.

وقد أقْسَمَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بالنَّجْم إذا هَوَىٰ لِيُشِيرَ إلَىٰ أنَّ سُرْعات الأشياء لدىٰ انتقالها وتحرُّكها تختلف اختلافاً عظيماً. وأنَّ الله لا يعجزه إنزال الوحي من السماء بلمح البصر، والعروج برسوله إلى السماواتِ الْعُلا في ساعة من ليل أو نهار. فمن الجهْلِ قِياسُ المشركين سُرعَة نزولِ أمِينِ الوحْي جبريل عليه السّلاَمُ من السماوات إلى الأَرْض، لِيُوحيَ إلى محمّد بن عبد الله ما أَمَرَه الله بأنْ يُوحيَ به إليه، على ما يُدْ رِكونَ من سُرْعَاتٍ، ومِنَ الْجَهْلِ قياسُ سُرْعَةِ عُروجِ جبريل عليه السلام بمحمَّدٍ إلى السماء السابعة فسِدْرَةِ المنتَهَىٰ، على ما يُدْرِكون من سُرْعاتٍ يمْلِكُونَ استخدامها، ولو كانوا يعلمون ما نعلم اليوم من سرعات الصوت والضوء لقلَّ استغرابهم.

واختِيرَ القَسَم بالنَّجْمِ عنْدَ هُوِيِّهِ السَّرِيع دُونَ الْقَسَم بالبرقِ، لأنَّ الجزء الذي كان يُنَزَّلُ من القرآنِ يُسَمَّىٰ نَجماً، وبهذا تحقَّقَ النجانُس بَيْنَ اللَّفْظَيْن، والتشابُه بين النُّزولَيْن، مع التَّنبيه على أنَّ السُّرعاتِ متفاضلاتٌ في الوجود، ضمن أنظمة الخلْقِ الرَّبَّانيَّة العجيبة، فللصَّوْت سُرْعة. وللضوء سُرْعة فائقة، ولِلملائكة سرعات، وللأرواح سرعات، والله يخلُق ما يشاء ويفعل ما يريد.

إذا هَوَى: أي: إذا سَقَطَ مُنْقَضّاً مِنْ عُلْوٍ إلى سُفْل. ولفظةُ «إذا» هنا دالَّةٌ على مجرَّدِ الزَّمان، دون أن يكون ظَرْفاً لما يُسْتَقبل من الزمن، إذ المرادُ: والنجمِ حين هُوِيّه.

فمعنى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ أُقْسِم بقُدْرَتي على إخْضاع النَّجْم عند هُوِيّهِ لنظام من السُّرْعَةِ الشديدة تَشْهدون مظهرها بأبصاركُمْ، أي: فلا تقيسُوا أُمُورَ رَبّكم بمقاييس ما أنتم عليه من حُدودٍ.

أما المقسَمُ عَلَيهِ فهو قولُه تعالىٰ:

- ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾.

﴿مَا ضَلَّ﴾: أيْ: ما ضَاعَ جاهِلاً طَرِيقَ الْهُدَى، في الّذِي جاءكم به عن رَبِّه، مبيّناً لكم أنَّهُ نبيُّ اللّهِ ورسُولُه.

فالضَّلاَل: قد يأتي بمعنى الضياع والْجَهْلِ دونَ قَصْدِ ولا تعمُّد، وهو المرادُ هنا، بَدَليلِ نفي الْغَواية عنه أيضاً.

﴿وَمَا غَوَىٰ﴾: أي: وما تنكّبَ صِرَاط الرُّشْدِ عَنْ قَصْدِ وتعمُّدِ، اتّباعاً لِهَوىٰ نَفْسِه.

ونفْيُ الضَّلالِ والغوايَةِ عن الرسُول محمد ﷺ يَلْزَمُ منْهُ إثْبَاتُ صِدْقِهِ فيما يُبَلّغ عن رَبّه من نجوم القرآن، الّتي تَتَنَزَّلُ عليه آناً فآناً، وصدْقه فيما يخبرهم به من أحداثِ كُبْرىٰ يُجْرِيها اللّهُ له، ويَصْطَفيه أو يُكْرِمُهُ بها، كالعُروج به إلىٰ السماواتِ السَّبع.

ولمَّا كانَ تكذِيبُ المشركين للرَّسُول محمّد ﷺ لا يَعْدو أن يكون مستنداً إلى تَشْكِيكَيْن:

التشكيك الأول: أن يكون متوهِّماً ضالاً عن سبيل الحقّ والْهُدَى دون قَصْدِ منه، فهو يتَراءَىٰ له أنّه رسولٌ يتنزّل علَيْهِ الوحي، وتَجْرِي له الأحداثُ التكريميَّةُ الكبرى، وهو ليس كذلك بزعمهم.

التشكيك الثاني: أن يكون مُدَّعياً هذا الادّعاء عن غَوَايَةٍ، إذْ يَعْلَمُ أَنَّهُ كاذبٌ غيْرُ صادقٍ، إنّما يَدَّعي ادّعاءاته اتّباعاً للهَوَىٰ، وليُحقّقَ لنفسه أَغْراضاً خاصَّةً، واستعلاءً في الأرض.

ولنفي الأمْرَيْن كلَيْهما خاطَبَ الله المشركين بقوله:

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾.

أي: بل هو صادق فيما يُبَلّغ عن ربّه، وصادقٌ في أنباء الأحْدَاثِ الكبرى الّتي يُكْرمه اللَّهُ بها، واعٍ في مشاهداته لها.

وفي قَوْلِ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ خطاباً للمشركين: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ أي: الملازم لكُمْ مِنْذُ نَشَأَتهِ وحتَّىٰ إنْزَالِ خطابي هذا لكم، إشارةٌ إلى كمال صفاته الَّتِي كانوا يعلمونها فيه، وكمال أخلاقه العظيمة الّتي كانت فيما بيْنَهُمْ هي المثَلَ الأعْلَىٰ بين الناس.

أي: فَطُولُ صُحْبَتِكُمْ له كافيةٌ لأَنْ تكشِفَ لَكُمْ أنَّهُ لا يمكنُ أنْ يَكْذِبَ على رَبِّهِ، وقد تنَزَّه طَوال حياته السَّابقة عن أنْ يَكْذِبَ علىٰ النَّاس في أيِّ أمْرٍ صَغيرٍ أو كبير، ولا يُمْكِن أن يكُونَ مُتَوَهِمّاً وهُو الكامِلُ في وَعْيِهِ، والكامل في صفاته النفسيَّة، على ما تعلمون من أمْرِه.

- قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾:

في هٰذِه الآية تأكيدُ كَوْنِ الرسُولِ ﷺ لم يكُنْ غاوياً في بلاغاته عن ربّه، ولا في إخباره بما جرى له من أحداث العروج به إلى السَّماوات الْعُلاَ، لأنَّ مِنْ شَأْنِ الغاوي أن ينطق عن الْهَوى.

أي: وما ينطق بما ينطق به صادراً عن توجيه الْهَوَىٰ وتأثيره.

ولدفْعِ احتمال تعرُّضه لمؤثرات الْهَوىٰ بعْدَ إعلانه نُبُوَّتَهُ ورسالَته، جاءت الآيَةُ معطوفةً بحرف العطف (الواو). ولولا هذا لكان المناسبُ أن تكون خالية منه، إذ يلزم عقلاً من كونه ما ضلَّ وَما غَوَىٰ فيما تلَقَّىٰ عن رَبّهِ وفيمَا شَاهَدَ فيما مضَىٰ، أنَّه لا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوىٰ الآن ولا مستقبلاً.

فإيرادُها معْطُوفةً يجعلها مَسُوقةً مساقَ جُمْلَةٍ تُؤَسِّسُ فِكْرَةً جَدِيدة، مع ما فيها من تأكيدٍ لمضمون ما قبْلَها أو للازمِهِ الفِكْرِيِّ.

الْهَوَىٰ: هو مَيْلُ النَّفس بقوّةٍ إلى ما لها فيه لَذَّةٌ أو مُتْعَةٌ أو مَسَرَّةٌ أو شَهْوة أو مَصْلَحةٌ خاصّةٌ، فهي تنجذِب إليه باندفاعٍ قويٍّ أرْعَن، دون بصيرةٍ ولا رُشد حتى يصل صاحبُه إلى سحيق الهاوية.

ومن شأن الهوى أنْ يَجْعَل صاحبَه يَهْوِي إلى ما فيه شرٌّ أو ضُرٌّ أو فسادٌ أو عذابٌ أليم، إذا اتَّبعه واستجابَ له. والعِصْمَةُ منْهُ تكون بالتمسُّك بحقٍّ أو خَيْرٍ وهُدىً ضِمْن مؤثِّرٍ دينيٍّ، يُغَذِّيه من اللَّهِ والطَّمَعُ برضوانه وثوابه العظيم.

وكون الرسول محمّد ﷺ لا ينطق عن الهوىٰ لا يَدُلُّ على عِصْمتِهِ عن الخطأ في الاجتهاد في المسائل المأذون له بالاجتهاد فيها، أو الْخَطَأِ في القضاء بين الناس إذا قضى بنحو ما سَمِعَ من الخصْمَيْن، وكان أحدُهما الْحَنَ بحجَّته من الآخر، أو الْخطأ في بعض الأمور الدنيويَّة، كما جرَىٰ منه في قصَّةِ تأبير النخل ونحو ذلك، فالرسول ﷺ في كلٍّ هذا لم يكن قد نَطَق عن الهوى، بلْ نَطَقَ وهو حريصٌ على أنْ يقول ما رأىٰ أنَّهُ الحقّ، أو الصوابُ، أو الأحْسَنُ والأفضل، أو الأحَبُّ إلى اللَّهِ والأرضىٰ له. ولكنّ اللَّهَ عزّ وجلّ قَدْ جعَلَهُ بشراً عُرْضَةً لاحتمال أن يخْطِئ فيما أذِنَ له بأن يجتهد فيه.

أمَّا ما يُبَلِّغُهُ الرسولِ ﷺ عن الوحي، وما يخبر به عمّا رأى، أو سمع، أو أَدْرَكَ بأيّ حاسَّةٍ من حواسّه الظاهرة والباطنة، فهو فيه معصُومٌ عِصْمَةً تامَّةً عن الكذب وعن الخطأ، بعِصْمَةٍ له من الله عزَّ وجلّ.

● قول الله عزّ وجل:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾:

بعْد القسَم بالنجم حينَ يَهْوِي، الذي أشار الله عزّ وجلّ به إلى خطأ المشركين في مفهوماتهم لسُرْعَاتِ الأشياء، التي استبعدوا بالاستناد إليها

نُزُول أمين الوحي جبريل عليه السلام على محمد بن عبد الله من موقِعِه الرَّفيع في السّماوات بأزمانٍ قليلة يسيرة، واستبعدوا أن يَعْرُج به في ساعات من اللّيل إلى سِدْرَةِ المنتهى.

وبعد بيان أنّ الرسول مُحمَّداً ﷺ ما ضَلَّ ومَا غَوَىٰ، وبيان أنّه ما يَنطِقُ في كلِّ ما يَنطِقُ به عن الهوىٰ.

بعد كلّ هذا ينْتَقِل إلَىٰ سؤال وهو: إذا لم يكن محمَّد ﷺ ضالاً عن غير قَصْدٍ، ولا غاوياً عَنْ قَصْد، ولا يَنْطِقُ عن الهوى، فَمِنْ أَيْنَ يأتيه هذا الْعِلْم العظيم الَّذي يَتَحَدَّثُ بِهِ إلى النَّاس؟ وكَيْفَ تَتَوَارَدُ على فُؤادِهِ الآيَاتُ القُرْآنيَّة نَجْماً فنجماً (أي: قِسْماً فقِسْماً) بحَسَب مقتضيات الحكمةِ في تكامُلِ الدّينِ، والتَّدَرُّجِ الارتقائيّ فيه؟.

وقد أجَاب الله عزّ وجلّ على هذا السؤال الذي ينتَقِلُ إلَيْهِ الفكر تِلْقائيّاً بقولِهِ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ أي: يُوحَىٰ إليه بِهِ من رَبّهِ، فَمَا هُوَ مِنْ عَبْقريَّتِه الخاصَّة، ولا هو مِنْ ملائكيَّةٍ فيه ولاَ رُبُوبيَّة، إذْ هو بَشَرٌ من البشر، وعَبْدٌ مِنْ عباد الله الذين اصطفاهم اللّهُ بالنُّبوَّة، وكلّفَهُمْ أنْ يؤدُّوا رسالات رَبّهم لأقوامهم.

[إنْ] حرف نفي مثل «ما» النافية. [هو] ضمير يعود على الذّي ينْطِقُ به مبلّغاً إياه عن رَبّه، المفهوم من جملة: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾.

فالمعنى: ما هو الذي ينطِقُ به مبلّغاً إيَّاهُ عَنْ رَبِّهِ إلاَّ وَحْيٌ من عند الله يُوحَىٰ إليه به آناً فآناً، أو آناً ثم آناً، على سبيل التكرار والتجدُّد، ولم يُوحَ إليه به دُفْعةً واحدة، لوجوه من الحكمة اقتضت ذلك، وأبانتها الآيتان (٣٢ و٣٣) من سُورة (الفرقان).

الوحي: ظاهرةٌ معروفة في تاريخ الرسالاتِ الرّبانيَّة، وفي تاريخ الأنبياء والمرسَلِين، ومعظمُ الشعوب تَعْرِفُ هٰذِهِ الظَّاهرة، ولدَيْها ذِكْرَياتٌ

عَنها، وأخبارُ الأنبياء والمرسلين حَوْلَها مستفيضة، وكلُّ أصحاب المِلَلِ الّتي تَنْتَمِي إلى دينٍ رَبَّانيّ يَعْرِفُونها ويُؤْمِنون بها.

والوحيُ في اللّغة يأتي بمعانِي متعدّدة، منها: الكتاب، والكتابة، والإشارة السَّريعة، والإلْهامُ، والكلامُ الخفيُّ السَّريع، وإلقاء المعنىٰ في النفس دون صوتٍ يُسْمع.

أمّا الْوَحْيُ في المفهُوم الدينيّ: فهو إعْلاَمُ الله رسُولاً من رُسُلِهِ، أو نبيّاً من أنبيائه ما يَشَاءُ من كلام أو معنىً، بطريقة تفيد الرسُولَ أو النبيَّ الْعِلْمَ اليقينيَّ القاطِعَ بما أعْلَمَهُ اللَّهُ به.

وهٰذه الطريقة قَدْ تكون إلقاءً في الْفُؤَادِ من الله. أَوْ خطاباً يُخَاطبُ اللَّهُ به عبْدَهُ المختارَ من وراء حجاب، وقَدْ تَكُونُ بوساطة مَلَكٍ يُبَلِّغُ بالقوْلِ عن طريق السَّمْع.

وهنا ينتَقلُ الفكْرُ إلىٰ سؤالٍ آخر، وهو: هَلْ هٰذا الوحْيُ يرتقي إلى مُسْتَوى التعليم النَّصّي، حَرْفاً بحَرْفٍ، وكَلِمةٍ بكَلِمَة، حتّى يكونَ قَوْلاً مُحَرَّراً محفوظاً بنصّه الكامل، دون زيادَةٍ ولا نَقْصٍ في حَرْفٍ أو حَرَكةٍ أَوْ أداءٍ؟.

وقَدْ أجابَ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ على السؤال بما يلي:

- قول اللَّهِ عزَّ وجلّ:

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦﴾.

﴿عَلَّمَهُۥ﴾: أي: علَّمَ الرَّسُولَ محمَّداً. **التعليم**: إتّخاذُ الوسَائل لجعْلِ مَنْ يُرادُ تَعْليمه عالماً بمَا أُلْقِيَ إليه من أقوالٍ ومعاني وغير ذلك.

﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ صفةٌ لموصُوفٍ مَحْذوف، وهو جبريلُ عليه السّلامُ في أقوال جُمْهُور المفسّرين. ويَشْهَدُ لهذا ما سَبَق نزوله في سورة (التكوير/ ٨١

مصحف/٧ نزول) وهو قول اللَّهِ عزّ وجلّ فيها بشأن القرآن:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾.

فَمَا جاءَ في سُورَة (النجم) قد أضَافَ بيانَ صفَاتٍ لجبريل علَيْهِ السَّلام إلى صفاته المبيَّنة في سُورة (التكور) فالنَّصَّان متكامِلاَنِ.

وعبارَةُ ﴿شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ هي من إضافة الصفة إلى الموصوف.

أي: ذُو الْقُوىٰ الشديدَةِ المتنوِّعَة.

الْقُوَىٰ: جمْعٌ مفْرَدُهُ «الْقُوَّة» فدَلَّ الجمع على أنواعٍ من الْقُوَّةِ.

﴿ذُو مِرَّةٖ﴾: أي: ذو إحكامٍ وَإتقانٍ ومُمَارسَةٍ وَخِبَرَةٍ في التعليم، تَعْتَمِد على المعالجة الحكيمة، واسْتِخْدام مختلف الوسائل التعليميَّة ذات التأثير العميق الرّاسخ.

ونُلاحظُ في هذا الثناء على جبريل عليه السّلام توجيهاً للمعلّمين أن يَتَّخذُوا ما يسْتَطِيعُون من وسائِلَ للتعليم الْمُجْدِي، ذي الأثَرِ الراسخ.

المِرَّةُ في اللّغة: القوة وشدّة العقل، وقُوَّةُ الْخَلْقِ وشِدَّته.

أصْلُ المِرَّةِ في اللُّغة: إحكامُ الفتل للْحبْل، يُقالُ لغة: أمَرَّ الحبْلَ إمراراً، أي: أحْكَمَ فَتْلَه.

وَكُلُّ قُوَّةٍ (أي: طاقة) من قُوَىٰ الحبل تُسَمَّىٰ: «مِرَّة» وجَمْعُها «مِرَرٌ».
والْمَرَائِرُ: هي الحبال المفتولَةُ على أكثَرَ من طاق، ومفْردُها مَرِير، ومَرِيرَة.

وقالُوا: فلانٌ يُمِرُّ فُلاناً ويُمَارُّه، أي: يُعالِجُهُ ويتلَوَّىٰ عليه ليَصْرَعَهُ ويتمكَّنَ منه.

ونَفْهَمُ من هذه المعاني اللُّغويَّة أنَّ معنى قول الله عزَّ وجل في وصف

جبريل عليه السَّلَامُ ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أنَّهُ ذو قُوَّة شَدِيدَةٍ عَظيمةٍ خارقَةٍ: جسميَّة وفكرية وعَقْليَّةٍ وإراديَّةٍ ونفسيَّة، وأنَّه ذو قُدْرَةٍ على الفَتْلِ والتلَوِّي والمداوَرَة والمعالجة في التعليم، حتى يبلُغَ غاية ما يريدُ من تَمْكِينِ الْعِلْم فيمن يُعَلِّمه.

﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾: أي: فوصَل الرَّسُولُ محمَّد ﷺ إلى مستوى الاستواء الكامل من حالة التعلُّم التي لا يَنْقُصها شيْءٌ، ولو نقصها شيءٌ لما كانت مُسْتويةً، ولمَا كان هو في تعلُّمِهِ مُسْتَوِياً.

إنّ غير المستوي يكون ذا اعوجاج أو ارتفاع أو انخفاض عن المطلوب الكامل، أو يكون غير مطابق للأوصافِ التي يُؤَدِّي بها الوظيفة المُعَدَّ لأدائِها على أكمل وَجْهٍ وأحْسَنِه، والنقص في استوائه يتنازَلُ في دَرَكات، فبمقدار النقص في الاستواءِ يكون الانحطاط في الدركات.

وظاهر سوابق: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ تدلُّ على أنّ الذي وصل إلى درجَةِ الاسْتِواء الكامل هو الرَّسُول محمَّد ﷺ، لأنَّ تعليم جبريل عليه السلام كان مُوجَّهاً له، فهو المتلَقِّي المتعلِّم.

والمرادُ باستوائه بُلُوغُه دَرَجَة الكمالِ في التَّعَلُّم، وهذه شهادة من الله له.

إذا كان المعَلِّمُ شَدِيدَ الْقُوىٰ، وذا مِرَّةٍ في التعليم بإحكامٍ وإتقان، فلا بُدَّ أنْ يَصِلَ المتعِلِّم وهو الرّسُولُ المجتَبَىٰ المصطفى من الناس، إلَىٰ دَرَجة الاستواء الكامل في التَّعلُّم، بما لديه من الاستعداد الكامل للتعلُّم والحفظ والفهم والفطنة.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾.

تحكي هذه الآيات قصة مشاهَدَةِ الرسول ﷺ الأولىٰ لجبريل عليه السلام بصورته الحقيقيَّة.

﴿وَهُوَ﴾: هٰذا الضميرُ يعُودُ على جِبْرِيلَ عليه السَّلامُ، المفهوم من قول الله عزّ وجلّ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ...﴾.

﴿بِٱلْأُفُقِ﴾: **الأفُق**: هو من السَّماء الجانِبُ الذي يُرَى أَدْنَاهُ ملتقياً بالأرض، وهو جُزْءٌ من قُبَّتِها العظمَىٰ، وهو بالنسبة إلى الناظرِ يُرىٰ له أسْفَلُ فأوسط وأعلى.

﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾: وُصِفَ الأُفُقُ بالأَعلَىٰ لتَحْدِيدِ الْمَكَانِ الذي ظهر فيه جبريل للرَّسُول من الأفُقِ، فالمشاهِدُ الواقِفُ على الأرض إذا مَدَّ نظَرَهُ إلى جهَةِ الأُفُقِ، فقد يرىٰ مَا ظهر فيه قَدْ ظَهَرَ من أعلاه، أو مِنْ أوساطه، أو من أدناه اتّصالاً بالأرض، ومن كان واقفاً في وادٍ تحْجُبُهُ عن الأفق الأَدْنى والأوسَطِ جبالٌ، فإنما يَرى من الأفق أعلاه.

وفي طريق أجياد من مكة، حيث رأى الرسول ﷺ جبريل عليه السلام في الأفق، لا يرىٰ السّالِكُ فيه من الأفق إلاَّ الجانب الأعلَىٰ منه، لأنَّ المقادير الوسْطَىٰ والدنيا منه محجوبةٌ بجبال من مكّة.

﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ أي: لقد رأىٰ محمّد جبريل والحال أنّ جبريلَ ظاهرٌ بالأفق الأعلىٰ، بدليل قول الله تعالى في الآية (١٣): ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾ فعطف هذه الجملة على جملة: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ مع المطويّ المقدّر. وفي هذه العبارَة تصوير للَّقطة الأولى من مُشاهدة الرسول ﷺ لجبريل عليه السَّلام، بصورته الأصليّة التي خلقه الله عليها، لا بصورة أخرى يستطيع أن يتمثل بها، كصورة إنسان.

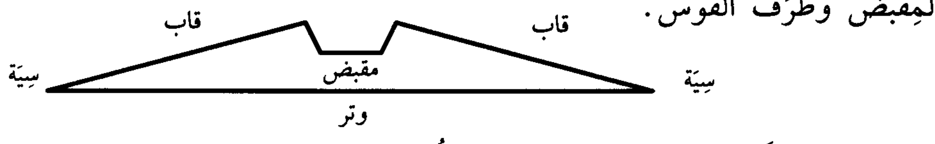
﴿ثُمَّ دَنَا﴾: أي: وبَعْدَ مُدّةٍ متراخية استقرَّ فيها جبريلُ في موقعه الّذي ظهر فيه للرسول في الأفق، دَنا إلى جهة الأرض دنُوّاً قَليلاً.

﴿فَتَدَلَّىٰ﴾: أي: فَعَقِبَ دُنُوِّهِ القليل صارَ يَتَدَلَّىٰ مِقْدَاراً فمقداراً أي:

يقتربُ بِرِفْقٍ هابطاً إِلَىٰ جِهَةِ الرَّسُول، لئلا يُلْقِي الرُّعْبَ في نَفْسِ الرَّسول، من المشهد العظيم لصورته الأصليّة الّتي خلقه الله عليها.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾: أي: فكان الفاصِلُ بينَهُما بَعْدَ الدُّنوّ والتَّدَلّي مقدار طُولِ قوسَيْن عربيَّتيْن أو أدنى مِنْ طولهما، وهذا الفاصل المقدر الذي هو اسم «كان» يُفْهم من سوابق العبارة: «وهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ».

﴿قَابَ﴾ أي: مقدار، **القابُ**: المقدار. والقابُ من القوس: ما بَيْنَ المِقبض وطَرَف القوس.



وورد أنَّ القوس ذراعٌ يقاسُ به كلُّ شيء.

﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾: أي: أو أدنى من قَدْر قَوْسَيْن، وهذا أسلوبٌ بياني لتأكيد تحديد مَسَافة القرب بقَدْر طِولِ قَوْسين عَرَبيَّتَين، وقد يكونُ ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ تعبيراً عن بعض أحوال القرْب بيْنَهما، فأبْعدُها قَدْر طول قوسَيْن، وقد يكون القرب أقل من ذلك.

قال الرازي: ورَدَ هذا على استعمال العرب، فإنّ الأميرين منهم أو الكبيرَيْنِ إذا اصطلحَا أو تَعَاهدَا خَرَجَا بِقَوْسَيْهِمَا، وَوَتَر[1] كُلُّ واحدٍ منهما وَتَرَ قَوْسِه بطَرَفِ قَوْسِ صَاحِبِه، ومَنْ دُونَهما من الرَّعيَّةِ يَكُونُ كفُّهُ بكَفِّه فَيُنْهيَانِ بَاعَيْهِمَا.

وقد ظهر جبريل عليه السلام للرسول ﷺ ليَرَاهُ رُؤْيَا عيْن تَصِلُ إلى عُمْق الفؤاد، وتكونُ له بُرْهانَ إثباتٍ على أنّه من عالَم الغيب حقّاً، وأنّه رسولُ الله من الملائكة الذي يَبْعَثُه اللّهُ إلى رُسُله من البشر، ليُبَلّغوهم ما أوحَىٰ الله به إليهم.

---

(١) **وتر** أي: شَدَّ وتَرَ قَوْسِهِ.

ولم يقتصر الأمر على مُشاهدةٍ واحدة، بل جعلها الله عزّ وجلّ مرَّتين، زيادةً في تأكيد الإثبات البرهانيّ، وليَتِمَّ تعرُّفُ الرسول على شخصيَّة جبريل، حتَّى إذا جاءه بعد ذلك بأيَّة صورة تمثيليَّة، أو بتنزُّلِ مَسْمُوعِ الصَّوْت غيْرِ مَرْئِيِّ الذَّات عرفَهُ، ولَمْ يخْفَ عليه.

وهذه المشاهدة الثانية سيأتي في هذا الدَّرْسِ ذكْرٌ لها.

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾: أي: فأوحَى اللّهُ عزَّ وجلَّ إلى عبْدِهِ محمَّدٍ عَنْ طريقِ رَسُولِ الوحْي جبْرِيلَ مَا أوحاه إليه، ولمّا كان ما أوحاه جبريل للرسول محمد أثراً من آثار خَلْقِ اللّهِ جاء التعبير بأسلوب أنَّ الله هو الذي أوحى لعبده محمد ما أوحى به إليه.

ولم يأتِ في النصّ بيانٌ لهذا الذي أوحى الله به إلى رسوله، لأنَّ الغرض بيان ظاهرة الوحي، أمّا الموحى به إلى الرسول محمد ﷺ، فالرسُولُ قائِمٌ بتَبليغ مَا أَمَرَهُ اللّهُ بتبليغه للنَّاس، لا يَكْتُمُ منْهُ شيئاً. ولم يكْتُمْ منْهُ شيئاً.

● قول اللهِ عزَّ وجلّ:

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾.

الفؤاد: عُمْقُ الْقَلْبِ الذي هو أداة الإدْرَاك في الإنسان، ومركز استقرار العلوم والمعارف، وتنطلق منه الإرادات.

إنّه لما كان مشهد ظهور جبريل بصُورَته العظيمة الَّتي تملأُ الأفق أمراً من الوضوح والتحقُّق التَّامّ بالِغاً الغاية، كان نافذاً إلى الفؤادِ مركز عمق القلب، وهو شيء غير جهاز ضخ الدّم.

وهذا دليل يَدُلُّ على أنَّ الرُّؤيَةَ الحقيقيَّةَ هي الرُّؤية النافذة إلى مركز الإدْراك البصَرِيِّ في عُمْقِ الإنسان.

وقد أثبتت العلوم الحديثة أنَّ الْعَيْنَ أداةُ توصيلٍ لصورة المرْئيّ، وأنَّ

الرؤيَةَ إِنَّما تكونُ في مراكز الإبْصَارِ في الدّماغ، وحينَ تُصَابُ هذه المراكز بالْخَلَلِ لا تَحْصُلُ الرُّؤْية، ولو كانت العينانِ سَلِيمَتَيْن وأعصابُ التوصيلِ سَلِيمة.

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾: أي: ما كذَبَ فُؤادُ محمّد ﷺ ما رَأى، وجاءَتْ: (أل) في الفؤادِ بدَلَ الضمير المضاف إليه، والمعنَىٰ: ما كذبَ فُؤَادُه، وهذا الضمير يعود على «عَبْدِه» في الآية السَّابقة. ووضع (ال) التعريف موضع الضمير هو من الاستعمالات العربيَّةِ المعروفة، مع ما في التعريف بـ(ال) لفؤاد الرسول ﷺ من إشارة إلى كماله وعلُوِّ شأنه، إنَّهُ لفُؤَادٌ عظيم، لرسُولٍ مصطفى كريم.

وجاء في قراءةٍ أخرى لهشام وأبي جعفر: [ما كذَّب] بتشديد الذّال.

وأمّا تَعْديةُ فعل ﴿كَذَبَ﴾ [كذَّب] اللاَّزمان فيحتمل وجْهَين:

الوجه الأول: أنَّه علَىٰ طريقة نزع الخافض، أي: ما كذَبَ فيما رأىٰ، وما كذَّبَ فيما رأىٰ.

الوجه الثاني: أنّ فعل ﴿كَذَبَ﴾ أو[كذَّب] ضُمِّنَ معنَىٰ فِعْلٍ آخَرَ فَعُدِّيَ تَعْدِيتَه، وفْقَ قاعِدَة التضْمينِ الشائعة في الاستعمالات القرآنيَّة، ويمكن أن يكون التقدير: ما كذَبَ أو ما كذَّبَ فُؤادُ مُحمَّدٍ يختلق رُؤيته أَوْ يتوَهَّمُها.

ولا حاجة مع هٰذَيْن الوجهين إلى إيراد تخريجات متكلّفات اشتَمَلَتْ عليها بعض التأويلات.

● ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢﴾؟:

خطابٌ موجَّهٌ للمشركين الذين يجادِلُونَ الرسول محمّداً ﷺ، في رؤيته رسولَ الوحي جبريل عليه السلام، وتلَقِّيه عنه ما أوحَىٰ الله به إليه.

وفي هٰذه العِبَارة استفهامٌ إنكاريٌّ، يتضَمَّن التَّعْجيب من مُماراتهم، ويتَضَمَّن الإنكار عليهم.

وَجاء في القراءة الأُخْرى: [أَفتَمْرُونَهُ].

الْمُمَارَاة: أَخَذَتْ في الاستعمال معنى المجادلة والمداورة، وتكُونَ المماراةُ غالباً بغير حقٍّ.

وأصْلُ الْمُمَاراة والامْتِرَاءِ أَنْ يَمْسَحَ الحالب على ضَرْع الشَّاةِ أو البقَرَةِ ونَحْوِهما لاستخراج اللَّبَنِ واحْتِلَابه، وفي هٰذا قَدْرٌ كبيرٌ من الملايَنَةِ والملاطَفَةِ والمداورة لبلوغ الْمُراد.

والمجادل يُحاول أن يسْتَخْرِج مَا عِنْدَ صاحِبِهِ، وهُوَ يَمْتَرِيه كما يمْتَرِي الحالبُ اللّبَن من الضَّرْعِ.

والْمَرْيُ: مسْحُ ضَرْعِ النَّاقَةِ لِتَدِرَّ. يقال لغة: مَرَىٰ النَّاقةَ مَرْياً، أي: مَسَحَ ضَرْعَهَا للدِّرَّة، والاسم من ذلك: «الْمِرْيَة». ومن فِعْل «مَرَىٰ» جاءت قِرَاءَة: [أَفَتَمْرُونَهُ].

وجاءت التعْدِية بحَرْف «على» في قوله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢﴾. [أَفَتَمْرُونَهُ عَلَى مَا يَرىَ] لتضمين الفعل معنى فعل «حَرَص» أي: أفتمارونه حريصين على إنكار ما يَرَىٰ، وتكذيبه فيه.

والمعنى: ألا تعجبون من أنفسكم أيها الكافِرُون المكذْبون لرَسولِنَا، فيما يَرَاهُ رُؤيَةَ حَقٍّ، فَتُمارونَه مجادلين بالباطل حريصين على تكذيبه في شيءٍ هو يَراهُ رُؤيَةً صادقَةً واضحَةً لا شَكَّ عنْدَهُ فيها، وهذا الشيء الذي يراه لَيْسَ من المستحيلات العقليّة، وقد سبقه الأنبياء والرُّسُلُ في ذٰلِك.

ما هي الحجَّةُ الّتي يمكن أن يُقَدّمَها لكُم غير أنَّه رأىٰ، وهو صَادِقٌ في كلّ ما رأى، وصادقٌ في كلِّ ما يخبركم به، وأنتم تَعْلَمُون خلُق الصّدْقِ فيه.

الفاء في ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ عاطفة على محذوف مقدّر ذهناً، فهي من قبيل الفاء الفصيحة.

أمّا برهان قاعدة الصّدْق عنده فظاهرٌ فيما آتاه ربُّه من آيَاتٍ باهرات، ومنها القرآن الذي يتْلُوهُ عليكم، ففيه من الإعجاز ما يكفي لأقناعكم بصِدْقه، وبأنَّه نبيُّ الله ورسُولُه حقّاً، فلا تَصِحُّ عقلاً مماراته حِرْصاً منكم على تكذيبه فيما يراهُ هو رُؤْية حقّ.

روايات بشأن رُؤْية الرّسول لِجبْرِيلَ في النزلَةِ الأُولَىٰ

أورد ابْنُ كثير في تفسيره عدّةَ رواياتٍ بشأن رؤية الرسول محمد ﷺ جبريلَ، على الصِّفة الحقيقيَّة التي خلَقَهُ اللَّهُ عليها.

وأكثرها روايات لا ترقى إلى مستوى الأحاديث الصِّحاح بأفرادِها، لكن يقوّي بعضها بعضاً، وتَشْرَحُ جانباً مما جاءت الإشارة القرآنية إليه، في سورتي (التكوير) و(النجم):

(١) روى الإمام أحمد عن عبد الله، أنّه قال: رأى رسولُ الله ﷺ جبريل في صورته، وله ستمائة جناح كُلُّ جناحٍ منها قَدْ سَدَّ الأُفُق، يسقط من جناحه من التهاويل[1] والدُّرّ والياقوت ما الله به عليم. [إسناده حسن].

(٢) وروى الإمام أحمد أيضاً بسند فيه وهبُ بن مُنَبِّه عن ابن عباس، قال: سأل النبيُّ ﷺ جبريلَ أن يراه في صورته، فقال: ادْعُ ربَّكَ، فدعا ربَّهُ عزَّ وجلَّ. فطَلَعَ علَيْه سوادٌ من قِبَلِ المشرق، فجعل يرتفع وينتشر، فلمَّا رآه النبيّ ﷺ صَعِقَ، فأتاهُ فَنعَّشَه، ومَسَح الْبُزَاقَ عن شِدْقِهِ.

(٣) وروى البخاري ومسلم وأحمد عن الشعبي عن مسروق، قال: كُنْتُ عند عائشة، فقُلْتُ: ألَيْسَ اللَّهُ يقولُ: [وَلَقَد رآه بالأُفُقِ المبين] ـ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً

---

(١) **التهاويل**: الزيناتُ ذوات الأشاكل والصور والنقوش المختلفة الألوان وأنواع الحلي التي يُتزَيَّنُ بها، وما على الهوادج من الصوف الأحمر والأخضَر والأصفر تُزَيَّنُ به.

أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ فقالت: أَنَا أوَّلُ هذه الأمَّةِ سأَلْتُ رسول الله عنْها، فقال: «إنَّمَا ذَاكِ جِبْرِيلُ» لَمْ يَرَهُ في صورته الّتِي خُلِقَ علَيْها إلاَّ مَرَّتَيْن، رآهُ مُنْهَبِطاً من السَّماء إلَىٰ الأرْضِ، سَاداً عِظَمُ خَلْقِه مَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْض».

(٤) وقال ابْنُ وهْبٍ، حدَّثنا ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عُروة، عن عائشة رضي الله عنها، قالت:

كان أوَّلُ شأن رسول الله ﷺ أنَّهُ رأىٰ في منامه جبريل بأجياد، ثُمَّ إنَّهُ خَرَج ليقضي حاجتَهُ، فصَرَخ به جبريل، يا محمّد، يا مُحمّد، فنظر رسول الله ﷺ يميناً وشمالاً، فلَمْ يرَ أحداً ثلاثاً، ثم رفع بصَرَهُ، فإذا هُوَ ثاني إحْدَى رِجْلَيْهِ مع الأُخرىٰ على أُفُقِ السَّماءِ، فقال: يا مُحمَّد، جبريل، جبريل، يُسَكِّنُهُ، فهربَ النبيُّ ﷺ حتَّىٰ دخَلَ في النَّاسِ، فنظر فلَمْ يَرَ شيئاً، ثُمَّ خرجَ فنظَرَ فَرَآهُ، فذلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾ يعْنِي جبريل إلى محمد عليهما الصلاة والسَّلام.

(٥) وروى مَسْروقٌ عن عائشة، أنَّ الرسُولَ ﷺ لم يَرَ جبريلَ في صُورَتِه إلاَّ مَرَّتين: مَرَّةً عِنْدَ سِدْرَةِ المنتهىٰ ومرَّةً فِي أَجْياد وله ستُّمائة جَناحٍ قد سَدَّ الأُفق.

(٦) وروى الإمام أحمد عن ابْن مَسْعُودٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«رأيْتُ جِبْرِيلَ، ولَهُ ستمائة جناح، ينْتَثِرُ من رِيشِهِ التَّهَاوِيلُ من الدُّرِّ والْيَاقُوت». [وهذا إسنادٌ جيّدٌ قويّ].

● قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

بعد أن أبان اللَّهُ عزّ وجلّ أنّ الرسُول محمّداً ﷺ رأى جبريل بصورته الأصلية التي خلَقَه عليها، حين دَنَا فتدلّى، فكان بُعدُ الفاصل بينها مِقْدارَ

قوسَيْنِ أو أدْنَى، أبَانَ أنَّهُ رآهُ أيضاً رؤيَةً أُخْرَىٰ بصورته الأصليَّة التي خلقه الله عليها، في نَزْلَةٍ أخْرَىٰ من مكانه الرّفيع في السَّماواتِ، فكان اللِّقَاءُ بينهما عنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهىٰ. وقد سبق بيان النزْلَةِ التي رآهُ فيها ابتداءً من الأفُق حتَّىٰ كان قاب قوسَيْنِ أو أدْنَىٰ.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾:

جاء تأكيد هذه الجملة باللاَّم التي تقع في جواب قسم، وبحرْف «قد» الذي يؤْتَىٰ به للتحقيق.

﴿رَءَاهُ﴾: أي: محمَّدٌ جبريلَ عليهما السَّلام بصورته الأصلية.

﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾: أي: في نَزْلَةٍ أُخْرَىٰ نَزَلَها جَبْرِيلُ من موقعِهِ الرَّفيع في السَّمَاوَاتِ. **النَّزْلَةُ**: واحِدَةُ النَّزلاَت.

﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾: أي: فكانت هذه الرُّؤْيَةُ الأُخرىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ المنتهىٰ.

كانت هٰذِه الرُّؤْيَة في رِحْلَةِ العروج به إلى السماوات، واطّلاعه على ملكُوت الله الأعْلَىٰ.

السِّدْرَة: شجرة من نوع شَجَر السِّدْر، ويُسمَّى شجَرَ النَّبِق، وهو صنْفُ شجرٍ معروفٍ في الحجاز.

أمّا سِدْرَةُ الْمُنْتَهَىٰ فهي من مخلوقات الله في الملكوت الأعلَىٰ، وهِيَ شَجَرَةٌ مختلفة عَنْ أشجار الأرْض، جاء بعض وصْفٍ لَهَا في روايَات أحاديث الْمِعْرَاج. ومَوْقِعُ هٰذِهِ السِّدْرَة العظيمة العجيبة الكُبْرىٰ كائِنٌ عِنْدَ جَنَّةِ المأوَىٰ.

جاء في بعض روايات الحديث ومنها عند مُسْلم عن أنس، أنَّ الرسول ﷺ قَدْ ذَهَبَ به جبريلُ عليه السَّلامُ إلى سِدْرَةِ المنتهىٰ بَعْدَ أَنْ دَخل السَّماء السابعة ورأىٰ فيها إبراهيم عليه السلام وهو مُسْنِدٌ ظهرَهُ إلى الْبَيْتِ

الْمَعْمُور، الذي يدخله كلَّ يَوْمٍ سبْعُونَ ألف مَلَكٍ لاَ يَعُودُونَ إليه.

قال: «ثُمَّ ذَهَبَ بِي إلى السِّدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ. وإذَا وَرَقُهَا كآذَانِ الفِيلَةِ، وإذَا ثَمَرُها كالْقِلاَل[1]».

قال: «فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا، فَأَوْحَىٰ اللَّهُ إِلَيَّ ما أَوْحَىٰ...».

وجاء في رواياتٍ أخرى أنّ شُهوده سِدْرَةِ المنتهى قد كان في السَّماء السَّادسَةِ، وأرى أنَّ روايات كَوْنِها بَعْدَ السَّابعة أجْدَر بالاعتبار.

سُمّيتْ سِدْرَةَ المنتَهَىٰ، لأَنَّهُ ينتهي إليها ما يُعْرَجُ بهِ من الأرض، أو يَنْتَهِي عِنْدَ حُدُودِها علْمُ الخلائقِ حتَّىٰ كبار الملائكة، أو تنتهي إليها أرْوَاحُ الشهداء، وقيل غير ذلك، واللَّهُ أعلم.

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾: أي: تُوجَدُ جَنَّةُ المأوَىٰ، عنْدَ سِدْرَةِ المنتَهَىٰ الموجودَةِ بعْدَ السَّمَاءِ السابعَةِ.

في هذا البيَان وصْفٌ للجنَّةُ الّتِي أَعَدَّهَا الله للمتقين من عباده بأنَّها جَنَّةُ المأوىٰ، أيْ: المأوَىٰ للمتقين، الَّذِينَ يَقْضِي اللَّهُ لَهُمْ بأنَّهُمْ من الْخَالِدِينَ في جنَّاتِ النَّعِيم.

الْمَأْوَىٰ: المكانُ الَّذِي يُؤْوَىٰ إلَيْهِ للسَّكَن وَالإقامَةِ والأَمْنِ وقضاء الحاجات والمطالب.

وبجمع هٰذا الوصف مع سائر الأوصاف المذكورة للجنَّة في القرآن الكريم، تتكاملُ لَوْحَةٌ تصويريَّةٌ بَيَانِيَّةٌ، تَسْتَثِيرُ رغبَاتِ المؤمنين بالاستزادة من صَالحِ الأعمال، وتُهَيّج أشواقَهُمْ إليها، لنيل سعاداتهم وأنواع نعِيمهم فيها.

---

(١) **القِلاَل**: جمع «قُلَّة» وهي الجرّة العظيمة، وجاء في رواية أنَّ ثمرها مثل قِلاَلِ هجَر. سَعَةُ الواحدة منها (١٥٣،٥) ليتراً.

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾:

أي: رأى محمّد جبريلَ في النزْلَةِ الأخرى عنْدَ سِدْرَةِ المنتَهىٰ حين كان يغْشَىٰ السّدْرَة ما يغْشَىٰ، أي: يُجَلِّلُها ويُلابسها.

فما هٰذا الذي غشَيَ السِّدْرة؟

إنَّهُ أشياءُ ذاتُ حُسْنٍ عظيم لاَ يَسْتَطيعُ أحدٌ من خَلْقِ الله أن ينْعَتَهُ مِنْ حُسْنِه، كما جاء في حديث مسلم عن أنس عن النبي ﷺ.

وجاء في حديثٍ عند مسلمٍ أيضاً عن عبد الله بن مسعود، قالَ: «فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ».

وجاء في رواية: «وَغشِيَهَا أَلْوَان لاَ أَدْري مَا هِي».

وجاء في رواية: «غَشِيَهَا نورٌ مِنَ اللَّهِ مَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا».

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾: أي: ما زَاغَ بصَرُ الرسُولِ مُحمَّدٍ ﷺ ومَا طَغَىٰ. جَاءت «ال» في الْبَصَرِ بدَلَ الضمير المضاف إليه، أي: ما زاغ بَصَرُه، نظير ما جاء في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾.

﴿مَا زَاغَ﴾: أي: مَا مَالَ وَلاَ انْحرَفَ عَنْ سَوائه. أَصْلُ الزَّيغِ في اللُّغَةِ الميلُ والْبُعْدُ، يُقَالُ: زاغ السَّالِكُ عن الطَّرِيق، إذا عدَلَ عنهُ ذَات اليمين أو ذَاتَ الشِّمال. وزاغ الفِكْرُ، إذا عَدَلَ عن الصّواب، وزاغ القَلْبُ، إذا عَدَلَ عَنِ الحق والْهُدَىٰ.

﴿وَمَا طَغَىٰ﴾: أي: ومَا جاوزَ الْحَدَّ في إدْرَاكِهِ لِمَا شَاهَدَهُ. أَصْلُ الطغيان في اللُّغَةِ: تَجَاوُزُ الحدِّ الذي يكُونُ الحقُّ مَحْدُوداً بهِ.

دلَّتْ هذه العبارة على أنَّ مُشَاهَدَةَ الرَّسُولِ لَمَا شاهَدَ عِنْدَ سِدْرة المنْتَهَىٰ قد كانَتْ كُلُّها حقاً، لم يُدَاخِلْهَا ولم يُخالِطْها وهْمٌ ناشِئٌ عَنْ مَيْلٍ وانْحِرَافٍ عَنْ حُدودِ المشهود، ولا وهْمٌ نَاشِئٌ عَن طُغْيَانٍ وزِيَادَةٍ عَلَىٰ

حُدودِ المشْهُودِ، بلْ رأىٰ ما رأىٰ مُشَاهَدَةً حقيقيَّةً خاليةً عَنْ زَيْغٍ وخاليةً عن طغيان.

إنَّ مِنْ شَأْنِ من يَرَىٰ مَشَاهِدَ عظيمةً عَجِيبَةً غَرِيبَةً لَمْ يَسْبِقْ لَهُ أنْ شاهدها، ولا شاهَدَ نظيرها، أنْ يَزِيغَ بَصَرُهُ أوْ يطْغَىٰ، فتَخْتَلِط علَيْهِ المرْئِيَّات، فيَتَوهَّم أنَّهُ رأَىٰ أشْيَاءَ في المشْهَدِ الَّذِي وقَعَ بصَرُهُ عليه، معَ أنَّ هذه الأشياء لا وُجود لَهَا فِي ذاتِ المشْهَدِ.

لكِنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ أمَدَّ رسُولَه بقُوَّةٍ وتَثْبِيتٍ في رحلة المعراج، فلم يحْدُثْ في بَصَرهِ زيغٌ ولا طُغْيان، وقد شَهِدَ اللَّهُ لَهُ بهذا في قوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ أي: فما يُحَدِّثُ به محمَّد عن مشاهداته في رحلة المعراج حقٌّ وصدْقٌ مستَنِدٌ إلى رُؤيَةٍ بصريّةٍ صحيحة، لا زائغةٍ ولا طاغية، وهذا يُفْهَمُ لزوماً.

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾: جاء تأكيد هذه الجملة باللَّام التي تقع في جواب قسم، وبحرف «قَدْ» الذي يُؤْتَىٰ بِهِ للتحقيق.

﴿رَأَىٰ﴾: أي: رُؤْيَةً حِسِّيَّةً بَصَرِية، بدليل ما جاء في الآية السابقة.

﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾: أي: من علامات عظمة رَبِّهِ وقُدْرَتِهِ وسائِرِ صفاته الْجَلِيلَةِ. وكلِمَةُ ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ إمَّا أنْ تكون مفعولاً به لفعْلِ ﴿رَأَىٰ﴾ فيكون المعنَىٰ: لَقَدْ رأىٰ الكُبْرَىٰ من آيات ربّه. وإمَّا أن تكون صفةً لكلمة ﴿ءَايَٰتِ﴾ فيكونُ المعنى: لَقَدْ رأىٰ بعْضَ آياتِ ربّه الكبرىٰ.

الكُبْرىٰ: مؤنّثُ أكْبَرَ الّتي هي «أَفْعَلُ تفضيل».

فَهَلْ سِدْرَةُ المنتهَىٰ هيَ الآيَةُ الكُبْرَىٰ من آياتِ اللَّهِ في كونه، أو هِي آيَةٌ كُبْرَىٰ من ضِمْنِ آيات الله الكبرى، أو أنَّ الرسُولَ ﷺ رأىٰ فوق سِدْرَةِ المنتهى من آيات ربِّه؟

احتمالات لا نسْتطيع أن نجزم بواحدةٍ منها، والله أعلم.

وقد جاء في رواية عنْدَ مُسْلم عن ابن عبّاسٍ وأَبِي حَبَّةَ الأنصاريّ، أنّهما قالا: قال رسولُ اللّهِ ﷺ:

«ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوىً أَسْمَعُ بهِ صَرِيفَ الأَقْلامِ».

وجاء في رواية:

«ثُمَّ انطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ، حتَّىٰ نأْتِي سِدْرَةَ المنْتَهَىٰ، فَغَشِيَهَا أَلْوانٌ لاَ أَدْرِي ما هِي» قال: «ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا بِهَا جَنَابِذُ اللُّؤْلؤِ[1]، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ».

هذا الدرس الأول من دروس السورة اشتمل على الدّفاع عن صِدْق الرَّسُول ﷺ في دعْوَىٰ رسالته واتّصاله بالوحي، وفي أَنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ تفضَّل علَيْه وأكْرَمَهُ بالعروج به إلى السّماواتِ الْعُلْيَا حتَّىٰ سِدْرَة المنْتَهَىٰ. واشْتَمل على تقديم أدِلَّةٍ إقْنَاعيَّةٍ لإثبات أنّه رسولٌ يوحَىٰ إليه من ربِّهِ، وأنَّه قد اتَّصل برسول الوحي من الملائكةِ جبريل عليه السلام، وأنَّه رآه على صُورَته التي خلقه الله عزّ وجلَّ عليها مرَّتَيْن، دون أنْ يَتمثَّلَ فيهما بأيِّ مِثالٍ آخر، وأَنَّهُ عُرِج به إلى السَّماوات العليا، وشاهَدَ مُشَاهَدَةً بَصَرِيَّةً مقرونةً بإدراكٍ قلبيّ حقيقيّ من آيات رَبّه الكبرى، وقد شَهِد الله له بكلّ ذلِكَ.

(٧)
التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة الآيات من (١٩ ـ ٢٨)

قال اللّهُ عزَّ وجلّ:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ

---

(١) جنابذ اللؤلؤ: أي قبابُ الّلؤلؤ.

أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ ﴾.

القراءات

● قرأ جُمْهُورُ الْقُرَّاء العشرةِ: ﴿ٱللَّٰتَ﴾.

وقرأ رُويس: [اللاّتّ].

أصل الكلمة كما سيأتي «اللاَّتّ» بالتشديد، ومعناها الذي يلُتُّ، أي: يخلط السّويق[1] أي الدقيق بالسَّمْنِ ويَعْجنُه، ولمَّا سُمِّيَ بَيْتُ هذا المعبود عند العرب باسم اللاَّتِّ الّذي كان يلُتُّ الطعام للحجّاج في هذا المكان، خَفَّفَ العربُ التَّاءَ لأنَّه أسْهَلُ في النطْق.

● وقرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿وَمَنَوٰةَ﴾.

وقرأ ابن كثير: [ومَنَاءَةَ].

وهُما لفظان ينطَقُ بهما اسم هذا الصنم، إلاَّ أنّ الأكثر ما عليه جمهور القرّاء.

● وقرأ جمهور القرّاء الْعَشَرةِ: [ضِيزَىٰ] من ضَازَه حقَّهُ، إذا نقصَه فهو جائر.

وقرأ ابْنُ كثير: [ضِئْزَىٰ] من ضَأَزَهُ حقَّهُ، إذا نقصَهُ أيْضاً، فهو جائر.

---

(١) السّويق: طعامٌ يتَّخذ من مَدقوق الحنطة أو الشعير.

تمهيد وتدبر

بعد الدّفاع عن الرسول محمّد ﷺ في الدرس الأول من دروس السّورة، لإثباتِ نبوّتِه ورسالته وتلَقّيه الوحي عن ربّه، وصِحّةِ مُشَاهَدَاتِهِ الْبَصَرِيَّة والْقَلْبِيَّةِ من عالَم الغيب، ومن السماواتِ فيما أكرمَهُ الله به من العروج حتَّىٰ سِدْرَةِ المنتهى، ورُؤيَتِهِ فيها من آياتِ رَبِّهِ الكُبْرَىٰ.

يَأتي الدرْسُ الثَّاني من دُروس السّورة، وفيه هجُومٌ على عقائدِ المشركينَ الباطِلَةِ، وبعْضِ مقالاتِهم الافترائيَّةِ الّتي لا تستنِدُ إلى حُجَّةٍ مقْبولةٍ لدَىٰ ذي نَظَرٍ صحيح، وفكْرٍ سليم.

وفي هذا الهجوم تسْدِيدُ الضَّرَباتِ علَىٰ الرُّموز الكُبْرَىٰ الّتِي يُؤْمِنُونَ بإلهِيَّتِهَا، وعلَى المفهومات الباطلات الّتِي يتمسَّكُونَ بِها، في مُقَابل تَصَدِّيهم لمصارَعة الرَّسُولِ محمّد ﷺ بظلم وعُدْوانٍ، وتَكْذِيبهم لما جاءَهُمْ به من حَقٍّ أَوْحَىٰ اللَّهُ به إليه.

وقد اشتمل هٰذا الدَّرسُ علَىٰ قَضِيَّتَيْنِ من قضايا المشركين الباطلة:
الأولى: اتخاذهم معبودات من الأصنام. **والثانية**: اعتقادهم أنّ الملائكة بنات الله.

أمّا القضيّةُ الأولى

وهي اتخاذهم الأصنام معبوداتٍ لهم من دُون اللَّهِ، زَاعمين أنَّها تجلُبُ لهُمْ نَفعاً، وتدفع عَنهم ضرّاً.

فخاطبهم الله عزّ وجلّ بقولِهِ:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾

الفاء في ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ عاطفةٌ الفعل على فعل «تُمَارُونَهُ» في الدرس الأوّل من السّورة. أو عاطفة على محذوف، والمعنى: أتفكّرتم فرأيتم آلهتكم، وما في عبادتها من جهالة ومجافاة للحقّ، والرأي السديد، والعمل الرشيد.

والاستفهام هو من قبيل الاستفهام الإنكاريّ التهكمِيّ، المشْعِر بضعفِ عقولهم التي قَبِلَتْ عبادةَ حجارَةٍ لاَ تنْفَعُ ولاَ تضُرُّ، واتخاذَهَا آلِهَةً مِنْ دُونِ الله.

إنّ أوثان العرب الّتي كانت قبائلهم المختلفةُ يعْبُدونَها كثيرة، ذكرت سورة (النجم) منها على سبيل التمثيل وثَنَيْن لقُريشٍ هُمَا «اللاَّتُ والْعُزَّىٰ».

واللاَّتُ هو أيضاً لأهل ثقيف في الطّائفِ ومَنْ يَعْبُد عبادتهم.

وذكرَتْ وثناً واحداً غيرهما، وهو «مَنَاة» وهذا قد كان لأهل يثربَ، ومن عبَد عبادتَهم من القبائل المجاورة لَهُم.

واقتصرت السُورة على ذكر هذه الأوثان الثلاثة، دُون ذكر سائر أوثان العرب، لأنَّه متَىٰ سَقَطَتْ قيمةُ أوثانِ أهْلِ مكَّة وما حولها، وأهل الطائف وما حولها، وأهل يثرب وما حولها، سقَطَتْ قيمةُ سائر أوثان العرب، إذْ تُلْحَقُ بكُبَرَيَاتها.

والاستفهامُ الإنكاريُّ التهكُّمِيُّ الذي بدَأت بهِ هاتَانِ الآيتان، يتضمَّنُ المعانِيَ التالية:

أتكَذِّبُونَ الرَّسِولَ محمَّداً الَّذِي يعْرِض عليكم الحقَّ الرَّبَّانيَّ مؤيّداً ببرهاناته، ومقْرُوناً بآيَاتِ صدْقِه فيما يُبلّغُ عنْ رَبِّه، متظاهرين بوهم العقلانية في زعمكم، وأنتم تَعْبُدونَ جامداتِ حجَريَّة لا تضُرُّ ولا تَنْفَع؟!!. ما هٰذِهِ المفارقة العجيبة بيْنَ رفضِكُمُ الحقَّ بزَعم الاستمساك بالعقلانيَّة، وبين اعتقادكم عقائِدَ ظاهِرةَ البطلان، لا يَصِحُ أن يعتقدها من كانت لدَيْه ذَرَّةٌ من عَقْلٍ، أو مقدارٌ ما من تفكيرِ سَلِيم؟!!

اللاَّت

قالوا: بيتٌ لثقيفِ في الطائف، كانُوا يعظّمونه نحو تعظيم الكعبة.

وأصل هذا البيت أنّه كانَتْ صَخْرَةٌ يلُتُّ رجُلٌ من ثقيفِ السَّويقَ

للحجّاج عليها[١]، وكانت هذه الصخْرَةُ تُسمَّىٰ صخْرَة اللاّتّ، فلمّا مات هذا الرَّجل من ثقيفٍ قال لهم: «عَمْرُو بْنُ لُحَيّ» جالبُ صَنَم «هُبَل» إلى مكَّةَ من مُآب من أرْض الْبَلْقاء بالشَّام: إنَّ اللاَّت لم يَمُتْ، ولكنه دخلَ في الصخرة، وأمَرَهُمْ بعبادَتِها، وأَنْ يَبْنُوا عليها بيتاً يُسمَّىٰ: «بَيْتَ اللاَّتّ».

وكان عَمْرو بْنُ لُحَيٍّ رجُلاً مطاعاً في مكَّةَ والطَّائف.

ورُبّما اعْتَبَر عابدو «اللاَّت» فيما بَعْد لفظ «اللاَّت» مؤنَّثَ لفظ الجلالة «الله».

وكان سَدَنَةُ «بيت اللاَّتّ» وحُجَّابُه بَنِي مُعَتِّبٍ من ثقيف، وعند ابن الكلبي في كتابه «الأصنام» أنهمُ بنُو عتَّابِ بن مالكٍ.

الْعُزَّىٰ

هي صخرةٌ صَنَميَّةٌ اتَّخذَها «ظالِمُ بْنُ أَسْعَد» وكانَتْ لقُرَيشٍ وبني كنانة، بوادٍ يُقالُ له «الْحُرَاض» من «نَخْلَة الشاميّة» تقَعُ على يمين الْمُصْعِد إلى العراق من مكة، فوق ذات عِرْق، ثم صارت الْعُزَّىٰ أعظم آلِهَةِ قُرَيش الوثنيَّة، وكانوا يَزُورونها ويُهْدُونَ لَهَا، ويتقربون عندها بالذبائح.

وكان بنو شيبان من سُلَيْمٍ حُلَفَاءُ بني هاشم هم سَدَنَتَها وحُجَّابَها.

وقيل: الْعُزَّىٰ شجَرةٌ من شجَر السَّمُر، كانت لغطفان يعبدونها، وأنَّهُمْ بَنَوْا عليها بيتاً، وأقاموا لها سَدَنَةً.

ولفْظُ «الْعُزَّىٰ» في العربية مؤنَّثُ «الأعزّ».

ورُبّما اعتبَر بعضُ الشَّارحين أنَّ الْعُزَّىٰ مأخوذٌ من اسْم اللَّهِ «العزيز».

وجاء في سيرة «ابن هشام» في أحداث ما بعْدَ فتح مكة:

---

(١) **اللَّتُّ**: هو خلط الدقيق بماء أو سَمْنٍ بطريقةٍ خاصَّةٍ، أو بخشبةٍ خاصَّةٍ تسمَّىٰ المِجْدَع.

«ثُمَّ بَعَثَ رسولُ الله ﷺ (خالدَ بْنَ الْوَلِيد) إلى (الْعُزَّىٰ) بنخْلَة، وكانت بيتاً يعِظّمُهُ هذا الحيُّ من قُرَيش، وكنانَةُ ومُضَرُ كلُّها، وكان سَدَنَتُها وحُجَّابُها بَنِي شيبَانَ من سُلَيْم، حُلَفَاءَ بَنِي هاشم، فلمَّا سَمِع صاحِبُها السُّلَمِيُّ بمَسيرِ خالِدٍ إلَيْها، عَلَّقَ علَيْها سَيْفَهُ، وَأَسْنَدَ[1] في الْجَبَلِ الّذِي هيَ فيه، وهو يقول:

أَيَا عُزُّ شُدِّي شَدَّةً لاَ شَوَىٰ لَهَا ... عَلَىٰ خَالِدٍ أَلْقِ الْقِنَاعَ وَشَمِّري[2]
أيَا عُزُّ إنْ لَمْ تَقْتُلِي الْمَرْءَ خالداً ... فَبُوئِي بإثْمِ عَاجِلٍ أَوْ تَنَصَّرِي

فلمَّا انْتَهىٰ إليها خالِدٌ هدَمها ثم رَجَعَ إلى رسول اللَّهِ ﷺ» هـ.

وجاء في لسان العرب: أنَّ «خالد بن الوليد» هدَمَ بيْتَ الْعُزَّىٰ، وأحْرَقَ السَّمُرَة وهُوَ يَقُول:

يَا عُزُّ كُفْرَانَكِ لاَ سُبْحَانَك ... إنّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكِ

قالوا: وكانت قريش إذا حَلَفَتْ قالت: واللاَّت والْعُزَّىٰ.

وكان مشركو قريش يعذّبون عبيدهم وإماءهم وأبناءهم ليكْرِهُوهم على تعظيمها، والكفر بمحمّد وربِّ محمّد.

مَنَاة

جاء في لسان العرب لابن منظور: مناة صخْرة، وفي الصّحاح: صَنَمٌ لهزيل وخزاعة، بين مكة والمدينة، يعبُدونها من دون الله، وفي الحديث: أنّهم كانُوا يُهلُّونَ لمناة (أي: يحجُّونَ إليها).

قال ابن إسحاق: وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من

---

(١) أَسْنَدَ في الْجَبل: أي: ارتفع فيه.

(٢) **شَدَّةً لاَ شَوىٰ لها**: أي: شُدِّي عليه شَدَّةَ ضَاربٍ في مقْتَلٍ، لا ضاربٍ في الأطراف التي هِيَ شَوَىٰ.

أهل يثرب، على ساحل البحر، من ناحيَةِ المشلَّلِ بقُدَيْدٍ[١].

وقال ابن هشام: فبعث رسولُ الله ﷺ أبا سفيان بن حرب فهدمها. وقيل: بعث عليّ بن أبي طالب فَهَدَمها.

وجاء في كتاب: «الأصنام» لابن الكلْبِي: كانت منَاةُ أقْدَم الأصنام كلّها، ولم يكُنْ أحَدٌ أشَدَّ إعظاماً لها من الأوس والخزرج.

إشكالٌ ودفعه

أشكل على بعض المفسّرين وصف «مناة» في الآية بقوله تعالى: ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ قال: الآخَرُ والأُخْرى إنّما يوصفُ بِهِما الثاني والثانية، لا الثالث والثالثة، وقال: لا داعيَ للأخرى بعد وصْفها بكونها الثالثة.

وأُجِيبَ: بأنّه جيء بالأُخْرى لمراعاة رؤوس الآيات، وتوازُنِ الفِقَرات.

أقول: وأرى مع هذا أنّه لمّا كانت اللّات والعزّىٰ لقريش، وكانت سورة (النجم) من أوائل التنزيل المكّيّ خاطبهم الله بقوله فيها: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾؟!!.

أمّا «مناة» فكانت للأوس والخزرج في يثرب، فكان من المناسب أن يخصّصها الله بقوله: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ﴾ ولمّا كانت في مقابل مجموع ما تعبُد قريشٌ كانَتْ أخرى، على أنّها أحَدُ الشيئَيْن المذكورَين للفريقين.

أو نقول: أُخْرَى هنا مؤنّثُ آخرُ «أفعل تفضيل» على أنّه وصف يحمل معنَى التأخّر، لا على أنه أحد الشيئين، والمعنى: ومناة الثالثة الأكثر تأخراً، فهي كالبُعْدَى، إذْ كان المخاطبون من قريشٍ لا يضَعُونها مع اللاَّتِ والعُزَّىٰ

---

(١) المشلَّل جبَلٌ يُهْبَطُ منه إلى قُدَيد، وهو موضع بين مكة والمدينة.

في المرتبة، فَخُوطِبُوا بحسب واقع حالهم، والله أعلم.

تعذيب المشركين أصحاب محمّد لإكراههم على عبادة الأوثان

قال ابنُ إسحاق: وحدّثني حكيمُ بن جُبَيْر، عن سَعِيد بْنِ جُبَير قال: قُلْتُ لعبد الله بن عبّاسٍ: أكان المشركون يَبْلُغُونَ من أصحاب رسول الله ﷺ منَ العذابِ مَا يُعْذَرُونَ به في تَرْكِ دِينهم؟

قال: نعم، والله، إنْ كانوا ليَضْرِبون أحَدَهم، ويُجِيعُونه ويُعطِّشُونه، حتَّى مَا يقْدِر أن يسْتَوِيَ جالساً من شِدَّةِ الضُّرِّ الذي نزَلَ به، حتَّى يُعْطِيَهُمْ ما سألُوهُ من الفتنة، حَتَّىٰ يقولوا لَهُ: آللاَّتُ والْعُزَّى إلهُكَ من دُونِ اللَّهِ؟. فيقولُ: نعم. حتَّىٰ إنَّ الْجُعَلَ ليمُرُّ بهم فيقُولُونَ لَهُ: أَهَذَا الْجُعَلُ إلهُكَ من دُون الله؟. فيقولُ: نعم، افتداءً منهم بما يَبْلُغُونَ منْ جَهْدِهِ.

وأمّا القضية الثانية

وهي اعتقادُ المشركين أنّ الملائكةَ بناتُ الله، مع الإشارة إلى عبادتهم للملائكة، وربّما كان هذا عند بعضهم، إذ اتّخذوا لبعض الملائكة صُوراً من الأصنام وعَبَدُوها، واعتقدوا أنَّ الملائكة يشفعون لهم عند الله جلّ جلاله.

فخاطبهم اللَّهُ عز وجَلَّ بقوله:

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾؟!!

ضيزىٰ: أي: جائرَةٌ، مُجَانِبَةٌ لمقتضىٰ العدل بحسب مفهوماتكم.

الاستفهام هنا أيضاً هو من قبيل الاستفهام الإنكاريّ التهكُّميّ المشْعِر بجهالتهم وضعف عقولهم، يقول العرب: قِسْمَةٌ ضيزىٰ، وقسمةٌ ضُوزَىٰ، أي: قسمةٌ جائرة، يقال: ضاز في الحكم، إذا جار، ويقال: ضازَهُ حقّه يَضِيزُه ضَيْزاً، أي: نقصه وبَخَسَهُ.

هاتان الآيتان هما بمثابة «عُنوان» لموضوع عقائد أهل الكفر حوْل

الملائكة، ضمْن حركة الهجوم على مواقع المشركين الفكريَّة. فقد كان بعض كفّار العرب يعتقدون أنَّ الملائكة بناتُ الله، ويتخذون منهم آلهةً ليكونُوا شفعاء لهم عند الله.

قال الرازي: ونقَلَ الواحديُّ عن المفسّرين أنّهم قالوا: إنَّ قُرَيشاً، وجُهَينَةَ، وبَنِي سلَمَةَ، وخُزَعَةَ، وبني مُلَيْح، قالوا: الملائكةُ بناتُ الله.

وروى ابْنُ جرير عن السُّدِّيّ قال: ذُكِرَ أَنَّ مُشركي قُريشٍ كانوا يقولون: الملائكةُ بناتُ الله، وكانوا يَعْبُدونها.

أقول: توجيه الخطاب للمشركين، وفي مقدّمتهم مشركو مكّة، يُشْعِرُ بأَنَّهُمْ من الذين يقولون: الملائكةُ بناتُ الله، ومن الذين كانوا يعبُدونها ببعض أنواع العبادة وأشكالها، كالدُّعاء مثلاً.

كان المشركون شديدي الحرص على أن تَلِدَ لهم نساؤهم الذكور، وكانوا يكرهون أن يَلِدْنَ الإناث، فإذا بُشّر أحدهم بالأُنْثى ظلَّ وجهُهُ مُسْوداً وهُو كظيم، يتوارَى من الْقَوم من سوء ما بُشِّر به، وكان بعضهم يلجأ إلى التَّخَلُّصِ من الأُنْثَى الَّتي وُلِدَت له، بأن يئِدَها حيَّةً في التراب عقب ولادتها، أو حينما تقتَرِب من سنّ بلوغها.

ومع كراهيتهم للإناث افْتَرَوْا على اللَّهِ خالقهم فقالوا: الملائكة بناتُ الله، فقال اللَّهُ لَهُم مُشَنِّعاً عليهم:

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: أَتَنْسُبُونَ إلى الله بارئكم افتراءً علَيْهِ ما تكرهونه أنتم لأنْفُسِكُمْ، ولا يَخْفَىٰ ما في اختيار كلمة: «ضِيزَىٰ» في هذا المقام من ملاءمَةٍ لحالة جَوْرهمُ الذي مسُّوا به ذَات الله عزّ وجلّ

هذه الفرية تشتمل على شنيعتَيْن:

الأولى: نسبةُ الأولاد إلَىٰ الله سبحانه وتعالى عمّا يصِفُون.

الثانية: تخصيص الله بالذُّرِّيَّةِ من الإناث دون الذكور.

وقد جاء في هذا النّص اختيار البدْءِ بمواجهتهم باستنكار الشنيعة الثانية، لوضوح أمْرها بالنسبة إليهم، نظراً إلى أنّهم يكرهون لأنفسهم المواليد من الإناث، ويحبُّونَ المواليد من الذّكور، ومع هذا فهم ينسبون إلى الله المواليد من الإناث، ولا يجعلون له من الذكور نصيباً.

إنّ هذه القسمة بينهم وبين الله قسمةٌ جائرة مجانية للعدل، حتَّىٰ في مفهوماتهم العوراء الشّوهاء.

والمعنى: كيف اسْتَقام في عقولكم بحسب مفهوماتكم أن تقولوا: الملائكة بنات الله، افتراءً عليه. مع أنكم تكرهُونَ لأنفسكم البنات؟!!.

أليس هذا أمراً منافياً لمنطق أهل العقل والرَّأي، ومنافياً أيضاً لمفهوماتكم الباطلات التي تستمسكون بها؟!!

وليس الغرض إثبات البنين لله عزّ وجلّ، فقد تعالى الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً، إنَّما الغَرض بيان سقوط الفكر الوثني، من أوّل خطوات مناظرة الوثنيّين.

وقد جاءت معالجتهم حول قضيّتي اتّخاذهم معبودات من دون الله، وادّعائهم أنّ الملائكة بناتُ الله، في قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ:

﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾.

● قول الله تعالى:

﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ...﴾.

﴿إن﴾ حرف نفي مثل «ما» النافية.

﴿هي﴾ ضَمِيرٌ يَعُودُ على مَعْبُوداتِهِمْ: «اللاَّت، والْعُزَّىٰ، ومَناة» ويُلْحَقُ بها سائر ما يُعْبَدُ مِنْ دون اللَّهِ من جامدات، وأشجار، وأحياء، حتَّىٰ الملائكة التي يعْبُدُهُمْ عابدوهم من دون الله.

أيْ: ما هي إلاَّ أسْمَاءٌ لما لَيْسَ لَهُ إلهيَّةٌ في الحقيقَةِ والواقع، ولما لا يستَحِقُّ أن يُعْبَدَ من دُونِ الله، بأيّ شكْلٍ من أشكالِ العبادات، وفي أيّ حالٍ من الأحوال، إذْ ليس لَهُ رُبوبيَّةٌ ولاَ مشارَكَةٌ في أيّ من أَجْزاء الرُّبُوبيّة، فالرُّبُوبيّة خاصَّةٌ بالله وحْدَهُ لا شريكَ لَهُ في الوجود كلّه.

فأبان الله عزّ وجلّ في هذا أنَّ شركاءهم لا تزيدُ على أنَّها أسْماءٌ سَمَّوْها مِن عند أنفسهم، واختلَقُوا لها من صفاتِ الإلهيَّةِ ما زَيَّنَ لهم عبادَتَها، مع أنَّها في الحقيقة لا تَمْلِكُ لهم ولا لأنفسها جَلْبَ نفع ولا دفع ضُرّ.

وفي التعبير عن فقدِهَا لكُلِّ الصّفاتِ الّتي تُوهِمُ أنَّ لَهَا أيَّ تأْثِيرٍ، بأنَّها أَسْماءٌ سَمَّوْها هُمْ وآباؤُهُمْ من رَوْعَةِ الأداء ما لا مَزِيدَ عليه.

فإن ادَّعَوْا أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ أمرهم بعبادتها فهُو يقول لَهُمْ:

﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾.

سُلْطَان: المرادُ بالسلطان هنا الحجَّةُ والبرهان، أي: ما أنزل اللَّهُ بالأمْرِ بعبادَتِها أو بالإذْن به أيَّ حُجَّةٍ يُحْتَجُّ بها. «مِنْ» حرف جَرٍّ زيد في اللَّفْظ لتأكيد النفي في: ﴿مَّآ أَنزَلَ﴾ وللتنصيص عليه، مع تأكيد الْعُمُومِ

المنفي، الذي يَشْمَلُ كُلَّ شيءٍ يمكن أن يكونَ حُجَّةً يُحْتَجُّ بها.

فما أنزل الله بذلك نصّاً في كتابٍ مُنَزَّلٍ، وإن ادَّعَوْا أنَّ لديْهِم شيئاً من ذلك فليُخْرِجُوهُ وليُقَدِّمُوهُ على مِنَصَّةِ المناظرةِ.

أمّا مَنطِقُ الْعَقل فيُثْبِتُ أَنَّها لاَ تَمْلِكُ أيَّ مُشاركَةٍ في الإلهيَّة، إذْ هِي لا تَمْلِكُ أيّ جُزْءٍ من أجزاء الرُّبوبيَّةِ، فالرُّبُوبيَّة كلُّها لله وحْدَهُ لا شريكَ له، ويلْزَمُ عن هذا عقلاً أن تكون الإلهيَّةُ لله وحْدَهُ لاَ شَريك له، فلا تُوجَدُ أيَّةُ ذريعةٍ للمشركين.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿..إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

في هذِه الفقرة كَشْفٌ لانحراف المشركين عن صراط الحَقّ من ثلاثَة وُجوه، وقد كان الخطاب مُوجّهاً لهم قبْلَها، فالْتَفتَ البيان، فجاء الحديث فيها عنهم بضمير الغائبين، إشعاراً بأنَّ المخاطبين بها ينبغي أن يكونوا أَهْل عَقْلٍ ورُشْدٍ ورغبة في الهُدَى، لا أهْلَ هَوىً وغَيّ وإيثارٍ للظُّلُمات.

الوجه الأول: أتّباعُهم للظّنّ الضَّعِيف الّذِي يُسمَّىٰ في اصْطِلاح عُلَماء المسلمين «وَهْماً» وهذا الظَّنُّ لا يَصْلُح لإثباتِ أقَلِّ القضايا في القيمة العلميّة، فضلاً عَنْ قضيَّةٍ اعتقاديَّةٍ غيبيّةٍ من قضايا الرُّبوبيَّةِ والإلهيَّة.

وباتّباعِهمْ للظَّنّ الضعيف يكُونُون غير مؤهّلين للدُّخولِ في أيّ مجَالٍ من مجالات المعرفة الصحيحة، إنَّما يكونون مُتّصفين بالتخلُّفِ العقليّ، والهمجيَّة الفكريَّةِ والعلميَّة.

دلَّ على هذا الوجه، قول الله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾.

الوجه الثاني: اتّباعُهُم لأهْواء نُفوسِهم، ولهذا الاتباع ظاهرتان:

الظاهرة الأولى: انتصارُهم التعصُّبيُّ لآبائهم. إذْ يقولُون: إنَّا وجَدْنَا آبَاءَنَا علَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا علَىٰ آثارِهِمْ مقتَدون.

الظاهرة الثانية: التزامُهُم عبادة آلهتهم الباطلة، لأنَّ عبادتهم لآلِهَتهم لا تكّلفهم تَرْكَ أيِّ شيءٍ من شهواتهم ومعاصيهم، ويزعمون أنَّها قد تجلُبُ لهم نفعاً وتدفَعُ عنهم ضرّاً في أمُور دنياهم، وهذه الأمور لأنفسهم بها هوىً، وقد سبق شرح الهوى.

دَلَّ على هذا الوجه قول الله تعالى: ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾.

الوجه الثالث: إِعْرَاضُهم عن الْهُدَىٰ الذي جاءهم من ربّهم، وقد بلَّغَهُمْ إيّاه رسُولُهُ المؤيَّد من لَدُنْهُ بالمعجزات الباهرات، وعَدَمُ قبولِهِمْ له، مع كونه مقروناً بالحجج البرهانيّة، والبيانات العلميَّة، والأنباء المؤيَّدة بالآيَاتِ الخارقات للعادات من ربّهم.

وظلُّوا مصرّين على باطِلهم وشرورهم وقبائحهم وفسادهم وإفسادهم.

دلَّ على هذا الوجه قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾. أي: فرفضوا الإيمان به، ورفَضُوا اتّباع ما تَضَمَّن من أوامر ونواهيَ ووصايا، فلا عُذْر لهم في الإصرار على باطلهم بعْدَ أن جاءهم من ربّهم الْهُدَىٰ.

سمَّىٰ اللَّهُ مَا أوحىٰ به إلى رسُولِه «الْهُدَىٰ» بالتعريف، أي: الكامل في أنَّه يَهْدِي إلى الحقّ وإلَىٰ الصراط المستقيم.

الْهُدَىٰ: مصدرٌ معرَّفٌ لفعل «هَدىٰ» يقال لغة: هدَىٰ فلانٌ فلاناً الطريقَ يَهْدِيه هُدَىً، وهَدَاه له، وهَدَاهُ إليه، أي: أرشَدَهُ إليه ودلَّه عليه، وعرَّفَه وبيَّنه له.

ويُطْلَق مصْدَرُ هَدَىٰ على البيان المشتمل على ما يَهْدي وبهذا يكون القرآنُ هُدىً، والبيانُ النبويُّ هُدىً.

ويُطْلَقُ لفظ «الْهُدَىٰ» على النهار، لأنَّه كاشفٌ للطُّرُقِ والمسالك، وعلى الطَّرِيق، لأنَّ من سلكه بلغ غايَتَهُ مَهْدِيّاً، وعلى الْعَمل الّذي يَهْتدِي من اقتدىٰ به إلى الغاية المطلوبة.

وجاء تأكيد الجملة باللاَّم التي تأتي في جواب القسم، وبحرف «قد» الذي يدلُّ على التحقيق.

● قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾.

لمّا كان المشركون قد جانبوا الحقّ ورفَضُوه، وجاءهم من ربّهم الْهُدَىٰ فلم يتّبِعُوهُ، وآثَرُوا اتّباع أهوائهم، فإنَّهم قد فقَدُوا كلَّ الوسائل والأسباب الصحيحة التي تحقّق لهم سعادتهم الحقيقيَّة في دنياهم وآخِرَتهم، ولم يَبْق لديهم إلاَّ الأماني الّتي يتوهَّمُونَ أَنَّ أسْبَابهم الباطلة التي توحي لهم بها أهواؤُهم وشَيَاطينُ الإنْسِ والجنّ تُحقِّقُها لهم.

الأماني: هي الأشياءُ التي يرغب الإنسانُ في تحقيقها، ويحبُّ بُلُوغها والظفر بها، إلاّ أنَّها مستحيلة المنال، أو متعذّرة المنال، أو أَمْرُ تحقيقها في مِلْكِ غَيْرِهِ الّذي لا سلطان له عليه بوجْهٍ من الوجوه.

قد يتمنَّى الإنسان أَنْ يكونَ الباطلُ حقّاً لأنّ له فيه هوىً، وأن يكون الحقُّ باطلاً، وقد يتمنَّى الإنسان أَنْ يخْرِق سُنَنَ الله في كونه، ليحقِّقَ ما يهْوَىٰ من الكون، وقَدْ يتمنَّىٰ أن يَدْخُلَ الجنَّة يوم الدِّين، ويَظَلَّ في حياته الدُّنيويَّةِ كافراً بِرَبِّه حتَّىٰ يوافيه أجَلُه.

لكنَّهُ لا يسْتَطِيعُ أَنْ يظْفَرَ بما تمنَّىٰ، إنَّ الإنسان لا يستطيعُ أن يُحَقِّقَ من أَمانيه إلاَّ ما قَضَىٰ اللَّهُ بِهِ، ولِلَّهِ في كونه قوانين وسُنَنٌ لا يخْرِقُها إلاَّ هُو إذا كانت من الممكنات، فهو جلَّ جلالُه مالك ملكوت السَّماوات والأرض، وله الأمْرُ كلُّه، في الدُّنيا وفي الآخرة.

فعلَىٰ الإنسان أن لا يَطْمَعَ بتحقيق أمانيه خارجاً عن قوانين الله وسُنَنِه الكونيَّة والشّرعيَّة، فالله الخالق الحقّ لا يَتَّبع أهواءَ الناس في تحقيق أمانيهم علَىٰ خلاف مقتضىٰ حكْمَتِه، ولو اتَّبَعَ الحقُّ أهواء ذوي الإرادات الحرَّة لفَسَدَتِ السّمَاوات والأرض ومَنْ فيهن، نظراً إلى تعارض رغباتهم، وتبايُن أهوائهم.

قال اللّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ... ﴿٧١﴾﴾.

فإذا تمنَّىٰ الإنسانُ أن يُحقِّقَ بعبادَتِهِ آلِهةً من دون اللّهِ، مَطَالِبَهُ منْ دُنياه أو آخِرَته، وقَدْ جعَل الله هٰذِه العبادةَ غيرَ ذاتِ أثرٍ نافع للعابد، بل جَعَلَها ذَاتَ أَثرٍ ضارٍّ يُفْضِي بِهِ إلى عذابٍ أليم، فقد بَنَىٰ بُنْيانَهُ على شفا جُرُفٍ هارٍ يَنْهارُ بِهِ في نار جهنَّم وبئْسَ المصير.

وإذا تمنَّىٰ الإنْسَانُ أَنْ تَشفَع له آلِهَتُهُ التي يَعْبُدُها من دون الله، عنْدَ رَبِّهِ يَوْمَ الدِّين، فإنَّها لَنْ تَشفَعَ له، لأنَّ الله لا يقْبَلَ شفاعَةَ أحَدٍ، إلاَّ مَنْ أذن له ورضي له قولاً.

إنَّ عقائد المشركين حول شركائهم أَمَانيُّ يتمَنَّوْنَها، وأكاذيبُ افْتَرَوْها، وصَدَّقُوا أنفُسَهُمْ فيها، وليس لهذا التمنِّي أيُّ نصِيبٍ من الواقع، وليس من شأن الأمانيّ أن تتحقّق للإنسان بمجرَّدِ أن يتمنّاها، فهو لا يستطيع أن يصْنَع المقادير ويتصرَّف في خَلْقِ الله.

● ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾: أي: بل هل الإنسان ممكَّنٌ من تحقيق أمَانيه كما يشاء في الدنيا والآخرة، حتَّى يخْتار ما يُرِيدُ دون التزام بقواعد الحقّ والعدل والخير، وما شرعه الله لعباده؟!!

والجواب: لا. ليس للإِنسان ما تمنَّىٰ، لأنَّ الوجود كُلَّه ماضِيَهُ وحاضِرَهُ ومستقبلَه في الدنيا والآخرة مِلْكٌ لِلَّهِ عزّ وجلَّ، فقال الله تعالى:

﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ أي: فلِلَّه مِلْكُ الآخِرة بكلّ ما فيها، ومِلْكُ الحياة الدنيا بكلِّ ما فيها، فلا يستطيع أحدٌ من النّاس أن يحقّق ما يتمنّى إذا لم يكن مقدَّراً مقضِياً بقضاء الله وقَدَرِه إذْ هو مَالِك الآخِرَةِ والأولى.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾.

أشار الله عزّ وجلّ بقوله في هذا الدرس الثاني من دروس السورة: خطاباً للمشركين: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ إلى بَعْضِ مَفْهُومَاتِ المشركين بشأن الملائكة، أمّا بقيَّةُ مُعْتَقَد أقسامٍ من المشركين بشَأْنهم، فنَفْهَمُهَا من فقرات هذه الآيات من (٢٦ ـ ٢٨) ومن عناصر معالجتها وإبطالها.

ومفهوماتُ المشركين حول الملائكة تتلَخَّصُ بقضيتَيْن:

القضيَّةُ الأُولَىٰ: اتّخاذُ بعضِ المشركين بعض الملائكة آلِهَةً من دُون الله، فهم يعبُدُونَهُمْ ليكونوا شفعاء لهم عند الله، وهذا يدلُّ على اعتقادهم بأنّ الله أمر بعبادة الملائكة أو أذن بها، وأنَّهُ أعطى الملائكة حقَّ الشفاعة لعابديهم.

القضيَّة الثانية: توهُّمُ كثيرٍ من المشركين أنَّ الملائكة بناتُ الله، فهم يجعلون للملائكة من الأسماء والصفات ما تُسَمَّىٰ به الإناثُ وتتصفُ به، ذكر الشوكاني: أنَّ قريشاً وقبائل من العرب كانوا يزعمون أنَّ الملائكة بناتُ الله. **أقول:** ولهذا جاء في القرآن توجيه العناية لمعالجة هذه القضية عند قريش.

وليس للمشركين علمٌ يستندون إليه في تأليهِهِمْ من ألّهُوا من الملائكة،

وليس لهم علم يستَنِدُون إلَيْهِ، في جعل الملائكة ذوي أسماء وصفاتٍ خاصَّةٍ بالإناث.

كُلُّ ما يسْتَنِدُونَ إليه ظنونٌ ضعيفةٌ توهميَّة، لا تَمْلِك قيمَةً تَعَادُلِيَّة أو ترجيحيَّة في مقابل أَضْدَادِها بوجه من الوجوه، فضلاً عن أن تملِكَ قيمة إثباتِ قطعيّ، حتَّىٰ تكونَ في مستوى العقائد الثابتة.

وفي فقرات هذه الآيات من (٢٦ ـ ٢٨) معالَجَةٌ إقناعيَّةٌ للمشركين بشأن هاتين القضيتَيْن الباطلتَيْن.

إنَّ هاتين القضِيَّتيْنِ من القضايا الخبريَّة، الَّتي لا تصِحُّ الأخبارُ فيها ما لم تَكُنْ قَدْ جَاءَتْ وَحْياً عن اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

فإبطالُهُما إنَّما يكُونُ بأنْ يُخْبِرَ اللَّهُ بوحْيٍ من لَدُنْهُ بأنَّهما باطِلَتَان، وبأنَّ الواقع على خلافهما.

وهذا ما اشتمل عليه البيانُ القرآنيُّ في فقرات هٰذِهِ الآيات.

فقول اللَّهِ عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: ليس للإنسان ما تمَنَّى، ولا تنفَعُهُ شفاعَةُ ملائكَةٍ يَعْبُدُهم من دون اللَّهِ، لأنَّ شفاعتهم ـ لو شفَعوا ـ لا تنفَعُ شيْئاً إلاَّ من بَعْدِ أَنْ يأذَنَ الله لهم بأنْ يشفَعُوا، ويَرْضَىٰ أقوالهم في الشفاعَةِ الَّتِي يقولُونها، والله لا يأذن لهم بأنْ بشفعوا لمَنْ أشْركَ به، لأنَّهُ لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ به، ويغفر ما دُون ذلك لمن يشاء.

﴿وَكَم﴾ الواو حرف عطف هذه الجملة على المفهوم من جملة: ﴿أَمۡ

لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أي: ليس للإنسان ما تمنَّىٰ ولا تنفعه شفاعة آلهة من دون الله.

«كَمْ» خبَرِيَّةٌ، ومعناها: عَدَدٌ كثير، وهي مُبْهمَةٌ تُمَيَّزُ بالمجرور بعدها.

والمعنى: عَدَدٌ كثير من الملائكة في السَّماوات لا تَسْتَطيعونَ إحصاءَهم، لا تغني شفاعَتُهُمْ شيئاً: أي: لا تكفِي شفاعَتُهُمْ أحداً شيئاً من حاجاته الّتي يَرْجُوها من شفاعتهم، إن شفعوا له عند ربّه.

ولحصول النَّفْع من شَفَاعَةِ الشافعين للمشفوع لهم عند الله عزّ وجلّ شرْطان:

الشرط الأول: أَنْ يأْذَنَ اللَّهُ للشافع بأَنْ يَشْفَعَ للمشفُوع له.

الشرط الثاني: أن يَرْضَىٰ اللَّهُ عزَّ وجلَّ القول الّذي يقولُهُ الشَّافع في شفاعتِهِ، ولو كان مَلكاً، أو نبيّاً رسُولاً.

دلَّ على هٰذين الشرطين الاستثناء في قول الله عزّ وجلّ في الآية:

﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾.

وجاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) التصريح ببيان المراد بقوله تعالى: [وَيَرْضَى] فقالَ فيها:

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾.

وأبانت النصوص القرآنيّة أنَّ الكافرين ولو من أدنى مستويات الكفر، لا تُقْبَلُ فيهم شفاعة الشافعين، لأنَّ كلمة الله بعذابهم لا نقض لها، ولا استئناف فيها.

وقول الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ

عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ﴿٢٨﴾ ﴾.

تضمَّنت هاتان الآيتان معالجة القضيَّة الثانية، وهي تَوَهُّمُ معظم المشركين أنَّ الملائكة بناتُ الله، فَهُمْ يَجْعَلُونَ للملائِكَةِ من الأسماء والصّفاتِ ما تُسَمَّىٰ بِهِ الإناثُ وتتصِفُ به.

وقد ذكر الله المشركين هنا وهُمُ الَّذِين يتعلَّقُ بهم البيان، بوصْفٍ بارِزٍ فيهم، وهو أنَّهُمْ لاَ يُؤمنون بالآخرة، أحَدِ أركان الإيمانِ الكبرىٰ بعد الإيمان باللَّهِ عزَّ وجلَّ وتَوْحِيدِهِ في رُبُوبيَّتِهِ وإلهيَّتِهِ.

أي: وبسبب عدم إيمانهم بالآخرة يتجرّؤون على دين اللَّهِ، فيفْتَرُون من عند أنفسهم مَقُولاَتٍ باطلات، ومنها هذه المقولة.

﴿لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ﴾: أي: يَصِفُونَ الملائكة بأنَّهُمْ إناث رجْماً بالغيب.

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾: أي: والحال ما لهم بهذا الوصف الذي وصفوا به الملائكة أيُّ علم مهما كان ضعيفاً، وجيءَ في العبارة بلفظ «مِنْ» لتأكيد العموم والتنصيص عليه، وتُسمَّىٰ عند النحاة زائدةً لتحقيق هذا الغرض.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾: أي: ما يتَّبعُون في هذا إلاَّ الظَّنَّ التوهمّي الباطل.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾: أي: وإنَّ الظنَّ التَّوهميَّ الذِي اعْتَمَدُوا عليه لا يكفي شيئاً حالة كون هذا الشيء من الحقّ.

لا يغني: أي: لا يكفي في تقديم حجّة صحيحة.

من الحقّ: صفة مقدمة على موصوفها [شَيْئاً] فصارت حالاً.

❃ ❃ ❃

(٨)
التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس السورة
الآيات من (٢٩ ـ ٣٢)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ (٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى (٣١) ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ (٣٢)﴾.

القراءات

● قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ بالجمع، ومفرده كبيرة.

وقرأ حمزة، والكسائي وخلف: [كبير الإثم] أي: الإثْمَ الكَبير، بإضافة الصفة إلى الموصوف. والإثْمُ الكبيرُ جنْسٌ يُدُلُّ على كلِّ كبائرِ الإثم، فالقراءَتان أُسْلُوبانِ من أساليب البيان، والمراد بهما واحد.

● قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ بضمّ الهمزة وفتح الميم المشدّدة.

وقرأ حَمْزَةُ في الوصل: [بُطُونِ إِمِّهاتكم] بكسر الهمزة وكسْرِ الميم المشدّدة.

وقرأ الكسائي في الوصل: [بطونِ إِمَّهاتكم] بكسر الهمزة وفتح الميم المشدّدة.

وهي لهجات عربيّة.

● قولُ الله عزّ وجلّ

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ. . .﴾.

الخطاب هنا موجّه للرسول محمّد ﷺ ثم لكل داعٍ إلى الله من أمّته على سبيل الخطاب الإفرادي.

﴿فَأَعْرِضْ﴾: الإعراضُ حالةٌ وسُطىٰ بين الإقبالِ والإدبار، وأصل الإعراض إعطاءُ الجانب، وعارضا الإنسان صفحتا خدَّيه.

﴿تَوَلَّىٰ﴾: يأتي بمعنى «أدْبَر» وبمعْنَى «نَأَىٰ» والمعنى الأوّل هو الملائم هنا.

والله عزّ وجلّ يُوصي رسولَه وكلَّ داعٍ إلى الله من أمّته على سبيل الخطاب الإفرادي، بأنْ يقْتَصِرَ علَىٰ الإعْرَاضِ عَمَّنْ أدبَرَ عَنْ ذِكْرِ الله، أي: أدْبَرَ عن الاستجابة لدعوة الدّاعي إلى الله، ولدعوة كتابه المنزَّلِ الذي هو ذِكْرُ اللَّهِ الشامل لكلّ مسائل الدِّين وقضاياه الكبرىٰ.

وهذا أحد مناهج الدعوة إلى الله، فالمطلوبُ من الداعي أن لا يقابل المدعوَّ بِمثْلِ عَمَله إذا أدْبَر، بل يقتصر على مُجَرَّدِ الإعْرَاض إذَا هو أدْبر، ويُفْهَمُ من هذا أنَّ المدعوَّ إذا أعْرَضَ فإنَّ الدَّاعِيَ لا يُعْرِض عنه، بل يَعْمَلُ على دعوته بالمواجهة أو بنصف المواجهة.

﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾: أي: ولم يُؤْمن بالآخِرَة ومَا فيها من جزاء بالثواب أو بالعقاب، وبسبب ذلك لم يُرِدْ إلاَّ مَتاعَ الحياة الدُّنيا ولذَّاتِها وزيناتِها، فهو يكْدَحُ لتحقيق مراداتِه منها، غير عابئٍ بدعوة الداعي، ولا بما في القرآن من ذكْرِ ربَّانيّ.

والمرادُ باسم الموصول في عبارة: [عمّن تولّى] كُلُّ مَنْ يتولَّىٰ عن ذِكْرِ الله والتذكير به، ولهذا جاء ذكرهم بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ فأبان عزّ وجلّ أنّ سبَبَ عَدَمِ إرادتهم إلاَّ متاعَ الحياة

الدنيا، أنّ مَبْلغَهم من العلم مُنحَصِرٌ في حُدُود دائرة الحياة الدنيا، فهم يتعلّقُونَ بها فقط، فقال تعالى:

﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾: أي: ذلك الّذي لم يُريدوا غَيْرَهُ هو الغاية الّتي بلَغَ علْمُهُم إليها، إذْ رفَضُوا الإيمان بَيوم الدّين وكذّبوا بالأخبار الرَّبّانيّة المنزَّلَةِ على رَسُولِهِ مُحمّد وعلى سائِرِ رسُلهِ من قبله، التي تتضمّن نبأ البعث إلى الحياة بعد الموت، ونبأ يوم الدين، وأنباء الدار الآخرة وما فيها من نعيم خالد في جنّاتِ النعيم، وما فيها من عذاب أليم في دار العذاب، النّار المعدَّة للمجرمين والعصاة، فاقتصر عِلْمُهم عند حدود الحياة الدُّنيا.

مَبْلَغُ العِلْم: هو الغايَةُ الّتي يَصِلُ إليها العِلْمُ: يُقَال لغة: بلَغَ الأَمْرُ، إذا وَصَلَ إلَىٰ غَايَتِه، ومَبْلَغُ الشيءِ هو الغاية الّتِي يتوقّفُ الشّيْءُ عِنْدَها.

خلاصة هذا التعليم من عناصر منهاج الدعوة إلى الله

يُبَيّن اللَّهُ عزّ وجلّ لرسوله ولكل داعٍ إلى الله من أُمّته في هذا التعليم، أنَّ من لَم تُؤَثِّرْ فيه من المدعُوّينَ أفراداً أو جماعَاتٍ كُلُّ الْحُجج والبيِّنَاتِ والمناظرات وأساليب الإقناع والتربيَةِ، مع تنويع الأساليب الفكريَّة والنَّفسيَّةِ المختلفة، وتَصْريفِ الأدلّة والحجج والبراهين، وتبيَّنَ أنّه مع كلّ مراحل المعالجات السّالفاتِ لَمْ يُرِدْ إلاّ الحيَاةَ الدُّنيا ومَتاعَها، إذْ لَمْ يُؤْمِن بالآخرة وما فيها، فلَمْ يَعْبأْ بالترغيبات والترهيبات الأُخْرَويَّة، وأصَرَّ علَىٰ مَوْقفه العناديّ، فالحكْمَةُ تَقْتضي الإعراض عَنْهُ، وتوصيل البيانات الرَّبّانيّة له دون مواجهة، توفيراً للوقْتِ والْجَهد، مع شَغْلهما بمن لَمْ يَصِلْ بَعْدُ إلى هذا المستوىٰ من الإصرار العنادي المكذِّب بالآخرة، دون اهتمام إلاّ بمتاع الحياة الدنيا.

وقد وضع النصّ القرآنيُّ لهذا الإعراض قَيْداً، وهو أن يتأكّد الداعي أنَّ المتولّيَ الْمُدْبِرَ لم يُرِدْ إلاّ الحياة الدنيا، ويظهر ذلك إذَا حصلَتْ معالجتُه

عدّة مرّاتٍ في أوقاتٍ مختلفات، فتبيَّنَ من خلالها أنّه لم يُرِدْ في كلّ مُعَالجاتِه إلاَّ الحياة الدّنيا، إذْ هو كافر بالآخرة وما فيها، فاقتصر عِلْمه على ظاهِرِ من الحياة الدنيا، ولهذا وصف اللَّهُ عزّ وجلّ الكافرين بقوله في سورة (الرّوم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿. . . يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝٨﴾.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿. . . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ۝٣٠﴾.

بعد أن أَمَرَ الله رسولَهُ وكلَّ داعٍ إلى الله من أمّته بأسلوب الخطاب الإفراديّ، بأن يُعْرِضَ عمَّنْ تولّىٰ عن ذِكْرِ رَبّه، ولم يُرِدْ إلاَّ الحياة الدنيا، أبان جَلَّ جلالُه أنّه أعْلَمُ بمَنْ ضلَّ عن سبيله، وأعْلَمُ بمن اهتدى، أي: وبما أنّه أعلَمُ بحقيقة من ضلَّ عن سبيله ضلالاً ميْؤوساً في الغالب من إنقاذ صاحبه منه، إذْ هو مبْنِيٌّ على إرادة جازمة منه، سببها أنّه لا يريد إلاَّ الحياة الدّنيا، فهي غاية ما بلغ إليه عِلْمُه، إذَنْ فتَوْجِيهُ الله عزَّ وجلَّ الدّاعيَ للإعراض عن المتولّي عن ذكر ربّه هو الأمْرُ الحكيم، إذْ هُوَ الموافق لمقتضىٰ علم الله بالناس وبنفوسهم، وبأسباب الضلالة وأسباب الهداية ومسَبَّبَاتِهما في نفوس الناس.

وبعد هذا أبان الله عزّ وجلّ الغاية من رحلة الحياة الدّنيا، وهيَ الابتلاء الذي يعْقُبُه الجزاء يوم الدّين.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ۝٣١﴾

أي: إنَّ الغايةَ من خلق النظام الكوني كلّه، بسماواته وأرضه وما

فيهما، والخاضع لسلطان مِلْكِهِ وَمُلْكِهِ، ابتلاءُ الأحياء المهيَّأةِ للابتلاء والتكليفُ في ظروف الحياة الدنيا، لتحقيق الحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء يوم الدّين.

فجاء في هذه الآية إيجاز كلّ ذلك ببيان ملكيَّة اللَّهِ لكلّ شيء، وبيان غاية الجزاء، مع طيّ كلّ ما سَوى ذلك إعتماداً على أنّ المتدبّر يَسْتخرج المطويَّات بالتفكّر، وبمتابعة اللَّوازم الفكرية.

وقد دَلَّتْ هٰذِهِ الآيَةُ علَىٰ أَنَّ المسيئين في رِحْلَةِ امتحانهم في الحياة الدُّنيا يَجْزِيهم اللَّهُ مَالِكُ ما في السَّمَاوَاتِ والأَرْض بمقدار إساءاتهم، أمَّا الْمُحْسِنُون فيجزيهم اللَّهُ على إحسانهم بالمثوبة الحسنىٰ، وهي الجنَّةُ، أو الأنواعُ الْحُسْنَىٰ في الجنّة.

الْحُسْنَىٰ: مؤنَّثُ «الأحسن» أي: الأفضَل في الْحُسْن.

ومعلوم من نصوص قرآنيّة كثيرة أنَّ الجزاء الأمثل يكون يومَ الدّين، بعد البعث من الموت للحياة الأُخْرَىٰ.

وظاهر أنّ ذِكْرَ الجزاء الأُخْرَويّ في هذا النَّصّ يدُلُّ على أن مرحلة الحياة الدنيا مرحلة ابتلاء، لأنَّ الجزاء إنَّما يكون بعد الابتلاء، وهذا من الإيجاز القرآني البديع.

ومن الإيجاز البديع فيه أيضاً ذِكْرُ المسيئين، وهُمْ يَشْمَلُونَ عُصَاةَ المؤمنين، ويَشْمَلُون الكافرين حتَّىٰ أَخسّ دَرَكاتهم، وذِكْرُ المحسنين، وهُم أهْلُ المرتبة العليا من مراتب المؤمنين، وهي مرتبة الإحسان.

أمَّا المتقون والأبرار. أي: أهل مرتبة التقوى، وأهْلُ مرتبة البرّ، فَيُفْهَمُ باللُّزُوم الفِكْريّ أَنَّ اللَّهَ يجزيهم بفضله الجزاءَ الأوفَىٰ، على تفاضُلٍ بينهم بحَسَبِ دَرَجَاتهم في مرتبتي التقوىٰ والبرّ، والله ذو الفضل العظيم على عباده.

ومعلوم أنّ قانون الجزاء الرَّباني يقوم على العدل في السيئات فلا

يجازي الله على السيئة إلاَّ بمثلها، وعلى الفضل في الحسنات، فيضاعف الله الثواب بفضله الحسنة بعشر أمثالها، ثم إلى ما يشاء من أضعاف.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾

هذه الآية مدنية التنزيل اقتضت الحكمة تأخير تنزيلها إلى العهد المدني من تاريخ دعوة الرسول ﷺ: مراعاة للتّدرُّج في بيان الأحكام.

وضُمّتْ إلَىٰ سورة هي من الرُّبع الأوّل من التنزيل المكّي مراعاةً لما تقتضيه المناسبة الفكريّة.

وفي هذا الإجراء الحكيم مُراعاةُ الاقتضاءَيْن معاً.

بعد قَوْله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ يَقَعُ في ذهن المتلقّي المتدبّر لكتاب الله سُؤَال، وهو يحرص على أنْ يَتَلَقَّىٰ الجواب عليه، وقد جاء في الآية (٣٢) التي تأخّر إنزالها إلى العهد المدني الإجابَةُ المطلوبة عليه.

فالّذين أحْسَنُوا في الحياة الدُّنيا في أعمالهم الظاهرة والباطنة، ويَنَالُون في الآخرة المثوبة الْحُسْنَى جزاءً لَهُمْ بفَضْلِ الله وجُوده، هم الذين يجتنبون على الدّوام كبَائِر الإِثْم، ويجتنبُونَ على الدَّوام الفواحش، باستثناء اللَّمَم من المعاصي والذنُوب.

الإثم: هو في اللّغة الذنب، وهو في القرآن مستعمل للدّلالة على جميع المعاصي التي نهىٰ الله عنها، كبيرها ومتوسطها وصغيرها، ظاهرها وباطنها.

لكن لا يشترط لبلوغ مرتبة الإحسان من درجاتها الدنيا اجتناب كلّ مُفْردات الإثم، بل يكفي اجتنابِ كبائرها، ويغفر الله ما دون ذلك لمن يشاء بفضله ومَنّه وكرمه.

كَبَائِر: جمع كبيرة، والآثام التي هي كبائر ما جاء ترتيب وعِيدٍ عظيمٍ على ارتكابها، وَوُصِفَتْ بأنّها موبقات، أي: مُهْلكات.

يَجْتَنِبُون: اجتِنابُ الشَّيْء هو الابتعادُ عن حُدُودِه، وعدَمُ الاقتراب منها، وليْسَ مُجَرَّدَ عدم الوقوعِ فيه.

الفواحِشَ: جمع «الفاحشة» وهي في اللُّغة كلُّ قبيح تجاوز حدّ ما يُحْتَمَلُ ويُغْضَىٰ عنه عادةً من قول أو فعل. وكلُّ خَصْلَةٍ قبيحة.

والفواحش في الاستعمالات القرآنية تدور في معظمها حول الكبائر المتعلّقة بشهوات الفروج، فتخصيص الفواحش بهذا الإطار اصطلاح قرآنيٌّ.

إلاَّ اللَّمَم: يُقَالُ لُغَةً: آلَمَّ بالْقَوْم، أي: أتاهم ونزل بهم وزارهم زيارَةً غير طويلة. وألَمَّ بالطَّعَام، أي: أكل منه دون إسراف، وألَمَّ بالشيء إذا قارَبَهُ.

فالمادّةُ تدور حَوْلَ مُقَاربة الشيء وحَوْل الوقوعِ به دون إسراف وتكرار ومتابعة.

وجاء عند المفسرين أَقْوالٌ في تفسير اللّمم، فقيل: هو ارتكابُ الصغائر من الذنوب. وقيل: هو الوقوع في الكبائر مع الاستغفار السرّيع ودون إصرار ومُتَابعة. وقيل: هو الإِلْمام بالمعاصي ومقاربَتُها دون الوقوع فيها.

أقول: لا مانع من حمل اللَّمم على كُلِّ ذلك، فالله يَغْفِره بواسع رحمته ومغفرته، ولا يَخْرج به المؤمن المسلم من فئة الّذِين أحسنوا، ووَصَلُوا إلى مرتبة الإحسان، ويَدُلُّ على هذا ما جاءَ في صفات

عباد الرَّحْمن في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) وهم مُرَشَّحُون لإمامة المتقين، فهم أبرارٌ أو محسنون، فقد جاء في صفاتهم احتمال وقوع الواحد منهم ببعض كبائر الإثم الكبرىٰ كالقتل والزنا، وجاءَ وعيدُهُ بمضاعَفَة العذاب، وقال الله بعْدَ ذَلك:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

ودلَّ على احتمال وقوع الّذين أحْسَنُوا بِكَبَائِرِ الإثْم إلْمَاماً بها دون إصرار ومُتَابَعةٍ، قول الله عزَّ وجلّ بعد استثناء اللّمم:

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾:

فالمغفرة الواسعة هي الّتي تَتَّسِعُ لغُفْرَانِ كبائِرِ الإثْم.

وَجاء تعْلِيلُ مَغْفِرَةِ الرَّبِّ الحكيم جلَّ جلاله، لِبَعْضِ كبائر الإثم التي قد يَقَع بها المحسنون بقوله تعالى في الآية:

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ﴾.

ففي هذا إشارةٌ إلى ضعْف الإنسان في أَصْلِ تكوينه، إذْ قد تَغْلِبُه أهواؤه وشهَواتُهُ أحْيَاناً، مَهْما كانَ مِنَ المحسنين، فيضْعُفُ عن الْتِزَامِ الطاعة في كُلِّ أحواله، وعن ضَبْط نفسه على الاستقامة طَوالَ حياته، فَقَدْ خَلَقَهُ اللَّهُ ضعيفاً تُجاهَ أهوائه وشهواته، باستثناء من عَصَمَهُمُ اللَّهُ بعصْمَةٍ منه جلَّتْ حكمته.

ألم يَعْصِ الإنسان الأوّل من قَبْلُ، بَعْدَ أن طلب الله من الملائكة أن يسْجُدوا احتراماً لما آتاه من علْمٍ وصفاتٍ مؤهّلَةٍ لاكتِسَابِ المعارف.

لقد قابل الله جلّتْ حكمتُه هذا الضَّعْفَ الفطريَّ في الإنسان، بواسع مغفرته لمن استغفر وتاب، ولِمَنِ اجتنبَ كبائر الإثْم والفواحشَ إلاَّ اللَّمم،

ولم يُخْرِجْهُ بذلك من زُمْرَةِ الَّذِين أحْسَنُوا في الْحيَاة الدُّنيا.

● روى الإمام أحمد والتّرمذيُّ والبيهقيُّ والحاكم، عن أنس رضي اللَّهُ عنه، أنَّ رسُول الله ﷺ قال:

«كُلُّ بَنِي آدَمَ خطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخطَّائينَ التَّوَابُونَ». [حديث حسن].

● وروى البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ قال:

«إنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ كتَبَ على ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ، فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَ اللِّسَانِ المنطِقُ، والنَّفْسُ تَمَنَّىٰ وَتَشْتَهِي، والْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ وَيُكَذِّبُهُ».

ولمَّا كان الإنسان عرضةً للأخطاء، والوقوع في العصيان، ولو كان من الأبرار والمحسنين، قال الله عزَّ وجلَّ في آخر الآية:

﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: فلا تَدَّعُوا لأنفسكُمْ الطهارة من المعاصِي والآثام والذُّنُوب، فإنكم خطَّاءُون، واللَّهُ أعْلَمُ بمن اتَّقَىٰ، فَلَمْ يَرْتَكِبْ ما نَهَىٰ الله عنه، ولم يتْرُكُ ما أمَرَ اللَّهُ به، ورحمة الله ومغفرته هي التي تَشْملكم فيغْفِرُ لكم، وقد يعفو عنكم بتعفِيَة الأثر.

(٩)
التدبّر التحليلي للدرس الرابع من دروس السُّورة
الآيات من (٣٣ ـ ٥٥)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ

يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

القراءات

- قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾.

وقرأ هِشَامٌ: [إِبْرَاهَامَ].

وهُمَا نُطْقَان لاسم سيدنا إبراهيم عليه السلام، ويأتي اسمه أحياناً عند أهل الكتاب «أَبْرَام» وهو وجْهٌ أيضاً لنطق اسمه.

- وقرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾.

وقرأ ابن كثير، وأبو عَمْرٍو: [النَّشَآءَةَ].

النشْأَةُ والنَّشَاءَةُ مصدران لفعل «نشأ» ومن مصادره أيضاً النَّشْؤُ والنُّشُوءُ.

- وقرأ جمهور القرّاء العشرة: [وثموداً] بالتَّنوِين على أن اللفظ مصروف.

وقرأ عاصم، وحمزة، ويعقوب: [وَثَمُود] بغير تنوينٍ على أنه ممنوع من الصرف.

والصَّرْفُ والمنع من الصرف وجهان جائزان لأسماء القبائل العربية، فإذا لوحظ في اللفظ اسم الجدّ صُرِف، وإذا لوحظ فيه أنه علَمٌ على القبيلة مُنع من الصرف فلم ينوّن للعلميّة والتأنيث اللفظي.

تمهيد.

في هذا الدرس بيانُ بُطْلانِ تَوَهُّمٍ مِنْ تَوَهُّمَاتِ المشركين حول قانون الجزاء الرَّبَّاني.

وجاء في أسْباب النُّزول ما رواه الطبريُّ بسَنَدِه عن ابْنِ زيد، أنَّ رَجُلاً من المشركين أسْلَمَ، فَلَقِيَهُ بعض مَنْ يُعَيِّرُهُ، فقال له:

أتَرَكْتَ دينَ الأشْيَاخ وضَلَّلْتَهُمْ، وزَعمتَ أنَّهُمْ في النار؟! كَان ينبغي لَكَ أَنْ تَنْصُرَهُمْ، فَكَيْفَ تَفْعَلُ بآبَائِكَ؟!.

فقال: إنّي خشِيتُ عَذَابَ الله.

قال له: أعْطِنِي شيئاً وأنَا أَحْمِلُ كُلَّ عَذَابٍ كان عليك عنك.

فَأَعطاه شيئاً.

فقال له: زدْني.

فتعاسَرَ، حتَّى أعطاه شيئاً آخر، وكتَبَ له الرجُلُ كتاباً وأشْهَدَ له.

فأنزل الله عَزَّ وجَلَّ على رسوله في سورة (النجم) قوله:

- ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾؟!

أي: أنَظَرْت فرأيْتَ هذا الّذي تولّىٰ مبتعداً مُدْبراً مُرْتدّاً عن الإسلام، بعد أنْ أقبل قليلاً فأسلم، خوفاً من عذاب اللّهِ يوْمَ الدّين.

وسبَبُ تَوَلّيه توهُّمُهُ أنّه يستطيع أن يَشْتَرِيَ بمَالِه من يتعهَّد له بأن يتحمَّل العذاب بَدَله عند ربّه يوم الدّين.

فوصفه الله في السورة بأنَّه تولَّىٰ مُدْبراً، مع أنه قد خاف من عذاب الله يوم الدين، والمفروض فيمن خاف خوفاً صحيحاً أن يكون مرجوّ الاستجابة للإسلام، وأنْ لا يَصِل إلى دركة التّولّي الكامل، لقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول):

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾

لكِنْ أثَّرَ علَيْهِ تَوَهُّمُ نَفْعِ شِراء مَن يتعهَّدُ له بأنْ يتحمَّل العذاب بدَلَهُ، فصَرَفَ الخوفَ من عذابِ اللَّهِ عن قلبه، وقد كانَ ممَّن يُؤْثرون الحياة الدنيا، والانطلاق فيها دُونَ ضابطٍ من الدّين، فوجد لنفسه مخرجاً من مشاعر الخوف، فكانَ لا بُدَّ من إقناعِه وإقناعِ نُظَرائِه بإسْهاب، وهو ما جاء في هذا الدرس الرابع من دروس السورة.

● ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝٣٣ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ۝٣٤﴾.

استفهامٌ تعجيبيٌ مِنْ أمْرِ هذا الّذِي تَوَلَّىٰ، فأدبْرَ ولم يُتَابعْ مَسِيرَتَهُ في الإسْلام، لمَّا خدَعَهُ شيطانٌ من شياطين المشركينَ إذْ تعهَّدَ لَهُ بأنْ يَتَحَمَّلَ عَنْهُ الْعَذَابَ عِنْدَ رَبِّه، مُقَابل مالٍ يدفعُه إليه.

فأعْطَىٰ منْ ماله قليلاً كما جاء في قصَّتِهِ الواردة في سبب النزول، وتوقَّف عن أن يزيد في العطاء لمن تعَهَّدَ لَه، وفي هذا بيان لما في نفسه من شحٍّ، وليس المرادُ ذمَّه إذْ لم يَبْذُل كثيراً، فقضيَّتُه كُلُّها مرفوضةٌ أصْلاً وفرعاً، لأنَّها مبنيَّةٌ على تَوَهُّم باطل.

وفي عبارة: ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ استعارةٌ قائمة على تشبيه من يُعْطِي قليلاً ويتَوَقَّفُ بعد ذلك بَاخِلاً شحيحاً، بالذي يحفر في الأرض ليستخرج ماء فيَجدُ قليلاً من الماء، وبعد ذلك تَظْهَرُ له كُدْيَة في الأرض وهي من الصُّخور الشديدة العظيمة التي لا ترشح بماء، أو الأرض الغليظة الجافّة التي لا مطمع في حَفْرِها واستخراج الماء منها، فيتوقف عن متابعة الحفر.

وقد كان الرَّجُلُ من العرب إذا عَمِل في حفْر بئرٍ طمعاً في الوصول إلَىٰ الماء، ربّما وجَدَ بعض ماءٍ نَزٍّ من السَّطح من بقايا الأمطار القريبة، فإذا ظَهَرَتْ لَهُ وهو يَحْفِرُ كُدْيَةٌ عظيمة لم يستطع حفرها ولا اقتلاعها، قالوا: أَكْدَىٰ، أي: وجَدَ كُدْيَةً، أو ظَهَرَتْ له في بئره كُدْيَة، فيتوقف عن متابعة الحفْرِ.

وعلى سبيل المجاز بالاستعارة استخدم القرآن فعل «أكدى» للدلالة على شحّ نفس الرجل، إذْ هي كالصفاة الّتي لا تَنِزُّ بماء، وكان هذا القدر كافياً في التعريف بالرَّجُل ضمن بيئته أيّام نُزُول النَّصّ القرآني، وكافياً في الدلالة على أنه من الّذين لا يُريدُون إلاَّ الحياة الدُّنيا، والانطلاق فيها دون ضابط من الدين.

ونجِدُ في جملة: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ من وراء التعبير عن قصّته مع مَنْ تعَهَّد له من المشركين، بأن يتحمَّل عنه العذابَ عند رَبّه مقابل ما يَبْذُلُ له من مال، إلماحاً إلى أنَّه أقبل إلى الإسلام خوفاً من عذاب الله، ثُمَّ أدبر عنه لمّا توهَّم أنَّه قد دَرَأَ عَنْ نفسه عذاب الله.

وقد أوجز الله قصّته إلى أدنى الحدود، لأنَّ الغرض منها بناء الأفكار عليها، دون الاهتمام بكونها مقصودة بالذّات.

وكان من الحكمة الإقناع بما يكفي حول هذا التوهُّم الباطل، فقال اللَّهُ عزّ وجلَّ:

● ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾:

استفهامٌ تعجيبيٌّ من أمْرِه، إذْ لا يَمْلِكُ أيَّ دَليلٍ ولو كان دليلاً ضعيفاً يمكن اتُخاذُه ذريعةً لقبُول ما توَهَّمَه.

أي: أعنْدَه علْمُ الغيب فهو يرىٰ من مشاهد الغيب أو مكتوباته أنَّ الله عزّ وجلّ يقبل أن يتحمَّلَ أَحَدٌ العذابَ عن غيره، إذا فَداهُ بنفسه، أو باعَهُ من نفسه أن يتحمَّلَ العذابَ عنه، مقابل مالٍ يأخذُهُ منه في الدنيا.

ويلاحظ أنَّ الحديث عنه قد جاء بأسلوب الحديث عن الغائب، لا بأسْلُوب مواجهته بالخطاب ليعمّ أمثاله.

إنَّ قضاء الله بيْن عباده وقانون عدْلِه وفضلِه من أمْور الغيب، وهي

أمورٌ لا يُفتِي فيها إلاّ الله عزَّ وجلّ، الذي هو عالم الغيب والشهادة، ومقدِّر أنظمتها والقاضي بها.

ورُبَّما يُراد بالاستفهام مع التعجيب من أمرِ صاحب القصّةِ وأمثاله، انتزاعُ الاعتراف بأنّ عِلْمَ الغيب ليس عنده، فإذا اعترف بذلك فإنّه يُقالُ له: كيْفَ تقْبَلُ هذا التوهم؟! أو كيف تبني عليه؟!. وكيف تُفَرِّطُ بنفْسِك فتعَرِّضُها لعذاب الله؟!. وكيف تبْذُل في ذلك مالاً لمَنْ لا يستطيعُ أن يكون ضامناً ولا يستطيعُ أن يكون بديلاً عنْكَ في تحمُّل العذاب؟!.

وبعد هذا أبان الله عزّ وجلّ أنَّ قانون العدْل الرّبّانيّ المبيَّنَ في صُحف موسى، وفي صحُف إبراهيم، يتضمَّنُ أنَّ كُلَّ إنسانٍ هو المسؤلُ عن عَمَلِهِ واختياراته، في رحلة امتحانه في الحياة الدُّنيا، فَلا يَفْتَدِي أَحَدٌ بنَفْسِه أحداً عنْدَ الله، ولا يستطيع أَحَدٌ أن يَشْتَرِيَ بمالِهِ في الدنيا من يتعهَّدُ له بأن يتحمَّل عنْه العذابَ يومَ الدّين.

وهذا القانون الرَّبَّانيُّ لا نَسْخَ له ولا تبديل فيه، فقال اللَّهُ عزَّ وجل:

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

﴿يُنَبَّأْ﴾: أي: يُخبَّرْ مِنْ قِبَلِ المخْبِرِينَ العالِمِين بما جاء في كتُبِ الأوَّلين الموجودين في البيئة العربيّة. **النَّبأ**: الخبر الظاهر الواضِحُ لكَثْرَةِ تداوُله. أو الخبر الجليل ذو البروز، فأصل معنىٰ الكلمة يدور حوْل البروز والظُّهور، يُقالُ لغة: نَبأ الشيءُ، أي: ارتفع وظهر. ﴿بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾: أي: بمَا أُنزِلَ علىٰ موسَىٰ وَدُوِّنَ في الصُّحُفِ، ومَا أُنْزِلَ علَىٰ إبْرَاهيم ودُوِّنَ في الصُّحُفِ، وتداولَتْهُ أَلْسِنَةُ المهتمين بالأنباءِ الجليلة من أهل الأنباء من العرب.

فقد كان لبعض قبائل اليهود وعلمائهم وجودٌ في يثربَ وخيبر وتيما من بلاد العرب، وكانت لهم بالعرب صِلاتٌ وعلاقاتٌ اجتماعيَّةٌ وفكريَّة وأحاديثُ في مسائل الدين، ولا سيما ذاتُ البروز والظهور، ومنها القضايا التي ذكَرَتْها السورة بأنَّها موجودة في صحف موسى.

وكان لدى العرب ميراثٌ دِينِيٌّ توارثُوهُ عن إسماعيل عن إبراهيم عليهما السلام، على الرُّغْم من تَسَلُّل الشركِ إلى عقائدهم، ومِمَّا بقي محفوظاً منه لدى الحنفاء، القضايا التي ذكَرَتْها السُّورة بأنها موجودةٌ في صحف إبراهيم.

وأثنى الله عزّ وجلّ على إبراهيم عليه السلام بأنَّهُ وفَىٰ، في قوله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ أي: الذي وفَّىٰ ما كلَّفَهُ اللَّهُ إيَّاه، فأدَّاهُ أداءً وافياً لم يَنْقُص منه شيئاً، بل أعطىٰ فيه الْعُبُودِيَّةَ الكاملة لربّه، ومِمَّا وفّاهُ طاعَتُهُ لربّه في أمْر ذبْحه ولَدَهُ إسماعيلَ عليه السلام، وهذه إحدى الكلماتِ التَّكْلِيفيَّة التي وجَّهَهَا الله له، فَوَفَّاها حتَّىٰ لحظة نزولِ فدائِه بِذِبْحٍ عظيم، ولم يأت في القرآن بيان تفصيليٌّ عن جميع الكلمات التكليفيَّة الَّتِي ابتلاه اللَّهُ بها، وإنّما جاء بشأنها بيانٌ إجماليٌّ في قول اللَّهِ عزّ وَجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ... ﴿١٢٤﴾﴾.

والاستفهام في: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ...﴾ استفهام فيه معنى الإنكار على هذا الرجل الذي تتحدَّث عنهُ الآيات، إذْ لَمْ يَعْتَنِ بقضايا دينهِ، وهي أهَمُّ القضايا في وجوده، ولم يَعْتَنِ بَتلقِّيها عَنْ أهل الذكْر فيها، الَّذِينَ يتَحَدَّثُونَ بأُمُورِ الدِّين وقانون الجزاء الرَّبَّانيّ.

وفي هذا الاستفهام معنَىٰ الحثّ على التعرُّفِ على أنباء هذه القضايا ممّا أنزل اللَّهُ على موسى، وممّا أنزل على إبراهيم، بسُؤَال أهل الذكر

فيهما، لاكْتِشافِ وحْدَةِ الرسالات الرَّبّانيّة، في أُسُسها وأصولها وقواعدها، وللتعرُّفِ على أنَّ الدّين عند الله الإسلام.

أي: بل أَلَمْ يُنَبَّأْ عن طريقِ أهْلِ الأخبار بما في صحف موسى وإبراهيم بشَأْنِ هذه القضايا؟! فإنْ لم يأته هذا النّبأ فَلْيَسْأَلْ عنه أهْلَ العِلْمِ بأمور الدّين.

ولم يُرَاعَ الترتيب الزَّمَنِيُّ هنا في ذكْر صحُف موسى وإبراهيم إيثاراً للنسَقِ الجماليّ في الآيتين، ولأنَّ ما في صحف موسى مُدَوَّنٌ عند أهل الكتاب، أمّا ما في صحف إبراهيم فغيرُ مُدَوَّنٍ عند العرب.

فما هي القضايا الّتي نَبَّهَ عليها النَّصُّ ممَّا هو موجودٌ في صحُفِ إبراهيم وموسى؟.

إنَّها قسمان:

القسم الأول: يتعلّق بقانون الجزاء الرَّبّانيّ.

القسم الثاني: يتَعَلَّق بتوحيد الله في ربوبيّتِهِ في تصاريف الكون، وبربوبيته في الجزاء المعجّل للطغاة المجرمين الذين أهلكهم من أهل القرون الأولى، تحذيراً للكافرين المجرمين المعاصرين لنزول القرآن، فمن يأتي بعْدهم مع تذييل تربويٍّ للمجادل المماري بغير حقّ.

فالقضايا التي تتعلَّقُ بالقسم الأوّل هي أبع قضايا:

القضيَّةُ الأولَى: دلَّ عليها قولُ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾:

تَزِرُ: أي: تحمِلُ حِمْلاً ثقيلاً، وترتكِبُ إثماً، يُقال: وزَرَ يزِرُ وِزْراً ووَزْراً.

وازِرَة: صفة لموصوف محذوف، والتقدير: نفسٌ وازِرة، أي: من شأنها أنْ تَحْمل وِزْراً إذا عصَتْ أوامر ربِّها باختيارها الحرّ.

الوِزْرُ: الحِمْلُ الثقيلُ، والذَّنْبُ.

وِزْرَ أُخْرَى: أي: ذَنْبَ نَفْسٍ وَازِرَةٍ أُخْرَىٰ.

والمعنى: أنَّ من قانون العدل الرَّبَّانيِّ، أنَّ كلَّ نفسٍ مكلَّفَةٍ في رحلة امتحانها، ومن شأنها أنْ تحْمِلَ أوزار نفسها، لا تحْمِلُ بطَوْعِها ولاَ تَحْمِلُ وهي مُكْرَهَةٌ وِزْرَ نفسٍ أُخرى بحالٍ من الأحوال.

هذه مادّةٌ لا نسخ لها من موادّ قانون الجزاء الرَّبَّاني.

والجملة بدل من «ما» في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ و﴿أَلَّا﴾ هي: «أَنْ لا» وأن هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوفٌ وجوباً وجملةُ: «لا تَزِرُ...» خبرها.

القضية الثانية: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾:

أي: وأن ليْسَ للإنْسَانِ من حَقٍّ رَتَّبَهُ الله له بفضلِه ابتداءً، فلَهُ الحقُّ بأن يُطَالِبَ بأجْرِه عِنْدَ رَبِّهِ إلاَّ مَا كَسَبَهُ مِنْ حسناتٍ وأعمالٍ صالحاتٍ بسَعْيِهِ، في رحْلَةِ امتحانه في الحياة الدنيا.

وهذا لا يمنَعُ من أنْ يَصِلَهُ شيءٌ بفضل الله دون سَعيٍ منْه، وربما كان بسبب دُعَاءٍ من يستجيب اللَّهُ دُعاءه له، أو شفاعَةِ مَنْ يَأْذن الله له بالشفاعة، ويرضى له قولاً، أوغير ذلك، لكن لا يكون للإنسان حقُّ المطالبَةِ به عند ربّه يوم الدّين، إنّما يأتيه من فيض فَضل الله عليه.

ويُعْطِي بعض النَّاس هذه الآية: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ تعميماً ليس مقصوداً فيها، فَيَفْهَمُ منها أنّه لا يَصِلُ إلى الإنسان إلاّ ثوابُ ما سَعَىٰ، وهذا فَهْمٌ غير صحيح، لأنّ اللام في: ﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾ هي لام الاستحقاق، وليست لام الغاية.

وقد ثبَتَ في السُّنَّةِ الحجُّ عمَّنْ مات ولم يَحُجَّ، والصَّوْمُ عمَّنْ مَاتَ وعليه صوْمُ لَمْ يصُمْه، وغير ذلك من أعمال.

ومَنْعُ وُصُولِ فَضْلِ اللَّهِ للإنسان إلاَّ ثوابَ ما سَعَىٰ، هُوَ من الحجْرِ على فَضْلِ اللَّهِ، وفَيْضِ جوده العظيم، وتقطيعٌ لما أَمَرَ الله به أَنْ يُوصَلَ من وَشَائج الأُخوَّة الإيمانيَّةِ وعَوَاطِفها المتبادلَةِ بين المؤمنين.

ويلاحظ أنّ الله عزّ وجلّ استعمل مادّة «السّعي» في القرآن لعمل الآخرة، وأمَّا الْعَمل الْمبَاحُ لكُسبِ الرّزْقِ ومَصَالح الحياة الدنيا فقد استعمل فيه مادَّةَ «المشْي» فقَال تعالى في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول):

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾

وقال تَعَالَىٰ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾

المشي: هو الانتقالُ الهادئ بِرِفْقٍ لِلْكَدْحِ والْعَمل وغير ذلك.

السّعي: هو الانتقال بهمَّةٍ ونشاطٍ وقُوَّةٍ في الكَدْحِ والعمل، والمراد الحالة النفسيَّة، ولو كان المطلوبُ السكينَةَ والرِّفْق. فالسَّعْيُ في اللُّغَة حركتُهُ فَوْق حركة المشي، ودون حركة الْعَدْوِ والرَّكْضِ.

القضيَّة الثالثة: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾:

أي: وأَنَّ سَعْيَ الإنسان المكلَّف في الحياة الدُّنيا في أعمالٍ صالحةٍ، أو في أعمالٍ سيِّئَةٍ سَوْف يُرَىٰ يَوْمَ الدّين، أيْ: يُكْشَفُ لَهُ في كتاب عَمَله حتَّىٰ يراه، وقد يُكْشَفُ لمن يشاءُ الله أن يُطْلِعَه علَيْه من خلقه.

سوف: حرف استقبال، وهو مُسْتَعمل في القرآن للمستقبل البعيد.

القضيّة الرابعة: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾:

﴿يُجْزَىٰهُ﴾: أي: يُكافأُ يومُ الدِّين علَىٰ سَعْيِهِ بالعمل الصالح في الحياة الدنيا التي تَمَّ فيها امْتِحَانُه، والمعنى: يُجْزَىٰ الإنْسَانُ سَعْيَه.

يُقال لغَةً: جَزَىٰ فلانٌ فلاناً حقَّهُ، أي: قَضَاهُ إيَّاهُ، وحقُّ السَّاعي في الحياة الدنيا عند رَبِّه يَوْمَ الدِّين، هو ما تفضَّلَ به علَيه من وعْدٍ كريمٍ بالثَّواب الجزيل.

﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾: أي: الجزاءَ الأتَمّ الأكْمَل. دون نقص، مع زيادة، وهو مفعول مطلق لبيان النَّوع.

وجاء استعمال ﴿ٱلْأَوْفَىٰ﴾ وَهُو أفْعَلُ تفضيل للإشعار بمعنىٰ الزيادة على الوافي، أي: التامّ، وبهذه الزيادة يكون «أوفى» من الحقّ المقرَّرِ لهُ بِوَعْدِ الله الكَرِيم، وَيَدُلُّ على هذا المعنى قول الله عزَّ وجَلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ... ﴿١٧٣﴾﴾.

وهٰذه الزيادة هي من الترجيح على الحق الذي يُضيفُه البائع أو مؤدّي الحقّ، على مقدار الحقّ.

وجاء استعمال حرف [ثمّ] الذي يدُلُّ على الترتيب مع التراخي الزمنّي، للدلالة على أنَّ تحقيق الجزاء متأخِّرٌ بتراخٍ زَمنيٍّ عن المحاسبة وفصْل القضاء اللَّذِيْنِ يَرَىٰ فيهما الإنْسانُ سَعْيَه.

● **والقضايا** التي تتعلَّقُ بالقِسْمِ الثاني هي تسع قضايا دلَّ عليها قوْلُ الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ

وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

فالقضيَّةُ الأُولَىٰ: دَلّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾.

الخطابُ في هٰذه الآية مُوجَّهٌ بأسْلُوب الخطاب الإفرادِيّ لكلّ من يَصْلُح للخطاب، ويُدْرِكه ويَفْهَمُه، وَيَقَعُ في المقدمَّةِ الموضوعون في الحياة الدنيا موضع الابْتِلاء، وفيه التفات من الغيبة إِلَىٰ الخطاب، إيثاراً لما هو أَوقع في نفوس المتلقين:

أي: وأَنَّ مِنَ القضايا المبيّنةِ في صُحُفِ مُوسَىٰ وإبراهيم عَليهما السّلام، أنَّ إِلَىٰ اللَّهِ الّذي هو ربُّكَ وَربُّ كلِّ شيءٍ، يَنْتَهِي كُلُّ شَيْءٍ، فالرُّجُوعُ من الحياة الدنيا بالموت يَنْتَهِي إليه، والعودة إلى الحياة بالبعث للحساب والجزاء تنتهي إليه، وَأَمْرُ الحساب وفصْل القضاء يوم الدين ينتهي إليه، وأمْرُ تنفيذ الجزاء ينتهي إليه، له الخلْقُ وله الأمْر، وكُلُّ الحجج والبراهين الدالَّةِ علَىٰ أَوَّليَّةِ الوجود تنتهي إليه، فَتُثْبتُ أنَّه الأزليُّ الّذي وُجِدَتْ بأمْرِه التكوينيّ كُلُّ الكائناتِ من دُونه، إلى غير ذلك من كُلّ ما في الأكْوَانِ كبارها وصِغَارِها، وهي أمور لا يحيط بعلمها إلاَّ الله جلَّ جلاله، وَإِليه تَنْتَهي أسبابُ تصاريفها برُبُوبيَّتِه العامَّة الشّاملة لكلّ شيءٍ.

وفي هذه العبارة إشارة إلى سلاسل الأسْباب في حركات كلِّ شيءٍ في الكون وسكناته، وأنَّها جميعَها تَنْتَهي إلى اللَّهِ الذي له الخلْقُ والأَمْرُ جلَّ جلاَلُه، وعظُمَ سلطانه، وفيها إشارة إلى أن الغاية هي ابتلاء ذوي الإرادات الحرَّة في ظروف الحياة الدنيا.

﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾: مصدر ميمي لفعل «انتهىٰ» ولا مانع من اعتباره أيضاً اسْمَ زَمانٍ أو اسم مَكانٍ، على معنى أنّ أزمَانَ كلِّ ذي زمَنٍ ينْتَهي إلىٰ الله السُّلْطانُ عليها، وكذلِكَ أمكِنَةُ كلِّ ذِي مَكان.

والقضيَّةُ الثانية: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾:

نفهم من هذه الآية أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ الّذِي هو رَبُّ كلِّ شيء، هو وحْدَهُ لا شريكَ له الذي خلَقَ الأسبابَ الّتِي تَسُرُّ فَتسْتَدْعِي الضَّحِك، وخَلَقَ مشاعِرَ الفرح والسُّرور، وخَلَقَ ظَوَاهر التعبير عن هذه المشاعر بالضَّحك. وأنَّهُ هو وحْدَهُ لا شريك له الذي خَلَقَ الأسْبَابَ الّتِي تُؤلِمُ، فتستَدْعي البكاءَ المعبّر عن الألم، وخلَق مشاعر الألم، وخلَقَ التعبير عن هذه المشاعر بالبكاء.

وجاء التأكيد بضمير الفصل [هو] لإفادة القصر.

والقضيَّةُ الثالثة: دلّ عليها قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾:

نفهم من هذه الآية أنَّ الله عزَّ وجلّ هو وحْدَهُ الذي منح الحياة لكلّ ذي حياة، وأنَّه هو وحده الذي خلَقَ الموت، وأذاقه كُلَّ نَفْسٍ ذَاقت الموت، وجاء فيها التأكيد بضمير الفصل [هو] لإفادة القصر.

وجاء في الآية استعمال الفعل الماضي بقوله تعالى: ﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ لحكمَتَيْن:

الحكمة الأولى: توزيع أجزاء الموضوع الواحد على النصوص، فإذا كان هذا النَّصُّ قد عبَّر عن أحوال الماضي، ففي نصوصٍ قرآنية كثيرة جاء فيها التعبير عن أحوال الحال والاستقبال بصيغة الفعل المضارع، ومنها قول الله عزَّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾

الحكمة الثانية: الاعتماد على الدَّليل الاستنباطيّ، فما دام النَّصُّ باقي الدَّلاَلَةِ إلى يَوْم الدِّين، فكُلُّ مَنْ يحيا وَيموت فالله عزّ وجلّ وحْدَهُ لا شريكَ له هُو الذي أحْيَاهُ، وهو الذي أماته.

وتشير هذه الآية إلى أنَّ الغاية من الإحياء والإماته ثُمَّ الإحياء بالبعث، هي الابتلاء الذي يسْتَتْبِعُ الحسَابَ وفصْلَ القضاء وَتَنْفِيذَ الجزاء، وَقد جاء هذا المعنى مُصَرَّحاً به في قول الله عزّ وجَلَّ في سورة (الْمُلْكِ/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول):

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ فبعزَّته يجازي بالعقاب، وبمغفرته يستر الذنوب ويجزي بالثواب.

والقضيَّةُ الرابعة: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلُّ: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾.

وَجاء في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) الحديث عن الإنسان بقول الله عزّ وجلّ:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿سُدًى﴾ أي: مُهْملاً غير مكلَّف ولا مسؤول، وغيْرَ مَوْضوع موضع الابتلاء في الحياة الدنيا، وغير مجازىً على أعماله في الحياة الدنيا.

فجاء التصريح في هذا النَّصّ باسم النُّطفَةِ، وأنَّها هي مَنِيُّ الرَّجُل.

وجاء في سورة (الواقعة/٥٦ مصحف/٤٦ نزول) إشارةٌ إلَىٰ آيَةٍ من آيات الله في خَلْقِ المنِيِّ، فقال الله عزّ وجلّ فيها خطاباً للنَّاس:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾

ونفهم من قول الله عزَّ وَجَلَّ في سورة (النجم): ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۝٤٦﴾ الإشارة إِلَىٰ حِكْمَةِ اللَّهِ العظيمة في خَلْقِ الزَّوْجين، اللَّذَيْنِ انعقدَتْ بانجذاب بعضِهما إلى بعض الروابط الأسريَّة، وكانت بذلك شَبَكة الترابط الاجتماعيّ، وامتدَّتْ من وحدة الأصْل، وتلاقي الأزواج، وتَفَرُّعِ الأنْسَالِ، شجَرَةُ النّسب الإنسانيّة ذاتُ الفروع والأغْصَانِ المتداخلة المتشابكة.

ونفهم منه أيضاً أنّ الذكر والأنْثَىٰ كلَيْهما يخْرُجان من نطفة الرّجل، فلا علاقة لبُيَيْضَة المرأة بتحديد كون الجنين ذكراً أو أنْثَىٰ، وهذه الحقيقة من حقائق التكوين الرّبّاني لم يَعْرِفْها علماءُ الأحياء والأطبّاءُ وعُلَماء الأجنَّةِ إلاَّ مُتَأَخّراً، فهي من أمثلة الإعجاز العلميّ في القرآن.

ونفهم من قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾ أي: إذا تُقْذَفُ في الرَّحم، أنَّ الوقْتَ الذي يتمّ عنده توجيه الْحُوَين الذكر، أو الحوَيْن الأنْثَىٰ من النطفة المنويَّة، ليكونَ هُو قرين بُيَيْضَةِ الأنْثَىٰ، ولينْعَقِدَ منهما الجنين هو وقْتُ قَذْفِ النطفة في الرَّحِم، وهذا هو الذي اكْتُشِف بالوسائل العلميَّة التجريبيَّة.

يقال لغَةً: أمْنَىٰ الرَّجُلُ النُّطْفَةَ، أي: أنْزَل المنيَّ. ويقالُ: أمْنَىٰ، إذا أنْزَلَ المنِيَّ. ويقالُ: أمْنَىٰ الدِّماءَ، إذَا أراقها.

والقضيَّة الخامسة: دلّ عليها قول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ۝٤٧﴾:

أي: وأنَّ الله عزّ وجلّ جعَلَ على نفسه الالتزام بإيجاد أحداث النَّشْأَةِ الأخرى، التي تبدأ بالبعث إلى الحيَاةِ للحسَاب وفَصْل القضاء وتَنْفِيذ الجزاء، كما كان قَضَىٰ وقَدَّر قَبْل إيجاد النشأة الأولى.

إنّ مُنشِئَ النَّشْأةِ الأُولى للنَّاس والجِنَّةِ للابتلاء في ظُروفِ الحياة

الدنيا، هو وحده الذي سَيُنْشِئُ النَّشْأَةَ الأخرىٰ للجزاء.

النَّشْأَةُ: هي الْحُدوثُ المصْحوبُ بالتَّكامل المتدرّج غالباً، يقال لغة: نَشأَ الشيءُ نَشئاً وَنُشُوءاً وَنَشأَةً، إذا حَدَث وتجدَّد، ويُقالُ: نشأ الصبيُّ إذا شبَّ ونَما.

والقضية السادسة: دلَّ علَيْها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾

﴿أَغْنَىٰ﴾: أي: جَعَل بقَضَائه وقَدَرِه وخَلْقِه الغِنَى لكلّ ذي غنىً.

الغِنَىٰ: كَثْرَةُ المال ووَفْرَتُه.

﴿وَأَقْنَىٰ﴾: أي: جعَلَ بقضائه وقَدَرِه وخَلْقِه لعباده ما يَقْتَنُونَهُ ممّا يحتَاجون إليه مستقبلاً. يقال لغة: قَنَىٰ فُلانُ الشيءَ يَقْنِيه قَنياً، أي: كسَبَهُ وجَمَعه وادَّخره لنفسه لا للتجارة. وكذلِك اقْتَناه.

وجاء في هذه الآية التأكيد بضمير الفصل [هو] لإفادة القصر، أي: فلا مُغْنِيَ وَلا مُقْنِيَ إلاَّ الله جلَّ جلالُه.

فدلَّت هذه الآية على أن الله عزّ وجلّ هو وحده الذي أغنى ذوي الحاجات في الوجود، بما هيّأ لهم في الدنيا من وسائل قضاء حاجات حياتهم من رزقٍ وغيره، على مقاديرِ كفاياتهم وأكثر، وزاد على ذلك فجعل لهم من الوسائل ما يمتلكونَه ويدّخرونه ويقْتَنُونه، ومنه ما يكون أصْلُه طَوِيلَ الإقامة عندهم، متجدِّد العطاء والثمَرَة، مُتَنامِيَ الذَّاتِ، أو ذا أَنْسَالٍ ومواليد، فَهُمْ ينتَفِعُون من مُقْتَنَيَاتِهم مطمئنِّين بحسَبِ حاجاتهم، كالأنعام والشَّجَر، وكُلّ ما يقتنىٰ ويُدَّخَر.

وقد كان من الممكن عقلاً أن يجعل غناهم دون اقتناء، كما جعل المنَّ لبني إسرائيل، إذْ كانوا يُرْزَقونه يَوْماً فَيَوْماً، ولا يستطيعون ادّخار شيءٍ

منه، لأنَّ مَا يُدَّخَرُ منه للْيَوْم التالي يفسُد، وينتشر فيه الدُّود.

فالله هو وحده في الوجود الذي أغْنَىٰ وأقْنَىٰ، تباركت صفاته، وجلَّت حكمته.

والقضيَّة السابعة: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾:

الشِّعْرىٰ: اسم نجم من نجوم بُرْجِ الجوزاء، وهو نَجْمٌ شديد الضياء، ويُسمَّىٰ أيضاً عنْد الْعَرَب: «كَلْبَ الْجبَّار» لأنّ العرب يسمّون الجوزاء «الجبَّار» إذْ يتَخيَّلونَ مجموع نجوم الجوزاء في صورة رجل جبَّارٍ واقف بيده عصاً، وعلى وسَطِه سيف، ويتخيَّلون الشِّعْرَى في صورة كلْبٍ يَتْبَع الجبَّارَ الذي هو الجوزاء. وتُسَمَّى «الْمِرْزَم».

والشعرىٰ: أشَدّ نجوم بُرْجِ الجوزاء بياضاً، وتُوصفُ عنْدَ العرب باليمانية، ويسمُّونها الشِعْرىٰ الْعَبُور، تفريقاً بينها وبين: «الشِّعْرَىٰ الْغُمَيْصَاء».

ونجم «شِعْرىٰ الْعَبُور» عَبدتْهُ قَبِيلَةُ خُزَاعَة، والّذِي جعلهم يعْبُدُونه رجُلٌ من سادتهم يُكْنَىٰ «أَبَا كَبْشَة» عبَدَه ودَعَا قبيلته إلىٰ عبَادَته.

وتخصيص نجم «الشِّعْرَىٰ» من دون سائر النجوم، مع أنَّ الله عزّ وجلّ هو رَبُّهَا جميعاً ما عُبِدَ منْها وما لم يُعْبَدْ، للتَّنبِيه على أنّ عبادة بعض العرب للشعرىٰ عبادةٌ باطِلَةٌ، لأنَّ الله رَبُّها، وهي ليس لها من الرُّبوبيَّة شيْءٌ.

ويُقاس على الشِّعْرىٰ سائر النجوم والكواكب، ولا سيما ما عُبِدَ منْها، وقد كان قوم إبراهيم عليه السَّلام يعبُدُون بعض النجوم ويقدِّسونها، ويعتقدون أنَّ لها تأثيراتٍ في أحداث الأرض ومن عليها.

ويظهر أنّ صحف موسى وإبراهيم قد اشتملت على بيان أنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّ النجوم والكواكب السَّماويَّةِ كلِّها، ويدخل ضمن هذا العموم «نجم

الشعرىٰ» ولَوْ لم يكن هذا النجم الذي عَبَدَهُ بعض العرب من معبوداتِ قوم إبراهيم عليه السَّلام، فتكُونُ آية: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ معطوفَةً على ما اشتملَتْ عليه صُحُفُ موسَىٰ وإبراهيم عليهما السلام، لأنَّ الشّعْرىٰ داخلةٌ ضمن عموم النجوم.

وضمير الفصل في الآية يُفيد مع التأكيد القصر، والمعنى أنَّه لا ربَّ للشِعْرىٰ إلاَّ اللَّهُ وحده لا شريك له، فما يَنْسُبُه عُبَّادُ هذا النجم له من تصاريف، هو في الحقيقة لله عزّ وجلّ وحده.

والقضية الثامنة: دلّ عليها قول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾

هذه القضيَّة تتضمَّن الموعظة بالترهيب من العقاب المعجّل، للّذِين يُصِرُّونَ على كُفْرِهم وعنادهم وَفسادِهِمْ وإفسادهم، على الرُّغْمِ من وضوح الأدلَّة لهم الكافية لإقناع المهتمّ بمعرفةِ الحقّ والاستمساك به.

والترهيب في هذه القضيَّة قد جاء بتقديم أمثلةٍ تاريخيَّةٍ، من أقوام أهلكهم الله إهلاكاً شاملاً، بسبب كفرهم وطغيانهم.

المثال الأول: إهلاك الله عزّ وجلّ قوْمَ عَادٍ الأولى، وهم قوم النبيّ الرسول هود عليه السلام، وهم قبيلة عرَبيَّةٌ من العرب البائدة، كانت مساكنهم في أرض «الأحقاف» من جنوب شبه الجزيرة العربية، وهي تقع في شمال حضرموت، ويقع في شمال الأحقاف الرّبع الخالي، وفي شرقها عُمَان، وموضع بلادهم الآن رمال قاحلة مهجورة.

فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾

وصفها الله بالأولى، لأنّ قِسْماً من عادٍ آمنوا برسولهم هودٍ عليه

السلام فأنجاهم الله من الهلاك، ومن ذراريهم «ثمود» قوم النبيّ الرسول صالح عليه السلام، فَهُمْ عادٌ الثانية.

المثال الثاني: إهلاك الله عزَّ وجلَّ قوم ثمود، إذ تمرّدُوا على رسولهم صالحٍ عليه السَّلام، وأصَرُّوا على كُفْرهم وطغيانهم، وعقروا النَّاقَة الّتي أخرجها اللَّهُ لَهُمْ من صخرة حَسْب طلبهم، واستهانوا بالمعجزة الّتي أقام اللَّهُ لهم بها الدَّلِيلَ على صِدْق رسُولهم.

فقال تعالى: ﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾. أي: وأَهْلَكَ ثمودَ فما أبقى منهم كافراً.

وكانت مساكنهم في أرْضِ «الحِجْرِ» وهي أرضٌ معروفة بين الشام والحجاز إلى وادي القرىٰ، وتقع في الطريق للمسافرين من الشام إلى الحجاز، وآثارُ مَدَاين هؤلاء القوم ظاهرة حتَّىٰ الآن، وتُعْرَف باسم «مداين صالح».

وقد سبق التذكير بإهلاك «عادٍ» و«ثمود» في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول).

المثال الثالث: إهلاك الله عزّ وجلَّ قَوْمَ نُوحٍ عليه السلام، الذين لبث فيهم نوحٌ يدعوهم إلى الإيمان باللَّهِ وهَجْرِ أوثانهم ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً، فأصَرُّوا على كُفْرِهم وظُلْمِهم وطُغْيانِهم، فأهلكهم اللَّهُ بالطوفان.

فقال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ أي: وأنَّه أهْلَكَ قومَ نوحٍ من قبلِ إهلاكه عَاداً وثمودَ، إذْ كانت أزمانهم سابقة لأزمان عادٍ وثمود.

ووصف الله قوْمَ نوحٍ بأنَّهُمْ كانوا هم أكْثَر ظُلْماً وأكثر طغياناً من عادٍ وثمود، وجاء التأكيد بضمير الفصل إشعاراً بتخصيصهم بشدة الظلم والطغيان.

وجاء هنا ذكر عادٍ وثمود قبل ذكر قوم نوحٍ، لأنَّ أخبار عادٍ وثمود معروفةٌ متداولَةٌ بين العرب، ولأنَّ آثارهم في بلاد العَرَبِ ظاهرة ومعروفة.

المثال الرابع: إهلاك الله عزّ وجلّ قوم لوط عليه السلام، وقد كَنَّىٰ الله عنهم في هذا النصّ بقوله: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾:

الْمُؤْتَفِكَة: أي: المنقَلِبة، وهذا وصْفٌ لموصوف محذوف، وهي قُرَىٰ قوم لُوط عليه السلام، أي: وقُرَىٰ قَوْم لوطٍ، الّتي رَفَعها الله بأهلها الفاسقين المجرمين، وقَلَبها فجعل عالِيَها سَافلها، وأهوى بها إلى جهة الأرض، فهَوَتْ سَاقِطَةً مُنْقَلِبَةً مُدَمَّرَة.

الائْتِفَاكُ: عند أهل العربيَّة هو الانقلاب.

﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾: أي: فجعَلَ عليها غِشاءً جلَّلَ كُلَّ أجزائِها، وكان هذا الغِشَاءُ حجارَةً مُحْرِقَةً أَمْطَرَهَا الله عَلَيهم، تَعْذِيباً لَهُمْ، مع إهلاكهم بتَدْمير بلادهم عليهم.

قال المؤرّخون: هم أهل «سَدُوم» وكانوا يعيشون في مكان البحر الميّت المعروف الآن في الأردن، ولهم خمس قرى، هي «صَبْغَة ـ عَمْرَة ـ أَدْما ـ صَبُويم ـ بالع».

وقد عرضت السورة هذه الأمثلة عرضاً موجزاً جدّاً، مناسباً لأسلوبها البيانيّ العامّ، الموافق لما يُعْجب فصحاء العرب وبُلَغَاءَهم من إيجاز واختزال، وبُعْدٍ عن أسلوب البيان المباشر.

القضية التاسعة: دلَّ عليها قَوْل الله عزَّ وجلّ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾:

خطابٌ مُوجَّهٌ لكُلِّ مُتَشَكِّكٍ بِآلاَءِ الله، جاء بمثابة مُنَاقَشَةٍ تربويَّةٍ عقب

الدرس الرابع من دُروس السُّورَةِ، أو عَقِبَ دُرُوس السورة الأربعة السابقة.

﴿ءَالَآءِ﴾: نِعَم. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ﴾ أي: فَبِأَيِّ نِعَم رَبِّك، والواحد: «أَلَيَ» و«إِلْيٌ» و«إِلَى».

﴿تَتَمَارَىٰ﴾: أي: تَتَشكَّكُ، وتُجَادِل. والمعنى: فبِأَيِّ نِعَمِ اللَّهِ ربِّكَ الّتي أفاض بها على عِبَادِه، تتشكَّكُ وتُجادِلُ أيُّها الكافِرُ برَبِّكَ، المكذِّبُ لرسوله، والمكَذِّبُ بما جاء به عن ربّه، والمكذِّبُ بظاهرة الوحْيِ، وبيوم الدّين.

إنَّ نِعَمَ اللَّهِ الكثيرةَ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا وَيُنْعِمُ بها على عباده دَواماً، من شَأْنِهَا أَنْ تَجْعَل العاقل الرَّشِيدَ الذي يَنْشُدُ الحقَّ يُؤْمِنُ بِرَبّه، ويخضع له، ويَعْبُده لا يُشْرِكُ بعبادته أحداً، ويُؤْمِنُ بِرَسُولِهِ وبكتابه الذي أنزلَهُ عليه.



(١٠)
التدبر التحليليّ للدرس الخامس من دروس السّورة وهو الأخير

قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ:

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ (٥٦) أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ (٦١) فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ (٦٢)﴾.

هذا الدرس الخامس وهو الأخير من دروس السُّورة، يتضمَّن حديثاً ختاميّاً ذا بيانات جازمات تُوجِز القضايا التالية الأربع:

القضية الأولى: بيان وظيفة الرسول الختاميَّة بالنسبة إلى من كذَّبه في نبوّته ورسالته، وَالوحْي الّذي تلقَّاهُ عن ربّه، وكذَّبَ بما جاء به عن ربّه، ربْطاً بما جاء في الدرس الأوّل من السورة: وهي وظيفة الإنذار

بعذاب الله، كما كانت الوظيفة الختاميَّة لسائر المرسَلين بالنسبة إلى الذين كفروا من أقوامهم، وأسرفوا في ظلمهم وطغيانهم، وكذلك بيان وظيفة القرآن الختامية بالنّسبة إليهم.

القضية الثانية: بيان اقتراب يوم القيامة الّذِي تنتهي به ظروف الحياة الدنيا، ليبدأ بعْدَهُ يوْمُ الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء. وفي هذا إنذارٌ بعذاب الله يوم الدين للكافرين برسول الله محمّد ﷺ، وبما جاء به عن الله عزّ وجلّ.

القضية الثالثة: توجيه التثريب للكافرين الذين كذّبوا الرَّسُول محمّداً ﷺ، وكذّبوا بما جاء به عن الله عزّ وجلّ، مع التَّعجيب من أمرهم، إذْ يعجَبُون من الحقّ وأدلّته وبراهينه الساطعات وإِذْ ينطلقون في حياتهم يضحكون لاهين ساهين غافلين ساخرين متكبِّرين، أو جامدين متحيّرين أغنياء، أو مشتغلين بالغناء.

وقد كان من الواجب عليهم لو كانوا أهل عقْلٍ وتدبُّرَ ورُشْدٍ أَنْ يتَّعِظُوا، ويبكوا على ما فرَّطوا في جَنْب الله، وعلى ما أَسْرَفُوا وظَلَمُوا في حقّ أنفسهم، إذ يَقْذِفونَ بها أغبياء إلى الشقاء الدائم، والعذاب الأَبَديّ في جَهَنَّمَ وبئْسَ المصير.

القضية الرابعة: وهي القضيَّةُ الّتِي ختم الله بها السّورة، وقد تضمَّنتْ توجيه الأمر للناس أجمعين وفيهم الكافرون بأَنْ يَسْجُدوا لله ويعبُدُوه، حتَّىٰ يؤدُّوا واجب عبوديتهم لربّهم، وليذوقوا حلاوة القرب من الله عزّ وجلّ، وليتخلَّصُوا من وساوس الشياطين، وشتات الأهواء التي تجنح بهم عن صراط الله المستقيم، إلَىٰ أوْدِية العذاب الأبدي.

أمّا القضيّة الأولى: فقد دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ بشأن الرسول محمّد ﷺ، أو القرآن أو كليهما: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦﴾

﴿هَٰذَا﴾: أي: الرَّسُولُ مُحمَّد ﷺ، أوالقرآن، بالنسبة إلى الكفرة المكذبين.

﴿نَذِيرٌ﴾: يأتي بمعنَىٰ: «مُنْذِر». ويأتي اسماً للإنْذارِ الذي هو مصدر «أنْذَرَ». **والإنْذار**: هو الإعلامُ والإخبار بعواقب غير سارّة، والتحذير من ذلك.

وجمْعُ «نَذِير» على المعنيَيْن: «النُّذُر» وهو لفظ يصحّ أن يُطْلَق على الرسول، وعلى القرآن لتضمُّنِه الإنْذار، وعلَىٰ الإنْذار الذي جاء في القرآن.

﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾: أي: من جِنْس النُّذُرِ الأُولَىٰ، رُسُلاً كانوا، أو كُتُباً رَبَّانيَّة، أو إنْذاراتٍ جاءَتْ في الكتب السابقة أو على ألسنة الرُّسل، فكَلِمَةُ النُّذُر صَالِحةٌ لكلّ ذلِكَ، وهذا من الإيجاز القرآني البديع.

والمراد بالأولَىٰ السابقة السَّالفَةُ في الرّسالات الرَّبّانيّات السابقات.

وأمّا القضيّةُ الثانية: فقد دلَّ عليها قولُ اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾:

[أَزِفَتِ الأزِفَةُ]: أي: قَرُبَتِ السَّاعَةُ القريبة، وقد أبان الله عزّ وجلّ قُرْبَهَا بتعبير صريح، فقال تعالى في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾.

يقال لغة: أزِفَ الوقْتُ يأْزَفُ أزَفاً وأُزُوفاً، أي: دنا، ومنه قولهم: أزف التَّرحُلُ، أي: قَرُبَ ودَنَا.

الآزفة: صفةٌ لموصوفٍ: مَحْذُوفٍ تقديرُه: السَّاعة، أو القيامة. وصَفَها اللّهُ بالْقَرِيبة بالنسبة إلى ما مضى من عُمْرِ الدُّنيا قبل خَلْقِ آدَمَ عليه السَّلام، وقد زَادَتْ قُرْباً في عصْرِ بعْثَة الرَّسُولِ محمد ﷺ ونزول القرآن.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾: أي: ليس للسَّاعَةِ من غَيْرِ اللّهِ وإعْلام منه نَفْسٌ كاشفَةٌ وقْتَ حُدُوثها ووقوعها فعِلْمُ وَقْتِ وُقوعِ السّاعة وقيام القيامة عِلْمٌ لم يُطْلِع اللّهُ علَيْهِ أحداً من خلقه، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) لرسوله:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧)﴾.

فدلَّتِ النصوص القرآنيَّةُ على أنَّ وقْتَ قيام السَّاعَةِ من الأمُور الّتي سَتَرَهَا اللَّهُ وأخْفَاهَ، فلَمْ يُطْلِعْ عليها أحداً من خلقه.

وأمّا القضيّة الثالثة: فقد دلَّ علَيْها قولُ الله عزّ وجلّ خطاباً للكافرين المكذّبين: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ (٦١)﴾

في هٰذه الآيات تلويمٌ وتَثْريبٌ للكافرين المكذبين لرسول الله محمّد ﷺ، والمكذِّبينَ بما جاء به عَنِ اللَّهِ عزّ زجلّ، وتَعْجِيبٌ من تَعَجُّبِهِمْ ممَّا اشتمل عليه القرآن الكريم، الّذِي هو حَدِيثُ الله لعباده بياناً وإقناعاً ونُصْحاً.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩)﴾؟!: أي: أرَفَضْتُمُ الحقَّ الجليَّ الّذِي حَدَّثْنَاكُمْ بهِ في القرآن، مع وُضوح الأدلة وقُوَّةِ ما فيها من سلطان على العقول، وأعْلَنْتُمْ إنكارَكُمْ له، وزعَمْتُمْ أنَّهُ بَاطِلٌ، فصِرتُمْ تَسْتَبْعِدُونه وتُوهِمُونَ أنّه باطل بأسْلُوب التَّعَجُّب منه.

إنَّ تَعجُّبَكُمْ هو الذي يَسْتَدْعي الْعَجَب، لأنّه قَائم على جُحُود الحقّ على الرُّغْمِ من ظهوره، ووضوح أدلّته.

﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠)﴾: أي: إنَّ من شَأْن ما جَاءَ في حَدِيثنا لكم أنْ تَحسُبُوا ألف حسابٍ ليوم الدين والجزاء. إيماناً بالحق الذي جاءكم به رسُولُ ربّكُم، فتخافوا العذابَ الأليم الذي ستَصِيرونَ إليه لا محالة، إذا أصررْتُمْ على كفركم، ومن شأن هذا أن يُبْكِيَكُمْ بُكَاءً كثيراً، لا أنْ يُثِير لديكم الضّحك والسُّخْرِيَةَ ممّا حَدَّثْنَاكم به.

﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾: أي: وأنتم لاَهُونَ لاَعبون، وسَاهون غافلون، أو مَشْغُولُون بالغِنَاء، أو مُتَكَبِّرون بَطِرُونَ أشرُونَ، أو قائمون جامِدُونَ لاَ تتأثَّرُون، أَو أَغْبياء، أَوْ مُتَحَيِّرون.

على كلِّ هذه المعاني تدلُّ في اللُّغَة كَلِمَةُ: «سامدون» وهي فيما أَرَىٰ مرادَةٌ كُلُّها، ولو على سبيل التوزيع بحسَب أحوال المخاطبين، وهذا من الإيجاز الرّائع في القرآن الكريم.

وقد تأكَّد لديّ إمكان حَمْل اللَّفظ القرآني على كلّ معانيه اللُّغَويَّة، إذا أَمْكن ذلِكَ، ولَمْ تَتَناقَضْ فيما بينها، وهو الذي عليه معظم الفقهاء المجتهدين.

وأمّا القضيَّةُ الرّابعة: فَقَدْ دَلَّ عليها قولُ الله عزَّ وجلَّ خطاباً للناس ومنهم الكافرون المكذِّبون: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

فالْمَطْلوبُ الدِّيني الذي جاء به الرَّسُول عن ربِّه هو الخضوع لله، وعِبادَتُه بطاعَتِه، في فِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ وتَرْكِ مَا نَهىٰ عنه.

السّجُود: يشمل كُلَّ أنواع الخضوع لله، وأكملُهُ في الأعمال الجسديَّة الظاهِرَةِ يكُونُ بِوَضْعِ الجبْهَةِ على الأَرض.

والعبادة: تَكُون بالطاعة، وبقيام العابد بما يُرْضي المعبود، ورأْسُ العبادة الدُّعاء بالغيب لتحقيق مطالب الدُّنيا والآخرة، وهٰذِه العبادة لا تكون إلاَّ للرَّبّ جلَّ جَلاَله، وتوجيهها لغيره شرك به.

وهكذا استكْمَلَتِ السورة ترابُطَها الفكريّ، وخُتِمَتْ بهذا الختامِ الحكيم.

❁ ❁ ❁

ملاحق لسورة النجم

الملحق الأول: من البلاغيات في السورة.

الملحق الثاني: معالجة المشركين بشأن عقيدتهم في الملائكة.

الملحق الثالث: سياسة الداعي في أحوال المدعوّ الذي لم يستجب.



(١١)
الملحق الأول
من البلاغيات في سورة (النجم)

(١) الأسلوب البيانيّ الذي صيغت به سورة (النجم) هو الأسلوب الذي كان يَسْتثير إعجاب بلغاء العرب وفصحَائهم إبَّانَ تنزيل القرآن، إنّه الأُسلوب القائم على تقصير الجمل، والسَّجْع البديع الذي لا تكلُّفَ فيه، والْبُعْدِ عن التعبير المباشر، باسْتِخْدام الكناياتِ التي تَعْتَمد على اللّوازم الفكريَّة، وتعتَمِدُ على الإيجاز الشديد، وحذْفِ ما يمكن إدْراكه ذهْناً ولو لم يَكُنْ في اللَّفظ ما يَدُلُّ عليه.

وفي السورة من هذا أمثلة ذوات عدد، ولهذا ثبت في الصحيحين وغيرهما أن المشركين سجدوا مع الرسول ﷺ والمسلمين حينما سجد الرسول عند آية السجدة من آخر سورة النجم.

(٢) التأكيد بالْقَسَم بظاهرة من ظواهر خَلْقِ الله المشهودة، في قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ عَلَىٰ قضيَّةٍ غَيْبَيَّةٍ مُشَابهة، جحدها الّذين كفروا، لأنّهم استبعدوا نُزُول رَسُول الوحي جبريل من السماوات إلى رسول الله محمَّد ﷺ في زمن قليل من ليل أو نهار واستبعدوا العروج بالرسول محمّد إلى السماوات العليا بصحبة جبريل عليهما السلام، والعودة

به إلى مكة في ليلة واحدة، وفيه إشارة إلى أنّ أنظمة السُّرعات عند الله في كونه متفاوته تفاوتاً كبيراً.

(٣) استخدام الاستفهام في غير ما وُضِع له، إذ استُعْمِلَ مراداً به الانكارُ على الكافرين وتلويمُهم والتعجيب من أمرهم في عدّة مواضع: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾؟! - أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢١﴾؟! - أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾؟! - أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾؟! - أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾؟! - أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ﴿٥٩﴾﴾؟!

(٤) الكناية عن الموصوف بالاكتفاء بذكر صفته فيما يلي: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾(أي: جبريل) - ﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ (أي: بالمثوبة الحسنى، أو بالجنة التي هي حسنى) - ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ (أي: نفس وازرة وزر نفس أخرى.

(٥) التشبيه المكْنِيُّ في قوله تعالى عن الّذي كَفر: ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ - شبّه الّذي ينْخَل بسبب شُحّ نفسه بَعْدَ أن أعطَىٰ قليلاً، بمَنْ يَحْفِرُ من الْبِئر شيئاً ثُمَّ يَجِدُ كُدْيةً (أي: صَفَاةً عظيمةً تمنَعُهُ من متابعة الحفر).

وقد سمَّيْتُ هذا النوع تشبيهاً مَكْنِيّاً، لأنَّهُ من قبيل التشبيه البليغ الذي ذُكِرَتْ فيه بعضُ لَوَازِمُ المشبه به[١].



(١٢)
الملحق الثاني
حول معالجة المشركين بشأن عقيدتهم في الملائكة

جاء في القرآن المجيد حول موضوع عقيدة المشركين في الملائكة

(١) انظر مبحث التشبيه المكنيّ في كتابي البلاغة العربية. الجزء الثاني ص٢٠٤.

بأنّهم إناثٌ، وبأَنَّهُمْ بناتُ الله، وبأنهم يشفعون لهم عند الله إذا تقرّبوا إليهم بالعبادة وَبأنَّهم شركاءُ لله في إلهِيَّته، تسْعُ نصوص في ثَماني مراحل من العهد المكيّ، بثماني سور.

وجاءت معالجة هذا الموضوع موزّعَةً في هٰذه المراحل، مَعَ إعادة ما يقتضي السّياق والعلاجُ التربوي والإقناعيُّ الأَفْضَلُ إعادَتَه منها، ومع إضافَةِ ما يقتضي الأسلوب التدريجيّ إضافته.

المعالجة الأولى:

ما جاء في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

وقد تدبّرنا ما جاء فيها حول هذا الموضوع خلال تدبُّر السُّورَة.

المعالجة الثانية:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) خطاباً للمشركين:

﴿أَفَأَصْفَنكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾؟!.

أي: أَفَآثَرَكُمْ رَبُّكُمْ بالبَنِينَ، واتّخذ لِنَفْسِه من الْمَلاَئِكَة إناثاً بالولادة أو بالتَّبَنّي، ثُمَّ جعلَهُنَّ شركاء له في إلَهيَّته، المستلزمة لمشاركتهم له في رُبوبيَّته، دلَّ على هذا قول الله عزَّ وجلَّ بعد آيَةٍ خطاباً لرسوله ولكل داعٍ إلى الله من أمّته:

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾:

أي: قُلْ: لَوْ كان مع الله عزَّ وجلَّ آلِهَةٌ تَسْتَحقُّ العبادَةَ بِمَا لها من

مشارَكَةٍ للَّهِ في رُبُوبيَّته، لاتَّخذَ هؤلاءِ الآلِهَةُ الأَرْبابُ إلى ذي العرشِ سبيلاً أي: إلى منافَسَةِ الله في رُبوبيَّتِه، ومضادّتِهِ في إرَادَاته، ولنجَمَ عن ذلِكَ فسادٌ كبيرٌ في السَّمَاوَاتِ وفي الأرْض، لِتَعَارُض الإرادات، وتناقض الْمُرادَات.

﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠)﴾ أي: في زعمكم أن الملائكة بناتُ الله، وقد تنزّه سبحانه عن ذلك.

المعالجة في هذا النصّ جاءت بأسلوب الاستفهام الاستنكاريّ التعجيبيّ من أمْرِ المشركين، الذي يتضمَّن التقريع والتوبيخ لهم على معتقداتهم الباطلات، التي لا يملكون لإثباتها أيّ دليلٍ فكريّ، أوْ خَبَرِيٍّ عن الرَّبّ الخالق جلّ جلاله، أو حسّيٍّ، بل الأدلَّةُ العقلية والخبريَّة الصحيحة الصادقة تُثْبتُ نقيض هٰذِه المعتقدات.

المعالجة الثالثة:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (الصافّات/٣٧ مصحف/٥٦ نزول) قولَهُ خطاباً لرسُوله ﷺ:

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ (١٥٠) أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (١٦٠)﴾

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ (١٤٩)﴾: أي: فاسألْهُمْ سؤال مناظر مجادل بالحق عنْ حُكْمِهِم الفاسِدِ واعتقادهم الضّالّ الَّذي جعلُوا فيه للَّهِ رَبِّكَ وربِّهم البناتَ، واصْطَفَوْا لأنفسهم البنين، وهذا صالح لادّعاء النسبيَّة، أو ادّعاء التبني.

والاستفهام فيه معنى التلويم والإنكار والتقريع والتعجيب من أمرهم.

﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾؟!﴾: أي: بل أخلقنا الملائكةَ إناثاً وهم حاضرون شاهِدُون خَلْقَهُمْ، فعَرَفُوا من المشاهدة أنَّ الملائكة إناثٌ؟!. وهذا صالح لادّعاء التَّبنّي.

«أم» هذه هي المنقطعة، وهي بمعنى «بل» مع محافظتها على الدلالةِ على الاستفهام.

﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾:

﴿أَلَآ﴾: أداةَ استفتاحٍ وتنبيه بقوة، أي: ألاً إنَّ الكافرين ليقولون من إفكهم أي: من كذِبهِمْ علىٰ الله وَلَدَ اللَّهُ ولَداً، وإنَّهُم لَكَاذبُونَ في قولهم هذا:

جاءت هاتان الجملتان مؤكّدَتين بالجملة الاسمية وحرف «إنّ» واللام المزحلقة في ﴿لَيَقُولُونَ﴾ وفي ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾.

﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾؟!﴾: أي: آثَر لِنَفْسِهِ البنات على الْبَنِين؟! إنَّ هَذَا لَحُكْمٌ على الله باطلٌ ظاهر البطلان، لا دليلَ عليه من عقل أو حِسٍّ أو نَقْلٍ صحيحٍ عن الله: بل الأدِلَة تُثْبِتُ أَنَّ كُلَّ ما سوَى الله عزَّ وجلَّ خَلقٌ من خلْقِهِ، فلا نَسَبَ بَيْنَه وبين أحَدٍ من خلْقه، وليس بحاجة سبحانه إلىٰ أنْ يَتَبَنَّىٰ أحداً من خلْقه، والاستفهام إنكاريٌّ تعجيبيٌّ.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾؟!﴾: أيْ: أيُّ شيْءٍ حصل لكم فأفْسَدَ عقولكم فجعلكم تقولون: الملائكة بنات الله، أو هم إناث، أو أيُّ شيْءٍ هو لكُمْ من الحق في ادّعائكم الباطل على الله؟! كيف تحكمون على الله هذا الحكم الباطِل؟! أفلا تتذَكَّرُون ما أعدّ الله للكافرين به من عَذَابِ خالدٍ في جهنَّمَ، فتتعظون وتَرْهَبُون، وتتبرَّءُونَ من افتراءاتكم على الله.

وفي هذا تقريع لهم بأنهم يبنُون معتقداتهم على أوهام باطلة، أو تقليد أعمى.

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾:

أي: بَلْ أَلَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ من نَصِّ كتابٍ رَبَّانِيّ يُثْبِتُ ما تقولُون على الله، فإِنْ كان لديكم شيْءٌ من ذَلِكَ فَأْتُوا به إنْ كُنْتُمْ صَادِقين.

وفي هذا مطالبة لهم بالدّليل الخبريّ عن الله، إنْ كان لديهم شيء من ذلك، لكنهم لا يملكون.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

أي: وجعل بعض المشركين بين الله وبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً، وهذا يَنْطَبِق على الجنّ الذين زعَمُوا لقرنائهم من الإنْسِ أَنَّهُمْ ملائكةٌ وأَنَّهُمْ بنَاتُ الله، وينطبق على الذين يَزْعُمونَ أنَّ اللَّهَ خَطَبَ إلى سادات الجنِّ فَزَوَّجُوهُ من سَرَواتِ بناتهم، فالملائكةُ بناتُ الله من سَرَوَات بناتِ الجنّ.

ولَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ الكافرون الّذين أوْحَوا لقُرنَائهم من الإنس أنّهم ملائكة، وأَنَّهُمْ بناتُ الله، لقد عَلِمُوا أَنَّهُمْ سيكُونُونَ مُحْضَرِينَ في عذاب جهنَّم، مع سائر الكفرة من الإنس والجنّ، وكُسِرَتْ همزَة (إنَّ) في الآية لأنَّ اللام المزحلقة جاءت في خبرها.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾

وقُرِئ: [المُخلِصِينَ] بكَسْر اللاَّم.

أي: تَنَزَّهَ اللَّهُ عمَّا يَصِفُه به جميع الواصفين، إلاَّ عِبَادَ اللَّهِ المخلَصِينَ بالنبوّة، والمُخلِصِينَ بالاستقامة والتَّقيُّدِ بما جاء عن اللَّهِ في صفاته، فإنَّهُمْ لا يصِفُون الله عزّ وجلَّ بشيْءٍ لا يَلِيق بذاته أو بِصفاته، بل يَصِفُونَهُ بكلّ كمال، ويُنَزِّهُونه عن كلِّ نقْص، ويَتَقيَّدون في ذكر صفات الله بما صحّ عن الله ورسوله، أوْ قامَتْ عليْه براهين الْعَقْلِ الصحيح.

المعالجة الرابعة:

ثمَّ أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):
﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

دَلَّ هذا النَّصُّ على أنّ أكْثَر المشكرين كانوا يُؤْمِنُونَ بالْجِنّ وبخُرَافَاتِ الجنّ، وأنَّ الجِنَّ يَزْعُمونَ لِقُرنائهم من الإنْسِ أنّهم ملائكة، فيُصدّقونهم، ويقولُون للناس هؤلاَء الّذين نتَّصِل بهم ويدعوننا لعبادتهم هم ملائكة، فيجلُبُون لنا بعبادتهم نفعاً، ويَدْفَعُون عنّا بها ضرّاً، ويأتُونَنا بأخبار غيبيَّةٍ لا نستَطيعُ أنْ نأتي بها إلاَّ إذا أخبرونا بها.

﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾: أي: أكثر المشركين يؤمنون بِالكَفَرة من الجنّ، لا بما جاءَهم عن ربّهم.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾: أي: تنَزَّهتَ ربَّنا عن أن يكون لك شريك في إلَهيَّتك، فنحن بريئون من عبادتهم لنا، في هذا اقتطاع لمشهد من مشاهد يوم الحساب، وتقديم له كأنه تمّ وانقضى، وهذا من روائع القرآن البيانية التي تدلُّ على تحققِ الوقوع.

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾: أي: لا وَليَّ لنا إلاَّ أنت، فلم نَعْبُدْ نحْنُ أحداً غَيْرَكَ، ولم نَدْعُ أحداً من دُونِكَ لعبادَتِنا، ولم نتَّخِذْ أيَّ شيءٍ يُغْرِى أحداً بعبادتنا.

أصل مادّة «الوليّ» تدور حول معنىٰ الاتّباع، فهي تُطْلَقُ على التابع وعلى المتبوع. فالمعنى لم نَتّبع غَيْرك ولم نَدْعُ أحداً لاتّباعِنا.

﴿مِن دُونِهِم﴾: أي: من غيْر من كانُوا يَعْبُدونَنا، فهؤلاء لم يَكُنْ بيننا

وبَيْنَهم ولايةٌ ما، ويومئذٍ يقول الله عزَّ وجلَّ للمشركين وللّذين كانوا يعبدونهم من دون الله مقالين:

الأول: فالْيَومَ لا يَمْلِكُ بعضُكُمْ لبعضٍ نفعاً ولاَ ضرّاً.

الثاني: يقول الله عزّ وجلّ للذين ظلموا: ذُوقوا عذاب النار الّتي كنتم بها تكذّبون، ويكون هذا قبل أوْ بَعْد إدْخالهم في جهنم.

وفي عرض هٰذين المقالين تحذير شديد للمشركين من المصير التعيس الذي سيصيرون إليه إذا أصَرُّوا على شِرْكهم وكفرهم بما جاءهم به رسولُ ربّهم، وهذه معالجة تربويَّة تعتمد على موعظة الترهيب، بعرض مشهد من مشاهد الحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

المعالجة الخامسة:

ثمَّ أنزل اللّهُ عزَّ وجلّ في سورة (الزخرف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول) قولَهُ بياناً لما عليه المشركون في مفهوماتهم حول هذا الموضوع:

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾

اشتمل هذا النصّ على المعالجة الخامسة للمشركين بشأن أقوالهم ومعتقداتهم حول الملائكة، وزعمهم أن الملائكة إناث، وبأنّهم بناتُ الله، وبأنهم يَشْفَعُون لهم عند الله إذا تقرّبوا لهم بالعبادة، وبأنّهم شُركاء للّهِ في إلَهيّته.

- ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

إنّ اللَّهَ جلَّ جلالُهُ صَمَدٌ، لا يَتَّحِدُ بذاته شَيْء هو من غير ذاته، ولا ينفصل عن ذاته جُزْءٌ هو من ذاته، فَهُو لم يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ.

وكلُّ الأحياء التي خَلَقَها في كونِه مملوكَةٌ لَهُ، فَهُمْ عِبادُهُ، هو خالِقُهُمْ، وهُوَ مالِكُهُم، وهو المتصرّف بهم على ما يشاء، وقد خلقهم بكلمة التَكوين.

والَّذِينَ زَعَمُوا أنَّ الملائكة بناتُ اللَّهِ قد جَعَلُوا بالكذِب والافتراء للَّهِ مِنْ عباده الّذِين خَلَقَهُمْ جُزْءاً، فالمنفصل عن شيء بالولادة هُو جُزْءٌ مِنَ الشَّيْء الّذي انفصل عنه، والجزْءُ المنفصل عن الشيء لا بُدَّ أَنْ يَحْمِلَ شيئاً ما من خصائص الأصل الذي انفصل عنه.

لكنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ مُنَزَّهٌ بذاتِهِ عن أن يَدْخُلَ في ذاته شيءٌ فيتَّحِدَ بها، ومُنَزَّهٌ عَنْ أنْ يَنْفَصِلَ عن ذَاتِه جُزْءٌ، فيكون له وُجودٌ منفصل.

إنَّهُ أحَدٌ، إنَّه صَمَد، إنَّهُ لم يَلِدْ ولم يُولدْ، ولم يكن له كفُواً أحد.

فنَبَّهَ هذا النَصّ بهذه الآية، على أنَّه يستحيلُ عقلاً أنْ يكون لله الأزليِّ الأبَدِيّ جُزْءٌ قَابلٌ لأن يَنفصِل عنه، وتَكُونَ له ذَاتيَّة خاصَّةٌ.

وقد غابت هذه الحقيقة عن معظم المفسرين، فلم يولُوها العناية الكافية من البيان والشرح.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾: أي: ووصَفُوا اللَّهَ بأنَّ لَهُ ذُرِّيَّةً انْفَصلَتْ عنه، فَجَعَلُوا بهذا الْوَصْفِ المفترَىٰ عليه بعضَ عبادِهِ الذين خَلَقَهُمْ بأمْرِ التكوين جزءاً منفصلاً عنْ ذاتِه سبحانه وتعالى.

فِعْل «جَعَلَ» مُسْتَعمَلٌ هُنَا بمعنى إسناد حكْم باطِلٍ إلى الله عزَّ وجلّ، وهذا أحد المعاني الّتي اسْتعملَ للدّلالة عليها هذا الفعل في القرآن.

وهذا ينطبق على الذين زعَمُوا أنَّ الملائكة بناتُ الله، وعلى الذين

زعَمُوا أنَّ عيسى ابْنُ الله، وعلى الذين زعَمُوا أنَّ عُزيراً ابْنُ الله، إلاَّ أنَّ سياق هذا النصّ يدلُّ على أنَّ الْمُرَادَ به الذين زعَمُوا أنَّ الْمَلاَئِكَةَ بناتُ الله، فعَبَدوهُمْ من دون الله.

● ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾:

يؤكّد الله بالجملة الاسمية وبـ«إنَّ» وباللام المزحلقة أنَّ الإنسانَ شديدُ الكُفرِ بربّه في وَقَاحَةٍ ظاهرة.

والمرادُ بالإنسان المقدار الأعظم من هذا النَّوعِ، بدليل قول الله عزّ وجلّ في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/٥٣ نزول):

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿لَكَفُورٌ﴾: أيْ: لَشَدِيدُ الكُفرِ، صيغَةُ «فَعُول» من صيغ المبالغة.

﴿مبين﴾: أي: ظاهِرٌ واضِح، يقال لغة: أَبَانَ الشَيْءُ فَهُو مُبِين، إذا ظهر واتَّضَحَ.

ومن شِدة كُفر الإنسَانِ الواضحِ الْجَلِيّ أَنْ يَنسُبَ لِلَّهِ وَلداً، وأَقْبَحُ من هذا أَنْ يَزْعُم أنَّ أَوْلاَدَ اللَّهِ بناتٌ، فيقولَ: الملائكةُ بَنَاتُ الله، مع أَنَّهُ هو إذَا بُشِّرَ بمولودة له أُنْثَىٰ كَرِه ذلك، وظلَّ وجْهُهُ مُسْوَدّاً وهُوَ كظِيمٌ.

● ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾

أي: إنَّ جَعْلَ الملائكةِ بنَاتَ اللَّهِ له احْتِمالاَن:

● إمَّا أنْ يعْتَقِدَ قائِلُ هذا أنَّ الملائكةَ بنَاتُ اللَّهِ نسباً، وقد جَاءَ رَدُّ هٰذَا الباطل بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا...﴾

● وإمّا أنْ يعْتَقِدَ أنَّ الملائكة خَلْقٌ من خَلْقِ الله، إلاَّ أنَّ الله جَعَلَهم إنَاثاً، واتَّخذَهُمْ جُنوداً لِنَفْسه، وآثَرَ الناسَ علىٰ نفسه فَخلَق لَهُمْ بَنِينَ.

- ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٍ؟﴾: أي: بل أَتَّخذَ لِنَفسِه ممَّا يخلُقُ بناتٍ؟.

- ﴿وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾: أي: وآثركُمْ على نفسه بالبنين.

استفهامٌ إنكارِيٌّ عليهم، وتعجيبيٌّ من أَمْرهم، كيف يتصوَّرُون أن الله اخْتَار لنفسه الأدنَىٰ، وآثَرَ النَّاسَ بالأكمل؟!!

- ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾:

أي: وإذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بما وَصَفَ الرَّحْمٰنَ به كَرِهَ ذَلِكَ واغْتَاظ، وجاء التعبيرُ عن وصْف الله بأنَّه ولَدَ البنات، أو جُنودُه بنَات، بعِبَارة: بمَا ضَرَبَ للرَّحْمٰنِ مثلاً، أي: صنع من عنده مثلاً زَعَمَ أنَّهُ مشابِه للرحمن، وهٰذا المثلُ الَّذِي صَنَعَهُ ذُرِّيَّتُهُ بَنَاتٌ، أو جُنُودُهُ بَنَاتٌ.

هٰذَا مِنْ بدائع العِبَارات الَّتي تَدُلُّ علَىٰ الْمَقْصود، مع تكريم الله عن أنْ يُقَالَ: الله مِثْلُ عبادِهِ في إنجاب الذُّرِّية.

فالعبارة تَدُلُّ علَىٰ أَنَّهُمْ صنعُوا مِنْ عِنْدِهِمْ مَثَلاً، وجَعَلُوا هٰذا المثَلَ مشابهاً للرَّحْمٰن وهُمْ كاذِبونَ.

وجَاء في هٰذه الآيةِ الكِنَايَةُ عَنْ غَيْظِ مَن يُبَشَّرُ منهم بولِيدَةٍ أُنْثَىٰ بعبارةِ: ﴿ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا﴾ أي: بَقِي وجْهُهُ كالِحاً علَيْهِ سَحَابَاتٌ سَوَادٍ تَدُلُّ علَىٰ كراهيته لما بُشِّرَ به، وغَيْظِه منه، مَا دامَتْ مُنَاسَبَةُ الولادة مُتَدَاوَلة على ألسنة عشيرته.

أُطْلِقَتِ الظَّاهِرَةُ التي تَبْدُو في الوجه، والمرادُ الحالة النفسيَّة المؤثرة في هذه الظاهرة وهي الغيظ.

وجاءت عبارة: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ دالَّةً عَلَىٰ الغيظ المحبوسِ في النفس.

﴿كَظِيمٌ﴾: أي: مُمْسِكٌ على ما امتلأَتْ بهِ نفسُه من غيظٍ أَوْ غضبٍ، أصْلُهُ في اللّغة مَأْخوذُ من: كَظَمَ السِّقَاءَ، أي: مَلأَهُ وسَدَّ فَاهُ.

• ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾؟!!.

في هذه الآية متابعةٌ لتقريع المشركين وتوبيخهمْ، بشأن ادّعائهم أنَّ الملائكة بناتُ اللّهِ بالنَّسب أو بالتَّبنّي ممَّنْ خَلَق.

فهي تتضَمَّنُ طرْحَ سُؤَالٍ عليهم: أيُّهما أفضلُ في تصوُّرِهم لاختيار جُنْدٍ يُكلَّفُونَ وَظائِفَ عَظمىٰ في الكَوْن؟؟

هل اختيار أشِدَّاءَ أقوياء مُطِيعينَ لا يَعْصونَ، أم اختيارُ بنَاتٍ ناعماتٍ من طَبْعِهنَّ حُبُّ الدَّلاَل، وحُبُّ الزِّينَة رغْبَةً في أن يَكُنَّ مَحْبوبَاتٍ عِنْدَ أزواجِهِنَّ، فَأوْلياؤُهُنَّ يُنَشِّئْنَهُنَّ ويُرَبّينَهنَّ في الْحِلْيَةِ ممَّا تَتَزَيَّنُ به البنَاتُ، إشْباعاً لرغباتِهِنَّ، وإعْدَاداً لَهُنَّ حتَّىٰ يَكُنَّ سَارَّاتٍ لأَزْوَاجِهِنَّ. سعيدات مُسْعِدَاتٍ في حياتهنَّ. وبتأثير عواطِفهنَّ، وعدم قُدْرَتِهِنَّ على ضبط رَغباتهن، يَكُنَّ في المخاصماتِ ثائراتٍ وغير مُبيناتٍ لحُجَّتهنَّ، وهذه إحدى مظاهر صفاتهن الرقيقة الناعمة.

والجواب الذي يجيب به كلُّ مُنْصِفٍ: أنَّ حِكمة الحكيم تقتضي أن يَخْتَار للقيام بوظائفَ جليلةٍ عظمىٰ في الكون، عباداً أشدّاءَ أقواءَ مُطِيعين لا يعصُونَ الأوامر، ويفعلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، وهذه الصفات غير موجودة في البناتِ، بالنظر إلى النسبة الغالبة عليهن.

والآية فيها محذوف مُقَدَّرٌ يمكنُ استخراجه بقليلٍ من التأمُّلِ، والتقدير: أو مَنْ يُنَشَّأُ في الْحِلْيَةِ وهُوَ فِي الْخِصَام غَيْرُ مُبين خَيْرٌ، أم مَنْ هو عَبْدٌ شدِيد قويٌّ مطيعٌ لا يَعْصِي الأوامر، ولا تميلُه العواطف والانفعالاتُ فتخرجه عَنْ طريقِ الطاعة، للقيام بوظائف جليلةٍ عظمىٰ في الكون؟!!

أي: فكيف صَحَّ في تَصَوُّرِكم أَنْ يختار الربُّ الحكيم لنفسه ملائكةً إناثاً؟!! إنَّ هذا لمنكَرٌ عظيم، وعُدْوَان علَىٰ حكمة اللَّهِ البالغة.

بل الملائكة عبادٌ مُكْرَمُون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يُؤْمَرون، فليسوا إناثاً ولا ذُكُوراً.

● ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾:

أي: وجَعَلُوا بحُكْمِهِمُ القائِم على التوهُّم، الملائكةَ الذين هم عُبادُ الرَّبِّ الرَّحْمٰنِ، وَلاَ يُوصَفُونَ بذُكُورةٍ ولا أُنوثَةٍ، جَعَلُوهُمْ إنَاثاً، لَهُنَّ صِفَاتُ الإناث.

وَجاءتْ معالجةُ المشركين هُنَا بسُؤَالِهِمْ عَنْ دليلٍ حسِّيٍّ كانوا هم الذين شَهِدُوه بأنفسهم، فَقَالَ الله بأسلوب الكلام عن الغائب، دون أنْ يواجههم بالخطاب:

﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ؟!!﴾

أي: أشَهِدُوا الملائكةَ وشَهِدُوا أعضاءَ الأُنوثَةِ فيهم؟؟ سؤال يُطْرَحُ علَيْهم، ليُجِيبُوا عليه.

فإنْ كَذَبوا وَقالوا: نَعمْ شَهِدْنا خَلْقَ الملائكة.

فالجواب الرَّبَّانِيُّ يقولُ الله فيه:

﴿سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾:

أي: سَتُكْتَبُ في صحف الملائكة الذين يراقبونَهُمْ ويُسَجّلُونَ عليهم أعمالهم وأقوالهم، شَهَادَتُهم الْكَاذِبة، ويُسْأَلُونَ يوم الدِّين في موقف الحساب عن كذبهم في شهادتهم، للحكم عليهم.

• ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

في هٰذِهِ الآية بيانٌ لمقولَةٍ جَدَليَّةٍ من مقولات المشركين، حول معبوداتهم من دون الله، مع بيان أنَّ مقولَتَهُمْ هٰذِهِ محرومَةٌ من سَنَدٍ عِلْمِيٍّ يَقْبَلُه أهل الفكر والفهم السليم لحقائق القضايا الفكريّة، وأنّها مبنيَّةٌ عَلَىٰ الخَرْصِ.

﴿يَخْرُصُونَ﴾: أي: يأتي هذا الفعل بمعنيين:

المعنى الأول: يقال فيه: خَرَصَ يَخْرُصُ، أي: كَذَبَ.

والمعنى الثاني: يقال فيه: خَرَصَ فُلانٌ الشيءَ، أي: حزَرَهُ وقدّره بالظنّ.

وباستطاعتنا فَهْمُ ما جاء في هذه الآية على المعنَيَيْن، ولكن على التوزيع بين قائلي هذا القول الباطل، فقسم منهم يقولُهُ كاذباً وهو يعلم أنّه كاذب، ولكن يقوله جَدَلاً. وقسم آخر منهم يقولُهُ على سبيل الحزْر والتخمين والحكم بالظَّنّ الضعيف، وهذا القسم مسؤولٌ عقلاً وديناً عن الحكم بقضيَّة ليس له فيها عِلْم، ولا سيما أنَّ برهان العقل يثبت بطلان مقولتهم.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾: قَصَدَ المجادلون من المشركين بمقولتهم هذه، أنَّ عبادَتَهُمْ لآلِهَتِهِمْ من دُونِ الله، قد تَمَّتْ بمَشِيئَةِ الله الْجَبْرِيَّة، فَهُمْ يُلْقُونَ مسْؤُوليَّة عبادتِهِم لآلِهَتِهِم على اللَّهِ عزّ وجلّ، الذي جعلَهُمْ مجبورين على ما يقومون به من أعمال شركيَّة.

وليس قَصْدُهُمْ أنَّ الله لو شاء لسَلَبَهُم اختيارهم، فمنعهم بالجبْرِ عن عبادتهم لآلهتهم، لأنّ هذا المعنى صحيح وتُحْمَلُ عليه نصوصٌ قرآنية كثيرة مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿...وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾:

أي: ولو شاء الله لسَلَبَ النَّاسَ مَا وهبهم من إرادةٍ حُرَّة، ولجعَلَهُمْ مجبورين غير مختارين، وعندئذٍ يكونون مجبورين على الهداية كالملائكة، ومجتمعين على الْهُدَى، لأنَّ اللَّهَ لاَ يُجبِرُ على الضلالة.

وجاء الرّدُّ القرآنيّ على مقولة المشركين: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ﴾ بقول الله عزّ وجلّ: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾: أيْ: لَيْسَ لهم بمقولتهم الّتي قالُوها قاصِدِينَ أنَّ اللَّهَ قَدْ جعلهم مجبورين بالتكْوِين الجبريّ على عبادة آلِهَتِهم الّتي يَعْبُدونها، أيُّ عِلْم يسْتَنِدُونَ إليه، مهما كانت وسائل هذا العلم، والمراد بالْعِلْم هُنَا ما كانتْ وسائِلُه حُججاً عقليَّة فكريَّة.

وإذْ لا عِلْمَ لهم بذَلِكَ الباطل الذي قالوه، فإنَّهُمْ لم يَبْقَ لهم إلاَّ احتمالان:

الاحتمال الأوّل: أنَّهُمْ يكذبون متعمّدِين الكذب.

الاحتمال الثاني: أنّهم يظُنُّون ظنّاً توهُّمِيّاً ضَعِيفاً لا قيمة له في اكتساب معرفةٍ صحيحة، فظنُّهُمْ حَزْرٌ وتخمين.

دلّ عليهما قوله تَعالَىٰ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

● ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾

بقي احتمال أن يكون للمشركين في مزاعمهم الشركيَّة، وأقوالهم الباطلة، مُسْتَمْسَكٌ يَسْتَمْسِكُونَ بِه من كِتَابٍ رَبَّانِيٍّ، وقد جاءت هٰذِهِ الآيَةُ تَطْرَحُ عليهم دون مُواجهتهم بالخطاب سؤالاً يتضَمَّنُ ما يلي:

بل هل آتاهم ربُّهم كتاباً من قَبْلِ القرآنِ يشْتَمِلُ على ما يَدُلُّ على مزاعمهم الشّركيّة، وأقوالهم الباطلة، فَهُمْ بمَا فَهِمُوا من هذا الكتاب الرَّبَّانيّ مُسْتَمْسِكُونَ؟!!

والجوابُ الذي يَدُلُّ عليه بُرْهانُ الواقع: هو أنَّهم ليْسَ لديْهم أيُّ كتابٍ رَبَّانِيٍّ من قبل القرآن يستَمْسِكُونَ بِهِ، وفيه ما يزعُمون.

فَسَقَطَتْ كُلُّ الاحتمالات الّتِي يُمْكِنُ تَصَوُّرُها ذِهْناً، والّتِي يُمْكِن أن يتذَرَّعَ بها المتذرّعون.

مستمسكون: أي ممسكون بقوة وشدّة، الإمساك: القبض باليد، ويأتي كناية عن الاعتقاد والعمل.

إذَنْ: فما هي ذَريعَتُهُم التي جعَلَتْهُمْ يُصِرُّونَ على ما هم فيه من شرك وأقوال باطلة؟!!.

لقد أجابت الآيَةُ التاليَةُ على هٰذا السُّؤالِ:

- ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

أُمَّة: المرادُ بهذا اللَّفظِ هُنَا الطريقةُ والمِلَّة.

أي: ليس لهم أيُّ حُجَّةٍ يَحْتَجُّونَ بِهَا إلاَّ تقْلِيدُهم لآبَائِهِمْ، وهو في الحقيقة تقليدٌ أعْمَىٰ. لكنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أنَّهم بالسير على آثار آبائهم مُهْتَدُون، وهم في الحقيقة ضالُّون.

المعالجة السادسة:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) قوله حكايةً لاستمرار المشركين على ما كانُوا عليه:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾: أي: ما زال المشركون حتَّىٰ قُرابَةِ أواخر العهد

المكيّ مُصِرِّينَ علىٰ زعْم أنَّ الملائكة بناتُ الله، دَلَّ على هذا استعمال الفعل المضارع ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ الدّالِ على التجدُّدِ والتكرار.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: أي: تَنَزَّه الله وتعالَىٰ عمّا يقولون.

﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾: أي: ويجعَلُونَ لِأنفسهم الذكور، فيتفاخرون بأولادهم من الذكور، استجابة لما يشْتَهُون، من أن يكون لهم من أولادهم أنصارٌ وأعوان ذوو قُوَّةٍ وَبأْسٍ، وقدرة على أعمال الكسب والحرب.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾: أي: وإذا أُخْبِرَ أحَدُهم بالمولودة له الأُنْثَىٰ، أي الّتي كان يتخوَّفُ أن تُولَدَ له، فَهِيَ ماثلَةٌ في تصَوُّرِه حذراً وكراهية، ولهذا جاء تعريف اللفظ بـ«ال».

﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾: أي: بقي طَوال يَوْمِه مُكْفَهِرَّ الْوَجهِ، تدور فيه غشاوة ذاتُ سواد من غيظه، أو يَشْعُر أنَّ قومه يَرَوْنَ وجْهَهُ أسْود، إذْ وُلِدَتْ له مولودةٌ أنْثَىٰ.

﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾: أي: وهو مُمْسِكٌ على ما امتلأَتْ به نفسُه من غيظٍ أو غضب.

﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾: أي: يستَتِر من قومِه فلاَ يَظْهرُ لهم من قُبحْ مَا بُشِّرَ به، إذْ بُشِّرَ بمولودة أنْثَىٰ.

﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾: أي: يُحَدِّثُ نَفْسَهُ مُتَسَائِلاً: ماذا يَفْعلُ بهذا المكروه الحيِّ الذي بُشّرَ به؟.

إنّهما أمران أحلاهما مُرٌّ:

الأمر الأول: أن يُمْسِكَهُ وَيُضِيفه إلى مواليده صابراً علىٰ الذُّلِّ الذي نزل به.

الْهُونُ: الذُّلّ.

الأمر الثاني: أن يتخلَّصَ مِنه بالوَأْدِ، بأنْ يَدُسَّهُ، حيًا في التُّراب.

وقد كانت هذه الشنيعة من أعمال الجاهلية عند بعض العرب.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾: «ألاَ»: أَداة استفتاح وتنبيه بقوّة، وفيها معنى تأكيد لزُوم استماع الكلام الآتي بعدها. «سَاءَ» فعل ذَمٍّ وتقبيح.

«مَا يَحْكُمُون» أي: قَبُحَ قبحاً شنيعاً ما يحكمون من أحكام باطلةٍ فاسدة، جَرَّتْهُمْ إلى كراهية المواليد من الإناث، وأحكامٍ باطلةٍ جعلَتْهُمْ ينْسُبُون إلى الله البنات بالولادة أو بالتبنّي ممّا خلق.

فأضاف هذا النصّ قبيحة وأْدِهم للبنات وهم يجعلون لله البنات.

المعالجة السابعة:

ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) قوله يصف الملائكة ويبيّن أنّهم عبادٌ مُكْرَمُون يخافون ربهم ويفعلون ما يأمرهم به، فهم بأمْرِه يعملون:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

- ﴿وَلَدًا﴾: الْوَلَد، والْوُلْدُ: كُلُّ مَا يُولَدُ، يطْلَقُ على الذكر والأنثىٰ، الواحد، والمثنىٰ، والجمع، ويُجْمَعُ على أوْلادٍ وَوِلْدة.

- ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾: أي: وقال المشركون اتَّخذ اللَّهُ الملائكةَ أولاداً له، وقد جاء في العبارة اسم الله الرحمن، ولو كان المشركون لا يُؤْمِنُونَ بهذا الاسم، لأنَّ اللَّهُ هو في الحقيقة الرَّحْمٰن شاء المشركون أم أبَوْا.

- ﴿سُبْحَانَهُ﴾: أي تنزّه جلّ جلاله عن الولد.

● ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾: أي: بل الملائكة عبادٌ من العباد المملوكين لله، وهم مُكْرَمُونَ، أي: ذَوُو منزِلَةٍ عاليَةٍ عنْدَ رَبّهم.

● ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾: أي: لا يقول الملائكَةُ قَوْلاً لم يأمُرْهم الله بقَوْله، أو لم يأذَنْ لهم بقولِهِ، فهم في أقوالهم مطيعون لربّهم طاعَةً تَامَّةً كامِلةً، جاء في هذه العبارة التعبير عن الطاعة التامَّة بَعَدم السَّبق، وهو كناية عن كمال المتَابَعِة، لأنّ السابق يتقدم فينفرد بنفسه في اختيار طريقه.

● ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾: أي: والملائكة بأمْرِ الله وحْدَهُ يَعْملُونَ، فلا يعملون بأمر غيره، دلَّ على القصر تقديم المعمول وهو «بأمره» على عامله، وهو «يَعْمَلُونَ» وهذا التقديم يُفِيد القصر.

فدَلَّ هَذَا النصّ على أنَّ تصرفات الملائكة القوليّة والعمليّة خاضعة خضوعاً تامًّا بعبوديَّةٍ كاملةٍ لله جلّ جلاله، إذْ خلَقَهم الله جُنُودَ طاعة، ولم يخلُقْهم ليختبر إرادَاتهم الحرَّةَ فيما آتاهم، كما خلَق الإنْسَ والجنّ.

● ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: أي يعْلَمْ ما بين أيديهم، وهو كُلُّ ما سبَقَ في الماضي، ويعْلَمُ مَا خَلْفَهُمْ، وهو كُلُّ مَا سَيأْتي في المستقبل. ويعلم أيضاً كُلَّ ما في أمكنة الوجود أَمَامَهم، وكُلَّ مَا في أمكنة الوجود خلفهم، لا تخفَىٰ عليه خافية.

وهذا يدُلُّ على أنه لا يستطيع أحَدٌ من الملائكة أَنْ يقول قَوْلاً أو يَعْمَلَ عَمَلاً إلاَّ بأَمْرِ اللَّهِ أو بإذْنه، لأنَّهُمْ جُنُودٌ مفطورون علَىٰ الطاعة، وأقوالهم وأعمالهم أثرٌ لأقوال الله وأعماله، بخلاف أقوال الإنس والجنّ وأعمالهما، إذِ الإنْسُ والجنُّ قَدْ وُضِعوا موضع الامتحان، ليحاسَبُوا ويجازَوْا على أعْمالهم وأقوالهم، فكان من لازم ذلك أن يُمَكَّنُوا من طاعةِ اللَّهِ وَمِنْ معصيته.

● ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾: دلَّت هذه العبارة على أنَّ للملائكة شفاعة، ولكنّهم لا يشفَعُونَ إلاّ بإذْنِ الله، ولِمَنِ ارتضَىٰ أن يشْفَعُوا له، وفي حدود ما يُرْضِيه مِنْ قَوْلٍ في شفاعَتِهِمْ.

وشفاعة العباد بعضِهم لبعضٍ عند ربّهم، هي دُعَاءٌ يسألُون الله به شيئاً يَنْفَعُ مَنْ يشفَعُونَ له عنده، كَمَغْفِرَةٍ، وعَفْوٍ ورفْعِ درجةٍ.

● ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾: أي: والملائكة هم من الخوف من عقوبة الله خائفون.

يقال لغة: خَشِيَ، أي: خاف. ويقال: أَشْفَق، أي: خاف.

ولكنّ الخشية من الله فيها معنى الخوف الممزوج بالإجلال والإعظام والحبّ، وليست مجرَّد خوف.

● ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾:

أي: ومَنْ يَقُلْ من الملائكة إنّي إلَه مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإنَّهُ يُطْرَدُ من صفوف الملائكة، ويُبْعَدُ عَنْ دَائَرة رَحمة الله، وذلك المطرود يجزيه الله عَذَابَ جهنم.

هذا قانون الجزاء بشكل عامٍّ، وإنْ كان الملائكة معصومين عن معصية الله عزّ وجلّ بالفطرة، فلَنْ يقول أحَدٌ منهم: إنّي إلَهٌ من دون الله، ولكنّ قانون الجزاء الرَّبّاني يُعْلَنُ على الجميع، ولا يُعْفَىٰ منه أحَدٌ.

وهذا نظير الوعيد الذي وُجِّه للرُّسُل بشدّة إذا أشركوا أوتَقَوَّلُوا على الله، مع أَنَّهم معصومون بعصمة الله لهم، وفي بيان هذا تحذيرٌ شديدٌ لغير المعصومين الذين ليس لهم خصوصيّاتُ قُرْبٍ من الله.

﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: كذلِك الجزاء بعذابِ جهنم نَجْزِي كُلَّ الظَّالِمِينَ الَّذِين يَظْلِمُونَ بادّعاء الإلَهيَّة لأنفسهم، أو لغيرهم من دون اللَّهِ عزّ وجلّ.

المعالجة الثامنة:

ثمَّ أنزل اللَّهُ عزَّ وجلَّ في أواخر العهد المكيّ قوله في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/٧٦ نزول) وهذا آخر ما أنزل من قرآن حول هذا الموضوع:

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾؟!

وقد ختم اللَّهُ عزّ وجلّ بهذا عِقْدَ الموضوع مصوغاً بأُسْلُوبٍ يُشْبِهُ النَّصّ الذي بدأَهُ بِهِ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) وهو قول الله فيها: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾؟!

وبهذا ارتبط طرفا عقد الموضوع بقُفْلهما ارتباطاً فنّيّاً جميلاً، ونُظِمَتْ حبّاتُ عقد الموضوع على سمطها في مراحل التنزيل نَظْماً تكاملياً بديعاً، يدركه المتدبّر المتفكر في عناصر المعالجة الفكرية والإقناعية، والنفسية القائمة على الموعظة بالترغيب والترهيب.

خلاصة العناصر التربوية التي اشتملت عليها هذه النصوص

بعد تدبُّر هذه النصوص الّتي اشتملت على معالجة المشركين حول عقيدتهم في الملائكة، يحسنُ أن نُقَدّم خلاصَةً عن العناصر التربويَّة التي تُسْتَفاد منها:

العنصر الأول: الاستفهام الإنكاري الذي يتضمّن التقريع والتوبيخ للمشركين، إذ يستمسكون بمعتقداتٍ فاسدات لا يملكون لإثباتها أيّ دليلٍ فكريٍّ، أو حِسّيٍّ، أو خَبَرِيٍّ عَنِ الرَّبّ الخالق، بل الأدلّة العقليّة والخبريَّة الصحيحة الصادقة تُثْبِت نقيض هٰذِهِ المعتقدات.

العنصر الثاني: بيان الحقيقة والواقع، بآياتٍ منزّلات من لَدُنْ من هو خالِقُ كلّ شيء ومالِكُهُ، والعليمُ بكلّ شيءٍ، فهو وحده الّذِي يجب على الناس عقلاً أن يعتمدوا على خبره في الكائنات الغيبية، التي لا يملكون وسيلة عقليّة، ولاَ وَسيلةً حِسِّيَّةً يتعرّفون بها على حقيقتها.

العنصر الثالث: بيان بطلان قياسهم اللَّهَ الرَّبَّ الخالق الأزليّ الواحد الأحد، على أنفسهم في أن يكون له وَلَدٌ سبحانه، وأشدّ من ذلك سقوطاً وبطلاناً ومفارقة عجيبة، أن يجعلوا مواليد الله عزّ وجلّ من صنف الإناث، مع أنّهم يحبُّون لأنفسهم الأولاد الذكور، ويكرهون البنات، حتى إنّ أحدهم كان إذا بُشّر بالمولودة الأنثى ظلّ وَجْهُه مُسْوَدّاً وهو كظِيمٌ يحبسُ في نفسه غيظه وغضبه، ويتوارىٰ من قومه من سوء ما بُشِّرَ به، وحتّىٰ كان بعضهم يَئِد بنته في التراب تخلُّصاً من عارها أو من نفقتها.

العنصر الرابع: إقامة الدليل على أنّ الله عزّ وجلّ لا يمكن عقلاً أن ينفَصِل منْهُ جزءٌ وَأن يَكُونَ له ولَدٌ، لأنَّ ذَلِكَ يتنافَىٰ مع أزليّته، ووحدانيته الّتي قام عليها برهان العقل، وشواهد وحدة نظام الكون.

العنصر الخامس: بيان أنّ ادّعاء المشركين أنّ الله عزّ وجلّ قَدْ ولَدَ أولاداً انفصلُوا من ذاته إفْكٌ وكذبٌ على الله، افْتَرَوْهُ من عند أنفسهم، وقد تعالى الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً.

العنصر السادس: بيان أنّ من زعموهم ملائكة إنما هم في الحقيقة جنٌّ عبَدُوهُمْ من دون الله، ويشهد بذلك الملائكة أنْفُسُهم يوم الحساب وفصل القضاء وتحقيق الجزاء.

وقد دلَّت نُصُوصٌ موزّعَةٌ في القرآن حول الجنّ أنَّ الكَفَرَة منهم يتّصِلُونَ بإخوانهم من الإنس، فيوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً.

ومن الربط بين النصوص نفهم أن من هؤلاء الكَفرة من الجنّ من يزعمون لقرنائهم من الإنس، أنهم ملائكة، وليْسُوا بِجِنّ، ليُلَبِّسُوا عليهم، وليرفَعُوا مكانة أنفسهم لديهم.

العنصر السابع: قد يدَّعي بعض المشركين أنّ الله عزّ وجلّ قَدْ خلَقَ الملائكة إناثاً، ثمّ تَبَنَّاهُنَّ، فهُنَّ بناتُ اللَّهِ بالتبنّي.

وَهُنَا يُبَيّن الله عزّ وجلّ كذبهم في هذا الادّعاء، ولمَّا كان هذا الأمْرُ لا يَثْبُتُ إلاَّ بالمشاهدة، أو عن طريق الخبر عن الله، فالله عزّ وجلّ يطالبُهم بإثبات مشاهدتهم إن زَعَمُوا المشاهدة، وبتقديم سلطانهم الخبريّ عن الله إنْ زَعَمُوا أنَّ لَهُمْ دليلاً خبرياً عن اللّهِ يُثْبِتُ ذلِكَ.

العنصر الثامن: تكذيبهُمْ في ادّعائهم أنَّ اللّهَ قَدْ قَدَّرَ عليهم قَدَراً جَبْرِيّاً أن يَعْبُدوا الملائكة. وأبَان الله عزَّ وجلَّ أنَّهم يُخْرُصُونَ، وأنَّهُمْ ليس لهم بذلك علْم ما.

(١٣)
الملحق الثالث
سياسة الداعي في أحوال المدعوّ الذي لم يستجب

الأصل في الداعي إلى الله أن يبلّغ دين الله، ويصْدَعَ بهِ النفوس مجاهراً بما أمَرَهُ الله بتبليغه، ويُنْذِرَ من لم يستجب، ويخوّفَه من عذاب الله، ويُتَابعَ دعوةَ من يَدْعوهم بالحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالّتي هي أحسن، ويراجعهم بالبيان والإقناع بالحجة والبرهان، والتذكير بما سبَقَ به البيان، مع الترغيب والترهيب، واتخاذ مختلِف وسائل الإيناس والتودّد، دون يأس ولاَ سَأَم، مهما بقي لدى الداعي أمَلٌ بنَفْع الذّكْرى.

هذا ما اقتضاه قول الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾.

ومعلومٌ أنّ الإنذار لا بُدّ أن يسبقه التبليغُ، والدَّعْوة الرّصينة الرَّشيدةُ بالحكمة، والموْعِظَة الحسَنَة، والجدالِ بالّتي هي أحسن، إذا اقتضى الإقناع ذلك، وقد ذُكِرَ الإنْذارُ باعتباره آخِرَ المراحل، ليَدُلَّ باللُّزُوم الذهنيّ على ما يَنْبَغي أن يَسبقه، وقد يُلَوِّحُ بالإنْذَار مع أوائِلِ مراحل التَّبليغ للتنبيه بقوَّة،

ولَفْت الأنظار، واستثارة مشاعر الخوف التي تفتح البصائر للإدراك السليم.

لكن إذا انقطع الرجاء باستجابة الشخص المدعوّ، أو الجماعة الخاصة المدعوّة، وانقطع الأمل بنفع التذكير، وظهر الإصرار العناديُّ على الرفض، فمن الخير للداعي أن يوفّر وقته وجهده، لينفقهما في آخرين لم تُثْبِت المعالجة أنَّهُمْ ميْؤوسٌ منهم.

دَرَكَاتُ عدم الاستجابة

أمّا دركاتُ عدم الاستجابة الّتي دلّ عليها القرآن المجيد فهي ستّ دركات:

الدركة الأولى: لَيُّ الرَّأْسِ، وهي حركة دون حركة الإعراض، وقد تكُونُ مقدّمةً لها، دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ بشأن طائفة من المنافقين، في سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول):

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾.

الدَّرَكَةُ الثانية: الإعراض، وهو إعطاء الجانب، فهو منْزِلَةٌ وُسْطَىٰ بين الإقبال والإدْبار.

وعُرْضُ الشيء في اللّغة جانبه، وعارضا الإنسان صَفْحتا خَدَّيْه.

وممَّا دلَّ على دَرَكة الإعراض في القرآن قول الله عزَّ وجلّ في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ۝٢٢﴾.

الدركة الثالثة: النأيُ بالجانب مع الإعراض، فَهُما حركتان، أولاَهما إعطاء الجانب وصَرْفُ الوجه عن المواجهة، وثانيتهما الابتعاد عن مجلس الداعي مع الإعراض.

وقد دلَّ على هذه الدركة قول الله عزّ وجلّ في سورة (فصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾.

الدركة الرَّابعة: الإدْبار، ويكون بإدارة الظهر إلى الداعي وإعطائه الدُّبُر، وَهو أشدّ من النأي بالجانب مع الإعراض.

دلّ على هذه الدّركة قول الله عزّ وجلّ في سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) في الآيات التي وصفت الوليد بن المغيرة:

﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾

الدركة الخامسة: النَّأْيُ مَعَ الإدْبار، فهما حركتان أُولاَهما إدارة الظهر وإعطاء الدبر، وثانِيَتُهما الابتعداد بالجسم كُلّه عن مَجْلِس الداعي مع الإدْبار.

وقد جاء التعبير عن هذه الدركة بالجمع بين الإدْبار والتولّي.

التولّي في اللّغة: يأتي بمعنى الابتعاد والنأي، ويأتي بمعنى الإدبار، فإذا اجتمع اللفظان في عبارة واحدة، كان التولّي بمعنى النأي والابتعاد. وكذلك إذا اجتمع التولّي والإعراض في عبارة واحدة، وقد يأتي التولي بمعنى الابتعاد مع الإدْبار.

وقد دلَّ على هذه الدركة ما جاء في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) حكاية لمقالة مُؤمن آل فرعون لفرعون ومَلَئِه:

﴿وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

وقد دَلَّ عليها فِعْلُ: «وَلّىٰ» وفِعْلُ «تولّى» دون اقترانٍ بما يدلُّ على الإدبار، نُصُوصٌ قرآنية كثيرة، ومنها قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾: أي: وَمَنْ أدْبَرَ وابْتَعدَ عن طاعة الرسول ﷺ.

وهذه الدّركة قد يُطْلَقُ علَيْها في القرآن الهجر، ومنه ما جاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾

أي: أدْبَروا عنه وابْتعدوا ابتعاداً كلّيّاً.

الدركة السادسة: العِدَاء والتصدّي للمقاومة والحرْب، وقد دلَّ على هذه الدركة نصوص كثيرة، منها قول الله عزّ وجلّ في سورة (ص/٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾

الشقاق: العداوة والخِلاَف.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

التوجيهات القرآنية بشأن سياسة الداعي

وقد جاءت التوجيهات القرآنيّة للدّاعي، بالنسبة إلى أحوال المدعوّ الذي لم يستجب للدعوة في نصوص متعدّدة مع مراحل الدعوة.

التوجيه الأول:

ما جاء في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾. أي: فـذكّـرْ أيُّـها الدّاعي المذكّر بمَا سبقَ أنْ بلّغْتَهُ عن ربّك، ودعَوْت إليه، وبَيَّنتَهُ بأدلّتِه وبراهينه، وبما سبقَ أنِ استَثَرْت به مِحْوَرَي الخوف والطمع بالترغيب والترهيب، ما بَقِي لديْكَ أملٌ باستجابة من تُذَكّرُهُ، وإنْ كان أملاً ضعيفاً مشكوكاً بتحقُّقِهِ، أخذاً من حرف «إنْ» في قوله تعالى: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أو نقول: إنْ نَفَعَتِ الذكْرَى السابقة أقلّ نفع، وأثَّرت أدنىٰ أثر.

الذِّكْرَىٰ: اسم للتذكير.

وجاء في هذا التوجيه بيان أنَّ الذِّكْرَىٰ ستَنْفَعُ من يكُون في نفسه خوفٌ وخَشْيَة، فإذا استشعر الداعي ذلك فليتّخِذ إلى نفس من يدعوه أو يُذَكِّره مثيراً يسْتثير به كوامِنَ الخشية لديه إن بقيت لديه منها بقيّة.

التوجيه الثاني:

ثـم أنـزل الله عزّ وجلّ قـولـه في سـورة (الـنـجـم/٥٣ مـصـحـف/٢٣ نزول):

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾

أي: فاكتفِ بالنسبة إلى هذا المتولّي المدْبر بِمَنْزلَةِ الإعراض فقط، وهو الحالة الوسطىٰ بين المواجهة والإدْبار، بشَرْط أن يكون قَدْ ثبت لكَ بالمعالجة المتكرّرة أنَّهُ لم يُرِدْ إلاَّ الحياة الدنيا.

التوجيه الثالث:

ثـم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (ق/٥٠ مصحف/٣٤ نزول) قوله لرسوله ﷺ، ثم لكل داع إلى الله من أمّته من بعده:

﴿...وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي: فـتـابـعْ تَذْكِيرَكَ بالقرآن من تتفرّسُ فيه أنه يخاف وعيد الله بعذابه العاجل أو الآجل.

ويُفْهَمُ من هذا أنّ من تَتيقَّنُ أنّه لا يخاف وعيد الله فإنّ التّذْكير لا ينْفَعُ فيه.

التوجيه الرابع:

ثمَّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) قوله بشأن إصرار من أصَرَّ على التكذيب واتّباع الهوى من مشركي قريش:

﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ...﴾

فوجّه الله عزّ وجلّ في هذا النَّصّ رَسُولَهُ وكلَّ دَاعٍ إلى الله من أمَّته للأخذ بسياسة التَّولّي عن الْمُصِرّين المعاندين، الّذين بلَغ من عنادهم أن يُعْرِضوا عن كُلّ آيَةٍ رَبَّانيَّةٍ يَرَوْنها، قائلين بشأنِها سِحْرٌ مُسْتمر، ومُكَذِّبين رسولَ رَبِّهم، ومُتَّبِعين أهواءهم.

التوجيه الخامس:

ثمَّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) على رسوله بشأن المصرّين على عدم الاستجابة لدعوته، من مشركي قريشٍ الّذين لَمْ يَبْلُغوا مبْلَغَ دركة الْهَجْر والعداء والصّدّ عن سبيل الله:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠﴾.

فوجَّه الله رسوله وكلّ داعٍ إلى الله من أمته للأخذ بسياسة الْعَفْو والأمْرِ بتقديم المساعدات لذوي الحاجات استعطافاً لقلوبهم، والإعراض عن الجاهلين، وعدم الاندفاع لمقابلة السيِّئة بمثلها، استجابَةً لنزْغ الشيطان، معَ الاعتصام بالاستعاذة بالله.

واقتصر هذا النّص على التوجيه للأعراض. لأن المدعوّين المشار إليهم في النَّصّ لم يَبْلُغوا مبلغ الْهَجْرِ والعداء.

التوجيه السادس:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) قوله:

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

فوجّه الله في هذه الآية إلى اتّخاذ سِيَاسَةِ أمْرِ الدَّاعي المدعُوِّين بأنْ يَنْظُرُوا بأنْفُسِهِمْ إلَىٰ ما في السَّمَاواتِ والأَرْضِ مِنْ أياتٍ دالأَّتٍ على أن الله عزّ وجلّ واحدٌ في رُبُوبيّته، وواحِدٌ في إلَهيَّتِه. وعلى ما في الْأَرْضِ مِنْ آثار الْمُهْلَكِين الأوَّلِين الَّذين كذّبُوا رُسُل ربِهم، دون أن يَتَّخذ مَعَهُمْ سياسة التذكير والبيان.

ولا بُدَّ أن يكون هذا الفريق من الذين رفَضُوا الاستجابة للدَّعوة، بعْدَ أنْ توارَدَتْ عليهم الآيات المتتابعاتُ المتلاحقات، ثُمَّ لم تُؤثّرْ فيهم أثراً إيمانيًا، وبذلك تكون التجربة قَدْ أثبتَتْ أنَّهم لا تَنْفَعُ فيهم الآيَاتُ المقنعات، ولاَ النُّذُرُ المرهبة. وهذه أمارة تَصْلُح لأَنْ يُعامَلُوا مَعَها بالإعْرَاض.

﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾: أي: ومَا تَكْفِي الآيَاتُ والنُّذُرُ صارفَةً عَقَبَاتِ العِناد والإصرار على الكفر عن نُفُوسِ قَوْمٍ لَيْسَ لَدَيْهِمُ الاستعدادُ لِأَنْ يُؤْمِنُوا، ولا الرغبَةُ في معرفة الحقّ واتّباعه، والتَّخلّي عن أهواء نفوسهم وشهواتها.

التوجيه السابع:

ثم أنزل الله عزّ وجل في سورة (الحِجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) قوله لرسوله ﷺ:

﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

الصَّدْع: الشّق. والمرادُ الجهر بشدّة في تبليغ دين الله، لشقّ جدار مشركي مكة إلى غيرهم، مع الإعراض عنهم.

ولم يأمر الله رسوله في هذه المرحلة بأن يتَولّىٰ عن المشركين تولّياً كُلّيًا، لأنّ حالة بعضهم لم تَصِلْ إلى مستوىٰ اليأس الكامل من استجابتهم.

أمّا المستهزئون منهم فقد اتَّخَذَ الله أسباباً أهلكهم بها، وقد جاء بيانهم في كتب السّيرة، وقال لرسوله في هذا النصّ بشأنهم: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ وهم خمسة من رؤوساء أهل مكة: «الوليد بن المغيرة ـ العاص بن وائل ـ الأسود بن المطّلب بن الحارث بن زمعة ـ الأسود بن عبد يغوث ـ الحارث بْنُ الطُّلاَطِلَة».

التوجيه الثامن

ثم أنزل الله عزّ وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) قوله لرسوله ﷺ:

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾.

أي. وأَنْذِرْ بالقرآن الَّذِين تتفرَّسُ فيهم أنَّهُمْ يخافون أن يُحْشَرُوا إلى رَبّهم للحساب وفَصْل القضاء وتنفيذ الجزاء، ويخافون أن لا يكون لهم من دون اللّهِ وَلِيُّ، ولاَ شفِيعٌ يشفع لهم عند ربّهم.

ويُفْهَمُ منهذا أن الّذين لا يخافون هذا الحشر فإنْذارُهم بالقرآنِ لا يُؤثِّر فيهم.

التوجيه التاسع

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (الصَّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) قوله لرسوله بشَأْن الَّذِين أصرُّوا على الكفر والعناد ومشاقّة الله ورسوله:

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿١٧٤﴾ وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿١٧٨﴾ وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

فوجّه الله رسوله في هذا النَّص لأن يتولَّىٰ عن المشركين الذين أصرُّوا على كفرهم وعنادهم، ووقوفهم موقف الشقاق من الرسول ودعوته، وموقف التّصَدِّي للمقاومة والحرب.

وهذا التوجيه مقدَّمة لمرحلة قتالٍ قادمة، ولهذا قال الله لرسوله: ﴿وَأَبۡصِرۡهُمۡ﴾: أي: وكُنْ شَدِيدَ الحذر من تدبيراتهم ومكايدهم، مُراقباً تَحرُّكاتهم ببصَرٍ مُتابعٍ شديد.

التوجيه العاشر:

ثُمَّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (الذَّارِيَات/٥١ مصحف/٦٧ نزول) قوله لرسوله:

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: فتَوَلَّ مُدِيراً ظَهْرَكَ للمعاندين المصرّين على كُفرِهم، على الرُّغْم من وُضوح الحقّ الرَّبَانيّ لهم بأدلّته وبراهينه، فإذا تولَّيْت عَنْهُمْ فما أَنْت بِمَلُومٍ على تَوَلِّيك عَنهُمْ، وعَدَم اهتمامِكَ بِتَذْكيرهم، وعَدم مُتابَعتِكَ لمعالجتهم.

ولكن لا تَتْرُكْ تَذكيركَ لِمَنْ تَأْنَسُ منهم الاستعداد لأَنْ يؤمِنُوا مسْقبلاً، ولو باحتمالٍ ضعيف، فإنَّ الذِّكرَىٰ تَنفَعُ من لديهم في نفوسهم الاستعدادُ لأَنْ يؤمِنُوا مستقبلاً.

﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾: لفظ «المؤمنين» اسم فاعل بقُوَّةِ الْفِعْل المضارع، فهو يصْلُح للحال والاستقبال كالفعل المضارع،

والقرائن في هذه الآية تدلُّ على أنَّ المراد الذين لديهم الاستعداد لأن يؤمنوا مستقبلاً، إذ الحديث يتعلق بتذكير الذين لَمْ يستجيبوا بَعْدُ للدَّعْوَة إلى الإيمان.

التوجيه الحادي عشر:

ثُمَّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) قوله لرسوله فلكُلِّ داعٍ إلى الله من أمَّته:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

ففي هذا النَّصّ توجيهٌ لدَعْوَةِ آخَرِين لم يَصِلُوا بَعْد إِلَىٰ دَرَكة الرَّفْضِ والإعراض، ولم يَصِلُوا حتماً إلى دركة التولّي والشقاق والعداء والاستعداد للمقاومة والحرب.

وما جاء في هذه الآية هو الأسلوب الذي يَجِبُ اتخاذُه بالنسبة إلى كلّ مدْعُوِّين أبكار، لم يَبْلُغوا دَرَكَةَ الإعراض وعدم الاستجابة، سواء أكانوا أفراداً أم جماعات، وكذلك كلُّ فرد أو جماعة لم تُظْهِرِ التجربة المتكرِّرَة عَدَم استجابتهم.

التوجيه الثاني عشر:

ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول) قوله لرسوله:

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

جاء هذا التوجيه في مقابلة الّذين أعرضوا عن آيات الله، ثم تولّوا وأصرُّوا على كفرهم وعنادهم، على الرغم من طول معالجتهم بالإقناع والترغيب والترهيب.

ولم يأمرُ الله رسوله بأن يَتَولّى عنهم، لأنّهم لم يقفوا منه ومن دعوته موقف العداء والشقاق والاستعداد للمحاربة والمقاومة.

التوجيه الثالث عشر:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) قولَهُ لرسوله:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾: أي: إنَّما يَنْفَعُ إنْذارُكَ بِالسَّاعَةِ وَيَوْمِ القيامة مَنْ يَخْشَى السَّاعة ويخَافُ عَذَابَ الله يوم الدين.

التوجيه الرابع عشر:

ثُمَّ أنْزَلَ اللّٰهُ في العهد المدني آيات الإذن بقتالِ أعداء الإسلام، فآيات الحضّ عليه، بعد أن قال لرسوله في أوائل سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

والمراد بالذين كفروا هم عُتَاةُ مشركي مكة الّذين قاوموا دعوة الرسول واستعدوا لمحاربته.



سورة عبس

٨٠ مصحف ٢٤ نزول

وهي مكية كلها



(١)

نص سورة عبس وما فيها من فرشيات القراءات

سورة عبس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾

---

٤ - قرأ عاصم [فَتَنفَعَهُ] بالنصب.

● وقرأ باقي القراء العشرة: [فَتَنفَعُهُ] بالرفع.

٦ - قرأ نافع وابنُ كثير وَأبو جعفر: [تَصَّدَّىٰ] بتشديد الصاد، أصلها تَتَصدَّى.

وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿تَصَدَّىٰ﴾ بصاد مفتوحة غير مشددة.

١٠ - قرأ البزي [عَنهُ تَّلَهَّىٰ] في الوصل مع المدّ المشبع.

وقرأ باقي القراء العشرة ﴿عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾.

٢٥ - قرأ عاصم وحمزة والكِسائي وخلف: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا﴾ بِفَتْحِ الهمزة.

● وقرأ رُوَيس بفتح الهمزة وصلاً وكَسْرِها ابتداءً.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: [إِنَّا صَبَبْنَا] بكسر الهمزة.

ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾».

(٢)
ممّا رُوي في سبب نزول سورة «عبس»

جاءت قصّة سبب نزول هذه السورة في عدّة روايات متفقة في أصل محتواها، ومختلفة في بعض تفصيلاتها.

والقصةُ تَدُور حول أنّ الرسول ﷺ كان في مكة يدعو إلى دين الله بعض عُظَماء قريش، ويناجيه سرّاً، لمَا في المناجاة من تأثير أوقع في نفس المدعُوّ من الجهر بالخطاب، وقد طمع الرسول ﷺ أن يستجيب من كان يناجيه.

وفي هذه الأثناء أقبل ابْنُ أُمّ مكْتُوم، وهو رجُلٌ أعْمَىٰ من المسلمين الأوائل، وهو أَحَدُ بني عامِرِ بْنِ لُؤَيّ، والمشهور أنّ اسْمَهُ «عبد الله» ويقال: اسْمُه «عَمْرو» كما ذكر ابن هشام في السّيرة وغَيْرُه. فجعل هذا الرجل الأعمىٰ يسألُ رسول الله ﷺ عن شيءٍ من أمور دينه، وقد تكون بعض آيات من القرآن يطلُبُ منه تلاوتَها عليه كما جاء في بعض الرّوايات، وجعَلَ يُلِحُّ على الرسول في السؤال غَيْرَ عالم بمَا يَشْغَلُ الرّسولَ عنه.

ووَدّ النبيُّ ﷺ لَوْ كفَّ عنه في ساعته تلك، وعبَسَ بوجهه، وأدار له ظَهْرَه ولم يُجِبْه، واستمرَّ مع من كان يناجيه من عظماء قُرَيْشٍ طمعاً في إسْلاَمه، فأنزل الله على رسوله قوله:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾

من الواضح في هذه الآيات أنّ الله عزّ وجلّ يعاتب رسوله محمّداً ﷺ من أجل ما كان منه نحو هذا الأعْمى، ويبيّن له فيها سبب هذا العتاب، ويُعَلّمه المنْهَج الأفضل والأحسن في معاملة مَنْ يَدْعوهم إلى سبيل ربّه، أو يُعلّمهم أو يُزَكّيهم.

وقد اختلفت الرّوايات في تعيين الشخص أو الأشخاص الذين كان الرّسول ﷺ يُنَاجيهم من عظماء قريش.

فالرّواية الّتي أخرجها كثير من أئمة المحدّثين عن عائشةَ أم المؤمنين رضي الله عنها، جاء فيها: وعند رسول الله ﷺ رجلٌ من عظماء قريش.

وفي رواية الطبري عنها: وعند رسول الله ﷺ من عظماء قريش.

استعراض أهَمّ الروايات

(١) أخرج الترمذيُّ وحسَّنه، وابْنُ المنذر، وابن حِبَّانَ، والحاكِمُ وصحّحه، وابْنُ مَرْدَوَيه، عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، قالت:

«أُنْزِلَتْ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ في ابْنِ أُمّ مَكْتُوم الأَعْمَىٰ، أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فجَعَلَ يقول: يا رَسُولِ الله أَرْشِدْني، وعِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ رَجُلٌ من عُظَمَاءِ قُرَيشٍ، فَجَعَلَ رسول الله ﷺ يُعْرِضُ عَنْه وَيُقبِلُ علَىٰ الآخَرِ، وَيَقُولُ: أَتَرَىٰ بِمَا أَقُولُ بَأْساً؟ فَيَقُولُ: لا. ففي هذا أُنْزِلَتْ».

وفي رواية الطبري: «من عظماء الْمُشْرِكين» بدَلَ «رجُلٌ مِنْ عظماء قُرَيش».

(٢) وأخرج عبد الرزاق، وعبْدُ بْنُ حُمَيد، وأبو يَعْلَىٰ، عن أنَسٍ رضي الله عنه قال:

«جاء ابْنُ أُمّ مَكْتُومٍ، وهُوَ (أي: الرسول ﷺ) يُكلِّمُ أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ، فأعْرَضَ عنه، فأنزل الله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾ فكان النبيُّ ﷺ بعد ذلك يُكَرِّمُهُ».

(٣) وروى الطبري بسَنَده عن ابْنِ عباس رضي الله عنهما قال:

«بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُنَاجِي: (عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَأَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، والْعَبَّاسَ بْنَ المطّلِب) وكان يتصدَّىٰ لهُمْ كثيراً، ويَحْرِصُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ رَجُلٌ أَعْمَىٰ، يُقَالُ لَهُ: (عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ) يَمْشِي وَهُوَ يُنَاجِيهِمْ، فَجَعَلَ (عَبْدُ الله) يَسْتَقْرِئُ النبيَّ ﷺ آيَةً مِنَ الْقُرْآن. وقالَ: يَا رَسُولَ الله عَلِّمْنِي ممَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَعَبَسَ في وَجْهِهِ وَتَوَلَّىٰ، وَكَرِهَ كَلامَهُ، وأَقْبَلَ عَلَىٰ الآخَرِين.

فَلَمَّا قَضَىٰ رسُول الله ﷺ، وأَخَذَ ينقَلِبُ إِلَىٰ أَهْله، أَمْسَكَ اللَّهُ بَعْضَ بَصَرِه، ثُمَّ خَفَقَ بِرأْسِهِ، ثُمَّ أَنْزَلَ الله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤﴾

فَلَمَّا نَزَلَ فِيهِ أَكْرَمَهُ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمَهُ، وَقَالَ لَهُ: مَا حَاجَتُكَ؟ هَلْ تُرِيدُ مِنْ شَيءٍ؟. وإِذَا ذَهَبَ مِنْ عِنْدِهِ قَالَ لَهُ: هَلْ لَكَ حَاجَةٌ في شَيْءٍ؟».

(٤) وجاء عند ابن هشام في سيرته[١]:

وقف «الوليد بن المغيرة» مع رسول الله ﷺ، ورسول الله يكلّمه، وقد

---

(١) انظر الجزء الأول ص(٣٦٣ ـ ٣٦٤).

طمع في إسلامه، فبينما هو في ذلك، إذْ مَرَّ به «ابْنُ أمّ مكتوم» الأعْمَىٰ، فكلَّمَ رسُولَ الله ﷺ وجَعَل يسْتَقْرِئه القرآن، فشَقَّ ذلك منه علىٰ رسول الله ﷺ، حتَّىٰ أضْجَرَه، وذلك أنَّه شغَلَه عمّا كان فيه من أمْرِ الوليد، وما طمع فيه من إسلامه، فلَمَّا أكْثَر عليه انصَرَفَ عنه عابساً وتركه، فأنزل الله تعالَىٰ:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾﴾

لمحة من أخبار عبد الله بن أُمّ مكتوم الأعْمَى

● جاء في سيرة ابن هشام بشأنه أنّ الرسول ﷺ استعمله علَىٰ المدينة في خَمْس غزوَات:

(١) حين لَحِقَ الرَّسُولُ ﷺ بالمشركين بعد غزوة أُحُدٍ إلى حَمْرَاءِ الأَسَد.

(٢) وفي غَزْوَة بني لِحْيَان.

(٣) وفي غَزْوَةِ ذي قَرَد.

(٤) وفي غزوة بني قُرَيظة.

(٥) وفي غزوة الخندق.

● وقال ابْنُ كثير في تفسيره: وكان يُؤَذّنُ مع بلال، قال سالم: وكان رجلًا ضَرِيرَ البصَرِ، فلَمْ يَكُ يُؤَذّن حتَّىٰ يقولَ له النّاس حين ينظرون إلى بُزُوغ الفجر أَذّنْ.

● وقال أنس فيما روى الطبري: فرأيْته يوم القادسيَّة عليه دِرْعٌ، ومعه رايَةٌ سوداء.

❋ ❋ ❋

(٣)
نظرة تدبرية حول حادثة سبب النزول وعتاب الله الرسول بشأنها

كُلُّ الدُّعاة إلى الله حتَّىٰ سَيِّدُنا رسول الله ﷺ يَقَعُ في تَصوُّرِهم قَبْلَ التَّعْلِيم الرَّبَّانيّ، أنّ توجيه العناية القُصْوىٰ للمسْتَغنين بأمْوالِهم أو مكاناتهم الاجتماعيّة من رافضي الدّعوة الذين لم يستجيبوا لها، يقع في المرتبة الأولى من الأولويّات في مجال دَعْوة النّاس، دون ضعفاء المستجيبين لها، الّذِين آمنوا واتّبعوا، وهم بحاجة إلى مزيد من التثبيت والتزكية بالطّهارة من أرجاس الاعتقاد والعمل، وبحاجة إلى التزكية بالنَّمَاءِ في المعرفة الدّينيَّة، والسُّلُوك الأتْقَىٰ والأبرّ والأحْسَنِ، أو بحاجة إلى تذكير نافع.

فإذا كان الدُّعَاةُ مُهْتَمِّين بالاشتغال في دعوة المستغنين بأموالهم أو بمكاناتهم الاجتماعيّة، طمعاً في هدايتهم واستجابتهم، لأنّهم إذا استجابُوا استجاب من ورائهم أتباعٌ كثيرون لهم، لَمْ يُولُوا الاهتمام المطلوب بضُعفاء أتباعِهِمْ، الَّذين يجهلون ظُرُوف الداعي الّتي يكون فيها، أَوْ لا يُقَدِّرونَها حق قَدْرِها، فيسألُونَه عَنْ مسائل تُهِمُّهُمْ من أُمُور دينهم، ويُلِحُّونَ في المسألة، فإذا وجَدُوا رَجُلَ دَعْوَتهم قد انْصَرَف عنْهُم، ولم يَهْتَمَّ لشَأْنهم، انكَسَرَتْ قُلوبُهم، وَظَنُّوا بالدَّاعي أَوْ بدعْوَتِه سُوءاً، ورُبَّما غَضِبُوا، ورُبَّما انْصَرَفُوا عَنْه وَوَلَّوْا ظُهُورهم للدّعْوة.

ولا بُدَّ أمام مِثْل هٰذا الواقع من تدارُكٍ رَبَّانِيٍّ بالتعليم والتوجيه وتَصْحِيح التَّصوُّر، وبيان لزوم العناية بالمستجيب، والاهتمام له، مهما كان من الضعفاء، أو من الذين لا يُقَدِّرون ظروف الداعي الّتي يكون فيها حقّ قَدْرِها، كأعْمَىٰ يأْتي وَليس في رأسه إلاَّ حَلُّ مشكلته، والإجابةُ على مسألَته، فإذا وَجَدَ الدَّاعِيَ مُنْصَرِفاً عَنه، ومُوَجِّهاً عِنَايَتَهُ لغيره، ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ بسبَب أنّه أعْمَىٰ، أوْ بسَبَبِ انْحِطاط مكانَتِه الاجتماعيَّة، ورُبَّما لم يَخْطُر أو

لا يَخْطُر في باله ما يكون الداعي فيه من حرْصٍ شديد على المصلَحة العامَّةِ فيما يرىٰ.

أمام مثْلِ هذا الموقف لا بُدَّ مِنْ بيانِ المنهج الأَسَدِّ والأَرْشَدِ، تعليماً لحمَلَةِ الرّسالة، دُعَاةً ومُعلّمين، وناصحين مُرْشدين، وآمِرين بالمعروف، وناهين عن المنكر.

وقد يكفي من العناية بالضعيف السَّائل بيانُ الْعُذْرِ لَه، ومطالبتُه بأن يترَيَّثَ قليلاً، معَ تطييب خاطِره، وإشعاره بأنَّه محلُّ عِنايَةٍ وَتكريم، إلاَّ أنَّ الظرف الحاضر لا يسمح بقطع عَمَلٍ سابقٍ، والاشتغال بغيْره قَبْلَ الفراغ منه، مراعاةً لوظائف الرّسالة المختلفة.

أمّا تَرْكُه، والإعْرَاضُ عَنْه، وإظهارُ كراهيَّة مسألَتِه وما كانَ منْه من مقاطعةِ لحديثٍ بَيْنه وبَيْنَ شَخْصٍ آخر، فهو أمْرٌ يكْسِرُ قَلْبَهُ لا مَحَالَةَ، ولا سيما إذا كان أَعْمَىٰ لا يَرَىٰ الظَّرْفَ المحيط بحامل الرّسالة.

وَكان هذا الحدث الذي ورد في روايات قصة سبب النزول سبباً في معاتبة الله لرسوله محمد ﷺ بقُرْآنٍ يُتْلَىٰ.

وعتابُ الله لرسوله يتضمَّن توجيهاً لما هو الأفضل والأكمل، ويَقَعُ في مرتبة البِرّ، أو في مرتَبة الإحسان، بالنسبة إلى أساليب تأدية وظائف الرّسالة الرَّبانية، إذْ لم يكن من الرّسول في هذه القِصَّة ما ينافي في مرتبة التّقوى، بل كان يقومُ بعمل عظيم من أعمال وظائِفِ رسالته، ضمن حدود ما أذن الله لَهُ به من اجتهاد، لكن اللَّهَ عزّ وجلّ أبان لرسوله، ولكلّ حاملي رسالته من أمَّته، في هذا التعليم المنهج الأفْضَل والأحسن في تأدية وظائف الرّسالة الرَّبَّانيَّة، والذي سيأتي إن شاء الله شرحُه لدى تدبُّر النصّ.

وفي شأن هذا العتاب الذي عاتب الله به رسولَهُ ﷺ، قال بعض أصحاب رسول الله:

«لو كان رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَاتِماً شَيْئاً ممَّا أنزل عليه من الْقُرآنِ، لَكَتَمَ عِتَابَ اللَّهِ له بشأن الأعْمَىٰ ابنْ أمّ مكتومٍ».

ومن الملاحظ أنَّه عِتابٌ عَلَنِيٌّ مُدَوَّنٌ في قُرْآنٍ يُتْلَىٰ، ليتعظ به حَمَلَةُ رسالة الرسول من أمَّتِه.

(٤)
موضوع السورة

تضمَّنت سورة (عَبَس) توجيه علاج تربويٍّ حول بعض عناصر المنهاج الأمثل لحامل الرّسالة الرّبّانيّة، تُجاهَ مَن اسْتَجاب للدّعوة، وتُجاه من لَمْ يستجب لها. وتوجيه علاج تربويّ فيه شدّةٌ وعُنْفٌ بإقناعٍ وتَرْهيبٍ وتَرْغيبٍ للإنسان الكافر المعاند، الذي عانَدَ وكابَر واسْتَهانَ بِدَعْوَة الدَّاعي إلى الله، فلم يستَجِبْ لدعوته، على الرغم من أنّه بَذَل غايَة جَهْدِهِ في اتّخاذ وسائل الإِقناع والتَّرغيب والترهيب.



(٥)
دروس السورة

اشتملت السورة على أربعة دروس:

الدرس الأول: جاء فيه عتاب الرسول محمد ﷺ على ما كان منه بشأن الأعمى «عبد الله بْنِ أم مكتوم» مُتَلَهّياً عنه، وموجهاً كلّ عنايته واهتمامه لدعوة بعض عظماء المشركين من قريش وجاء فيه بيان وظيفة القرآن التي يُفْهَمُ منها وظيفة الرسولِ في دعوته للناس، وهي وظيفة تبليغ

وتعليمٍ وإقناعٍ وموعظة بالترغيب والترهيب، وتذكير متكرّر عند رجاء نفع الذكرى، وليست وظيفة تغيير وتحويل من الكفر إلى الإيمان.

وهو الآيات من (١ ـ ١٦).

الدرس الثاني: جاء فيه تقريعٌ بشدّة وعُنْفٍ للإنسان الكافر بربّه، وتعجيبٌ من شدّة كُفرِهِ وغلُوّه فيه، مع أنّه يعْلَمُ من نفسه أنّه كان نُطْفَةً مهينة، ثم يصير إلى جيفَةٍ مستقذرة تُوارَىٰ في التراب، ويستهين بأمْرِ بعثه بعد الموت للحساب والجزاء، وَيَجِدُ حينَئِذٍ أَنَّهُ لَمْ يُنَفِّذْ مَا أمَرَه به رَبُّهُ في الحياة الدنيا من إيمانٍ يُنجيه من الخلود في النار وعمل صالحٍ ينال به ثواباً عظيماً، ويَتَمَنّى لو يُعْطَىٰ مُدَّةً إضافيَّة قَلِيلَةً يَتدارَكُ فيها نفسه بالإيمان لينجو به من الخلود في عذاب النار، ولكِنْ لا سبيلَ إلى ذلك.

وهو الآيات من (١٧ ـ ٢٣).

الدّرس الثالث: جاء فيه عَرْض بَعْضِ مظاهر رُبُوبيَّةِ الله عزّ وجلّ للإنسان، في إمداده بطعامه الذي يُجْري الله له في كونه أسبابه، مع الإشارة إلىٰ أنَّ رُبوبيَّة اللَّهِ له تستَوْجب مِنْهُ أن يَشْكُر نعم اللّه عليه بالإيمان والإسلام والطاعة.

وهو الآيات من (٢٤ ـ ٣٢).

الدرس الرابع: جاء فيه عرض لقطات من مشاهد يوم القيامة فيها ترغيب وتَرْهيب، لمن كان ذا بصيرة، ولم تَمُتْ في داخل نفسه مشاعر مِحْوَرَي الطَّمَع بثواب الله والْخَوْفِ مِنْ عقابه يوم الدّين.

وهوالآيات من (٣٣ ـ ٤٢ آخر السورة).

❁ ❁ ❁

(٦)
التدبّر التحليلي للدرس الأول من دُروس السورة وهو الآيات من (١ ـ ١٦)

قال الله عزَّ وجل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾.

جاء الكلام في هاتين الآيَتَيْن عن الرسول محمّد ﷺ بأسلوب الحديث عَنِ الغائب، وهما تُشِيرانِ إلى قِصَّةِ الرسول ﷺ مع الأعْمَىٰ «عبد الله بن أمِّ مَكْتُوم» الّتِي سبَقَ بيانُها وَذِكْر الرّوايات فيها في فقرة [(٢) ما رُوي في سبب نزول السورة] والنَّصُّ يعاتب الله فيه رسوله على الحادثة التي كانت منه. والكلام العتابيُّ للرسول الذي جاءَ بأسلوب الحديث عن الغائب، يَلْمَحُ فيهِ الّذي يمارِسُ أَسَالِيب التربية، معنَىٰ تربية اللّهِ لرسُولِه فِي أسْلُوب الخطاب، بما يُشْبِهِ تَوَلِّيَ الرَّسُول عن الأعمى، وهذا من روائع الأدَبِ القرآنيِّ الرَّفيع، ومن بدائع أساليب التربية.

لم يَقُل الله لرسوله عبَسْتَ وتَوَلّيْتَ أَنْ جاءكَ الأعْمَىٰ، كَمَا قَالَ لَهُ بشَأن الذين اسْتأذَنُوهُ في عَدَمِ الخروج معَهُ إلى غزوة تبوك، إذْ قال له كما جاء في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

لأنّ عتابَ الله للرسول في قِصَّتِه مع الأعْمَىٰ، وهو يُوجِّه عنايتَهُ الفائقَة لدَعْوَةِ بعض عظماء قريش، مع شِدَّة حِرْصِه على هدايتهم، أشَدُّ مِنْ عِتَابِهِ له على إذْنِه للرَّاغبين في التخلُّفِ عن غزوة تبوك، فقد كان مُعْظَم المعتذرين منافقين، والمصلَحةُ في عدم الإذن لهم تَظْهَرُ بكَشْفِ وفَضْحِ نفاقِهِمْ وكذِبِهِمْ في معاذيرهم، ويقابِلُها أنَّهَمْ لَوْ خَرَجُوا مع جيش الرسول مَا زَادُوا في المسلمين عدداً صحيحاً، إنّما يزيدونَهَمْ فساداً وإفساداً، وهذا أمْرٌ جَدِيرٌ بالملاحظة، وعُذْرُ القائد في اختيارِه عُذْرٌ واضِحٌ، وفيه تحقيق لمصلحة عظمىٰ، إلاَّ أَنَّ عدَمَ الإذْنِ لهم قد كَانَ أكْثَرَ رُجْحَاناً، وهُوَ ما أرشَدَ اللَّهُ إليه في العتاب.

﴿عَبَسَ﴾: تقولُ لُغةً: عبَسَ الرَّجُلُ يَعْبِسُ عبْساً وعُبُوساً، إذا كَلَحَ وجْهُهُ، وتَقَبَّضَ عَنْ كَرَاهِيَةٍ واستياء.

وتَقُولُ أيضاً: عَبَسَ الرَّجُلُ وَجْهَهُ، إِذَا جَعَله بإرادَتِهِ مُنْقَبِضاً عن تكَرُّهِ واستياء.

فالفعل يأتي لازماً ومتعدّياً، ويُمكن حَمْلُ ما جاء في الآية على الأمرين كليهما، فَوَجْهُ الرَّسُول عبَسَ بحركة غير إرادية، ثُمَّ عبَسَ الرَّسُول وَجْهَهُ بحركةٍ إرادِيَّةٍ.

ويُلاحَظُ أنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ كشف ما كان من الرسول ﷺ من عبوسٍ، مع أنَّ عُبُوسَهُ لا يَراهُ الأعْمَىٰ، ليعَلِّمنَا أَنَّه ليس من الأدب الإسلامي أنْ نواجه الْعُمْيَان بما يَكْرَهُونَ من أعمالٍ وحركاتٍ لَوْ كانُوا مُبْصِرين لَرَأَوْها، على أنَّهُ لا يخْلُو الأعْمَىٰ غالباً من قائدٍ يُبَلِّغُه، فيكونُ حَالُهُ بذلِكَ كَحَالِ البصير.

﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾: أي: وأدارَ ظَهْرَهُ مُدْبراً، والتولّي ضدّ المواجهة، وبينهما

الإعراض، وشرح بعض المفسّرين كلمة «تولَّىٰ» بـ «أَعْرَض» فيه تَسَمُّحٌ لغوي.

﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾: أي: لأجل أنْ جاءه الأعمىٰ فسألَهُ بَعْضَ مسائل من أُمُورِ دينه، فكَرِه أن يَشغَله عمّا هو فيه من دعْوَةٍ إقناعيَّةٍ وترغيبية وترهيبيّة لبَعْضِ عظماء قُرَيش، وهو شديد الحرص على إسلامهم.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤﴾.

في هذا الْتفاتٌ من الغيبة إلى الخطاب، فبعَدْ أن كان الكلام بأسْلُوبِ الْحَدِيثِ عن الغائبِ، لتقديم لَمْسَةٍ تَرْبويَّةٍ ضاغِطة، الْتَفَتَ النَّصُّ إلَىٰ أُسْلُوب الْمُواجَهةِ بكافِ خِطاب الحاضر، لبيان العناصر الّتي اقتضت تَرْبية الله لرَسُولِهِ بالعتاب، وبالكلام عنه بأسلوب الحديث عن الغائب.

ففي الحديث عن الرسول بأسلوب ضمير الغائب عِتَابٌ على ظاهِرَة السلوك بالعبوس والتولّي.

وفي مُواجَهَةِ الرَّسولِ بكافِ الخطاب المباشر مُراعاةٌ لمقتضىٰ العتاب على الدافع النَّفْسيِّ لمَا كان من الرسول من سلوكٍ ظاهر.

إنّ قول الله عزّ وجلّ لسَيِّدنا رسُولِ الله ﷺ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ؟﴾ مُوجَّهٌ لخواطرَ وَظُنُونٍ نفسيَّةٍ كانت هي الدّافع لعُبُوسه وتَوَلِّيه عن المسلم الأعْمَى، وهذه الخواطرُ والظنونُ مطْوِيَّةٌ في النَّصّ إيجازاً وتَعْميماً، لكنَّنا نستطيعُ اكتشافَها، من الاحْتِمَالاَتِ التوجيهيَّة التي طَرَحها النَّصُّ في العتاب، إذْ قالَ الله لرسوله فيه: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤﴾

ومن استقراء الاحتمالات استقراءً فكريًا يظْهَرُ أنّها تقع في قسمَيْن:

القسم الأول: أن يكون السائل الأعْمَىٰ ثَرْثاراً ثقيلَ الظِّلِّ، من عادته أن يَسْأَل عمَّا هو عالمٌ به، كشأْن بعض الثقلاء، أَوْ أن يكون مِمَّن يُحِبُّونَ الاستمتاع بمحادثة الرسول، كشأْنِ كثيرٍ من الأتباع الّذِين يُثَقِّلُون على

قائدهم، دون حاجةٍ داعيةٍ، لكنَّهم يرغبون في أن تكون لهم عِنْدَه حُظوَةٌ، وكَثْرَةُ مُخالَطَةٍ ومُجالَسَةٍ ومَنْزِلَةٍ قريبة، فَيَصْطَنِعُونَ المسائل اصطناعاً، ويتّخِذُونَها معاذيرَ لِلِّقاءِ والمحادَثة، ولَفْتِ النظر إلى أنفسهم.

القسم الثاني: أنْ يكون السّائلُ الأعْمَىٰ طالِبَ استفادةٍ حقّاً، وهذه الاستفادةُ لها وُجُوهٌ من الاحتمالات:

(١) فإمَّا أَنْ تكون تَزكيةً بالنَّماءِ والزِّيَادَة في المعرفة الدينية، أو بالنَّماءِ والارتقاء في الأخلاق والسلوك الدينيّ منْ مَرْتبتَي البرّ والإحْسَان.

(٢) وإمَّا أن تكون تَزْكِيَةً بالتَّطَهُّر من أرجاس الاعتقاد، أو أرجاسِ الأخلاق والسُّلوك.

(٣) وإمَّا أنْ تكون بتَذَكُّر أمْرٍ دينيٍّ هو ناسٍ له، أو غافل عنه.

وحين يكون السائل طالب استفادةٍ حقّاً، فمِنْ حقِّه إجابَتُه على مسائله، والإقبالُ عليه، بالْبَيَانِ والتَّعْليم، والنُّصْحِ والتوجيه، أو بالاعتذارِ مِنْهُ، ومُطَالبَتِهِ بالتريُّثِ قَلِيلاً، أو تأجيلِه لوَقْتٍ آخَر.

وليس في العبُوس والتولّي عُذْرٌ مع هذه الاحتمالات من هذا القسم الثاني.

من هذا الاستقراء الفكريّ يتّضح لنا أنّ الخواطر والظُّنون الّتي دفَعَتْ إلى العبوس والتوَلّي، ليْسَتْ من احتمالات القسم الثاني، وإنَّما هيَ من احتمالات القِسْم الأول، ولهذا قال الله عزّ وجلّ لرسوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ؟!﴾: أي: وأيُّ شيءٍ يَجْعَلُكَ تَعْلَم من حال هذا الرّجل الأعْمَىٰ، أَنَّه جاء لِيَشْغَلَكَ بفُضولٍ من المسائل، التي تصرفُك عمَّا أنْتَ فيه من مُعَالجة من تُعالجه من عظماء مشركي قُرَيش، راجياً استجابته لدعوتك.

يُقَال لُغَةً: دَرَىٰ فُلاَنٌ الشيءَ، ودَرَىٰ به، دَرْياً ودِرَايَةً، إذا عَلِمَه، ويقال: أَدْرَىٰ فُلاَنٌ فُلاناً بِالشيء، إذا أعْلَمَهُ به.

فعبارة: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ؟!﴾ تتضمَّن أنه ليس لَدَيْك دِرَايَةٌ، أي: عِلْم، بما ظنَنْتَهُ، أو خَطَر على بالك، إذْ لَمْ تَخْبُرْ سابقاً حال هذا الرجل، ولم يَنْزِلْ عليك بما ظننتَ وحْيٌ، ولا توجد أماراتٌ تَدُلُّ علَيْه.

والأصْلُ بقاءُ احتمالاتِ طلَبِه الاستفادةَ الحقيقيّة، وعَدَمُ إبعادها عن الملاحظة والتقدير، والأصْلُ معاملته على أساس أنّها احتمالات قائمة.

والواو في عبارة: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ؟!﴾ استئنافيَّة. ولا أرَىٰ مانعاً من اعتبارها عاطفةً على محذوفٍ تقديره: فما حَمَلك على العبوس والتَّوَلّي؟ أظُنونٌ ظنَنْتَها في الأعْمَىٰ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ؟!﴾[1] أي: وما يُعْلِمُكَ أنها ظنون صحيحة مطابقة للواقع.

وقد أبان الله عزّ وجلّ احتمالات طلَبِ الأعْمَىٰ الاستفادة الحقيقيّة بقوله تَعَالَىٰ:

﴿. . . لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾.

عبارة: ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ تُفِيد إمْكَان وجود هٰذه الاحتمالات الّتي ينبغي رعايَتُها، ووضْعُها في الْحُسْبان، وعَدَمُ استبعادها.

وَعبارة: ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ وَأصلها «يَتَزَكَّىٰ» أدْغِمَتِ التَّاء بالزَّاي فصارتا زاياً مشدّدة، تُشيرُ إلى احتمالَيْن:

الاحتمال الأول: التَّطَهُّر.

الاحتمال الثاني: النَّماء والزِّيادة.

---

(١) لدى تتبّعي للنصوص القرآنيّة رأيت أنّ العطف على محذوف لا يَخْتَصُّ بالفاء الفصيحة، بل كلُّ حروف العطف قابلَةٌ لأن تعطفَ على محذوف، ووجود حرف العطف يفصح عن هذا المحذوف، وقد ذكرتُ هذا في كتاب «قواعد التدَبُّر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ».

فأصل الزكاة في اللُّغة يأتي بمعاني، وهي: «الطهارة ـ النَّماء ـ الْبَرَكَة ـ المدْح» واستعملت الزكاةُ والتزكيَةَ في القرآن، بمعنى الطهارة والتطهير، وبمعنى الإصلاح والصَّلاح، وعبارة: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ﴾ أي: فلا تَمْدَحُوها بالطهارة والصلاح.

والتزكيةُ يُرادُ بها في الغالب تَطْهِيرُ النفس وتَنْمِيتُها، وإصلاحُها، بتخليصها من الكفر والشرك والمعاصي، وتَحْلِيتُها بالإيمان الصحيح والعمل الصالح طاعةً لله، وخضوعاً له.

وعبارة ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ﴾ وَأَصْلُها «يَتَذَكَّر» أُدْغِمَتِ التاء بالذَّال فصارتا ذالاً مُشَدَّدة، تُبَيِّن الاحتمال الثالث، وهو تذكُّر ما هُو ناسيه، أو غافلٌ عنه من أمور دينه.

والمعنى: أو لعلّه يتذكّر أمراً هو ناسٍ له أو غافل عنه من أمور دينه.

«لَعَلَّ» حرف تَرْجيةٍ يعمل عَمَل «إنَّ» في نصْب الاسم ورفع الخبر.

﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾ في إحدى القراءتَيْنِ، وفي القراءة الأُخْرىٰ [فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَى] فالرفع محمولٌ على عطف فعل «تَنْفَعُه» على فعل ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ﴾ والنَّصْبُ محمول على اعتبار أنّ الفاء هي السببيَّة، إذْ جاء قبْلَها حرف «لَعَلَّ» الذي يدلُّ على التَّرْجِية.

﴿ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾: اسمٌ للتذكير، وتأتي بمعنَىٰ التّذكُّر، وتأتي اسماً للتذكِرَة (وهي الوسِيلَةُ الّتِي تُذَكِّرُ، كالرَّتيمة).

والمعنى: أو لَعَلَّه يَتَذَكَّر فينْفَعه التذكُّر والتذكير.

أي: فتكونُ يا محمّد بإقبالِكَ عليه. وإجابَتِك لأسئلته، وعَدَم تولّيك عنه، قد تَسَبَّبْتَ في تَطْهِيرِه، أو تعليمِهِ ما يَجْهلُهُ من دينه، أو تَنْمِيَة فضائله الخلقيَّة والسلوكيّة، أو تذكيره ما هو ناسٍ له، أو غافلٌ عَنْهُ من أمُور دينه، فتكونُ هذه الذكْرَىٰ نافعةً له.

فتولِّي حامل الرّسالة عن طالب التزكية أو التذكير لا يصحُّ ما دامَت احتمالاتُ النَّفْع قائمةً، ولا يكُونُ هذا التولّي مقبولاً إلاّ إذا كَانَ مَصْحوباً بدِرَايةٍ صحيحة تكشف أنّ السائل قد جاء ليشغل وقت حامل الرسالة بما لا نَفْعَ فيه، ولم يَأْتِ لينتفع في تزكية أو ذكرىٰ، ولا يكْفِي الظنُّ التَّقْدِيريُّ في هذا الأمْر وأشباهه، بوصْفه أحد الاحتمالات فقط. وهو مُعَارَضٌ بما لا يَصِحُّ مَعَهُ التولّي.

● قوله الله عزّ وجلّ خطاباً لرسُوله:

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ . . .﴾:

في هذه الآياتِ عتَابٌ للرسُول ﷺ علَىٰ تصَدِّيه للمُسْتغني الصّادّ عن دعوة الحق، الْمَقْرُونِ بتَلَهِّيه به عن السَّاعي الخائف من ربّه، الّذي هو طالبٌ للتزكية أو التذكير.

﴿ٱسْتَغْنَىٰ﴾: أي أصاب غِنىً بمالِه، أو بمكانَتِهِ الاجتماعيَّة، وامْتلأَتْ مشاعِرُ نَفْسِه بالاستغناء فاسْتَكْبَرَ، وأَبَىٰ أن يستجيب لدعوة حامل الرسالة.

﴿تَصَدَّىٰ﴾: أَصْلُها «تَتَصَدَّىٰ» حذفت التاء الثانية للتخفيف في اللفظ، والمعنى: تتعرَّضُ له، وتُقْبِل عليه، معتنياً به، تَحْمِل هَمَّ إقناعه، بغيةَ تحويله من الكفر إلى الإيمان، ومن الاستكْبَار إلى الإسلام والخضوعِ والطاعة.

التصدّي في اللُّغة هو فعل الذي يرفع رأْسَهُ وصَدْرَه يتصدَّىٰ للشيء يَنْظُر إليه، واستُعْمِلَ في النّصّ هنا كنايةً عن توجيه كلّ العناية لمَنْ هو المقصودُ بالتّصدّي.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾: يحتمل أن تكون هذه الجملةُ استفهاميّةً، ولفظ «ما» فيها اسم استفهام، والواو قبلها عاطفة، وأن تكون خبريَّة، ولفظ «ما» فيها حرف نفي، والواو قبله واو الحال.

● فالمعنى على كونها استفهاميّة: وأيُّ حَرَجٍ عَلَيْكَ في أن لا يتزَكَّىٰ هذا الذي استغْنَىٰ، وأَنْتَ لَهُ تتصَدَّىٰ، شديدَ الحرْصِ على إيمانه، كأنك مسؤول عند ربّك عن تحويله من الكفر إلى الإيمان ومن الاستكبار والاستنكاف إلى الطاعة والإسلام.

إنَّهُ لا حَرجَ علَيْكَ في أن لا يَتزَكَّىٰ، بعْدَ أَنْ بلَّغْتَهُ ما أَمَرَكَ الله بتبليغه، وأقمْتَ لَهُ الحجج والبراهين، ونصحتَهُ وأرْشَدْته، وحذَّرْتَهُ وأنْذَرْته، فالاستفهام فيها استفهامٌ إنكاريٌّ.

● والمعنى على كونها خبريَّة: والحال أنَّه لا حَرَج علَيْكَ في أَنْ لا يتزَكَّىٰ، بعد أن أدَيْتَ وظائفَ رِسالَتِكِ على الوجْهِ المطلوب منْكَ.

إنّ حامِلَ رسالة رَبّه مسؤولٌ عن تأديَةِ وَظائفِ رسالَتِه علَىٰ ما أَمَر الله، وليس مسؤولاً عن تحويل من يؤدِّي إليهم رسالَةَ رَبِّه من التولّي والإعراض، إلى الاستجابة والاتّباع.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾﴾: المرادُ؛ بـ«مَنْ» هنا الأعْمَى «عبد الله بن أُمّ مَكْتوم».

«يَسْعَىٰ»: السَّعْيُ عَمَلٌ فَوْقَ المشي، وهو عَدْوٌ دُونَ الشَّدّ، ويأتي السَّعْيُ بمعنَىٰ الْعَمَل بهمَّةٍ وَنَشاط، وقَدْ يُرَاد به الهِمَّةُ النفسيَّة ولَوْ كان العملُ هادئاً فيه أَنَاةٌ وتمَهُّلٌ وسكينة، وهذا هو المقصود بالسَّعْي للآخرة.

﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾﴾: **يخشَىٰ**: أي: يخاف، والمراد الخوف من عذاب اللَّهِ وعقابه في العاجلة والآجلة.

والخوف من اللَّهِ مقرونٌ دواماً بالتعظيم والحبّ والإجلال.

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾: **تَلَهَّىٰ**: أصلها «تَتَلَهَّىٰ» حُذِفت التاء الثانية تخفيفاً. أي: فأنت يا مُحمَّدُ تَنْصَرِفُ عَنْهُ مُنْشَغِلاً بغيره.

التَّلَهِّي: التشاغُلُ، ويُقَالُ: ألْهاهُ، أي: شغله.

واللَّهْوُ: كلُّ أَمْرٍ غَيْرِ ذي أهميَّةٍ يشْغَلُ عمَّا يَجِبُ تَوْجِيه الْجَهْدِ والْعَمَل له.

وربما يكون المشتغل بأَمْرٍ غير ذي جَدْوىٰ حقيقيَّةٍ ظَانّاً أنَّ ما هو فيه من الأمور ذاتِ الشأنِ العظيم، فهو لا يَقَعُ في تقديره أنَّهُ يَتَلَهَّىٰ، فيُقَالُ لَهُ: أَنْتَ تتلَهَّىٰ، أي: تشْغَلُ نَفْسَك بأمْرٍ غير ذي بال، فَدَعْهُ ولا تهتَمَّ له، واشغَلْ نَفْسَكَ بما هو خير. وكذلك كان رسول الله ﷺ، إذْ لم يكُنْ في تَصوُّرِه مُتَلَهِّياً، وهو يَبْذُل جَهْدَهُ لإقْنَاعِ بعض عظماء قريشٍ بالْحَقّ الّذي يُبَلِّغُهُ عَنْ رَبِّه، لكِنَّ عَمَلَهُ قد كان في حقيقة الأَمْرِ تَلَهِّياً، لأنَّهُ لم يكن ذَا جَدْوَىٰ، فقد سبَقَ أنْ أوضح لهم كلَّ شَيءٍ فعانَدُوا، وأصَرُّوا علَىٰ الكُفْر ومُقَاوَمَةِ دَعْوَةِ الحقّ.

﴿كَلَّآ﴾ أَدَاة زَجْرٍ. أي: لا تَفْعَلْ مثل هذا مرَّةً أُخْرىٰ.

المعنى العامّ

لِمَ تَتَصَدَّىٰ يا مُحَمَّدُ لِمَنِ اسْتَغْنَىٰ، مُسْتكْبراً بمشاعر استغْنَائِه، وهُوَ متولٍّ عن دَعْوَتِك ودِينِك، والاستجابة لما تُقَدِّمُه لَهُ من إقناعٍ وترغيبٍ وترهيب، تُعْطيه كُلَّ عنايَتك واهتمامِكَ، حَرِيصاً على إسلامه، وهو رافض له، مع أنَّكَ غيْرُ مسؤولٍ ولاَ مُحَاسَبٍ على كُفْرِهِ وعَدَمِ قبوله للتزكية، بعد أن بلّغته، وبيّنْتَ له، إنَّ كُفْرَهُ ورِجْسَهُ عليه، وليس عليك مِنْهُ شيْءٌ.

ولَمْ يقتصر أمْرُكَ على التَّصَدِّي للمستَغْنِي المستكبر الرّافضِ لدعوتك في وقْتِ فراغٍ كامل، بل انْشَغَلْتَ به عن المؤمن السّاعي إليك، راجياً أن يَنْتَفِع منك بتزْكيَةٍ أَوْ ذِكْرَىٰ.

فكان من المناسب أَنْ يختم الله عزّ وجلّ بسُلْطان رُبُوبيَّتِه عبارَاتِ

العتاب المفصّل، بكلمة: «كلّا» وهذا في مضمونه موجّه لتحذير حَمَلَةِ الرِّسَالَة من أمَّةِ مُحمَّد ﷺ، أن يمارسُوا في دعواتهم مثْلَ هذا الْعَمَل الّذِي لا يَلِيقُ بأئمة المتَّقِين، من الأبرار والمحسنين.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾.

ظاهرٌ أنَّ المراد بتوجيه هذا النّصّ بَيَانُ وظيفة الْقُرآنِ الدائمة، ولمَّا كانَ القرآنُ كِتَاباً يُكْتَبُ في الصُحُفِ، وكَانَ مَضْمُونُهُ كلاماً يشْتَمِلُ على عِلْم يتلَقَّاهُ المؤمنون، ويتَفَهَّمُونَ معانيه، ويحْفَظُونَ أوامره ونواهيَهُ ووَصَاياه، ويَذْكُرُونَ ما جاء فيه عند المناسبات الداعيات للعمل بما فيه، كانَ جَدِيراً بأَنْ تُذكَرَ الصُحُف التي يُدَوّنُ فيها بضمير المؤنَّث، على أنَّها بمثابة تَذْكِرَة، وبأَنْ يُذْكَرَ مضْمُونُهُ بضمير المذكر، على أنّه كلامٌ يشتمل على عِلْم يُذْكَرُ عنْد المناسبات الدّاعيات للعمل بما جاء فيه.

ومراعاةً للاعتبار الأول قال الله عزّ وجلّ عن الصُحف الّتي يُكتَبُ فيها القرآن: ﴿. . . إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾: **التَّذْكِرَة**: مَا يُسْتَذْكَرُ به الشيءُ الّذي يُرادَ تَذَكُّرُه آناً فآناً، كالرَّتيمة[1] وكالبطاقة الّتي تُذَكِّرُ بمَوْعِد اللّقاء أو الاجتماع، فجاء في العبارة اسْتِعْمَالُ ضمير المؤنث.

ومراعاةً للاعتبار الثاني قال الله عزَّ وجلّ عن الكلام الْمُنزَّلِ الْمُدَوَّنِ في الصُّحف الّتي يُكْتَبُ فيها القرآن: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢﴾

ومِنْ وظيفة القرآن تُعْلَمُ وظيفة الرَّسول التبليغيَّة، أي: فالرَّسُولُ مُبلّغٌ وَمُبَيِّنٌ ومُعَلِّمٌ مَا أنْزَل الله عليه، ومُذَكِّرٌ بما سبَقَ أَنْ بلَّغه وبيَّنَهُ وعَلَّمَهُ، إنْ

(١) **الرَّتيمة**: خيط يُشدُّ في الإصبع أو الخاتم للتذكُّر، والجمع رَتائم.

رَجا أنْ يَنْفَعَ تَذْكيرُه، كما سبق أنْ أبان الله له في سُورَةِ (الأعْلَىٰ/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول):

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾﴾.

وليسَتْ وَظيفةُ الرَّسُولِ وظيفةَ مُحَوِّلٍ من الكُفْرِ إلى الإيمان، ومن الضلالة إلى الْهُدَىٰ.

أمّا التحوُّلُ من الكُفر إلَىٰ الإيمان، ومن الضلالة إلى الهدى، فلا بُدَّ أنْ يكون نتيجة إرادة الْعَبْدِ المكلَّف واختياره الحرّ، إذ الأمْرُ مُرْتَبِطٌ بمَشِيئَتِهِ الّتي لا مُكْرِهَ لها، وبياناً لهٰذه الحقيقة قال الله عزّ وجلّ: ﴿... إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾.

وبعد هذا وصَفَ اللّهُ عزّ وجلّ القرآن بقوله:

﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾﴾: أي: إنَّ القرآن مكْتُوبٌ في صُحُفٍ مفضَّلَةٍ مُعَظَّمة، مُنَزَّهَةٍ عن التحريف والتغيير والعبث.

﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾﴾: أي: مَرْفُوعَةِ المنزلَةِ والمكانةِ عنْدَ الملائكة، ومُطَهَّرَةٍ عمَّا يُدَنِّسُها، فَلا يَمَسُّها تلاعُبٌ، ولاَ تغيير، ولا تَبْدِيلٌ، ولا تحريف، ولا تَمَسُّهَا شياطين.

﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾: أي: هذه الصُحُفُ مكْتُوبَةٌ ومَحْفُوظَةٌ بأَيْدِي كتَبَةٍ من الملائكة الكرام، وهي غير اللّوح المحفوظ الجامع لعلوم الدنيا والآخرة، والقرآنُ وسائر كُتُب اللّهِ بعْضُ ما فيه.

﴿سَفَرَةٍ﴾ جمع «سَافِر» بمعنى «كاتب». سافِرٌ وسَفَرَةٌ، مثل: كاتبٍ وكتبةٍ. تقول لغةً: سفرْتُ الكتاب أسْفِرُهُ سفراً أي: كَتَبْتَه. ويُقَال للكتاب: سِفْرٌ، وجَمْعُهُ أسْفَارٌ.

قال الزّجّاج: قيل للكاتب: «سَافِر» وللكِتَاب «سِفْرٌ» لأنّ مَعْنَاهُ أَنَّهُ يُبَيِّنُ الشيء ويُوَضِّحه.

والمادة في أصْلِها تَدُلُّ علَىٰ معنَىٰ الانْكِشَافِ والْوُضوح.

وسُمِّيَ بعْضُ الملائكة: «سَفَرَة» لأنهم يَسْفِرُونَ بَيْنَ الله عزّ وجلّ وبيْنَ أنبيائه، ويَنْزِلُونَ بَوَحْيِ اللَّهِ لبعض عباده، أي: يكونون سُفَرَاء.

﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾: أي: وهؤلاء الملائكة السَّفَرَة كِرَامٌ بَرَرَة:

كِرَامٌ: جَمْعُ كريم، والكريم هو الجامع لأنواع الْخَيْر والشَّرَف والفضائل، وهو اسْمٌ جَامِعٌ لكُلّ مَا يُحْمَد.

بَرَرَة: جَمْعُ بارّ، وهو الذي يتوسَّع في فعل الْقُرُبات والعبادات فَوْقَ مَرْتَبَةِ التقوىٰ، التي تقتصر دَرَجاتُها على فعل الواجبات وتركِ المحرَّمات.

فهؤلاء السّفرةُ الكرام البرَرَةُ من الملائكة، لا يعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهم ويفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ضِمْنَ حُدُودِ دَرَجات مرتَبةِ التقوىٰ، ثمّ يَزيدون على ذلك أنواعاً من الأذكار والعِبَادات والتطوُّعَاتِ الّتي لم يُؤْمَرُوا بها أَمْرَ إِلْزام، تبرُّراً وَتَوَسُّعاً في التقرُّبِ إِلَىٰ اللَّهِ عزّ وجلّ.

تحليل كون القرآن تذكِرَةً فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَ مَا جَاءَ فيه

إنَّ القرآن يشتمل على تعليم بالهداية للّتي هي أقومُ عقيدةً وخُلُقاً وعملاً، وعلى ترغيب بثواب اللَّهِ الجزيل يوم الدين، وعلَىٰ ترهيب من عقاب اللَّهِ العادل يوم الدين، مع ترغيبٍ وترهيبٍ بجزاء معجّل.

ومن الهداية للّتي هي أقوم التذكير بمعارف عقليَّة، والتنْبِيهُ على معارفَ كونيّة دالَّة على الله وصِفاته، وعلى وظيفة الإنسان في الحياة، فقد يغفل الإنسان عن ملاحظتها، فيُنَبِّهُهُ القرآنُ عليها.

لكنّ دوام القرآن في الناس بحفظه في صحُفٍ ومصَاحِفَ تُتْلَىٰ، وفي

أصوات مُسَجَّلَةٍ على أشرطة تَسْجِيل الصَّوْت، وإنَّ تكْرِير تِلاَوَةِ آياته وسُوَرِه في الصَّلَوات، وفي غير الصَّلَوات، يَجْعَلُ من أبرز صفاته الدائمة أَنَّه ذِكْرٌ، يُطَالَبُ المؤمنون به أَنْ يذكروه دواماً بألسنتهم، وأن يتذكرُوا ألفاظهُ، وأن يتذكَّرُوا معانيَهُ بأفكارهم، وأنْ يكون وُجوده بَيْنهم تَذْكِرَةً حاضرةً بأمور دينهم وآخرتهم، وواجباتهم نحو ربّهم، كما أنّ التَّذْكِرَة الّتِي يتّخِذُها النَّاسُ وسِيلَةً حاضرةً تُذَكّرُهم بحاجاتهم الّتي يُهِمُّهُم أن يَتَذَكَّرُوها.

والمؤمن العاقل الحصيفُ يعْلَمُ أنَّ أعظم حاجات الحياة ما يضْمَنُ له سعادة الدنيا والآخرة، وهذان كلاهما لا يتحقَّقان إلا بالتزام تعليمات الدّين وشرائعه وأحكامه. والقرآن هو دستورُ الهداية إلى الدين، فَهُو يَرْجِعُ إِلَىٰ ما عَلِمَه منه، ليكون دائِمَ التَّذَكُّرِ له.

أمّا قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢﴾ فيَدُلُّ على أَنَّ من شاء من المكلّفين قَبِلَ هدايتَه، وتعلَّم مضامينه، وعَرَفَ ترغيباته وترهيباته، ثمّ كان مع آياته في ذِكْرٍ متكَرّر ليكونَ له تذكِرَةً حقّاً. فجاء في النَّصّ ذِكْرُ الفِقْرَةِ الأخيرة، لأنَّها لاَ تكُونُ إلاَّ مسْبِوقةً بالفقراتِ الّتِي تأْتي قَبْلَها في الترتيب الطبيعيّ.

وفي تعليق الشرط بمشيئة الإنسان دلالةٌ على أنَّ الرَّبَّ الخالِقَ جلّ جلاله، قد جعل الإنسانَ في الحياة الدُّنيا مخيراً أَمَام تصَرُّفَاته الإراديَّة، ومنْها قبولُ الإيمان والإسلام، وتَدَبُّرُ ما أنْزَلَ اللَّهُ في القرآن للتعرُّف على هَدْيه، والاتعاظ بعظاته، ومنها ذكْرُ آياته آناءَ اللَّيل وآناءَ النهار، ليكون له القرآن تذكرَةً حاضِرَةً مُصَاحِبَةً له في معظم أوقاته، فكُلَّما غفل عن طاعة رَبّه والْعَمَلِ بمراضيه، ونزعَتْ به نَفْسُه إلى المعاصي، بنوازع الأهواء والشهوات ووساوس الشياطين، كانَتْ آيَاتُ اللَّهِ في كتابه مُذَكِّرَةً لَهُ، ومُنَبِّهَةً لَهُ مِنْ غَفَلاَتِهِ.

وكما أنّ وظيفة القرآن الهداية والترغيب والترهيب والتذكير المستمرّ، ما دام الإنسان المكلَّفُ على اتِّصَالٍ به، يتلو آياته، وَيَذْكُرُ مَضامينها، فإنَّ وَظيفَةَ الرَّسُولِ وَكلِّ حَمَلَة رسالَتِهِ من أمَّته مِثْلُ وَظيفَةِ القرآنِ، غَايَةُ فِقَرَاتها التذكير بما جاء في القرآن بعد الهداية لِلّتِي هي أقوم، والترغيب والترهيب.

ثمَّ إنَّ الإنسان المكلَّف هو المسؤول وحْدَهُ عن الاستجابة أو الرَّفض، وعن الطاعة أو المعصية، أمام الله عزّ وجلّ يوم الدين، وأمام أحكامه القضائية المنزلَة للعمل بها في الحياة الدنيا، الّتي يجب على السلطة الإسلاميَّة الممكَّنَةِ في الأرض أنْ تقُوم بتنفيذها، كالقصاص وقطع يد السارق، وجلد الزاني.



(٧)
التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من دروس السورة

وهو الآيات من (١٧ ـ ٢٣)

قال اللَّهُ عَزَّ وجلّ:

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾

مطلع هذا الدرس الثاني من دُروس السورة مرتبطٌ بالمستغني المستكبر الرافِض لدعوة الرَّسُول له إلى الإسلام، والمصرّ علَىٰ كُفْرِهِ وعناده، الذي جاء الحديث عنه في الدرس الأوّل من السورة.

إلاّ أَنَّ البيان انْتَقل إلَىٰ التّعميم الذي يشْمَلُ كُلَّ إنسان كافرٍ، مُشابِهٍ لمَنْ جاء الحديث عنه في الدرس الأول، والذي هو من عظماء قريشٍ،

فمِنْ أُسْلوب القرآنِ الاستفادةُ من الحوادثِ الخاصَّة، وتَصَيُّدُ مُناسَبَتِها لتوجيه بيانٍ عامٍّ وقضِيَّةٍ كلِّية.

● قول الله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾:

جاء في هذه الآية الحديثُ عَنْ نَوْعِ الإنسان، مع أن المقصُودَ بعْضُ أفراده، وهُمُ الكافرونَ، نظراً إلَىٰ أنَّ أغْلَبَ هذا النوع الإنسانيِّ هُمْ من فِئَةِ الْكافِرينَ، الضَّالِينَ المضلِّين، فقد قال الله عزّ وجلّ في وصْفِ الناس في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

وقال عزّ وجلّ في سورة (الرَّعْدِ/١٣ مصحف/٩٦ نزول):

﴿. . . وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾.

والنُّصُوصُ القرآنيَّةُ في بيانِ هذا الواقع الإنْسَانِيِّ كثيرة، وبما أنَّ أكثر النَّاس كافرون كان مَجْموعُ هذا النوع جديراً بأنْ يُقَال بشأنه ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ ومَعْلُومٌ أنَّ الحكْمَ عَلَىٰ الْمَجْمُوع لا يَتَنَاوَلُ كُلَّ فَرْدٍ مِنْ أفرادِه، بل يتناول مَا تَدُلُّ عليه القرائِن، والمرادُ هُنَا الإنْسَانُ الْكَافِرُ، أو أكْثَرُ أَفراد هذا النوع.

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾: قَال المفسّرون: أَيْ: لُعِنَ وطُرِدَ وأُبْعِدَ عَنْ مَدَىٰ رَحْمَةِ اللَّهِ الواسعة، والمرادُ من كان من نوع الإنسانِ كافراً بالله وبِرسُولِهِ وبما أَنْزَلَ اللَّهُ على رسُولِهِ، ويكشفُ هذا المرادَ قولُ اللَّهِ عَقِبَ هذه العبارة:

﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ؟!!﴾: أي: قُتِلَ الإنْسَانُ الكَفُورُ مَا أكْفَرَهُ، وهذا من الإيجاز القرآنيِّ الَّذِي لَهُ نَظَائِرُ كثيرة.

وعبارة: ﴿قُتِلَ﴾ أبْلَغُ في الدَّلاَلَةِ علَىٰ اللَّعْنِ والطَّرْدِ، لِأَنَّ الْقَتْلَ في

تَصَوُّر النَّاسِ صَرْفٌ لِلْحَيِّ من الْوُجُودِ إلى الْعَدَم، أمَّا اللَّعْنُ والطَّرْدُ فَهُما إبْعَادٌ، مع إبقاء الحيِّ موجوداً في الأحْيَاء.

وعبارة: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ؟!﴾ يُمْكن أنْ تُفْهَم على وجهين:

الوجه الأول: التَّعْجِيبُ من غُلُوّه في كُفْره وجُحُوده لنِعَم الله عليه، والمعنى: ما أشدَّ كُفْرَهُ وغُلُوَّهُ فيه!!

الوجه الثاني: أن تكون «ما» في العبارة استفهاميَّة، وهو استفهامٌ توبيخيٌّ، والمعنى: أيُّ شيْء جعله يكْفُرُ باللَّهِ وبأَنْعُمِهِ عليه، مع أنّ أدِلَّة وبراهين وُجود اللَّهِ ظاهرةٌ في ذاتِ الإنْسَان، وفي كلّ شيءٍ من الكَوْن حَوْله، ومع أنّ أدِلَّة وبراهين نِعَم الله عليه مُرَافِقةٌ لحياته كُلّها، في طعامه وشرابه وسائر حاجاته وَمطالب جسَدِه ونَفْسِه.

سوابق الحديث عن الأنسان في نجوم التنزيل

أولاً: أبان الله عزّ وجلّ في سورة (العلق/٩٦ مصحف/١ نزول) ثلاث قضايا تتعلّق بالإنسان:

القضية الأولى: كوْنُه خُلِقَ مِنْ عَلَق، وهذا بيانٌ لطور من أطوار تكوينه، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾.

القضية الثانية: كون الله تعالى قد أعطاه الله الجهاز القابل للعلم، وأعطاه وسائل التعلّم، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

القضية الثالثة: أنَّ الإنسان متى رأىٰ نفْسَه قد استغنى سَلَكَ مَسَالِكَ الطغيان، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾.

ثانياً: وفي سورة (الفجر/٨٩ مصحف/١٠ نزول) أبان الله عزّ وجلّ نظرةَ الإنسان إلى صُوَر ابتلائه بالنِّعَم والمصائب في الحياة الدُّنيا، وأبانَ أنَّها نظرةٌ فاسدة مباينةٌ للواقع والحقيقة، فهو في امتحانه بالنِّعَم يقول في أخفّ أحْوَالِه جُنوحاً وسُوءَ فَهْم عن الله: رَبِّي أَكْرَمَنِي، لِأَنّي أسْتَحقُّ هذا الإكرام، مَعَ أنَّهُ مُمْتَحَنٌ مُبْتَلىً بالنعم. وهو في امتحانه بالمصائب يقولُ في أخَفِّ أحوالِهِ جُنُوحاً وسُوءَ فَهْم عن الله: رَبِّي أهَانَنِ، فَلَمْ يُعْطِني ما أسْتَحِقُّ من عطاءٍ أنا أهْلٌ له، مَعَ أنَّهُ مُمْتَحنٌ مُبْتَلَىً بالمصائب.

فقال اللَّهُ عزّ وجلّ فيها:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا . . .﴾.

فَقَدَرَ عَلَيهِ رِزْقَهُ: أي: فَضَيَّقَهُ علَيْه ولم يجعلْه واسعاً.

ثالثاً: وفي سورة (العصر/١٠٣ مصحف/١٣ نزول) أبان اللَّهُ عزّ وجلّ أَنَّ الإنْسَانَ في واقع خُسْرٍ دائم من رأس مالِهِ في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا، ما مَرَّ علَيْهِ مِقْدارٌ ما من الزَّمَنِ الجاري الّذي هو العصر، باستثناء الّذِين آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحات وتواصَوْا بالحقّ وتواصَوْا بالصَّبْرِ، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ . . .﴾.

وسبَبُ كَوْنه في مُحِيطٍ من الْخُسْرِ أنّه يُضَيّعُ مُدَّةَ امتحانِهِ، ويُبَدّد ساعاته وطاقاتِهِ فيها سُدىً، إذا لَمْ يرتكِبْ مع ذلك فيها آثاماً، ويَحْمِلْ فيها أوْزاراً.

رابعاً: وفي سورة (العاديات/ ١٠٠ مصحف/ ١٤ نزول) أبان الله عزّ وجلّ قَضِيّتَيْن من القضايا الّتي تتعلّق بالإنسان:

القضية الأولى: أنّهُ كنودٌ كفورٌ بنعمة الله عليه، وقد يفتخر بِكُنُودِه ويُعْلِنُ ذَلك، ويُكابِرُ في استحسان ما يفْعَلُ من ظُلْمٍ وعُدْوانٍ، فقال اللّهُ عزّ وجلّ فيها:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾.

القضية الثانية: أَنَّهُ يُحِبُّ المالَ حُبّاً شديداً، ويُسمّيه خيراً، فقال الله عزّ وجلّ فيها عن الإنسان:

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾.

خامساً: **وفي سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول)** أبان الله عزّ وجلّ أنّ الإنسَانَ يَتَمَنَّىٰ أمانيَّ لا يستطيعُ تحقيقَها، ويتمنَّىٰ أَمَانِيَّ يستحيل في العقل وقوعُها، ثمّ يَزْعُمُ وُقُوعَها، ويَدَّعِي أَنَّها حقائِقُ كذِباً وزوراً، أو تَوَهُّماً واتّبَاعاً للأوهام والظنون الضعيفة التي لا يصحّ الاعتماد عليها في اكتساب المعارف، فقال اللهعزّ وجلّ في سياق الحديث فيها عن اتّخاذ المشركين الأوثان شركاء لله، وعبادتهم بعضَ ما يَزْعُمُون أنّهم ملائكة، وأنّهم يشفَعُون لهم عند الله:

﴿أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ۝٢٥﴾.

أي: ليس للإنسان ما تمنَّىٰ، بل الوجود كلّه مِلْكٌ لله، في الآخرة وفي الأولى، وهو الذي يُجْري تصاريفه فيه بحكْمَتِه على مايشاء.

سادساً: وفي سورَةِ (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول) أبان الله عزَّ وجلّ أنّ الإنسان بالنظر إلى أكثر أفراده كثير الكُفْر بربّه، وكثير الكُفْرِ بنِعَمِه عليه،

مع توافر الأدلّة على وجوده، وظُهُور أيادي عنايته به، وإمداده له بالنِّعَم، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾.

أي: لُعِنَ الإنسان الكافر بربّه ما أَشَدَّ كُفْرَهُ مع وضُوح أدلَّةِ الإيمان. أوْ مَا الذي جعله يكفر بربه، مع أنّ أدلَّة الإيمان وأياديَ نعَم الله علَيْه واضحاتٌ جليّات كثيرات؟!

نظرةٌ إلى تسلسل الأفكار التي جاءت عن الإنسان في نجوم التنزيل

وإذا نظرنا في تسلْسُل الأفكار التي جاءت عن الإنسان في هذا الاستعراض السابق، وجَدْنَا أنّها مُرَتَّبَةٌ تَرْتيباً مَنْطِقِيّاً بَدِيعاً، مطابقاً لتدرُّج البيان التعليميّ والتوجيهيّ:

(١) فالفكرة الأولى تتعلّق بخَلْق الإنسان.

(٢) والفكرة الثانية تتعلّق بتعليم الإنسان.

(٣) والفكرة الثالثة تتعلّق بوصْفِ واقع حال الإنسان الخُلِقِي والسلوكيّ، لدى شعوره بالاستغناء، وهي حالة طغيان.

(٤) والفكرة الرابعة تتعلّق ببيان نظرة الإنسان الخاطئة إلى صُوَرِ ابتلائه في الحياة الدنيا بالنِّعَمِ والمصائب.

(٥) والفكرة الخامسة تتعلّق بوصْفِ حال الإنسان في الحياة الدنيا، وأنَّه في واقعِ خُسْرٍ دائم، إلاّ من استثْنَتْهُمْ سورة العصر.

(٦) والفكرة السادسة تكشفُ السَّبَب في كون الإنسان في واقع الْخُسْرِ الدائم، وهي أنَّهُ كنُودٌ جَحُودٌ كفور، مكابِرٌ فيما هو فيه، مع عِلْمِه بحالة نفسه.

(٧) والفكرة السابعة تُبيِّن أن الإنسان بالنظر إلى معظم أفراد نوعه متعلّق بالدُّنيا، متشبّثٌ بما يهوى منها، فهو لذلك يحبُّ المال حُبّاً شديداً، ويُسَمِّيه خيراً، وهذا من الأسباب التي تصرفُهُ عن العمل للآخِرَةِ، وعن التفكير فيها.

(٨) والفكرة الثامنة تُبيِّن أنَّهُ واسِعُ الأماني، مُسْرِفٌ في التعلُّقِ بها، مع أَنَّ الذي يُغْرِيه بها أوْهامٌ وظُنُون ضعيفة، ورُبما يَفْتَري الأكاذيب من عنده، ليثْبِت بها دعاوَىٰ الأماني.

(٩) والفكرة التاسعة أَنَّهُ كثير الكُفر يَسْتَحِقُّ أن يُبْعَدَ عن الوجود كلّه بالقتل، بالنظر إلى معظم أفراد نوعه، أمّا من آمَنَ واستقام على صراط الله فَهُو يستَحِقُّ الخلودَ الدائم في جنّات النعيم.

❀ ❀ ❀

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾﴾؟؟.

جاءت هٰذه الآية على طريقة الاستفهام التقريري، لإحضار الجواب في الذهن، فإذا حضَرَ الجواب فيه، جاء البيان بعْدَ ذَلِكَ مطابقاً له، أو شبْهَ مطابقٍ، والمعنى: من أيّ شيءٍ خلقه خالقه، الذي هو الله إذ لا خالق سواه.

وطرح السؤال والجواب علَيْه من أساليب القرآن البديعة.

هذا الاستفهام الوارد في الآية يتضمّن ابتداءً أنَّ الإنسان مخلوق، وأنَّ له خالقاً، وأنّه خلَقَهُ منْ مادَّةٍ هو يَعْرِفُها، ولا يستطيع أن يتدَخَّل بشيءٍ من خلقها وتكوين عناصرها، إنَّها النُّطفَةُ المنويَّة، إحدى أدلّةِ الإعجاز الرَّبّانيّ في الخلْق.

وفي الإجابة على الاستفهام الذي جاء في هذه الآية، جاءَ

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾:

وهنا يتحدَّث عُلَماءُ البحوث التكوينيَّةِ لخلْقِ الإنسان، عن تكوين النطفة بأمُور غايَةٍ في الْعَجَب، فيقولون: إنّ النطفة الواحدة الّتي يقذفها الرجل السَّوِيُّ قد تحتوي على خمسِمائة مليون حيوان منويّ، ومن واحد فقط منها يتكوّن الجنين، لدى تلقيحه بُيَيضَة الأنثىٰ، ولدَىٰ هذا الحيوان الذي يتمّ بِه لِقَاحُ البُيَيْضة عوامل الذكورة، أو عوامل الأنوثة.

أمّا الْبُيَيضَةُ التي تكون لدى المرأة فإذا لَقِّحَتْ من حيوانٍ فيه عامل الذُّكُورَة كانت معَهُ ذكراً بخَلْقِ الله، وإذا لُقِّحَتْ من حيوان فيه عامل الأنوثة كانت معه أُنْثَىٰ بِخَلْقِ الله.

ويذكرون أموراً تثير الدهشة في عمليّاتِ سَعْي الحيوانات المنويّة التي تَشْتمل عليها النطفة، مُتَسابقَةً داخل رَحِم المرأة وأَجْهِزَتها التناسُليَّة، حتَّىٰ يظْفَر واحدٌ منها بنَطْحِ جِدَار البُيَيْضَة وكَسْرِه، للاتحاد بنواتها، إلى غير ذلك من عملياتٍ مُذْهِشَاتٍ مُتَتَابعاتٍ، حتَّىٰ يتكَوَّنَ الجنينُ ويَتَخَلَّق. ثُمَّ تَدِبُّ فيه رُوحُ الحياة الإنسانية، ثُمَّ يتكامَلُ خَلْقُهُ ونُضْجُه حتَّىٰ لحظةِ الميلاد والخروجِ من بَطْنِ أمّه إلى الحياة على الأرض.

فمن استَبْصَر بهٰذه الدلائل المدهشة، واتَّجهَ وِجْدانُه للاعتراف بالحقّ، آمن بالله العليم الحكيم القدير اللَّطيف، الذي أتْقَن كلَّ شيءٍ صُنْعاً، فسبَّحَ بحَمْدِه، وسجَدَ لَهُ خاضعاً قانتاً عابداً، إيماناً بأنّه هو الذي خلقه وصَوّره وشقّ سمْعَه وبصَرَه.

النُّطْفَة: تُطلق على المنيّ الذي يَقْذفُه الرجل، وتطْلَق على الماء القليل الصافي، وعلى الْقَطْرَة منه.

﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾: أي: مِنْ بَعْض نطفةِ مَنِيٍّ خلَقه، فحْرفُ «مِنْ» هُنَا للتبعيض، والبيانُ يتَحدَّث هنا عن حلقة من سلسلة أطوار خَلْقِ الإنسان الطويلة، وقبلها حَلقات كثيرات منها الدم، والغذاء، والماء والتراب، وما

قبلَ ذَلِك، وبعدها حلقات كثيرات، منها العلقة، والمضغة غير الخلّقة، والمضغة المخلّقة، ثم الجنين.

﴿خَلَقَهُۥ﴾: الخلْقُ هو فعل إيجاد الشيء إبداعاً على غير مثالٍ سبق، ومن غير مادّة سابقة، أو تصويراً على مثالٍ سبقَ، ومن مادّةٍ موجودةٍ سابقاً.

أمّا الخلْق الإبداعي فَلاَ يتصف به إلاّ الله جلّ جلاله إذ هو من خصائص الربّ العليّ الأعلى.

وأمّا الخلْقُ التصويريُّ من مادّة موجودة وعلى مثال سابق، فقد يكون من أفعال العباد الّتي مكّنَهُمُ الله منها، ومن هذا قول الله عزّ وجلّ لعيسى عليه السلام، كما جاء بيانه في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿...وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرَۢا بِإِذْنِى... ﴿١١٠﴾﴾.

﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾: التقدير في الْخَلْق هو جَعْل كلِّ جُزْءٍ من أجزاء المخلوق وكلّ عنصر من عناصِرِه مُقَدَّراً بمقْدارٍ مُحَدَّد، موافقٍ للغاية منه بإحكامٍ تامٍّ.

ويأتي تَنفِيذُ المقَدَّرَاتِ عَقِبَ بَدْءِ عمليَّةِ الخلْقِ مباشرة، وتَبْرُزُ ظواهِرُ الأعضاء المقدّرة في المخلوقات الحيّة، وفوارق صفاتها بعد كَوْنِها مُتَماثِلَةً في مراحل خَلْقِها الأوّل.

فتقدير الْفُروق والخصائص والصّفات والتَّخَصُّصات في الخلايا يكونُ لاحقاً للخلْق الأوّل، الذي تكُونُ فيه أفرادها متماثلة، بمقتضىٰ دَلاَلَة «الفاء» في قوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ وهٰكَذَا يكونُ الجنين نطفةً، ثم علقة، ثم مضغةً، ثُمَّ تظهر أعضاؤه وجوارحُه، بمقتضى تقديرِ بدِيعٍ حَكيم، فَيُقَدِّرها الخالق الحكيم بمقاديرها الملائمة للغاية منها، وفْقَ خُطَّتِه في خَلْقِ كُلِّ فرْدٍ من أفراد نَوْع الإنسان.

قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠﴾: أي: ثُمَّ بعد ولادته ونَشْأَتِه سَهَّلَ الله الإنسانَ وهيَّأَهُ وأعَدَّهُ مُيَسَّراً لا يجدُ عُسْراً في اتّباع السّبيل، وهو صراط الله المستقيم، الذي أنزل الكتُبَ وبَعَثَ الرسُل لبيانه والهداية له.

يَسّرَهُ: أي: سهّله وهيّأه وأعَدَّهُ مُيَسّراً، ويكون التسهيل بإعطاء الوسائل وتذليل الموانع والعقبات.

وفي تحليل هذه العبارة لدَينا وجْهان.

الوجه الأوّل: أن يكون أصْلُ العبارة ثُمَّ يَسَّرَهُ لِسُلُوكِ السبيل، فحذفت كلمة «سلوك» إيجازاً، وقُدِّم: «للسّبيل» على الفعل مراعاً للنَّسَق الجمالي في الآيات، وبَعْدَ ذلك حُذِف الجار، فانتصب لفظ «السبيل» بنزعِ الخافض، فصارت العبارة ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠﴾.

فعل «يَسَّرَ» يتعدّى لمفْعُولٍ به واحد، ويتعدّى للمفعول الثاني بالجار.

والمعنى: ثم يَسَّرَ الله الإنسان بما وهبه من صفات، لسلوك سبيل الله، الذي هو سبيل هدايته ونجاته وسعادته الأبدية، فإذا شاء الإنسان سلكه، ويساعده الله على سلوكه ويمُدُّه بمعونته.

الوجه الثاني: أنْ يكون فعل «يَسَّرَ» قدْ ضُمِّن معنى فعل «هَدَى» وتقدير العبارة: ثمّ يَسَّرَهُ هَادِياً إيّاهُ السبيل. وإذْ حُذِف الفعل الذي جعل ضِمْنَ فِعْلِ يَسَّر، فإنَّ تقدير العبارة يكون: ثم يَسَّرَهُ السَّبِيلَ، وبعد هذا قُدِّمَ السبيل مراعاة للنَّسَق الجمالي، فصارت العبارةُ: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠﴾ أي: ثم هداه السبيل ويسَّرَهُ لسلوكه.

والمراد بالسبيل فيما أرى صراطُ الله المستقيم، لا مَخْرَجُ ولادة الجنين، لأنَّ العطف قد جاء بحرف «ثم» الدَّالّ على التراخي، ولو كان المراد سَبِيلَ خُروج الجنين من رحم أُمِّه لكان المناسب أن يُعْطَفَ بالفاء.

وسبيل الله يُعْلَم ويُيَسَّرُ الإنسانُ لاتّباعه بعد بلوغه سِنَّ التكليف، فالمناسبُ مع هذا المعنى العطف بحرف «ثم».

وقد استقرأْتُ وسَبَرْتُ كلمة «السّبيل» مُعَرَّفةً في القرآن فوجَدْتُها مثْلَ كلمة «الصّراط» فهما في الجوانب الفكريَّة والسلوكية يُرَادُ بهما صراط الله وسبيله في الدين، وأحكام شريعَتِه لعباده، ومنها قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول):

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾:

أي: إمّا أن يكونَ شاكراً ولو شكراً جُزْئيّاً يُنْجيه من الخلود في عذاب النار، وإمَّا أَنْ يكون كَفُوراً مُبَالِغاً في كُفْرِهِ، ليس لديه أَقَلُّ مقدارٍ من الشُّكْرِ، فهو يستَحِقُّ الخلود في عذاب النار.

فحَمل السبيل على هذا المعنى الذي تواطَأَتْ عليه الآيَات القرآنيّة أولَىٰ من حَمْلِهِ على مَعَانِي أُخْرَىٰ ذكرها بعْضُ أهل التأويل[١].

وهو الذي يتناسب مع الترتيب الفكري في آيات الدرس تناسباً تامّاً، وينسجم معها انسجاماً معقولاً سوابقها ولواحقها.

ولا مانع من اعتبار سبيل الله مُيَسَّراً فَهْمَا من النصّ، فقد دلّت النصوص على أنّ القرآن ميسَّر، وعلى أن الدين يُسْر.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾

(١) إنّ خلْقَ الإنسان بدْءاً من النطفة حتَّىٰ الاكتمال والبلوغ والاستعداد التامّ لتحمُّل المسؤوليّة في الحياة الدنيا مَرْحَلَة.

(٢) وَإِنَّ تحَمُّلَهُ مسؤوليّة ابْتِلَائِه في الحياة الدنيا، مع هدايتِهِ إلى سبيل الله فيها وتَيْسِيرَهُ لسلوك هذا السبيل وتيسير السبيلِ له، مرحَلَةٌ ثَانية.

---

(١) انظر الملحق الرابع من ملاحق تدبر سورة الفاتحة.

(٣) وَإِنَّ إِمَاتَتَهُ وإقباره إلى يوم البعْثِ والنُّشُور مرْحَلَةٌ ثالثَة، وهي المدَّةُ الفاصلة بين انتهاء حياته الأولى حياة الابتلاء، وبَدْءِ حياته الأخرى حياة الحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء.

(٤) وإنَّ بَعْثَهُ إلى الحياة وإنشاره لمحاسبته وفصل القضاء بشأنه ومجازاته على أعماله في الحياة الدنيا مرحلَةٌ رابعة.

بهذا يظهرُ تتابع المراحل وتكامُلها وتناسُقُها وانسجامُها الفكريّ، بحَسَبِ ما تَهْدِفُ إليه البيانات القرآنيَّةُ بِوَجْهٍ عامٍّ.

وإذا عَرَفَ الإنسانُ هٰذهِ الخُطَّةَ الرَّبَّانيّة، وآمن إيماناً صحيحاً صادقاً، كان على بَصِيرةٍ مِنْ أَمرِ وُجُوده والغاية منه، ومَسْؤوليّتِه في الحياة الدنيا.

ولا عُذْرَ بعد البيان الرَّبَّانيّ المقرونِ بالحجج والبراهين لكافرٍ جاحدٍ، أَوْ شَاكٍّ، لأنّ شكّه لا يَسْتَنِد إلى ما يُعْذَرُ به عند ربّه.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾: **الإِمَاتَةُ**: هي سَلْبُ الحياة عن النفوس الّتي سبَقَ أنْ مَنَحَها اللَّهُ الحياة. وقد جاء العطف بحرف «ثُمَّ» الدّالّ على التراخي، لأنَّ الإنسانَ المكلّف لا يكون موتُهُ قبل أن يَبلُغَ مَرْحلَةَ التكليف، وقبل أن يمُرَّ عليه زَمَنٌ كافٍ لامتحانه.

لقد خلَق الله الإنسان في الحياة الدّنيا ليبْلُوه، ثمَّ لمَّا انْتَهَتْ مُدَّةُ ابتلائه أَمَاتَهُ، وقَدْ قَدَّر اللَّهُ وقضَىٰ أَسْبَابَ الموت، ضِمْنَ سُنَّتِهِ فيما خلَق من كائناتٍ حيَّةٍ، فهُو سبحانه المميتُ لكُلّ نَفْسٍ تموتُ، وقد أبان جلَّ جلالُه في كتابه أنَّ كُلَّ نَفْسٍ ذائقَةُ الْمَوْت.

وحينما يتَدَخَّل ذَوُوا الإراداتِ الحرَّة، فيتّخذونَ أَسْبابَ مَوْتِ ذي نَفْسٍ حيَّةٍ، فالأمْرُ يكون على أحد وجهين:

الوجه الأوّل: إذا كان لله عزّ وجلّ إرادَةٌ في الإمَاتَة ضِمْن الأجَلِ

المحدّد بقضائه وقَدَرِه، مَكّنَهُمْ من أسبابهم، وأوصَلَها إلى الإماتة، فالْمُمِيت في الحقيقة هو الله عزّ وجلّ بقضائه وقَدَرِه وفِعْله، وأمْرِه أو إذْنه.

على أنَّ المتعدِّيَ من الناس بالْقَتْلِ يتَحَمَّل مسؤوليّته كامَلةً، لأنَّه عصَىٰ وأجرم باتّخاذ الأسباب.

الوجه الثاني: إذا لم يكن للّهِ عزّ وجلَّ إرادةٌ في الإماتة، صَرَفَهُم الله، أو لم يُمَكّنهم من اتّخاذ الأسباب، أو قَطَع أسْبَابَهم من أوْسَاطها، أو لم يُوصِلْها إلَىٰ الإمَاتَةِ بأَلْطَافِهِ الخفيَّة.

﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾: أي: وَارَاهُ في قَبْرٍ تكرِيماً لجَسَدِه عن أَنْ تنتشر رائحة ما يتفسَّخ منه، ويكون كجِيَفِ البهائم.

وهذا التكريم قد تمّ بشَرِيعة الإقبار، والهداية إليه، فشريعةُ دَفْن موتى الناس في القبور مما اتفقت عليه جميع الشرائع الرّبّانيّة، منذ عهد الإنسان الأول، أخذاً من الخطاب الشامل للإنسان بوجه عامّ، ويؤكّد هذا قصّةُ ابْنَيْ آدم قابيل وهابيل، إذْ لمَّا قَتَل قابيلُ هابيلَ تحيَّر كيْفَ يواري سَوْأَة أخيه، حَتَّىٰ بَعَثَ اللَّهُ لَهُ غُرَاباً يَهْدِيه إلى إقباره، بما فَعَل بغُرَابٍ ميّتٍ.

قال الله عزّ وجلّ بشأن القاتل منهما لأخيه في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

وابتدع الهنادكة في الهند إحراق موتاهم، وابتدع مجوس الفرس إلقاء موتاهم لسباع الطير، وكذلك بعض أهل الجاهلية العربية، وكرم الله جسد الإنسان بالإقبار، هداية وتشريعاً.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾:

أي: ثُمَّ بَعْد مُرور زَمن البرزخ الفاصل بين الموت والبعث للحياة الأخرى، وبعَدَ زِيَارَةِ الْقَبْر[1] طَوال زمن البرزخ، يُنْشِرُه الله، ويَبْعَثُه إلى الحياة الأخرىٰ، حياة الحساب وفَصْل القضاء وتحقيق الجزاء الأمثل.

وهذا البعث هو المرحلة الرابعة من مراحل تكوين الإنسان، تنفيذاً لما سبقَ به قضاء الله وقَدَره.

﴿أَنشَرَهُۥ﴾: أي: أحْياهُ بعد الموت، تقول لغة: نَشَرَ اللَّهُ الميّت نَشراً وَنُشوراً، وأنْشَرَهُ الله إنْشَاراً، أي: أحْيَاهُ بعد الموت.

وتقولُ: نَشَرَ الميّتُ «بصيغة الفعل اللاّزم» أي: عاد إلى الحياة.

﴿إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾: ربَط الله الإنشار بمشيئته الّتي سوف تتوجَّهُ مستقبلاً لتنفيذ ما سبق أن تمّ به قضاؤه وقَدَرُه. أخذاً من دلالة «إذا» الّتي هي ظرف لما يُسْتقبل من الزمن، إشارةً إلَىٰ أَنَّ وقْتَ البعث ممّا أخفاه اللَّهُ علَىٰ كلّ خَلْقه، فلا يَعْلَمُ وقْتَه، ولا الأسْبَابَ ولا الأَحْداث الّتي قد تُعْطِي ظنًّا بوقْتِه إلاَّ الله وحدَه، جلّ جلالُهُ، وتباركَتْ أسْماؤه وصفاته.

فالمشيئَةُ هنا مشيئة التنفيذ، لا مشيئة القضاء والقدر السابقة في خُطّة التكوين، إذْ إنَّ وقْتَ الإنشار مُقَرَّرٌ في عِلْمِ الله سابقاً.

فلا مطمع لأحد من الخلائق مهما عَلَتْ مَنْزِلَتُه عند الله في أَنْ يَعْلَم وقْتَ الإنْشار، إنّه ممّا استأثر اللَّهُ بعلْمِه لمقتضيات حكمته جلَّ جلاله.

كذلك أَخفى الله عزّ وجلّ وقْتَ السَّاعَةِ الّذِي تنتهي فيه ظروف هذه الحياة الدنيا.

---

(١) المراد بالقبر مكان وُجود النواة التي لا تُدْرَكُ بالأبصار، والّتِي تكون منها النشأة الأخرى، إذ الغالب أن تكون منثورة في قبرٍ من القبور أو في التراب.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣﴾:

﴿كَلَّا﴾: كلمة زجْرٍ لهذا الإنسان الذي قال الله بشأنه: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧﴾ والمرادُ به الإنسانُ الكافر.

لقد أعطاه اللَّهُ مُدَّةَ عُمْرِهِ في الحياة الدنيا، وأمْهَلَهُ إمْهالاً كافياً، ليُؤمن ويَعْمَلَ عملاً صالحاً، ويَتُوبَ إلى ربّه.

لكنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ، وقد كان بإمكانه أن يُنْجيَ نَفْسه ولو قبل أن يدركه الموت بلحظات لم تصل فيها نفسه إلى عتبة الموت. ولم تبلُغْ رُوحُه الحلقوم، لقَدْ أدْرَكه الموت وهو على كُفْرِهِ وجُحُودِه وفُجورِه.

وَكلمة ﴿لَمَّا﴾ في الآية حَرْفٌ جازمٌ للفعل المضارع، وهو يجزمُهُ لفظاً، ويَقْلِبُ معناه إلى الماضي مثل حرف «لم» ومعنى حرف «لمَّا» النفيُ، ولكن يَدُلُّ على أنَّ منفيَّهُ مُتَّصِلُ النفي إلى ما قبْل النُّطقْ مباشرةً، وكان بإمكانه تغيير حالة النفي هذه بالقيام بما نفته ولو قَبْلَ لحظة بَدْءِ النطق مباشرة.

وَإذْ قَدْ جَعَل اللَّهُ للإنسان مجالاً لأن يَتُوبَ ما دامَ حيّاً، لم يُدْرِكْهُ الموتُ، ولَمْ تَبْلُغْ رُوحُهُ الحلْقُوم، فإنَّ أَدَقّ تعبير للحُكْم عليه إذا مات قبلَ أن يتوب ويؤمن، أن يقال بشأنه: لمَّا يَتُبْ، لأنَّ فُرْصَةَ التوبَة قد كانت مهيَّأَةً له إلى ما قَبْل لحظة بلوغ روحه الحلقوم.

وقد كان له رجاءٌ حتَّىٰ لحظة ما قبل الموت أن يقبل الله توبته وإيمانه واستغفاره، لو شاء هو أن يَتُوبَ ويُؤْمِن ويستغفر، فينجوَ بذلك من الخلود في عذاب جهنّم، لكنّه لم يفعل، وساعَتَئِذٍ يَصْدُر القرار الحكميّ بشأنه: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣﴾ أي: لمَّا يُنَفِّذْ ولمَّا يُمْضِ مَا أَمَرَهُ رَبُّه به، من إيمان وإعلانٍ للطاعَة والإسلام، ولو أنَّهُ قَضَىٰ وأمْضَىٰ بالتّنفيذ ما أَمَرَه الله به لنجا من الخلود في عذاب النار.

لقد ظلَّ بابُ الرجاءِ مفتوحاً له، حتَّىٰ قُبَيْلَ اللَّحَظَاتِ الّتي نزلَ به فيها الموت، لكنَّهُ انْقَطَعَ رجاؤه مُنْذُ لامَسَتْ نَفْسُه عتبة الموت، وشاهد بعض حقائق ما بعد الموت، لقد انتهت حياة امتحانه، وظهرت عند أواخرها لَوْحَة: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ وثبتت ظاهرةً علىٰ رأْسِهِ، وجاء مُفَصَّلُ مرحلة الموت عقبَ ذلك.

هكذا حَصَلَ لفرعون حين أدْرَكه الغرق، وبدأ يذوقُ سكَراتِ الموت، وبعد أن انتقل إلى مَفْصِل مرحلة الموت قال: آمَنْتُ، لكنَّهُ لم يَنْفَعْهُ إيمانه ساعتئذٍ، وبَقِي حاملاً على رأْسِه لوحة: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/١٠ مصحف/٥١ نزول) بشأنه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾.

لقد كان باستطاعة الإنسان الكافر الذي ماتَ ولم يُؤْمِنْ، أَنْ يتدارَكَ نَفْسَهُ قَبْلَ الموت بلحظات يؤمِنُ بها حينما كان يُحسُّ أن الحياة فيه مستقرَّةٌ، ولا يُكلّفُهُ ذلك إلاَّ أن يُؤْمِنَ بقَلْبه، ويُعْلِنَ ما يستطيع أن يُعْلنَهُ بلِسَانِه، لكنَّهُ لم يفعل.

(٨)
التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس السّورة

وهو الآيات من (٢٤ ـ ٣٢)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

تمهيد

في هذا الدّرْس أمْرٌ جازمٌ للإنسان الكافر على وَجْه الخصُوص، وفيه أيضاً لفْتُ نَظَرٍ لكلّ إنسانٍ يَنْتَفِعُ لِنَفْسِهِ، أو لأساليب دَعْوته إلى سبيل ربّه.

فما هو المأمُورُ به؟

يأمُرُ الله عزّ وجلّ الإنسان بأن ينظر نظر تفكُّرٍ إلى طعامه، أي: إلى وسائل وظواهر إعداد الله التكوينيّ له، في ظاهرات الكون، لِيَسْتَدِلّ من كلّ ذلِكَ على رحمة الله بعباده، وعنايته العظيمة بالإنسان، في إعداده الطعامَ له، بوسائلَ تكوينيَّةٍ لا يَمْلِك الإنسان من جوهرها الفعّال شيئاً، وما يَمْلِك الإنسانُ بالتسخير الرَّبَّانيّ، لا يَعْدو بعض وسائل ظاهرة مَكَّنَهُ الخالق منها، لتكليفه العمل في الحياة الدّنيا، أمّا آلاف الوسائل الظّاهرة والخفيّة، فإنَّها تجري ضِمْن مقادير الخلق الرَّبَّاني، دون أن تكون مسخَّرَةً للإنسان.

فمن الوسائل المسخّرة للإنسان في مجال الأطعمة، حَرْث الأرض، وإلقاء البزور فيها، وإجراء الماء إليها إذا لَمْ يكُن الزّرْع مَطَرِيّاً، وشيْءٌ من التعهُّدِ للرّعاية والحمايَةِ والحفظ.

أمّا فَلْقُ الحبِّ والنَّوىٰ، وإنباتُ النَّبات في توالي اللحظات، وإنماءُ الزُّرُوعُ، وتَكوينُ السُّحب، وسَوْقُها وإنْزال الأمطار، وإعطاءُ كلّ شيْءٍ خلقه، وملايين الأحداث المتتابعة، فإنَّما تَتِمُّ بخَلْق الله وحده لا شريك له.

وقد جاء هذا الدَّرس الثالث مُتَرَتّباً ترتيباً منطقيّاً على ما جاء في الدرس الثاني من دروس السورة، الذي اشتمل على ما يلي:

(١) سؤال الإنسان الكافر عن سبب الكفر الذي كابر فيه، وأصَرَّ عليه، على الرُّغم من أدلّة الإيمان الموجودة في ذاته وفي الكون من حوله.

(٢) سؤاله عن نشأته المليئة بآيات الخالقِ البارئ المصوّر.

(٣) بَيَان الغايَةِ من رحْلَته في الحياة الدنيا، وهي الابتلاء في ظروفها المختَلِفة والمتنوّعة، وإدراكُ هذه الغاية يَهْدِيه إلى المصير الذي هو صائر إليه لا محالة في حياةٍ أخرى بَعْدَ بَرْزَخ الموت.

هذه القضايا الّتي اشتمل عليها الدرس الثاني تَسْتَدعي تكليف الإنسان أن يَنظُرَ إلى آيات الله في كَوْنه، وفي مُقَدِّمَتِها طَعَامُه، الذي هيّأ اللَّهُ له أسْبَابَه في كونه، فجاء الدّرس الثاني مبتدِئاً بتوجيه التكليف للإنسان، أنْ ينْظُر إلى طعامه، كيف هيّأ الْبَارئ الحكيم له أسبابه.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾:

التدبر:

أمْرٌ جازِمٌ حازمٌ بالنظر إلى الطعام، وظاهرٌ أنّه لَيْس المرادُ مُجَرَّدَ النظر بالباصِرَة، بل المرادُ النظرُ المصحوبُ بالتفكُّر والتَّأمُّل، واسْتِخْراجِ الروابط والْعِلَلِ والأسباب والغايات، ومعرفة دلائل الآيات الكونيّة الكثيرة المنبثّة في الأرض وفي السّماء، لإعداد طعام الإنسان في الكون، ومنها أشعّة الشمس وما يسببه القمر من مدٍّ وجزرٍ في البحار، ومنها تَبَخُّر المياه من المحيطات، وتكْوِينُ السُّحب وسَوْقُها، وإنزالُ الأمطار من السَّمَاء، إلى غير ذلك ممّا يكشفُه البحثُ العلميُّ الإنساني.

إنّ النَّظَر إلى الظواهر الكونيَّة دُونَ تعمُّقٍ فيها، ودون بحْثٍ عَنْ دلالاتِها، نَظَرٌ حاصل للجميع، كافِرين ومؤمنين، ويسْتَمْتِع بجمَاله وبدائعه كُلُّ ذي حسٍّ ذوّاقٍ للْجَمَال.

أمّا النَّظَرُ المصحوبُ بالتفكر والتأَمُّل والتدبُّر، فهو من شأن العلماء الباحثين، ومن شَأْن المؤمنين المستجيبين للأمْر الرَّبَّانيّ بالنظر.

● قَـوْلُ الـلَّـهِ عـزَّ وجَـلَّ: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

عرضَتْ هٰذِه الآياتُ صُورَة مشْهَدٍ متحرّكٍ بديع، يُقَدِّم أبْرَزَ أحداثِ فَصْل نَباتيّ، يَبْدَأُ بالشِّتاء مُرُوراً بالرّبيع، حتّىٰ فصْل الحصاد، مع الرَّتْعِ في خيراتِ الزَّرْعِ والثَّمرِ، غِذاءً وفاكِهَةً للنَّاسِ والأنْعَام، ومتعةً جماليةً رائعة.

وفي عرض هذا المشهد الْبَدِيع لفْتُ نظَرِ الفكر إلى بديع صُنْع الله الّذي أتْقَن كُلَّ شيءٍ صُنْعاً، وَإِلَى عظيم أَلْطَافِهِ الخفيَّة، وفيه أيضاً لَمْسُ مشاعر الوجدان لمساً رفيقاً حُلْواً، لإيقاظ دَوَافِعِ شُكْرِ المنْعِمِ من أعْمَاقه.

وفي التّفكّر في ظواهر إعداد طعام الإنسان، تُسْتَخْرَج أدلَّةٌ كافية للإيمان بالله، وبكتابه، وبرَسُوله، وباليوم الآخر للحساب وفَصْل القضاء وتحقيق الجزاء، وأدلَّةٌ تَهْدِي إلى وجوب اتِّباع سبيل الله للنَّاس في رحْلَةِ ابتلائهم عَبْرَ الحياة الدُّنيا.

وهذا الإعداد يتمُّ بوَسِيلة إنْبَاتِ النبات من الأرض، القائمة على عِدَّة شروط ظاهرة:

الأوّل: التُّرابُ الصالح للإنبات.

الثاني: الماء الّذي يختلط بتُراب الأرض، فيُمِدُّ البزور والجذور بما يلْزَمُ لَهَا لتَنْبُتَ.

الثالث: البزور والجذور المشتملة على الصِّفَاتِ والخصائص القابلة لأن تَنْبتَ وتَتَنامَىٰ وتتكاثر، وتُخْرِج من الثَّمَراتِ والْخَضِرِ مَا هو غذاء الإنسان والحيوان، وما هو فاكهةٌ أو شبيهُ الفاكهة.

الرابع: الضَّوْء والحرارة اللّذَان تُمِدُّ بهما الشمس.

الخامس: الرّياح الّتي تُمدُّ بالغازات الّتي تحتاج إليها النباتات.

وكلُّ هذه آياتٌ من آيات خلْق الله الّتي لا سلطان للإنسان على تكوينها، وهي من ظواهرِ نِعَم الله على عباده.

● ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥﴾: أي: فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ إلى أحد أسباب إنْعَامِ الله على النَّاس بالطعام، وهو الماء الذي يَنْزِل السماء مطراً مُنْصَبّاً، بعلْمِ الله، وحكمته، وقضائه وقَدَره، وعظيم قُدْرته، لإحياء الأرض بالنبات.

صَبُّ الْمَاءِ ونَحْوِه: سَكْبُه، وفي الصَّبِّ معنى جَعْلِ الشيء المصْبُوب يندَفِعُ من عُلْوٍ بقُوَّةٍ، مع توالي أجزاء المصبوب وتتابُعِها.

إنَّ توجيه نظر الإنسان للتفكّر في هٰذِهِ الظاهرة يَسْتَدْعي التأمُّل والتفكُّر والتَّدَبُّر في قوانين تبخُّر الْمِياه، وسَوْقِ السَّحَاب، وتجمُّعِها رُكاماً، وتَلَقُّحِها بالرّياح، وعَوَامِلِ تجمُّعها قَطَراتِ ماءٍ، ثُمَّ هُطولِها مُنْصبَّةً من السَّماء على الأرض.

ولِعُلَماء الكَوْنيَّاتِ في هذا المجال بحوثٌ كثيرةٌ دقيقَةٌ ونفيسة. وهي مشحونَةٌ بأدلَّةِ آيات الله الخالق البديع العليم الحكيم القدير.

● ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦﴾: جاء العطف بـ«ثُمَّ» لأنَّ شَقَّ الأرض لِخُروجِ النبات منها مُتَراخٍ عن إنزال المطر.

وفي هٰذِه الآية إرْشادٌ للنظر إلى آيَةِ شقِّ الأرض لخروج النباتات منها، ألَسْنَا نُشَاهِدُ أنَّ عِرْق النَّبات الناعِم الضّعيف، يَفْلِقُ الصخرة ويشُقُّها شقّاً ليَخْرُجَ فَوْق سَطْحِ الأرض، فيمْتَصَّ غذاءَه من الضياء وحَرَارَة أشِعَّة الشمس، ومِنَ الْغِلَافِ الغازي المحيط بالأرض.

إنَّ التفكُّر في هذه الظاهرة يَسْتَدْعي بحوثاً علميَّةً دقيقة، تتَّصِلُ بعمليَّاتِ انفلاق البزور، وامْتِداد الجذور والعروق في الأرض والجوّ ونباتها، وظُهُور الزَّرْع والشَّجَر والثمر.

ولعُلَماء الكونيات في هذا المجال بحوثٌ دقيقة ونفسية، وهي مشحونة بأدلَّةِ آياتِ الله الخالق البديع العليم الحكيم القدير.

• ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧﴾: جاءَ العطف هُنَا بـ«الفاء» الّتي تدُلُّ على الترتيب مع التَّعَاقُب، لأنَّ عمليّاتِ شقِّ الأرض بالنباتاتِ متواصِلَةٌ ما دام النبات ينمو، وظهورُ الحبِّ في النباتات يأتي مُرَتَّباً بِتَعَاقُبٍ، على عمليَّاتِ شقّ الْأَرْضِ لظهور النباتات وتناميها.

في هذه الفقرة من فِقَراتِ المشهد البياني توجيهٌ للتفكُّر في كُلّ نباتٍ يُنْتِجُ حبّاً، كالْقَمْح والشّعير والذُّرَةِ والأرزّ والْعَدَسِ والفول. إلى سائر الحبوب الغذائيَّةِ والدوائيَّة، والحبوب ذَواتِ الطُّعُومِ والرّوائِح المطيّبَةِ للأطْعِمَةِ، والمشهّيةِ لتناوُلها، والأكْلِ منها.

وفيها توجيه للتفكُّر في طعام الإنسان من لحوم الحيوانات، المشاركات للإنسان في أكل الحبوب، وفي نُمُوّ أجسادها على ذلك.

• ﴿وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨﴾:

وفي هٰذه الفِقَرَة من فقرات المشهد البيانيّ تَوجيهُ نظر الإنسان إلى طعامه من ثمار الشجر الّذي يُعَمِّر سنين عديدة، وجاء في هذا البيان البدْءُ بشجرة العنب، لِعِظَم قيمة العنب في حياة النّاس غذاءً وفاكهة.

﴿وَقَضۡبٗا﴾: **القضْبُ**: ما يُؤكَلُ من النّباتِ غضًّا طَرِيّاً، وهو في الغالب ممّا تأكُله الأنعام، ومن القضب أوراق وأغصان شجرة العنب.

ولمّا كانَتْ شجرةُ العنب تُعْطي عِنَباً وَقضباً معاً، كان ذكْرُهُما مقترنَيْنِ دالاً على هذه الشجرة العظيمة في عطائها، وجزيل كَرَمِها، ولهذا سمَّاها الناس كرْمة.

إنَّ أشجار العِنَب من نِعَم الله الجليلة على النّاس في الحياة الدنيا.

• ﴿وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩﴾:

وفي هٰذِه الفقرة من فقرات المشهد البيانيّ توجيه نظر الإنسان للتفكُّر

في شجرتين عظيمَتَيْنِ في حياة الناس، شجرة الزيتون، وَشجرة النَّخْل.

أمّا شجرة الزيتون فهي من الأشجار المعَمِّرة، ذات النَّفْعِ العظيم غذاءً ودَوَاءً، ويُسْتَخْرَج من ثمرها دُهْنٌ ذُو نَفْع جليل، يكاد لا يعادله دُهْنٌ آخر، وفي سائر أجزائها منافع كثيرة للناس.

وكذلك شجرةُ النخل ففيها منافع للناس عظيمة، غذاءً وفاكهة، ودواءً، وغير ذلك من منافع.

• ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢﴾:

﴿وَحَدَآئِقَ﴾: **الحديقةُ**: كلُّ أرضٍ ذاتِ شجر مثْمر أَحاط بها حَاجز.

﴿غُلْبًا﴾: أي: تكاثَفَتْ أشجارها والْتَفَّت، يُقال لغة: حَدِيقَةٌ غَلْبَاءُ، أي: كثيفَةُ الأَشجار مُلتفٌّ بعضها على بعض، وفي الجمع يقال: حدائقُ غُلْبٌ.

﴿وَفَٰكِهَةً﴾: **الفاكهة**: الثمار اللَّذِيذة ذات الطعم الطيّب.

﴿وَأَبًّا﴾: **الأبُّ**: مَرْعَىٰ الحيوان من نبات الأرض، وهو للحيوان بمثابة الفاكهة للإنسان، أو الكلأ كُلّه، وقيل: نَبْتُ الأَرْضِ مما تأكل الناس والأنعام.

﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢﴾: **المتاع**: كُلُّ شيءٍ يُنْتفع به مدّة ثُمَّ يأتيه الفناء، وهو يشْمَل كل ما فيه منفعة أو لذة من مأكل أو مشْرب أو مَلْبَس أو مسكن أو مركب أو منكح، أو أداة لشَيْءٍ، من ذلك.

وقد جاء في القرآن تخصيص لفظة «المتاع» ومشتقاتها بالأشياء ذَوات المنافع الزائلة في الدنيا، أمّا ما يصيبه المتّقون في الجنّة يوم الدين فقد جاءَتْ تَسْميَتُه في القرآن نعيماً، للتّنبيه على أن النعيم له صفة الدوام، وأنه مقيم.

الأنعام: هي الأموال الراعية، ولفظ الأنعام يذكر ويُؤنث.

وقد جاء النشرُ مَرَتباً على وفق اللّف، في عِبارَتَيْ: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢﴾ فالفاكهةُ متاعٌ للنَّاس، والأَبُّ متاعٌ للأنعام، وهذا من المحسّنات المعنوية البديعة عند علماء البلاغة، ويسمُّونه اللّفّ والنَّشر المرتّب.

في هذه الآيات الثلاث جاء البيان القرآنيُّ عامّاً، بعْدَ كان البيان قد خَصّص العِنَب والقضب، والزيتون والنخل، فنبَّهَ بالتعميم على كلِّ الأشجار الّتي تتكَوَّنُ مِنها مجتمعةً الحدائِقُ الغُلْب، ونَبَّه على كُلِّ أنواع الفاكهة المهيَّأَة للإنسان، وكلّ النَّباتَات المهيَّأَة للحيوان الّتي تشبه الفاكهة الّتي يتفكَّهُ بها الإنسان، وجاء في آخر هذا البيان قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢﴾.

فخاطب الله جلّ جلاله الناسَ جميعاً، بَعْدَ أن كان الخطاب مُوجّهاً للإنسان بأسلوب الحديث عن الغائب، وبأسلوب التوجيه الإفراديّ لكلّ إنسان، وفي هذا التفاتان، أحدهما التفات من الغيبة إلى الحضور، والآخر التفاتُ من الحديث عن المفرد، الذي يُقْصَدُ به كلُّ فرد على التّناوب، إلى خطاب جميع المؤهّلين للخطاب من الناس.

ومما جاء في تسمية ما في الجنة من لذَّاتٍ وأنواعِ سعادات بأنّه نعيم مقيم، قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) بُشْرَىٰ للفائزين يوْمَ الدّين:

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٢﴾.



(٩)

التدبر التحليلي لآيات الدَّرْس الرابع من دروس السورة

وهو الآيات من (٣٣ ـ ٤٢).

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

هذا الدرس الأخير من دروس السورة، يَعْرِضُ مَشهداً من مَشَاهد يوم القيامة، يوْمِ البعث للحساب وفَصْل القضاء وتنفيذ الجزاء، وهو مرتبطٌ بقول الله عزّ وجلّ في الدرس الثاني من دروسها:

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾.

إنّ هذه الآية قد استدْعَتْ عَرْضاً فيه شيْءٌ من التّفْصيل لمشْهَدٍ من مشاهِدِ يوم القيامة، الذي تظهر فيه المرحلة الرابعة من المراحل البارزة الظاهرة لوُجُود الإنسان.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾:

أي: فإذا جاءت الصَّاخة الّتي يكونُ بها إنْشارُ الموتَىٰ، وبَعْثُهم للحياة الأُخرىٰ، لتحقيق المرحلة الرابعة من مراحل خَلْقِ النَّاس، كان الناس منقسمين إلى قسمين: ذوي وُجوه مسفرة، ضاحكة مستبشرة، وذوي وجوه عَلَيْهَا غَبَرَةٌ، تَرْهَقُهَا قَتَرَة.

فجواب «إذا» الشرطية هنا محذوفٌ دلَّ علَيْه قوْلُ الله عزّ وجلّ:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾.

﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾: اسمٌ وصْفِيٌّ من أسماء يوم القيامة، وهَذَا أوّل اسْمٍ من أسْمَاءِ هذا اليوم جاء في نجوم التنزيل.

أمَّا لفظ: [الآزفة] أي: القريبة، الذي جاء في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) فهو اسْمٌ للسَّاعَةِ الّتي تكُونُ فيها أحداث إنْهَاء نظام الحياة الدنيا إنْهاءً كُلِيًّا، وبعدها تمضي مُدَّةٌ بَرْزَخِيَّةٌ فاصِلَةٌ بين الحياة الدُّنيا والآخِرَة.

روىٰ الطبريُّ بسَنَدِهِ عن عَلِيٍّ وابْنِ عبَّاسٍ أنَّ «الصَّاخَّةَ» اسم من أسماء يوم القيامة، عظَّمَهُ الله وحَذَّرَهُ عِبَادَه.

الصَّخُّ في اللُّغَة: الضَّرْبُ بالحديد على الحديد، أو الضربُ بالعصا الصُلْبَةِ علَى شيءٍ مُصْمَتٍ.

وكُلُّ صَوْتٍ صَادِرٍ من أثَرِ وقْعِ صَخْرةٍ على صَخْرَةٍ، فَهُو في اللُّغَةِ صَخٌّ. تَقُولُ: ضَرَبْتُ الصَّخْرَةَ بحَجَرٍ فَسَمِعْتُ لَهَا صَخَّةً.

فلفظ «الصَّاخّة» الَّذي سُمِّيَتْ بِهِ القيامة:

- إمَّا اسْمُ فاعل من صَخَّ يصُخُّ صخّاً، فهو صَاخٌّ وهي صاخَّة.
- وإمَّا مصْدَرٌ بمعنَىٰ الصَّخّ.

وقال أبو إسحاق: الصَّاخَّةُ هي الصيْحَةُ الّتي تكونُ فيها القيامة، تَصُخُّ الأَسماع.

أقول: الظاهر أن هذه الصاخة هي الصّوتُ الذي يَصُخُّ نُفوسَ الموتى، حين يُنْفَخُ في الصور النفخةُ الثانية، فتدْخل الأرواح في النفوس، وتَنْبُتُ الأجساد الّتي دبَّتْ في نفوسُها الحياة، ويخرُجُ المبعوثون مُنْتَشِرين، إلى ربّهم يَنْسِلُون.

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ۝٢١﴾.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ۝٥١﴾.

الأجداث: الْقُبُور.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤﴾:

إنَّ حُدُوثَ «الصَّاخَّة» مُؤْذِنٌ بِبَدْءِ الْيَوم الآخِر، يوم الحساب وفَصْل القضاء وتحقيق الجزاء، وأوّل أزمَان هذا اليوم ظرفٌ لحدوث الصَّاخَّة، وتأتي بَعْدَها أزمَانٌ وأحداثٌ، كُلُّها مَظْرُوفَةٌ بهذا اليوم الذي جعله اللَّهُ عزَّ وجلَّ غَيْرَ ذِي نهاية، إنَّ يَوْم الحياة الدُّنيا كُلَّها ينتهي بالسَّاعَةِ الّتي يكون بها الإفناء، أمَّا اليوم الآخِرُ فيَبتَدِئ بالسَّاعَةِ الّتي تَحْدُثُ فيها الصَّاخَة، ويكُونُ بها الإحياء الثّاني، ولا نهايَةَ لهذا اليوم.

ومن الأحْدَاثِ الّتِي تُشَاهَدُ في أوائل هٰذَا الْيَوْم أنْ يَفِرَّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيه، حَذَرَ أن يَطْلُبَ مِنه مَعُونَةً، لأنَّه مَشْغُولٌ بهُمُومِ نفسه، خائفٌ من عذابِ رَبِّه على معاصيه إنَّه لَيَوْمٌ عَصِيبٌ.

الْمَرْءُ: هو الرَّجُل الْكَامِلُ الرُّجُولة، ولعلَّ في اختيار كلمة «الْمَرْءِ» هُنَا بدَلَ الإنسانِ إشارةً إلى أنَّهُ ذُو مُرُوءة، وهِيَ كَمَالُ الرجوليَّة.

وإذا كان المرْءُ يفرُّ من أخيه فمِنْ باب أولى أن يفرّ ممَّن هو أبْعَدُ قرابَةً من أخيه، وأنْ يفرّ أيّ إنسان آخر هو دُون المرْءِ في الرجوليَّة والْمُروءَة.

● قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥﴾:

أي: ويَفِرُّ المرءُ من أُمِّهِ وَأبيه، وفي بيان هذا ارتقاء من الأخ، إلى الأمّ والأَبِ اللّذَانُ هُمَا أكْثَر قَرابَةً، وحَقُّهما عَلَيْه أكثر من حقّ أخيه.

وجاء في البيان تقديم الأمّ مُراعاةً للنَّسَقِ الجماليّ في الآيات، ولأَنَّ الأُمَّ أكْثَرُ تَعلُّقاً بولَدِها مستَنْجِدَةً بِه من الأب، فَفِرَارُهُ مِنْها آكَدُ عِنْدَه.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦﴾:

أي: ويَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ صاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، وفي بيان هذا ارتقاءٌ أيضاً مِنَ الأُمّ والأَب، إلى الصَّاحِبَةِ والبنين. لأنّ هوَىٰ الإنسان مرتبطٌ بصَاحِبَتِه الّتي يُحِبُّها أشَدَّ من ارتباط عاطفَتِه بأُمِّهِ وَأبِيهِ، ولأَنَّ ارتباط عاطِفَتِه ببَنِيه أشد من ارتباطه بصاحبته.

فالْعَطْفُ ولو كان بالواو الّتي تدلُّ على مُطْلَق الْجَمع، إلاَّ أنَّ ترتيب المعطوفات قد لوحظ فيه معنى الارتقاء الطبيعيّ، وهذا من بدائع الترتيب اللفظي في القرآن.

ولعلّ في اختيار كلمة ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ دون لفظ [زوجته] معنى مقصوداً، ويظهر هذا في أمْرَين:

الأمر الأول: أن تكون صاحبتُه في الدنيا غير ذاتِ صفة شرعيَّة تجْعَلُها زَوْجةً له، فالعلاقة بينهما علاقة حبّ.

الأمر الثاني: أن تكون زوجَتُه في الدنيا مَكْرُوهَةً له غير محبُوبَة، فَمِنْ شأنِه أن يَفِرَّ مِنْها، فمِنْ غير المناسب ذكرها في البيان.

أمّا الصاحبةُ فهي الحبيبة الملازمةُ، وفِرَارُه منها دليلٌ على أنّه مَهْمُومٌ بنفسه، يَبْحَثُ عن نجاته، ويَفِرُّ من كلّ من يخشَىٰ أن يتعلّق به.

دلَّت هذه الآيات من (٣٤ ـ ٣٦) على أنَّ الناسَ يومَ البعْثِ قبْلَ الحساب وفَصْلِ القضاء يَفِرُّ بعضهم من بعض، حتَّىٰ إنَّهُمْ يفرُّون مِنْ كلّ مَنْ كانُوا أحِبَّاءَهم في الحياة الدّنيا، لأنَّهم يكونون مَهْمُومِين مشغولين بأمُورِهم

وشؤونهم الخاصَّة، يخافون عذاب الله، ويطلُبُونَ نجاة أنفسهم، فلا يقبل أحَدٌ منهم أن يسْتَنْجِد به أحدٌ لمعاونته في شأنه، مهما كان حبيباً له، بل يفرُّ منه.

وفي تفصيل من يفرُّ منهم تصويرٌ بديع للمشهد بالتعبير البياني، مع أنَّ الغرض قد كان يمكن تحقيقه بتعبير عامٍّ مجمل لا تفصيل فيه.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾

جاء هذا البيان بمثابة جوابِ سؤالٍ يطْرَحُه الذّهن، ولو لَمْ يُذْكَرْ في البيان، وهو: لِمَاذا يَفِرُّ المرءُ يومئذٍ من أخيه، وأُمِّهِ وأبيهِ، وصاحِبَتِه وبينه؟؟

والمعنى الذي دلّ عليه الجواب: لكلِّ امْرِئٍ منهم من أمْرِه الخاصّ به ما يكْفِيه، أي: ما يَسْتَغرِقُ كُلَّ تفكير واهْتِمَامٍ لدَيْه، فلَيْسَ لَدَيْه زائدٌ يُساعِدُ بِه غَيْره، مِمَّن يتمنَّىٰ أن يكون لدَيْه فائضٌ عن ضروراته القُصْوَىٰ، حتَّىٰ يُساعِدَه به.

إنَّهم يومئذٍ يكونون فُرَادَى، لا يستطيع أحدٌ منهم أن يتعاون مع أحد، لأنّ الحساب والجزاء يوم الدّين حِسَابٌ فَرْدِيٌّ، كما قال تعالى في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول):

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾.

وكمَا قال تعالى في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾.

ويزيدُ المجرِمُ يومَئذٍ فَيودُّ لَوْ يفْتَدِي مِنْ عذاب الله ببنيه، فضْلاً عن صاحِبَتِهِ وأخيه وَمَنْ هُمْ أبْعَدُ من هؤلاء عنه قرابَةً وَنَسَباً، قال الله عزّ وجلّ في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول):

﴿... يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾.

جاء تقديم البنين والصاحبة هنا وفق الترتيب العاطفيّ لأنّ البيان يُشْعر بأنه يَوَدُّ لو يجمعهم جميعاً في الفداء بوقت واحد، بخلاف الفرار فإنه يحدُث مُجزّأً.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

بعد بيَانِ لقْطَةٍ مِنْ مَشَاهدِ يَوْم الْبَعْثِ، وهي لقطة يبرُزُ فيها فِرَارُ كُلّ إنسانٍ مِنْ أقَاربه وأحْبابِه، حتَّى أحَبِّ الناس إليه في الدّنيا، فكَيْفَ يكون حالُه مع سائر النَّاس؟. يَعْرِضُ البيان في السُّورَةِ لَقْطَتَيْنِ: لَقْطَةٍ تَظْهَرُ فيها أماراتُ السَّعَادة والفرحة، وأخرىٰ تظْهَرُ فيها أمارتُ التعاسة والشقاء.

فاللّقطة التصويريّةُ الأولى: جاء فيها عَرْضُ وُجوهِ مُسْفِرَةٍ، ضَاحِكَةٍ مستَبْشرة. إنَّها وُجُوه أهل الإيمان والنجاة من الخلود في عذاب النار، على اختلاف درجاتهم، وطبقاتهم، ومنازلهم.

مُسْفِرَةٌ: أي: مُشْرِقَةٌ مضيئة. تقولُ العرب: أسْفَرَ الصُّبْحُ، إذا انكشف وأضاء، حتَّىٰ لاَ يَشُكَّ ذو بَصَرٍ خبير بأنَّه صُبْح.

أمَّا فعل «سَفَر» فَيُقَالُ لمن كشَفَ وجْهَهُ المغطَّى، تقول العرب: سَفَرَتِ المرأة، إذا ألْقَتْ نِقَابها أو بُرْقعَها عَن وجْهها.

مُسْتَبْشِرَة: أي: فَرِحَةٌ مُنْبَسِطَةٌ ذاتُ بِشرٍ، لأنَّها مُبَشَّرَةٌ بالنَّعيم المقيم في الجنَّة دارِ المتقين.

وما يَظْهَرُ علَىٰ الوجوه، إنّما هو تعبير عمّا في نفوس أصحاب هذه الوجوه من فرحٍ وطُمَأْنينة بعَفْو الله وغُفْرَانِه وجنَّتِهِ. وهُو علامَةٌ علىٰ أنّ

مصيرهم إلى الجنّة ولو بعد التّطهير بعذابٍ على مقادير الْوُجوه لا تظهر عليها هذه الأمارات ما لَمْ تكُنْ النفوس قد اطمأنّتْ للظّفَر بالمصير السعيد.

واللّقطة التّصْويريّة الثانية: جاءَ فيها عَرْضُ وُجوهِ أخْرَىٰ عَلَيْها غَبرَةٌ، تَرْهَقُها قَترَةٌ.

الْغَبَرةُ: الغبار، وهو ناعم التراب الّذِي يُثِيرُه أيُّ تحريكٍ يَسير، ولو كان من نَسَمات رفيقَات. وكلُّ ناعِم من كلّ شيءٍ ينتشر في الجوّ بالنسمات.

﴿تَرْهَقُهَا﴾: أي: تَغْشَاهَا وَتَعْلُوها، تقول لُغةً: رَهِقَ الشَيْءُ الرَّجُلَ يَرْهَقُهُ رَهقاً، أي: غشِيَهُ وعَلاَه.

وتَقُولُ: رَهِقْتُ مَنْ أُقاتِلُه، إذَا غَشِيته وعَلَوْتَ عليه.

ورَهِقَ الغُبَارُ البيوتَ، إذَا غَشِيَها وجلَّلَها.

﴿قَتَرَةٌ﴾: الْقَتَرَةُ: غَبرَةٌ يَعْلُوها سوادٌ كالدُّخان.

وأصْحَابُ هذه الوجوه البائسة التعيسة يوم الحشر هم الكَفَرَةُ الْفَجَرَة، وقد أشار اللَّهُ عزَّ وجلَّ إليهم في البيان باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، للدّلالة على إبعادهم عن مواطن رحمته، فقال جلّ جلاله:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿ٱلْكَفَرَةُ﴾: جمع «الكافر» والكافر هو الجاحد للحق وهو عالم به، والجاحد للنعمة لئلاّ يطالَبَ بشُكْرِها، **والكافر**: السّاتر للحقّ ولأدلَّتِهِ بِحِيَلِه الّتي يَسْتَخْدِم فيها زُخْرُفَ القول تَغْريراً ومخادعة.

﴿ٱلْفَجَرَةُ﴾: جمع «الفاجر» وهو اسم فاعلٍ من فَجَرَ يَفْجُرُ فُجُوراً.

والْفُجور: هو الانْبِعَاثُ الواسِعُ الْوَقحُ في القبائِحِ والآثَام والمعاصِي. فالفاجِرُ هو المُنبَعِثُ بوَقَاحَةٍ واتّساعٍ على مقادير استطاعته في ارتكاب الجرائم.

وبهذا تَنْتَهِي السّورة بعد أَنْ تدرّجَتْ دُرُوسها الأربعة متشابكَةَ الأفكار، ومُجْتَمِعةً على موضوع شَجَرِيٍّ واحد، بدأ بتربية الرَّسول، وتوجيهِهِ لما هو الأفضل في عُنْصُرٍ من عناصر تأديته رسالته، وثنَّىٰ بتوبيخ الإنسان الكافر المعاند المكابر، وتنبيهه على أدلة الإيمان، وبيان الغاية من خلق الإنسان، وثلَّث بلفت الأنظار إلى بعض ظواهر نعم الله الدائمة على عباده، وأخيراً قدّم لقطات واعظات من مشاهد يوم الدين.

والحمد لله على توفيقه ومنّه وفتحه.



ملاحق لتدبر سورة عبس

الملحق الأول: حول بلاغيات في السورة.

الملحق الثاني: حول كون وظيفة القرآن والرَّسُول وظيفة بيانٍ وتَذْكِير.



(١٠)
الملحق الأول
حول بلاغيات في سورة عبس

في هذه السُّورة روائع بلاغيَّة متعددة، منها يلي:

(١) جاء في مطلعها الحديثُ عن الرسول ﷺ بأسلوب الحديث عن الغائب. لأنَّه تولَّى عن السائل الأعمى، وهذا من مقابلة العمل بما يشبهه في البيان، ولكن جاءَ عَقِبه مباشرةً الالتفات إلى مخاطبَتِه بعتابٍ وِجَاهِيّ فيه إقْبالُ الخليل إلى خليله.

(٢) استخدام الاستفهام للدلالة على المعاتبة، وهذا من إخراج الاستفهام

عن أصل دلالته، فقال تعالى خطاباً لرسوله ﷺ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣﴾؟!

(٣) استعارة فِعْلِ ﴿قُتِلَ﴾ للدّلالة على مَعْنَى «لُعِنَ» لأنَّ الْقَتْل أشدُّ في الدلالة على معنى الطّرْدِ والإبعاد من اللّعن.

(٤) طرحُ السؤال وإتباعُهُ بالجواب، وهذا أُسْلوب مفيد من أساليب البيان والتعليم، لأنَّ طرح السؤال يحرِّكُ الذِّهْنَ للتفكّر في الجواب، فقال الله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨﴾؟ وأتبعه بالجواب فقال تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ . . .﴾.

(٥) جاءت آيات السّورة قَصِيرَةَ الفِقَرَاتِ، متوازنَةً بَدِيعة، وفق الطريقة الّتي كانت تعجب فُصَحاء العرب إبّان التنزيل.

(٦) اللّفّ والنشر المرتب، في قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢﴾.

(٧) الكناية عن يوم القيامة بذكر أوّل حَدَثٍ يَحْدُثُ فيه وهو الصَّخّ، وأخْذاً من هذا صَحَّ أن توصفَ القيامة بأنّها صَاخَّة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣﴾.

(٨) الترتيب الارتقائي المطابق للواقع في قول الله تعالى:

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦﴾.

وأطْلَق علماء البديع على هذا النوع اسم «الترتيب».

(٩) الكناية عن أحوال النفوس الباطنة بذكر ما يَبْدُو على الوجوه من ظواهر، لأن الظّواهر أَمَارات تَدُلُّ على البواطن، فقال اللّهُ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١﴾.

❀ ❀ ❀

(١١)

الملحق الثاني

حول كون وظيفة القرآن والرسول وظيفة بيان وتذكير

لقد خلق الله الإنسان ليَبْلُوه (أي: ليمتحنه) في ظروف الحياة الدُّنيا، فاستدعى ذلك أن يمنحه حرِّيَّة الاختيار، بجهاز في نفسه يختار به ما يشاء، ضمن المجالات التي مكَّنه من التحرّك فيها في حياته، واستدعى ذلك أيضاً أن يُشْعِرَه بأنّه يستطيع تحقيق مراداته، وذلك بتسخيره الأشياء له، ممَّا هو داخل في ذاته أو خارجٌ عنها.

والتسخير إنما يَتِمُّ بخَلْق الله، وأعمال المسخّرات إنما تتم بقضاء الله وقَدَرِه وقدرته وخلقِهِ، لتحقيق مرادات الإنسان الموضوع موضع الامتحان.

وإعطاء الإنسان المخلوق للامتحان حرِّيَّة الاختيار يتنافَىٰ مع إكراهه بالْجَبْر على أن يختار فعْلَ أو تَرْكَ الخير الذي يجب عليه أن يفْعَلَهُ، أو فِعْلَ أَوْ تَرْكَ الشَّرِّ الذي يَحْرُم عليه أنْ يَفْعَلَه، أو فِعْلَ أو تَرْكَ المباح المأذون له بأنْ يفْعَلَهُ أَوْ يَتْرُكه.

فجاء البيان الرَّبَّانيُّ بأنَّهُ لا إكراه في الدين. وهذا يستدعي باللّزوم العقلي أنْ تُتْرَكَ للإنْسَان حُرِّيَّةُ الاختيار، لا علَىٰ معنَىٰ الإباحة، ولكن على معْنَىٰ التمكين المستَتْبَعِ بالمسؤوليَّةِ، والحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء. بالثواب أو بالعقاب.

ويلْزَمُ من كلّ ما سبَقَ عقلاً أن تكون وظيفةُ حامل الرسالة الرَّبَّانيّة للناس، وأن تكون وظيفةُ نصوص الرسالة الرَّبّانيّة للنَّاس، التبليغَ، والتعليمَ، والشرحَ، والبيانَ، والإقْناعَ بمختلف وسائل الإقناع، والترغيبَ والترهيبَ، والتذكيرَ ما دام احتمال نفع التذكير قائماً غير ميؤوسٍ منه، والانْذَارَ أخيراً

بعقاب الله يوم الدين، مع ما يمكن أنْ تقضي به حكمة الله من عقاب مُعَجَّلٍ في الدنيا.

ويلْزَمُ عقلاً أنَّهُ ليس من وظائفِ حامل الرّسالة الرَّبّانيَّة، رسولاً كانَ، أم تابعاً له من أُمَّتِه، أنْ يُحَوّل أحداً مِنَ الكُفْرِ والْفُسُوقِ والعِصْيانِ، إلى الاستجابة والطاعة والإيمان، والقيام بالأعمال الصالحة عبادَةً للرَّحْمٰن، وإرْغاماً للشيطان.

وهذا ما تواطَأَتْ على بيانه وتأكيده النصوص القرآنيَّةُ، في مراحلَ مُتباعدةٍ من نُجُوم التنزيل.

ونجد في القرآن الكريم سبعة عشر نصّاً تُبَيِّن هذه الحقيقة، وتُؤَكّدُها، ضمن مَنْهَجٍ حَرَكيٍّ تَرْبَوِيٍّ حَكِيمٍ.

وفيما يلي بيانُها بحسب ترتيب نزولها، مقرونةً بشيءٍ من التدبّر.

النصُّ الأوّل:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المزمّل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول):

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾

تَذْكِرَة: أي تذكيرٌ بَاقٍ، بما اشتملت عليه نصوصُها من بيانٍ ودعوةٍ إلى الإسلام وموعظةٍ وإرْشاد

وأصْلُ التذكِرَة في اللّغة: الوسيلةُ المذكِّرة، ولمّا كانت الرسالة الإسلاميَّة مشتملة على نصوصٍ قضىٰ الله ببقائها محفوظة، فإنّها تَحْمِل صِفَةَ البيانِ والهداية والموعظةِ والإرشادِ والتذكير دواماً، ولمّا كانَ التَّذْكِيرُ هو الحلقة الأخيرة في هذه السِّلْسِلَةِ، كانَتْ تسمِيَةُ هذه الرسالة بالتَّذْكِرَة مُتَضَمِّنَةً باللّزوم الذّهني الحلقات السابقات للتذكير.

ففي هذه الآية بيان أنّ هذه الرسالة رسالةُ بيانٍ وهدايةٍ وموعظةٍ وإرشاد

وتذكيرٍ دواماً، أي: فهي ليست رسالة إكراهٍ ولا إلزام، فمَنْ شاءَ بما آتاه اللَّهُ من إرادةٍ حُرَّةٍ مُمكَّنَةٍ بخَلْق اللَّهِ من أن تَشَاءَ بحُرِّيةٍ نجاةَ نفسِه وسَعَادَتها اتَّخذَ إلى مرضاة ربِّه سبيلاً، ومن لم يشأ ذلك استَحقَّ العقابَ والعذاب، فهو الّذي يتحمَّل نتائج رفضه للحق، ورفضه سُلُوكَ سبيل الهداية.

❁ ❁ ❁

النص الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٤ نزول) بشأن المعرضين المبتعدين عن الاستماع لدعوة الرسول وبيانات القرآن الّتي هي تَذْكِرَةٌ فكريّة بيانيّة، وليست إكراهاً ولاَ قَسْراً بإجبار:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾.

كلَّا: كلمةُ زجْرٍ فيها معنى التنديد والتلويم.

إنَّهُ تَذْكِرَة: أي: إنّ القرآن تَذْكِرَةٌ باقيةٌ بما اشتَملَ عليه من بيانٍ وهدايةٍ وموعظةٍ وإرْشادٍ وترغيبٍ وترهيب، ولمّا كان القرآن مذكّراً بهٰذِه الأمور دواماً أطْلَقَ اللَّهُ عليه اسم «التَّذْكِرَة» وهي في اللُّغة ما يُسْتَذْكَرُ بِه الأمْرُ، كما سبق به البيان.

فما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِين: استفهامٌ إنكاريٌّ تَعْجيبيٌّ من حالهم.

حُمُرٌ: جمع «حمار» والمرادُ بِها الحُمُرُ الْوَحْشِيَّة.

مُسْتَنْفِرَة: أي: نافِرَةٌ بِشِدَّةٍ إذا أصابَها الذُّعْرُ.

قَسْوَرَة: على صِيغَةِ «فَعْوَلَة» منَ الْقَسْر، وهوالأخذ بإكراه.

القَسْوَرُ والْقَسْوَرَةُ: من أسماء الأسَد، والقَسْوَرَةُ أيضاً جَمْعُ «الْقَسْوَر» وقَدْ سُمِّي الأسد قَسْوراً لأنّه يفترس صيْدَهُ قسراً.

ويطْلَقُ لفظ «الْقَسْوَر» على الصَّيَادِ الرّامي، وجَمْعُهُ «قَسْورَة» فالرُّماة الصيّادون الّذين يصيدون الحيوانات البرّية بِسِهامِهِم، فيَقْسِرُونها بوسائلهم، ويُكْرِهونها حتى يأسروها يُطْلَقُ عليهم لفظ «قَسْوَرَة».

في هذا النصّ تعجيبٌ من حال الْمُعْرِضينَ عن القرآن النافرين من سَطْوَتِهِ الفكريَّة المؤثِّرَة فيهم، بما فيه من بلاغة رفيعة، ودلالات مَنِيعَة، وَحقَائِقَ لاَ يَأْتِيهَا الباطل من بين يَدَيْها ولاَ مِنْ خَلْفِهَا، وأنوارٍ ساطعَةٍ، وهِدَايةٍ قاسِرَةٍ لِمَنْ اسْتَسْلَمَ إليها، وقد جاء تَمْثِيلُهُمْ في هذا النّصّ بالْحُمُرِ الْوَحْشِيّة الّتي هَجَم عليها أسَدٌ أو أُسُود لِتَفْتَرِسَها، فأصابَها الذُّعْرُ الشدِيدُ فَنَفَرَتْ وفَرَّتْ لاَ تَلْوِي علَىٰ شيءٍ.

وظاهِرٌ أنّ الغرض من هذا التمثيل التنفيرُ منَ الإعراض عن هداية القرآن، مع تقبيح صُورَةِ الْمُعْرِضين وذَمِّهِمْ، إذْ جاء تمثيلُهُم بالْحُمُرِ الوحْشيَّة، وَكان من الممكن تمثيلُهم بالْبَقَر أو بالظّباء، لِكنَّ الْحُمُر هي المعروفة عند الناس بالبلادة والغباء، فالتمثيل بها أكْثَرُ تقبيحاً وَذَمًّا لحالة النفور من تذكرةٍ فكريَّة ليس لها سَطْوَةٌ مادّيَّةٌ تَقْسِرُ بإكراه.

إنّ الفكرة الّتي سِيقَ لَهَا التَّشْبيهُ في هذا النصّ، هي أنّ بَيَانَ الدَّعْوَة إلى الإسلام، وما جاء في القرآن، دَعْوَةُ تَذْكِرَةٍ بحَقَائِقَ عِلْمِيَّةٍ، هيَ فِطْرِيَّةٌ في فِكْر الإنسان ووِجْدانه، وبحقائق علميّة مُنَزّلَةٍ من لَدُنْ عليم حكيم، يُطْلَبُ من الناس أنْ يعْلَمُوهَا أوّلاً، ثُمَّ يَتذَكَّرُوهَا دَواماً عند المناسبات الداعيات لتذكرِها، لتكون مُوَجّهَةً لإراداتهم، وأنواعِ سُلُوكهم.

وكُلُّ إنسانٍ هُو حُرٌ بَعْدَ أَنْ تُعْرَضَ علَيْه هَذِه التَّذْكِرة في أن يَسْتَجِيب لمضمونها فَيُؤْمِنَ، أو يَرْفُضَهَا فَيَكْفُر، فهِيَ إذَنْ ليْسَتْ مُطَارَدَةَ مُكْرِهٍ مُجْبِرٍ

قَاسِرٍ، يُلاَحِقُ طَرِيدَتَهُ لِيَفْتَرِسَهَا أو يَصيدَها، كما يَفْعَلُ الأَسُود، أوْ كما يَفْعَلُ الرُّماةُ الصَّيَّادون.

إنّ الإنسان ذا الْفِكْرِ الْحَصِيف لا يَفِرُّ من عَرْضِ التذكراتِ الفكريّة عليه، بَلْ يَقْبَلُ عَرْضَها، ويَقْبَلُ مُنَاقَشَتَها، ثُمَّ هُو بعْدَ ذلك إمَّا أن يَقْبَلَها، وَإمَّا أَنْ يَرْفُضَهَا.

فدلّ هذا النّص بوضوح تامٌ على أَنّ الدعوةَ إلى الإسلام عَرْضٌ تخييريٌّ لمن يُعْرَضُ عليهم من غير المسلمين، وليس إكراهاً ولا إجباراً بالْقَسْر، فمَنْ شاءَ اسْتَجَابَ فأسلم، ووَضَع في ذاكِرَتِه أَرْكانَ الإيمانِ والإسلام وبيانات القرآنِ، لاتباعها، فقال تعالى فيه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾.

وأبان النصُّ عِلَّةَ المعرضين النفسيّة وهي أمران:

الأول: الكِبْرُ عن اتّباع الرسولِ، لأنّ كلّ امْرِئٍ من هؤلاء يُرِيدُ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِ من عِنْدِ اللّهِ صُحُفٌ مُنَشَّرَةٌ، فقال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾.

الثاني: جحودهم للبَعْث والحسابِ والجزاء يوم الدّين، فهم لا يخافُون عقابَ الله في الآخرة، فقال تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾.

النصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ من سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول) بشأن القرآن المجيد:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾.

فأبانَ هذا النَّص أنّ القرآنَ ليْس إلاّ ذِكْراً مُوجّهاً لكُلّ الْعَالَمِين، الموضوعين مَوْضعَ الابتلاء والتكليف، أمّا من يسْتجيب لدعوته ويتدبَّرُه،

ويتخذُه ذكراً، وينتفع بما فيه من هداية ودلالة على صراط الله المستقيم، فَهُوَ مَنْ شاءَ مِنَ المخاطبين به بإرادَتِهِ الْحُرَةِ أنْ يستقيم على صراط الله، ولا يُرِيدُ أن يَعْوَجّ ويكونَ جائراً مُتَنكّباً عنه، وسَالكاً سُبُل الضلال الّتي تَسْتَدرجُه إليها الشياطينُ والأهواء والشهواتُ الجانحات عن الحقّ والخير والفضيلة وما أَذِنَ الله به لعباده.



النصّ الرابع:

قولُ الله عزّ وجلّ من سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول) في معرض تربية الله لرسوله ﷺ بشأن إعراضه عن الأعمى ابْن أُمّ مكتوم الذي جاء يسأله عن بعض مسائل الدّين، إذْ أعرض عن إجابته لأنّه كان ﷺ مشغولاً بدعوة كُبَراء قومه إلى الإسلام:

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾.

أي: إنَّ رسالَتَك يا مُحَمَّدُ رسالةُ بيانٍ وهداية وتذكير، ولَيْسَت رسالةَ تَكْليفٍ لكَ أن تُحوّل الناسَ من الكُفْر إلى الإيمان، حتّىٰ تُوَجّه اهتمامَكَ الكبير لدعوة الكافرين، وتُعرِضَ عَن طالِبِ المعرفة الدينيَّةِ راجياً أن يتذكّرَ أو يخْشَىٰ، فوظيفتُك وظيفَةُ مُذَكِّرٍ، ولَيْسَتْ وظيفَةَ مُكرِهٍ ولاَ مُغَيّر، فالاستجابة للدعوة ينبغي أن تكونَ بإرادَةِ المدعوّ الحرّة، واختيارِه الإيمانَ بالحق، وسلوكَ صراط الهداية، لا بالإكراه والإجبار.

❁ ❁ ❁

النصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ بشأن شُعَيْبٍ عليه السلام وشأنِ قَوْمه معه، في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ (٨٨)﴾.

فجاء في هذا النصّ بيان مَثَلٍ من أمْثِلَةِ إكراه أهْلِ الكُفر لأَهْلِ الْإِيمان، على أن يَتْركُوا دينهم الرَّبّاني، ويَعُودُوا إلى ما كَانوا عليه قَبْلَ الإيمان، ويكونُوا من الدَّاخلين في ملَّةِ الْمُكْرِهين، وهذا دَيْدَنُ قادَةِ أهْلِ الكُفْرِ دواماً، فِي كُلِّ عصور التاريخ، إنَّهُمْ يُكْرِهُونَ النَّاسَ على الدُّخول في مِلَلِهِمْ وأدْيانِهم ومذاهبهم وطرائقِهم في الحياة، وإلاّ أنْزلُوا بهم أنْواعَ الاضطهاد والتعذيب.

على خلاف الرّسالات الرّبّانيّة للنّاس، فإنَّها عَرْضٌ وإقناعٌ وهدايَةٌ بتَخْيير، مقرونٌ بإنْذَارٍ بالعواقب الوخيمة من الله العزير القدير، لِمَنْ أبَىٰ ولم يستجبْ، وببشارَةٍ بسعادةٍ أبديَّةٍ عند الله الرّحيم الغفور، لمن سَمِعَ وأطاعَ واستجابَ بإرَادَتِه الحرَّة، دون إكراه ولا قَسْرٍ وإجبار.

إنّ قضايا العقائد، واعتناقَ المذاهب الدينيَّة، لا يُعْقَلُ أَنْ تكُونَ مع الكراهِيَةِ والإجبار، وإنّما تكون بالرَّغْبَةِ الذَّاتِيَّةِ والاختيار الحرّ.



النصّ السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿طه (١) مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣)﴾.

لمَّا اشتَدَّ حِرْصُ الرَّسول ﷺ على إيمان قومه، حتَّى أَهَمَّهُ كُفْرُهُمْ، وشَقَّ عليه إعراض مَنْ أعْرضَ مِنهم، وإدْبارُ مَنْ أدْبَرَ، وتَوَلِّي مَنْ تَوَلَّىٰ وكَفَرَ، وجَعَلَتْ رحْمَتُه بهم تُقِضُّ مَضْجِعَهُ، وتوجعُ قَلْبَهُ وتُشْقيه بإيقاعِهِ في

الشِّدَّة والْعُسْرِ والألم أنْزَلَ اللَّهُ عليه هذا النصّ، مبيّناً له فيه وظيفة رسالته، بإنزالِ الْقُرْآن عليه، وأنّه جلَّ جلاله ما أنْزَل عليه القرآنَ، وحمّلَهُ مسؤوليَّةَ تَبْليغِه، لِيُشْقِيَ نَفْسَهُ بالآلاَمِ من أجْلِ الذين لم يسْتجيبوا لدعوته.

وأَبانَ الله لِرَسوله بأسلوب الحصْرِ، أنَّه مَا أنْزَلَ عَلَيْهِ القرآنَ إلاَّ تَذْكِرَةً لمن يخش، أي: فمن يخْشَىٰ الله ويخاف عقابه فإنّه يجعل القرآن تذكرة له، ثمَّ إنَّ من جعل القرآن تذكرةً له فلا بُدَّ أن تَتَّجهَ نَفْسُه للطَّمَع بثواب الله العظيم يوم الدّين، مع ما يُصِيبُ مِنْ خيراتٍ وطمأنينة قلبٍ في الدنيا.

فالمعنى: ما أنزلنا عليك القرآنَ لتشْقَىٰ بالحزْنِ والألم من أجل الذين كفروا ولم يَسْتَجِيبوا، ما أنزلْنَاهُ عَلَيْكَ إلاّ تَذْكِرَةً لمَنْ يَخْشَىٰ.

أي: فلا تَحْمِلْ يا مُحَمَّدُ هَمَّ الّذِينَ اخْتَارُوا لأنْفُسِهِمُ الكُفْرَ بَعْدَ تَذْكِرَتِهِمْ، وبيان الحق لهم، ولا تُشْقِ نَفْسَكَ من أجلهم.

ونُلاَحِظُ في هذا النّصّ تَوْجِيهاً مباشراً للرَّسول، لتأديبه، برِفْقٍ، حوْلَ مُهِمّتِه في رسالته، وتوجيهاً لكلّ الدُّعَاةِ إلى الله من أمّتِهِ من بَعْدِه.

ونلاحظُ فيه تعريضاً غيْرَ مباشر للكافرين المعرضين، والمدبرين المتولّين عن الاستجابة لدعوة الحقّ.

❁ ❁ ❁

النصّ السابع:

قَوْلُ الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

تَدُلُّ هٰذه الآيَةُ بلَوازم بيانِها على أنّ رحمة الرسول ﷺ بقومه كانت شديدةً جدًّا، وأنّ حِرْصَهُ على إيمانِهم للنَّجاةِ من عذاب الله، والظفرِ بالنعيم الخالد، قد كان حرْصاً بالغاً، وأنّ توجُّعَ قَلْبِه من أجْلِهِمْ قَدْ كَانَ عظيماً فَلَمْ

يَسْتَطِع الضَّغْطَ على عَاطفته، فأنْزَل اللَّهُ عليه هذا النَّصَّ، مُتَضَمِّناً أُسْلُوباً تَرْبَوِيًّا فِيه الإقناعُ المشوبُ بالعِتَاب.

والمعنى: لو شاء ربُّكَ يا محمَّدُ إكراه الناس على الإيمان، لسَلَبَهُمْ حُرِّيَّاتهم، فجعَلَهُمْ مَجْبُورين، فأكْرَهَهُمْ،فآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كلُّهُمْ جَميعاً، أو لاتَّخذَ من الوسائل ما يجعلُهُم مُلْجَئين إلى الإيمان إلجاءً.

لكِنَّ هذا يتنافَىٰ مع حِكْمَة الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، وحِكْمَةِ تَرْكِ الناسِ لاخْتِيَارِهِمُ الحرّ.

فإذا كان ربُّكَ القادر على جعلهم مجبورين على الإيمان جميعاً لَمْ يَفْعَلْ ذَلك، لأنَّه شاءَ أن يجعلهم مُخيّرين، لِيَبْلُوَهُمْ فيما آتاهم، أفأَنْتَ يا مُحِمَّد ويا كُلَّ مَنْ يَدْعُو إلى اللَّهِ من أمَّتِهِ تُكْرِهُ النَّاسِ حتَّىٰ يكونوا مؤمِنينَ، مع أنَّه أمْرٌ لم يخْتَرْهُ اللَّهُ لِنَفْسِه، وهو ذو القدرة التامَّةِ عليه.

النصّ الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) مُبَيّناً مثلاً من أمْثِلَةِ دَعْوَةِ الرُّسُل السابقينَ لأقوامهم، الّذِي يَنْبَغِي التَّأَسِّي به، وهو مُقْتَطَعٌ من دعوةِ نُوحٍ عليه السلام لقومه:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

في هذه الآية بيانُ جانِبٍ من حِوارِ نوحٍ لقَوْمِهِ، حَوْلَ حُرِّيَّة النَّاس في اختيار الإيمانِ والكُفْر، وأنَّ الرّسُولَ لاَ يَمْلِكُ إلزامَ الناس بالإيمانِ، بَعْدَ أن مَنَحَهُمُ الله عزّ وجلّ حُرِّيَّةِ الاختيار ليَبْلُوَهم، وحمَّلَهُمْ مسؤوليَّةَ اختيارهم، فعليهم أن يتحمَّلُوا عقوبات اختيارهم عند ربّهم إذا اختاروا الكُفْر على الإيمان، والضّلالَةَ على الهدى، والظلمات على النور.

❁ ❁ ❁

النصّ التاسع:

قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الزُّمَر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ، ويُلْحَقُ به كلّ داعٍ إلى سبيل ربّه من أُمَّتِه:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾.

في هذا النصّ تعليمٌ من الله لبَعْضِ أساليب الحوار الإقناعيّ للكافرين المشركين، الذين يَعْبُدُونَ آلِهةً من دون الله عزّ وجلّ، وهو حوارٌ حَوْلَ موضوعٍ هو من أهَمِّ موضوعاتِ الدِّين، وهو موضوعُ العبادة.

فجاء في التعليم تكليفُ الرسول أن يقول للمشركين:

- إنّي أُمِرْتُ أنْ أعْبُد الله مُخْلِصاً له الدِّين فلا أشركَ بعبادته أحداً.

- وأُمِرْتُ بالتكاليف الدينيّة التي أَعْبُدُ بها ربِّي قبْلَ غيري من الناس، من أجل أن أكون أوّل المسلمين المطيعين لأوامر الله ونواهيه.

وجاء في التعليم تكليفُ الرسول أن يقول للمشركين أيضاً:

- إنّي أَخَافُ إنْ عَصَيْتُ رَبّي فلم أَعْبُدْهُ، أو أشركتُ بعبادته معبوداً من دونه عذابَ يَوْمٍ عظيم، هو عذاب يوم الدين.

وأنْ يقول لهم مُعْلِناً مَنْهَجَهُ في عبادته الذي اختاره لنفسه، ومبيّناً لهم أنهم أحرار في أن يختاروا لأنفسهم ما يشاؤون من معبودات يَعْبُدونها:

- اللَّهَ أَعْبُدُ مخلصاً له ديني، فلا أشرك بعبادته أحداً.

- فاعْبُدوا ما شِئْتُم مِنْ دُونه من آلِهَةٍ، فلَكُمْ أنْ تَخْتَاروا في حياتكم ما تَشَاءُونَ من إيمانٍ أوْ كُفْر، وتوحيدٍ أو شرك، إذْ أنتم في الحياة الدّنيا في

رحلة ابتلاء، مُمَكَّنُون ممّا تشاءُون، وعليكم أن تتحمّلوا نتائج اختياركم.

وأن يقول لهم أخيراً محذّراً ومنذراً:

إنّ الخاسِرينَ الّذِينَ خَسِرُوا أنْفُسَهُم وأَهْليهم يَوْمَ القيامة، ألا ذلِك هُو الْخُسْرانُ المبين.

أي: فمن كفر فعَبَدَ غير الله أو أشرك في عبادته إلَهاً من دونه، خَسِرَ نفسه وأهليه يوم القيامة، إذ يكون من أصحاب النّار خالداً فيها أبداً، ألا ذلك هو الخسران المبين.

ألا: أداة تنبيه بشدّةٍ، فتعريض الإنسان نفسه لهذا الخسران المبين يحتاجُ هذا التنبيه، لِيَصْحُوَ من غفلته، أو غفوته.

النصّ العاشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

يُلْحِدُونَ في آياتنا: ألْحَدَ: أي: مال عن الحقّ وجَارَ وظَلَم، والمعنىٰ: يَحيدون ويَميلون عن الدين الحقّ ظُلْماً وجَوْراً، شاكّين في آياتِنَا الكونيّة، وآياتِنَا البيانيّة المنزَّلَة، وآياتنا الإعجازيّة، وآياتِنا الجزائية.

ففي هذه الآية يتحدّث الله عزّ وجلّ عن الْمُلْحِدين الجائرين المائلين عن دينه الحقّ، الشّاكّين والمشكِّكِينَ في آياته، بأنَّهُمْ غير خافِين عليه جلّ جلاله، وهُو يُنْذِرُهم بالإلْقاء في النّار يوم القيامة إذا اسْتَمَرُّوا على إلحادهم، ويُبَشّر المؤمنين بالأَمْن.

وبعد هذا البيان يخاطِبُ الملحدين خطاباً مُباشراً، فيقول لهم:

﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

فيُعطيهم في هذا أنَّ لهم أن يختاروا ما يَشاءُون من عَمل، ولكنَّهُ لَيْسَ تخيير إباحة، إنّما هو تخيير امتحان، وهو ممزوجٌ بِوَعِيدٍ بالعقاب إذا اختاروا غَيْر المطلوبِ منهم في رحلة امتحانهم.

فقد حمَّلَهم مسؤوليَّة مشيئتهم، وأبانَ لهم أن عاقبة إلحادهم وشرْكِهِمْ عذابٌ أليم يَوْمَ القيامة في نارِ جهنَّم.

❀ ❀ ❀

النص الحادي عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الغاشية/٨٨ مصحف/٦٨ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ، ويُلْحَقُ به كُلُّ داعٍ إلى سبيلِ ربّه من أمّته:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

نزل هذا النّصّ بعد رِحْلَةٍ طويلَةٍ في دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ لقومه، أبان لهم خلالها أصول الدين الإيمانيّة والأخلاقيّة، وأُصوله التعبّديّة مبيّناً لهم فيها أَنَّ الْعِبَادة لا يَصِحُّ أن تكون إلاّ لله وحده، وأقامَ لَهُمُ الْحُجَجَ والبراهينَ الكثيرة، ولم يَبْقَ عَلَيْهِ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَنْ تَبَلَّغَهَا من الكافرين غَيْرُ التذكير بها، وإذْ وصَلَ مَعَهُمْ إلى هذه المرحلة، فإنّ وظيفته الآنيّة بالنسبة إليهم إنَّمَا هيَ التذكيرُ فَقَطْ، أمّا أن يتصَوَّرَ أنّه صَارَ مُكَلّفاً أن يُلْزِمَهُمْ بالإيمانِ والإسلام إلزام مُكْرِهٍ مُسَيْطِرٍ، فَهُوَ تَصَوُّرٌ غَيْرُ صَحِيحٍ، لأَنَّهُ يَتَنَافَىٰ مع وضْعِهِمْ في الحياة الدنيا موضِعَ الامتحان، فامتحان الإرادة يستلزم تمكينَها من أن تختار مَا تشاء خلالَ مُدَّةِ امتحانها.

فقال الله لرسوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: فوظيفتك بالنسبة إلى هؤلاء هي وظيفة التذكير بما سبَقَ أن بلّغتَهُمْ إيَّاه.

إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ: أي: ما أنت بالنسبة إلى هؤلاء الذين سبق أن

عالجتهم خلال تنزيل (٦٧) سورة منذ بَدْءِ الدّعوة حتى نزول سورة (الغاشية) إلاّ مُذَكِّرٌ لهم، فقد قَدَّمْتَ لهم البيان الكافي، والشافِيَ لمن شاء منهم أن يُؤْمِن بالحقّ ويستقيم على صراط ربّه.

لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ: أي: فَلَسْتَ مُطَالَباً ولا مأذوناً بأَنْ تكونَ مُسَيْطراً عليهم سَيْطَرَةَ مُكْرِهٍ مُجْبِرٍ على الإيمان والإسلام، إذْ هُمْ مُطَالَبُونَ بأن يُؤْمِنُوا ويُسْلِمُوا باختيارِهم وإراداتهم الحرّة، بعد بيان الحقّ لهم، بالآيات الجليّات.

ومن رفض أن يستجيب لدعوة الحقّ فعلَيْهِ أن يتحمَّلَ عِنْدَ ربّه نتيجة مَشِيئَتِه التي شاءَ بها سُبلَ الْغَيّ، مُلْحِداً عن صِراط الرُّشْد، صراطِ الله العزيز الحكيم.

النص الثاني عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/١٨ مصحف/٦٩ نزول) خطاباً لرسوله فكلّ داعٍ إلى سبيلِ رَبّه من أمّته:

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾.

وَقُلِ الْحَقّ مِنْ رَبّكُمْ: أي: وقُلْ أيُّها الداعي إلىٰ دين الله وصراطه المستقيم، بهدوءٍ كامل، لا انفعالَ فيه ولا غضبَ ولا مؤكّدات: لمن تُوجِّه لهم دعوتك: الحقُّ الذي أدْعُوكم إلى الإيمان به والعمل بمقتضاه، هو من ربّكُمْ ولَيْسَ مِنْ عِنْدَ نَفْسِي، فمَا أَنَا إلاَّ مُبلّغ.

فَمَنْ شاء فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ: أي: فمن شاءَ بإرادَتِهِ الحرَّةِ بَعْدَ أن يَتبلَّغَ الحقَّ الرَّبَّانيَّ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ فَلْيُؤْمِنْ به، لينالَ أَجْرَهُ العظيم عند ربّه، ومن شاءَ بإرادته الحرَّة أنْ يَكْفُرَ بِهِ فَلْيَكْفرْ به، ولَكِنْ علَيْهِ أن يَتحمَّلَ الْمَصِير الذي أعَدَهُ اللّهُ للظالمين، فقال تعالى:

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾.

سُرَادِقُهَا: السُّرَادِقُ: الخيْمَةُ، السّور، الدُّخان، وهذا هو المناسب هنا.

الْمُهْل: القطران السائل، والمعْدِنُ الذائبِ، والقيح، وصديد الموتَىٰ. شُبّه الماء الذي يشربُ منه أهلُ جهنَّم بالْمُهْلِ، إذْ هو حارٌّ فيه كثافةٌ ما، يخرُجُ منه بخَارٌ يَشْوِي وجُوهَ الشاربين.

وسَاءَتْ مُرْتَفَقاً: أي: وساءت النار مكاناً للظالمين، ومجلساً يجلِسُونَ فيه، وَمُتَّكأ يَتَّكِئونَ عَلَيْهِ بمرافِقِهم.

النصّ الثالث عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/٧٠ نزول):

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

فدلَّتْ هذه الآيَةُ مُضِيفَةً في الموضوع، علَىٰ أنَّ الإكْراهَ كما أنَّه لَيْسَ وَسِيَلةً صحيحة ولا مقبولة للدخول في الدين، فهو لا يخرج من الدين من أعلن بسببه الكُفْرَ، وقَلْبُه مطمئنٌ بالإيمان.

❁ ❁ ❁

النصّ الرابع عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحاقّة/٦٩ مصحف/٧٨ نزول):

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن

رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لاَ تُبْصُرُونَ: أي: لا فَائِدَةَ من أنْ أُقْسِمَ لكم بآياتي في كوني الّتي تبصرونها والّتي لا تبصرونها، مع أنَّها تَسْتَحِقُّ أن أقسم بها، لأنكم بلغتم من الإصرار على المعانَدَة مبلغاً شنيعاً، والمقصود بالخطاب فئة المعاندين من مشركي مكّة.

فما سبق أن نزل من القرآن كافٍ لأنْ يمْحُوَ كُلَّ أثرٍ للشَّكِ فيه، ولأنْ تُذْركوا بأنّه ليس بقول شاعر، وليس بقول كاهِنٍ، لكنَّكُمْ قليلاً ما تُؤمِنُونَ بالحقّ الذي يخالفُ أهواءكم وتقاليدكُمُ الْعَمْيَاءَ، وقليلاً ما تَتَّعِظُونَ بالمذكِّراتِ الّتي تُذَكِّرُكَمْ بسُنَنِ الله في عقوبات الجاحدين المكابرين الذين يُصرُّونَ على الباطل.

تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالِمِين: أي: هٰذا القرآن الذي يتْلُوهُ عليكم مُحَمَّدٌ، هُوَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ جَمِيعاً، الّذِي هو ربُّكُمْ ورَبّ آبائِكُمْ الأوّلين، فاعْلَمُوا هذه الحقيقة.

﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: واعلموا حقيقةً أُخْرَىٰ تَدُلُّ على أنّ القرآن تنزيلٌ من رَبِّ الْعَالَمِين، وهي أنَّهُ لَوْ كان يكْذِبُ علينا ببعَضِ الأقاويل، مع تأييدنا له بالمعجزات، لما تَرَكْنَاهُ على قَيْدِ الحياة، بل لأَخَذْنَا بيمينه جرًّا، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين.

الوتين: عِرْقٌ مُتَعَلِّقٌ بالْقَلْبُ إذا انقطع ماتَ صاحِبُه.

إننا لا نَدَعُ نبيّاً مُؤَيّداً منّا بالآياتِ يكْذِبُ علينا، بل نُميتُهُ فوراً، فالرَّبُّ لا يكْذِبُ ولا يَقْبَلُ بحالٍ من الأحوال أن يكذبَ عليه نبيٌّ من أنبيائه.

وَإِنَّه لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ: أي: وإنَّ القرآن لتَذْكِرَةٌ يَنْتَفِعُ بها دواماً المتَّقُون الّذين اتَّقَوْا رَبَّهُمْ فآمَنُوا به، وأسْلَمُوا له.

فأبان الله أنّ القرآن تَذْكِرَةٌ، والتذكِرَةُ تُعْطِي مَنْ يَتَبَلَّغُهَا حُرِّيَّة الاختيار.



النصّ الخامس عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول) في مَعْرِضِ الحديث عن يوم الدينِ، يوم الحسابِ والجزاء:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾.

فأكّدَ الله في هذا النّصّ أنّ للنّاسِ مَشيئاتٍ ذواتِ حُرّيَّةٍ في اختيار مآبِ حَسَنٍ لَهُمْ عِنْدَ رَبّهم يوم الدّين، يكونون فيه سُعَداء سالمين، فَهُمْ يَسْلكون للوصول إليه صِرَاط الله المستقيم.

أي: فَمَنْ شاء اتخذ وَسِيلةً إلى الظَّفَرِ بمرضاة ربّه بالإيمانِ والعمل الصالح، فنالَ بذلك مآباً حسناً عنده.

أي: ومن شاءَ لم يَتَّخِذْ ذَلِكَ، فاسْتَحَقَّ العذابَ يَوْمَ الدين، وهو عَذَابٌ قَرِيب، إذْ يَنْعَدِم حِسُّ الزَّمَنِ بين الموت والبعث، ويومئذٍ يتمنَّىٰ الكافِرُ أن يكون تُراباً لم يُبْعَثْ، أويُقَالُ له كما يُقَالُ للبهائم بعد بَعْثِها وإقامة العدل فيما بينها: كوني تراباً.

❁ ❁ ❁

النصّ السادس عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) وهي أوّل سُورةٍ مَدَنيَّة:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾.

فأبان الله عزّ وجلّ في هذه الآية حقيقةً كليّة عامّة شامِلَةً لاَ تَخْصِيصَ فيها ولاَ نَسْخَ وَلاَ تغييرَ ولاَ تَبدِيلَ بالنسبة إلى الذين يُوضَعُونَ في حياتِهِمْ موضِعَ الامتحانِ، هي أنَّ الدّينَ اختيارٌ من الْمُمْتَحَنَ، ولا يُمْكن أن يكون فيه إكراه مَادّيّ، فالقلوبُ التي هي مراكز الإيمان لا يُمْكِنُ إكراهها إلاّ بالجبْرِ الرَّبَّانيّ الّذي يَسْلُبُهَا معه حُرِّيَّة إراداتها، وهذا مناقض لِوَضْعِها موضع الامتحان، والوسائل الإكراهية المادّيَّة التي يملكُها الناس تَصْنَعُ مُنَافقين، لا مُؤْمِنِين، والمنافقون أسْوأُ حالاً من الكافرين الصرحاء.

النصّ السابع عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة: (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول):

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٣٠﴾ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ﴿٣١﴾﴾.

في هذا النّصّ يُقْفِلُ اللّهُ مَوْضُوع حُرِّيَّةِ مَشِيَةِ الإنسان في الإيمان والكُفْر، والعملِ الصالحِ والسّيّءِ، بمثل النَّصّ الذين بدأ به هذا الموضوع في سورة (المزمّل: ثالث سورة نزلَتْ من القرآن المجيد، وهو قوله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

وأُنْزِلت فيما بينهما نُصُوصٌ بلغت (١٥) نصّاً، مَلأ كُلٌّ منها فراغَ حَبَّةٍ في عِقْدِ الموضوع، على تكامليَّةٍ في المعاني، مع مراعاةِ المناسبات الداعيات لإيراد كلٍّ منها في السورةِ التي هو منها.

وأطْبَقَ اللّهُ عزّ وجلّ على هذا الْقُفْل قولَهُ:

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا (٣١)﴾.

أي: ولا يكون لكُمْ مشيئة إلاَّ إذا منحكم الله جهاز الإرداة الحرَّة، الّتي بها تشاءُون طريق نجاتكم وسعادتكم، أو طريق هلاككم وشقائِكُمْ، وإلاَّ إذا مَكَّنكُمْ من استعماله عند كُلّ مَشِيئة جزئيَّة.

لكِنَّ الله عزّ وجلّ ما وَضَعَكُمْ مَوْضِعَ الامتحان إلاَّ بَعْدَ أنْ منحكُمْ هذا الجهاز، وسائر شروط التكليف، فأَنْتُمْ مَسْؤُولون مسؤوليَّةً تامّةً عن مشيئاتكم وعن أعمالكم، لذلك يُدْخِلُ اللَّهُ منْ يشاءُ في رحمته، وهي جَنَّتُه، ومعلومٌ أنَّ مَشيئَته تعالى لا تفارق حِكْمَتَه، وأمَّا الظَّالِمُونَ فقد أعَدَّ اللَّهُ لهم بِعَدْلِهِ عذاباً إليماً في دار العذاب عنده.

وبهذا تكاملَ عِقْدُ الموضوع وأدَّتِ النُّصُوصُ أدوارَها التربويَّة بحسَب مَراحلها الزّمَنيَّة، وبحسب الحاجة إلى حركيَّة الدّعْوة، ومُقْتَضَيَاتِها التربويَّة.



سُورَة القَدْر

٩٧ مصحف ٢٥ نزول

نزولها:

الأكثر على أنها مكيّة، وعند جابر بن زيد أنّها الخامسة والعشرون في ترتيب النزول.

وقيل: إنّها مدنيّة نزلت قبل نُزُول سورة البقرة.



(١)

نصّ السورة

سورة القدر وما فيها من فرشيات القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

٣ ـ ٤ قرأ البزّي ﴿مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ﴾ في حالة الوصل. وقرأها باقي القرّاء العشَرَة ﴿مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ﴾، والقراءتان وجهان من الأداء.

٥ ـ قرأ الكسائي، وخلَف ﴿مَطْلِعِ﴾ بكسر اللاّم. وقرأها باقي القرّاء العشرة ﴿مَطْلَعِ﴾ بفَتْح اللاّم.

والقراءتان وجهان عربيّان. أمّا «مَطْلَع» بفتح اللاّم فهو جارٍ على القياس؛ لأنّ مضارع فِعْلِه مضمومُ العَيْن «طَلَعَ يَطْلُعُ».

وأمّا «مَطْلِع» بكَسْرِ اللاّم فقد سُمِعَ في نُطق العَرَب عَلَى خلاف القياس، فهو لُغَةٌ عربيَّةٌ سماعيَّة.

(٢)
موضوع سورة القدر

تضمّنت سورة القدر التنويه بفضل القرآن الّذي اختار الله عزّ وجلّ لإنزاله من اللّوح المحفوظ إلى بيت العزّة في السماء الدنيا (على ما رُوي عن ابن عبّاس) واختارَ لبَدْءِ إنزال أوّل ما أُنزِل منه على رسول الله محمد ﷺ، لَيْلَةَ القَدْر، الّتي هي أفضل الأزمان عند الله جلّ جلالُه، في دورة الْعَام بالنسبة إلى نظام الأرض ضِمْنَ المجموعة الشمسيّة، والّتي جَعَل تبارَكَ وتعالىٰ العمل الصالح فيها أفضل من أمْثَاله مَعْمُولةً في ليالي وأيّام ألف شهر ليس فيها ليلَةُ الْقَدر، إكراماً منه وتفضُّلاً على عباده المؤمنين، الذين يحرصون على تعويض ما فاتهم في أزمان أعمارهم الماضية، إذْ لم يغنموها في أعْمَالٍ صالحة، بل أضاعوها سُدًى، أو حَمَلُوا فيها أوزاراً، فجَعَلَ لهم ليلَةً أخْفَى تَحْديدَها، من ليالي العشر الأواخر من شهر رمضان، من كلّ عام، رغبةً في أن يتحرَّوْها بالأعمال الصالحة، عسَى أن يُحَصّلوا فيها أرباح دُعَاءٍ ومغانم أعمالٍ صالحة في ألف شهر.

والسّورة كلّها درس واحد متماسك العناصر.



(٣)
سوابق الحديث عن القرآن في نجوم التنزيل

نُطالعُ ما سبقَ سورة القدر في نجوم التنزيل، ممّا جاء فيه الحديث عن القرآن الكريم، فنجده في سبع سُوَر:

الأوّل:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المدثّر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) حكايةً لما قاله الوليد بن المغيرة عن القرآن:

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

ويظهر أنّ هذا قد نزل بعد نزول عدد من سُوَر القرآن، إلاّ أنّهُ أضيف إلى سورة (المدثّر) مراعاةً للمناسبة التي اقتضتها معاني آيات السورة.

وقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

فوَصَف اللّهُ الْقُرْآنَ بأنّهُ تَذْكِرَة.

وقول اللّه عزّ وجلّ فيها:

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾.

الثاني:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (المزمّل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾.

الثالث:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول) متحدّثاً عن الحلاّف المهين، الهمّاز المشّاء بنميم، المنّاع للخَيْر، المعتدي الأثيم، المكذّب بالقرآن الكريم:

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾.

وقول اللّه عزّ وجلّ خطاباً لرسوله، فلُكلّ داعٍ إلى اللّه من أُمّته:

﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

وقول اللَّه عزّ وجلّ خطاباً لرسوله بشأن المكذّبين بالقرآن، مع أنّهم يَحْسُدُون الرَّسُول على القرآن الذي يَتْلُوهُ عليهم مُعْجَبِين به:

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

الرابع:

قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (التكوير/٨١ مصحف/ ٧ نزول) بشأن القرآن، وأنّ جبريل عليه السَّلام علَّمه لرسول الله محمّد ﷺ قَوْلاً ملفوظاً، حَرْفاً فَحَرْفاً، وكلمةً فكلمة:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

وقولُ اللَّه عزّ وجلّ فيها أيضاً:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾.

الخامس:

قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (الأعلى/٨٧ مصحف/٨ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾﴾.

أي: سيَقْرأ جبريل عليك القرآن بأمرنا، فأنْتَ تَتْلُوهُ فلا تَنْسَى، إذْ نُمِدُّكَ بذاكِرَةٍ حَافِظَةٍ لاَ تَنْسَى، إلاّ ما نشاء أن تنساهُ لحكمةٍ تُراد.

السادس:

قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (النجم/٥٣ مصحف/٢٣ نزول) مبيّناً أن القرآن وحيٌ يُوحَى بأمْرِ اللَّه، يعلّمه جبريلُ رَسُولَ اللَّه محمّداً ﷺ:

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾.

وقَوْلُ اللَّه عزّ وجلّ فيها خطاباً لِرَسوله، ومبيّناً أنّ القرآن ذِكْرٌ مُنَزَّلٌ من لَدُنْه:

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾.

وقولُ اللَّه عزّ وجلّ فيها خطاباً للمكذّبين بالقرآن:

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

السابع:

قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول) بشأن آيات القرآن:

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

ثم جاء في سورة (القدر/ ٩٧ مصحف/ ٢٥ نزول) قَوْل اللَّه عزّ وجلّ بشأن القرآن:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾.

وجاء بعدها في نجوم التنزيل بشأن القرآن جمٌّ غَفِيرٌ.

مجمل ما اشتملت عليه هذه النصوص من دلالات بشأن القرآن:

(١) أنَّ القرآن آياتٌ مُنَزَّلاتٌ من عند اللَّه عزّ وجلَّ، أي: هو ببلاغته ودلالته على المعاني يشتمل على علاماتٍ بيّناتٍ واضحاتٍ جليّاتٍ على أنّه كلامٌ منَزَّلٌ من عند اللَّه، ولَيس من كلام أيّ مخلوق.

(٢) أنّ القرآن حديثٌ من اللَّه لعباده، أي: هو مُنَزَّلٌ على صفَةِ حَدِيث، بما في الحديث من هُدوءٍ، ورِفْقٍ، ونَفَاذٍ إلى عُمْقِ الأفكار، والنفوس، والقلُوب، وتأثير فيها.

(٣) أنَّ القرآن بما فيه من إعجاز بيانيٍّ وفِكْريّ، يثيرُ حَسَدَ الْبُلَغَاءِ الحاسدين للرّسول من المكذّبين بأنّه رسُولُ اللّه، ظانّين أنّه كَلاَمُهُ وبيانُه.

(٤) أنّ القرآن ثقيلٌ بما يشتمل عليه من معاني ثَرَّة، إذْ تَحْوي الكلماتُ القليلات فيه المعاني الغزيرة الجليلةَ الفيّاضة.

(٥) أنَّ القرآن بسبب سموه البيانيّ وقُوَّةِ تأثيره في النفوس، يجعل المكذّبين بأنّه من عند اللّه يصفونَه بأنَّه سِحْرٌ، على عادتهم في كلّ أمْرِ يعجزون عن مُجَارَاتِه، ممّا يأتي به النَّاس من خوارق لقُدْراتهم.

(٦) أنّ القرآن تَذْكِرَةٌ، أي: هو كتابٌ ينبغي أن يوضَعَ أمام الأعْيُن، وأنْ يُتْلَىٰ آناء اللّيل وآناء النّهارِ، ليكون تَذْكِرَةً[١] للمؤمنين.

(٧) أنّ القُرْآن يُنَزَّل على رسول اللّه محمّد ﷺ قولاً يَنْطق به جبريلُ، الرَّسول الكريمُ رسولُ الوحي، ويُلَقِّنُهُ الرَّسُول محمّداً، رسول اللّه للناس أجمعين، حرفاً فحرفاً، وكلمة فكَلِمَةً.

(٨) أنّ القرآن ذِكْرٌ لمن شاء من العالمين أن يستقيم على صراط اللّه العزيز الحكيم، أي: هو تعليم رَبَّانيٌّ يطالَبُ العالَمُون بأنْ يَتَلَقَّوْهُ، ويَتَدَبَّرُوا معانيه، ويكتبوه كتاباً مُوَثَّقاً، ويحفظُوهُ في ذاكرتهم، ويَتْلُوهُ بألْسِنَتِهِم، لينتفعوا من هدايته بتذكُّر آياته عند مناسَباتها، فيَسْتَقِيمُوا في حياتهم على صراط اللّه المستقيم.

فمَنْ شاء منهم أن يستقيم فَعَلَ ذلك.

وهو أيضاً شَرَفٌ لهم ومَجْدٌ عظيم، لأنّ عملهُمْ بما اشتمل عليه من هداية سيجعلهم يبلغُون الشَّرَف الرفيع، والمجد العظيم.

---

(١) **التذكرة**: ما يُسْتَذْكَرُ به الشيء المطلوب تذكّره، كالبطاقة الّتي تُذكّر بموعد اللّقاء أو الاجتماع، ونحو ذلك.

(٩) أنّ اللّه عزّ وجلّ سَيُقْرِئُ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ القرآنَ مع مَنْحِهِ الْقُدْرَة على حفظه، وعَدَم نِسْيَانِ أيّ شَيْءٍ منه، إلاّ ما شاء اللّه نَسْخَه لِحِكْمَةٍ هُو يَعْلَمُها.

(١٠) أنّ القرآنَ وَحْيٌ يُوحَى مِنْ عند اللّه، بألْفاظه حَرْفاً فَحَرْفاً، وكَلِمَةً فكلمة.

(١١) أنّ القرآنَ مُدَوَّنٌ في صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ، مَرْفوعةٍ مطهّرة، وهذه الصُّحف محفوظةٌ بأيْدي سفَرَةٍ، كرامٍ بَرَرَة (وهم صنفٌ من الملائكة).

(١٢) ثم جاء في سورة (القدر) بيان أنّ اللّه أنْزَلَه في ليلة القدر.

(٤)
التدبّر التحليلي لآيات سورة القدر

● قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾:

﴿إنّا أنزَلْناهُ﴾: جاء في هذه العبارة اختيارُ ضمير المتكلم العظيم، للإشعار بعظمة القرآن الكريم، إذْ هو كلامُ اللّه العظيم الجليل العزيز الحكيم العليم الخبير، وهكذا كلّما كان المرادُ الإشعار بأنّ ما يُسْنِدُه اللّه إلى نفسه جَليلٌ عظيمٌ عنده جلّ جلاله.

ونظائر هذا الاختيار كثيرة في القرآن، ولا سيّما حينما يكون الحديث عن القرآن، مثل:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ... ﴿٢﴾﴾ [الزمر/ ٣٩، (١٠٥) النساء: ٤].

أمّا في مقامات المحادثة والإيناس، فيأتي اختيار ضمير المتكلم المُفْرَد، مثل:

- ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ...﴾ [طه/ ٢٠].
- ﴿...لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه/ ٢٠].
- ﴿...إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ...﴾ [البقرة/ ٢].

والهاء من ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ ضمير منصوبٌ جاء كناية عن القرآن، ولو لم يَسْبِقْ في النّصّ حديثٌ عنه، للعلْم به بداهةً، فهو المنَزَّلُ من عند اللَّه على رسوله. وقد غدا معلوماً في استعمالات القرآن قبل إنزال سورة الْقَدر أنَّ التنزيلَ والإنزالَ متىٰ أُطْلِق في القرآن، فالمراد به تنزيل القرآن وإنزاله، أمّا إذا أُريد به شيء آخر، فإنّه يأتي مُقْتَرِناً ببيان الشيء المنزّل، كإنزال الماء وإنزال الحديد، وإنزال الملائكة، وإنزال السَّكينة.

إنّ من الإيجاز في القرآن الكنايةَ بالضمير أحياناً عمّا يمكن أن يُعْلَم المرادُ به من القرائن، أو من مضمون المعنى.

﴿فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾: هي إحدى ليالي العشر الأواخر من رمضان، قد أخفاها اللَّهُ فيها، ليجتهد المؤمنون العابدون في التماسها طوَال هذه اللّيالي، حرصاً على اغتنام خيراتها الجليلات العظيمات.

وأوصَى الرَّسُولُ ﷺ بالتماسها في هذه اللّيالي، ولا سيما في الآحاد منها، وسيأتي إن شاء اللَّه البيان المفصّل في هذا.

القَدْر: بإسْكان الدال وفتحها، تأتي في اللّغة للدّلالة على معاني متعدّدة ذكَرَها عُلَماء اللّغة العربية:

- فتأتي بمعنىٰ مقدار الشيء في كلّ ما يُمْكِن تقدير كميَّةٍ له.
- وتأتي بمعنىٰ القضاء والحكم.
- وتأتي بمعنى التّدْبير، يقالُ لغةً: قَدَرَ القومُ أَمْرَهُمْ يَقْدُرُونه ويَقْدِرُونه قَدْراً، أي: دبَّرُوا أمرهم. ويُقَالُ: قَدَرْتُ لأمْرِ كذا أَقْدِرُ وأَقْدُرُ له، أي: نظرت فيه، ودَبّرته، وقايَسْته.

● وتأتي بمعنى المكانة وعلوّ الشَّأنِ، وقد جاء للدّلالة على هذا المعنى قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾

أي: ما عَظّمُوهُ حَقَّ تعظيمه، أو ما وَصَفُوه حَقَّ وصفه الجليل، وعلى هذا المعنى يُقال: فلانٌ جليل القَدْر، أي: عظيم المكانةِ والشأن.

وأصْلُ مادّة الكلمة يدور حول مقادير الأشياء، وحُدُود كميَّات وحَدَاتها، فتحديد وحَدَات كلّ عُنْصُر من عناصر المركّباتِ هو تقديرٌ له.

وصُنْعُ كُلّ شيءٍ مُرَكَّب من عناصر في ذَرَّاته، وأبْعَاده، وأوزانه، وأوصافه ليؤدّي الغرض من صُنْعِهِ، لا يتمُ إلاَّ بقَدَرٍ، أي: بتحديد مقدار الوَحَدات من كلّ عنصر كبيراً كان أم صغيراً، ولهذا قال اللَّه عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾.

هذا هو المعنى الأصلي للمادّة، وقد تأخُذُ معاني أخرى إذا اقترنت بما يدُلُّ عليها، كالإمضاء والحكم، والتَّدْبير، والمقايسة، والتعظيم ورفع الشأن.

وبناءً على هذا التحليل اللُّغوي يُمْكن أن نُفَسّر السَّببَ الّذي دَعَا إلى تَسْمِيَةِ اللَّيْلَة المباركة الّتي أنزل اللَّه فيها القرآن بلَيْلَةِ القدر.

فهي ليلَةُ القضاء والحكم بمقادير الأشياء، وليلَةُ التدبير، وليلَةُ الشَّأْنِ العظيم والشَّرَفِ الرَّفيع، وليلَةُ الإعْلاَمِ بمقادير الآجال والأرزاق والأحْدَاث، وغير ذلك.

وبهذه المعاني جاءت التعليلاتُ المأثورة لتسمية هذه الليلة المباركة بلَيْلَةِ القَدْر.

● فقد رُوي عن ابن عبّاس رضي اللَّه عنهما، أنّ اللَّه عزّ وجلّ يُقدّرُ في لَيْلَةِ القَدْر ما يكونُ في تلْكَ السَّنَةِ من مطَرٍ ورزْقٍ، وإحْياءٍ، وإماتَةٍ، إلى مثل هذه اللَّيْلَة من السَّنَةِ الآتية.

أي: يَنْزِلُ أمْرُ اللَّه بقضائه لملائكته، في كلّ أمْرٍ من أمور تدبير شؤون خلقه.

ويؤيّد هذا المعنى ما جاء في سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾﴾.

أي: يُفْصَل في هٰذِهِ اللَّيْلَة المباركة من اللَّوْح المحفوظ أَمْرُ السَّنَةِ القادمة، وما يكونُ فيها من الآجال والأرزاق وغير ذلك.

وقد اختار هذا التعليل عامَّةُ أهْل العلم.

● ونُقِل عن الزهريّ أنه قال: ليلة الْقَدْرِهي ليلة العظمة والشرف، من قولهم: لفُلَانٍ قَدْرٌ عنْدَ فلانٍ، أي: له منزلَةٌ وشَرَفٌ عنده.

ولسْتُ أرى مانعاً من اجتماع عدّةِ معانٍ للَيْلَةِ القَدْرِ، فهي لَيْلَةُ القضاء والحكم، وليلَةُ التدبير، وليلَةُ فَصْلِ مقادير العباد من اللَّوح المحفوظ، لتبليغها إلى الملائكة المكلّفين القيامَ بوظائف تتعلّق بأمور العباد، وهي ليلة الشأن العظيم، والشرفِ الرَّفيع.

ما المراد من إنزال القرآن في ليلة الْقَدْر؟

هذا السؤال قد طرحه «عطيّةُ بن الأسود» على ابن عبَّاس رضي اللَّه عنهما، وأجابه عليه.

● رُوِيَ عن ابْنِ عبَّاسٍ من عدّة طُرُقٍ كما ذكر ابْنُ كثير، أنّه سألَهُ «عطيَّةُ بْنُ الأَسْودِ» فقال: وقع في قَلْبي الشَّكُّ، قولُ اللَّه تعالىٰ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾، وقولُهُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾، وقَوْلُه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾، وَقَدْ أُنْزِلَ في شَوّال، وفي ذي القَعْدَة، وفي ذي الحجّة، وفي المحرّم، وصفر، وشهر ربيع.

فقال له ابن عبّاس: إنَّهُ أُنْزِلَ في رمضان في لَيْلَةِ القدر، وفي ليلَةٍ مباركةٍ جُمْلَةً واحدة، ثُمَّ أُنْزِلَ على مواقع النُجوم ترتيلاً في الشُّهور والأَيَّام.

● وروي عن ابن عبّاس أيضاً بإسناد صحّحه الحاكم، أنّه قال: أُنْزِلَ القرآنُ في لَيْلَة القدر، حتَّى وُضِعَ في بيت العزَّةِ في السّماء الدُّنيا، ثُمَّ جَعَلَ جِبْريلُ ينزلُ على محمّد بجواب كلام العباد وأعمالهم.

● وذكر المفسّرون تعليلاً آخر، وهو أنَّ أوّل قرآنٍ أُنْزِلَ على رسول الله ﷺ كانَ في ليلَة القدر من شهر رمضان، ثُمَّ نزَلَ سَائِرُهُ على مواقع النجوم، فكان بَدْءُ نُزوله فاتِحَةَ أمْرٍ عظيم وقَدْرٍ جليل للنَّاس، وكان بين بَدْءِ نُزول ما نزل منه وآخر ما نزلَ منه ثلاثٌ وعشرون سنة.

ليلة القدر إحدى ليالي شهر رمضان:

يدُلُّ قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (البقر/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ...﴾.

وقول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (القدر/ ٩٧ مصحف/ ٢٥ نزول):

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾.

على أنّ لَيْلَةَ القدر إحدَىٰ ليالِي شَهْرِ رمضانَ المبارك لا محالة.

ولم يأتِ عن الوحي تعيين لها، إلاَّ أنَّ الرسول ﷺ أوصَىٰ بالتماسها في العشر الأواخر من شهر رمضان ولا سيما في الآحاد منها.

● فقد روى البخاريّ ومسلم عن أبي سعيد الخدريّ، أنّ رسول الله ﷺ اعتكف العشر الأوَل من رمضان، ثُمّ اعتكف العشر الأَوْسَطَ في قُبَّةٍ تُرْكِيّة[1]، ثُمَّ أَطْلَعَ رَأْسَهُ فقال: «إنِّي اعْتَكَفْتُ الْعَشْرَ الأُوَل أَلْتَمِسُ هٰذِهِ اللَّيْلَةَ، ثُمَّ اعْتَكَفْتُ الأَوْسَطَ، ثُمَّ أُتِيتُ فَقِيلَ لِي: إِنَّهَا فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ، فَقَدْ أُرِيتُ هٰذِهِ اللَّيْلَةَ، ثُمَّ أُنسِيتُها، وَقَدْ رَأَيْتُنِي أَسْجُدُ فِي مَاءٍ وَطِينٍ مِنْ صَبِيحَتِها، فَالْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ، وَالْتَمِسُوهَا فِي كُلِّ وِتْرٍ».

قَدْ أُرِيتُ هٰذِهِ اللَّيْلَةَ ثُمَّ أُنسِيتُها: أي أُرِيت تَحْديد وقتها في المنام ثم أُنسِيتُها.

● وروىٰ البخاريّ عن عُبَادة بن الصَّامت قال: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ لِيُخْبِرَنَا بِلَيْلَةِ القَدْرِ، فَتَلاَحىٰ[2] رَجُلاَنِ من المُسْلِمِينَ (أي: تَشَاتَمَا) فَقَالَ ﷺ:

«خَرَجْتُ لأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ القَدْرِ، فَتَلاَحَىٰ فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ فَرُفِعَتْ[3]، وَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ خَيْراً لَكُمْ، فَالْتَمِسُوهَا فِي التَّاسِعَةِ، وَالسَّابِعَةِ، وَالْخَامِسَةِ».

أي: من العشر الأواخر من رمضان.

قال أبو سعيد الخدري راوي الحديث الأوّل: فَمَطَرَتِ السَّمَاءُ تِلْكَ اللَّيْلَة، وَكَانَ الْمَسْجِدُ عَلَى عَرِيشٍ، فَوَكَفَ المسجد (أي: صار يتقاطر سَقْفُه) فَبَصُرَتْ عيناي رَسُول اللّهِ ﷺ وعَلَىٰ جَبْهَتِهِ أَثَرُ الْمَاءِ والطين من صبيحَةِ إِحدَى وعِشْرين.

---

(١) هي قُبّة صغيرة من لُبودٍ.

(٢) **فتلاحىٰ**: أي: فتشاتَم.

(٣) **فَرُفِعَتْ**: أي: فَرُفِعَتْ مَعْرِفَةُ لَيْلَتِهَا مِنْ ذَاكِرَةِ الرَّسول ﷺ.

الحكمة من إخْفاء ليلة القدر:

ويُلاحظُ أنَّ الحكمة من إخفاء ليلة القدر، أنَّه أسلوبٌ من أساليب التشويق إلى الاجتهاد في العمل الصالح لاغتنام الأجْرِ العظيم، فَمِنْ طبائع الناس تتبُّعَ الاحتمالاتِ المحصورة في عدَدٍ مُعَيَّن، للظفر بالرّبح العظيم المنُوطِ بواحدٍ منها يجهلون تَعْيينه، فمن أحصاها كُلَّها منهم استَيْقَنَ مِنَ الظفر بالمطلوب، وبذلك تَنْدَفِع نفوسُهم إلى إحصائها.

والناس مفطورون أيضاً على محبَّةِ الأسرار، والرَّغبَةِ في البحث عنها، والمحافظة عليها بَعْدَ الوصول إليها.

ومن حِكَمِ إخفاء ليلة القدر في العشر الأواخر من ليالي رمضان، تمييز أهل الحرص على التماس مظانِّ فضل اللَّهِ العظيم، بالتحرِّي والاجتهاد في العبادة، خِلَالَ مُدَّةٍ زَمَنِيَّةٍ أطْوَلَ من المدّةِ الَّتِي تتنَزَّلُ فيها خصائصُ الخيراتِ الرَّبَّانِيَّةِ الحِسَان.

فعلَىٰ المؤمن العابد الحريص على اغتنام الفضل الرَّبَّاني العظيم، أن يجتهد في ضبط نفسه على العبادات والطّاعات طَوال ليالي شهر رمضان، ثُمَّ يُضاعف اجتهاده في العشْر الأواخِرِ منه، وأن يَزِيد من حرصه وحُسْن عبادتِه في آحاد ليالي هذا العشر، رغبةً في أن يظفَر بها، ويغتنم خيراتها، ولو لَمْ يَشْعُرْ بأماراتها؛ إذْ لاَ يُشْتَرَطُ ذلِكَ للظفر باغتنام خيراتها.

● قول اللَّه عزّ وجَلّ:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢﴾:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾؟! أي: وأيُّ شيءٍ أَعْلَمَكَ؟ فلفظ «ما» اسْمُ استفهام، يُسْتَفْهَمُ به عن حَقِيقة الشيءِ وماهيّته. وهي جملة مُؤلفة من مبتدأ وخبر: «ما» مبتدأ، وجملة «أَدْرَاكَ» في محلّ رفعٍ على أنّها خبر. والواو اسْتئنافية ولا يَظْهَرُ فيها أنّها عاطفة.

﴿مَا لَيلَةُ القَدرِ﴾؟! أي: أيَّةُ لَيْلَةٍ عظيمةِ الشأنِ، جليلة الخطَرِ ليلَةُ القدر؟! استفهامٌ يُرادُ به التعجيب من عظمة ليلة القدر، وهذه الجملة مؤلفةٌ من مبتدأ هو «ما» الاستفهاميّة التعجيبيَّة، وخبر هو «لَيْلَةُ القَدْرِ».

وجملَةُ ﴿مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾؟! في محلّ نَصْبٍ، سدَّتْ مَسَدَّ مفعولين، والتقدير: ومَا أَدراكَ مُعْلِماً إيَّاك عظمَةَ ليلَةِ القَدْرِ.

وهَذا الاستفهام في ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢﴾؟! ونظيره يتضمَّن مَعْنَىٰ نفي عِلْمِ المخاطَب بما هو مسؤولٌ عنه. أي: أَنْتَ لاَ تَدْرِي مَهْمَا انطَلَقْتَ سابحاً في التصوُّر مبلَغَ مكانةِ هٰذه اللَّيلة العظيمة، إلاّ إذا أعلمناكَ بذلك، وفي هٰذا دلالةٌ كافيةٌ علىٰ أنَّها ليلةٌ عظيمةٌ جداً.

قال المفسّرون في تفسير: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢﴾؟!! وأمثاله، أي: لم تَبْلُغْ دِرايتُك غايةَ فَضْل هٰذه اللّيلة، ومُنْتَهىٰ علُوِّ قَدْرِها، وعِظَمِ شَأْنِهَا.

أقول:

لقد تكرّر في القرآن الكريم مِثْلُ هذا الاستعمال، حتَّى صار معلوماً أنَّه أسلوب من أساليب التعظيم والتكبيرِ والتَّهْوِيل والتَّعْجيب.

ولدى التحليل التدبُّري يظهر لنا أنَّه صيغَةٌ من صِيَغِ التعجيب القرآنيّة المبتكرَةِ، ضمْن أُصول اللّسان العربي.

أيْ: أعظم بهذا الأمر إعظاماً لا يَصِلُ إليه مَدَىٰ إدْرَاكِكَ.

وهٰذِهِ العبارة أبْلَغُ من عبارَتَي التعجُّب والتَّعْجِيب المستعملتَيْنِ عند العرب، وهما: «ما أعْظَمَهُ» و«أَعْظِمْ بِهِ»، فَهَاتَانِ العبارتانِ لا تَدُلاَّنِ علىٰ عَدَمِ قُدْرَةِ المخاطَبِ علىٰ إدْرَاكِ حقيقةِ الشَّيْءِ الَّذِي يُعَظَّمُ له، وأنَّ مَدَارِكَهُ لاَ تَصِلُ إلى الإحاطة به، بخلاف الصّيغة القرآنيَّةِ المبتكرَةِ في التعجيب.

قولُ اللّه عزَّ وجلَّ:

﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾.

بعد التعجيب من جلالة وعظمة ليلة القدر، يَقَعُ في الأنْفُس سؤال: فَماذا من صفات لَيْلَةِ القَدْر ممَّا يحرصُ المؤمِنُ العابد على معرفته بعناية بالغة للعمَلَ بما ينْفَعه في آخِرَته.

فجاء جوابُ هذا السؤال المطويّ بقول اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾.

أي: هي خيرٌ من ألف شهر في فضلها الزَّمانيّ الَّذِي جعلَهُ اللّهُ لَهَا، وفي فَضْلِهَا بما يُجْرِيه اللّهُ فيها من خَيْرٍ عظيم، وبما يُفيضُ فيها من رحَماتٍ على عباده، وبما فيها من فَضْلِ الدُّعاءِ والعبادة، وبما يُضَاعِفُ اللّهُ عزّ وجلّ فيها على عباده من أُجورٍ على الأعمال الصالحة الّتي يُؤَدُّونَها فيها، وبما يَقْضِي اللّهُ فيها من إجابَةِ الدُّعاء.

فَمَنْ عَبَد اللّهَ فيها، وذكره، ودَعَاهُ، وفَعَلَ خيراً، وسجَدَ له، والْتجأَ إليه، كان له من الثواب، والأجْرِ العظيم، والبركات الجِسَام عِنْدَ اللّهِ، ما هوخَيْرٌ لَهُ من أعمالٍ صالحاتٍ يَعْمَلُهَا في ليالي وأيَّامٍ كثيراتٍ تَبْلُغُ لو جُمِعَتْ أَلْفَ شَهْرٍ لَيْسَ فيها لَيْلَةُ القَدْرِ.

فإذا كان الشهر ثلاثين يوماً كانَتْ لَيْلَةُ القَدْرِ خيراً من ثلاثين ألْفاً من الأيّامِ الأخرى، وألْفُ شَهْرٍ تُعَادِلُ ثلاثاً وثمانينَ سنَةً وثُلْثَ السَّنَة، وهذا عُمْرٌ قَلَّ من النَّاس من يبلُغُه، فكَيْفَ بمَنْ يَعْبُدُ اللّهَ فيه وهو لاَ يَعْبُدُ إلاَّ مُمَيِّزاً على أقَلّ تقدير.

فَمَنْ أَحْيَا هٰذِهِ اللَّيْلَة بالعبادات والطاعات والقُرُبات والدُّعَاء والذكر، والتفكّر في آياتِ اللّه وآلائه وأسمائه الحسنى وصفاته الجليلة، والتضرُّع

والابتهال، كتَبَ اللَّهُ له من الأَجْرِ وحطّ عنه من الوِزْر، كما لو عَبَدَ اللَّه وتَضَرَّعَ إليه طَوَالَ عُمْرٍ فيه من الأيّام ثَلاثُونَ أَلْفاً.

يضافُ إلى هذا أنّ الدُّعَاء فيها مستجاب بفضل اللَّه وكرَمِهِ على عباده.

لقد جعل اللَّهُ عزّ وجلّ ليلة القدر مناسبةً للتسابُقِ في عَمَلِ الخير، والتعويض عمَّا سَلَفَ من تقصيرات، والتكفير عمَّا سَلَفَ من سَيِّئاتٍ ومخالفاتٍ، والإطماع بإجابة الدَّعَوات.

مضاعفة ثواب الأعمال لخصائص بعض الأزمنة والأماكن:

أمّا مضاعفةُ الأَجْرِ والثوابِ عند اللَّهِ، وإجابَةُ الدُّعَاءِ، لِخصائِصَ يَجْعلها اللَّهُ جلّ جلالُهُ، لبَعْضِ الأَزْمِنَةِ والأَمْكِنَةِ وغيرها، فَهِيَ قضيَّةُ فَضْلٍ وَجُودٍ يَنْفَحُ اللَّهُ بهما عبادَه، لِيَمْنَحَهُم فُرَصاً يُعَوِّضُونَ فيها على أنْفُسِهم ما فَاتهم من أعْمالٍ، بسَبَب تقصيراتهم، أو مشاغلهم، أو انْصرافهم إلى مُلْهِيَاتِ الحياة الدُّنْيا، كالأمْوالِ، والبنين، والاستمتاع بصُنُوف اللَّذَّاتِ.

فمِنْ خصائص الأزمنة ليلة القدر، ومن خصائص الأمكنة الحرَمُ المكيّ، ومَسْجِدُ الرَّسول، ومن خصائص الأحوال صلاة الجماعة، ومن خصائص الأشخاص الرَّسُول محمّد ﷺ، فَمَنْ لَقِيَهُ مسلماً اكتسب مَزِيَّة الصُّحْبَة، ونظراً إلى الخصائص المختلفة الّتي جَعَلَها اللَّهُ عزَّ وجلّ قال العلماء: إنَّ للَّهِ خواصّ في الأزمنة والأمكنة والأشخاص.

- قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾.

في هٰذِهِ الآية يُبَيّن رَبُّنَا تبارَكَ وَتَعَالَىٰ أنَّ من خصائص ليلَةِ القَدْرِ أنَّ الملائكة تَنَزَّلُ فيها، أي: تتنزَّل فيها من منازِلِهَا في السَّمَاوَاتِ العلْيَا إلى

السَّمَاءِ الدُّنيا، وإلى الأرض، لتشهَدَ موسمَ الخير العظيم الذي جعَلَهُ اللَّهُ للمؤمنين، وخُصّ الرُّوحُ بالذِّكر وهو جبريل عليه السَّلام مع أنّه داخلٌ في عموم الملائكة، تنويهاً برئاسته ورفعة شأنه بينهم.

كلمة: «تنزّل» بهٰذِه الصيغة تُشْعِر بأنَّ نُزُولَ الملائكة في هذه اللَّيْلَةِ، يحصُلُ بشَكْلٍ مُتَتابع مُتَلاحقٍ علىٰ أفواجٍ، ولا يَحْصُلُ دَفعةً واحدة، ورُبّما يَنْزِلُ فَوْجٌ مِنهُمْ بَعْدَ أنْ يَنصَرِفَ فَوْجٌ نزلَ قبله، وشَهِدَ موسم الخير، وأدّى فيه وظيفَتَهُ أو رِسالتَهُ الّتي أُرْسِل بها.

روى البيهقيّ في شعب الإيمان عن أنَسٍ، قال: قال رسولُ اللّه ﷺ:

«إِذَا كَانَ لَيْلَةُ القَدْرِ نَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي كَبْكَبَةٍ[1] مِن المَلَائِكَةِ، يُصَلُّونَ عَلَىٰ كُلِّ عَبْدٍ قَائِمٍ أَوْ قَاعِدٍ يَذْكُرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ عِيْدِهِمْ بَاهَىٰ اللَّهُ بِهِمْ مَلَائِكَتِهِ، فَقَالَ: [يَا مَلَائِكَتِي، عَبِيدِي وَإِمَائِي قَضَوْا فَرِيضَتِي عَلَيْهِمْ، ثُمَّ خَرَجُوا يَعُجُّونَ إِلَيَّ الدُّعَاءَ، وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، وَكَرَمِي وَعُلُوِّي وارْتِفَاعِ مَكَانِي، لأجِيبَنَّهُمْ، فَيَقُولُ: ارْجِعُوا فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ، وَبَدَّلْتُ سَيِّئَاتِكُمْ حَسَنَاتٍ].

قال: فَيَرْجِعُونَ مَغْفُوراً لَهُمْ».

ذكر جبريل عليه السلام بعنوان الرُّوح:

وقد جاء في هذه الآية ذكر جبريل عليه السّلام بعنوان «الرُّوح»، أي: الرُّوحُ العظيم الكامل، الذي هو عند ذي العرش مَكِينٌ، والذي هو رئيس مطاعٌ هنالك عند ملائكة السّماوات الْعُلَا، والذي هو أَمِينٌ في أداءِ رسالاتِ رَبّه، كما سَبَقَ أنْ نَزَلَ في سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول).

ولدَىٰ تتبُّع سُوَر القرآن نجد أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ قد ذكر جبريل عليه

---

(١) كَبْكَبة: أي: جَمَاعَة.

السّلامُ بأنَّهُ «الرُّوح»، وبأنه «الرُّوحُ الأمين» وبأنه «رُوحُ القُدُس»، وشَرَّفَهُ بإضافته إلى ذاته، فقال تعالىٰ: «رُوحنا» بضمير المتكلّم العظيم، وذكره ببعض صفاته في سورة (التكوير)، وذكره باسمه «جبريل» في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) مرتين، وفي سورة (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول) مرّة واحدة.

١ ـ ففي سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول) قال اللّه بشأنه مُلَقّناً ألْفاظ القرآن، لرسول اللّه محمّد ﷺ:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ (٢٠) مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ (٢١)﴾.

٢ ـ وفي سورة (القدر/ ٩٨ مصحف/ ٢٥ نزول) ذكَرَهُ اللّهُ عزّ وجلّ بأنّه الرُّوح، فقال تعالىٰ:

﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ (٤)﴾.

٣ ـ وفي سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) قالَ اللّهُ عزّ وجلّ في معرض الحديث عن مريم عليها السّلام:

﴿... فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا (١٧)﴾.

٤ ـ وفي سُورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) قال اللّهُ عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمّد ﷺ بشأن القرآن:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ (١٩٥)﴾.

٥ ـ وفي سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) خاطب اللّه رسُوله في شأنِ القرآن بقوله:

﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ (١٠٢)﴾.

٦ ـ وفي سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول) قال اللّٰهُ عزّ وجلّ بِشَأْنِ عُرُوج الملائكة والرُّوح إليه تبارَكَ وتعالىٰ:

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾.

٧ ـ وفي سورة (النَّبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول) قال اللّٰهُ عزّ وجلّ بشأن يوم الحساب وقيام الرّوح (جبريل) والملائكة صَفّاً:

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

قول اللّٰه تعالىٰ:

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾:

دلّتْ هٰذهِ العبارة علىٰ أنَّ الملائكة برئاسَةِ الرُّوح جبريل عليه السَّلام، حينما تَتَنَزَّلُ في ليلةِ القَدْر للقيام بوظائِفِهِم وأعْمَالِهِم الَّتِي يُكَلَّفُونَها، من كُلِّ أمْرٍ مِنْ أَوَامِرِ تَدْبيرِ اللّٰهِ لِخَلْقِهِ، لاَ يَتَنَزَّلُونَ إلاَّ بِإِذْنِ من رَبِّهِم عِنْدَ الشُّرُوع بالتَّنَزُّلِ، ولَوْ كان لَدَيْهِم في الخُطَّةِ العَامَّةِ والبَرْنَامَجِ المُقَرَّرِ أنْ يَتَنَزَّلُوا لَيْلَةَ القَدْرِ من كُلِّ عامٍ، فالشُّرُوعُ بالتَّنَزُّلِ تنفيذاً للبرنامج العامّ لاَ بُدَّ أن يكونَ مصحوباً بالإذْنِ، استيفاءً لمقتضَيَاتِ الانضباط النظامي.

ولا يقتَصِرُونَ على إذْنٍ تفويضيٍّ عامّ، بل لا يقومُون بكبير ولا صغير من كلّ أَمْرٍ إلاّ بإذْنِ رَبّهم.

وباستطاعة المتدبّر لكلام اللّٰه عزّ وجلّ أنْ يَجِدَ بيان قوله هنا في سورة (القدر): ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ فيما أَنْزَلَ اللّٰه بعد هذا في سورة (الدُّخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾﴾.

أي: في هٰذِهِ اللَّيْلَةِ المبارَكَةِ ليلَةِ الْقَدْرِ الَّتي أُنْزِلَ فيها القُرْآن، يُفْصَلُ من اللَّوْحِ المحفوظ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيم ـ وكلُّ أوامر اللَّهِ حكيمة ـ من أوامِرِ قضاء اللَّه وقَدَرِهِ المُحْكَم، الَّذِي لاَ مَحْوَ فيه، ممَّا يتعلَّقُ بتَدْبيرِ اللَّهِ لأحداث السَّنةِ القادمة، حتَّىٰ ليلَةِ الْقَدْرِ التالية.

وإنَّما يَتِمُّ هذا الفَصْل الذي جاء التعبير عنه بالفَرْقِ، من جُمْلَةِ المكتوبات في اللَّوْحِ المحفوظ، بأمْرٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

وإذْ نُلاحظُ هذا الحَدَثَ العظيم من أحداثِ هٰذِهِ اللَّيْلَة المباركَة، فلا بُدَّ أن نُلاحظَ معه أنَّ وظائفَ وأعمالاً جليلَةً تتعلَّقُ بالملأ الأعْلَى من الملائكة مُقْتَرِنَةٌ به، وهي أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ أوامرَ اللَّه الحكيمةَ المُحْكَمَة، الَّتِي فُرِقَتْ من اللَّوح المحفوظ، ويَنْزِلُونَ بها، ليبَلِّغُوهَا إلى الذينَ يكلَّفُونَ تَنْفِيذَهَا من ملائكة الأرض.

ومع قيام الملائكة بوظائفهم وأعمالهم الّتي يكلَّفُونها من كلّ أمْرٍ من أوامر تدبير اللَّه لخلقه، لدى تَنَزُّلِهِم إلى الأرض في ليلَةِ القَدْرِ، لا بُدَّ أن نَضَعَ في تصوُّرنا أنَّ ملائكة السماء يشاركُونَ المؤمنين المسلمين في مواسم الخَيْر، وأنّ مَهْرَجانات العبادة للَّهِ عزّ وجلّ مهرجاناتٌ تَعُمُّ أهْلَ السَّماوات والأرض، ولو لَمْ يَشْعُرِ المؤمِنُون من الإنْسِ بمشاركةِ الملائكة لهم في مواسم الخير، إلاَّ أَنَّهُم يُؤْمِنُون بذلك تصديقاً لما ثبت لديهم من أخبارِ عن الرسول ﷺ.

ولا يكونُ بمعزلٍ عن هذا المهرجان العظيم إلاّ الكافرون، والعصاةُ المعاندون المجرمون، والشياطين، فهم المحرومون من بركاتِ مواسم الخير، وخيراتها الرَّبانيّة العظيمة.

● قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ۝٥﴾.

وصفَ اللَّهُ جلّ جلالُه هذه اللّيلَة المباركةَ ليلةَ القَدْرِ بأنَّها سلام، وفي

هذا دليلٌ على أنَّها ليلَةُ أمْنٍ شامل، فلا غَضَبَ فيها ولا انتقام، ولا تَلاحِيَ فيها ولا خصام، والملائكةُ فيها في ليلةِ عيدٍ ومَهْرَجانِ عبادةٍ وأمن، إذْ تتوقَّفُ أوامر العقاب، وتعمُّ مظاهر الأمن في السماء والأرض، إلاَّ ما يكون من قِبَلِ المكلّفين المخَيَّرين مِنْ إنْسٍ وجنٍّ.

وتستمرّ هذِهِ اللّيلة ليلةَ سلامٍ حتَّىٰ طُلوعِ فَجْرِهَا، كما جاء في الآية.

ويظهر أنّ ليلة القدر تَدُورُ على كلّ الأرض بحسب مشارقها ومغاربها، لكَيْ تكون عامّةً لكلّ أهل الأرض؛ إذ اللّيلُ والنهارُ يدوران على الأرض بحسب ابتداء وانتهاء كلٍّ منهما، على اختلاف مواقعها بالنسبة إلى الشمس، إشراقاً ومغيباً سَبَبُهُما دوران الأرض حول نفسها باتّجاه الشمس.

صفات ليلة القدر في القرآن:

مما ورد في القرآن المجيد عن ليلَةِ القَدْرِ نستطيع أنْ نستَخْلِص ستّ صفاتٍ كبرى لها، وهي:

الصفة الأولى: أنّها ليلةُ القدر، أي: ليلَةُ تقدير الأمور وتدبيرها، من كلّ ما يكون في كلّ تلك السنة القادمة، إلى مثل هذه الليلة من السنة الّتي تليها.

وهي ليلة الشرف والعظَمَة والمنزِلَة الكبرى عند اللّه.

الصفة الثانية: أنَّها ليلَةٌ مبارَكَة، أي: يبارِكُ اللّه فيها لعباده، فيضاعفُ لهم رحماته، ويزيد لهم في ثواب أعمالهم ومن فيوض غُفْرَانِه وعَفْوِه، ويستجيب فيها دُعاء من دعاه.

ومن بركاتها الجليلات أنّ اللّه تبارك وتعالىٰ أنْزَل فيها القرآن رحمةً للناس.

الصفة الثالثة: أنَّها خَيْرٌ عِنْدَ اللّهِ لعباده من ألفِ شَهْرٍ، ليس فيها ليلَةٌ من ليالي القدر، فالعمل الصالح فيها يُضَاعَفُ بمثل هٰذِهِ الخيريَّة.

الصفة الرابعة: أنّ الملائكة تتَنَزَّلُ فيها ومعهم الرُّوح جبريل عليه السلام، بإذْنِ رَبِّهِمْ من كلّ أمْرٍ من أمور تدبير الخَلْقِ.

وخُصَّ جبريلُ عليه السلام بالذكر لشرَفِ منزلته بين الملائكة، ولأنّه لا يَنْزِلُ عادةً إلاَّ للأمور العظيمة الجليلة.

الصفة الخامسة: أنَّ كُلَّ أمْرٍ رَبَّانِيٍّ حكيم، يُفْرَقُ فيها من اللَّوْحِ المحفوظ، للإعلام به وإبلاغه لملائكة التنفيذ، إذا كان من أمور تدبير الخلائق للعام القادم.

الصفة السادسة: أنها ليلة سَلَامٍ وأمْنٍ شامل، وتَظَلُّ كذلك حتَّىٰ طُلُوعِ فَجْرِهَا، وهي تَدُورُ مع الأَرْضِ، بحَسَبِ مشارق الأرض ومغاربها.

مما ورد في السنّة حول صفات ليلة القدر الماديّة:

(١) أخرج الطيالسيُّ عن ابن عبّاسٍ، أنّ رسول الله ﷺ قال في ليلة القَدْر:

«لَيْلَةٌ سَمْحَةٌ طَلْقَةٌ[1]، لاَ حَارَّةٌ وَلاَ بَارِدَةٌ، وَتُصْبِحُ شَمْسُ صَبِيحَتِهَا ضَعِيفَةً حَمْراء».

(٢) ورُوِيَ عن جابر بن عبد اللَّه، أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«إنّي رَأَيْتُ لَيْلَةَ القَدْرِ فَأُنْسِيتُهَا، وَهِيَ فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ لَيَالِي شَهْرِ رَمَضان، وَهِيَ طَلْقَةٌ بَلْجَةٌ، لاَ حَارَّةٌ وَلاَ بَارِدَةٌ، كَأَنَّ فِيهَا قمراً، لاَ يَخْرُجُ شَيْطَانُهَا حَتَّىٰ يُضِيءَ فَجْرُهَا».

بَلْجَة: أي: مضيئة واضحة.

(٣) وروى مسلم عن زِرّ بن حُبَيْشٍ، عن أُبَيّ بن كَعْبٍ، قال: «أَخْبَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أنّ شَمْسَ صَبِيحَتِهَا تَطْلُعُ لاَ شُعَاعَ لَهَا».

يمّا ما يتوهَّمُهُ النَّاسُ حَوْلَها من عجائب مادِيَّةٍ فلا أصل له، وهو من المفتريات التخريفية.

وبهذا تَمّ تدبُّر سورة القَدْر

والحمد لله على فتحه وتوفيقه ومعونته

❀ ❀ ❀

---

(١) **سَمْحة طلقة**: أي: سهلةٌ طيّبة، لا حرَّ فيها ولا بردَ يؤذيَان، وساكنة مضيئة.

سُورَةُ الشَّمْسِ

٩١ مصحف ٢٦ نزول



(١)

نصّ السورة

سورة الشمس وما فيها من فرشيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾

---

١٥ ـ ● قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر: ﴿فَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ عطفاً بالفاء.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَلاَ يخافُ عُقْبَاهَا﴾ بالواو بدل الفاء.

والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد، فالعطف بالفاء يَدُلُّ على الترتيب مع التعقيب، أي: فالربُّ عَقِبَ تَسْوِية دِيار ثمودٍ بالأرض وإهلاكهم بالأنقاض لاَ يخاف عاقبةَ تَبِعَةٍ مَا؛ لأنَّ ما فعلَهُ تحقيق للعدل، أمّا الواو في قراءة الجمهور فهي واو الحال، وهي تدُلُّ على أنّه لم يكُنْ، في حال قيامه بتدمير ديار ثمود وإهلاكهم يخافُ تَبِعَة فِعْلِه، لأنّه يُحقّق العدل جلّ جلاله، والتبعةُ أن يُسْأَل: لماذا أهلكتَهُمْ.

(٢)
ممّا ورد بشأن سورة الشمس من أحاديث

(١) روى الإمام أحمد، والترمذيّ وحسّنه، والنّسائي، عن بُريدَة:

«أنّ رسُولَ اللّهِ ﷺ كَانَ يَقرَأُ فِي صلاة الْعِشَاءِ» ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾، وأشْبَاهِهَا مِنَ السُّور».

(٢) وروىٰ البخاري ومُسْلِمٌ عَنّ جابر بن عبد اللّه، أنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ رَضِيَ اللّهُ عَنه كان يُصَلّي مَعَ النبيّ ﷺ، فَيأْتِي قَوْمَهُ فيُصَلّي بهم الصَّلاَةَ، فقرأ بهم البقرة.

قال: فتَجَوَّز رَجُلٌ فَصَلّى صَلاَةً خفيفةً، فبلَغَ ذَلِكَ مُعَاذاً، فقال: إنَّهُ مُنَافِقٌ، فَبلَغَ ذٰلك الرجلَ، فأتىٰ النبيَّ ﷺ فقال: يا رَسُولَ اللّهِ، إنّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بأيْدِينا، ونَسْقِي بِنَواضِحَنا، وإنَّ مُعَاذاً صلّىٰ بنا البارحةَ، فقرأ البقرة، فتَجَوَّزْتُ فزعم أنّي مُنافِق.

فقال النبيّ ﷺ:

«يَا مُعَاذُ، أَفَتّانٌ أَنْتَ؟! ـ ثَلاَثاً ـ اقْرَأ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾ و﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ . . .».

وفي رواية عند مسلم زيادة: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾ و﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾.

(٣) وروى الطبراني عن ابن عبّاسٍ: «أنَّ النبيَّ ﷺ أَمَرَهُ أَنْ يَقْرَأَ في صَلاَةِ الصبح بـ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ ـ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾».

(٤) وروى البيهقي في الشُّعَب عَنْ عُقْبة بن عامرٍ قال: «أَمَرَنا رَسُولُ اللّهِ ﷺ أنْ نُصَلّي رَكْعَتَي الضحىٰ بسورتَيْها، بالشَّمْسِ وضُحَاها، والضُّحَىٰ».

(٣)

موضوع سورة الشمس ودروسها

موضوع هذه السُّورة تَنَاولَ تأكيدَ قَضِيَّةِ الجزاء، الذي هو عاقبة الابتلاء والمسؤوليّة في الحياة الدنيا، بمقتضىٰ حكمة الرَّبّ الخالق العليم الحكيم القدير.

وقد اشتملت هذه السورة على دَرْسين:

الدرس الأوّل:

تَضَمَّنَ قَسَماً تَأْكيديّاً من اللّه عزّ وجلّ بطائفة من ظواهر بديع صُنْعِهِ في الكون وفي الأنفس، وهٰذِهِ الظواهر تَدُلُّ على كَمَالِ الإتقان، وعظيم العناية بالعباد، وتَهْيِئة ما فيه مصالحُهُم، ومعايشُهم في الحياة الدُّنيا، والمُقْسَمُ عليه الَّذي يُرادُ تأكيده قضيّةٌ واحدة من أركان الإيمان، هيَ قضيَّةُ الجزاء الرَّبَّاني، ومعلومٌ أنَّ الجزاء هو الحكمة الغائيَّةُ من الإبتلاء في ظروف الحياة الدنيا، وهو الآيات من (١ ـ ١٠).

الدرس الثاني:

تضمَّن ذِكْرَ مَثَلٍ تاريخيٍّ من أمثلةِ عقاب اللّه المعجَّل في الدُّنْيا للمكذّبين برسالاَتِ المُرْسَلِينَ من لَدُن رَبّ العالمين، هو عِقَابُ اللّه عزَّ وجلَّ لثَمُودَ قوم النبيّ الرسول صالح عليه السلام، لتكذيبِهِمْ رسُولَ رَبّهم، ولطغيانهم، ولتحدِّيهم لإنْذَارَاتِ رَبِّهم في معجزتِهِ الَّتِي خَلَقَها لهم حسب طلبهم، وهي النّاقة الّتي أخْرَجَها لهم من صَخْرَةٍ عَيّنوها، وعلى وفق الصفاتِ التي ذكروها.

وقد جاءت قصة هذا المَثَل موجزةً مناسبة لحجم السّورة، ومرحلة نزولها، ومعلومٌ أنّ ذكر العقاب المعجّل يُنَبّهُ على العقاب المؤجّل إلى يوم الدين.

وآيات هذا الدرس هي من (١١ ـ ١٥).

❀ ❀ ❀

(٤)
التدبّر التحليلي لآيات الدرس الأوّل

وهو الآيات من (١ ـ ١٠)

قال اللّه عزّ وجلّ:

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾.

تمهيد:

إنّ القَسَمَ الصّادِر عن اللّهِ عزّ وجلّ ببَعْضِ ظواهِرِ خَلْقِهِ المتقنة، هو في الحقيقة قَسَمٌ بصفاتِهِ العَظِيمة الجليلة التي كانَ من آثارِهَا هٰذِهِ الظواهر، نظراً إلى أنَّ هذه الظواهر تَدُلُّ أولي الألْبَاب على طائفة من صفاتِهِ العظيمة الجليلة، ومنها وجودُهُ الأزليُّ الأبديُّ، وهَيْمَنَتُهُ على كلِّ شَيْء، وسلطانُهُ الدَّائم، وعِلْمُهُ المحيطُ بكلِّ شيء، وتَدْبيرُه الحكيم، وقُدْرَتُهُ على مَا يشاء.

إنَّ القَسَمَ بالصنعة يَدُلُّ على الصانع وصفاته، وإنَّ القَسَمَ بالمشهود هو بمثابة الدليل القويّ على صِدْقِ وُقوعِ المُقْسَمِ عَلَيْهِ الغائب، المماثِلِ للمشهود.

وبهذا تظهر لنا حكمةُ إقْسَام اللّهِ عزّ وجلّ ببعض مخلوقاته في القرآن الكريم.

وقد أقسمَ اللّهُ عزّ وجلّ بسَبْعِ ظَاهِرات من ظاهرات خَلْقِهِ العظيم لكَوْنه، في هذا الدَّرْس الأوَّل من دَرْسَي السورة.

الظاهرة الأولى: دلّ عليها قول اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١﴾ «الواو» هي «واو القسم» والكلام على تقدير «أَحْلِفُ» أَوْ «أُقْسِمُ» ولكن لا

يظهر هذا الفعل المقدّر إلاّ إذا كان حرف القسم الباء، فيجوز إظهاره وإضماره معها، وفي غيره لا يأتي في لِسانِ العرب ظاهراً، بل هو مُقَدَّرٌ ذهناً.

لقد أقسم اللّه عزّ وجلّ في هذه العبارة بالشّمس، وأقسم بضُحَاهَا.

وفي الإقْسَامِ بالشَّمْسِ توجيهٌ لظاهرة عناية اللّهِ بسُكّانِ الأرض، في إيجاد هذا النجم العظيم الملْتَهِب القَرِيبِ من الأرْضِ، والمُمِدِّ لها بالطاقةِ، وبالضَّوْءِ الَّذِي يَنْطَلِقُ منها إلى السطح المواجِهِ لها من الأرض، بمقدار حاجَةِ أهْلِها. والمُمِدّ لَهَا بنُورِ القَمَر المنعَكِسِ من أشِعَّةِ الشَّمْسِ المنْسَكِبَةِ عليه[1].

وجاء في العبارة تخصيصُ ضحاها بقَسَمٍ، بعد القسم بها كلّها؛ لأنّ ضحاها وهو وقت ظهورها وانجلاء ضوئِهَا، هو الأمر العظيم الذي يُمِدُّ الأرْضَ وسُكَّانَها بما يحتاجون إليه من وَقُودٍ لغذائهم ومعايشهم المختلفة.

فجِرْمُ الشَّمْسِ خصَّصَتْهُ العنايةُ الرَّبَّانيَّة بإتقانٍ عجيب لمنافع سُكَّانِ الأرض، وضبط دورانها حول الشمس سنويّاً، وحول نفسها باتّجاه الشمس يوميّاً، مع محافظتها على مدارَيْهَا دُون إخلال.

وضَوْءُ الشَّمْس خصَّصَتْهُ العِنَايَةُ الرَّبَّانِيَّةُ بإتْقَانٍ عجيب، لإمداد سُكّان الأرض بطاقات أقواتهم، ومصالح أجسامهم المختلفة.

الضُّحَى: هو الوَقْتُ الّذي يَكْتَمِلُ فيه إشراقُ الشَّمْس بَعْدَ أن تَطْلُع.

وضحى الشمس أيضاً ظُهُورها وبُرُوزها وانجلاء ضَوْئِهَا، يُقالُ لغة: ضَحَا الشيءُ إذا ظهر وبرز. قال الجوهريّ الضُّحَا مقصورة، تؤنّث وتذكّر.

فيظهر أنّ المراد بعبارة [ضُحَاهَا] ظهور كلِّ ضَوْئِهَا المشرق وقت إشراقه.

---

(١) الحديث عن الشمس وبعض ما توصل إليه بشأنها علماء الكونيّات سبق في سورة التّكوير.

الظاهرة الثانية: دلّ عليها قول اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾﴾.

هذا قَسَمٌ آخَرُ بالقَمَرِ إذَا تَلاَ الشَّمْسَ أقْسَمَ اللّهُ عزّ وجلَّ به.

القَمَرُ: نعمةٌ من نعم اللّه عزّ وجلّ على أهل الأرض من وجوهٍ عَدِيدة.

فنورُه مصباحٌ ليليٌّ، وأَهِلَّتُه دلالَةٌ على المواقيت، وجاذبيته يتسبّبُ عنها حدوث المدّ والجزر في البحار، فينجم عنها حركاتٌ نافعات لأهل الأرض، إلى منافع ومصالح أخرى كثيرة يَعْلَمُ الباحثون الكونيُّون بعضها، ويجهلون سائِرها.

ودلَّ قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾ على أنّ القمر تابع من توابع الشمس، أي: فحركاتُ القَمَرِ، وانْضِباطُهُ في مَداره، ونُورُه الّذي يَبُثُّهُ، كلُّها تابعةٌ وتاليةٌ لمَا في الشَّمْس من أسباب بتقدير اللّه عزّ وجلّ.

وقد هَدَتِ العُلومُ الإنسانيّة المؤكَّدَةُ إِلَىٰ أنَّ القَمَرَ تابعٌ من توابع الشمس، فهو تابعٌ لها في الجاذبيَّة، وفي نِظَامِ الحركَةِ مع المجموعة التابعة لها، وفي نُورِهِ الذي يبثُّهُ؛ إذْ نُورُ القمر هو انْعِكاسُ أشِعَّةِ الشَّمْسِ المنسكِبَةِ على سَطْحِهِ المواجه لها، فَهُو يقابل الشمس بوجهٍ واحدٍ من وَجْهَيْهِ، والقَمَرُ بتَكْوِينِهِ الظَّاهِر باردٌ غَيْرُ حارّ، وما يبثُّهُ نورٌ انعكاسيٌّ، وليس ضياءً، بخلاف الشمس.

الظاهرة الثالثة: دلَّ عليها قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾﴾.

هذا قَسَمٌ ثالث أقْسَمَ اللّه عزّ وجلّ به، إنَّهُ قَسَمٌ بالنهار الذي هو أثَرٌ في الأرض مُرْتَبِطٌ بالشمس، فالسَّطْحُ المواجِهُ للشمس من الأرض في دورتها اليوميّة حَوْلَ نَفْسِهَا، هو السَّطْحُ الذي يكونُ فيه النهار. يقال لغة: جَلَّىٰ فُلانٌ الشَيْء، أي: كَشَفَهُ وأظهره.

ويَظْهَرُ أَنَّ المُرادَ بالنَّهَارِ الوقْتُ الَّذِي تَكُونُ مَعَهُ المواجَهَةُ بين الشَّمْسِ والجُزْءِ المواجِهِ لَهَا من الأرض، فهذا الوَقْتُ هو الذي يَتَسَبَّبُ عَنه تجلِيَةُ الشَّمْسِ لسُكَّانِ هذا الجزْءِ من الأرض، فجاء النَّصُّ مُبَيِّناً أنَّ النَّهَار هو الذي يُجَلّي الشَّمْسَ، أي: وَقْت النَّهار. وهذا من إطلاق السَّبب وإرادة لازمه المسبَّبِ عنه، وهو عند البلاغيّين من المجاز المرسل، وسَبَبُ هذا الوقت دوران الأرض حول نفسها باتّجاه الشمس.

وبهذا نجد التطابُق بين دلالة النّصّ، وما أكّدَتْهُ الدِّراسات العلميَّةُ الإنسانية.

الظاهرة الرابعة: دَلَّ عليها قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾.

هذا قَسَمٌ رابع أقْسَمَ اللَّهُ عزّ وجلَّ به، إنَّه قَسَمٌ باللّيل الذي يَظْهرُ في الجُزْءِ من الأرض الذي لا يكون مواجهاً للشمس، في دورتها اليوميَّةِ حول نفسها.

ويظهر أنّ المرادَ باللَّيل الوقْتُ الذي لاَ يكُون فيه الجزْءُ من الأرض مواجهاً للشَّمْسِ، فهذا الوَقْتُ هو الّذِي يتَسَبَّبُ عنه سَتْرُ الشَّمْس بالنسبة إلى سُكَّانِ الجُزْءِ مِنَ الأرض الذي يكون فيه اللّيل، فجاء النَّصُّ مُبيّناً أنَّ اللَّيْلَ هُوَ الّذي يَغْشَى الشَّمْسَ، أي؛ يجلِّلُها ويَسْتُرُهَا، أي: وَقْتُ اللّيل الّذي يُحْجَبُ فيه ضياء الشَّمْسِ بجِرْم الأرْض نفسها، لانعدام المواجهة بين هذا الجزْءِ من الأرض وبين الشمس في هذا الوقت.

يَغْشَاهَا: أي: يُغَطِّيها ويُجَلِّلُها، تقولُ لغة: غَشَّىٰ فُلاَنٌ الشَّيْءَ، أي: غَطَّاهُ وجَلَّلَهُ.

والمعنى أنّ هذا الوقْتَ قَدْ كانَ سَبباً في سَتْرِ الشَّمْس عَنْ الذين يعيشون في الجزء من الأرض الذي يكون فيه اللّيل، وهذا من إطلاق السَّبَب وإرادة لازمه المسَبَّبِ عنه، وهو عند البلاغيين من المجاز المرسل.

وبهذا نجِدُ التطابُقَ بين دلالة النَّصّ، وما أكَّدَتْهُ الدّراساتُ العلميَّةُ الإنسانيّة.

هذه الأمور قَدْ فَهِمْنَاهَا من قول اللّهِ عزّ وجلّ.:

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤﴾.

بَعْدَ أن كشَفَتْ لنا الدّراساتُ العلميَّةُ الإنْسَانِيَّةُ المؤكَّدَةُ، نظامَ الشَّمْس والقَمَرِ والأرض، ومَسِيراتها الفلكيّةِ، في مَداراتها، أو حول نفسها، وما يتسبَّبُ عن ذلِكَ من لَيْلٍ ونَهارٍ، فيكونُ وقت النهار سبباً في تَجْلِيةِ الشمس، ويكونُ وقْتُ اللّيلِ سبباً في استتار الشّمس.

فظهر لنا بالتدبُّر المتأنّي التَّطابُقُ العجيب بين مقرّرات العلوم الإنسانيّة حول هٰذِهِ الظَّوَاهِر، وبَيْنَ دلالاتِ النَّصِّ القرآني الواضحة الّتي لا إشكال فيها، ولا تحتاجُ تخريجاتٍ مُتَعَرجَاتٍ، ولا تأويلاتٍ تُخْرِجُ النَّصَّ عن دَلالاته الظاهرات ولوازمها، الّتِي تدُلُّ عليها ضِمْنَ بياناتِ اللّسان العربيّ وقواعِدِهِ.

الظاهرة الخامسة: دلَّ عليها قول اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥﴾.

هذا قَسَمٌ خامسٌ أقْسَمَ اللّهُ عزَّ وجلَّ به، إنَّهُ قَسَمٌ بالسَّمَاءِ وببنائها، أي: بإبْداع بنائها وإتقانه العظيم العجيب، وبما فيها من نجومٍ وكواكبَ وأنظمةٍ تحارُ فيها الألباب، وتَدْهشَ بها العقول، فلا يخرُجُ نَجْمٌ ولاَ كوكَبٌ عَنْ موقِعِ مداره، ومَسِيره الذي يسير فيه، بقوانين جَبْرِيَّةٍ لاَ تُخْرَم، ولا تَسْمَحُ بأنْ يَنِدَّ عنها نادّ.

السّماء في اللّغة: كلُّ ما عَلاَ سُكّانَ الأرضِ من جهة رؤوسهم وهم منتَصِبُو القاماتِ، فيَدْخُل فيها الغلافُ الغازي المحيطُ بالكُرةِ الأرْضيَّة من

كُلّ جهاتها. ويدخُلُ فيها السَّحَابُ الذي يتجمَّعُ في جوّ الأرض. ويدخل فيها مجموعات المجرّات ذواتِ النجوم المُلْتَهِبَة والكواكب الباردة، وهذه هي المرادةُ في الآيَةِ هُنَا، إذْ جاء فيها ذكْرُ بنائها.

ولفظ «السَّماء» هنا اسم جنْسٍ يَعُمُّ كُلَّ السَّمَاوات السَّبْعِ وما فيهن وما عَلَيْهِنَّ.

لفظ «ما» في: ﴿وَمَا بَنَنهَا﴾ مَصْدَرِيَّةٌ على الأرجح، وهي الّتي تُؤَوَّلُ مع الفعل الذي اقترن بها بمَصْدَر، والتقدير: والسَّمَاءِ وبِنَائِها، أي: أُقْسِم بكُلٍّ مِنْهُما.

أمّا بناءُ السَّمَاءِ فَلِعُلَمَاءِ الفَلَكِ بحوثٌ مستفيضة، تَكْشِفُ ما فِيهِ من إتقانٍ بديعٍ عجيبٍ، هادٍ إلى جُمْلَةٍ من صِفاتِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، وهٰذِهِ الصّفاتُ تُثبتُ وجُودَ الرَّبِّ الموصوفِ بها، وتُثْبتُ سُلْطانَهُ المطلق في كَوْنِهِ.

وبناءُ كلّ شيء بحَسَبِهِ، فبناء بُيُوتِ سُكَّانِ البوادي خيامٌ ينصبونها، ويُثَبِّتونها بالحبال والأوتاد.

وبناء المساكن والقصور في الحواضِر والقرى، جُدْرَانٌ يُقِيمونها، ويضعون عَلَيْهَا سُقُفاً، ويتَّخِذُونَ لها أبواباً للدُّخول والخروج، ونوافذ للضياء والهواء.

والعنكبوت تبني بيتاً لَهَا من خيوط دقيقة جداً، تُفْرِزُهَا من أجسادها، وتُشَبِّكُ بينها بنظام يُلائم امتداد أرجلها، ويلائم حركات صَيْدِ فرائسها من الحشرات الصغيرة، وبين هذه الخيوط فراغات شاسعات في حِسَابِ النِّسَب، وإنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ العنكبوت.

وبناء الذّرّة على ما يذكر العلماء الباحثون في الكونيّات، قائم على نواة حَوْلَها فراغٌ شاسع في حِسَاب النِّسَب، وتدور في هذا الفراغ ألكترونات كهربائية، ضمن نظام يجعل الذَّرَّة متماسكة مترابطةً في وحْدَة ذرِّيَّة، وتتلاقىٰ

الذَّرَّات متقاربة، فما تَشْهَدُهُ عيونُنَا جِسْماً صُلْباً متماسِكاً هو في الحقيقة ذَرَّاتٌ متقاربات، وبينها فراغات واسعاتٌ جدّاً، حتىٰ لَوْ ضُغِطَتِ الأرض كُلُّها فَلَمْ يَبْقَ بين ذَرَّاتِها ولا داخل ذَرَّاتها فراغات، لكانت الأرض كُلُّهَا أَقَلَّ من حَجْمِ جَبَلٍ صغير فيها.

وبناءُ السَّمَاءِ وضْعٌ تَرَابطيٌّ مُجْتَمِعٌ، خاضع لنظامٍ جبْرِيٍّ متماسِكٍ قاهر، بقُدْرَةِ العزيز الجبّار القهّار.

وليس من حَقّنا أن نَفْرِضَ بتصوّراتنا الخياليَّة أو القِياسِيَّة صورةً مُحَدَّدَةً لبناء السَّمَاء، بل يجب علينا أن نتتبَّع ما تثبتُه الحقائق العلميَّة الّتي قالَتِ الدّراسات العلميّة الإنسانيَّة فيها كلمتَها الأخيرة، اعتماداً على المشاهدات القطعيّة، أو البراهين الّتي لا شكّ فيها.

ومن المقطوع به في المفهومات القرآنيَّة أنَّ الشَّمْسَ والقَمَر في السَّمَاء، لاَ دُونَهَا، أي: فهما جُزْءٌ منها، بدليل قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾.

ومن هذا نفهم أنّ المجموعة الشمسيَّة جُزءٌ من السَّماء، وقد أَثْبَتَتِ المشاهدةُ العلميَّة أنَّ هٰذِهِ المجموعة ذاتُ بناءٍ خاضعٍ لنظامٍ متماسكٍ، على الرُّغْمِ مِنْ وُجُودِ مسافاتٍ شاسعات، بين الشَّمْسِ الأمّ وبين بَنَاتها المتباعدات فيما بينَهُنَّ مسافاتٍ شاسعات.

فبناءُ كُلِّ شيءٍ بحسَبِهِ.

الظّاهرة السّادسة: دلَّ عليها قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾﴾.

هذا قَسَمٌ سادس أَقْسَمَ اللّه عزّ وجلّ به، إنَّهُ قَسَمٌ بالأرض وبطَحْوِهَا. و«ما» مصدريّة على الأرجح كالتي في: ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾.

أمّا القسم بالأرض، فيشمل كلّ مافيها من جبال هي بمثابة أوتادٍ لها، وبحار، وأنهار، وفجاج، وكُنُوز، ويَشْمِلُ سُهُولَها وجنَّاتها ومرعاها، وما أودع اللّه فيها من أقوات للأحياء عليها، وما حولها من غلافٍ غازيٍّ ضروريٍّ للحياة، إلى سائر ما فيها من نِعَمٍ وخيرات.

وأمّا طَحْو الأرض الذي أَقْسَمَ اللّهُ عزّ وجلّ به، ففيه دلالَةٌ على كُرَوِيَّتها، ودَورانها حول نفسها، ودورانها في مدار حول الشمس، ويهدينا إلى هذا تحقيقٌ لغويٌّ نَرْجِعُ فيه إلى مُعْجَمات اللُّغَةِ العربيّة الّتي تبيّن معاني كلماتها، وتَتَبُّعٌ للحقائق العلميَّة الّتي أثبتتها الدراسات العلميَّة الإنسانيَّة إثباتاً قَطْعِيّاً.

أمّا مُقَرَّراتُ العلوم الإنسانيَّةِ القطعيَّة، فتُثبت أنَّ الأرض كُرَةٌ كبيرة لَيْسَتْ كاملة الاستدارة، وتثبتُ أنّها تدور حول نفسها دورة كاملةً في كلِّ يَوْم، وتُثْبِتُ أنّها تدورُ في مدارٍ حول الشمس دورةً كاملةً في كُلِّ سنةٍ شمسيَّة.

وأمّا التحقيق اللُّغَوي فقد رجَعْتُ إلى كُتُبِ اللُّغَةِ فوَجَدْتُ أنَّ كلمة: «طَحَا يَطْحُو طَحْواً، وطَحَىٰ يَطْحى طَحْياً» تأتي بمعنى دفَعَ.

يُقالُ لغةً: القَوْمُ يَطْحَىٰ بعضُهُم بعضاً، أي: يدفع بعضهم بعضاً.

ومثل «طَحَا» في المعنى فعل «دَحَا يَدْحُو دَحْواً.. ودَحَىٰ يَدْحَىٰ دَحْياً».

قال الفرّاء: «طحاها» و«دَحَاها» واحدٌ، أي: هما بمعنىً واحدٍ.

وقد جاء من معاني «دَحَا» في اللُّغَةِ معنى «دَفَعَ» يُقالُ لغة: دحا السَّيْلُ الحصا، أي: دفعه ودحرجه.

قال ابْنُ الأعرابيّ: هو يَدْحُو بالحَجَر بيده، أي: يَرْمي به ويَدْفَعُهُ، قال: والدَّاحِي الذي يَدْحُو الحجَر بيده.

وجاء في حديث أبي رافع: كُنْتُ ألاَعِبُ الحَسَنَ والحُسَيْن رضوان اللّه عليهما بالمَدَاحِي، وهي أحجارٌ أمثال القِرَصَة[1]، كانوا يَحْفِرُون حُفْرَةً، ويَدْحُون فيها بتلك الأحجار، فإنْ وقع الحَجَرُ فيها غَلَبَ صاحبُها، وإنْ لم يَقَعْ غَلِبَ[2].

وجاء من معاني: «طَحَا ـ ودَحَا» أيضاً مَعْنَى «بَسَط».

وللمطابقة بين مُقَرّراتِ العلوم الإنسانيّةِ القطعية، وبَيْن المعنى اللّغوي لفِعْلَي: «طَحَا ودَحَا» ترجّح لدَيَّ أنّ المراد الدَّفْعُ، بالطَّحْوِ والدَّحْوِ في قول اللّهِ عزَّ وجلَّ في سورة (الشّمس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول): ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَنٰهَا ۝٦﴾، وفي قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول): ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠﴾.

هذا الدَّفْعُ مماثِلٌ لِدَفْعِ حَجَرَةِ المَدَاحِي إلى حُفْرَتِهَا، ومُماثل لدفع السَّيْل الحصا ودَحْرَجَتِهِ.

فهذا الدَّفْعُ ينجُمُ عنه حَرَكتانِ عادَةً:

الحركة الأولى: حَرَكَةُ الشَّيْءِ حَوْلَ نَفْسِهِ؛ إذ يتَدَحْرَجُ.

الحركة الثانية: حرَكَةُ الشيء في مَسِيرٍ لِيَبْلُغَ الغايةَ المرادة.

إنَّ هذا المعنىٰ اللّغوي لمادَّتَيْ «طَحَا ودَحَا» هو المعنى الذي يَنْطَبِقُ على ما هُو مُقَرَّرٌ في البحوث العلميَّة الإنسانيَّة حول الأرض، فهي في

---

(١) **القِرَصَة**: قِطَعُ العجين الّتي تُقَطَّع لتبسط فتخبز، مُفْرَدُها قُرْصَة. القِرَصَةُ على وزن عِنَبَة.

(٢) عن كتاب «لسان العرب» لابن منظور.

الفضاء كحَجَرةٍ كبيرةٍ، لها حَرَكَةٌ دورانيّةٌ حول نَفْسِهَا في كلّ يومٍ، وحَرَكَةٌ في مَسِيرٍ لها حَوْلَ الشمس، طَوال عامٍ شَمْسِيٍّ كامل، ضِمْنَ مدارٍ مُحَدَّدٍ دقيق.

الظّاهرة السابعة: دلّ عليها قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾.

هذا قَسَمٌ سابعٌ أقْسَمَ اللّهُ عزّ وجلّ به، إنَّهُ قَسَمٌ بالنفس، وقَسَمٌ بتسوية اللّه لها. فلفظ «ما» من عبارة: ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾، مَصْدَرِيَّة كسابقَتَيْهَا، فالنفس الإنسانيَّةُ قد سوَّاها الرَّب تسوية مُدْهِشَة لِما أُعِدَّت له.

إنّ النَّفْسَ الممتحنة المكلّفَة في الحياة الدُّنيا، وما فيها من إبداع الخالق في تسويتها، بجَعْلِهَا كاملةَ الصِّفات الَّتي تُؤَهِّلها لأداء وظيفتها في الحياة، مَخْلُوقٌ عجيبٌ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُقْسِمَ اللّه الخالقُ الرَّبُّ به، نظراً إلى ما فيه من أدِلَّةٍ بُرْهَانِيَّةٍ، وآيَاتٍ جليلاَتٍ علىٰ صِفاتِ الرَّبِّ الخالِقِ السَّنِيَّةِ.

إنَّ إبْداعَ النفس في الإنس والجنّ بخصائصها الفكريّةِ، وغَرَائِزِهَا، ودَوَافِعِهَا، وعواطفها، وآلامِها ولَذَّاتِهَا، وآمالها وطُموحاتِها، وانفعالاتها وأخْلاَقها، من أعْجَب العَجَب، وهذا الإبْدَاع من أقوى الأدلّة في ذاتِ المخلُوق على الخالقِ العظيم، وصفاته الجليلات، ومنها عِلْمُه المحيطُ بكلِّ شيءٍ، وحكمتُهُ السَّنِيَّة، وقُدْرَتُهُ على إبْداعِ ما يشاءُ ويختار.

التسوية: إبلاغ الشَّيْءِ الغاية المقضيَّة له، والمقصودة من صُنْعِهِ.

وجاء في النَّصّ تنكير لفظ «نفس» للدّلاَلة على عظم شأنِ خصائصها، إنَّ خريطَتها موجودةٌ ضِمْنَ خليَّةٍ صُغْرَى لا تخدْرَكُ بالعين، ضِمْن جَسَدِ المخلوق من الإنس ومن الجِنّ، ونفس الإنسان أكْمَلُ وأعْظَمُ إبداعاً.

وقولُ اللّه عزّ وجلّ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾، هو من توابع القسم بالنفس الّتي سَوَّاها بارئها، أي: سوّاها فألْهَمها بَعْدَ تَسْوِيَتِهِ لها مَعْرِفَةَ

سُبُلِ فُجُورِها، وأنَّها قبيحة ومُنْكَرَةٌ مَذْمُومَة، ومَعْرِفَةَ طَرِيق تقواهَا، وأنَّهُ حَسَنٌ جَميلٌ ومحمود.

الإلهام في اللّغة:

هُو ما يُلْقِيهِ اللَّهُ في النّفس فيجعلُها تَسْتَحْسِنُ الحسَنَ، وتَسْتقبح القبيح، ثم إنَّ الإرادة فيها تختار، إمّا أَنْ تَسْلُكَ طَرِيقَ التقوىٰ حتىٰ مرتبتي البرّ والإحْسَانِ، وإمّا أن تَسْلُكَ سُبُلَ أهوائِها وشهواتها على غَيْرِ تقوىٰ، حتَّىٰ دَرَكَةِ الفجور، وهو الانبعاثُ الوقح بقُوَّةٍ في ارتكاب الجرائم والآثام.

فالنفسُ المدركةُ بعد أن خلقها اللَّهُ جلَّتْ قُدْرَتَهُ وحكمتُهُ، وأبْدَع تَسْوِيتَها، وكَمَّلَها بالخصائص للوظيفة الّتي أعَدَّهَا لها، وللامتحان في ظروف الحياة الدنيا، المُسْتَتْبع بالحسَابِ، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، أعانَها بارِئُهَا كي تجتاز رحلة امتحانها على بَصيرَةٍ، فوضع في فِطْرَتِهَا بِطَرِيقَةِ الإلْهَام، الإحْسَاسَ الوجدانيّ، والبصيرة القلبية، مع النظرات الفكريَّة المميّزَة، الّتي بها تُدْرِكُ نَوْعَ العمل الَّذِي تَهُمُّ بعَمَلِهِ، أوْ يَعْمَلُهُ الآخَرُونَ، إذا كان من دركة الفجور التي هي أَخَسُّ دَركات المعاصي والآثام، فما هو أخفُّ منها، إلى ما قبل أولىٰ درجات مرتبة التقوىٰ، ثم ارتقاءً في درجات مرتبة التقوىٰ فما فوقها من درجات مرتبتي البرّ والإحسان.

وهذا الإدراك الإلهاميُّ هو من الفِطَرِ النفسيّة التي فطر اللَّه النفوس عليها، ولكن يأتي إدْرَاكُهَا لها مُتأخِّراً، بمقتضىٰ دلالة الفاء في عبارة ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾.

الفجور: هو كما سبق بيانُه، الانبعاث القبيح بوقَاحة ومَجَانَة، في كبريات المعاصي والجرائم، الّتي تُدْرِكُ قُبْحَها وشناعتها النفوس، كالكفر وجحود الحقّ والخيانات العظمى، والإصرار على التزام الباطِل مع وضوح أنّه باطل، وكالعُدْوان على الأنفس والأموال والأعراض.

وهذا الفُجور تُدْرِك كلُّ النفوس قباحتَه وخسّتَه، ولَوْ لم تنزلْ شرائع ربَّانيَّةٌ بِبيانِهِ، ومن أَدْرَكَ الفجور أدرك أنّ فاعله يستَحِقُّ العقاب عليه.

أمّا إلْهام النفوس معرفةَ طريق تَقْواها فهو توجيه فطرتها لإدْراك ما يَقِيها ويَحْمِيها مِنْ عَواقِب تَكْرَهُها وتَخْشاها، إذا هَوِيَتْ، أو اشتَهَتْ، أوْ رَغِبَتْ في أمْرِ ما، من فِعْلٍ أوْ تَرْكٍ قَدْ ينْجُمُ عنه شرٌّ، أوْ ضُرٌّ أوْ عُقُوبَةٌ أو أذى.

والكُفْر والشركُ باللّه من أفجر الفجور المؤدّي إلى العذابِ الأليم الخالد، والإيمانُ الصَّحِيحُ الصادق هو الوقاية الواقيةُ منه.

والتقابُلُ بين أخسِّ دَركاتِ المعاصي والجرائم، وأوَّلِ درجات سُلّم التقوىٰ، يَدُلُّ باللُّزُوم العَقْلِيّ على الدركات الأخف من دركة الفجور حتىٰ ما قَبْلَ أوّل دَرجات سُلَّم التقوى، ثُمَّ يَدُلُّ باللُّزُوم العقليّ على سائر درجات كمال التقوىٰ، لدخولها في عُموم مفهوم التقوى. ثُمَّ يَدُلُّ أهل الفطانة على دَرَجاتِ مرْتبة البرّ الّتي هي فوق مرتبة التقوى، وعلى درجات مَرْتَبة الإحسان الّتِي هي فوق مرتبة البرّ، وهذه يَفْهَمُهَا الفُطَنَاءُ من التقابُل بين الفجور أخسّ الدَّرَكات، والتقوىٰ أوّل مراتب الدّرجات الصاعدات، مع أنّ المُقَابل المُنَاظِر للفُجُور هو أعلىٰ درجات الإحسان، وتأتي بينهما متقابلات متناظرات بحَسَبِ دَرجاتِ الارتقاء ودركَاتِ الانْحِطاط.

المُقْسَم عليه بالظواهر الكونيّة السّبع:

بعد القسم بالظواهر الكونيّة السّبْع المشهودة جاء المُقْسَمُ عليه، وهو خَبَرٌ غَيْبِيٌّ مُسْتقبلِيٌّ لَهُ شواهد من أحداثٍ ماضِيَةٍ قد وقعت فِعْلاً في العاجلة قبل الآجلة.

وقد جاء المقْسَمُ عليه في قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾.

الضمير المنصوبُ في: ﴿زَكَّىٰهَا﴾ وفي ﴿دَسَّىٰهَا﴾، يَعُودُ على النّفس الّتي جاء ذكرها في قوله تعالىٰ: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾.

في هذا المَقْسَمِ عليه أَكَّدَ رَبُّنَا جلَّ جلالُه قضيَّتَيْنِ من قَضَايا الجزاء على اختيارات الممتَحَنين المكلَّفِين في ظروف الحياة الدُّنْيَا، بَعْدَ الحِسَابِ وفَصْلِ القضاء، بالقَسَمِ بالظَّاهرات الكونيَّةِ السَّبْعِ الّتي بَدَأَتْ بها السُّورَة، وبحرف التحقيق «قَدْ».

القضيَّةُ الأولى: فَلاَحُ من زَكَّىٰ نَفْسَهُ بعمله الإراديّ، فقال تعالىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾.

القضيَّة الثانية: خَيْبَةُ مَنْ دَسَّىٰ نَفْسَهُ بعمله الإراديّ، فقال تعالىٰ: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

﴿أَفْلَحَ﴾: أي: فَازَ ونَجَا وظَفِر، وأَصْلُ الفلاحِ البقاء في النعيم والخير، وفَلاَحُ الدَّهر بَقَاؤُه.

قال الأزهري: وإنما قيل لأهل الجنَّةِ مُفْلِحُون، لِفَوْزِهِم ببقاء الأبد. ويُسْتَعْمَلُ الفَلاَحُ ويُرادُ به الظَّفَر والبَقَاءُ في السُّلطان.

﴿مَنْ زَكَّاهَا﴾: أي: من طَهَّرَ نفسه باجتناب ما يُدَنِّسُهَا، وطَهَّرها بإتْباع السيّئة الحسنة لتمحوَها وتغسلَ أثرها، ومن الحسنات المطهّرة التوبةُ والاستغفار، ونمّاها بالعمل بالفضائل، ومراضي اللّه، صادقاً مخلصاً لربّه.

الزَّكَاةُ في اللّغة:

تأتي بمعاني الطهارة، والنَّماء، والبَرَكَةِ، والمَدْح.

واسْتُعْمِلَتِ الزكاةُ والتزكية في القرآن بمعنى الطهارة والتطهير، وبمعنىٰ النماء والتنمِيَةِ والبَرَكة، وبمعنىٰ الصَّلاح والإصلاح.

والتزكيةُ يُرادُ بها في الغالب تطهير النفس، وتنميَةُ فضائلها،

وإصلاحُها، وتخليصها من الكفر والجحود والشرك وسائر المعاصي والآثام.

ويقال أيضاً: زكَّىٰ نفسه، بمعنى مَدَحَها بالطهارة والصلاح ونَماءِ فَضَائلها، وهذا منهيٌّ عنه في القرآن، بقوله تعالىٰ في سورة (النجم/٥٣ مصحف/٢٣ نزول): ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾.

﴿وَقَدْ خَابَ﴾: يقالُ لغة: خابَ يَخِيب ويَخُوبُ خَيْبةً، أي: حُرِمَ ولَمْ يَنَلْ ما طلَبَ، **والخَيْبَة**: الحِرْمَانُ والخُسْرَان.

والسَّهْمُ الخائب من قِداحِ المَيْسِر هو الذي لاَ نَصِيبَ لَهُ، والقِدْحُ الخيَّابُ هو الَّذِي لاَ يُورِي، فلا يُطْلِقُ شَرَارةً تُوقَدُ بها النار.

﴿مَنْ دَسَّاهَا﴾: أيْ: مَنْ دَنَّسَهَا ولم يُنَمِّهَا بالفضائل.

دَسَّاهَا: ضدُّ زَكَّاها، يُقالُ لغة: دَسَىٰ يَدْسَىٰ، ودَسَا يَدْسُو دَسْوَةً، ضِدُّ زَكَا يَزْكُو زكاةً.

قال اللّيث: دَسَىٰ يَدْسَىٰ لُغَةٌ، ودَسَا يَدْسُو أَصْوَبُ.

ويقال لغة: فلانٌ دَاسٍ لا زَاكٍ.

وقال ابن الأعرابي: دَسَا إذا استخفىٰ.

قالوا: وأصْلُ دَسَّىٰ دَسَّسَ، توالتِ السِّينَات فَقُلِبَتْ إحداهُنَّ ياءً، مثل تقضَّىٰ في تَقَضَّضَ.

قال أبو الهيثم: دَسَّىٰ فُلاَنٌ نفسَه، إذا أخفاها وأخْمَلَها لُؤْماً، مخافَةَ أن يُتَنَبَّهَ لَهُ فَيُسْتَضَاف.

وتأتي «دَسَّىٰ» بمعنى أَغْوَىٰ وأفْسَد، وأنشد ابْنُ الأعرابي لرجُلٍ من طيّىءٍ:

وأَنْتَ الَّذِي دَسَّيْتَ عَمْراً فأَصْبَحَتْ ... نِسَاؤُهُم مِنْهُم أَرَامِلُ ضُيَّعُ

أي: أنت الذي أفسَدت قبيلة عَمْرو. «عن لسان العرب».

بعد هذا البيان اللّغوي يتّضِحُ لنَا في تدبّر الآيتين (٩ ـ ١٠) أمران:

الأمْرُ الأوّل: تأكيد أنّ من زكّىٰ نَفْسَهُ، أي: طَهَّرَها من الكفر والشّرك وكبريات الآثام، وأصْلَحَها، ونمَّاها بالأعمال الصالحة، فإنّه سينجو من عذاب اللّهِ في النار يوم الدِّين، وتأكِيدُ فَوْزِهِ وظفره بالثواب الجزيل، وتأكيدُ بقائه في النّعيم المقيم، في دار الخُلْدِ، وهذا هو فَلاحه، بمقتضى قَوْل اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾.

الأمر الثاني: تأكيد أنَّ مَنْ دسَّ نفسه، أي: أغْوَاها وأفْسَدَهَا، وغَمَسَهَا في أوحال الكُفْر أو الشّرك، أو كبائر الآثام والمعاصي، وأخفاها عن استقبال أضواء شمس الهِدَاية، فإنه سيكون خائباً يوم الدّين، أي: محروماً من الخير والسعادة، وخاسِراً نفسه، بسبب أنّه قذَفَ بها إلى مواقع عقاب اللّه وعذابه.

(٥)
التدبّر التحليلي لآيات الدرس الثاني

وهو الآيات من (١١ ـ ١٥)

قال اللّه عزّ وجلّ:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾.

وقرأ نافع، وابنُ عامرٍ، وأبو جعفر: ﴿فَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴿١٥﴾﴾.

هذا الدرسُ الثاني وهو الأخير في السّورة، وهو يتضمّن عَرْضَ مَثَلٍ مِنْ أمثلة عقاب اللّه المعَجّل في الدُّنيا، للمكذِّبين رُسُلَ ربّهم، والمكذِّبين

بما جاءُوا به عَنِ اللَّهِ عَزَّ وجلَّ مقروناً ببراهينه الدَّالّة على أنّه من عند اللَّه جلَّ جلالُه.

إنَّهُ مَثَلُ عقابِ اللَّهِ عزّ وجلّ لثمود، قَوْمِ رسُول اللَّهِ صالحٍ عليه السلام، وكان عِقابُه المعجَّل لهم بإهْلاكهم في ديارهم مدائن صالح، إهلاكاً جماعيّاً عامّاً.

وهذا المثلُ التاريخيّ لَهُ آثارٌ باقيةٌ في أرض العرب.

وقد جاءَ هُنَا عَرْضُ قصَّةِ إهلاكهم وسَبَبِهِ في حكايةٍ مختزلةٍ موجزة، تتناسَبُ مع قصرِ السُّورة، إلاّ أَنَّ هذا العَرْضَ الموجَز يحقِّق المقصود من الاعتبار بقصَّتِهِمْ، لمَنْ شاءَ أَنْ يَعْتَبِر.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾.

﴿ثمُود﴾: قبيلةٌ من القبائل العربيّة البائدة الّتي أهلكها اللَّه بسبب طغيانها. وكانوا يسكنون الحِجْر، وهو بين الحجاز وتبوك، ومكانهم يُعْرَفُ الآن بمدائن صالح، وقد نَشَؤُوا بَعْدَ أن أهلك اللَّه عزّ وجلّ قوم عاد، وحينَ بعث اللَّه رسوله صالحاً إليهم كانوا يَعْبُدون الأصنام.

﴿بطَغْوَاها﴾: الطُّغْوىٰ كالطُّغيان، مأخُوذٌ من فعل: «طَغَىٰ يَطْغَىٰ طَغْياً» و«طَغَا يَطْغُو طُغْيَاناً».

والطَّغْوَىٰ: اسْمٌ للمعنىٰ دون مُلَاحظة الحدَث.

ومادّة هذا الفعل ومشتقّاته تَدُورُ دلالتَهُ حَوْلَ مَعْنَىٰ مُجَاوَزَةِ الحدّ والقَدْرِ إلَىٰ مَا هُو شَرٌّ أو ضُرٌّ.

يُقالُ لغة: طَغَىٰ البَحْرُ، إذا ارْتَفَعَ وعَلَا عَلَىٰ مَا حَوْلَهُ وأغْرَقَهُ. وطَغَىٰ العَاصِي، إذَا تجاوز الحُدُودَ المعروفة لأمثاله من الناس، ففجَرَ وغَلَا في العدوان والظُّلم والكُفر. وطَغَىٰ السُّلطان الظالم، إذَا عَمَّ جَبَرُوتُهُ وظُلْمُهُ الجميع.

﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾: أي: ضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أيُّها المتلَقِّي أيّاً كُنْتَ، الحدَثَ التاريخي الذي كانَ حينَ انْبَعَثَ أَشْقَىٰ ثَمود.

﴿انبَعَثَ﴾: أي: انْدَفَعَ ثَائراً فاجراً مُهْتاجاً، مُنْطَلِقاً بإسراعٍ وانفعالٍ غضبي.

ويَحْمِلُ فعل «انْبَعَثَ» أيضاً معنى الاستجابة والمطاوعَة، لمَنْ بَعَثَهُ وحَرَّضَهُ على ارتكاب جريمة عَقْرِ الناقة، الّتي جعلَها اللَّه آيةً منْهُ لرسوله صالحٍ عليه السَّلَام، دالَّةً على صِدْقِ رسالتِهِ.

ومع مطاوعته فقد كانت لَهُ رغبةٌ في الانبعاث، بدليل وَصْفِهِ بأنَّه أَشْقَىٰ قبيلة ثمود.

﴿أشقاها﴾: هو أشقى هذه القبيلة، قيل: هو قَدارُ بْنُ سَالف.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ: نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾: أي: قال لهم نبيُّ اللَّه صالح الذي بَعَثَه اللَّه لهم رسولاً عليه السلام.

﴿نَاقَةَ اللَّهِ وسُقْياها﴾: أي: احْذَرُوا أَنْ تَمَسُّوا نَاقَةَ اللَّهِ الَّتِي أخرجَها اللَّهُ لَكُمْ من صَخْرَةٍ في الجَبَلِ كما طَلَبْتُمْ بسُوءٍ، واحْذَرُوا أنْ تَمسُّوا سُقْيَاهَا بسُوءٍ، أي: يَوْمَ شُرْبها المخصَّصِ لها، واحْذَرُوا شُرْبَهَا أنْ تَمسُّوهُ بسُوء.

«نَاقَة» مَنصوبَةٌ على التَّحْذِيرِ بفِعْلٍ مُضْمَرٍ وجوباً، تَقْدِيرُهُ: احْذَرُوا، ووجب إضمار فعل التحذير، لأنَّ المحذَّرَ مِنْهُ قَدْ عُطِفَ عليه، فجاء في الآية: ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾.

﴿وَسُقْيَاهَا﴾: أي: وَشُرْبَها، فالسُّقْيَا اسْمٌ للشُّرْب.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: أي: كَذَّبُوهُ في تَحْذِيره لهم، من التعرُّض لناقةِ اللَّهِ بسُوءٍ، وكذّبوه في كلّ رسالته.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾: **العَقْرُ**: قَطْعُ أَحَدِ قَوَائِمِ البعيرِ ونحوه، للتمكُّنِ من نَحْرِهِ. والمعنَى: فَعَقَرُوهَا، حتَّىٰ إذا سَقَطَتْ نَحَرُوهَا.

نُسِبَ الفعلُ إلى كَفَرَةِ قبيلة ثمود كُلِّهم، لأنَّهم مُدَبِّرون، أو موافقون رَاضُون، مع أنّ الّذي تولَّىٰ مُباشَرة عقرِ ناقة اللَّهِ بَعْضُهم.

وأضيفت الناقة إلى لفظ الجلالَة «اللَّه» لأنَّها قد كانت آيَةً من آياته الَّتي آتاها رسُولَهُ صالحاً عليه السلام، والكَلَامُ على معنىٰ: احْذَرُوا آيَةَ اللَّهِ أَنْ تَمَسُّوها بسُوءٍ.

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ﴾: أي: غَضِبَ عليهم، فأَنْزَلَ بهم ما عذَّبهم به حتىٰ أهلكهم جميعاً، ودفنهم، ورَدَم الأرض فوقهم، حتىٰ لم يَبْقَ لأجسادهم أثرٌ ظاهر.

يُقالُ لغةً: دَمْدَمَ عليهم، أي: غَضِبَ عليهم. وَدَمْدَمَ عليهم، إذا طَحَنَهم وأهلكهم مستأصِلاً. وأطْبَقَ عليهم بوسائل التعذيب والإهلاك. ويقال: دَمْدَمَ عليه القَبْرَ ونَحْوه، أي: أطْبَقَهُ عليه حتَّى سَوَّاه بسائر الأرض، وكُلُّ هٰذِهِ المعاني تنطَبق على ما أنزل اللَّهُ عزَّ وجلَّ بثمود.

﴿فَسَوَّاهَا﴾: أي: فَسَوَّىٰ ما دَمْدَمَهُ من الأرض فَوْقَهُمْ، فدَفنهم فيها، وسَوَّىٰ الأرْضَ عليهم، فصارتْ دِيَارُهُم خلاءً.

﴿وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾: أي، والحَالُ لاَ يَخَافُ تَبِعَةَ تَسْوِيَةِ الأرض فوقهم، بما أنْزَلَ من إهْلاكٍ شامل، لأنَّهُ حَقَّقَ فيهم عَدْلَهُ جَلَّ جلالُه.

العُقْبَى: مَصْدَرٌ كالعاقبة، وعاقبةُ الشَّيْءِ ما يَعْقُبُ آخِرَهُ من نتائج أو تَبِعَات.

هذا موجز قصة إهلاك ثمود، مع بيان سبب إهلاكهم بإيجاز أيضاً،

ثُمَّ جاءَت تفصيلاتٌ من قصّتهم في عدَّةِ سُورٍ استَدْعَتْهَا المناسباتُ التوجيهيَّة الداعية للاعتبار، مع التذكير السَّرِيع بإهلاكهم وإهلاك أمثالهم كلّما دعَتِ المناسبة التربويّة ذلك.

وعَسَىٰ أن يفتح اللَّه عليَّ بجمع كُلّ ما يتعلّق بهم وبرسولهم من كلّ القرآن، مع تَدَبُّرِهِ تدبُّراً تكامليّاً.

نظرة عامَّةٌ إلى ما اشتمل عليه الدرسُ الثاني من درسَي السُّورَة:

كذَّبَتْ قبيلةُ ثمودَ رسولَ رَبّها بسبب طغيانها في تكذيبه، وفي سائر مكْتسباتهم الإراديَّة، واستمرَّ أمْرُهَا على هذه الحالة من الطغيان، حتىٰ الوقت الَّذي انْبَعَثَ فيه أشقاها، عاقِرُ ناقة اللَّه، مُنْدَفِعاً ثائراً مُسْرِعاً بانفعالٍ وغضب، ومستجيباً لتحريض قومه له على قتلها والتخلُّص منها.

فقال لهم رَسُولُ اللَّه صالحٌ عليه السّلام: احْذَرُوا أَمْرَين كُلٌّ مِنْهما يجلُبُ عليكم عقاب اللَّه المهلك لكم:

الأمر الأول: أنْ تمسُّوا بسُوءٍ ناقَةَ اللَّه الَّتي أخْرَجَها لكم آيَةً على صِدْقِ ما أبلّغكُمْ إيّاهُ عَنْ رَبّي، من الصَّخْرَةِ كما طلَبْتُم.

الأمْرُ الثَّاني: أن تمسُّوا بسُوءٍ قِسْمَتَها من سُقْيَا الماء، فَهٰذِهِ القسمة قد كانت من الشروط الَّتي اشْتُرِطَتْ عليكم، لاستجابة اللَّه لكم، لمَّا طلبتُمْ هٰذه الآية على وَجْهِ التعيين.

وشدَّدَ رَسُولُهُمْ صالحٌ عليه السَّلام في تَحْذِيرِهِمْ، وإنذارِهِمْ بعقابِ اللَّهِ المستأصِلِ إذا مسُّوها بسُوءٍ.

فكذَّبُوهُ، وتَحدَّوْهُ، واتفقوا على عَقْرِ الناقةِ ونَحْرِها، والخلاص من مُقاسمتها لهم ماءَهُم، فبَعَثُوا أشْقَاهُمْ وطائفةً مَعَهُ، فعَقَرُوا الناقةَ ونَحَرُوهَا.

فغَضِبَ اللَّهُ عليهم، وأنْزَلَ بهم عذابه، وأهلكهم جميعاً، ودفَنَ أجْسَادَهُمْ في أرْضهم، ورَدَمَ الأرْضَ فوقَهُمْ، فجَعَلَهَا أرضاً مستوية، ولم يُبْقِ من كُفَّارِهِمْ على سطح الأرض أحداً.

وهَلْ يخافُ الرَّبُّ الخالقُ العَدْل الحكيم، ذو السلطان العظيم على كلّ شيء، عاقبةَ مَلَامٍ أو تَثْرِيب، إذا عاقَبَ خَلْقاً مِنْ خَلْقِهِ بإهْلاَكِهِمْ، والتَّدْمِير عليهم.

إنَّه سُبْحَانَه العليم الحكيم العَدْل، فلا مُعَقِّبَ على حكمه وقضائه في خلقه، ولا سُلْطَانَ فَوْقَ سلطانه، ولا سلطانَ مع سلطانه، ومن صفاته سبحانه، أنَّه يجازي بالعَدْل، ويُثيب بالفضل، ولا يظلم أحداً. فَمَا أَحَدٌ يَجِدُ حُجَّةً على رَبّه بأنَّه كان مظلوماً في حكم اللَّه عليه، أَوْ في جزاءٍ جازَاهُ به، أو معاقبةٍ عاقَبَهُ بها. فهو تبارك وتعالىٰ لاَ يخافُ عُقْبَىٰ إهلاكٍ أَنْزَلَهُ بخَلْقٍ من خلقه، ولا يَخَافُ نِسْبَةَ الظُّلْم إليه وقَدْ حرَّمه سُبْحَانه على نفسه، لأَنَّهُ لا يَظْلِمُ أَحداً مثقال ذَرَّة.

مُوجَزُ ما جاء في القرآن عَنْ ثمودَ ورسولهم:

أمّا موجَزُ ما جاء في القرآن مُفَرَّقاً عن ثمود ورسولهم صالحِ عليه السّلام، ففيما يلي:

(١) أنّ ثموداً كانوا قوماً عَرَباً يسكُنُون الحِجْر، والحِجْرُ أَرْضٌ معروفة من أَرْضِ العرب، وهي ما يُعْرَفُ بمدائن صالح.

(٢) أنَّ ثَموداً ظَهَرُوا في جزيرة العرب بَعْدَ عادٍ، فكانوا في القوّةِ والظهور والبُنْيَان الحضاري بمثابَةِ الخلفاء لعادٍ، وأنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ مَكَّنَ لهم في الأرض فاستَعْمَرُوهَا، فكانوا يَبْنُونَ في سُهُولِهَا قُصُوراً من الحجارة والصُّخُورِ الّتي يَجُوبُونَها بالوادي. وكانوا يَنْحِتُونَ في الجبال بيوتاً فارهين

ومُحَصِّنِينَ فيها أَنْفُسَهُمْ. وكانَتْ لهم جنَّاتٌ وعيُونٌ وزُرُوعٌ ونخيل ذَواتُ ثَمَرٍ كثير متداخِلٍ ببَعْضِهِ.

(٣) أَنَّهُم كانُوا قوماً كافرين مشركين يعبُدُونَ من الأوثانِ ما كانَ يَعْبُدُ قبلهم آباؤهم، وَكان فيهم مُفْسِدُونَ في الأرضِ كثيرون، ولا يَجِدُونَ من سائر قَوْمهم من يَرْدَعُهُمْ عن الفَسَادِ والإفسَاد.

(٤) أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ أرسَلَ إليهم رسولاً من سُلالاتهم، كان قبل نبوّته وإرساله رسولاً رجُلاً صالحاً فيهم، ذا خُلُقٍ رفيع، ورأْيٍ حَصِيفٍ، وكانَ فيهم مَرْجُوّاً لكلِّ خَيْرٍ، هُو أخُوهم صالحٌ عليه السَّلام، فوعظهم ونَصَحَهُم، ودَعاهُمْ إلى التوبةِ والاستغفار، وأبان لهم حقَّ خالقهم في وحدانيّته في رُبُوبيَّتِهِ، ووحدانيته في إلهِيَّتِهِ، ودَعاهم إلى نَبْذِ ما هم فيه من شرك ووثنيّات، ودَعاهم إلى الاستقامة على صراط اللَّه، ونهاهُمْ عن أن يعيثوا في الأرضِ مُفْسِدين.

فآمَنَ به فريقٌ من مستضعفي قَوْمه، وكذَّبَهُ ملَؤُهُم المستَكْبِرُونَ في الأرْض، ومَعَهُمْ الأكثرون من قومه.

(٥) أنّه قامَ بينَهُ وبَيْنَ كُبَرَاءِ قَوْمِهِ مُنَاظراتٌ وجَدَليَّاتٌ حَوْلَ دَعْوته وعناصرها، وحَوْلَ تكذيبهم لَهُ ورَفضهم دَعْوَته.

وقال لهم: اعْبُدوا اللَّهَ ما لكم من إله غيره.

وقال لهم: اللَّهُ هُوَ الّذي أنشأكم من الأرض واسْتَعْمَرَكُمْ فيها.

وقال لهم: استغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ، إِنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيب.

وقال لهم: ألاَ تَتّقون، إنّي لَكُمْ رسولٌ أمين، فاتَّقُوا اللَّهَ وأطيعون، ولا تطيعوا أمْرَ المُسْرفين، الّذين يُفْسِدُونَ في الأرض ولاَ يُصْلِحُون.

وقال لهم: ومَا أسْأَلُكُمْ عليه من أجْرٍ، إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ العالمين.

وقال لهم: اذْكُرُوا إذْ جعلكم ربُّكم خلفاء من بَعْدِ عادٍ، وبَوَّأَكُمْ في الأرض، تتخِذُونَ من سُهُولِهَا قُصُوراً، وتَنْحِتُونَ الجبالَ بيوتاً، فاذْكُرُوا آلاَءَ اللَّهِ، ولاَ تَعْثَوْا في الأرض مفسدين.

وقال لهم: أَتُتْرَكُونَ في مَا هٰهُنَا آمِنِينَ، في جنَّاتٍ وعُيُونٍ، وزُرُوعٍ ونَخْلٍ طَلْعُها هضيم، وتنحتُون مِنَ الجبال بيوتاً فارهين؟

طَلْعُهَا هضيم: أي: ثمرها ناعم لطيفٌ ليّنٌ مَريء.

إلى غير ذلك من مقالات.

قال الذين استَكْبَرُوا مِنْ قومه لمَنْ آمَنَ من المستضعفين منهم: أتعلمون أنّ صالحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبّه؟! بغية أن يفتنوهم عن دينهم.

قالوا: إنَّا بما أُرْسِلَ به مؤمنون.

قال الذين استكبَروا: إنّا بالذّي آمَنْتُمْ به كافرون.

وقالوا لرسولهم: يا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فينا مَرْجُوّاً قَبْلَ هذا، أَتَنْهَانَا أن نَعْبُدَ ما كان يَعْبُدُ آباؤنا، وإنّا لَفِي شكٌ مما تدعونا إليه مُرِيب؟!

وقالوا له: إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ المُسَحَّرِين، ما أنت إلاَّ بَشَرٌ مثلنا.

وقالوا له: اطَّيَّرْنَا بِكَ وبِمَنْ مَعَكَ.

قال لهم: طائركُمْ عِنْدَ اللَّهِ، بل أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ، أي: تُمْتَحَنُون.

وقالوا فيما بينهم: أبشراً منّا واحداً نتّبِعُه؟! إنّا إذاً لَفِي ضلالٍ وسُعُرٍ (أي: وجُنون) أَأُلْقِي عَلَيْهِ الذِّكْرُ من بَيْنِنَا؟! بل هو كذَّابٌ أشِرٌ (أي: مستكبر).

(٦) وطلبوا منه آيَةَ النَّاقة يُخْرِجُهَا لهم من صخرة، فاستجاب اللَّه

لطَلَبِهم، بشَرْط أنْ لاَ يَمَسُّوها بسُوء، وأن يكون لها من مائهم شِرْبٌ لاَ يُشَارِكُونَها فيه، فالماء قسمةٌ بينَهُمْ وبينها.

(٧) فضاقوا بالناقة ذَرْعاً، ودَبَّرُوا أمْرَ عَقْرِهَا ونَحْرِها، فعقَروها وتخلّصُوا منها.

وبَيَّتَ تِسْعَةُ رَهْطٍ من المفسدين في الأرض مِنْهُم قَتْلَ رسُولِهم صالح عليه السّلام وأهْلِه، وكان صالح قد حَذَّرَهُمْ وأنْذَرَهُمْ عقابَ اللَّهِ إذا عقروا الناقة أو مَسُّوها بسوء.

فلمَّا فَعَلُوا مَا فَعَلُوا، وبيَّتُوا ما بيّتوا ضدّ رَسُولهم وأهله، أرسل اللَّه عليهم صَيْحةً واحدة، رافقتها صاعقَةُ العذاب الهون، وكان ذلك عند الصّباح، ورافَقَ ذلك رجفَةٌ في الأرض أخذتْهُمْ، فأصبحوا في ديارِهِمْ هَلْكَىٰ جاثِمين نادِمين.

وما أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كانوا يَكْسِبُون من قُوىً وتحصينات، ودفنهم اللَّهُ في أَرْضِهِمْ، وسَوىٰ عليهم الأرض.

(٨) وأنجَىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ بحكمته ورَحْمَتِهِ وألْطَافِهِ صالحاً عليهِ السَّلاَمُ ومَنْ آمَنَ معه.

وتولَّىٰ صالح ومن معه عن أَرْضِهِمْ قائلاً: يَا قَوْمُ لَقَدْ أبلغتكم رِسالَةَ رَبِّي ونَصَحْتُ لكُمْ، ولٰكِنْ لاَ تُحِبُّونَ الناصحينَ.

وانتهىٰ بعون اللَّه وفتحه وتوفيقه

تَدَبُّرُ سورة الشمس، والحمد للَّه على مِنَّتِهِ الجليلة



ملاحق لتدبّر سورة الشمس

الملحق الأول: مستخرجات بلاغيّة مما اشتملت عليه السورة من بلاغيات

الملحق الثاني: حول الشمس والقمر والأرض والنهار والليل في القرآن



(٦)
الملحق الأول
مستخرجات بلاغيّة ممّا اشتملت عليه السورة من بلاغيات

(١) التأكيد الرَّبَّانيُّ بالقسم بظواهر كونيّة هي من بدائع وعجائب صُنْع الرَّبّ جلّ جلالُه، ومن آثار علمه وحكمته، على قضيّة الجزاء يوم الدّين، الذي هو من مقتضيات حكمته الظاهرة في كلّ ما خَلَقَ وبَرَأَ، بَعْدَ أَنْ وضع الناس في الحياة الدنيا موضع الامتحان والتكليف.

(٢) الانسجام في كلمات السورة وآياتها، وهو من المحسنات البديعية اللّفظية، وهو أن يكون الكلام في مفرداته وجُمَلِه منساباً انْسِيابَ الماء في مجاريه السَّهْلَة، مُتَّحَدّراً ليّناً، بسبب التلاؤم بين كلماته وجُمَلِهِ، وعذوبة ألفاظه، وجمال تَمَوُّجَات فقراته، وخلوّه من التعقيد والتنافر، وخلُوّه من كلّ ما يَنِدُّ عن النطق، أو يَنْفِرُ منه السّمع.

(٣) من المحسنات البديعيَّة في السورة ما يُسمَّىٰ «مراعاة النظير»، فبيَّن الشمس وضُحاها، والقمر إذا تلاها، واللّيل إذا يغشاها، والسماء وما بناها، والأرض وما طحاها، تناسبٌ وائتلاَف، رُوعي فيه ضَمُّ النظائر إلى النظائر.

(٤) من المحسنات البديعيّة اللفظية في السّورة السَّجْع المحبّب الذي لا تكلُّفَ فيه.

(٥) بناء آيات السورة جارٍ على ما يُعْجِب فُصَحاء العرب إبّان التنزيل، إذْ هو قائم على الجمل القصيرة السَّهْلَة الجميلة، والسَّجْعِ غير المتكلّف.

(٦) الكناية عن دخول الجنّة يوم الدين بذكر لازمٍ من لوازمهِ وهو الفلاح، والكناية عن دخول دار العذاب يوم الدين بذكر لازم من لوازمه وهي الخيبة.

واستخدام الكنايات من اتّخاذ الأسلوب غير المباشر في التعبير عن المراد، وهو ذو أَثَرٍ عميقٍ في كثير من النفوس، ولا سيما النفوس الذكيّة الذوّاقة للأَدَب، الّتي لاَ تَمِيلُ إلى التعبيرات المباشرات.

(٧)
الملحق الثاني
حول الشمس والقمر والأرض والنهار واللّيل في القرآن

جاء في القرآن المجيد بيانات متعدّدات تتعلّق بالشمس والقمر والأرض والنّهار واللّيل، ومن المفيد استعراضُها بحسب ترتيب نزولها، مقرونَةً بنظراتٍ تدبُّريَّة.

النصّ الأول:

ما جاء في صدر سورة (الشمس/ ٩١ مصحف/٢٦ نزول) وقَدْ سَبَقَ تدبُّره في الدَّرْس الأول من دَرْسَي السّورة.

النَّصُّ الثاني:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ

عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

فجَاء في هٰذه الآية ما يلي:

(١) بيانُ أنَّ اللَّهَ رَبَّنا عزَّ وجلَّ هُوَ الَّذي خَلَقَ السَّمٰاوات والأرض في سِتَّةِ أيّام، أي: في سِتَّةِ أحقابٍ زمَنِيَّة.

(٢) بيان أنّ اللَّه هو الّذي يجْعَلُ النَّهارَ بسبب إشراق الشمس وامتداد ضيائها يَغْشَىٰ اللَّيْلَ، فيسْتُرُهُ، لأنَّ الظلام هو الأصل في الأكْوان الَّتي خَلَقَها اللَّه جلَّ جلالُه، والضياءُ الذي يُسَلَّط عليها بتقدير اللَّهِ وتراتيب أنظمته هو الذي يَسْتُرُ الظلام، ويَكْشِفُ الأجسام، فتراها عُيُون المخلوقات على مقادير استطاعاتها.

(٣) بيان أنَّ النهارَ هو الذي يُتَابعُ اللَّيْلَ طالباً له مُسْرِعاً جادّاً في أمْرِه، لا يكلُّ ولا يَمَلُّ ولا يَتوانى.

وهذا البيان يشير إلى دوران الأرض حول نَفْسِهَا باتجاه الشَّمس دون توقُّفٍ ولا انقطاع، وبسبب ذلك يظهر أنَّ ضياء الشمس المُسَلَّطَ على الأرض يُلاحِقُ اللَّيْلَ دَواماً، فيكونُ عليه كالغشاء السَّاتِر.

(٤) بيانُ أنَّ اللَّه رَبَّنا عزّ وجلّ هو الذي خَلَقَ الشَّمْسَ والقَمَرَ والنُّجومَ كُلَّها مُسَخَّرَاتٍ بأمْرِهِ لمصالح ومنافع عباده، فَهِيَ من نِعَمِ اللَّهِ عليهم.

النَّصُّ الثالث:

قولُ اللَّه عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

فجاء في هٰذهِ الآيات الأربع ما يلي:

(١) بيان أنَّ النَّهار بمثابة الجِلْدِ السَّاتِرِ فَوْقَ اللَّيْل، وأنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ بنظامه المتْقَنِ البديع في كونه، يجعل النهار مِنْ جِهَةِ ظهور اللّيل شيئاً فشيئاً، بمثابة الجِلْدِ الذي يَنْسَلِخُ عمَّا تحته شيئاً فشيئاً.

وهذا المعنى يُطابق ما جاء في سُورَةِ (الأعراف) من كون النهار هو الذي يَغْشَى اللَّيْلَ فيَسْتُرُه، وأنَّ الأرضَ مُظْلِمَةٌ لَوْلاَ الضياء الذي يُسَلَّطُ عليها.

لكنَّ مَا جاء في سُورَة (الأعراف) تناول بالبيان جانِبَ شُرُوقِ الشَّمْسِ الَّذِي يَغْشَىٰ اللّيلَ فَيَسْتُرُه.

أمّا ما جاء في سورة (يس) فقد تناولَ بالبيان جانِبَ غُروب الشمس الذي يُشْبِهِ انسلاخ الجِلْدِ عمَّا تحته، والذي تحت أشعَّةِ الشمس في المشبَّهِ هُو اللّيل.

فتكامل النَّصَّان في الدَّلالة على المعنى المراد، مع استعمال التعبير الأدبيّ الرفيع القائم على الاستعارة.

(٢) بيانُ أنَّ الشَّمْسَ تجري لبلوغ مستقرٌ لها، بتقدير العزيز العليم.

وقد أثبتت الدراسات العلميّة الإنسانيّة أنَّ الشمس مع مجموعتها تجري داخل المجرّة، مع أنَّ كُلَّ واحِدٍ من المجموعة الشمسيَّة له جَرَيَانُه الخاصُّ به، سابحاً في فَلَكِهِ المقدَّرِ له.

(٣) بيان أنّ اللَّه عزّ وجلّ جعل للقمر منازل تظهر فيها لسكّان الأرض أهّلته تزايداً وتناقصاً حتى يعود إلى مثل الحالَةِ التي بَدَأ بها، هلالاً صغيراً جداً، كعود يابس متقوّس.

(٤) بيان أنَّ النظام الدقيق الّذي حدَّدَ به اللَّهُ مِقْدارَ كلٌ من الشمس

والقمر، ومِقدارَ بُعْدِ كلٍّ منهما عن الآخر، ومقدار الجاذبيات، جعَلَ الشَّمْسَ على الرُّغم من عِظَمِها بالنسبة إلى القمر، وعلى الرُّغم من قُوَّةِ جاذبيَّتِها، غَيْرَ مُهَيَّأَةٍ لاجتذاب القمر إليها، وإدْرَاكه وابتلاعه، لأنّ التنظيم العامّ مقدَّرٌ تقديراً غايةً في الإتقان.

(٥) بيان أنَّ اللَّيْلَ لاَ يَسْبِقُ النهار، لأنَّ النَّهَار هُو الّذِي يُتابع اللَّيْلَ فيغشّيه بضيائه من جهة الشّروق، وهو الّذي يَنْسَلِخُ عنه من جهة الغروب، وفي هذا إشارة إلى انضباط حركة دوران الأرض حول نفسها، وهذا من كمال الإتقان، وإحكام التدبير.

(٦) بيانُ أنَّ الشَّمْسَ والقَمر والأرضَ الّتي يظهر على سطحها اللّيْلُ والنَّهار، ذَوَاتُ أفْلاَك، وكُلٌّ مِنها سابحٌ في فَلَكِهِ المحدَّدِ له، في الفضاء المؤهَّل لسَبْحِ الأجرام الكونيَّة فيه، وإنْ لم يكن هذا الفضاء فراغاً تامّاً، فالطيرُ يسبح في الهواء، والسَّمَكُ يسبح في الماء، والكواكب والنجوم تَسْبَحُ في الفضَاء الملائم لِسَبْحِهَا.

النَّصُّ الرابع:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾.

وقول اللّهِ عزّ وجلّ فيها:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

فجاء في هذه الآيات من سورة (الفرقان) ما يلي:

(١) بيان ظاهرة الظّلّ الذي يكون بسبب حاجب يحجُبُ ضياء الشمس

عن المكان الذي يَظْهَرُ فيه الظلّ، وكيف يمتدُّ شيئاً فشيئاً بسبب حركة دوران الأرض حول نفسها باتّجاه الشمس، وكذلك كيف يتقلّص شيئاً فشيئاً بهذا السبب نفسه.

وهذه الظاهرة من نعم اللّه على عباده سُكَّان الأرض، ولو شاء اللّه لجعل الظّلّ ساكناً غير متحرّك، بنظام آخر غير النظام الذي تتمّ به حركة امتداد الظلّ وتقلُّصِه برِفق.

(٢) بيان ظاهرة «البروج» في السَّمَاء، وهي منازلُ الكواكب والنُّجوم السَّيَّارة.

(٣) بيانُ أنَّ الشمس جرْمٌ نَارِيٌّ مُلْتَهِبٌ، إذْ جَعَلَها اللّهُ سِرَاجاً، أي: كالسِّراج، ومن شأن السِّراج أنْ يكونَ نارِيّاً يَنْشُرُ ضِياءً.

وبيانُ أنَّ القَمَرَ جِسْمٌ مُنِيرٌ، وهذا يدلّ على أنَّهُ كالمِرْآة الَّتي تَعْكِسُ نور الضياء الذي يُسَلَّطُ عليها، وهو ما أثبتَتْهُ الدراسات العلميَّة الإنسانيَّة القطعيَّة.

(٤) بيان نعمة اللّه على عباده بتعَاقُب اللَّيْلِ والنَّهار، وهذا يَدُلُّ على حركة دوران الأَرْض حول نفسها باتّجاه الشمس دورةً كامِلَةً كُلَّ يَوْمٍ.

وجاء التعبير عن هذا التعاقب بكلمة: «خِلْفَة»، أي: يَخْلُفُ كُلٌّ منهما الآخر.

النَّصّ الخامس:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾.

فجاء في هذه الآية من سورة (فاطر) ما يلي:

(١) تصوير تعاقُب اللَّيل والنَّهار بصُورَةِ إدْخال اللّيل في النهار عند

حركات شروق الشمس في المشارق، فكأنّ النّهار يَبْتَلِع اللّيل، وبصُورَةِ إدْخَالِ النهار في اللّيل عند حركات غروب الشمس في المغارب، فكأنَّ اللَّيْلَ يَبْتَلِع النهار، وهكذا دواليك بالتتابع. وهذا تشبيهٌ للظاهرة التي يَراها الرائي حين يكون في الجوّ داخل طائرة تدور في السّماء.

وقد يدُلُّ إيلاج اللّيل في النهار وإيلاجُ النهار في اللّيل على ما يحدُث من قصر اللّيل وطول النهار أحيانا، وما يحدُث من قِصَرِ النهار وطول اللّيل أحياناً، فكان الذي قصُر منهما يلج في الّذي طال منهما.

(٢) بيان تسخير اللَّهِ جريانَ السشَّمْسِ والقمر لمصالح العباد في الأرض، لأجَلِ مَعْلُومٍ ومُسَمّى لدَيْهِ، فالتَّسْمِيَةُ إنّما تكونُ بعد العلم بالأجل، وكلُّ مَعْلُومٍ ومُسَمًّى عند اللّه مكتوبٌ في اللَّوْح المحفوظ.

التسمية للأجل وصف تحديديّ لوقته.

النَّصّ السادس:

قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾.

فجاء في هاتين الآيتَيْن من سُورة (يونس) ما يلي:

(١) أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ جعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً، أي: كُتْلَةً نارِيَّةً تَنْشُرُ الضِّيَاء، والضّياءُ أشِعَّةٌ حارَّة.

وجَعَلَ القَمَرَ نُوراً، أيْ: ناشِراً لنُورٍ بارِدٍ لاَ حَرَارَةَ فيه.

وجاء التَّفْسِيرُ العلمِيُّ الإنسانِيُّ لهذا بأنَّ القَمَرَ عاكِسٌ لأشعّةِ الشَّمْسِ المُسَلَّطَةِ عليه، فهو لهذا يُعْطِي نوراً بارداً.

(٢) أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قَدَّرَ القَمَرَ فجَعَلَ حركَتَهُ تتنَقَّل في منازِل يظهر فيها أهِلَّةً تتنامَىٰ في النِّصْفِ الأوَّل من الشهر، وتتناقص في النّصف الثاني من الشهر، ليعْلَمَ النَّاسُ عددَ السِّنين، وحِسَابَ الأيَّامِ والشّهور القمرية وما يرتبط بها من أحوال الأرض والنَّاس الدينيَّة والدنيوية.

(٣) أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ جعَلَ اللَّيْلَ والنّهار يَخْتَلِفانِ طُولاً وقصراً، وهذا تابع لآية من آيات اللَّه في حركة الأرض ومَيْلِها باتّجاه الشمس.

النّص السابع:

قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

فجاء في هذه الآية من سورة (الأنعام) ما يلي:

(١) بيان حكمةٍ من حِكَم إيجاد نظام اللّيل في الأرض، وهي أن يكون سكَناً للناس، أي: يَسْكُنُونَ فيه، ويَطْمَئِنُّونَ، ويرتاحُون من عناءِ العمل والكدّ في النهار، وقد جعل اللَّه عزّ وجلّ اللَّيْلَ بخصائصه مُهَيَّأً لإمداد الأجسادِ بالرَّاحة النفسيّة والسكون.

(٢) بيان أنّ اللَّهَ عزّ وجلَّ قَدْ جعل الشمس والقمر حُسْباناً، أي مُقَدَّرَين في كُتْلَتَيْهما وحَرَكَتَيْهما تَقْدِيراً غايةً في الدِّقَّة والإتقان، ليؤدِّيَا وظائفهما في الكون على أحسن وجهٍ، وهذا التقدير المتْقَنُ الدَّقيق من الأدلّة الجليلة على الرَّبّ وعظيم صفاته وأسمائه الحسنَىٰ.

حُسْباناً: مَصْدَرُ حسَبَ، يقال: حَسَبَ يحسُب حِساباً وحُسْباناً. **والحُسْبَانُ**: العدُّ، والتدبير الدَّقيق.

النصّ الثامن:

قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (الزُّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ۝٥﴾.

فجاء في هذه الآية من سورة (الزمر) ما يلي:

(١) بيانُ أنَّ اللَّه عزّ وجلّ خَلَق السَّمَاواتِ والأرض بالحقّ، أي: بالأمْرِ الثابت الهادف لغاية جليلة، ولم يخلُقْهُمَا باطلاً ولا عبثاً.

(٢) تصويرُ تَتَابُع اللَّيْل والنّهارِ بصُورَةِ تَكْوِيرِ اللَّيْلِ على النهار في المغارب، وبصورة تكوير النهار على الليل في المشارق، وهذا تشبيه آخَرُ للحركتين، غَيْرُ تَشْبِيهِهِما بإيلاج كلٍّ منهما في الآخر، على أحد مَعْنَيَي الإيلاج.

(٣) الامتنان بتسخير الشَّمْس والقَمَر للعباد، وجَعْلِ كلٍّ مِنْهُما يَجْرِي لأجَلٍ معلومٍ مُسَمًّىٰ.

وحسَّنَ تكريرَ هٰذِهِ الفكرة إذْ سَبَقَ بيانُها في سُورَةِ (فاطر) أنَّ الأمْرَ فيه امتنان من اللَّهِ على عباده، ليكون دافعاً لأهْلِ الرّشْدِ منهم ومُحَرِّضاً على الإيمانِ به، وحَمْدِهِ، وشُكْرِهِ، جلَّ جَلاَلَهُ.

النّصّ التاسع:

قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (فُصّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ۝٣٧﴾.

جاء في هذه الآيَة من سورة (فصّلت) ما يلي:

إضافةُ بيانِ أنَّ من الآياتِ الكونيّة الدَّالأَتِ على الرَّبّ الخالِق وصفاتِهِ تَدْبيراتِهِ الظاهرات في اللَّيْل والنّهارِ، وأنّ مِنْ آياتِهِ الشَّمْسَ والقَمَر، وقَدْ جاء هذا البيان مفتاحاً للدخول إلى النَّهْي عن السجودِ للشَّمس والقمر، الذي يَفْعَلُهُ بعض المشركين في الأرض، من الّذين يجعلُون مع اللَّهِ آلهةً من الأجرام السماوية. وإلى الأمر بالسُّجودِ للَّهِ وحْدَهُ الَّذي خَلَق هذه الآيات الكونيّة.

﴿إنْ كُنتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾: أي: إنْ كنتم لا تَعْبُدون غيْرَه.

النّصّ العاشر:

قول اللَّه عزّ وجلّ في سُورَة (النحل/١٦ مصحف/٧٠ نزول) خطاباً للناس:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

فجاء في هذه الآية من سورة (النحل) إضافَةُ خِطَاب النَّاس، مع التصريح بمنَّةِ اللَّه عليهم بتسخير اللّيل والنهار، والشَّمْسِ والقَمَر، لِحَثّهم على الإيمان باللَّهِ وحَمْدِه وشكره، تبارك وتعالىٰ.

وحَسَّنَ تَكْرِيرَ مِنَّةِ التسخير للناس أنَّه بمثابة العلاج الدَّوائي الذي يَحْسُنُ فيه التكرير.

النصّ الحادي عشر:

قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (نوح/٧١ مصحف/٧١ نزول) بياناً لما قالَهُ نوحٌ عليه السَّلَام لقومه:

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾.

فَدَلَّ هٰذا على أنَّ بيانات نُوح عليه السلام لقومه حول آيات اللّٰهِ في كَوْنِهِ مِثْلُ البيانات الواردات في القرآن، فقد سَبَقَ بيان كون القمر نوراً وبيان كون الشمس سِرَاجاً، فيما نَزَلَ قَبْلُ في نجوم التنزيل.

النصّ الثاني عشر:

قول اللّٰه عزّ وجلّ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) خطاباً للنَّاس:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾.

فأضافت هٰذه الآية بَيَان كَوْن الشمس والقمر مسخَّرَيْن للناس دائبَيْن لا يتوقَّفُ عملهما، وكذلك اللّيل والنهار.

الدائب: هو الذي يكرّر وظيفته دواماً دونَ انقطاع.

والتصريح بهذه الجزئية هو من التفصيل البياني في القرآن.

النصّ الثالث عشر:

قول اللّٰه عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

فأضافت هذه الآيَة بيان أنّ اللّيل والنهار، أي: وما يُسَبِّبهما وهو دوران الأرض حول نفسها باتجاه الشمس، وأنّ الشَّمْسَ والقَمَرَ، كُلُّ أولئِكَ مِنْ خَلْقِ اللّٰه إبْداعاً وتقديراً، وكذلِكَ سَبْحُها في أفْلاَكِهَا، وهو تَحَرُّكها المُنْسَابُ في مَدَارَاتها ومَسِيراتِها.

النّصّ الرابع عشر:

قول اللّٰه عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) خطاباً لرسُوله فَلِكُلِّ دَاعٍ إلى اللّٰهِ من أُمَّتِهِ، بشأن المشركين الوثنيين من العرب إبّان التنزيل:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾.

فأضافَ في هذا النَّصّ بَيَانَ أنّ مُشْرِكي العَرب كانوا يُؤْمِنُونَ بأنّ اللّهَ هُو خالِقُ السَّمَاوَات والأرض، وهو الذي سَخَّرَ الشمس والقَمَر، وهٰذه بعض خصائص ربُوبيَّةِ اللّهِ الرَّبّ جلّ جلاله، لكنَّهم يَجْعَلُونَ لآلِهَتِهِمْ رُبوبيَّةَ الرِّزْقِ والنَّصْرِ والتَّوْفيق والسَّلاَمَةِ وسائِرِ مَنَافِعِهِمْ في الحياة الدُّنيا، فعَبَدُوهَا من دون اللّه.

النصّ الخامس عشر:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الرعد/١٣ مصحف/٩٦ نزول):

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

ففصَّلَ اللّهُ عزّ وجلّ في هذا النَّصّ بيانَ جُمْلَةٍ من آياته في كونه، وأضاف أنّ السَّماءَ رَفَعَهَا بغير عَمَدٍ مَرْئِيَّة، لأنَّها مرفوعة بأنظمة الجاذبيات التي لا تُرَى. وأضافَ أنه سُبْحَانَهُ يُدبِّر أُمورَ كونه دَواماً ويُفَصِّلُ آياته، لتكُونَ أدلَّةً مُحَرِّضةً على الإيمان بالبعث ليوم الدِّين، بغية تحقيق الحساب وفَصْل القضاء وتنفيذ الجزاء. وأضاف بيان نعمته على عِبَادِه بإمداد الأرض بمواد أرزاقِ العباد، وأضاف أنّه جَعَلَ في الأرض جبالاً رَوَاسِيَ مُثَبِّتاتٍ لِقِشْرَةِ الأرض، حتى لا تميد بسُكّانها، وجَعَلَ فيها أنهاراً تجري فيها المياهُ الحلْوَة رزقاً للعباد، وأنّه جَعَلَ فيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ مِنْ كُلّ الثَّمرات، وهو نظام الزَّوجيَّة في الأحياء وفي الأشياء.

وأخيراً أبانَ أنَّ في كُلِّ ذٰلِكَ آيَاتٍ دَالاَّتٍ على الخالِقِ وصفاته الجليلة وأسمائه الحسنى، يستفيدُ من دلاَلاتها الّذين يتفكّرون.

النصّ السادس عشر:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الرحمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾.

أي: تَقْدِيرُ جِرْمَيْهما وحَرَكتيهما بحساب دقيق غايَةٍ في الإبداع والإتقان.

جاء في هذا النصّ تأكيد ما سبَقَ بيانُه في سورة (الأنْعَام) لِمَا في تَقْدِيرِ جِرْمَي الشمس والقَمَر وتقدير حَرَكتيهما بحسابٍ غايَةٍ في الدِّقَّة، فَهُمَا لاَ يَخْرُجَانِ عَنْ أنظمتهما المَوْضُوعَة لهما طَوال ملايين السنين، وهذا إنما يُدْرِكُ عظمته ويَدْهَشُ لها علماء الكونيات الرياضيُّون.

النصّ السابع عشر:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ۝١٨﴾.

وقول اللّه عزّ وجلّ فيها في معرض إثبات كمال قدرته وحكمته وعلمه:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٦١﴾.

فأضافت الآية الثامنة عشرة بَيَانَ أن اللّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ السَّماواتِ ومَنْ في الأرض من الملائكة سُجوداً إرادياً، مُلَبِّين فيه دواعيَ فطرتهم، وسُجُوداً غَيْرَ إراديّ، وهو خضوعُ ذَواتِهِمْ لِمَا يُجْرِيهِ اللّهُ فيها عَنْ غير طريق إراداتهم، وكذٰلِكَ مَنْ في الأرض من الجنّ والإنسِ، فذواتُهم خاضعةٌ

خضوعاً تامّاً لِمَا يُجْرِيه اللّهُ فيها بسُلْطانِ الجَبْر، وكذلك سَائِرُ الأكوان: «الشمس والقمر والنجوم والجبال والشّجر والدوابّ» كُلُّهَا ساجدة للّهِ (أي: خاضعةٌ للّه خُضوعاً تامّاً بسُلْطان الجَبْرِ). أمّا الجانبُ الاختياري الإراديُّ من الناسِ، فكثيرٌ من الناسِ ساجِدُون للّهِ أيضاً سُجوداً اختياريّاً إرادِيّاً، وكثيرُون آخرون غير ساجدين سجوداً اختيارياً لبارئهم، وهؤلاء قد حَقَّ عليهم العذاب، وسَيُهينُهُم اللّهُ لأنّهُمْ استكْبَرُوا عن السجود الاختياريّ الإراديّ له، مع سجود سائرهم لَهُ سجوداً جَبْرياً.

السجود: هو كمال الخضوع، ومن تعبيراته لدى ذوي الإرادات وضْعُ الجبهة على الأرض خضوعاً للّه.

واقتضت المناسبة في السورة تكرير الاستشهاد بظاهرة حركة الأرض حول نفسها باتجاه الشمس، وهي الحركة التي يَتَسَبَّبُ عنها دَوَرانُ النهار واللّيل حَوْلَ كُرَةِ الأَرْضِ.

وجاء التعبير عن هذه الظاهرة، بعرض صورة المشهد، لمن يُشَاهِد مِنْ جوّ الأرض تَلاحُقَ اللّيلِ والنهارِ، فيتخيَّلُ أنَّ اللَّيْلَ يَلِجُ في النَّهَارِ كما تَبْلَعُ الحيَّة العريضة البيضاء الّتي يستوعب عرض فَمِها عرض الأفق، الحيّةَ العريضة السوداء من جِهَة ذَيْلَها العريض الذي هو على قَدْرِ فَمِ البيضاء، هذا من جهة شروقِ الشمس، أمّا مِنْ جِهَةِ غُروب الشمس فالحَيَّةُ السَّوْدَاءُ هي الّتي تَبْتَلِعُ الحيَّةَ البيضاء ذاتَ الجسم العريض كَعَرْضِ الأُفُق، وتَدُور دَائِرَتُهما وَالِجاً ومَوْلُوجاً به.

وفي هذا تَنْبِيهٌ أدبِيٌّ بَدِيعٌ عَلَىٰ صُورَةِ هذا المشهد العجيبة.

وقد يكونُ المراد بالولوج تناقُصَ زمن اللّيل أحياناً لحساب طول النهار، وتناقص زمن النهار أحياناً لحساب طول اللّيل، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

سورة البروج

٨٥ مصحف ٢٧ نزول



(١)

نص السورة

سورة البروج وما فيها من فرشيّات القراءات

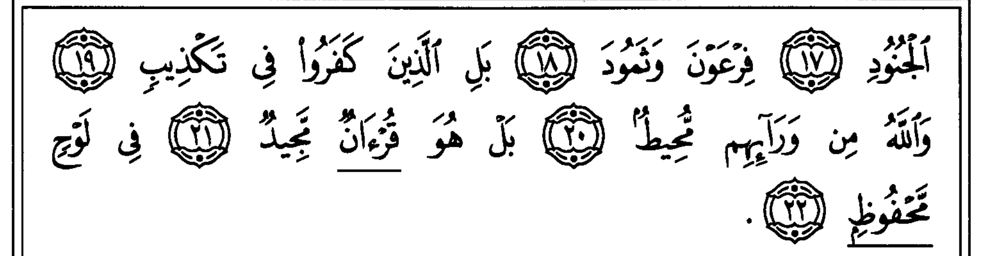
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ

---

١٤ ـ قرأ قالون وأبو عَمْرو والكسائي وأبو جعفر: ﴿وَهْوَ﴾ بإسكان الهاء وقرأ الباقون: ﴿وَهُوَ﴾ بضم الهاء.
ووقف يعقوب بهاء السكت.

١٥ ـ قرأ جمهور القراء العشر: ﴿المَجِيدُ﴾ بالرفع على أنه من صفَات اللّه عزّ وجلّ.



● وقرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿المَجِيدِ﴾ بالكَسْر على أنّه صفة للعرش، وبين القراءتين تكامل في بيان المراد.

٢١ ـ قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿قُرْءَان﴾ بإسكان الراء وبالهَمْز.

● وقرأ ابن كثير وفي الوقف حمزة ﴿قُرَان﴾ بفتح الراء وحذف الهمزة.

٢٢ ـ قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ بالجرّ صفة لِلَوْح.

● وقرأ نافع: ﴿مَحْفُوظٌ﴾ بالضمّ نَعْتاً للقرآن.

(٢)
ممّا رُوي بشأن سورة البروج

(١) روى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة:

«أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ في الْعِشَاءِ الآخِرَةِ بالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ، والسَّمَاءِ والطَّارِق».

(٢) وأخرج الطَّيالِسِيّ، وابْنُ أَبي شيبة في المصنّف، وأحْمَدُ، والدَّارمِيُّ، وأبو داود، والترمذيُّ وحسَّنَه، والنسائي، وابن حِبَّان، والطَّبَراني، والبيهقيّ في سننه، عن جابر بنِ سَمُرَة:

«أنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ بالسَّمَاءِ والطَّارق، والسَّمَاءِ ذَاتِ البُرُوجِ».

هٰذان الحديثان يدُلاّن على عِنَايَةِ الرسول ﷺ بهاتين السُّورَتَيْنِ، واختيار تِلاَوَتِهما في الصّلاة: «والسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ» ـ «والسَّمَاءِ وَالطَّارق».

والتأسّي بالرَّسُول ﷺ في اختيار تلاوتهما دون التزامٍ دَائم، في صلاةِ العشاء الآخرة، وفي صَلاَتَيِ الظُّهرِ وَالْعَصْر، عمَلٌ صالح.

والحديثان لا يَدُلأن على أنَّ الرَّسُول ﷺ كان يَفْعَلُ ذَلك دواماً، بل يَدُلأنِ على أنَّهُ قَدْ كان يُكَرِّرُ اختيارَهُما للتلاوة في الصلوات المذكورة. وقَدْ جاء في مَرْوِيَّاتٍ أُخْرَىٰ ما يَدُلُّ على أنَّهُ كان يتلو غيرهما في هٰذهِ الصَّلواتِ، أو يُوصِي بتلاوة غيرهما، وفي هذا دليل على عدم الالتزام دواماً بتلاوتهما في هذه الصلوات.

(٣)
موضوع سورة البروج

موضوع السورة يدور حول معالجة رَبَّانيَّةٍ لِطُغاةِ المشركين، الذين كانوا يفتنون ضعفاء المؤمنين والمؤمنات عن دينهم، بألوان من الاضطهاد والتَّعْذيب، وقد جاءت هذه المعالجة:

(١) بعَرْض مَثَلٍ تاريخيٍّ شَنِيعٍ، مقرونٍ بأبلغ التشنيع على أصحابه، وهو مَثَلُ أصحابِ الأُخْدُودِ، الذين كانوا قَدْ فَتَنُوا مؤمني بلدهم عن الدّين الحقّ الذي آمنوا به، وَأكْرَهُوهُم على الكفر به، وإلاَّ أَحْرَقُوهُمْ بالنار التي أوقدوها في الأُخْدُود، إشعاراً بأنّ عَمل طُغاةِ المشركين مُشَابه لما كان قد عَمله أصحابُ الأُخْدُود المَلْعُونُونَ أشَدّ اللَّعْن الذي يفضي بهم إلىٰ العذاب الشَّديد في نار جهنّم، وإلى عذاب الحريق فيها.

(٢) وبوعيدٍ للذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات عن دينهم من طغاة المشركين بالحريق مَتْبُوعٍ بوعْدٍ كريمٍ للَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات.

(٣) وببيانٍ لبعض صفات اللَّهِ جلَّ جلاله، ممَّا له علاقَةٌ بقانون الجزاء الرَّبَّاني.

(٤) وبتذكير ببعض المهلكين الأوَّلين من كُفَّار القرون السَّابقة.

(٥) وبوصْفِ حالِ كُبَراء المشركين المكذّبين للرسُول، والمكذّبين بالقرآن الذي يَتْلُوهُ عليهم، مُنَزّلاً من لَدُن عزيز حكيم، والذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات عن دينهم بالاضطهاد والتعذيب، وببيان أنَّ القرآن الذي يكذّبون به قرآنٌ مَجِيدٌ تَدُلُّ صفاتُ مَجْدِهِ على أنه مُنَزَّلٌ من عند اللَّه، وأنَّهُ في لَوْحٍ مَحْفُوظٍ عند اللَّه، أي: وهو مُنَزَّلٌ على الرسول محمّد ﷺ كما هُوَ في اللَّوْحِ المحفوظ.

(٤)
دروس سورة البُرُوج

تشتمل سورة البروج على خمس/ دروس:

الدرس الأول: الآيات من (١ ـ ٩) وهي تتناول قصَّة أصحاب الأُخْدُود بإيجازٍ شديد، مع التشنيع عليهم بأشَدِّ صُوَرِ اللَّعْن، المعبَّرِ عنه بالقتل.

الدرس الثاني: الآيتان (١٠ ـ ١١) وهما تتضمّنان الوعيد المؤكَّد للّذينَ فتنوا المؤمنين والمؤمناتِ ثُمَّ لم يَتُوبوا بعذاب الحريق في جهنّم، مع أنواع أخرى من العذاب والوَعْد المؤكَّد للَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحات بجَنَّاتٍ تَجْرِي من تَحْتِهَا الأنْهار، يكون لهم فيها نعيم خالد.

الدَّرسُ الثالث: الآيات من (١٢ ـ ١٦) وهي تُبَيّن طائفةً من المفهومات الاعتقاديَّةِ المتعلّقة باللَّه عزّ وجلّ، ممّا له علاقة بحكمته جلَّ جلاله، في قانون الجزاء الّذي قَدَّرَهُ اللَّهُ وَقضاهُ، للَّذِين يضَعُهم موضع الامتحان في الحياة الدنيا، وممّا لَهُ علاقة بسلطانه العامّ، فهو: «شديد البطش ـ يُبْدِىء الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ـ غَفُورٌ وَدُودٌ للمؤمنين ـ ذو الْعَرْشِ المجيد ـ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ وإرادَتُهُ سُبْحانَه لا تُفَارِقُ حكمته».

الدَّرس الرابع: الآيتان (١٧ ـ ١٨) وفيهما تذكيرٌ بإهْلاَكِ فِرْعَوْنَ ومَلَئه وجنوده، وإهلاك ثمود الذين سَبَقَ الحديث عنهم بإيجازٍ في سورة (الشمس) وفي سورة (الفجر).

وفي هذا التذكير دليلٌ واقعيٌّ على حكمة الجزاء الرَّبَّاني الصادر به قدر وقضاءٌ، وهو موضوعٌ موضع التنفيذ كلَّما اقتضى حال العباد ذلك.

الدَّرسُ الخامس: الآيات من (١٩ ـ ٢٢ آخر السورة) وفيها بيانٌ لواقع حال المكذّبين بالقرآن، الذين يفْتنُونَ المؤمنين والمؤمنات عن دينهم بالاضطهاد والتعذيب، مقرون بتهدِيدٍ ووعيدٍ لهم. وفيها بيانٌ بشأن القرآن الذي يكذّبون به، وأنَّهُ مجيدٌ يشْهَدُ له مَجْدُهُ في مبانيه وفي معانيه على أنَّهُ مُنَزَّلٌ من عند اللَّه العزيز الحكيم، وأنَّهُ مُدَوَّنٌ عند اللَّهِ في لَوْحٍ مَحْفُوظٍ لا يمسُّهُ إلاَّ الملائكة المطهَّرون.

وهكذا نلاحظ ترابط دُروس السُّورَةِ حول موضوعها ترابطاً محكماً دقيقاً، وتَشَابُكَ فروعها وأغصانها تشابكاً بديعاً ضِمْنَ شَجَرَةِ مَوْضُوعها.

إنّ كُلَّ سُورَةٍ من سُوَر القرآن بمثابة شجرة، وترتيبُ آياتها ترتيبُ نِظَامٍ شجريّ، وليس تَرْتِيبَ سِلْسِلَةٍ ذاتِ حلقاتٍ متتابعاتِ الصَّفِّ والتَّعَلُّق.

فعلى المتدبّر للسُّوَرِ القرآنيّة أنْ يَكُونَ على بصيرة من هذا، حتَّىٰ لا يَنْتَزِعَ ترابطاً بتَمَحُّلٍ يُفْسِدُ دَلاَلات القرآن، وترابط آياته في السُّورَة.

(٥)
التدبُّر التحليليّ للدرس الأول من دُرُوس السورة

وهو الآيات من (١ ـ ٩)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ

ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾.

يُقْسِمُ رَبُّنا في مطلع هذا الدّرس الأوّل من دُروسِ السُّورة، بأربع آياتٍ دَالأَتٍ على شُمولِ علمه وكَمالِ حِكْمَتِهِ وقُدْرَتِهِ، على تَحقُّقِ إحْدَى ظواهر حِكْمَتِهِ في عباده، وهي قانون الجزاء، الَّذِي هو الغايَةُ من وَضْعِ ذوي الإرَادَاتِ الحرَّةِ مَوْضِعَ الابتلاء في ظروف الحياة الدُّنيا.

الآية الأولى من آياته في كونه: السَّمَاءُ ذَاتُ البروج، وقَدْ دلّ على القَسَم بها قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾.

المراد بالسَّمَاء هذه القبَّة الزرقاء الّتي تَسْبَحُ فيها النجوم والكواكب، ذوات الأعداد المذهلة، وكلٌّ منها له طريق سَيْرٍ لا يتعدّاه، ولَهُ مَنَازِل، وله بُروج.

البُرُوج: مفردها «بُرْج»، ويظهر أنَّ المراد بالبروج منازل الكواكب والنجوم في السَّمَاءِ، على خطوط سيرها، ومداراتها في أفلاكها.

ووَصْفُ السَّمَاءِ بأنها ذاتُ البُرُوج يَدُلُّ على أنها أبْعَادٌ فضائية، وزّعَ اللَّه فيها النُّجومَ والكواكبَ توزيعاً حكيماً، وجعل لها فيها منازل ومَسِيرَاتٍ ومَدَارَاتٍ في أفلاك، وأبْدَعَ تَنْظِيمَ حركاتِها إبداعاً مُذْهِلاً، ونشَرَ بينها قُوىً وجاذِبياتٍ تجعل كلَّ نجم وكلَّ كوكب منها لا يخرُج عن خطّ سيره، ولا عَنْ مدارِه، ولا عن مَنَازِله المحكمة المقدَّرَة له.

إنّ علماء رَصْد النجوم والكواكب والمجَرّاتِ المتتبّعين لحركاتها، ولمنازلها، على خطوط سيرها ومداراتها في أفلاكها، يَجِدُون إتْقاناً مذهلاً، ونظاماً بَدِيعاً رائعاً، لا يَخْرِمُ حُدوده في ملايين السنين مقداراً ما مَهْما قلَّ.

هكذا يقولُ علماءُ الفلك، فالقَسَم بالسَّماءِ ذاتِ البروجِ هو في الحقيقة قَسَمٌ بظاهرة من ظواهر صفات اللَّه الجليلة، وهٰذه الظاهرة الرائعةُ تَدُلُّ على

عِلْمِ اللَّهِ المُحِيط بكلِّ شَيْءٍ، وعَلىٰ قُدْرَتِهِ، وعلى حكمته العجيبة، وعلى إتقانه في قضائه وقَدَرِهِ وخَلْقِه.

والقَسَمُ بالسَّمَاءِ ذَاتِ البُرُوجِ، هو في لوازِمِهِ الفكريّة قَسَمٌ بِيَوْمِ الحياة الدُّنيا، وبأنظمته كلّها.

فلدىٰ التأمُّل في واقع هذا الكون، وفي دلالات النُّصوص القرآنيّة، نُلَاحظ أنَّ يَوْمَ الحياة الدُّنيا مُرْتَبِطٌ بهذا النظام الّذي تَسِيرُ عليه السَّماءُ ذَاتُ البروج.

وحين يُريد اللَّه عزّ وجلّ تحقيق قضائه وقدره، بإنهاءِ هذا اليَوْم، فإنَّهُ يُكوِّرُ الشمس، ويَنْثُرُ الكواكب، ويجمع الشمس والقمر، ويَنْسِفُ الجبال، ويقيم قيامة كلِّ هٰذِهِ الظاهرات المنتظمة، ويفني الأحياء.

حتّىٰ إذا جاء ميعاد اليوم الآخِرِ، يُبَدِّلُ اللَّهُ عزّ وجلّ الأرض غير الأرض والسماوات، وذلك هو اليَوْمُ الموعُود.

الآيَةُ الثانية من آيات اللَّه في كونه: هي آيَةُ إعْلانِهِ عن اليوم الآخر الموعود، فيما بَعَثَ به رُسُلَه، وفيما أنزلَهُ من كُتُب، فهذا اليومُ الموعود هو الذي تقتضيه حتماً حكمته جلَّ جلاله، بَعْدَ أنْ وضَعَ ذوي الإرادات الحرَّة موضع الابتلاء في ظروف الحياة الدنيا. وذلك لأنَّ الابتلاء يقتضي في حكمة الحكيم الحسابَ وفَصْلَ القضاء وتحقيق الجزاء حتماً، وإلاَّ كان وُجُودُ هذا الكون باطلاً وعبثاً.

فَوُجودُ يوم الحياة الدنيا يوم الابتلاء، يَسْتَلْزِمُ حتماً أنْ تشتمل خطة الخالق الرَّبّ على إيجاد يوم آخر، يتحقَّقُ فيه الحسابُ، وفَصْلُ القضاء، والجزاء، فَمِنَ الأُمُورِ البَدَهِيَّةِ أنْ يُقْسِمَ اللَّهُ باليوم الموعود، كما أقْسَمَ بالسَّمَاءِ ذَاتِ البُرُوج الَّتِي هِيَ الظاهرة العظمى ليوم الحياة الدنيا، وما فيه من كلِّ مشهود، فَهُمَا جميعاً من مظاهر حكمته جلّ جلاله، وقد دلَّ على هذه الآية

الثانية، وعلى القَسَم بها، قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢﴾.

أمّا المقسمُ به الأوّل فعظمَتُه مشهودةٌ ظاهرة، وتزْداد هذه العظمة لدى الباحثين الكونيين، الّذين يَدْرُسُونَ الكَوْنَ، ويتفكّرون في نظام السماوات، وحركة الكواكب والنجوم في أفلاكها، ويتفكّرون في منازلها وفي بُرُوجها، فيَرَوْنَ فيها براهين على الخالق العليم القدير الحكيم، الَّذِي أتقن كلَّ شيءٍ صُنْعاً.

وأمّا المُقْسَمُ به الثاني، وهو اليوم الموعود، فمن تَدَبَّر في حكمة الخالق الرَّبّ المُبْدِعِ الحكيم، ظهر له بالبرهانِ العقلي، أنَّ مُقَدِّرَ اليوم الجاري، وهو يوم الحياة الدنيا، وخالقَ الإنسان فيه بصفاته الّتي هو عليها، القادر بمقتضاها أنْ يَفعَلَ الخير ويَفْعَلَ الشرّ بإرادَتِه الحرَّة، وأنْ يَرْحَمَ ويَظْلِم، وأن يَعْدِلَ ويَجُور، وأنْ يُؤمِنَ ويَكْفُرَ، وأنْ يُطِيعَ رَبَّه ويَعْصِيَه، لا بُدَّ أن يكون قد وضَعَ في خُطَّتِهِ وبرنامجه خَلْقَ يَوْمٍ آخر، يُحَاسِبُ فيه، ويقضي فيه بين عباده، ويَجْزِيهم بحسَبِ أعمالهم، فالمُحْسِنُ يجزيه بفضله، والمُسِيءُ يَجْزيه بعدله، أو يغفر له إذا اقتضت حكمته ذلك، ما لم يكن كافراً برَبِّه، ولو من أخفّ دَرَكات الكفر.

إنَّ عظمة اليوم الأوّل المشهود، تَدُلُّ دَلاَلَةً برهانيَّةً عقليَّةً على عظمة اليوم الآخر الموعود، فكانَ من الحكمة أن يُقْسِمَ اللَّه به، إعظاماً لأمْرِهِ، وإطماعاً بما فيه من أجْرٍ عظيم، وثوابٍ جزيل، وتخويفاً ممّا فيه من عقاب أليم، وجزاء عادلٍ حكيم.

وفي جعل القسم باليوم الموعود وهو غيبيٌّ بين قسمين من آيات اللَّه المشهودة إشارةٌ إلى أنه هو المقصود بالتأكيد بالقسم، وهذا أسلوب مبتكر قائم على إدْرَاج المقسم عليه ضِمْنَ الأمور المقْسَمِ بها.

وبسط قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢﴾.

يكونُ على الوجه التالي:

أُقسِمُ لكم أيّها المتفكّرون المتدبّرون الباحثون، بيَوْمِ الحياة الدنيا، يَوْمِ التكْليفِ والابتلاء، المرتَبِطِ بقاؤه ببقاء نظام حركة الكواكب والنجوم والمجرّاتِ في السَّماء، وأُقسِمُ باليَوْمِ المَوْعُودِ، يَوْمِ الحِسَابِ وفَصْلِ القضاءِ وتحقيق الجزاء، اليوم الذي تُبَدَّلُ فيه الأرْض غير الأرْض والسَّمَاوَات، والذي يَدُلُّكم على ضَرُورَتِهِ برهان العقل.

الآية الثالثة من آيات اللّه: هي آية القرآن، وقد دَلَّ عليها وعلى القَسَمِ بها قول اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَشَاهِدٍ . . . ۝٣﴾.

نظرت فيما أورده المفسّرون من آراء لا تستند إلى بيان عن الرسول ﷺ، فلم أَجِدْ بينها وبين عناصر السورة تناسُباً ما.

وتفكَّرْتُ في المناسبة، فرأيت أنَّ السُّورَة قد بُدِئَتْ بالقَسَم بيَوْمَي الابْتِلاَءِ والجزاء، وخُتِمَتْ بالحَدِيث عن المكذّبين للرَّسُولِ والمكذّبين بما جاء به عن ربّه، وبالحديث عن القرآن المجيد.

ورأيْتُ أنَّ الابتلاء في يوم الحياة الدنيا، يقتَضِي رسُولاً يُرْسِلُهُ اللّهُ للمكلّفِين، ليبلّغَهُمْ موادَّ امْتِحانهم.

ورأيْتُ أنَّ هذا الرَّسُولَ يَحْتَاجُ شاهداً من لَدُنْ مُرْسِلِه، يَشْهَدُ له بصِدْقه، فيما يُبَلّغُ عن رَبّه، ليمتاز النبيُّ الصادقُ من المتنبّي الكذّاب.

ورأيْتُ أنَّ القُرْآن بإعجازِهِ في مبانيه وفي معانيه، هو الشاهِدُ الدّائم المنزّلُ من عِنْدِ اللّهِ جلّ جلالُه وعظُمَتْ حكمته، على صِدْقِ الرَّسول محمّد ﷺ.

ورأَيْتُ أنَّ السُّورَة خُتِمَتْ بالحديث عن القرآن.

فظهر لي أنّ المرادَ بالشَّاهِد الذي أقسم اللّه عزّ وجلّ به في قوله: ﴿وَشَاهِدٍ...﴾ كتابُ اللّه القرآن، الذي يُنَزِّلُهُ اللّه مُعْجِزاً شاهداً على صِدْقِ رسُولِهِ محمّد ﷺ.

ثُمَّ بَحَثْتُ في سُوَر القرآن المجيد، لَعَلّي أجِدُ فيها بياناً صريحاً وصَفَ اللّه عزّ وجلّ فيه القرآن بأنه شاهِدٌ لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ بصِدْقِهِ في رسالته، وبلاغاته عن رَبّه، فوجَدْتُ قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

أمّا الّذي هُو على بَيِّنَةٍ من رَبّه بحَقَائِق الوَحْي إلَيْهِ الَّذِي رآهُ بِبَصَرِهِ وعَلّمَه، فهو الرّسُولُ محمَّدٌ ﷺ.

وأمّا الشَّاهِدُ من اللّهِ الّذِي يَتْلُو الرّسُولَ محمّداً، أي: يَتْبَعُهُ فتَتَنَزَّلُ عليه نُجُومُه، فَيَشْهَدُ له بما فيه من إعجاز في المبَاني وفي المعاني، أنَّهُ رَسُولُ اللّهِ حقاً وصِدْقاً، فَهُوَ القرآنُ لا محالة.

ويَشْهَدُ له أيضاً كتابُ مُوسَىٰ الّذِي أَنْزَلَهُ اللّهُ على رسولِهِ موسَىٰ عليه السّلام مِنْ قَبْلِ القرآن، إمَاماً ورحْمَةً، بما اشتمل عليه من بشائرَ تُبَشِّرُ بالرَّسُولِ الخاتم محمّد ﷺ.

فتأكّدَ عِنْدِي أنّ المُراد بالشَّاهِد القرآنُ المجيد، وقَدْ أقْسَمَ اللّهُ عزَّ وجلَّ به تَنْبِيهاً عَلَىٰ عَظَمتِهِ، وتَوْجيهاً لما فيه من إعجازٍ يُثْبِتُ صِدْقَ الرَّسُولِ الّذِي يُبَلِّغُهُ عَنْ رَبِّهِ، في دَعْوَاهُ النبوّةَ والرّسالة، وتَوْجيهاً للأخذ بما فيه من بلاغ للنَّاس، يُبَيِّنُ لَهُمْ مَوادّ امتحانهم في الحياة الدنيا، إيماناً، وعملاً، ظاهراً وباطناً.

الآية الثالثة من آيات اللّه: الرَّسُولُ محمَّدٌ ﷺ، وقَدْ دلَّ عَلَىٰ هٰذِهِ

الآيةِ، وعَلَىٰ القَسَمِ بها، قولُ اللّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿... وَمَشْهُودٍ﴾.

لقَدْ ظهر لنا المرادُ بقوله تعالىٰ: ﴿وَشَاهِدٍ...﴾ ومِنْهُ نَعْلَمُ أنّ المراد بقوله تعالىٰ: ﴿... وَمَشْهُودٍ﴾ الرَّسُولُ محمّد ﷺ، أي: المشهود له بالنبوّة والرّسالَة، مِنْ قِبَلِ الشَّاهِدِ الذي هو القرآن المجيد المعجز.

وحذف مثل هذه التعدية وهي «له» مألُوف في القرآن الكريم، وحسَّنَهُ التلاؤم اللّفظي بين: ﴿الموعُود﴾ وبين ﴿مَشْهُود﴾ في آخِرِ الآية الثانية، وآخِرِ الآية الثالثة.

وقد أقْسَمَ اللّه عزَّ وجلَّ برسوله محمّد ﷺ تَنْبِيهاً علىٰ حكمته جلَّ جلالهُ في اصطفائه للنبوّة الخاتمة للنبوّاتِ، وفي اصطفائه للرسالة العُظْمىٰ الخاتمة للرسالات، وتمجيداً بخُلُقِهِ العظيم، وثناءً عليه تطييباً لخاطره في مقابل تكذيب القَوْم له، وتوجيهاً لأنْظَار النّاسِ نحو صفاته الدّاعيات لهذا التمجيد.

فتَمَّ بَيْنَ الأقْسام وبَيْنَ عناصر السُّورَة التلاؤُمُ التامّ، والحَمْدُ للّهِ على فَتْحِهِ.

لمحة عن القسم في القرآن:

الْقَسَمُ في القرآن يتضمَّن تَنْبيهاً على عظمة المُقْسَمِ به، أو تمجيدِهِ والثناءِ عليه، فهٰذِهِ من لوازم القسم.

وحين يكون المُقْسَمُ به مما يستطيعُ النّاسُ التَّوصُّل إلى معرفة عظمته، وجلالَة قَدْره، فإنّ في القَسَمِ به توجيهاً ضمنياً للبَحْثِ عن صفاته الدَّالأت على عظَمتِهِ، فعظمةِ صانعه، أو خالقه ومُقَدِّر مقاديره ومانِحِهِ صفاته.

وحين يكون الغرضُ من القَسَم بالشَّيْءِ تمجيدَ المُقْسَم به والثناءَ عليه، فقد يكون المراد بالثناء عليه تَسْلِيَتَهُ، وتطييبَ خاطره، أو مُكايَدَة أعدائه، مع توجيه النَّظَر لمعرفة صفاته الدّاعيات إلى الثناءِ عليه.

ويُؤتَى بالقَسَم عادةً لتأكيد قضايا خبريَّة، وقَعَتْ فيما مضى، أو هي واقعةٌ فيما لا يزالُ من أمورٍ غيبيَّة، أو ستقع فيما سيأتي مستقبلاً، ويَدْخُلُ في هذا الوَعْدُ بما سيكون، أو سَوْفَ يكون.

وقد عَهِدْنَا في الأقسام القرآنيَّة التناسُبَ بَيْنَ المُقْسَم به والمُقْسَم عليه في السُّورَة، فعلىٰ المتدبّر أنْ يتأنّىٰ في التفكير والتأمّل حتّى يُدْرِكَ التناسُبَ بين المقْسَم به والمقْسَمِ عليه.

● قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾.

بالتدبّر المتأنّي ظَهَرَ لي أنَّ هذا هو المُقْسَمُ عليه بالأقْسَامِ الرَّبَّانيَّة الَّتي بدأ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بها السُّورة.

أي: لُعِنَ أصْحَابُ الأُخْدُود لَعْناً أبديّاً ينالُونَ به عَذَابَ الحَرِيقِ المتجدِّد في جهنَّم، مَعَ أنواع العذاب الأُخْرَى الَّتي جعَلَها اللَّهُ في جهنّم للكافرين المجرمين الّذين يَفْتِنُونَ الناس عن دينِهِم بالاضطهاد والتعذيب.

جاء في هذه العبارة استعارة لفظ [قُتِلَ] للدَّلاَلة على اللَّعْنِ الأبَدِيّ المقرون بأنواعِ من العذاب في جَهَنَّم، وأشَدُّهُ عذاب الحَرِيقِ المتجدّد، كلّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بدَّلَهُمُ اللَّهُ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العذاب.

وهذا أمْرٌ يستَحِقُّ أنْ يُقْسِمَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ على أنَّه قضاءٌ مُتَحَقِّق لا محالة، بيَوْمَي الدُّنيا والآخِرَة، وبالقرآن، وبالرَّسُولِ محمَّد ﷺ، أي: بيَوْمِ الابتلاء، وبيَوْمِ الجزاء، وبالمُعَرِّفِ بمادَّةِ الابتلاء وهو القرآن، وبالمبلِّغ والمبيّن للناس ما نُزِّل إلَيْهِمْ وهو النبيُّ الرسول.

جاء عند أهل التفسير تفسير فعل [قُتِلَ] في الآية بمعنى: «لُعِنَ»، واللَّعْنُ في اللُّغَةِ هو الطَّرْدُ، والإبعاد، والسَّبُّ والشتيمة.

وحِينَ يكونُ اللَّعْنُ مُوَجّهاً من اللَّه عزّ وجلّ، فهو الطَّرْدُ والإبعاد عن رحمة اللَّه.

أقول: لكنّ الطَّرْدَ والإبْعادَ لا يَسْتَلْزِمانِ أن يكونا أبديَّيْن، فقد يُطْرَدُ المطرودُ ويُبْعَدُ مؤقتاً لجُرْمٍ أصابَهُ، ثُمَّ يَتُوبُ، فَيُعَادُ إلى مَنازِل القرب، وتَشْمَلُه دائرة الرَّحْمَةِ الرَّبَّانيَّةِ الّتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ لَدَيْهِ قابليَّةٌ ما لأَنْ تُمْطِرَ عليه شَآبيب الرَّحْمة، أمَّا من حَجَبَ نفسه بجُحُودِهِ وجَرَائِمِه، فهو الذي اختار لنفسه أنْ يَحْرِمَهَا من خيرات رَحْمَةِ رَبِّه.

لكنّ مَنْ يُقْتَلُ فَقَدْ حُكِمَ عليه بالطَّرْدِ والإبْعاد الأبَدِيَّيْن، فَمَنْ تُوَجَّهَ له عبارَةُ: [قُتِلَ] في القرآن، فقد نصَّ البيانُ الرَّبَّانيُّ على أنَّهُ مَطْرُودٌ مُبْعَدٌ أبديّاً، عن مدىٰ رحمة اللَّه الّتي وَسِعَتْ كلَّ شَيْءٍ.

وفي هذا دلالَةٌ على أنَّ جريمته قد بلَغَتْ أقْصَىٰ الجرائم، وأنَّه أمْسَىٰ مَيْؤُوساً من عودَتِهِ إلى أيّ مَنْزِلٍ من المنازِلِ المشمولة برحمة اللَّه جلَّ جلاله، ومُسْتَحِقّاً للخلود الأبَدِيّ في عذاب اللَّه، وجَهَنَّمُ هي مَصِيرُه الذي هو صائر إليه.

وبهذا نُدْرِك أنّ استعارة فِعْلِ (قُتِلَ) للدَّلالة على الطَّرْدِ الأبدي، قَدْ تَضَمَّن باللُّزوم العقلي الكناية عن القضاءِ بالتعذيب الأبديّ في جهنَّم، دارِ خُلود الكَفَرَةِ المسرفين في الجحود، وفي ارتكاب كُبْرَيَاتِ الجرائم، وهم الأَشْقَوْن الذين يُعَذَّبُون فيها بعذاب الحَرِيق.

ولهذا لم تأتِ عبارةُ [قُتِلَ] في القرآن الكريم إلاَّ في أربع سُوَرٍ مكيّة:

(١) فقد جاءت في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) بشأن الوليد بن المغيرة، الّذي فكّرَ في القرآن وقدَّر، وعَلِمَ في قرارة قلبِهِ أنَّهُ لا يقولُ مِثْلَهُ بَشَرٌ، لكنّه أدْبَرَ واسْتَكْبَرَ وكفر، وزَعَمَ أنه سِحْرٌ يُؤْثر، وقال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾، فحَقَّ عليه أنْ يقول اللَّه عزّ وجلَّ بشأنه:

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝٢٠﴾.

(٢) وَجاء في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول) بشأن الكافر المعاند، المصرّ على كُفره، على الرُّغم من ظُهور أدِلَّةِ الحقّ له، قَوْلُ اللَّه عزّ وجلّ:

﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝١٧﴾.

أي: قُتِلَ الإنسان الجاحد الكافر المعاند، مَا أَشَدَّ كُفْرَهُ بالحقّ الجليّ الواضح ببراهينه.

(٣) وجاء في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول) الَّتي نتدبَّرُ آياتها، بشأن الطُّغَاةِ البغاة الظلمة، الذين بلَغُوا في كفرهم وطغيانهم، وجرائمهم الشنيعة، أنَّهُم جعَلُوا يُحَرِّقون المؤمنين والمؤمنات في الأخاديد التي أوقدوا النار فيها، لأنَّهم آمنوا باللَّه العزيز الحميد الذي له مُلكُ السَّمَاوات والأرض.

(٤) وجاء في سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) بشأن المكذّبين بيوم الدّين، الذين يَبْنُونَ تكذيبهُمْ به على الخَرْصِ، وهو الكذب، أو الوهم والظنُّ الضعيف، ويَرْفُضُون الأدلَّة والحجج العقليّة البرهانيّة، والأخبار الرَّبَّانيَّة الّتي بلَغَهُم إيَّاها الرَّسُولُ المؤيَّدُ من رَبّه بالمعجزات الباهرات، فقال اللَّه عزّ وجلّ فيها:

﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ۝١١ يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٢﴾.

هؤلاء الّذين لعنهم اللَّهُ في القرآن لعناً أبديّاً، يُوصِلُهم إلىٰ الدَّرْك الأسْفل من جهنّم، وهذا من العَدْل الرَّبَّانيّ.

وبهذا نُلاحظُ أنَّ عبارَةَ: [قُتِلَ] أشدُّ وأبْلَغُ في الطَّرْدِ والإبْعَادِ من عبارَةِ «لُعِنَ».

ونسألُ اللَّه السَّلَامَةَ من سَخَطِهِ وغَضَبِهِ وعَذَابِهِ، ونَعُوذُ به من شُرُورِ أَنْفُسِنَا وسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا.

• ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾﴾.

الأُخْدُود: هُوَ الشَّقُّ المُسْتَطِيلُ في الأرض، أو الحُفْرَة المستطيلَةُ، كالخندق والجَدْول.

وأَصْحَابُ الأُخْدُود: هُمْ قَوْمٌ كَفَرَةٌ، طُغَاةٌ بُغَاةٌ ظَلَمَةٌ، حَفَرُوا الأُخْدُود في بَلَدِهِم، وأَوْقَدُوا فيه النّار، للتَّنْكِيل بالمُؤْمِنِينَ والمؤمنات وتَحْرِيقهم، لمجرَّدِ أَنَّهُمْ آمنوا باللَّهِ العزيز الحميد.

مَنْ هُمْ أَصْحَابُ الأُخْدُود؟

لم أَجِدْ عند المفسّرين تحديداً مجزوماً به لأصحاب الأخدود، لكنّ تاريخ الطغاة الجبابرة في الأرض يُسَجّل عدّة وقائع، يمكن انطباقُ قصة أصحاب الأخدود على كلٍّ منها.

ومن هذه القصص قصَّةٌ وقعَتْ في بلاد العرب، ويظهر أنَّها من القصص الّتي يرويها قصّاصوهم، مع ما يدخل في رواياتهم من تحريف وزيادة ونقص، كشأن سائر القصص الّتي تتناقلها الأفواه دون تدوين.

فما جاء في سورة (البروج) يُحْمَلُ عليها بالدّرجة الأولى، ولا مانع من تطبيقها على سائر القصص المماثلة.

وقد ورد في الصحيح عن النبيّ ﷺ قصَّةٌ تَصْلُح لانطباق ما جاء في سورة (البروج) عليها، لكن لم يأتِ فيها تحديد المكان والزمان، إنَّما جاء فيه ذِكْرُ كلمة: «راهب» وهٰذهِ من مصطلحات النصارىٰ أتباعِ عيسىٰ عليه السلام، فلا مانع من أنْ تكون إشارةً لِقِصَّةٍ حَدَثَتْ في نجران، كان يتحدّث بها العرب، فقد دخلَتِ النصرانيَّةُ عَرَبَ نَجْران، ووَفَدَ من وافديهم قِسِّيسُون

ورُهبانٌ على رسول اللّه ﷺ، وقد جاء في القرآن ثناءٌ عليهم.

روى الإمام مسلم والإمام أحمد كما ذكر ابن كثير عن صُهَيْب رضي اللّه عنه (واللفظ لمسلم) أنّ رسول الله ﷺ قال:

«كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ قال لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلاَماً أُعَلِّمُهُ السِّحْرَ.

فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلاَماً يُعَلِّمُهُ، وَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ، وَسَمِعَ كَلاَمَهُ فَأَعْجَبَهُ، وَكَانَ إِذَا أَتَىٰ السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَىٰ السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذٰلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ.

فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذٰلِكَ إِذْ أَتَىٰ عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاس، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ، السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَل؟

فَأَخَذَ حَجَراً فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ، فَاقْتُلْ هٰذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسِ، فَرَمَاهَا، فَقَتَلَهَا، وَمَضَىٰ النَّاسُ.

فَأَتَىٰ الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ، أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَىٰ، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَىٰ، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلاَ تَدُلَّ عَلَيَّ.

وَكَانَ الْغُلاَمُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةً، فَقَالَ: مَا هَا هُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي.

فَقَالَ: إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحَداً، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ تَعَالَىٰ، فَإِنْ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللَّهِ، فَشَفَاهُ اللَّهُ.

فَأَتَىٰ الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ

عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي. قَال: أَوَ لَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّىٰ دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ.

فَجِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ، قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ، وَتَفعَلُ وَتَفعَلُ!

فَقَالَ: إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحداً، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ تَعَالَىٰ.

فَأَخَذَهُ، فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّىٰ دَلَّ عَلَى الرَّاهب.

فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَىٰ، فَدَعَا بِالْمِنْشَارِ، فَوُضِعَ الْمِنْشَارُ فِي مِفْرَقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ، حَتَّىٰ وَقَعَ شِقَّاهُ.

ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَىٰ. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذِرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلاَّ فَاطْرَحُوهُ.

فَذَهَبُوا بِهِ، فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ، فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ.

فَقَالَ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟

فَقَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ.

فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ[١]، وَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلاَّ فَاقْذِفُوهُ.

فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ، فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ.

فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟

---

(١) **القُرْقُور**: نَوْعٌ من السُّفُن البَحْرِيَّة.

فَقالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي، حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ.

قَالَ: مَا هُوَ؟

قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهماً مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذٰلِكَ قَتَلْتَنِي.

فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْماً مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ، فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ، فَمَاتَ.

فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ.

فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ، قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، فَقَدْ آمَنَ النَّاسُ.

فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ بِأَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتِ، وَأُضرِمَ فيها النِّيرَانُ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ، فَأَقْحِمُوهُ فِيها، أو قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ.

فَفَعَلُوا، حَتَّىٰ جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهْ، اصْبِرِي، فَإِنَّكِ عَلَى الحَقِّ».

هكذا رواه مسلم، ونظيره عند الإمام أحمد، ورواهُ أيضاً النّسائيّ والترمذيّ، بنحو ذلك.

وظاهرٌ أنَّ قِصَّةَ هذا الحديث الصحيح عن النبيّ ﷺ تَصْلُحُ شَرْحاً لِقِصَّةِ أصحابِ الأُخْدُودِ الواردة في سُورَةِ (البروج)، ولٰكِنْ لَيسَ فيها ما يَدُلُّ على تَعْيِينِ أنّها هِيَ المرادة.

واعْتِبار «نَجْران» مَسْرَحَ هذا الحَدث التاريخي يُشْكِلُ عليه أنَّ البَحْرَ بَعِيدٌ عَنْهَا، وقصَّةُ الحديث فيها قُرْقُورٌ وبَحْرٌ.

وذِكْرُ كلمةِ «رَاهِب» في القِصَّةِ الَّتِي جَاءَتْ في الحديث النبويِّ تَدُلُّ على أنَّهَا حَدَثَتْ أيَّامَ انتِشَارِ النَّصْرَانِيَّةِ بَعْدَ عِيسىٰ عَلَيْهِ السَّلام، بدَعْوَةِ القِسِّيسينَ والرُّهْبان، وَقَدْ كانَ النَّصارَى يتعرَّضُون لاضطهادٍ شديدٍ مِنْ قِبَلِ الدَّوْلَةِ الرُّومانيَّةِ ومِنْ قِبَلِ اليَهُودِ، ومن غيرهم.

وجاء في سيرة ابن هشام، قال ابنُ إسحاق: وحدَّثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كَعْبٍ القُرَظي، وحدَّثني بعض أهل نجران عن أهلها، أنَّ أهل نجران كانُوا أهلَ شِرْكٍ، يَعْبُدونَ الأوثان، وكان في قَرْيةٍ من قراها قريباً من نجران ساحِرٌ يُعَلِّمُ غِلْمانَ أهْلِ نجران السِّحر.

فلمَّا نَزَلَها «فَيْمِيُون»[١] ـ قال ابنُ إسحاق: ولم يُسَمُّوه لي باسْمِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّه ـ قالوا: رَجُلٌ نَزَلَها، ابْتَنَىٰ خَيْمَةً بين نَجْرانَ وبَيْنَ تِلْكَ القريةِ الَّتِي بها السَّاحر، فجعل أهْلِ نجران يُرْسِلُون غلمانَهم إلى ذٰلِكَ السَّاحر يُعَلِّمهم السِّحر.

فبَعثَ إليه الثَّامِرُ ابْنَهُ عَبْدَ اللَّه بْنَ الثَّامر، مع غِلْمَان أهْل نجران، فكان إذا مَرَّ بصاحِب الخَيْمَة أعْجَبَهُ ما يَرَىٰ من صلاته وعبادتِهِ، فجَعَلَ يَجْلِسُ إليه، ويَسْتَمِعُ منه، حتَّىٰ أسْلَمَ، فوَحَّدَ اللَّهَ وعبَدَهُ، وجعلَ يَسْأَلُه عَنْ شرائِعِ الإسلام، حتَّىٰ إذا فَقُهَ فيه جَعَلَ يَسْأَلُهُ عن الاسْم الأَعْظَم، وكان يَعْلَمُهُ، فَكَتَمَهُ إيَّاه، وقال له: يا ابْنَ أخي إنَّكَ لَنْ تَحْمِلَه، أَخْشَىٰ عَلَيْكَ ضَعْفَكَ عنه.

والثَّامِرُ أبو عَبْد اللَّه لا يَظُنُّ إلاَّ أَنَّ ابْنَهُ يختَلِفُ إِلَىٰ السَّاحِرِ، كما يَفْعَلُ الغِلْمانُ، فلمَّا رَأَىٰ عَبْدُ اللَّه أنَّ صاحبَهُ قد ضَنَّ به عنه، وتخوَّفَ ضعْفَهُ فيه[٢]، عَمَدَ إلى أقداح فجمعها، ثُمَّ لَمْ يُبقِ للَّهِ اسْماً يَعْلَمُهُ إلاَّ كَتَبَهُ

---

(١) فَيْمِيُون: راهب تقيٌّ من رهبان النصارىٰ، نقل ابن هشام قصّة قُدُومه من الشّام إلى نجرانَ عن وهب بن مُنَبِّهٍ، قبل ذكر قصّة أهل نجران والساحر.

(٢) أي: ضنّ فَيْمِيُون بأن يُعَلمه اسم الله الأعظم، وخاف أن يضعف في حَمْله، فيَسْتَعْمِلَهُ فيما يجُرُّ له فتنةً وبلاءً.

في قِدْحٍ، ولكلِّ اسْم قِدْحٌ[1]، حتَّىٰ إذا أَحْصَاها أَوْقَدَ لها ناراً، ثُمَّ جَعَلَ يَقْذِفُهَا فِيها قِدْحاً قِدْحاً، حتَّىٰ إِذَا مَرَّ بالاسْمِ الأعظم قَذَفَ فيها بقِدْحِه، فوثَبَ القِدْحُ حتَّىٰ خَرَجَ منها لم تَضُرَّهُ شيئاً، فأَخَذَهُ، ثُمَّ أَتَىٰ بِهِ صاحِبَهُ، فَأَخْبَرَهُ بأنَّه قَدْ عَلِمَ الاسم الذي كَتَمه.

فقال: وما هو؟

قال: هو كذا وكذا.

قال: وكَيْفَ عَلِمْتَه؟

فأخبره بما صنع. قال: أي ابْن أخي قَدْ أَصَبْتَهُ، فَأَمْسِكْ على نَفْسِكَ، وما أَظُنُّ أنْ تفعل.

فجَعَلَ عَبْدُ اللَّه بن الثامر إذا دخل نجرانَ لم يَلْقَ أحداً به ضُرٌّ إلاَّ قال له: يا عَبْدَ اللَّه، أَتُوَحِّدُ اللَّهَ، وتَدْخُلُ في ديني، وأدعُو اللَّهَ فَيُعَافِيك مِمَّا أنت فيه من البلاء؟

فيقول: نعم، فيُوَحِّدُ اللَّه، ويُسْلِمُ، ويَدْعُو له فيُشْفَىٰ. حتَّىٰ لَمْ يَبْقَ بنجران أَحَدٌ به ضُرٌّ إلاَّ أَتَاهُ فاتَّبَعَهُ على أمْرِه، ودَعَا له فعُوفِيَ.

حتَّىٰ رُفِعَ أَمْرُهُ إلى مَلِكِ نَجْران، فَدَعَاهُ، فقال له: أَفْسَدْتَ عَلَيَّ أَهْلَ قَرْيتي، وخالَفْتَ ديني ودين آبائي، لأُمَثِّلَنَّ بِكَ.

قال: لاَ تَقْدِرُ على ذٰلِكَ.

قال: فَجَعَلَ يُرْسِلُ به إلى الجَبَلِ الطَّويل، فَيُطْرَحُ علىٰ رَأْسِهِ، فيقَعُ إلى الأَرْضِ لَيْسَ به بأسٌ.

وجعلَ يبعثُ به إلى مِيَاهٍ بنَجْران، بحُورٍ لاَ يقَعُ فيها شَيْءٌ إلاَّ هَلَكَ، فيُلْقَىٰ فيها، فَيَخْرُجُ لَيْسَ به بأسٌ.

---

(١) القِدْحُ: سهم من خشب.

فلمّا غَلَبَهُ، قال له «عبد اللّه بْنُ الثّامر»: إنَّكَ وَاللَّهِ لَنْ تَقْدِرَ عَلَىٰ قَتْلِي، حَتَّى تُوَحِّدَ اللَّهَ فَتُؤْمِنَ بِمَا آمَنْتُ بِهِ، فإنَّكَ إنْ فَعَلْتَ ذٰلِكَ سُلِّطْتَ عَلَيَّ فَقَتَلْتَني.

قال: فَوَحَّدَ اللَّهَ ذٰلِكَ الْمَلِك، وشَهِدَ شَهَادَة عبد اللّه بن الثَّامِر، ثُمَّ ضَرَبَهُ بعصاً في يَدِهِ فَشَجَّهُ شَجَّةً غَيْرَ كبيرة، فقتله، ثُمَّ هَلَكَ المَلِكُ مكانه.

واسْتَجْمَعَ أهْلُ نجران على دين عبد اللّه بن الثّامر، وكان على ما جاء «عيسَىٰ ابن مريم» من الإنجيل وحُكْمه.

ثُمَّ أصابَهُمْ ما أصابَ أهْلَ دِينهم من الأحداث، فَمِنْ هُنَالِكَ كان أصْلُ النّصرانيّة والله أعلم بذلك وأورد ابن إسحاق بعد هٰذِهِ القصّة ما يلي:

فَسَارَ إلَيْهِمْ ذُو نُواسٍ بجنوده[1]، فَدَعَاهُمْ إلى اليهوديَّةِ، وخيَّرَهم بين ذٰلِكَ والقتل، فاختاروا القَتْل، فخدَّ لَهُمُ الأخْدُود، فحَرَّقَ من حرَّقَ بالنّار، وقَتَلَ بالسَّيْف مَنْ قَتَلَ، ومَثَّلَ به، حتَّىٰ قَتَلَ منهم قريباً من عشرين ألفاً.

قال ابْن إسحاق: ففي ذِي نُواسٍ وجُنْدِهِ تِلْكَ، أَنْزَلَ اللَّهُ تعالىٰ على رسُولِهِ سيّدنا محمد ﷺ:

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾ الآيات.

أقول: هذا التعيين الذي ذكره ابْنُ إسحاقٍ لا دليلَ عليه. والقصّة الّتي رواها عن محمّد بن كَعْبٍ القُرَظِيّ، وعن بَعْضِ أهْلِ نجران، تختلف عن القصّة الواردة في الصحيح عن رسُول اللّه ﷺ في تفصيلاتها، وما صَحَّ عن الرسُول ﷺ أوْلى بالاعتماد، وإنْ لم يكُنْ في شيءٍ منهما دليلٌ على أنّها هيَ المرادةُ فيما جاء في القصّة القرآنيّة.

---

(١) **ذُو نُواس**: آخِرُ مُلُوك حِمْيَرَ، وقد تسَمَّىٰ يُوسف، وكان على دين اليهود.

وعند المؤرخين قصَصٌ أُخرَى، وقَعَتْ في فارس، وفي العراق، وفي بلاد الرُّوم، وفي أرض غَيْرِ ما ذكر ٱبْنُ إسحاق، وغير القصّة التي رواها مسلم والإمام أحْمَدُ عن صُهَيْب عن الرسول ﷺ، وكلُّ واحدة منها تَصْلحُ لأنْ تُطَبَّقَ عَلَيْهَا القِصَّةُ القرآنيَّة.

ولا مانع من اعتبار كلّ الأحداث والوقائع المشابهة داخلة في عموم القصّة القرآنية، فكُلُّ جبابرتها يَنْطَبِقُ عليهم قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾.

* * *

● قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾﴾:

لَفْظُ ﴿ٱلنَّارِ﴾ بَدَلُ اشتمالٍ من الأُخْدُودِ، فَدَلَّ هٰذا علىٰ أنَّ أصْحَابَ الأُخْدُودِ قَدْ أَوْقَدُوا فيه النَّار، فاشْتَمَلَ الأُخْدُودُ على النّار، فَحَسُنَ أنْ يأتي لفظ [النّارِ] بَدَلاً منه، على طريقة بدَلِ الاشتمال، وبدَلُ الاشتمالِ من التعبيراتِ الفنيَّةِ في اللّسان العربيّ.

﴿ذاتِ﴾: بمعنى صاحِبَةٍ، وهِيَ كَلِمَةٌ يُتَوَصَّلُ بها إلى الوَصْفِ بالأجناس.

﴿الوَقُود﴾: هو الحَطَبُ، وكلُّ مادّةٍ تُوقَدُ بها النار.

وُصِفَتْ نَارُ هٰذا الأُخْدُودِ بأنّها ذاتُ الوقود، لتَصْوِير مَشْهَدِ المدَدِ من الوَقُودِ، الّذي جَمَعَهُ أو يجلبُه أصْحَابُ الأُخْدُود، ويَجْعَلُونَهُ قَرِيباً منه، فَهُمْ يُمِدُّونها بالوقود اللاّزم لها، كُلَّما تقاصَرَتْ ألْسِنَةُ لَهَبِهَا.

وفي هٰذا التَّصْوِير إبرازٌ لشناعَةِ عَمَلِهِمْ، وفظاعَتِهِ، وتَنْبِيهٌ علىٰ مَا فِي

قُلُوبِهِمْ من قَسْوَةٍ، وعلىٰ ما في وُجوهِهِم من لُؤْمٍ وغَيْظٍ، وكلاحَةٍ جَهَنَّمِيَّة.

وفي تَعْرِيف الوقود بـ (ال) إشارةٌ إلى كثرته، وتعاظم أكوام الحطب إلى جانب الأُخْدُود، حتَّىٰ كأنَّ كُلَّ الحطب الذي يستطيعون جمعه قد جمعوه.

● قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾﴾:

أي: اذكُرْ شَنَاعَةَ جَرِيمة أصحاب الأخدود إذْ هُمْ على نارهم مُشْرِفُون قُعُود، يَشْهَدُون تحريقَ الذين يُكْرِهُونَهُمْ على تَرْكِ دينهم الحقّ الّذي آمَنُوا به، بمعنى: ضع هذا في ذاكرتك أيّها المتلقّي أيّاً كُنتَ، وتصَوَّرْ مَبْلَغَ بَشاعَةِ هذا المشهد الإجراميّ الشنيع.

فلفظ [إذْ] هنا ظرفٌ للزمان الماضي، وهو معمول لفعلٍ محذوف تقديره: اذكر.

أو هو معمولٌ لفعل [قُتِلَ] والمعنى: طُرِدَ أصحابُ الأُخْدُود طَرْداً أبديّاً لجريمتِهِم الشنيعة الّتي ارتكبوها، في الوقْتِ الذي كانوا فيه قُعُوداً مُشْرِفين على النار، الّتي أوْقَدُوها لتحريقِ المؤمنين والمؤمنات بالدّين الحقّ. فقد بَلَغُوا بجريمتهم البَشِعَة غايَةَ الطغيان، وصارَتْ حالَتُهُمْ النفسيّة بذٰلك حالةً مَيْؤُوساً من توبتهم بَعْدَها، فاسْتَحَقُّوا هذا الطَّرْدَ الأَبَدِيَّ المستلزم للعذاب الأبديّ في نار جهنّم، وقد أدْرَكَتْهُمْ مَنَاياهم دون أنْ يتوبوا.

﴿قُعُودٌ﴾: جمعُ «قاعد»، وقد دلَّ هذا البيان على أنَّ هؤلاء الطّغاة البغاةَ لم يَكْتَفُوا بأمْرِ جُنُودهم بتحريق المؤمِنِين والمؤمنات وهُمْ في قُصُورهم، بل اتَّخذُوا لأنفسهم مجالِسَ قريبةً من الأُخْدُود، ومُشْرِفَةً عليه، ليَسْتَمْتِعُوا بتحريق المؤمنين والمؤمِنَاتِ الّذِين يَرْفُضُون الرّدَّة عن إيمانهم، والعودة إلى الكفر، والاستجابة لأوامر ذَوِي السُّلطان عليهم.

والضميرُ في عبارة [عَلَيْهَا] يعُودُ على النّار، وهو متعلّقٌ بـ [قُعُود]

مقدَّمٌ عليه، رعايةً لرُؤُوسِ الآياتِ، وللتَّنبيهِ على شناعةِ ما فَعَلُوا.

● قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾:

أي: والحالُ أنَّ أصْحَاب الأخدود الآمِرِينَ به حاضِرُون ناظرون شاهدون على ما يَفْعَلُون بالمُؤمنين.

﴿شُهُودٌ﴾: جمع «شاهد» وهو الحاضر وقْتَ الحدَثِ، المُحِسُّ بما يجري فيه.

وفي هذا البيان مُتَابَعَةٌ لتصوِير شناعة ما قاموا به، وتصوير فظاعَتِهِ، للتَّنبيه على حالتهم النفسيَّةِ البالغة غايةَ الإجرام واللُّؤم والخِسَّةَ والكلاحَةِ الجهنميَّة.

إنَّهُمْ يُشاهِدُون من أَمَرُوا بتَحريقهم مُسْتَمْتِعِين، لمجرَّدِ أنَّهُمْ آمَنُوا بربِّهم.

إنَّهُمْ يَسْتَمْتِعُون بتعذيبهم وصُرَاخِهِم وعويلهم وقَتْلِ نسائِهِمْ وأطفالهم، دُون أنْ تَمَسَّ قُلُوبَهُمْ مشاعِرُ رحْمَةٍ أو شفقة، ودون أن يتحرَّكَ وجْدَانُهم باستنكار ما يمارسُونه من ظُلْمٍ وطغيان، وبَغْيٍ وعُدْوان.

● قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾.

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾: فِعْل: «نَقَمَ يَنْقِمُ» مثل: ضَرَبَ يَضْرِبُ، و«نَقِمَ يَنْقَمُ» مثل: تَعِبَ يَتْعَبُ، يأتي بمعنىٰ: عابَ وَذَمَّ، وبِمَعْنَىٰ: كَرِهَ أَشَدَّ الكراهِيَةِ وأَبْغَضَ، ويأتي بمعنىٰ: عاقَبَ. وتَعْدِيَةُ الفِعْل على هٰذِهِ المعاني الثلاثة تأتي بحَرْف الجرّ «مِنْ».

﴿إلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾: أي: إلاَّ أَنْ يُتَابِعَ بعضُهُمْ بعْضاً بالإيمان، فاسْتِعْمال الفعل المضارع الَّذِي يَدُلُّ على التجدُّدِ يُشْعِرُ بحركةِ انتشار الإسلام في القوم

المَنْقُوم عليهم، وهي الحركة الّتي يخشاها ذَوُو السُّلطان، والتي تجعل جماهير شعبهم يَعْمَلُون بمختلفِ الوسائل لتحكيم شَرْعِ اللّه والعَمَلِ به، وهذا يتعارض مع أوامِرِهِم وقراراتهم الّتي يُحَقّقون بها أهواءهم، وإراداتهم الجَبرُوتيّة، لأنّها أوامِرُ وقرارات طاغوتيَّة، دوافِعُها مَصَالح ذوي السلطان وأعوانِهِم وأنصارِهم.

﴿**باللَّهِ العَزِيز الحَمِيد**﴾: العزيز الحميد: اسمان وصْفيان من أسماء اللّه الحسنى.

﴿**العزيز**﴾: أي: ذُو العزّة الكاملة، **والعِزّة**: هي القُدْرَةُ على الْغَلَبَةِ، **فالعزيز**: هو القويُّ المقتدر الغالبُ لكلِّ شَيْء.

﴿**الحميد**﴾: هو الموصوف بجميع الصّفات العليَّةِ السَّنيَّة، الّتي يَحْمَدُه بها الأوَّلُون، والآخِرُون، ويَحْمَدُهُ بها كُلُّ حامد، وهو بهذا المعنىٰ على صيغة «فَعِيلٍ»، بمعنى مَفْعُول، أي: محمود كثيراً.

والحميد أيضاً هو الذي يَحْمَدُ عبادَهُ على ما يكون منهُم من أمُورٍ تَسْتَحِقُّ الحَمْدَ والثناء، وهو بهذا المعنى «فعيل» بمعنى فاعل، أي: كثير الحَمْدِ لعباده المستحقّين للحَمْد، وحَمْدُ اللّه لعباده يستلزم مكافأتَهُمْ على صالحات أعمالهم لأنه جلّ جلالُه جوادٌ كريم.

وفي ذكر هَذين الاسمين (العزيز الحميد) من أسماء اللّه الحسنىٰ، عقب الكلام على أصحاب الأُخْدود وجريمتهم الكبرىٰ، تَنْبِيهٌ على أمْرَيْن:

الأَمْرُ الأول: أنّهُ بِعِزَّتِهِ يَنْتَقِمُ من المجرمين الجبارين، فيُنْزِلُ بهم ما يقتضيه عَدْلُهُ، جلَّ جلاله، وعظم سلطانه.

الأمر الثاني: أنّه بمقتضىٰ كونه محموداً كثيراً بصفاته السنيّة، وحامداً كثيراً لمستحقّي الحَمْدِ من عباده، سَيُثِيبُ عِبادَهُ المؤمنين، الصادقين الصابرين على ما نَالَهُمْ من اضطهادٍ وأذىً وضرٍّ، بأَيْدِي الطغاة البغاة الجبارين، من أجل ثباتهم

على دينهم ابتغاءَ مرضاةِ ربّهم، وسيجعل ثوابهم جَزيلاً وعظيماً.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ﴾: أي: لَهُ وَحْدَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ والأَرْض، لا يُشاركه أحَدٌ في سلطانه على كُلِّ شَيْءٍ، فكلّ شيءٍ سوى الله عزّ وجلّ هوداخل في السماوات والأرض، وهو جلَّ جلاله رَبُّ كُلِّ شيءٍ بالخَلْقِ الدَّائم المتتابع، والخالقُ الرَّبُّ هُو المالِكُ وهُوَ المَلِكُ، وهو المتَصَرِّفُ بكلّ ما يملك، لا منازع له، ولا نِدَّ له، وهو القادر على أن يُهْلِكَ ويُعَذِّبَ بعَدْلِهِ مَنْ يَشاء، ويُثِيب بفضله العظيم مَنْ يَشاء.

﴿واللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد﴾: أي: واللَّه فوق كلّ شيءٍ حاضِرٌ، عَلِيمٌ بكلِّ شيءٍ، خبيرٌ بكلّ شيء.

إذَنْ: فَمَا يَفْعَلُهُ عِبادُهُ الطغاةُ الجبَّارُون، بعباده المؤمنين الصادقين، معلومٌ مشهودٌ له، لا يَعْزُبُ عن علمِهِ مثقالُ ذَرَّةٍ في السَّمَاواتِ ولا في الأرض.

والعليم العزيز الحميد الحكيم لا بُدَّ أن يُعَاقِبَ الظَّالِمِينَ الجبَّارِينَ بعَدْلِهِ، ولا بُدَّ أن يُثِيبَ المؤمنين المتَّقِينَ بفَضْلِهِ.



(٦)
التدبُّر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة

وهو الآيتان (١٠ ـ ١١)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾

تمهيد:

اشتمل الدرس الأوّل من دروس السورة على عرض مثل تاريخيٍّ بَشِع شَنِيع، من أمثلة الطُّغاة البُغَاة المجرمين، الّذِين يتّخذون وسائل جبروتية، لإكراه المؤمنين والمؤمنات على تَرْكِ إيمانهم بربّهم، والعودة إلى الكفر وأنواع الشرك، إنَّه قِصَّةُ أصحاب الأخدود التي اقتضىٰ عَرْضُها بيان الحكم عليهم، بأشدّ أنواع العذاب الأبديّ، لتحذير الذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات عن دينهم، من طغاةِ وجَبابِرَةِ مشركي مكّة إبّان التنزيل، فكلّ الطغاة المعاصرين ثُمَّ الّذين يأتون بعدهم في العصور من كلّ الناس، مغبّةَ وعاقبةَ أفعالِهم الإجراميَّة الشنيعة التي يُكْرِهون بها الناس على تَرْكِ إيمانهم بربّهم الواحد الأحَد، وتَرْكِ العمل بشرائعه وأحكام دينه.

واقتضى هذا التمهيدُ إتباعَهُ ببيان قضيَّةٍ من قَضَايا العَدْلِ الرَّبّاني الّذي يُقابلُه الفضل الرَّبَّانِي.

أمّا العدل الرَّبانيّ فقد أبانه اللّٰه عزّ وجلّ في الآية (١٠).

وأمّا الفضل الرَّبَّانيُّ فقد أبانه اللّٰه عزّ وجلّ في الآية (١١).

اضطهاد طغاة مشركي مكّة للمستضعفين من المؤمنين والمؤمنات:

لقد كان طغاة مشركي مكّة يضطهدون ويعذّبون المستضعفين والمستضعفات من المؤمنين والمؤمنات، لفتنتهم عن دينهم، وإكراههم على أن يَرْتَدُّوا عنه، إلى ما كانوا عليه من شرك.

وقد جاء بيان ذلك في مُدَوَّنات السيرة النبويَّة، وبعض المرْوِيَّات من الأحاديث، ومن ذلك ما يلي:

(١) قال ابن إسحاق، فيما يرويه ابنُ هِشامٍ في السيرة:

«ثم إنّهم (يعني طُغاةَ مشركي مكّة) عَدَوْا على من أسْلَم، واتَّبَع

رسُولَ اللَّه من أصْحَابه، فوثَبَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ علىٰ مَنْ فيها من المسلمين، فجَعَلُوا يَحْبِسُونَهُمْ، ويُعَذِّبُونَهُم بالضَّرْب والجوعِ والعَطَش، وبِرَمْضَاء[1] مكة إذَا اشتدَّ الْحَرُّ، مَنِ اسْتُضْعِفُوا منهم، يَفْتِنُونَهُم عن دينهم، فَمِنْهُمْ مَنْ يُفْتَنُ مِنْ شِدَّةِ البَلاَءِ الّذِي يُصِيبُه، ومِنْهُمْ مَنْ يَصْلُبُ لَهُمْ، ويَعْصِمُهُ اللَّهُ مِنْهُمْ.

وَكان أُمَيَّةُ بنُ خَلَفٍ الجُمَحِيُّ يُخرِج مَوْلاهُ بلال بْنَ رَباحٍ إذا حَمِيَتِ الظَّهيرَةُ، فيَطْرَحُهُ على ظهره في بطحاء[2] مكة، ثمّ يأمُرُ بالصَّخْرَةِ العظيمةِ، فَتُوضَعُ على صَدْرِهِ، ثمّ يقول له: لا واللَّه، لا تَزَال هكذا حتّىٰ تموتَ أو تَكْفُرَ بمحمّد، وتعبُدَ اللاَّتَ والعُزَّىٰ.

فيقولُ وهُوَ في ذٰلِكَ البلاء: أَحَدٌ، أَحَد.

حتّىٰ مَرَّ به أبو بكر الصدّيق رضي اللَّه عنه يوماً، وهُمْ يَصْنَعُونَ ذلك به، فقال لأميّة بْنِ خَلَف:

ألاَ تَتَقِي اللَّهَ في هٰذَا المِسْكِين؟ حتَّىٰ مَتَىٰ؟

قال: أَنْتَ الَّذِي أَفْسَدْتَه، فأَنْقِذْهُ ممّا تَرَىٰ.

فقال أبو بكر: أفْعَلُ، عِنْدِي غُلاَمٌ أسْوَدُ أَجْلَدُ مِنْهُ وأَقْوَىٰ، على دِينِكَ، أُعْطيكَهُ به.

قال: قد قَبِلْتُ.

فقال: هُوَ لَكَ، فَأَعْطاهُ أبو بكر الصدّيقُ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ غُلاَمَهُ ذٰلك، وأَخَذَهُ فأعتقه.

وكانت بنو مخزوم يَخرُجون بعمّار بن ياسر وبأبيه وأُمّه ـ وكانوا أهل

---

(١) الرَّمضاء: شِدَّةُ الحرّ، والأرض أو الحجارة التي حَمِيَتْ من شدّة وَقْعِ أشِعّة الشمس عليها، وفي أمثالهم: «كالمُسْتَجِيرِ من الرَّمضاء بالنّار».

(٢) البَطْحاء: المكان المتّسع يمُرُّ به السّيل فيترك فيه الرَّمْلَ والحصَىٰ.

بيتِ إسلام ـ إذا حَمِيَتِ الظَّهيرة، يُعَذِّبُونَهُم بِرَمْضاءِ مكّة، فيَمُرُّ بهم رسولُ اللَّه ﷺ، فيقول: «صَبْراً آلَ ياسِرٍ، مَوْعِدُكُم الجنَّة».

فأمَّا أُمُّهُ فقتلُوها، وهي تأبَىٰ إلاَّ الإسلام.

وكان أبو جهلٍ الفاسقُ، إذا سَمِعَ بالرَّجُلِ قد أسْلَمَ، إنْ كان له شَرَفٌ ومَنَعَةٌ، أَنَّبَهُ وأَخْزَاهُ، وقال له: تَرَكْتَ دينَ أبيك، وهو خَيْرٌ مِنْكَ، لَنُسَفِّهَنَّ حِلْمَكَ، وَلَنُقَبِّحَنَّ رَأْيَكَ، ولَنَضَعَنَّ شَرَفَكَ. وإنْ كانَ تاجراً قال له: واللَّهِ لَنُكَسِّدَنَّ تِجَارَتَكَ، ولَنُهْلِكَنَّ مَالَكَ. وَإِنْ كان ضَعيفاً ضَرَبَهُ وأَغْرَىٰ به».

(٢) وقال ابن إسحاقٍ أيضاً:

«وحَدَّثَنِي حكيمُ بْنُ جُبَيْرٍ عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْر، قال: قلت لعَبْدِ اللَّه بن عباسٍ: أكانَ المشركون يَبْلُغُونَ من أصحاب رسُول اللَّه ﷺ من العذاب، ما يُعْذَرُون به في تَرْكِ دِينِهِمْ؟؟

قال: نعم واللَّهِ، إنْ كانُوا ليَضرِبُونَ أحَدَهُمْ، ويُجِيعُونَه، ويُعَطِّشونه، حتَّىٰ مَا يَقْدِرُ أنْ يَسْتَوِيَ جالساً، مِنْ شِدَّةِ الضُرِّ الذي نزل به، حتّىٰ يُعْطِيَهُمْ مَا سَأَلُوهُ مِن الفتنةِ، حتَّىٰ يَقُولوا له آللاَّتُ والعُزَّىٰ إلٰهُكَ من دُونِ اللَّهِ؟

فيقولُ: نعم، حتَّىٰ إنَّ الجُعَلَ لَيَمُرُّ بهم، فيقولُون له: أَهٰذا الجُعْلُ إلٰهُكَ من دُون اللَّه؟ فيقولُ: نعم. افْتِدَاءً مِنْهُمْ، ممَّا يَبْلُغُونَ مِنْ جَهْدِهِ.

● قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾.

في هذه الآية وَعِيدٌ مُؤَكَّدٌ مُشَدَّدٌ للّذين يَفْتِنُونَ المؤمنين والمؤمنات عن دينهم بالاضطهاد والتعذيب، من طُغَاةِ الكافرين، في عصر التَّنْزيل، وفي سائر العصور من بَعْدِهِ، بأنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ قد أعْتَدَ لهم عذابين شديدين:

الأوّل: أنواع من العذاب مختلفة في جهنّم، في منازلهم، وفي

مآكلهم، وفي ملابسهم، وفي مشاربهم، وفيما يُسَلَّطُ عليهم من زبانية تَعْذيب، وما يكلّفونه من مشقات، كصُعُود جبالٍ عاليات، شديدات الحرارة، كثيرات العقبات.

الثاني: عذابُ الحريقِ، بمُباشَرَةِ النَّار لأجسادهم الَّتي تَحْتَرِقُ بها، كُلَّما نضجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلَهُمْ اللَّه جُلُوداً غيرها، أَخْذاً من نصٍّ قرآني آخرَ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾:

﴿فَتَنُوا﴾: يُقَالُ لغة: فَتَنَ يَفْتِنُ فَتْناً وفُتُوناً، والاسْمُ منه «الفِتْنَة»، وهي في الأَصْل الصَّهْرُ بالنّار للمَعْدنِ، كالذَّهَبِ والفضّة، لتمييز الرديء من الجيّد.

ثمّ صارت مادّة الكلمة تدُلُّ على مُطْلَق الابْتلاء والامتحان والاختبار.

ومن التوسُّعَاتِ اللُّغَوِيَّةِ في دلالة هذه المادّة إطلاَقُهَا على الإحراقِ بالنّار، أو التعذيب بها، عقاباً، أو انتقاماً، أو عُدْواناً وظُلْماً، ويَسْقُطُ معنى الاختبار حينئذٍ.

ومن التوسُّعَات اللّغوية، إطلاق الفتنة على الإغْرَاء والإغواء، وعلى الإكراه بأنواعٍ من التعذيب للاستجابة لما يطلبُهُ المُكْرِهُ، وتُطْلَقُ أيضاً على الاستجابة، إلى غير ذلك من توسُّعَات.

وظاهر أنَّ المرادَ هنا بفِعْل: [فَتَنُوا] أنَّ الطُّغَاةَ الجبابرة اتَّخَذُوا الوسائل الإكْرَاهِيَّةَ الضَّاغطة، ومنها التعذيبُ الجسديُّ لجَعْلِ المؤمنين والمؤمنات يرتَدُّون عن دينهم.

﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾: في العطف بحرف العطف «ثُمَّ» دلاَلَةٌ على أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ مَنَحَ السَّابقين فرصَةَ إمْهَالٍ متراخية ليَتُوبُوا، على الرُّغم من فعْلَتِهِم الشّنيعة، وجريمتهم الكبرى، لاحتمال أن يكونوا قد ارتكبُوا جرائمهم في

حالةِ ثَوْرَةٍ غَضَبِيَّةٍ طار بها صوابُهم، وفقدوا بها رُشْدَهم، فإذا هدأت نفوسُهم بعد ذلك نَدِمُوا وتَابُوا.

وكذلك يَفْعَلُ اللَّهُ في أمثالهم الّذين سيأتون مُسْتَقْبلاً، فَسُنَّةُ اللَّه في عباده واحدة، وفي هذا إطماع من اللَّه لهم بأن يتوبوا قبل أن يُنْزِلَ بهم العذاب.

يقال لغةً: تَابَ يَتُوبُ تَوْباً وتَوْبَةً ومَتَاباً، إذا رَجَعَ عن المعصية، فهو تائب، وإذا كان كثير المتَاب فهو تَوَّاب.

﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾: جاءت «الفاء» في خبر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا﴾ للإشعار بأنّ الكلام هو بقُوَّة الشرط وجوابه، أي: مَنْ فَتَنَ فلَهُ هذا العذاب، وبهذا يَكُونُ أسْلُوبُ الكلام من صيغ العموم، الدَّالّ على أنّ هذا القضاء المُبْرَمَ، هو من سُنَنِ اللَّهِ الدائمة في عباده.

﴿جَهَنَّم﴾: اسم علَمٌ من أسماء دار العذاب الّتي أعدّها اللَّه عزّ وجلّ ليعذّب بها الكافرين والعاصين يوم الدّين، وهو مَمْنُوعٌ من الصرف للعلميّة والتأنيث، ويقال للقعر البعيد جَهَنَّم، وَجِهِنَّام، وبئرُ جَهَنَّم وجِهِنَّام، أي: بعيدة القعر.

أمّا عذابُ جَهَنَّم فهو أنواع كثيرة، كما سَبَقَ بيانه، وهذه الأنواع منها ما هو أخفّ من الحريق، وقد يُعَذَّب بها العُصَاةُ على دركاتهم.

وأمّا عذابُ الحَرِيق فهو خاصٌّ يُعَذَّبُ بِهِ كبارُ المجرمين، دلَّ على هذا قول اللَّه عَزَّ وجلَّ:

﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الحَرِيقِ﴾: هذه الجملَةُ تُشْعِرُ بأنَّ المراد بعذاب جهنَّم أنواعٌ من العذاب دون عذاب الحريق، فهو إمَّا من عطف الخاصّ على العامّ، أو من عطف المغاير على المغاير، ويكون عذاب جهنّم من العام الذي أريد به خاصّ، بقرينة عطف عذاب الحريق عليه، وهذا ما أرجّحه،

فكثير من العمومات القرآنيَّة محمولة على إرادة ما هو خاصٌّ بأدلّة من القرائن أو من نصوص أخرى.

قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾.

في هٰذه الآية وَعْدٌ مؤكَّدٌ مشَدَّدٌ للّذِين آمَنُوا بربّهم وبرسوله، وبما جاء به الرّسُول ﷺ عن رَبِّهِ، ومِنْهُ القرآن المجيد، وعملوا الصالحات، بأنّ اللَّهَ عزّ وجلّ قد أعَدَّ لَهُم جَنَّاتٍ جليلات عظيمات تجري من تحتها الأَنْهَار.

وقد جاء هذا الوعد الكريم عقب الوعيد الّذي اشتملت عليه الآية (١٠)، ومن سنّة اللَّه في القرآن أن يجعل الوعد والوعيد مقترنين، فإذا اقتضت السّوابق ذكر الوعيد، جاء عقبه الوعد، وإذا اقتضت ذكر الوعد جاء عقبه الوعيد، إيثاراً للعلاج التّربويّ المزدوج، القائم على إثارة مِحْوَرَيْ الخوف والطمع في النّفس الإنسانيّة، بعد الإقناع بالحق، والهداية المنطقيّة للّتي هي أقْوَمُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: أي: إنّ الّذين عَلِمُوا وَصَدَّقُوا واعْتَرَفُوا بقلوبهم بإرادة صادقة، مُخْلِصَةٍ للَّه عزّ وجلّ، بكُلّ أرْكان الإيمان الَّتي جاء بها الإسلام، دُون نقضٍ لأيِّ عُنْصُرٍ حَقٍّ من عناصِرِها، وقد عَلِمْنَا أنّ كُلّ ما ثَبَتَ عن الرَّسُول ﷺ بيقينٍ فهو حقٌّ يجب الإيمانُ به، وإنكارُه كُفْرٌ.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالحات﴾: أي: وبَرْهَنُوا على صِدْقِ إيمانهم بأعْمالٍ صالحاتٍ فيها مرضاةٌ للَّه عزّ وجلّ، ودلّت النصوصُ القرآنيّةُ الكثيرة على أنّ (ال) في الصالحات هُنا ليس المراد بها استغراق كُلّ الصالحات الّتي أمَرَ اللَّهُ بها عبادَهُ المؤمنين، بل ما يَدُلُّ منها على صِدْقِ الإيمان، فنقول: (ال) هنا جِنْسِيَّة. والمراد بها جنس الصالحات، فيكفي لاستحقاق دخول الجنَّةِ ولو بَعْدَ التطهير بالعذاب، أن تَكْسَبَ النَّفْسُ في إيمانها الصحيح الصادق خيراً.

﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾: أي: أُعِدَّتْ لهم بفضل اللَّه العظيم جنَّاتٌ.

الجنَّة: ما يحتوي على أشجار وثمارٍ وزُرُوع، وقد تحتوي مع ذلك علىٰ أنهار وقصورٍ، وكلّ ما يُمْتِع النفس والحواسّ.

ودار النعيم يوم الدين فيها جنّاتٌ متعدّداتٌ باعتبار أقسامها، ويجمعها جميعاً اسم جَنَّة، ولدى ملاحظة أقسامها، ومنازلها المتفاضلات، بحسب أحوال عباد اللَّه المؤمنين المتفاضلة، فهي إذَنْ جنَّات.

﴿تَجْرِي من تَحْتِهَا الأَنْهَار﴾: أي تجري من تحت فروع أشجارها وما فيها من ثمرات، ومن تحت قصورها، وأسِرَّتِهَا وآرائكها، ومجالِسِ المُنَعَّمِين فيها، أنهارٌ مُتَنَوِّعَة، فمنها أنهارٌ من ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وأنْهَارٌ من لَبَنٍ لم يتغيَّرْ طَعْمُه، وأنْهَارٌ من خَمْرٍ لَذَّةٍ للشَّاربين، وأنهارٌ من عَسَلٍ مُصَفًّىٰ، كما وَصَفَ اللَّه عزّ وجلّ في سورة (محمد/٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ... (١٥)﴾.

﴿مَثَلُ الجنة﴾: أي: وَصْفُ الجنّة.

﴿مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾: أي: من ماء غير متغيّر الطعم بما خالَطَهُ ممّا يُفْسِدُه، يُقَالُ لُغَةً: أَسَنَ الماءُ يَأْسُنُ أَسْناً وأُسُوناً، إذا تغيَّر طعمه بالمنتناتِ فهو لا يُشْرَبُ.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ (١١)﴾:

﴿الفَوْزُ﴾: يأتي بمعنى الظفر، والنجاة من الشرّ، والرِّبح، يقال لغة: فَازَ يَفُوزُ فَوْزاً ومَفَازاً ومَفَازَة.

وأيُّ فَوْزٍ أعظم وأكبر من النجاة من عذاب اللَّه يَوْم الدِّين، وأيُّ ظَفَرٍ أعْظَمُ من الظفر بجنّاتِ النعيم.

وفي الإشارة إلى أنَّ هٰذا الفوز فَوْزٌ رَفِيعُ المنزلة عظيم، اختير في النّصّ الإشارَةُ إليه باسْم الإشارة الذي يستعمل للبَعِيدِ، والمرادُ هُنَا بُعْدُ مَنْزِلَتِهِ في جهة الارتفاع، فقال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾:

أي: فهو عالي المنزلة جدّاً، وهو الكبير أيضاً، فجَمَعَ هذا الفوز وَصْفَيْنِ جَلِيلَيْن: عُلُوَّ المنزلة، وكِبَرَ الذَّاتِ وعِظَمَهَا.

هذا الفوز الكبير أعَدَّهُ اللّهُ عزّ وجلّ للّذين آمنوا وعَمِلُوا الصّالحات، فجَمَعُوا بَيْنَ الإيمان القلبيّ الصادق الصحيح، وبَيْنَ العمل الصالح، وقد دلَّتْ النصوصُ المختلفةُ على أنَّ العَمَل الصَّالح هو المظهر السُّلوكي السَّوِيُّ للإيمان المُسْتَقِرِّ في القَلْب.

(٧)
التدبُّر التحليليّ للدَّرس الثالث من دروس السورة

وهو الآيات من (١٢ ـ ١٦)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

● قرأ جمهور القرَّاء العشرة: [المَجِيدُ] بالرَّفع صفة للّه عزّ وجلّ، الذي هو الغفور الودودُ ذو العَرْش.

وقرأ حمزة، والكسائِيُّ، وخَلَف: [المَجِيدِ] بالجرّ، صفَةً لِلْعَرْش.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، فاللّه هو المجيد، والعَرْشُ مخلوقٌ مجيدٌ عظيم من مخلوقات اللّه العظمى.

المجيد: صيغة تكثير ومُبالَغةٍ للماجد، مأخُوذٌ من المَجْدِ، وهُوَ بُلوغُ غايةِ الشَّرف، ونهاية الكَرَم.

تمهيد:

إنّ الوعيد بعذابٍ في جهنّم، والوَعْدَ الكَرِيم بجنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار، يوم الدّين، اللَّذَيْن اشتملَتْ عليهما آيتا الدرس الثاني من دروس السورة، يَسْتَدْعيان تأْسِيسَ أو تأكيدَ طائفةٍ من صفاتِ اللَّه عزّ وجلّ، لربط كلٍّ من الوعيد والوَعْدِ بالقاعدة الإيمانيّة وعناصرها ممّا يتّصِلُ باللَّه عزّ وجلّ، وصِفاتِه وأسمائه الحسنى.

فالوعيد العادل بعذابٍ يوم الدين، يَسْتَدْعي بيان أنّ بطش اللَّه شديد، وأنَّه هو الذي يُبْدِئ الخَلْقَ ثم يُعيدُه بحكمته، وقدرته، وكمال علمه، للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء.

والوَعْدُ الكريم بالفضل يَسْتَدْعي بيان أنَّ اللَّه جلَّ جلالُهُ هو الغفور لذنوب المؤمنين، وهو الودود الذي يمنحهم بودِّه لهم فُيُوض عطاءاته التي لا تنقطع في جنّات النعيم.

وذكر الجنّات العظيمات الموعود بها، وهي من أمور الغيب عن العباد في الحياة الدنيا، يحْسُنُ معه ذكر العرش العظيم، الّذي هو فوق السماوات السبع، ولا يستَبْعِدُ وُجُودَهُ راصِدُو المجرّات العظيمات البعيدات في السّماوات.

وكلٌّ من الوعيد بالعدل والوَعْدِ بالفضل يَسْتَدْعي بيان أنّ اللَّه عزّ وجلّ فعَّالٌ لما يُرِيد، وقد عُلِمَ من سائر النّصوص أنَّ إرادته سُبْحانه وتعالىٰ لا تفارقُ حكمته، فكُلُّ مُراداته جلَّ جلالُهُ حكيمة.

❀ ❀ ❀

● قول اللّه تعالىٰ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢﴾.

هذا خطابٌ موجَّهٌ بصورةٍ إفراديَّةٍ لكُلِّ مكلَّفٍ مأمُورٍ بالإيمان والعمل الصالح ممَّنْ يَفْهَمُ الخطاب، لتحذيره من بطش اللّه عزّ وجلّ المعجَّلِ والمؤجَّل إلى يوم الدين.

البَطْش: هو التناوُلُ والأَخْذُ بشِدَّةٍ لأيِّ شَيْء، والأَخْذُ القويُّ الشديد، والسَّطْوُ في سُرْعَةٍ وقُوَّة.

فإن كان للإمْسَاك بالشيء، كانت الشدّة في القبض عليه.

وإن كان لقتله بيدٍ أو سَيْفٍ أو غير ذلك، كان البطش بشدّة وسطوة وعُنْف.

وإن كان لمعاقبته كان المعاقَبُ عاجزاً عن الإفلات.

تقول لغة: بطَشَ يَبْطُشُ ويَبْطِشُ بَطْشاً.

وقد وصَفَ اللّهُ بَطْشَهُ بأنَّهُ شديد، للدّلالة على أنّ أخذه للظالمين أخْذٌ لا يُمْكن الإفلاتُ منه.

وفي ذِكْر اسم «ربّ» من أسماء اللّه تَنْبِيهٌ على سلطانِه التامّ على عباده المربُوبين له في كلّ وَحْدَةٍ زمنيَّةٍ مهما كانت صغيرة طوال وجودهم في الكون، فاللّه رَبُّ كلّ شيءٍ وجوداً وبقاءً وإعداماً.

● قول اللّه تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ١٣﴾:

أي: إنَّ رَبَّكَ هو وَحْدَهُ يُبْدِئُ خَلْقَ الخَلْقِ، ثم إذا جاء أجَلُ ما خَلَقَ أنْهَىٰ صُورَته، وأفْنَىٰ مادّته، ثُمَّ يُعِيدُهُ مرَّةً أخرىٰ إذا شاء.

وقد علمنا أنّ الغايةَ من إعادة خلق النّاس تَحْقِيقُ قانون الجزاء بالعدل أو بالفضل على ما كان في حياة الامتحان ضمن ظروف الحياة الدنيا.

﴿يُبْدِئُ﴾: تقولُ لغة: أبْدَأْتُ الشَّيْءَ وبَدَأْتُه، واختير في الآية فِعْل: [يُبْدِئ] دون فعل «يَبْدأ» ليَتَّسِقَ في التَّوازن اللّفظي مع [يُعِيدُ] فهذا من الجماليات اللّفظِيَّة.

ولمّا قَضَتْ حكمةُ اللَّه عزّ وجلّ بأنْ تكون الحياة الدنيا حتى آخر لحظة من حياة الإنسان فيها حيَاةَ امتحان، لَزِم أنْ يكون برنامج الخَلْقِ مُشْتَمِلاً على حياةٍ أخرى يكون فيها تحقيق الجزاء، بعد الحساب وفصْل القضاء، وهذا لا يكون إلاّ بالإعادة إلى الحياة بعد الموت.

ولمّا كان إنكار المشركين لليَوْمِ الآخر قائماً على توهُّم صُعُوبة إعادة الموتَى إلى الحياة بعد فناء أجسادهم، كانَ من الحكمة البيانيَّةِ التَّعْلِيميَّةِ والتربويّة عَرْضُ قضيَّتَيْ بَدْءِ الخَلْقِ وإعادتِهِ على مستوىً واحدٍ من التكافؤ، فالخالِق الذي بدأ الخَلْقَ على غَيْرِ مثالٍ سَبَقَ، قادرٌ على أن يُعِيدَه بَعْدَ أن يُميتَه ويُفْني جسده.

وقد جاء البيان عَرْضاً دافعاً لأَوْهامٍ قَدْ تَدُورُ في نُفُوس المشركين، قَبْلَ أن تنطلق أَلْسِنَتُهُم بطَرْح شُبُهاتِهم وجَدَليَّاتهم حَوْلَ هذا الأمر، كقولِ قائِلِهم فيما بَعْدُ: «مَنْ يُحْيِي العظامَ وهي رَمِيمٌ؟».

● قول اللَّه تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾:

في بيان أنَّ اللَّهَ هو الغفُور، إطْماعٌ للمذنبين من عباده بأنَّه كثير المغفرة وعَظِيمُها، فهو يَغْفِرُ لِمَنْ آمَنَ به حقّاً، ودَعَاه أن يَغْفِرَ ذُنُوبه، وفيه إشارةٌ إلى أنّ كُلَّ عَبْدٍ من عباد اللَّه سيرتكِبُ بعض الذنوب والخطايا حَتْماً، فهو بحاجةٍ إلى أن يَغْفِرَ اللَّه له، مَهْمَا تسامَتْ منزلته في درجات التقوى، فالبرِّ فالإِحْسَانِ، ومَهْمَا انْضَبَطَتْ استقامتُه على صراط اللَّه العزيز الحميد.

﴿الغفُور﴾: صيغةٌ من صِيَغ التكثير والمبالغة، والغَافِرُ في اللّغة هو الساتِر، والمغفرةُ والغفران السَّتْر.

تقول لغة: غَفَرَ يَغْفِرُ غَفْراً وغُفْرَاناً ومَغْفِرَةَ الشَّيْءَ، أي: سَتَرَه.

فاسم اللَّه «الغفُور» يَدُلُّ على أنَّهُ جلَّ جلالُهُ كَثِيرُ السَّتْرِ لذنوب عباده، ومن لوازن هذا السَّتْر تجاوزُه عن الذنوب، وصيانة المذنب عمّا استحَقَّ من العذاب عليها، إذا اقتضت حكمته ورحمته ذلك.

﴿الوَدُودُ﴾: صيغةٌ من صِيَغ التكثير والمبالغة، واسْم الفاعل «وادّ» من فعل: «وَدَّهُ، يَوَدُّه، وُدّاً، بتثليث الواو، ووِداداً، بتثليث الواو أيضاً، ووَدَادةً ومَوَدَّة».

الوُدُّ: نوع من الحبّ الهادئ الثابت الذي يكون بين الأصحاب والإخوان وذوي العلاقات القويَّة، ولا يُطْلَقُ على المشبوب بالعواطف الثائرة، بخلاف الحبّ فهو لفظ عامٌّ يشْمَلُ كلّ الأنواع ومنها الودّ.

فاسم اللَّه «الوَدُود» يَدُلُّ على أنَّهُ جلّ جلاله كثير الودّ للذين يتقرَّبون إليه بما يحبُّ من صِدْقِ إيمان، وحُسْنِ خُلُقٍ، وفضائل أعمال.

والّذين آمنوا وعملوا الصالحات سيُكَافِئُهُمُ اللّهُ، فيَجْعَل لَهُمْ في قلوب عباده الصالحين في الدنيا وُدّاً، مهما لاقَوْا من الكَفَرَةِ والمشركين من كراهيَةٍ وعِداء، قال اللَّه عزّ وجلّ في سورة (مريم/١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾.

وَوُدُّ اللَّهِ عزَّ وجلَّ لعَبْدِهِ شيءٌ عظيمٌ جداً، ينالُ به العَبْدُ من ربِّه فُيُوضَ رحَمَاتٍ وخيراتٍ وسَعَاداتٍ ومَعُونات.

وقد أبانت آياتٌ كثيراتٌ مُفْردات الأعمالِ الصالحة الّتي بها يُحبُّ اللَّهُ عباده، منها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ـ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ـ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ـ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ـ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ـ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ـ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾.

ويفيد التعريف بـ «ال» لاسمَيْ «الغفور» و«الوَدُود» أنّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ هو الذي له الكمالُ الأعلى من هٰذين الاسْمَيْن، فهو المتفرّدُ في هذا الكمال، حتَّىٰ كأنَّهُ لا غَفُورَ ولا وَدُودَ غَيْرُه.

● قول اللّٰه تعالىٰ: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾:

أي: وهو جلّ جَلاَلُهُ صاحب العرش، الخالق له، والممسك له بالوجود، والمُهيمن عليه بلسطان ربُوبيَّتِهِ، أفلا يكون بطشُهُ شديداً؟؟ أفلا يكونُ قَدِيراً على أن يجعل عبادَهُ الذين آمنوا، وعملوا الصَّالحات، مُنَعَّمِين أبداً في جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار.

﴿العرش﴾: مَخْلُوقٌ للّٰهِ عظيم، لا يُقْدَرُ قَدْرُه، فوقَ كلّ السَّماواتِ السَّبْع وأعظم منها، وهو الذي استوى عليه الرحمٰن، والكرسيُّ دونه، ورُوِي عن ابْنِ عبَّاسٍ أنّ الكرسيّ موضع القدمين.

﴿المَجِيدُ﴾: هذا اسم من أسماء اللّٰه الحسنى، وهو صيغة مبالغة للماجد، مأخوذٌ من المجد، وهو بلوغُ غاية الشَّرف، ونهاية الكرم. وهو من الأسماء الجامعة الدّالّة على أنّ لِلّٰه جلَّ جلالُه كَمَالَ الصِّفات العلِيَّة، والأسماء السَّنِيَّة.

● قول اللّٰه تعالىٰ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾:

أي: كُلُّ ما يُرِيدُ اللّٰه فهو فعَّالٌ له، مهما كان جليلاً وعظيماً.

﴿فَعَّالٌ﴾: صيغة تكثيرٍ ومبالغة لصيغة «فاعل». والغرض من المبالغة تأكيد الدَّلاَلَة على أنه يَفْعَلُ ما يُرِيد، بكلّ دقائقه الصُّغْرَى وتفاصيله، وأنَّه يَفْعَلُ ما يُرِيد مهما عظم المُرَاد وجلَّ، لا رَادَّ لقضائه، ولا مُوقِفَ لِفعْلِهِ، ولا يتعَرَّضُ تنفيذه لأي تَقْصِير عن أيَّةِ جُزْئِيَّة من جزئياته. وقد جاء في القرآن بيان أنه إذا أراد شيئاً فإنَّما يقولُ له: كُنْ فيكون.

وقد علمنا من جَمْعِ النُّصُوصِ وبالدّليل العقليّ أنَّ إرادات اللّٰه لا تُفارِقُ حِكْمَتَهُ وعِلْمه الشامل.

(٨)
التدبُّر التحليليُّ للدرس الرابع من دروس السّورة

وهو الآيتان (١٧ ـ ١٨)

قال اللَّه عزّ وجلّ:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾.

تمهيد:

إنَّ ما جاء في الدروس السابقة من دروس السورة من بيان قانون الجزاء الربَّانيّ، وبيان أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ ذُو بطشٍ شديد، إذا شاء أن يُعَاقِبَ الظالمين المجرمين، يُناسبُهُ تقديم شاهد تاريخيٍّ من وقائع التاريخ، وأحْداثه العظيمة ذَاتِ الآثار الباقية، ليُبَيِّن ما أَنْزَل اللَّه من إهلاك شامل، ببعض عباده المجرمين، عقاباً مُعَجّلاً وعذاباً أَدْنىٰ، دُونَ العذاب الأكبر الذي سوف يلاقونه يَوْمَ الدّين، فمن كان له عقْلٌ يُدْركُ به سُنَنَ اللَّه بِعِبَادِهِ خاف عقاب اللَّه، وآمَنَ واستقام وعمل صالحاً.

وقد جاء في هذا الدرس الرابع بيانُ الشاهد المناسب، بالإشارة الخفيفة إلى إهلاك اللَّه عزّ وجلّ فرعون وجنودَه، الذين كفروا بموسى وهارون عليهما السلام، وجحدُوا بما جاءا به من آيات، وتابَعُوا بني إسرائيل الخارجين من مصر، لقتل من يقتلونه منهم، واستعادة من يأسرونه منهم للعبوديّة، وإلى إهْلَاكِ اللَّه عزّ وجلّ ثمودَ قَوْمَ النبيّ الرّسول صالح عليه السلام، عقاباً لهم على كفرهم وعنادهم، وإصرارهم على جرائمهم، وقتلهم ناقَة اللَّه التي جعلها اللَّه آيةً لهم على وفق طلبهم، وحذّرَهُمْ رسُولهم من التعرُّض لها بسوء.

● قول اللَّه تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾:

التوجيه المختار هنا في الخطاب، هو خطابُ كلِّ فَرْدٍ صالحٍ

للخطاب، بصُورَةٍ إفرادية، للتَّشْديد عليه في تَحْمِيله المسؤوليّة، فهو أبْلَغُ في الدلالة على هذا التشديد مِنْ خِطَابِهِ ضمن الجماعة.

وجَاءَ على طريقة الاستفهام، لانتزاع الجواب بكلمة «نَعَمْ» من المخاطب، فهذا أوقع في النفس من مُجَرَّدِ التذكير بالخَبَرِ، الذي سبق التذكير به فيما كان قد نزل من نجوم تنزيل القرآن، وهو من الأحداث المتواترة المعروفة في التاريخ لدى العَرَبْ المخاطبين الأوّلِين بآياتِ القرآن.

فقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾ يتضمَّنُ معنى الإحالة على ما سَبَقَ أن أنزل اللّه بشأنهم في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول) ليَسْتَحْضِر المخاطبُ صورة بَطْشِ اللّه عزّ وجلّ بهم، المبيَّنِ فيها، وفي سُورَة (الشمس) أيضاً.

واقتصَرَ البيانُ في سورة (البروج) على تَوْجيه نظر المخاطب لفِرْعون وثمود، دون عادٍ الذين ذُكِرُوا معهما في سورة (الفجر).

والحكمة الّتي تظهر لي في هذا الاقتصار، أنَّ الَّذين يَفْتِنُون المؤمنين والمؤمنات، من كفّار قريش، الّذين نَزَلَتْ سورة (البروج) لمعالجتهم، فريقان:

- فريقٌ تُشْبهُ حالهم حال فرعون وجنوده.
- وفريقٌ آخر تُشْبهُ حالهم حال أشقياء ثمود وطغاتهم.

وقد ورد في وصف بعض جبابرة مشركي مكّة، بأنه فرعون هذه الأمّة، ففي أحداث غزوة بدر الكبرىٰ، رُوي أنّ الرسول ﷺ قالَ بشأن أبي جَهْلٍ: «هذا فِرْعَوْنُ هٰذِهِ الأُمَّة».

ومن الملاحظ أنّ اللّه عزّ وجلّ حين يذكر الكَفَرَة الّذين أُهْلِكُوا في مصر أيام موسى وهارون عليهما السّلام، يَذْكُرُ «فرعون». وهذا يَدُلُّ على

أنّ فرعون قد كان كلّ شيءٍ في قومه، فالرأيُ رأيه، والأمْرُ أَمْرُهُ، وهم جميعاً تابعون له ومطيعون؛ إذ هو «الديكتاتور» المُسْتَبِدّ، الّذي اتخذ نَفْسَه رَبّاً عليهم، ولهذا جاء في النصّ: ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝١٨﴾ بَدَلاً من لفظ ﴿الْجُنُودِ﴾ والْجُنودُ جَمْعُ «جُنْدٍ».

وبهذا ظهر لنا أنّ التذكير بما فعل اللَّهُ بفرعَوْن وثمودَ، وكيف صَبَّ اللَّهُ عليهم سَوْطَ عَذاب بسبب طُغْيانهم وعدوانهم، تذكيرٌ بشاهد تاريخيّ واقعيٍّ لمَضْمُونِ قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (البروج): ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢﴾.

فَمِنْ شِدَّتِهِ أنَّهُ أَغْرَقَ فرعون وجُنُودَهُ جميعاً، لم يُبْقِ منهم أحداً، ومن شدَّتِهِ أنَّهُ أَهْلَكَ كُفَّارَ ثَمُودَ جميعاً، فلم يُبْقِ مِنْهُم أحداً.

فمن عَقَلَ اتَّعَظَ وآمَن، واسْتَقَامَ على صراط اللَّه العزيز الحميد، خوفاً من بَطْش اللَّه الشديد.



(٩)
التدبّر التحليلي للدرس الخامس من دروس السّورة

وهو الآيات من (١٩ ـ ٢٢)

قال اللَّه عزّ وجلّ:

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ۝١٩ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ۝٢٠ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢﴾.

﴿بَلْ﴾: حرفُ ابتداءٍ في الموضعين، ومعناهُ الإضراب، والغرضُ منه إبطالُ شُبهة أنّ الكافرين المتحدَّث عنهم في السورة، والذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات عن دينهم لهم عُذْرٌ في تكذيبهم الرّسُول محمّداً ﷺ

في نبوّته ورسالته، ولهم عُذْرٌ في تكذيبهم بالقرآنِ، على اعتبار أنَّهُ غَيْرُ مُنَزَّلٍ من عِنْدِ اللَّهِ على رسوله.

هٰذِهِ الشُّبْهةُ لَمْ يَأْتِها في سوابق آيات السُّورَةِ ما يُشيرُ إليها، لكن استعمال ﴿بَلِ﴾ الابتدائية، الّتي من معانيها إبطالُ أمْرٍ سابق، والأمْرُ السَّابقُ هُنَا خواطِرُ وأسئلة يَسْتَدْعيها قول اللَّه عزّ وجلّ في السورة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾.

ومضمونُ هذه الأسئلة التي قَدْ تتحدَّثُ بها الخواطِرُ، يمكن التعبير عنه بما يلي:

ألاَ يَحْتَمِلُ أنْ يكون هؤلاء الذين فَتَنُوا المؤمنينَ والمؤمناتِ مَعْذُورين بما فَعَلُوا باعْتِبَارِ أنَّ الحقَّ لم يَظْهَرْ لهم؟؟

فجاء الإضراب الإبطاليّ بكلمة ﴿بَلِ﴾ الابتدائية، لرَدّ هذا الاحتمال، الذي قد يَخْطُر في البال، ويُوجَّهُ به سؤال.

والمعنى: ليس لهم عُذْرٌ فيما فَعَلُوا، بَلْ هُمْ غارِقُونَ في تَكْذِيبٍ للحَقّ، ولَيْسَ لهم شبهاتٌ تَجْعَلُ لهم عُذراً فيما يقومون به من تعذيب لضعفاء المؤمنين والمؤمنات، لإكراههم على الرّدّة عن الدّين الحقّ الذي آمنوا به، على أنّ الدّين لا يُقْبَلُ عقلاً أن يكون فيه إكراه، ولو كانَ إكْراهاً من أجْلِ الإيمان بدين اللَّه الحقّ، فكيف إذا كان إكراهاً للكُفْرِ به، وللإيمان بالباطل.

﴿في تَكْذِيبٍ﴾: أيْ: مُحَاطُون مِنْ كُلّ جوانِبِ نفوسهم وأفْكارهم وقُلوبهم بتَكْذِيب، والمعنى: ما عِنْدَهُمْ حُجَّةٌ يَحْتَجُّون بها، إلاَّ أن يقولُوا للحقّ لمَّا جاءَهُمْ: هٰذا كَذِبٌ، فَهُمْ يُكَذِّبُونَ به دُونَ أيّة حجّة.

ومثل المكذّبين من مشركي مكّة في عَصْرِ التنزيل الكفرة في أيّامنا هذه التي نَعِيشُها.

فإذا قِيل لَهُمْ: هٰذا رَسُولُ اللَّهِ، وشَاهِدُهُ المعجزة البرهانيّة، قالُوا: هٰذَا كَذِبٌ، وهُوَ كَذَّابٌ لَيْسَ بنبيٍّ ولاَ رَسُول.

وإذا ذُكِرَتْ لَهُمْ: قِصَّةُ أَصْحَابِ الفيل، لم تكن لَدَيْهم حُجَّةٌ يَحْتَجُونَ بها إلاَّ أَنْ يَقُولُوا: أَسْطُورَةٌ من أَسَاطير الكذب.

وإذا قيل لهم: هٰذا القرآنُ يَنْطِقُ بالحقِّ، وفيه البيانات المطابقات للحقائق العلميَّة الّتي لم يَعْرِفْها الناسُ إلاَّ بَعْدَ ثلاثَة عشر قرناً، أو أكثرَ، لم تَكُنْ لَدَيْهِمْ حُجَّةٌ يَحْتَجُونَ بها إلاَّ أنْ يُكَذِّبُوا.

فالمُحَاطُ بالتكذيب من كلّ جوانبِهِ ليس لديه إلاَّ أَنْ يقُولَ عَنْ أيِّ أمْرٍ حقٍّ، هٰذا كَذِب، إذِ التكذيبُ لا يُكَلِّفُ المُنْكِرَ الجاحد من التفكير شيئاً، ويَهُونُ عليه أن يقول دون تفكير، ولا إجهادِ ذِهْني هٰذا كَذِبٌ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ١٩﴾.

وإذا كانوا غارقين في حمأة التكذيب، وساهين لاهين في أوهام أفكارهم المضطربة، وضلالتهم عن الحق، فاللَّه من وراء دائرة تحرُّكاتِهِمْ في الحياة محيط، لا يستطيع أحَدٌ منهم أن يفلتَ من بطشِ اللَّه به، وعقابه له متى شاء أن يحقِّق عدله فيهم.

● قول اللَّه تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠﴾:

أي: وبما أنّ الّذِين كفروا مُحَاطُون من كلّ جوانبهم بالتكذيب الذي هم منغمسون فيه، فإنَّهم يَفْعَلُونَ ما يَفْعَلُونَ من طُغيان وتعذيبِ للمؤمنين والمؤمنات بغية فِتْنَتِهِمْ عن دينهم، دون أن يَشْعُرُوا بخوفِ من عقاب اللَّهِ عزَّ وجلَّ، ودون أن يُحِسُّوا بوخزِ في ضمائرهم ووجْدَاناتهم.

لكِنْ: هل هم مَتْرُوكُونَ، أو مُفْلِتُونَ مِنْ عذَاب اللَّهِ العَزِيزِ الجبَّارِ القَهَّارِ؟

الجواب: إنَّهم غير متروكين، وغَيْرُ مُفْلِتِين من عذاب اللَّه وانتقامه، لأَنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ بقوَّتِهِ، وقُدْرَتِهِ، وسُلْطانه، وعِلْمِهِ، من وَرَاءِ كُلِّ شيءٍ فيهم، وكلِّ جُزْءٍ من أجزائهم، وكُلِّ قُوَّةٍ يَمْلِكُونَهَا، مُحِيطٌ إحَاطَةً تامَّةً، لا تَدَعُ لَهُمْ مَهْرَباً من عذابه وانتقامه.

وفي هذه الآية تربية بالوعيد الضمني، ليتَّقِيَ اللَّهَ مِنهُمْ مَنْ لَدَيْهِ خوفٌ ما من عذاب اللَّهِ وانتقامه.

● قول اللَّه تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾:

تُشير هاتان الآيتان إلى أنّ تكذيب الذين كَفَرُوا لا عُذْرَ لَهُمْ فيه، إذْ تُوجّهان عُقُولَهُمْ وأفهامَهُمْ للتبصُّر بمجد القرآن، فالقرآنُ بمَجْدِهِ العظيم الذي لا يستطيع أن يأتي بشَرٌ بمِثْلِهِ، شاهِدٌ دائم الشهادة للرسول محمّد ﷺ بأنّه رسُولُ اللَّه حقّاً وصِدْقاً، ولهذا استحقَّ أن يُقْسِمَ اللَّه به في قوله في أوائل السورة: ﴿وَشَاهِدٍ...﴾ كما سبق في تدبّر هذه السورة.

فوصف القرآن الّذي هو كلامٌ مُنَزَّلٌ من ربّ العالمين الحكيم العليم العزيز الرحمٰن الرّحيم، بأنه قرآنٌ مجيد، فيه توجيهٌ للعقول والأفهام حتى يتدبَّرُوه، ليَكْتَشِفُوا من صفاته وخصائصه وإعجازه أَنَّهُ قرآنٌ مَجِيد حقّاً، بالغٌ غايَةَ الشّرف، والكمال والكَرَم.

وقد وصَفَ اللَّه عزّ وجلّ القرآن بمثل ما وصف به نفسه وعرشَه، فاللَّه عزّ وجلّ مجيد، وعَرْشُه مجيد، وقُرْآنهُ الذي يُنَزِّله على رسوله محمد بن عبد اللَّه ﷺ مَجِيدٌ.

وللتأكيد على أنّه تنزيل من عند اللَّه عزّ وجلّ بألفاظه ومعانيه، ذكر

اللَّه عزّ وجلّ في آخرِ آيَةٍ من آيات السّورَة أنَّهُ مُسَجَّلٌ عند اللَّهِ في السَّمَاءِ في لَوْحٍ مَحْفُوظ.

وجاء في سورة (الواقعة/٥٦ مصحف/٤٦ نزول) قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ بشأن القرآن:

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

ومن الجمع بين النَّصَّيْن نَفْهَمُ أنّ القرآن مُسَجَّلٌ عند اللَّه عزّ وجلّ في كِتَابٍ مَكْنُونٍ، لاَ يَمَسُّهُ إلاَّ المُطهَّرُونَ، وهُمْ من ملائكته المقرّبين، وهذا الكتابُ في لَوْحٍ محفوظٍ بحفظ اللَّه له، من أيّ تغيير أو تَبْدِيل، أو زيادة أو نَقْصٍ.

مَكْنُونٍ: أي: مَسْتُورٌ مُخْفَىٰ، لا تَصِلُ إليه أيْدي المحرّفين والمحرِّفات، ولا فيروسات العابثين والعابثات.

وهكذا ظهر لنا ترابط دروس السّورة ترابطاً حكيماً عجيباً، دائراً حول موضوعٍ علاجيّ واحد.

وبهذا أَنْتَهي من تدبّر سورة «البروج» والحمد للَّه على توفيقه وفتحه وفُيُوض عَطَاءاته، وأسألُهُ التوفيق للشكر، والمزيد من فيوض العطاء.



سُورَةُ التِّين

أو سُورَةُ وَالتِّين

٩٥ مصحف ٣٨ نزول



(١)
نصّ السورة
سورة التين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

(٢)
ممّا ورد بشأن سورة التين

(١) روى البخاريّ ومسلم وأهل السّنن وغيرهم عن البَراء بن عازب رضي اللّه عنه، قال:

«كان النبيُّ ﷺ في سَفَرٍ فصلّىٰ العِشاء فقَرَأَ فِي إحْدَى الرَّكْعَتَيْنِ ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾﴾ فَمَا سَمِعْتُ أَحَداً أَحْسَنَ صَوْتاً وَلاَ قِرَاءَةً مِنْهُ».

(٢) وأخرج الخطيب عن الْبَراء بن عازب أيضاً قال:

«صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ المَغْرِبَ فَقَرَأَ بِالتِّينِ والزَّيْتُون».

(٣) وأخرج ابنُ أبي شَيْبَةَ في المصَنَّفِ، وعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ في مُسْنَدِهِ، والطَّبَرَانِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدٍ:

«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ فِي المَغْرِبِ: وَالتِّينِ والزَّيْتُون».

(٤) وَأَخْرَجَ ابْنُ قَانِعٍ وَابْنُ السَّكَنِ والشِّيرَازِيُّ في الأَلْقَابِ، عَنْ زُرْعَةَ بْنِ خَلِيفَةَ قالَ:

«أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ مِنَ الْيَمَامَةِ، فَعَرَضَ عَلَيْنَا الإِسْلَامَ فَأَسْلَمْنَا، فَلَمَّا صَلَّيْنَا الْغَدَاةَ قَرَأَ بِالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ، وَإِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ».

(٥) وأخرج أحمد وأبو داود والترمذيّ وابن المنذر والحاكم وصحّحه وابن مَرْدَوْيه والبيهقيُّ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ قَرَأَ مِنكُمْ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ فَانْتَهَىٰ إِلَى آخِرِهَا: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾، فَلْيَقُلْ: بَلَىٰ، وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكَ مِنَ الشَّاهِدِين.

ومَنْ قَرَأَ ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١﴾، فَانْتَهَىٰ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ فَلْيَقُلْ: بَلَى.

ومَنْ قَرَأَ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾، فَبَلَغَ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾ فَلْيَقُلْ: آمَنَّا بِاللَّهِ».

قال الشوكاني: وفي إسناده رجلٌ مجهول.



(٢)
موضوع سورة التين

موضوع سورة التين يدور حول بيان الحكمة من خلق الإنسان في أحْسَنِ تقويم، وهي ابتلاؤه الذي يستلزمُ مَنْحَهُ حرّيَّة الإرادة وسائِرَ شروط الامتحان الأمثل، وحرّيةُ الإرادة لا بُدّ أن يكون من آثارها تفاوُتُ النّاسِ وتفاضُلُهم في اختياراتهم، من أرفع الدرجات ارتقاءً، حتَّىٰ أخَسِّ الدّرَكات هُبُوطاً.

وهذا الامتحان يَسْتَلْزِمُ حتماً في حكمة الحكيم تحقيقَ نتائجه بثواب المرتقين بحَسَب درجات ارتقاءاتهم، وبعقابِ الهابطين بحسب دركات انحطاطاتهم، وهٰذا هو الدِّين، أي: الجزاءَ الّذي تقتضيه الحكمة.

والجزاءُ لا بُدَّ أن يسبقه الحسابُ وفَصْل القضاء، وبما أنّ تحقيق الجزاء الأمْثل غير موجود في ظروف الحياة الدنيا، فلا بُدَّ أن تشتمل خُطَّةُ الحكيم العليم القدير على حياةٍ أُخْرَى يكون فيها تحقيق الإدانة، وتنفيذ الجزاء، ويَوْمُ الدّين هو اليومُ المقرَّر في خُطّة التكوين، لتحقيق الغاية من الامتحان في ظروف الحياة الدنيا.

والأُسْلُوبُ البيانيُّ المختارُ الّذي جاء في هذه السُّورة للدَّلاَلَة على عَنَاصِر هذا الموضوع، قد جاءَ أسْلُوباً عجيباً، بدأ بالقَسَم بمهابط الوَحْي الّذي تَنَزَّلَ برسالاَت اللّه على نُخْبَةٍ مِنْ كِبارِ أنبياء اللّهِ ورُسُلِهِ، ليبلّغُوها للناس، أمّا المُقْسَمُ عليه فَهُوَ خَلْقُ الإنسانِ في أحْسَنِ تَقْوِيم، الّذي كان من ظواهره مَنْحُ الإنسانِ حُرِّيَّةَ الإرادة الّتي هِيَ مُصَغَّرٌ ضَئِيلٌ يَدُلُّ على أنّ للّهِ الإرادَةَ الحكيمةَ العظمىٰ الّتي يختار اللّه بها كلَّ أمرٍ حكيم، ومَنْحُهُ العِلْمَ والإدْرَاكَ الّذي يَعْرِفُ به موادّ امْتِحَانِهِ، وتمكينُهُ مِنْ ظواهر القُدْرَةِ الّتي يَشْعُرُ مَعَها أنَّهُ يُنَفِّذُ بها ما يُرِيدُ، ومَنْحُ نَفْسِهِ عَنَاصِرَ الأهواء والشهوات والرغبات،

وأحاسِيسَ اللذّة والألَم، ودوافعَ الإقبال لتحقيق المطالِبِ المحبُوبَة، ومُثِيراتِ النفور خوفاً من المَكَارِهِ والمؤلمات، في ظروف الحياة الدنيا.

وقَفَزَ البيان في السُّورة من خَلْقِ الإنسان في أحْسَنِ تقويم إلى بيان واقع الإنسان بعد رِحْلَةِ الامتحان، إذْ كانَ من أفراده من اختار لنفسه أحَطّ الدركات، فرَدَّهُ اللّه بحِكْمَتِهِ وعَدْلِهِ إلى أسْفَلِ سافلين، وكان من أفْرَادِهِ من اختارَ لنفسه دُونَ ذٰلِكَ، حَتَّى أُولَى دَرَجَاتِ الارتِقاء فَحَمَىٰ نفسه مِنْ عقاب اللّه بأن آمَنَ وعَمِلَ صالحاً، ولا بُدَّ أنْ يَتَفَاضَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات فيما بَيْنَهُمْ، فَيَرْفَعَهُم اللّهُ في الدَّرَجات، حَتَّى تَتَسَاوَىٰ الدرجاتُ العُلْيَا مَعَ كَوْنِ الإنسانِ مَخْلُوقاً في أحْسَنِ تَقويم، وهٰذه الدرجات الرَّفيعات ثوابُها الدَّرجَات المناظرات لها في الفردوس الأعلى من جنّاتِ النعيم يَوْمَ الدّين، فمنازلها هي المنازل الملائمة لِمَنْ خلقه اللّه في أحسنِ تقويم.

أَلَيْسَ هذا الدّينُ هو ما تقضي به حكمة الخالق الرَّبّ الَّذِي هو أحْكَمُ الحاكِمِين؟!

فما الَّذِي يَجْعَلُ المنكرَ الجاحِدَ يُكَذِّبُ بالدّين، وكلُّ آثار صفاتِ اللّهِ الرَّبِّ في كَوْنِهِ تَدُلُّ على أنَّهُ أحْكَمُ الحاكِمِين، وأحْكَم الحاكمين لا يمكن أن يَخْلُقَ الناس عَبَثاً، ولا يُمْكِنُ أنْ يَخْلُقَ السَّمَاءَ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا باطلاً؟!! بَلْ لا بُدَّ بَعْدَ رَحْلَةِ الحياة الدّنيا من حِسَابٍ، وفَصْلِ قَضاءٍ، وتَنْفيذ جزاءٍ، يَوْمَ الدّين، هذا ما تقضي به حِكْمَةُ أَحْكَمِ الحاكمين، وهذا مَا تُوجِبُهُ البراهين العقليّة، والحجَجُ القَاطِعَة المُسْتَنِدَةُ إلى معرفة صفات اللّه الّتي تَدُلُّ عليها آياتُهُ في كَوْنِهِ.



(٤)
دروس سورة التين

تشتمل سورة التين على درسَيْن:

الدَّرْس الأول: الآيات من (١ ـ ٦).

وقد تضمَّن هذا الدّرسُ القَسَمَ الرَّبَّانيَّ بأرْبعة من مهابط وَحْيِهِ، الّتي اختارها جلَّ جلالُه لتنزُّلات الوَحْي على طائفة مِنْ رُسُلِهِ الكرامِ، برسالات اللَّه للناس، على أنَّهُ جلَّ جلالُهُ خَلَقَ الإنْسَانَ في أحْسَنِ تقويم، ليبلُوَهُ في ظروف الحياة، ثُمَّ ليُجَازِيَهُ يوم الدِّين، فكان من الناس بعد الامتحان مَنْ أنْزَلَهُ اللَّه إلى أسْفَلِ سافلين لأنَّهُ اختار لِنَفْسِهِ الكُفْرَ بربّه، وارتكاب أقبح الجرائم، وكان من الناس من اختار لنفسه بالإيمان والعمل الصالح أعلى الدرجات، وبَيْنَ أعلى الدرجات وأخَسِّ الدّركاتِ اختيارات اختارها الناس بإراداتهم الحرَّة في رحلة امتحانهم.

الدَّرْس الثاني: الآيتان (٧ ـ ٨):

وقد اشتملتا على لَفْتِ نظر المكذِّب بالدِّين إلى أنَّ اللَّه أحْكَمُ الحاكمين، أي: وأحْكَمُ الحاكمين لا يُمْكِنُ أن يَخْلُقَ الناس عَبَثاً، دون أن يُقَرِّرَ في خُطَّةِ تكوينه يوماً للحساب وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء بالعِقَاب لمستحقِّيه بالعَدْل، وبالثواب لمستحقّيه بالفضل الربَّاني، على اختلاف درجاتهم في الثواب، واختلاف دركاتهم في العقاب.

❁ ❁ ❁

(٥)
التدبُّر التحليليّ للدّرس الأول من درسَيِ السورة

الآيات من (١ ـ ٦)

قال اللّه عزّ وجلّ:

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾.

في هذا الدرس من درسَيْ السُّورة يُقْسِمُ رَبُّنَا جَلَّ جلالُهُ بمَهَابِطِ وَحْي أرْبَعَةٍ، مُخْتَارَةٍ اخْتِياراً حكيماً، من عُمُومِ أرْضِهِ الَّتي خَلَقَها لسُكْنَىٰ النَّاس، في رِحْلَة امتحانهم في الحياة الدنيا.

ذكر المفسّرون في تفسير المراد بقوله تعالىٰ:

- ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١﴾:

آراءً لَيْسَ لَهَا سَنَدٌ مِنْ بيانات الرسول ﷺ، وأَحْسَنُهَا فيما أرَىٰ، ما هُوَ مُنْسَجِمٌ ومُتَنَاسِقٌ مَعَ القَسَم بطُورِ سِينينَ، والقَسَم بمكّة البَلَدِ الأمين، وهو أيضاً الملائمُ لِمَا جاءَ في السورة بَعْدَ الأقْسَامِ الأربعة.

إنّ القَسَمَ بمهبط الوَحْي الرَّبَّانيّ على موسىٰ عليه السّلام، وهو «طُورُ سينين» والقَسَم بأوَّل مَهابط الوَحْي على محمَّدٍ خاتَم الأنبياء والمرسلين، وهو «البَلَدُ الأمين» مكّةُ المكرَّمَةُ، يُلائمُهُ القَسَمُ بمهابط الوحي على جُمْلَةٍ من أنْبياء اللّهِ ورُسُلِهِ عليهم السَّلام، وهي بلادُ التِّين والزّيتون.

- فَالقَسَمُ بالتِّين هو على تقدير: ومَنَابِتِ شجر التِّين، وهي بِلَادُ الشَّام، إذْ كانَتْ مَعْرُوفةً بهٰذِهِ الشَّجَرَةِ المباركة قديماً، فإذا قال قائل قديماً لمسافرٍ: إلى أيْنَ أنْتَ مُسَافِرٌ؟ فقال له: إلى التين. عُلِمَ من جوابه أنه مُسَافِرٌ إلى بلاد الشَّام، لكَثْرَةِ ووفْرَة أشْجَارِ التين فيها.

وفي ذكر التّين إشارةٌ إلى بلاد الشَّام، وعنواناً لها، مَعَ أنَّ فيها أشجاراً أخرىٰ غير أشجار التّين، تَنويهٌ ضِمْنِيٌّ بقيمة هٰذِهِ الشّجرة، ذات الثمرة المباركة، العظيمة الغذاء والنفع.

وقد كانت بلادُ الشّام مهابطَ وَحْيِ اللَّهِ عزّ وجلّ لطائفةٍ جَلِيلَةٍ من أنبياء اللَّهِ ورسُلِهِ عليهم الصَّلَاة والسلام.

والتّينُ لم يُذْكَرْ في القرآن باسمِهِ الصّريح إلاّ في هٰذِهِ السُّورَةِ فقط.

● والقَسَمُ بالزَّيْتُونِ هو أيضاً على تقدير: ومنابت شَجَرِ الزَّيْتُون، وهي بلادُ فلسطين على وجه الخصوص من أرْضِ الشَّام الكبرى، إذْ كانت بلاد فلسطين معروفة قديماً بهذهِ الشجرة المباركةِ، فإذا قال قائلٌ قديماً لمسافرٍ: إلى أيْنَ أنت مُسافِرٌ؟ فقال له: إلى الزّيتون. عَلِمَ من جوابه أنّه مُسَافِرٌ إلى بلاد فلسطين، لِكَثْرَةِ ووفرة أشجار الزيتون فيها، وشهرتِها بها في أزْمان تَنَزّلَاتِ الوَحْيِ قديماً، وقد تكون المنابِتُ الأخرىٰ لشَجَرَةِ الزّيْتُون في عصورِ تنزّلَاتِ الوحي، قد كانت مَهَابِط وَحْيٍ على طائفة من الأنبياء.

وفي ذكرِ الزّيتون عنواناً لبَعْض مهابط الوَحْي، مع أنّ فيها أشجاراً أخرى غير أشجار الزيتون تنويهٌ ضِمْنِيٌّ بقيمة هذه الشجرة العظيمة ذات الثمرَةِ المباركة الّتي وَصَفَهَا اللَّه عزّ وجلّ بقوله في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ . . . ﴿٣٥﴾﴾.

وقَدْ ذُكِرَ الزَّيْتُون في القرآن الكريم سِتَّ مرّاتٍ، إشادةً بقيمتِهِ الغذائيّة، ونَفْعِهِ العظيم، ونَفْعِ الزّيْتِ الذي يُعْصَرُ منه.

وقد يكون المراد بالقَسَمِ بالتّين والزّيتون معاً بلاد الشَّام وما حولها

على وجه العموم، فهي مهابط وَحْي، ومواطِنُ رسالاتِ رَبَّانيَّةٍ جليلة، وقد يُشيرُ إلى هذا جَمْعُها في آيةٍ واحِدَة.

● قول اللَّه تعالىٰ: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾:

في هذا قَسَمٌ بجَبَل الطّور الّذي كلَّمَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ مُوسَىٰ عليه السَّلامُ عِنْدَهُ، من وراءِ حِجَاب.

وردَ في معنى «سِينِين» أقوال:

(١) فقال قتادة: هو المبارَكُ الحسَنُ في لغة الحبشة.

(٢) وقال مجاهد: هو المبارَكُ بالسّريانيّة.

(٣) وقال مجاهد والكلبيُّ: كُلُّ جَبَلٍ فيه شجرٌ مُثْمِرٌ فهو سِينين وسيناء، واللَّهُ أعْلَمُ.

● قول اللَّه تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾:

في هذا قَسَمٌ بمكَّةَ البَلَد الحرام، الذي هو أوّلُ مَهْبَطٍ وأعْظَمُهُ من مَهَابِطِ وَحْيِ اللَّه لخاتم أنبيائه ورُسُله مُحمَّد بن عبد اللَّه ﷺ، وفيه أوّلُ بيتٍ وُضِعَ للناس لعبادة اللَّهِ في الأرض.

وقد يُلاحظ المتدبّر التَّدَرُّجَ الارتقائيّ في الأقسام بحَسَب أفضليات مهابط الوَحْي المُقْسَم بها، فأفْضَلُها عند اللَّه عزَّ وجلَّ مكَّةُ البَلَدُ الأمينُ، فطُورُ سِينين، فبلاَدُ الزَّيْتُون فالتّين.

وبالتأمُّل نُدْرِكُ أنَّ القَسَمَ بمهابط الوَحْيِ ورُمُوزِ عبادَةِ اللَّه في الأرض، يَرْجع عن طَرِيق السَّلاسِلِ الفكريَّة المتلازمة، إلى القَسَم برسالات اللَّه للنّاس، والقَسَمِ بالكُتُب الرَّبّانيّة الّتي أنْزَلَها اللَّهُ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُهُ، لِهدايَةِ الممتحنين المكلّفين، إلى صراط نجاتهم، وسعادَتِهِم، وفَلاحِهِم، وفَوْزِهِمُ الكبير.

ففي ذِكْرِ مَهَابِطِ الوَحْيِ إشارَةٌ إلى الوَحْيِ، ومضمونُ الوَحْيِ رسَالاَتٌ رَبَّانِيَّةٌ للناسِ، يُبَلِّغُها أنبياءُ مُرْسَلُونَ، وفي هٰذِهِ الرّسالاَت الرَّبَّانية كُتُبٌ مُنَزَّلَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ العليم العزيز الحكيم الرحيم. وكُلُّ هذه أُمُورٌ عظيمةٌ جليلة، تستحِقُّ أنْ يُقْسِمَ اللَّهُ عزّ وجلّ بها، لِمَا فيها من آياتِ حِكْمَتِهِ العظيمة.

وممّا يَظْهَرُ لكل مُتَدَبّر أنّ القَسَم بالرّسالات الرَّبَّانيّة للناس، يُشِيرُ ضِمْناً إلىٰ أنّها رسالاتٌ عظيماتٌ جليلات، إذْ هي تَهْدِي للّتِي هي أقْوَمُ، وبسبَب ذلِكَ استحقَّت أنْ يُقْسِمَ اللَّهُ بها، ليَدُلَّ بقَسَمِهِ بها على رفيع مكانتها، وعظيم شأنها، وحُسْنِهَا وكَمالِهَا، وأنَّهَا حَقٌّ وخَيْرٌ، وأنَّهَا السَّبِيلُ الأَقْوَمُ للناس.

● قول اللَّه تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾:

هٰذَا هُوَ المُقْسَمُ عَلَيْهِ بمهابط الوَحْي، إنَّهُ التأكيد على أنَّ اللَّهَ جلَّتْ قُدْرَتُهُ، وعظم سُلْطانُه، وسَمَتْ حِكْمَتُه، قَدْ خَلَقَ الإنسان في أحْسَنِ تَقويم.

إنّ الإشادَة بالرِّسالات الجليلات الّتي أنزلها اللَّهُ عزَّ وجلَّ على رُسُلِهِ، تَسْتَدْعِي تَسَاؤلاً مَفَادُهُ: لماذَا جَعَلَ اللَّهُ هٰذِهِ الرِّسالاَتِ بهذا الكمال والحُسْنِ، ومُشْتَمِلَةً على الهداية للّتِي هي أقْوَمُ؟

وقَدْ جاءَ المُقْسَمُ عليه مشيراً إلى الجواب المسؤُول عنه.

والمعنَى: أنَّ مخلوقاً يُخْلَقُ في أحْسَنِ تَقْوِيم يَحْتَاجُ رِسالاَتٍ رَبَّانِيَّةً عظيمةً جليلةً، تَهْدِي هٰذا المَخْلوقَ للَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، لتُناسِبَ الرّسالَةُ ذَاتُ الصِّراطِ الأَقْوَمِ حَالَ هٰذَا المخلوقِ الذي اخْتِيرَ لهُ أحْسَنُ تقويم في خَلْقِهِ.

إذْ من صفاتِ هذا المخلوق الذي هو الإنسان: أنه ذُو حياة، وذُو قُدْرَة يُمِدُّه اللَّهُ بها، وذُو إرادَةٍ حُرَّةٍ، ولَهُ صفات السَّمْعِ والبَصَر، وسائر الحواسّ الظاهرة والباطنة، ولديه القُدْرَة على التعلّم واكتساب المعارف وتدبير الأمور، واستنتاج الأسْبابِ من مُسَبَّبَاتِهَا، والنّتائج من مُقَدّماتها،

ولدَيْه القُدْرةُ على اكتشافِ البواطن من الظواهر، وله صفاتٌ نفسيَّة راقية، كالحبِّ والكراهية، والعفَّة والجود، والشجاعة والحذر، والعطف والرَّحْمَةِ، والإيثار والنَّجْدة، وغير ذلك من صفات نفسيّة.

ومن الظاهر أنَّ مخلوقاً له هذه الصفات هو مخلوقٌ في أحْسَنِ تقويم؛ لأنّ بعض هٰذه الصِّفات في مَدَاها الأكمل الذي ليس فوقه كمال، هي من صفات اللَّه عزّ وجلّ الذي ليس كمثله شيء، وقد فهم بعض العلماء من الحديث الصحيح الذي رواه البخاريُّ ومسلم وأحْمَدُ عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ أنَّهُ قال:

«خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ».

أَنَّهُ مَنَحَهُ نَفَحَاتٍ مُصَغَّراتٍ ضئيلات من الصِّفات الّتي تُطْلَقُ عَلَيْهَا الأسْمَاءُ الّتي تُطْلَقُ على صفاتِ اللَّه عزّ وجلّ، غَيْرَ أَنَّ صفات اللَّه سبحانه أزَليَّةٌ لاَ نِهَايَةَ لكمالاتها، أمَّا الإنسان فهو ذو صفات حادثات مَحْدُوداتٍ ناقصاتٍ، فهي تشترك مع صفات اللَّه بإطْلاَقِ بعض الأسْماء عليها، وفي بعض الآثار الصُّغرىٰ، وتختلف في الجوهر والحقيقة، وبسبب إعطاء اللَّه له هذه الصفات كان الإنسانُ مخلوقاً في أحْسَنِ تَقْويم.

ولمّا كان من صفات الإنسان حرّيَّةُ الإرادة، وكان باستطاعته أن يَفْعَلَ الخَيْرَ والشَّرّ، والطاعةَ والمعصية، كان من الحكمة السّنية وضْعُهُ مَوْضِعَ الامْتِحَانَ، الذي يَسْتَدْعِي الحساب وَفَصْل القضاء وتنفيذ الجزاء. وكان من الحكمةِ تحديد موادّ امتحانه، وإنْزَالُ الرّسالاَتِ الرَّبَّانيَّة الّتي تَهْدِيه للّتي هي أقوم، وتُعَرِّفُه بِمَا هو مطلوبٌ منه في رِحْلَةِ امتحانه.

فإذا اجْتَازَ امتحانَه بنجاحٍ استحقَّ دار النّعيم خالداً فيها مُخَلّداً أبداً، وإلاَّ استحَقَّ من دَرَكَاتِ الجحيم بحسَبِ دَرَكاتِ معاصيه ومخالفاته، والدَّرْكُ الأَسْفَلُ مِنَ الجحيم يُعَذَّبُ فيه الذين هُمْ من أسْفَلِ السَّافلين.

التقويم: يأتي في اللّغة بمعنى التَّعْدِيل، وتعديلُ كلّ شيءٍ يكون

بحسَبه، فتقويم الرُّمح يكون بجعل عصاهُ معتدلةً مستقيمة، لا عوج فيها، وتقويم المخلوق المعَدّ لوظيفةٍ ما، يكُونُ بمَنْحِهِ العناصِرَ والصّفاتِ اللَّازمَة بتعادل، كي يؤدّي وظيفته التي خُلِقَ لها على أحْسَنِ وَجْهٍ.

وباستطاعتنا أن نشرح المُقْسَم به والمُقْسَم عليه بما يلي:

قسماً بالرّسالاتِ العظيمة الهادية للّتي هي أقوم، والمشتملة على بيان الدّين القيّم الذي اصطفَيْنَاهُ للناس، والذي يُلائمُ كمالُهُ حالَ من أنْزَلْنَاهُ لِهَدَايَتِهم، لقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ في أحْسَنِ تقويم، فحالُهُ يَسْتَدْعي إنْزَالَ هٰذِهِ الرّسالات القيّمة المشتملة على الدّين القيّم.

﴿لقَدْ خلَقْنَا﴾: اللّام واقعة في جواب القسم، و«قد» حرفٌ يؤتىٰ به للتحقيق والتوكيد. وجاء الفاعل ضَميرَ المتكلّم العظيم، لأنّ الإنسانَ المخلُوقَ بصفاتِهِ الّتي جعلَهُ الخالقُ بها في أحْسَنِ تقويم، لا يَتِمُّ خَلْقُهُ إلاَّ مِنْ قِبَلِ خالقٍ عظيم، فَصفاتُهُ تَدُلُّ على عظمة خالقه، فجاء ضَمِير المتكلّم العظيم مُشْعِراً بذلك.

وقد كان من كمالِ الحِكْمَةِ أن يُهَيّئ الخَالِقُ لهذا المخلوق المتميّز مسكناً رفيعاً جدّاً يُلائِمُ تَفْضيله وتكْرِيمه، وجَعْلَهُ في أحْسَنِ تقويم، فخَلَقَ لَهُ الفِرْدَوْسَ الأعلىٰ في جنّاتِ النّعيم، وخلق مراتب جنّاتِ النعيم، ودرجاتها للّذين لا يستحقّون باختياراتهم الفردوس الأعلى، وتمّ بخلق جنات النّعيم على اختلاف مراتبها ودرجاتها تحقيقُ حكمة الفضل الرّباني.

ثمّ إنَّ حُرِّيَّة الإرادة الّتي مُنِحَتْ للإنسانِ، جَعَلَتْهُ يستطيعُ بها أن يَجْحَدَ خالقه، ويَكْفُرَ به، ويتمرَّدَ على أوامِرِهِ ونَوَاهِيهِ وأحْكامه، أو جَعَلَتْهُ يُؤْثِرُ العَاجلة على الآجلة، فيَقَعُ بالمعاصي والمخالفات، والتقصيرات في القُرُبات التي لَوْ تَقَرَّبَ إلى بارئِهِ بها لكان أهلاً لاستحقاق درجات الفردوس الأعلى يَوْمَ الدّين.

فاقتضت حكمة اللَّه أن يخلُق داراً أخرى لعقاب الجاحد المعاند الكافر، ولعقاب العاصي المسرف في المعاصي والمخالفات، فخلق دار العذاب، وتمّت بخلقها حكمة العدل الربّاني.

واقتضت حِكْمَةُ اللَّه جلّ جلاله أنْ تَهْبِط درَجَةَ الإنسانِ في منازل الجنّة، إذا كان من أهل الإيمان، وأن ينال الدَّرَجَة التي تُلاَئِمُ اختياراته في الحياة الدنيا طاعةً أو مَعْصِية. وأن يَهْبِطَ إلى دَرَكَاتِ النّار، فَيُوضَعُ في المَنْزِلَةِ والدَّرَكَة الّتي يَسْتَحِقُّها بحسب مَعَاصيه، فإنْ كان من أَهْلِ الكفر ومرتكبي الجرائم الكبرىٰ أنزلَهُ اللَّه إلى الدركات السُّفْلَى في الجحيم، حتَّىٰ يكونَ مع أسْفَلِ سَافِلِين، وفي الدَّرْكِ الأسفل من النار، والهبوطُ في الدَّركات خاضِعٌ لأحْكَامِ قانون العَدْلِ الرَّبّاني.

وعندئذٍ يَصْدُقُ على هذا الإنسان أنّ اللَّهَ عزّ وجلَّ قَدْ خَلَقَهُ مُنْذُ بَدْءِ خَلْقِهِ في أَحْسَنِ تقويم، إلاَّ أَنَّهُ قد رَمَىٰ نَفْسَهُ باختيارِهِ الحرّ من عِلّيّين، بكُفْرِهِ وجحوده وعصيانه، وطُغْيانه وعُدْوانه، وما زالَ يَتَدَنَّى في الدَّرَكاتِ حتَّى صارَ في أسْفَلَ سافِلِين.

وهٰذه الصَّيْرُورَةُ في أسْفَلِ سافِلين، والَّتي جَنَىٰ بها على نَفْسِهِ بإرادَتِهِ الحرَّة، قد تمَّتْ بقوانينِ اللَّهِ القدريَّة الجزائِيَّة، الَّتِي نَظَّمَ اللَّه عزَّ وجلَّ بمقتضاها جزاءَه لعباده، على ما يجنون به على أنفسهم باختيارتهم الحرَّة الّتي لا جَبْرَ فيها ولا إكراه.

فَمَنْ رَمَىٰ نفسه من شاهقٍ على صَخْرٍ صَلْدٍ حطَّمَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ وقَتَلَهُ على الصَّخْرِ، بمقتضىٰ قوانينِهِ القدريَّة التكوينيَّة.

ومَنْ تعاطىٰ المخدّراتِ بإرادتِهِ، عاقَبَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ بالإدْمَانِ عليها، بمقتضىٰ قوانينه القَدَرِيَّةِ التكوينيّة.

ومن أَلْقَىٰ نفسه في النار بإرادته الحرّة، أحْرَقَهُ اللَّهُ بالنَّارِ الَّتِي رَمَى نَفْسَهُ فيها، بمقتضىٰ قوانينه القَدَرِيَّة التكوينيَّة.

ومن كفر باللَّه ولم يَتُبْ قَبْلَ مَمَاتِهِ أدْخَلَهُ اللَّهُ النار بمقتضىٰ قوانينِهِ الجزائيّة العادلة. . .

كلُّ هذهِ المعاني يستطيع أن يستخرجها المتدَبّر من القسم بمهابط الوحي، أي: برسالات اللَّه للناس، ومن المقْسَم عليه الذي جاء في:

● قول اللَّه تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾:

أي: إنّ هذا الإنْسَان الذي خَلَقْنَاهُ بعَظَمَةِ القُدْرَةِ الرَّبَّانِيَّة، مُحَاطَ الأَجْزَاءِ كُلِّها في أحْسَنِ تَقْويم، نَفْسِيٍّ وجَسَدِيٍّ، قَدْ كانَ مِنْ أفراده من أنْزَلَ نفسه بإرادتِهِ الحرَّةِ، واتِّباعه أهواءَهُ وشهواتِهِ، ووساوِسَ الشياطين وتَسْويلاتهم، إذ اختار لنفسه الجحودَ والكُفْرَ والطغيان، والظُّلْمَ والبَغْيَ والعُدْوَانَ، حتَّى بَلَغَ بها أحَطَّ الدَّرَكاتِ السُّلُوكِيَّةِ الباطِنَةِ والظَّاهرة، فعاقَبْنَاهُ بمقتضىٰ القوانين الجزائيّة العادلة، فَرَدَدْنَاهُ عن مَرْتَبَةِ التفضيل الّتي فَضَّلْنَاهُ بها، جاعلين إيَّاه أسْفَلَ سافلين.

وهذا يَدُلُّ على أنَّ فوقَهُ مَرْدُودُونَ آخَرُونَ من السَّافلين، في دَرَكاتٍ أَخفُّهَا أولَىٰ دَرَكاتِ المعذَّبين في النَّار دار العذاب يَوْمَ الدِّين، وبينَهمَا دركاتٌ مختلفاتٌ بحَسَب أحوال أهل كُلّ دركة.

صيغَة ﴿أَسْفَلَ﴾ تَدُلُّ على مَنْ هو في أحَطِّ الدّركات وأخَسِّها، وجَمْعُ ﴿سَٰفِلِينَ﴾ يَدُلُّ على أصْنَافٍ متفاوتين متخالفين في الانْحِطَاط والتسفُّل.

ويدخُلُ في عُمُومِ الرَّدّ أيضاً الخَاسِرُونَ من الدرجات الرفيعة في جنَّاتِ النّعيم، بدءاً من درجات الفِرْدَوْسِ الأعلىٰ، حتى أدنى درجات الجنّات، ولكلّ مقصّر أو عاصٍ رَدٌّ متنازلٌ بحسب مخالفته لشروط درجات التكريم.

واقتصر النَّصُّ على ذِكْرِ الدَّرَكَةِ السُّفْلَىٰ، لأنَّ فِكْرَ المتدبّر المتأنّي الذي يَغُوصُ إلى أعماقِ المعاني ويَفْتَحُ اللَّهُ عليه، يُدْرِكُ الرَّدَّ إلى ما دُونَهَا باللُّزُومِ العقليّ، وبدلالة سائر النصوص الدّالّة على التفاوت في الدَّرَجات وفي الدَّرَكات، بحسب الاختيارات الإراديَّة للناس.

والرَّدُّ إلى أسْفَلِ سافلين في الصّفات النفسيَّة يكونُ بمَسخِ هٰذِهِ الصّفات إلى ما هو أخَسُّ من أخسّ البهائم والحشرات، ثمّ إلى أخَسّ من ذلك حين يكون الإنسان جَحُوداً كَنُوداً كَفُوراً، حقوداً حسوداً جبّاراً، قَتَّالاً سَفَّاكاً للدِّماء ظلاّماً، عابداً للطّواغيت.

الرَّدّ في اللّغة:

يأتي بمعنى «الصَّرْف»، ويأتي بمعنى «الإرجاع»، وهذا المعنى يُشيرُ إلى أنّ الإنسان لم تكن له أيَّةُ صفةٍ من صفاتِ الكمال والتفضيل قبل أن يخلُقَه اللَّه ويمنحَهُ صفاته الّتي فضَّله بها، بَلْ لم يكن شيئاً مَذْكوراً.

وفي قول اللَّه تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ توجيهٌ من اللَّه جلّ جلالُهُ للنّاس أن يَدْرُسُوا ويبحثُوا بتَتَبُّعٍ وأنَاةٍ، ليَكْتَشِفُوا عَظِيمَ مِنَّةِ اللَّهِ علَيْهِمْ فيمَا وَهَبَهُمْ مِنْ صِفاتٍ تكوينيَّةٍ، نَفْسِيَّةٍ وجَسَدِيَّةٍ.

إنّ الباحثين المُتَتَبِّعِينَ من عُلَماءِ الكَوْنِ مَا يَزالُون يَتَتَبَّعُونَ بالدَّرْس والبحث والتجرباتِ والملاحظاتِ هذا الإنسان، من مُخْتَلفِ المجالاَتِ والتخصُّصات، ويَكْتَشِفُونَ ما فيه من عجائب الخَلْقِ وإتقان الصُّنْع المُدْهِش، وما تزال تتفتَّحُ أمامَهُمْ مغاليقُ عجائب مدهشةٍ تِباعاً، كُلَّما واصَلُوا البَحْثَ والتأمُّل والاختبارَ والتجربة والملاحظة.

إنَّهم كلَّما اكتشَفُوا عجائبَ جَدِيدةً بالنسبة إليهم، تَشَعَّبَتْ أمامَهُم طُرُقٌ ومجالاتٌ لم تَكُنْ في حسبانهم، وفيها من المدْهِشات العجيبات، والمتقنات الرائعات، ما يَجْعَلُهم يتَصَاغرون في مداركهم، فيُؤْمِنُ مُؤْمِنُهُم بالرَّب العظيم الجليل، ويَسْجُدُ لسلطانه خُضُوعاً وخُشُوعاً.

أمّا الدِّينُ الذي جاءت به الرسالات الرّبانيّة، الّتي أقْسَمَ اللّه بمَهَابِطِ وَحْيِهَا، فهو الحقُّ والخيرُ والتشريعُ الأقْوَمُ الأحْسَنُ، يُدْرِكُ ذلك أهلُ العقل والبصيرة، ويُسَلِّم به أهْلُ الإيمان، وتكشفه التجرباتُ الإنسانيّةُ، الّتي تُعَدِّلُ أحْكَامَها طلباً للأحْسَنِ والأفْضَل مُقْتَرِبَةً إليه، وتكشِفُه المقارَنَات المتجرّداتُ المقوِّماتُ بإنْصَافٍ، فكُلَّما جَرَّبَ النَّاسُ الأنظِمَةِ الوضعيَّة، الّتي يَضَعُهَا المُقَنِّنُونَ من النّاس بآرائهم، أو بأهوائهم ومصالحهم، وشَاهَدُوا مَا فيها من عُيُوبٍ وسَيّئاتٍ ومثالِبَ، أدْرِكَ أهْلُ العَقْلِ والإنصافِ مِنْهُم حِكْمَةَ اللّهِ الجَليلَةَ في الدِّين الذي اصْطَفَاهُ للناس.

● قول اللّه تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾.

﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: أي: غَيْرُ مَقْطُوع. يقال لُغَةً: مَنَّ فُلانٌ الشَّيْءَ، أي: قَطَعَهُ، أو لا يَقْتَرن بما يُشْعِر بالمِنَّةِ المؤذِيَة للنفوس.

والأَجْرُ غير المقطوع هو النعيم الذي يَخْلُدُون فيه في منازلهم ودرجاتهم في جنّات النعيم، بحَسَبِ إيمانهم وصالحات أعمالهم.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾: **الإيمان**: هو التصديق الإراديّ والاعترافُ التامّ الصحيح بأركان الإيمان السّتة وفروعها وأجزائها.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالحات﴾: **العَمَلُ الصالح**: هو كلُّ فِعْلٍ ظاهرٍ أو باطن، أمَرَ اللّه به أوْ رَسُولُهُ أمْرَ إلزام أو ترغيب، وكلُّ اجتنابٍ أو تَرْكٍ لشَيْءٍ نَهَىٰ اللّه عنه أو رَسُولُهُ نَهْيَ إلْزامٍ أَو تَرْغيب.

فَيَشْمَلُ العملُ الصالح فِعْلَ أشياءَ، وتَرْكَ أشياء، ممّا يَخْضَع لسلوك النَّاس الإرادي، في أجسادهم، أوْ قُلوبهم، أو نُفُوسهم، أو أفكارهم وخواطرهم الإراديَّة.

أمّا ما لا يملكه الإنسان بإرادته من كلّ ذلك، فلا يَدْخُلُ في دائرة مَسْؤُولِيَّتِهِ أصلاً، ولا يُنْسَبُ إليه منه فِعْلٌ ولا تَرْكٌ.

ودلالاتُ كتابِ اللَّه وسُنَّةِ رَسُول اللَّه القوليَّة وغير الْقَوليَّة، هي التي يَسْتَفِيد الفقهاءُ المجتهدون منها أوامر اللَّه ورسُوله ونواهيهما الإلزاميّة أو الترغيبيّة.

وكلمة (إلاَّ) في الآية أرى أن نَفْهَمَهَا على أنّها بمعنى «لكن»؛ لأنَّ جعلها من قبيل الاستثناء يجعلُ الناسَ قسمين: إمّا مَرْدُودون لأَسْفَلَ سافلين، وإمّا نَاجُونَ ومنَعَّمُون في جنَّاتِ النعيم بالإيمان، والعَمَل الصالح، بينما تَكْشِفُ قواطع النُّصُوص أنّ النَّارَ دركاتٌ، ويَخْلُدُ في درَكَاتِهَا كُفَّارٌ ومُشْرِكُونَ لَيْسُوا من أهْلِ أسْفَلِ سافلين.

مقارنة بين ما جاء في سورة العصر وما جاء في سورة التين:

ثم إذا أجرينا مقارنة بين ما جاء في سورة «العصر» وما جاء في سورة «التين» لنَجْمَعَ بين النصّين جمعاً تكاملياً، فإنّا نُلاحظُ أنَّ سورة «العصر» قد أبانَتْ أنَّ الإنسان يتعرّضُ دواماً في حياته الدنيا للخُسْر، كلّما مرّت عليه لحظة من لحظات العمر، في نهر العصر العابر من المستَقْبَل إلى الماضي، والسَّبَبُ في هذا عَدَمُ محافظته بالإيمان والعمل الصالح على مرتبة التكريم والتفضيل الّتي مَنَحَهُ اللَّه إيّاها، إذْ خَلَقَهُ في أحْسَنِ تقويم، وهيَّأ لَهُ الفردوسَ الأعْلَى لتفضيله في جنّاتِ النّعيم، إذا هو حافظ عليه باختياره الحرّ، في رحلة امتحانه.

وأبانَتْ سورة «التين» أنَّ اللَّهَ جلَّتْ قُدْرَتُه وحكمتُه قد خَلَقَ الإنسان في أحْسَنِ تقويم، أي الذي يلائمه مسكن الفردوس الأعلى، لكنّ فريقاً من الناس اختار بإرادته في رحلة امتحانه الانحطاطَ في الدّرجاتِ، ثم في الدّركات، إلى أحَطِّها، فرَدَّه اللَّه رَدّاً جزائياً بعقابٍ أوْصَله إلى أسْفَل سافلين.

ولم يَكُنْ في شَيْءٍ من اختياراته مَجْبُوراً، بل كان يَمْلِكُ إرادةً حُرَّةً لا مُجْبِر لها.

ومن الجمع بين دلالات ما جاء في السّورتَيْن نُدْرِكُ أنّ فريقاً من الناس يستمرُّ في واقع الخُسْر، خلالَ رحلة امتحانه، بسَبَبِ تقصيراته، ومَعَاصِيه، وتضييعه عُمْرَهُ الّذِي هو رأسُ ماله في المتَالِفِ، أو فيما يَحْمِلُ به أوزاراً، ثم بِسَبَبِ كُفْرِهِ برَبِّه، وجُحُودِهِ لَهُ، وبعنادِهِ وإصراره على الباطل، وإنكارِهِ نِعَمَ اللَّهِ عليه، حتَّىٰ يتسَفَّلَ في الدَّرَكَاتِ إلى أخَسِّهَا وأحَطِّها، وعندئذٍ يَجِدُ نفسه في أسْفَل سافلين، عُقُوبَةً من ربِّه له.

وجاء في سورة (العصر) التصريحُ بأنّ من العمل الصالح التواصي بالحقّ، والتواصي بالصبر.

وجاء في سورة (التين) التصريحُ ببيان الأجْرِ غير الممنون للذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالحات.

واشتركت السورتان ببيَان أنَّ الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحات يُمْكن أنْ يحافظوا على مقاديرَ ممَّا وهبهم اللَّه من تفضيلٍ وتكريم، بحَسَبِ مَقَادِيرِ ما يَكْسِبُونَ بإراداتهم الحرَّة، من ثَرواتٍ من الإيمان والعمل الصالح.

فتكامَلَتِ السُّورتان في بياناتهما حول موضوع التفضيل في أصل الخَلْقِ للإنسان، وخسارته عَبْرَ رِحْلَةِ امتحانه بإرادته الحرَّة في الدّرجات والدّركات، إلى مستوى قد يَصِلُ به إلى أسْفَلِ سافلين.

(٦)
التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من دَرسَيِ السّورة

الآيتان (٧ ـ ٨)

قال اللَّه عزّ وجلّ:

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾.

تمهيد:

التدبّر المتأنّي العميقُ لآياتِ الدرس الأول من درسَيْ السورة، هدَى إلى استخراج المفهومات التاليات استنباطاً من لوازم الدلالات المباشرات للألفاظ:

المفهوم الأول: الرّسالاتُ الرَّبَّانيَّةُ العظيمة، الّتي اسْتَحَقَّتْ لعظمتها أن يُقْسِمَ اللَّه بمهابط الوحي بها، إشارةً إلى مجدها وسُمُوّ هدايتها للتي هي أقوم، وإشادَةً به، قد أُنزِلَتْ للإنسان الّذي خلقه اللَّه في أَحْسَنِ تقويم، بدلالة أنَّهُ هُو المُقْسَمُ عليه.

المفهوم الثاني: الإنسَانُ قَدْ خلقَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ في أَحْسَنِ تقويم، ليُسْكِنَهُ خالداً مُخلَّداً في أحسَنِ مَسْكَنٍ، تكريماً لما منحه في خَلْقه من كمالات، وهي جنَّاتُ النّعيم ذاتُ المراتب والدرجات المتفاضلات، والّتي يقَعُ في ذروتها الفردوس الأعلى، بشَرْط أن يَمُرَّ في رِحْلَة امْتِحَانٍ يُثْبِتُ فيها استحقاقه وأهليَّته مع رحمة ربّه وفضله عليه لما كرَّمَهُ خالقُهُ به، ولِلْخُلُودِ في دَارِ كَرَامَتِهِ.

المفهوم الثالث: الإنسانُ الّذي يُثْبتُ امتحانُه عَدَم استحقاقه الخلودَ في دار كرامة اللَّه له، أو يُثْبت امتحانُه أنّ حكمةَ اللَّه تَقْضِي بحاجته إلى التطهير بمقدارٍ ما من العذاب، قبل التفضُّلِ عليه بالخلود في دار كرامة اللَّه، قد خلق اللَّه له في مقابل دار كرامته، دار عذاب، ذاتَ دركاتٍ متنازلات، ويَقعُ في أَحَطِّها وأَخَسِّها الدَّرْكُ الأَسْفَل، الذي يَسْتَحِقُّ الخلودَ فيه معذَّباً بأشدِّ أنواع العذاب أسْفَلُ السَّافلين.

المفهوم الرابع: حكمةُ اللَّهِ أحْكَمِ الحاكمين تقتضي لا محالَةَ أنْ يكون الدِّينُ (أيّ الجزاء) ثَمرَةَ امتحانِ ذوي الإرادات الحرَّة الّتي مَنَحَهُم الخالقُ إيَّاها، ليَعْبُرُوا رِحْلَةَ امتحانِهِمُ الأَمْثَلِ دون جَبْرٍ ولا إكراه.

والجزاءُ لا بُدَّ أن يكُونَ مَسْبُوقاً بالسُّؤَالِ، والحساب، وفَصْلِ القضاء.

المفهوم الخامس: الجزاءُ الَّذي تَقْتَضِيهِ حكمة الابتلاء (أي: الامتحان) غَيْرُ مُتَحقِّق كَما يَنْبَغِي له في ظُرُوف الحياة الدنيا، فلا بُدَّ إذَنْ أن نَفْهَمْ أنَّ حِكْمَةَ أحْكَمَ الحاكمين خالِقِ الإنْسان في أحْسَنِ تقويم، قَدْ قَرَّر في خُطَّتِهِ إيجاد حَيَاةٍ أُخرَىٰ بَعْدَ ظُرُوفِ الحياة الدنيا، وهٰذه الحياةُ الأُخْرَىٰ مُعَدَّةٌ لتحقيق الجزاء الأَمْثَلِ بالفضل في دار الكرامَةِ والنَّعيم، أو بالعَدْلِ في دارِ للإهانَةِ والعذاب.

وقَدْ سَمَّىٰ اللَّه زَمَنَ هٰذِهِ الحياة الأخرى: يَوْمَ الدِّين، أي: يَوْمَ الجَزاء. وسمَّاهُ الْيَوْمَ الآخر، وسمَّىٰ دار الإقامة فيه الدّار الآخِرَة.

المفهوم السادس: لمّا كانَ الإنسانُ المخلوقُ في أحْسَنِ تقويم، لا بُدَّ أنْ يَمُرَّ رِحْلَةَ الابتلاء لتَمْيِيزِ أفراده، وقد أنزل اللَّهُ الرّسالات الّتي تبيّن له مطلوبَ اللَّه منه، في هذه الرِّحْلَةِ الاختباريّة.

ولمّا كان من أفراد هذا الإنسان مَنْ يُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّين، ولاَ يُصَدِّقُ بشَأْنِهِ ما جاء به المُرْسَلُونَ الَّذين يُبَلِّغُون رِسالاتِ رَبِّهِم.

كانَ مِنَ الحِكْمَةِ العِلاَجِيَّة العقليَّة، أن يُخَاطِبَ اللَّه عزّ وجلّ هٰؤُلاَءِ المكذِّبين بالدِّين، بأسْلُوب الخطاب الإفراديّ، كما جاء في الدَّرْسِ الثاني من دَرْسَيْ السّورة.

فقال اللَّهُ عزّ وجلّ خطاباً لكلّ مكذِّبٍ بالدِّين، بأسْلُوب الخطاب الإفراديّ.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾:

أي: أيّ شَيْءٍ يَحْمِلُكَ فيَجْعَلُكَ تُكَذِّب بالدِّين، أي: بالجزاء الَّذي تقتضيه حِكْمَةُ أحكم الحاكمين، يا أيُّها الإنسانُ ذُو الفِكْرِ القادر على إدراك الحقّ بأدِلَّتِهِ، بَعْدَ أن خلقَكَ رَبُّكَ في أحْسَنِ تقويم.

إنَّ من أجَلِّ عَنَاصِرِ هٰذا التقويم الذي فضَّلَكَ على سائر المخلوقاتِ، قُدْرَتَكَ الفِكْرِيَّةَ على الفَهْم، والاستنباط، وإدْرَاكِ الحقائق عن طَرِيق أدلَّتِها وأماراتها، وإدْرَاكِ بواطنِ الأمُور استنتاجاً من ظواهرها، والاسْتِدلالِ على غَيْرِ المشهودِ بالمشهود، وبالقياس عليه.

أيُّ شَيْءٍ يَحْمِلُكَ بَعْدَ هٰذا الَّذِي أنت به في أحْسَنِ تقويم، فيَجْعَلُكَ تُكَذِّبُ الرَّسُولَ والقرآنَ المنزَّل من ربّك، بنبأ الدين، الذي سَوْفَ يكون في يوم الدّين، بَعْدَ البعث للحساب وفصْلِ القضاء وتحقيق الجزاء الأمثل ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧﴾، أي: بالجزاء الحكيم، الذي تقتضيه حِكْمَةُ خَلْقِكَ في أحْسَنِ تقويم.

إنّ النَّظَر الحصيف، إلى الدَّليل العقليّ، لا بُدَّ أن يَهْدِي أُولي الألباب المنصفين، الَّذين لا يتّبِعُون أهواءهم وشهواتهم ووساوس الشياطين وتسويلاتهم وتزييناتهم، إلى ضَرُورَةِ وجُودِ يوم الدّين، الّذي تقتضيه حَتْماً حِكْمَةُ اللَّه الرَّبِّ الخالِقِ العليم القدير، أحْكَم الحاكمين، الّذي يَفْعَلُ مَا يشَاءُ ويَخْتَارُ، فَلاَ يُعْيِيهِ ولاَ يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ممّا يُرِيدُ، إنَّمَا أَمْرُهُ إذا أرادَ شَيْئاً أن يقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُون.

● ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾؟!!

فإذا قُلْتَ أيُّها الإنْسَانُ المكَذِّبُ بالدّين: بلَىٰ، كَمَا يجبُ عَلَيْكَ عقلاً أنْ تَقُول، فَعَلَيْكَ أن تُؤْمِنَ بالدّين، لأنَّ الجزاء الحكيم، على أعمال المخلوق الاختيارية، الموضوع مَوْضِعَ الامتحانِ في ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، لاَزِمٌ عَقْلِيٌّ ضَرُورِيٌّ، فكَيْفَ بِحِكْمَةِ أَحْكَم الحاكِمين، رَبِّ العالمين، الرَّحْمٰنِ الرَّحيم، العَلِيم القدير، مَالِكِ يَوْمِ الابْتِلاَء، ومَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، يَوْمِ الجَزاء؟!!

﴿أَحْكَمُ﴾: صيغَةُ «أَفْعلُ» تَفْضيلٍ، مِنْ فِعْلِ «حَكَمَ» بمعنىٰ: «قَضَىٰ».

يُقال لُغَةً: حَكَمَ بالأَمْرِ يَحْكُمُ حُكْماً، أي: قضىٰ، ويُقالُ: حَكَمَ لَهُ، أي: أَصْدَرَ حُكْماً لمصحلته، وحَكَمَ عَلَيْهِ، أي: أَصْدَرَ حُكْماً بإدانته، وحَكَمَ بَيْنَهُمْ، أي: أَصْدَرَ حُكْماً فَصَلَ فِيهِ بينهم فأعطَىٰ بالحكم ذا الحقّ حَقَّهُ، وأدانَ مَنْ عَلَيْهِ الحقُّ بالحكم عليه.

﴿**أَحْكَمُ الحَاكِمِين**﴾: **الحاكمون**: جمع «الحاكِم» اسم الفاعل من حَكَم بمعنى قَضَىٰ، فالحاكم هو القاضي الذي يُصْدِر الأحكام.

وأَحْكَمُ الحاكمين: هو أفضل الحاكمين الذين يَحْكُمُونَ بالعَدْل، وخَيْرُهُمْ، والحاكم الذي يَمْلِكُ صلاحيَّة الحُكْمِ تقتضي حِكْمَتُهُ أنْ يَقْضِي بين العباد بِمَا يستحقُّون من عَدْلٍ أو فَضْل.

أمّا السّلْسلةُ الفكريَّةُ الّتي هَدَىٰ إليها هذا الدليل القرآنيُّ، الموجَزُ في عبارته، العميق في دلالته، الثَّرُّ في معانيهِ، فهي كما يلي:

أولاً:

لقَدْ غدا معلوماً لك أيُّها الإنسان أنَّ اللَّه عزّ وجلّ هو رَبُّ العالمين، خالقُ كلّ ما سِواهُ ومُبْدِعُهُ، وأنتَ خَلْقٌ من خَلْقِهِ، خلقك بقدرته المقرونة بحِكْمَتِهِ مَنْ علَق، وعلَّمَكَ بالْقَلَم، وعلّمَكَ بما وَهَبَكَ من وسائل وقُدْراتِ فِكْرٍ وفَهْم ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَم، وخَلَقَ كلَّ شَيْءٍ فسوَّاهُ أَحْسَنَ تَسْوِيَةٍ للغايَةِ الَّتِي أَعَدَّهُ لها، وقَدَّرَ فَهَدَىٰ، وأَخْرَجَ المَرْعَىٰ، فجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ، وصَبَّ المَاءَ، وشَقَّ الأَرْضَ، وأَنْبَتَ الزَّرْعَ، متاعاً للنّاس وأنعامهم، ومَلأَ كُلَّ شَيْءٍ في كَوْنِهِ بآياتِ وُجُودِهِ، وعِلْمِهِ، وقُدْرَتِهِ، وحِكْمَتِهِ، وهَيْمَنَتِهِ علىٰ كُلِّ شَيْءٍ، إلى غَيْرِ ذٰلِكَ من صفاته وأسمائه الحُسْنَىٰ.

ثانياً:

وغدا معلوماً لك أيُّها الإنسانُ أنَّكَ مَخْلُوقٌ في أحْسَنِ تَقْوِيم، قَدْ خَلَقَ رَبُّكَ أَباكَ آدَمَ على صُورَتِهِ، وأَنْتَ ذُرِّيَّةٌ من ذُرِّيَّتِهِ، وبَضْعَةٌ مِنْهُ، ونَسْلٌ مِنْ نَسْلِهِ.

ثالثاً:

وغدا معلوماً لَكَ أيُّها الإنسان أنَّ كُلَّ شَيْءٍ في ذَاتِكَ وفي الكون من حَوْلِكَ، موضوعٌ بعنايةٍ تامَّةٍ، وحِكْمَةٍ بالِغَةٍ، لغايَةٍ حكيمة.

رابعاً:

وغدا معلوماً لك أيُّها الإنسانُ بَعْدَ البياناتِ والأدلَّةِ الّتي وضَعَهَا رَبُّكَ بَيْنَ يَدَيْكَ، ونبَّهَكَ عليها، وناظرَكَ بها، فيما سَبَقَ أن أنزل قَبْلَ سُورَة «التّين» من قرآنٍ يُتْلَىٰ، أنّ الغاية من خلقك بصفاتك التي جَعَلَك بها في أحْسَنِ تَقويمٍ، إنَّما هي امتحانُكَ وابْتِلاَؤُكَ في ظروفِ هذه الحياة الدنيا، لمُحَاسَبَتِكَ، وفَصْلَ القضاء بِشَأْنِكَ، ومجازاتكَ على اختياراتك وتصرُّفاتِكَ الإراديَّة في رحلة امتحانك.

على أنَّ أولي الألباب الدَّرَّاكَة، تَصِلُ عقولُهُمْ إلى إدْرَاكِ هٰذه الغاية، متىٰ اسْتَبْصَرُوا صِفَاتِ أنفُسِهِمُ الّتي فُضِّلُوا بها على سائر ما يَشْهَدُونَ في الكَوْنِ.

إنَّهُمْ لا يشهدون شيئاً في الكون إلاَّ له غايةٌ حكيمة، فالماء لوظائفه في النبات والأحياء. والنباتُ لوظائفه في الأحياء والبهائم وغير ذلك. وحيواناتُ البَرِّ والبَحْرِ لوَظائفِهِا الّتي تُؤَدِّيها للإنسان، وَهِيَ مُسَخَّرَةٌ له. وكلُّ ما في الأَرْضِ والسَّمَاءِ مَخْلُوقٌ له، ومُسَخَّرٌ لما وهَبَهُ من قُدْراتٍ متىٰ وَصَلَ إلى مفاتيحها، وأحْسَنَ الانتفاع بها، دون معصيَةٍ للّه عزّ وجلّ في شيءٍ من ذلك.

خامساً:

بقي أن تُدْرِكَ أيُّها الإنسان أنَّ الغاية من خَلْقِكَ حُرَّ الإرادة، أنَّكَ مَخْلُوقٌ لرَبِّكَ، ليَمْتَحِنَكَ فيما آتاك، ثُمَّ يُحاسِبَكَ على اختياراتك في رحلة امتحانك، ويَفْصِلَ القضاء بشأنك، ويجازيكَ بالفَضْلِ إنْ أَحْسَنْتَ، وبالعَدْلِ إنْ أَسَأْتَ.

فَمِنْ غَيْرِ المقبول عقلاً أن يَخْلُقَكَ اللَّه بصفاتك الّتي مَنَحكَ إيَّاها، وفَضَّلَكَ بها على سائر خَلْقِهِ، والّتي تستَطِيعُ بها أنْ تكونَ طاغياً جبّاراً، وفاجراً كفّاراً. والّتي تستطيعُ بها أن تتكبَّرَ وتتعاظم، حتَّىٰ تَدَّعِي الرّبوبية، وتكلّف أمثالك من النّاس أن يعبدوك وتَجْعلَ نَفْسَكَ إلٰهاً على الناس من دون اللَّه.

من غير المقبول عقلاً أن يَتركَكَ خالِقُكَ بَعْدَ ذٰلِكَ سُدى، فَلا يُحَاسِبَكَ، ولا يُجازِيَكَ، وهو سُبحانَهُ أحْكَمُ الحَاكِمِين.

إنَّهُ لو كان الأَمْرُ كذلِكَ، لكانَتْ عَمليَّةُ الخَلْقِ كُلُّه عَبَثاً، ولَهْواً ولَعِباً.

لكِنَّ أحْكَمَ الحاكمين مُنَزَّهٌ عن العَبَثِ، وعن اللَّهْوِ واللَّعِبِ.

وهذا الذي يَهْتَدِي إليه أُولُوا الألْبَاب، قَدْ جاء بيانُه والإرشادُ إليه بتفصيلٍ في عِدَّةِ آياتٍ من القرآن المجيد:

(١) فقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول):

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾؟!

﴿سُدىً﴾: أي: مُهملاً غَيْرَ مكلَّفٍ ولا مَسْؤُولٍ، وغير موضوع موضِعَ الابتلاء في ظروف الحياةِ الدنيا، وغَيْرَ مُحَاسَبٍ ولا مُجازَى.

(٢) وقال اللَّه عزّ وجلّ في سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

(٣) وقال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾.

أي: فلَيْس من شأن الخالِقِ أحْكَمِ الحاكمين، أن يَعْبَثَ ويَلْهُوَ بخَلْقِهِ، ولا سِيّما مَنْ يُحِسُّ ويتألّم، ويَفْرَحُ ويَحْزَنُ.

إنَّ خَلْقَهُ مَقْرُونٌ بالحقّ، ويَهْدِفُ إلى غايةٍ حكيمة.

(٤) وقال اللّه عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾.

سادساً:

ثُمَّ بَعْدَ أن خلقك اللّهُ أيُّها الإنسانُ ليَبْلُوكَ في رحلة الحياة الدنيا، وظروفها المختلفات، ووضَعَكَ مَوْضِعَ الامتحان، بَعَثَ لكَ الرُّسُلَ، ليُبَلِّغُوا عَنِ اللّه مطلوبَ اللّهِ من الإنسان في رحلة ابتلائه، وأَرْسَلَ معهم رسالات، وأنزلَ عليهم الكتاب والميزان.

هذا ما تقتضيه حِكْمَةُ الحكيم، فكَيْفَ بأَحْكَمِ الحاكمين، اللّه رَبِّ العالمين.

سابعاً:

وبعد الامتحان يا أيُّها الإنسان، لا بُدَّ حتماً أن يأتي الحساب عن الأعمال الاختياريّة الإراديَّة، وفَصْلُ القضاء بشأنها، وتحقِيقُ الجزاء بالعدل، أو بالفضل.

وبما أنّ هذا لا يتمّ في ظروف الحياة الدنيا، فلا بُدَّ حتماً من أن تكون خُطَّةُ التكوينِ مشتملةً على ظروفِ حياةٍ أُخْرَى، يكون فيها الحسَابُ، وفَصْلُ القضاء، وتحقيق الجزاء.

فبَعْدَ انتهاء رحلة الابتلاء، ومَحْوِ ظُرُوفِها، لا بُدَّ أن تأتي النَّشْأَةُ الأخرى، بعثاً للحساب وفَصْلِ القضاء وتحقيق الجزاء بالفضل أو بالعدل، وهذه الحياة الأخرى هي حياة البقاء، وفيها دَارُ كَرامةِ اللَّهِ لمستحقّي الخلود في النّعيم بوَعْدِ اللَّه الكريم. وفيها دار الإهانة، للمعذّبين، وللذين يخلُدُونَ فيها من الكَفَرَةِ والفجرة والمجرمين.

فما أبدع الإيجاز وأعْمَقَ دَلالاته في قول اللَّه عزّ وجلّ خطاباً للمكذّب بيَوْمِ الدّين:

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾؟!!

بهذا قَامَتْ على الإنسان الحجَّةُ العقليَّةُ البرهانيَّةُ على ضرورة الدِّين بمعنى الجزاء، فلا عُذْرَ لَهُ إذا أنْكَرَهُ أوْ كَذَّبَ بالأنْبَاءِ الواردة بشأنه عن الرَّبّ جلّ جلاله.

﴿مَا﴾: اسْمُ استفهامٍ، والمعنى: أيُّ شَيْءٍ يَحْمِلُكَ أيُّهَا الإنسان على التكذيب بنبإِ يَوْم الدّين.

﴿الدِّين﴾: يأتي في اللّغة بمعنى الجزاء، وهذا المعنىٰ هو المرادُ هنا. تقولُ لُغةً: دِنْتُ فُلاَناً على عَمَلِهِ، إذا جَازيتَهُ عليه، قال الشاعر العربيّ:

دِنَّا تَمِيماً كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا   دَانَتْ أَوَائِلَهُمْ مِنْ سَالِفِ الزَّمَنِ

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِين﴾: استفهامٌ فيه معنىٰ الإنكار على الكافر المكذِّبِ بنبإ الدّين، مَع تنبيهه على الحجّة العَقْلِيَّةِ الَّتي تَدلُّ ذَوِي الألباب على ضَرُورَةِ الدّين، الَّذِي لا بُدَّ أن تقضي به حِكْمَةُ أَحْكَمِ الحاكمين.

وبهذا تمّ تَدَبُّر سورة «التين»

والحمد للَّه على فتحه وتوفيقه

❋ ❋ ❋

ملاحق لتدبّر سورة التين

الملحق الأول: حول بلاغيات في السورة.

الملحق الثاني: حول الأمن بمكة البلد الحرام



(٧)
الملحق الأول
حول بلاغيات في سورة التين

باستطاعة المتدبّر أن يستخرج طائفة من البلاغيات النفيسة في هذه السورة، ومنها ما يلي:

(١) الكناية البديعة الدقيقةُ ذاتُ اللّوازم المتعدّدة للوصول إلى المكنَّىٰ عنه بها.

ونجد هذه الكناية في القَسَم بعَدَدٍ من مهابط الوحي، للدّلالة على كمال الرّسالات الرَّبَّانيَّة الّتي أُنزلت فيها على طائفة من رُسُل اللّه عليهم السلام، مُشْتَمِلَةً على الهداية للّتي هي أقوم، ذات الخصائص الملائمة للإنسان الذي خلقه اللّه في أحْسَنِ تقويم، ووضعه في الحياة الدنيا موضع الابتلاء.

ونظير هذه الكناية أن يُقْسِمَ العاشقُ بخالِقِ وَالِدي معشوقته، وخالِقِ البلد الجميلة التي نَشَأتْ فيها، على أنّ قَلْبَهُ مُرْهَفُ الحسِّ، سَهْلُ الإصابة بسهام الجمال.

(٢) المجاز المرسَلُ بإطلاق اللاّزم وإرادةِ المَلْزُوم.

ونجد هذا المجاز المرسَلَ في جملة: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾، تعبيراً عمّا يفعل البارئ جلّ وعلا بالإنسان، للدلالة على أنَّ الإنسانَ قَدْ

تسفَّلَ باختياره الحرّ، اتّباعاً لشهواته وأهوائه وكِبْرِهِ وعُجْبِهِ بنفسه حتَّىٰ أوْصَلَ نفسه إلى الدّركة السُّفْلَى بكُفْرِهِ وسُلُوكِهِ، وهذا مَلْزُوم، فرَدَّهُ اللَّه بعَدْلِهِ رَدّاً عقابيّاً إلى أسْفَل سافلين، وهذا لازمه، فأُطْلِقَ اللاّزِمُ مُتَضَمّناً إرادَةَ المَلْزُوم.

(٣) الأسلوب المختار في هذه السورة هو الأسلوبُ غَيْرُ المباشر، للدلالة على المراد، وهو أسلوبٌ شبيهٌ بالأسلوب الرّمزيّ، مع أنّه ليس منه، إذْ هو مُحاطٌ بدلالات يكشفها المتدبّر، إذا استخدم السَّلاسل الفكريَّة العقليّة، للوصول بها إلى المراد.

وهذا من أمثلة العُمْقِ القرآني، الّذي يَكْشِفُه الغوَّاصُ لاستخراج المعاني من الأعماق الّتي لَهَا أمَاراتٌ تَدُلُّ عَلَيْهَا في السُّطوح.

(٤) التأكيد بالقسم، وببعض أدوات التأكيد الأخرى، وهذا ممّا يَسْهُل اكتشافه.



(٨)
الملحق الثاني
حول الأمن بمكّة البلد الحرام

وصف اللَّه عزّ وجلّ في سورة «التين» البلد الحرام بالبلد الأمين، أي: بالبلد الكثير الأَمْنِ.

إنّ قضيَّة أمْنِ مكّة قضيَّةٌ موروثَةٌ منذُ أسَّسَها سيّدُنا إبراهيم عليه السّلام، بولَدِهِ إسماعيلَ عليه السّلام، ثُمَّ بِبِنَاءِ الكَعْبَةِ المُشرَّفَةِ فيه، على المكان الّذي بوّأهُ اللَّه له، أي: أعْلَمَهُ به، وأنْزَلَهُ فيه، بَعْدَ أنْ أَمَرَهُ ببنائه على الموضع، الذي كان فيه أوّلُ بَيْتٍ لعِبادَةِ اللَّه عزّ وجلّ وُضِعَ للنَّاس في الأرْضِ، دلَّ على هذا قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وإذْ بَوَّأْنا لإبراهيم مَكَانَ الْبَيْتِ﴾: أي: وضَعْ في ذاكِرَتِكَ أيُّها المتلَقِّي أنَّنا هَيَّأْنا مَكَانَ الْبَيْتِ لإبراهيم، وكَشَفْنا لَهُ عن مَعَالِمِهِ، وأَعْلَمْنَاهُ به، ومَكَنَّا لَهُ فِيهِ، لِيَرْفَعَ قواعِدَهُ وجُدْرانه، ويَجْعَلَهُ بَيْتاً للَّهِ يحُجُّ النَّاسُ إليه، ويكونُ لهم مَثَابَةً وأمْناً، مُطَهَّراً من الشِّرْكِ والرِّجْسِ مِنَ الأَوْثَانِ، ومن الكفر والفُسُوقِ والعِصْيان.

يقال لغة: بَوَّأَهُ المكانَ، أي: أنزلَهُ فيه. وبوّأ المنزلَ له، أي: أعدَّهُ وهيَّأَهُ له، ويَدْخُلُ في هذا الإعلامُ بِهِ وكشفُ معالمه.

ويمكن أن نفهم من تعريف البيت بأداة التعريف «ال» أن تكون للعهد العِلْميّ، فيكون فيها دلالة على أنّه قد كانَ قديماً بيتاً لعبادة اللَّه لأُمَمٍ سالفةٍ قبل إبراهيم عليه السلام، ويؤكّدُ هذا الفَهْمَ قولُ اللَّه عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

بَكَّةَ: اسم من أسماء مكة البلد الحرام، سُمّيت بهذا الاسم لأنَّها كانت تَبُكُّ أعْناق الجبابرة إذا ألْحَدُوا فيها بظُلْم، أي: تَدُقُّ أعناقهم وتَكْسِرُهَا، وقيل: لأنّها مكانُ ازْدِحام الناس حول بيت اللَّه فيها، يقال لغةً: بكَّ الرَّجُلُ صاحِبَهُ يَبُكُّهُ بكّاً، أي: زاحَمَهُ. وبَكَّ فلانٌ يَبُكُّ بكَّةً، أي: زَحَمَ ودخل في الناس بقُوَّة، وتَبَاكَّ القومُ، أي: تَزَاحَمُوا.

ومعلومٌ أنّه قد كان في الناس قبل إبراهيم عليه السلام أُمَمٌ مكلّفَةٌ أن تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، ولَهَا بُيُوتُ عبادة يَعْبُدُونَ اللَّه عزّ وجلّ فيها، وهذه الآيَةُ تنصُّ على أنّ أوّلَ بَيْتٍ وُضِعَ للنَّاس، هو بيت اللَّه الحرام في مكّة.

وأَمْنُ مكّةَ البَلَدِ الحرامِ قد تناول ظاهرتين:

الظاهرة الأولى: ظاهِرَةٌ تكوينيَّة، إذْ حَمَىٰ اللَّه جلّ جلالُه مكَّة بجبالها، وطبيعة تكوينها من البراكين والزّلاَزِل، منذ قديم العُصُور الجيولوجيّة المصاحبة للتاريخ الإنسانيّ على الأرض، وكذلِكَ حَمَاهَا من الأحداث الكونيَّةِ الكُبْرَى، فَهِيَ سُرَّةُ الأرض، وأوّل ما بَرَدَ من قِشْرَتِها، وأَرْسَخُ مكانٍ فيها، وصخور جبالها من أقوى الصُّخُور وأصْلَبِهَا(١).

الظّاهرة الثانية: ظاهرةٌ تَشْرِيعيَّة، وتَدُلُّ عليها عدّةُ نصوصٍ قرآنيّة، وفيما يلي استعراضٌ لها مقرونٌ بشيءٍ من التدبّر:

(١) دعا إبراهيم عليه السلام ربَّه أن يَجْعَلَ هذا البَلَدَ بلداً آمناً، وأن يَرْزُقَ من الثَّمرات من آمَنَ باللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ من أَهْلِهِ، فاستجاب اللَّه عزّ وجلّ دُعاءه، ولٰكِنْ عَمَّمَ فَضْلَ رِزْقِهِ فيه على من آمَنَ ومن لم يُؤْمِنْ؛ لأَنَّ الحياة الدنيا حياةُ امتحانٍ للجميع، وما دام الممتَحَنُ في مجال الامتحان فلا بُدَّ أنْ يَنَالَهُ رِزقُه المقسُوم له طَوال مُدَّةِ امتحانه، تحقيقاً لشروط الامتحان الأمْثَل لجميع الممتَحِنِين.

وقد أبان اللَّهُ عزّ وجلّ هذا بقوله في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.

أي: قال اللَّه عزّ وجلّ لإبراهيم عليه السَّلام: قد اسْتُجِيبَتْ دعْوَتُك، ولٰكِنْ لا أُخصُّ بالمؤمنين الرِّزْقَ بالثمرات فيه، بَلْ سأرْزُقُ فيه من الثَّمَرَاتِ

---

(١) نشرت الصحف ما يلي: [واس ـ القاهرة]: أعلنت نتائج دراسة علمية أجراها المعهد القومي للبحوث الفلكيّة، والجيوفيزيقيّة في القاهرة، أنّ الكعبة المشرفة تمثل مركز الأرض.

مَنْ كَفَرَ أيضاً، وأُمَتِّعُهُ في الحياة الدُّنيا متاعاً قليلاً، ثُمَّ في يوم الدّين أجْعَلُهُ مَسُوقاً بالإكْرَاهُ لأن يكون داخلاً في دار العذاب، وذائقاً فيها عذاب النار، وبِئْسَ هذا المصير الذي هو صائِرٌ إليه.

ونظيره ما جاء في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) في الآية (٣٥).

(٢) وقال اللّه عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا. . . ﴿١٢٥﴾﴾.

مَثَابَةً للنَّاس: أي: بَيْتَ عبادَةٍ يُكَرِّرُونَ الرُّجوع إليه، ومَلْجأً لقُلُوبِهِم ونُفُوسِهِمْ وأمْنِهِم يَلْجَؤُونَ إليه، ومكانَ اجتماعٍ على اللّه يَجْتَمِعُونَ عنْدَهُ.

وأمْناً: أي: ومكان أَمْنٍ بحُكْمِ شريعة اللّه للمؤمنين من عباده.

واستمرَّتْ قاعِدَةُ الأَمْنِ التشريعيّة للْبَلَدِ الحرام في العَرَب، مُنْذُ عَهْدِ إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، حتّىٰ بِعْثَةِ محمد ﷺ، على الرغم من تحريف أهْلِ الجاهليّة للدّين الذي وَرِثُوه من إسماعيل عليه السّلام، وعلى الرُّغْم من إدخالهم الأوثان والشِّرك إلى مكّة والمَسْجِدِ الحرام، ونَصْبِهِمُ الأوثان في المسجد وعلى الكعبة.

(٣) وبعد البعثة المحمّديّة، ذَكَّرَ اللّهُ قريشاً بنِعْمَتِهِ عليهم بالرِّزْقِ والأَمْنِ من أجل بيتِهِ «الكعبة المشرّفة» وبلده البلد الحرام، إذْ هُمْ أهْلُهُ وساكِنُوهُ، فمِنَ الواجب عَلَيْهِم أنْ يَشْكُرُوا رَبَّ هذا البيت، الَّذي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وآمَنَهُمْ من خوفٍ، فيَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ، ولا يشركوا بعبادته أحداً، فقال اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (قريش/ ١٠٦ مصحف/ ٢٩ نزول):

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾.

ومعلومٌ أنَّ رِزقَهُمْ وأمْنَهُمْ الدائمين، إنّما هُمَا بِسَبَبِ هذا البَيْتِ الّذِي جَعَلَهُ اللّهُ مَثَابَةً للنّاسِ وأمْناً.

(٤) وأكّدَ اللّهُ عزّ وجلّ أمْنَ مكّة البلَدِ الحرام بحُكْمٍ تشريعيٍّ، فقال تعالىٰ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾.

أي: ومن دخله فيجبُ تأمينُه، وقد جاء التعبير بصيغَةِ الخبر المقطوع بوُقُوعه، ومعناهُ التكليفُ الإلْزامِيُّ من درجَةٍ قُصْوَىٰ، إذْ يَحْمِلُ في مضمُونه الوعيد بالعقاب المعجّلَ لمخالفي واجب التأمين في هذا البلَدِ الحرام، الّذي جَعَلَهُ اللّهُ عزّ وجلّ البلَدَ الأمين، فمَنْ خالَفَ فيه واجبَ التأمين، عاجَلَهُ اللّهُ عزّ وجلّ بالعقاب، ولَوْ بأيدي السلطة الحاكمة، فيَزْهَبُ كُلُّ مَنْ تُحدّثُهُ نَفْسُه بالإخْلاَلِ بأمنه، وبذلك يتحقّقُ مَضْمُونُ قولِهِ تعالىٰ التشريعيّ:

﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ ...﴾.

(٣) وقَدْ تَعلّلَ مشركو قريشٍ في رفضهم اتّباع هَذي الرّسول محمّد ﷺ، بأنَّهُمْ إذا اتّبَعُوهُ غضب سائر العرب، فحارَبُوهُمْ وتخطّفُوهُمْ، وأخرجوهم من بلَدِهِمْ؛ إذ قَبائل العرَب وثنيَّةٌ، وَهِيَ جميعاً تَدِينُ لقريشٍ، بِسَبَبِ أنّهُمْ سَدَنَة البيت الحرام الذي يُعظّمُونَهُ جميعاً، ويَفِدُونَ إلَيْهِ، حاجّين ومعتمرين، وبسبب أنّهُمْ سُلالَةُ إسماعيلَ بن إبراهيم مُؤسّسَي البلد الحرام عليهما السّلام، والبانِيَيْنِ للكَعْبَةِ بيت اللّه، وبِسَبَبِ أنّهُمْ رُعَاةُ وسَدَنَةٌ للأوثانِ الّتي في مكّةَ والمَسْجِدِ الحرام فيها، وهي

أوثانٌ تعظّمها قبائلُ العرب، فإذا تنكّرَ أهل مكّةَ لعقائد قَبائل العرب ومقدّساتهم الوثنيّة حاربُوهم وتخطّفُوهم.

فهم بدافع الحرص على وجودهم ومصالحهم، يَرْفُضون اتّباع الرّسول محمّد ﷺ في الدّين الذي جاءَهم به، الذي يَنْسِفُ العقائد الجاهليّة الشركيّة وعاداتها وتقاليدَها نسفاً، فَلاَ يُبْقِي إلاّ ما كان من أعمالهم خلقاً كريماً، أو موروثاً صحيحاً عن إسماعيل وإبراهيم عليهما السّلام من الدّين الحقّ.

فأبان اللَّه عزّ وجلّ لهم أنّ أَمْنَهُمْ وجباية الثمرات لهم من أقطار الأرض، إنّما هي مِنْحَةٌ من اللَّه لهم من أَجْلِ أَنَّهُمْ سُكَّانُ بَلَدِهِ، وسَدَنَةُ بَيْتِهِ المطهَّر، الّذي جعله اللَّهُ قياماً للناس، أي: مكاناً ثابتاً يثُوبُ الناسُ إليه في عباداتهم لربّهم، حاجّين ومعتمرين، ومتوجّهين له في صلواتهم، وجعله أمْناً، أي: مكان أمْنٍ، وأمَرَ بإبْعاد كلّ شِرْكٍ ورِجْسٍ عنه.

وأبان اللَّه عزّ وجلّ لهم أنّ أمْنَهُمْ وجبايَةَ الثمرات لهم ليس بسبب رضَىٰ قبائل العرب عَنْهُمْ، فالنَّاسُ من حَوْلِهِمْ يُتَخَطَّفُونَ وهم آمنون، فقال اللَّه عزّ وجلّ في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول):

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًاۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

(٥) ثُمَّ أنْزلَ اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) قولَهُ تعالىٰ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

وقد جاء هذا البيانُ بَعْدَ أنْ أذاقَهُمْ اللَّهُ بتأدِيبٍ عارِضٍ لباسَ الجوعِ والخوف بسبب ما كانوا يصنَعُون، لِيَعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ هو الذي يَمْنَحُهُمْ الرِّزْقَ والأَمْنَ في بلده، لا قبائلُ العَرَب، وما لَهُمْ عندهم من منزلة محترمة، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

وكانَ ذٰلِكَ بَعْدَ دُعَاءِ الرسول ﷺ عَلَيْهِمْ بأنْ يَجْعَلَهَا عليهم سِنِينَ كَسِنِي يُوسُف، فابْتُلُوا بالقَحْطِ حتَّىٰ أكَلُوا العِظَامَ، وأكلوا الميتة.

وقد ثبت في الصحيحين عن عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه عنه «أنّ رسولَ اللَّه ﷺ لَمَّا استَعْصَتْ عَلَيْه قريش دعا عَلَيْهم بسِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ، فَأَصَابَهُمْ قَحْطٌ وَجَهْدٌ حَتَّىٰ أَكَلُوا العِظَامَ والجُلُودَ والمَيْتَةَ والجِيَفَ، وصَارَ يَنْظُرُ أحَدُهُمْ إلى السَّمَاءِ فَيَرَىٰ الدُّخَانَ مِنَ الجُوعِ، فَأَتَاهُ أَبُو سُفْيانَ فَقال: يا مُحَمَّدُ إنَّكَ تَأْمُرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ، وبِصِلَةِ الرَّحِمِ، وإنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا، فَادْعُ اللَّهَ لَهُمْ».

لٰكِنْ لم يَرِدْ أنَّ المُرادَ بالقَرْيَةِ الَّتِي ضَرَبَهَا اللَّهُ مثلاً في الآيتَيْنِ الآنِفَتَي الذّكر من سُورَةِ (النّحل) هو ما جاء في هذا الحديث.

إنّما جاء في روايات الحديث ما يدُلُّ على أنَّ ما جاء في هذا الحديث قد جَاءَتِ الإشارة إليه بقول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ

أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

ويرى ابن مَسْعُود أنّ البَطْشَة الكبرىٰ قد كانت يوم غزوة بَدْرٍ الكبرى.



سورة قريش

١٠٦ مصحف ٢٩ نزول



(١)

نصّ سورة قريش وفرشياتها

سورة قريش

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

(١) قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿لإِيلَٰفِهِم﴾ بإثبات الياء.

- وقرأ ابْنُ عامر: ﴿لِئِلَٰفِهِمْ﴾ بحذف الياء.
- وقرأ أبو جعفر: ﴿لِيلَٰفِهِمْ﴾ بجعل الهمزة ياءً مَدّيّة.

(٢) قرأ جمهورُ القرّاء العشرة: ﴿إِيلَٰفِهِمْ﴾ بإثبَات الياء.

- وقرأ أبو جعفر: ﴿إِلَٰفِهِمْ﴾ بحَذْفِ الياء.

الإيلَافُ: مَصْدَرُ «آلَفَ» يُقالُ لُغَةً: آلَفَ فلانٌ الشَّيْءَ، أيْ أَلِفَهُ. «آلَفَ» على وَزْنِ «فاعَل».

الإلَافُ: مَصْدَرُ «أَلِفَ» يُقالُ لُغَة: أَلِفَ فُلَانٌ الشَّيْءَ يَأْلَفُهُ إِلْفاً، وَأَلْفاً، وإِلَافاً.

أَلِفَ فُلانٌ الشَّيْءَ، وآلَفَهُ، أيْ: أحبَّهُ وأنِسَ به واعْتَادَهُ ولَزِمَهُ، فَهُوَ آلِفٌ وأَلِيفٌ، وجَمْعُ «آلِفٍ» أُلاَّفٌ.

صيغة «آلَفَ إيلافاً» هي في الأصل تَدُلُّ على المشاركة، مثل: قاتَلَ وبايَعَ وجَاهَدَ، وكثيراً ما تَخْرُجُ عن هذا الأصل فَتَدُلُّ على الكثرة فقط، دون الدَّلالة على المشاركة، والإيلاف في هذه السّورة من هذا القبيل، والأصل فيه أنّ المتشاركَيْن المتقابلَيْن على سبيل المغَالَبَة يُبالغُ كُلٌّ منهما في بذل جَهْدِه ويضاعفه ليكون الظافر الغالب.

(٢)
موضوع السورة
وهي ذات دَرْسٍ واحد

هذه السّورة ذاتُ دَرْسٍ واحدٍ مُوجَّهٍ لقُرَيْش، ثُمَّ لكلّ سُكّان مكَّةَ البَلَدِ الحرام من بَعْدِهِمْ حتَّىٰ آخِرِ تاريخ وجود النّاس فيها.

وفي هذا الدَّرْسِ يستحِثُّ اللَّهُ عزَّ وجلَّ قُرَيْشاً سُكَّانَ مَكَّةَ المكرَّمَة، الّتي فيها بيتُ اللَّه المعظَّم، على عبادة رَبّ هذا البَيْتِ وَحْدَهُ، غَيْرَ مشركين به شيئاً، شكراً له على نِعْمَتِهِ الدَّائِمَةِ عَلَيْهم، بالرِّزْقِ والأَمْنِ، من أجْلِ بَيْتِهِ المطَهَّر، بينما يُتَخَطَّفُ الناس من حَوْلِهِم، كما سبق بيانه لدىٰ تدَبُّر سورة (التين) وقَسَمِ اللَّهِ عزّ وجلّ فيها بالبَلَدِ الأمِين، أي: بمكَّةَ المكرّمة، الّتي فيها بَيْتُ اللَّهِ المعظَّمُ المطهَّرُ.

(٣)
قصّةُ الإيلاَف

الإيلاَف، والإلاَف: عنوانٌ اصطلاحيٌّ تجاريٌّ عِنْدَ العرب، علىٰ العَهْدِ والأمان الّذي يَتِمُّ التعاقُدُ عَلَيْهِ بين قادة الأمم، لتأمين خروج ودُخُول السِّلَع التجاريّة والحامِلِين لها، في أراضي الَّذِين تعاقَدُوا على الإيلاف.

وقد كان لقريش إيلافٌ ذو امتدادٍ واسِعٍ مع ملُوكِ الرُّوم، وفارس، والحبشة، ومُلوكِ حِمْيَر في اليمن، وقد سخّر اللّه لقُرَيْشٍ هذا الإيلاف، وألْهَمَ المُلُوكَ الموافَقَةَ عليه، من أجْلِ بلَدِهِ الحرام، وبَيْتِهِ المطهّر فيه، واستجابَةً لدُعاء خليله إبراهيم عليه السلام، بأنْ يَجْعَلَ هذا البلَدَ آمناً، وبأن يَرْزُقَ أهْلَهُ المُؤمِنينَ من الثمرات، لكنّ اللّه في استجابته لم يخُصَّ الرّزْقَ بالمؤمنين، بل جعَلَهُ شاملاً من آمَنَ ومن لَمْ يُؤمِنْ في الحياة الدنيا، وأخَّرَ معاقبة الذين كفَرُوا إلى يَوْمِ الدّين، إلاّ من تقضي الحكمة إنزال العقاب العاجل به أيضاً مع العقاب الآجل، كالذين تعرَّضوا للعقاب العاجل من مشركي قريش بعد بعثة الرسول محمّد ﷺ.

وقد صنع هذا الإيلاف لقريش سَادَتُها بَنُو عبد مَنافِ الأربعة، وهم «هاشم، وعَبْدُ شمس، والمطّلب، ونَوْفل» على ما نقل ابن منظورٍ عن ابْنِ الأعرابي، قال: «أصحابُ الإيلاف أربعة: هاشم، وعَبْدُ شمس، والمطّلب، ونوفل، بنو عَبْدِ مناف، وكانُوا يُؤَلِّفُون الجِوَار، يُتْبِعُونَ بعضَهُ بعضاً، يُجِيرُونَ قُرَيشاً بمِيَرِهِم[1]، وكانُوا يُسَمَّوْنَ المُجِيرين.

- فأمّا هاشِمٌ: فإنَّهُ أَخَذَ حَبْلاً[2] من مَلِكِ الرُّوم.
- وأمّا نوفل: فإنَّهُ أَخَذَ حَبْلاً من كِسْرَى (أي: من مَلِكِ فارس).
- وأخذ عَبْد شَمْسٍ حبلاً من النجاشي (أي: من مَلِكِ الحبشة).
- وأخذ المطّلبُ حبلاً من مُلوكِ حِمْيَر (أي: مُلوك اليَمَن).

فكان تُجّارُ قريش يختلفون إلى هٰذهِ الأمصار بحبال هؤلاء الإخوة فلاَ يُتَعَرَّضُ لهم».

---

(١) مِيَر: جمع «مِيرَة» والميرةُ: الطعام الذي يُجْمَعُ للسَّفر أو لأوقات الحاجة إليه.

(٢) حَبْلاً: أي: عَهْداً.

وقال ابْنُ الأعرابيّ أيضاً:

«كان هاشمٌ يُؤْلِفُ إلى الشام، وعَبْدُ شمسٍ يُؤْلِف إلى الحبشة، والمطَّلِب إلى اليمن، ونوفلٌ إلى فارس»

قال ابْنُ الأنباريّ: «ومعنىٰ آلف إيلافاً، هو مِنْ «يُؤْلِفُون» أي: يُهَيِّئُون ويجهّزون».

أقول: ما ذَكَرَهُ ابْنُ الأعرابيّ أبْيَنُ للواقع المعهود، مع صِلَةِ الكلمة بمعناها اللّغويّ. ويَشْهَدُ لهذا ما رُوِيَ عن ابن عباس، قال: «وقَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٍ أنَّ أوّلَ مَنْ أخَذَ لَهَا الإيْلاَفَ لهَاشِمٌ. الإيلاف العَهْدُ والذّمام، كانَ هاشِمٌ بْنُ عَبْدِ منافٍ أخْذَهُ من المُلُوكِ لقُرَيْش»[١].

ومن هذا نستطيع أن نؤكّد أنَّ الإيلافَ قد صار عند القرشيّين قبل الإسلام عنواناً على هٰذِهِ الوسيلة التأمينيّة الناجحة، لرحلاتهم التجاريّة الّتي كانت تجلُبُ لهم خيراً ورِزْقاً واسعاً، مع أمْنِ الطريق والدُّخول إلى بُلْدَانِ الدُّوَل والخروج منها، ذاهبين وآيبين شتاءً وصَيْفاً، يجتازُون جنوباً إلى اليمن فالحبشة، وشمالاً وشرقاً وغرباً إلى الشام والعراق وفارس ومصر في أسفارٍ تجاريَّةٍ واسعة، وقد يتوغَّلُونَ حتَّىٰ الهند.

وهذا يدُلُّ على أنّ أهْلَ مكّة قد كانوا تُجَّاراً يضربون في مناكب الأرض آمنين في رحلاتهم التجاريّة، ويتّصِلُونَ بمعظم الممالك المتحضّرة يومئذٍ، ويَفِدُونَ على مُلُوكِهَا، ويُقَدِّمُونَ لهم الهدايَا، ويَعْقِدُونَ معهم عُهودَ تأمِينٍ، وتمكينٍ من القيام بأعْمالِ توريدٍ وتَصْدِيرٍ للسِّلَعِ التجاريّة، فكانت مكّةُ مركزاً تجارِيّاً ثَقيلاً، وكانت أَسْوَاق مكّةَ تَزْدَحِمُ بالتُّجّار وافدِينَ إلَيْهَا من مُخْتَلِف البلاد والقبائل العربية.

---

(١) عن لسان العرب لابن منظور.

وجاء عند المؤرّخين أنَّ أهْلَ مكَّةَ كانُوا حتىٰ ظهور الإسلام يَسْتَوْرِدُونَ من أفريقية عن طريق اليَمَن بتأمِينِ مُلُوكِ حِمْيَر والنجاشيّ لهم، وبالإيلافِ الّذي عَقَدُوهُ، الرّقيقَ، والصَّمْغَ، والعَاجَ، والتِّبْرَ. وكانوا يَسْتَوْرِدُونَ من اليَمَنِ الجُلُود والبخُور والثياب. ويَسْتَوْرِدُونَ من العراق وفارس توابل الهند وطُيُوبَهَا وغير ذلك، بتأمِين كِسْرَىٰ لهم، والإيلاف الذي بينهم وبينه. ويَسْتَوْرِدُون من الشّام ومِصْر الزّيوتَ والغِلاَلَ والأَسْلِحَة والحريرَ وغير ذلك، بتأمين قَيْصَر لهم، والإيلاف الذي بَيْنَهُمْ وبَيْنه.

وكانت القافلة التجاريَّة الذاهبة الآيبةُ قَدْ تَبْلُغُ قُرابَةَ أَلْفِ بَعِيرٍ أَوْ أَكْثَرَ، بحُمُولاَتٍ وأمْوالٍ قَدْ تَصِلُ إلى نَحْوِ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينارٍ أو أكثر.

وكانت رحلاتُهُمُ التجاريَّةُ الكُبْرَى في أَغْلَب أحوالها مُسَاهَماتٍ يَشْتَرِكُ فيها كلُّ ذي مال في مكَّة، ولو كان مالاً قليلاً، واستمرَّت هذه الرّحلات من إيلاف قريش حتَّى ظهر الإسلام.

هٰذِهِ الصّفة التجاريّةُ الّتي انفرد بها القُرَشِيُّونَ من بَيْنِ سائر العَرَب، والّتي هَيَّأَهَا لهم الإيلاف، إنَّما كانت لهم بِسَبَبِ كَوْنِهِم أهل حَرَمِ بَيْتِ اللّه في وسط العرب، حتَّى كانت قُرَيْشٌ تقول:

«نَحْنُ أَهْلُ اللَّه، وبَنُو إبْرَاهِيمَ، وَوُلاَةُ الْبَيْتِ الحرام، وساكنو حَرَمِهِ وقُطَّانُهُ، فَلَيْسَ لأَحَدٍ مِثْلُ حَقِّنا، ولا مِثْلُ مَنْزِلَتِنا، ولا تَعْرِفُ العَرَبُ لأَحَدٍ مِثْلَ مَا تَعْرِفُ لَنَا».

وجاء في الأخبار أنّ هاشم بنَ عبد مناف هو الذي سَنَّ لقريشٍ رِحْلَتَي الشتاءِ والصّيف.

وذلك أنّهم كانت تعتريهم خصاصة، فإذا لَمْ يَجِدْ أَهْلُ بَيْتٍ طعاماً لقُوتِهِمْ حَمَلَ رَبُّ البَيْتِ عِيالَهُ إلَىٰ مَوْضِعٍ مَعْرُوفٍ، فَضَرَبَ عَلَيْهِمْ خِباءً،

وبقُوا فيه حتَّىٰ يَمُوتُوا جُوعاً، ويُسَمَّىٰ هذا «الاعْتِفار»[1]. فَحَدَثَ أَنَّ أَهْل بَيْتٍ مِنْ بني مخزوم أَصَابَتْهُمْ فاقَةٌ شديدةٌ، فَهَمُّوا بالاعْتِفَار، فبَلَغَ خَبَرُهم هاشماً، لأنَّ أَحَدَ أَبْنَائِهِمْ كانَ تِرْباً[2] لأَسَدِ بْنِ هاشم، فقام هاشمٌ خطيباً في قرَيْشٍ وقال:

«إنَّكُمْ أَحْدَثْتُمْ حَدَثاً، تَقِلُّونَ فِيهِ وَتَكْثُرُ العَرَبُ، وتَذِلُّونَ وَتِعِزُّ العَرَب، وأَنْتُمْ أَهْلُ حَرَمِ اللَّهِ، والنَّاسُ لَكُمْ تُبَّعٌ، ويَكادُ هٰذا الاعْتِفَارُ يَأْتِي عَلَيْكُمْ».

ثُمَّ جَمَعَ كُلَّ بَني أَبٍ على رِحْلَتَيْنِ للتجارات، فما رَبِحَ الغَنِيُّ قَسَمَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الفَقِيرِ من عشيرَتِهِ، حتَّىٰ صارَ فقيرهم مِثْلَ غَنِيِّهِم.

وفي هذا قال مَطْرُود الخزاعيّ:

يا أَيُّهَا الرَّجُلُ المُحَوِّلُ رَحْلَهُ ... هَلَّا نَزَلْتَ بِآلِ عَبْدِ مَنَافِ
الأَخِذُونَ العَهْدَ مِنْ آفَاقِهَا ... والرَّاحِلُونَ لِرِحْلَةِ الإِيلَافِ
وَالخَالِطُونَ غَنِيَّهُمْ بِفَقِيرِهِمْ ... حَتَّىٰ يَصِيرَ فَقِيرُهُمْ كَالْكَافِي

كَالْكَافِي: أي: كالمستغني ذي الكفاية والغنىٰ، يقال: هو كافٍ وكَفِيّ، أي: ذُو غِنَىٰ.

(٤)
التدبر التحليلي لآيات سورة قريش

قال اللَّه عزّ وجلّ:

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾.

---

(١) **الاعتفار**: التعفّر والتمرّغ بالتراب، **العَفْرُ والعَفَرُ**: ظَاهِرُ التراب، إذْ يكون له غبارٌ يتعفَّرُن به.

(٢) **ترباً**: أي: صاحباً وصديقاً، إذ هو نظير له في سِنِّه.

﴿لإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾: سَبَقَ أَنْ عَرَفْنَا مَا هُو الإيلَافُ مُصْطلحاً تجارِيّاً عند العرب، ومعنىً لُغويّاً.

فالمصطلح التجاريّ: يَدُلُّ على العَقْدِ والعَهْدِ الذي يَتِمُّ به تَأْمِينُ قَوافل التُّجّارِ والسّلعِ التجارية، الّتي تَمُرُّ وتتنقَّل في أراضي وبُلْدانِ الذين تَمَّ معهم التّعاقد.

والمعنى اللّغَوِي: يَدُلُّ على محبَّةِ الشيء، واعتياده وملازمته والأنْسِ به، فالإيلافُ مَصْدَرٌ كالإِلْفِ، وكذلِكَ الإلاف، كما سبق بيانه.

وقد بدأت السُّورة ببيَان عِلَّةِ التكليف قَبْلَ توجيهِ الأمْر به، وهذا فنٌّ بَدِيعٌ مُبْتَكَرٌ في الأداء البيانيّ، واقترن بالحديث عن الذين قد وُجِّهَ لَهُمُ الأَمْرُ، بأسْلُوب الحَدِيثِ عن الغائب تَلَطُّفاً بهم، فاجتمع في النّصّ فَنَّانِ أَدبِيَّانِ جَمِيلان بليغان راقيان رائقان مُعْجِبان لمَنْ أَحْسَنَ تَذَوُّقَهُما.

فمَعْنَى السُّورَة بصُورةٍ عامَّةٍ موجَزَة هو كما يلي:

لأجْلِ إيلاف قريشٍ التجاريّ، الذي يَسَّرَهُ لهم ربُّ الكَعْبَة المشرّفة المطهّرة، بيتِ اللَّهِ الحرامِ، من أجْلِ بَيْتِهِ وحَرَمه الذي جعله آمناً، والّذي تمكَّنُوا به من محبَّةٍ واعتياد ومُلازَمَةِ رِحْلَاتهم التجاريَّة، الشتائيّة والصيفيَّة، جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً، والتي يَجْلُبُون بها أرزاقهم آمنين، ولأجْلِ حِرْصِهِم على عدم زوالِ نِعْمَتَي الرِّزق والأمن عَنْهم، إذَا كانوا مؤمنين باللَّهِ حقاً، فَلْيَعْبُدُوا شاكِرِين رَبَّ هٰذا البيتِ الذي أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف، لأنّهم أهْلُ حَرَمِهِ الآمِنِ المَرْزُوق؛ إذْ لَمْ يَجْعَلْهُمْ آمِنِينَ مَرْزُوقين غيره جلّ جلالُه، وعظم سلطانُهُ، وسَمَتْ حكمته.

ولمّا تضمَّنَ التَّعْليل في: **﴿لإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾**، مَعْنَى الشَّرْطِ، اقْتَرَنَ فعل الأمْرِ الذي هو بمثابة جواب الشّرط، بالفاء الّتي يُؤْتَى بها عادةً في جواب الشرط، فقال تعالىٰ: **﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ**

﴿هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ شكراً للّه على نِعْمَتِهِ الّتي لم يُشارِكْهُ في مَنْحِها لهم أحَدٌ.

ونظير هذا التعبير القرآنيّ أن نقول لمن نريد أن نَحُثَّه على الاجتهاد في الدّراسة:

لأَجْلِ رَغْبَتِكَ وحِرْصِكَ على النجاح المتفوّق دواماً، فادْرُسْ بجدٍّ واجتهادٍ، ولا تَشْغَلْ نَفْسَكَ بِمَا يُلْهِيكَ ويُضِيع أوقاتَكَ سُدًى.

اللّام في: [لإِيلاَفِ] هي لام التعليل. و«إيلافِ قريشٍ» عنوان للمصطلح التجاريّ الأمْني الذي كانت قريش تَعْقِده مع رؤساء الأمم، وتأْخُذُ به عهداً وذِماماً كما سلف به البيان.

والجار والمجرور متعلّقان بفِعْل: [فَلْيَعْبُدُوا] قُدّم المعمولُ هنا على العامل فيه لتوجيه عناية قريش واهتمامهم لقضيّتَيْ رزقهم وأمنهم بما هيَّأ لهم رَبُّ هذا البَيْتِ من إيلاف يجلُبُونَ به أرزاقهم ويحقّقُون به أمنهم، وقَدْ حَقَّقَ اللّه لهم ذٰلِكَ من أَجْلِ بيته وحَرَمِهِ الذي قَضَىٰ اللَّهُ أنْ يجعله آمناً، ويجعل سُكَّانَهُ تُجْبَىٰ إلَيْهِم ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ ذي ثَمرٍ نافع في الغذاء، أو في الدّواء، أو غَيْرِ ذلك.

﴿إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ والصَّيْفِ﴾: بدلٌ أو عَطْفُ بيان من: [لإِيلاَفِ قريش] الذي جاء عنواناً للمصطلح التجاريّ الأَمْنِيّ.

﴿إِيلَافِهِمْ﴾: الإيلاف في هذه العبارة مستعملٌ للدّلالة على المعنى اللّغوي، الذي هو الإلْفُ والاعتياد والملازمة مع الاستئناس والرّغبة، لتحصيل المنافع بجلب الأرزاق مع الأمن.

﴿رِحْلَةَ﴾: اسْمٌ للارتحال، وهو الانتقال من مكانٍ إلى مكانٍ آخر بعيد.

﴿والشتاء﴾: أحد الفصول الأربعة من السنة الشمسيّة، تنخفض فيه درجات الحرارة عادة.

﴿والصَّيف﴾: أحد الفصول الأربعة من السنة الشمسيّة، وترتفع فيه درجاتُ الحرارة عادةً.

وعَرْضُ العنوان بعبارة: [لإيلاَفِ قريش] يستَدْعي سؤالين غَيْرَ مذكورين في النّصّ:

السؤال الأوّل: أيَّ شَيْءٍ كانت تفعل قريشٌ بإيلافها؟

وجاء جوابُه في الفقرة التالية البيانيّة: **﴿إيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ والصَّيفِ﴾**.

السؤال الثاني: ما هُو المطلوبُ من قُرَيْشٍ من أجْلِ نِعْمَةِ اللّهِ عليهم بهذا الإيلاف؟

وجاء جَوابُه في قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾.

وفي عبارة ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ المختارة بعناية إشارةٌ إلى أنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ أَكْرَمَ قريشاً بهذا الإيلافُ، وأطعمهم من جوع وآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ، من أجل بيته المشرَّف المعظّم، الذي جعله مثابة للنّاس، وجعل حَرَمَهُ آمِناً، أمْناً تكوينيّاً، وأمْناً تشريعيّاً تَكْلِيفيّاً.

﴿أطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾: أي: أطْعَمَهُمْ حامياً لهم من جوع، على تَضْمِين فعل «أطْعَم» معنى فعل «حمىٰ» فَعُدِّي تَعْدِيَته.

﴿وآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾: أي: وآمَنَهُمْ حامياً لهم من خوف، على تضمينِ فعل «آمَنَ» معنى فعل «حَمَىٰ» فعُدِّيَ تَعْدِيَته.

وهذا التضمين من بدائع الإيجاز في القرآن.

آمَنَ: يقال لغة: آمَنَ فُلاَنٌ فُلاناً، أبي: اتَّخَذَ وسَائِلَ وأسباباً كان بها آمِناً، فجعله بما فعل آمِناً.

تنكير لفظتي «(جُوعٍ وخوف)» للإشارة إلى نَوْعٍ جوعٍ، ونوع خَوْفٍ، وهما نوعا الجوعِ العامّ، والخَوْفِ العامّ، لا الجوع والخوف الذين قد يُصِيبَانِ بعض الأفراد بقضاء اللّه وقَدَرِهِ، لحكمةٍ اختِبَارِيَّة، أو تربويَّةٍ، أو جزائيّة.

وهذا ما جعل «مُسَاوِرَ بْنَ هِنْدٍ» يقولُ في هِجَاءِ بني أَسَدٍ:

زَعَمْتُمْ أنَّ إخْوَتَكُمْ قُرَيْشٌ ... لَهُمْ إلْفٌ وَلَيْسَ لَكُمْ إلاَفُ

أُولٰئِكَ أُومِنُوا جُوعاً وخَوْفاً ... وَقَدْ جَاعَتْ بَنُو أَسَدٍ وخَافُوا

المعنى العامّ الذي دلَّتْ عليه السُّورة:

إذا كانت قريشٌ، وكذلك كلُّ من يَسْكُنُ مكَّة حتى آخر تاريخ الناس على الأرض، يُريدُون دوامَ المحافظة على رِزْقِهِمْ وأمْنِهِم، فَلْيَعْبُدوا رَبَّ هذا البيت، الذي يُطْعِمُهُمْ فَيَحْمِيهم من جُوع، بما يُهَيّئُ لهم من أسباب الرّزق ووسائله، والذي يُؤَمّنُهم فيَحْمِيم من خَوْفٍ، بما يُهَيّئ لهم من أسباب الأمن ووسائله.

فاللَّهُ جلَّ جلالُهُ رَبُّ هذا البيت المشَرَّفِ المعظّم المطهّر، هو وَحْدَهُ الّذي يُهَيّئُ لَهُمْ بفَضْلِهِ الرِّزْقَ والأَمْنَ الدَّائِمَيْن، من أجْلِ بَيْتِهِ المعظّم، وحَرَمِهِ الآمن، ليكونَ مثابةً للنَّاس وأمْناً، فالنَّاسُ يَثُوبُون إلَيْهِ حيناً بَعْدَ حين، فلا يَفْرَغُ من وافدين إليه حَاجِّين، أو معتمرين زائرين، أو طائفين أو راكعين ساجدين، ارتباطاً بمَرْكَز التَّوْحِيد، في رَمْزِهِ الماديِّ في الأرض، ويأمَنُون فيه على أنْفُسِهِمْ وأموالهم وكراماتهم وعبادَاتِهم.

وبهذا تم تدبّر سورة قريش، والحمد للّه على فتحه وتوفيقه.

❊ ❊ ❊

سُورَةُ القَارِعَة

١٠١ مُصْحَف ٣٠ نزول



(١)

نصّ السّورة وفرشيُّها

سورة القارعة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

---

١٠ ـ قرأ يعقوب، وحَمْزَة ﴿مَا هِيَ﴾ بحذف هاء السَّكت في حالة الوصل، وبإثباتها ﴿مَاهِيَه﴾ في الوقف.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿مَاهِيَهْ﴾ بإثبات هاء السَّكْتِ في حالَتي الوصل والوقف.

(٢)
موضوع سورة القارعة

وهي ذات درسين

(١) يتناول موضوعُ السّورة عَرْضَ لَقْطَتَيْنِ وصَفِيَّتَيْنِ مَهُولَتَيْنِ مُثِيرَتَيْنِ للفَزَعِ الشّديد، من أحداث قيام السَّاعَةِ، في نَفْسِ المتلَقّي الّذي يَخْشَىٰ اللَّه، فاللقطَةُ الأولى تَعْرِضُ مَشْهَدَ النَّاسِ مَبْثُوثِينَ مُتَطَايِرِين كالْفَراش، بسبب ما يَحْدُثُ في الأرض من أحداثٍ تَقْذِفُ ما عليها من أشياء، فتجَعَلُها متناثِرَةً طائشةً كَطَيْشِ الفراشِ المَبْثُوثِ. واللَّقْطَةُ الثّانية تُبَيِّنُ أنَّ الجبال الّتي كانَتْ صُلْبَةً راسخَةً قد صارت أكْواماً لَينَةً مُنْتَفِخَةً لا صلابةَ فيها، فهي كالصّوف المنفوش ذي الألوان المتعدّدة.

وجَاءَ عَرْضُ هاتَيْنِ اللّقطتين في الدَّرْسِ الأوّل من دَرْسَيْها، وهو الآيات من (١ ـ ٥).

(٢) ويتناوَل إخباراً عن صُورَةٍ مُنْتَزِعَةٍ من صُوَرِ الحِسَابِ يَوْم الدّين، مع تَرْكِ الذّهْنِ يَسْتَدْعِي ما يمكن أنْ يكون قَبْلَها وبَعْدَها، هِيَ صورَةُ ثِقَلِ موازِين المؤمِنِينَ النَّاجِين، وخِفَّةِ موازين الكافرين الذين لم يُقدّموا من الإيمان والعَمَل الصّالح ما يُثَقِّل موازينهم.

وإخباراً مُوجزاً عن ثواب الناجين، بأنَّهم في عيشةٍ راضية، وعن عقاب الخاسِرين الكافرين بأنَّهم سَيُكَبُّون على رؤوسهم في نارٍ حامية، فَيَهْوون في اتجاه قَعْرِها.

وجاء بيانُ هٰذَيْنِ الخَبَرَيْنِ في الدَّرْسِ الثّاني من دَرْسَيْها، وهو الآيات من (٦ ـ ١١) آخر السُّورة.

(٣)
التدبّر التحليلي للدرس الأول من دَرْسَيها

وهو الآيات من (١ ـ ٥)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾.

﴿**القَارِعَة**﴾: اسْمُ «فاعل» وَصْفاً لمؤنثة من فِعْل «قَرَعَ الشَّيْءَ يَقْرَعُهُ قَرْعاً فهو قارِعٌ وهِيَ قَارِعةٌ».

الْقَرْعُ: الضَّرْبُ، يقالُ: قَرَعَ المؤدّبُ المُسِيءَ بالْعَصا أو بالمِقْرَعَةِ، أي: ضَرَبَهُ.

ويُقالُ: قَرَعَ فُلاناً أمْرٌ، أي: أتَاهُ فُجَاءَةً، وهذا المعنىٰ ملائِمٌ لمَا سَمَّاهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في هذه السّورَة [القَارِعَة].

وتُطْلَقُ القَارِعَةُ في اللُّغَةِ أيضاً على المُصِيبَة، يُقالُ لُغَةً: قَرعَتْهُمْ قوارِعُ الدَّهر، أي: أصابَتْهُمْ مصائبُه، وهٰذا المعنى ملائِمٌ أيضاً لما جاء في هٰذه السّورَة.

﴿**مَا الْقَارِعَةُ**﴾؟!! استفهامٌ تعجيبيٌّ مِنْ هَوْلِ القارعة الَّتي ستَحْدُث، أيْ: أَعْظِمْ مُتَعَجِّباً أيُّها الإنسانُ في هٰذه الحياة الدُّنيا، من الحَادِثَة العظيمة الشديدة المهُولة الّتي سَتَحْدُثُ، والتي نَصِفُها بأنَّها القارعَةُ بأفْخَمِ معاني هذا الوَصْفِ وأَشَدِّهِ، واعْلَمْ أنَّها قادِمَةٌ لا محالة.

● ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾؟!

سبق شرح وتحليل أمثال هذه العبارة في أثناء تدبّر سورة (القدر/ ٩٧

مصحف/ ٢٥ نزول) عند شرح قول الله فيها: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢﴾.

﴿**وَمَا أَدْرَاكَ**﴾: أي: وأيُّ شيءٍ أعْلَمَكَ؟ فلفظ «ما» اسم استفهام، يُسْتَفْهَمُ به عن حقيقة الشَّيْءِ وماهيّته، وهي جملة مؤلّفة من مبتدأ وخبر.

﴿**مَا الْقَارِعَة**﴾؟! أي: أيَّةُ حادثةٍ عظيمة خطيرة مَهُولَةٍ حادِثة القارعة؟! استفهام يرادُ به التعجيب من هَوْل القارعة وأحداثها الجسام. وهي جملة مؤلّفة من مبتدأ هو «ما» الاستفهاميّة التعجيبيّة، وخبر هو «القارعة».

وجملة: ﴿**ما القارعة**﴾؟! في محل نَصْبٍ سَدَّتْ مَسَدَّ مَفْعُولَيْن. والتقدير: وَمَا أَدْرَاكَ مُعْلِماً إيَّاك هَوْلَ القارعة.

والاستفهام في: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ**﴾؟! ونظيره يتضمَّن معنى نفي علم المخاطب بما هو مسؤولٌ عنه. أي: أنتَ لا تدري مهما انْطَلَقَ بكَ الخيالُ مدىٰ هول القارعة، إلاّ إذا أعلمناكَ بذلك، وفي هذا دلالة كافيةٌ على أنّها ذَاتُ أحْدَاثٍ مَهُولة جسَام.

وأُعِيدُ القولَ: بأنّه قد تكرّر في القرآن الكريم مِثْلُ هذا الاستعمال، حتىٰ صار معلوماً أنّهُ أسْلُوبٌ من أساليب التهويل والتّكبير والتعجيب.

ولدى التحليل التدبري يظْهَرُ أنَّهُ صِيغَةٌ من صيغ التعجيب القرآنيّة المبتكرة، ضمن أصول اللّسان العربيّ.

أي: أعظم بهول أحداث القارعة إعظاماً لا يَصِلُ إليه مدى إدْرَاكِكَ. وقد غدا معلوماً أنّ هذه العبارة أبلغ من صيغتي التعجُّب والتعجيب «ما أَفْعَلَهُ... وأَفعِلْ به».

● قول اللّه تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ۝٥﴾.

بعدَ الإعداد النفسيّ للتعرُّف على بَعْضِ أَنْبَاءِ هذا الحدث العظيم المَهُولِ القادم، الّذي أُطْلِقَ عليه لفظ «القارعة»، وقُدِّمَتْ للتعجيب من هَوْلِهِ ومن أحداثه الجِسَام عبارتا الاستفهام التعجيبيّ: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾، جاء بيانُ بعض مظاهر أحداثها.

إنّها حادثَةٌ عظيمة مَهُولَةٌ تكونُ يَوْمَ يكونُ الناسُ بِسَبَبِ ما يجري فيها من تفجيرات وتغييرات وتَبْدِيلات، مُتَنَاثِرين مُتَطَايِرين كالفَرَاشِ المَبْثُوثِ، وتكُونُ الجبالُ الرَّاسِيَاتُ الرَّاسِخَاتُ مُنْتَفِخَةً مَنْفُوشَةً لاَ صلابَة فيها، فهي حينئذٍ كالصُّوف المنفوش.

ما هٰذه الحادثة القارعة العظيمة المَهُولَة الّتي تَنْفُذُ إلى أَعْمَاقِ جبال الأرض كلّها، فتُغَيِّرُ طَبِيعَتها الصَّلْدَة الرَّاسِخَة، فتَجْعَلُها كالصُّوف المَنْفُوش المَنْدُوف، مع بقاء أَلْوان صُخُورِها المختلفة فيها؟!!

العِهْن: هو الصُّوف المَصْبُوغ بألْوانٍ مختلفة اخْتَلَطَ بَعْضُها بِبَعْضٍ.

المَنْفوش: هو الذي نُفِّشَ بالمِنْدَفِ لِيَرِقَّ فَيَصْلُحَ لغَزْلِهِ خُيُوطاً.

ومشهد هذا العِهْنِ المنفوش قد كان مشهداً مألوفاً في معظم بيوت العرب، لأنّهم كانوا يأتون بالصُّوف، فيَغْسِلُونَه، ثم يصبُغُون كُلَّ قِسْم منه بلَوْن، ثُمَّ يخلطون هذه المَصْبُوغاتِ ببعضها، ثُمَّ ينفشونها لغزلها وإبرامها خيوطاً.

ما هٰذه الحادِثَةُ القارِعَةُ العظيمَةُ المَهُولَةُ الّتي تَجْعَلُ الناس يُقْذَفُونَ مُتَاطِرِينَ عن سَطْحِ الأرض، مُنْبَثِّين لا أوزان لَهُمْ على الأرض، طَائِشِين في كُلِّ اتّجاهٍ، كالفَرَاشِ المبثوث؟!

إنّها لاَ بُدَّ أنْ تَكُونَ حادِثَةً عظيمةً جداً، وعامّةً للكُرَةِ الأرضيَّةِ كُلّها.

لكنَّ تَصْيِير الجبالِ كالعِهْنِ المَنْفُوش حَدَثٌ سابقٌ لمراحِلَ لاحقة،

تتطوَّرُ فيها أحوال الجبال بالأحداث الجِسَام الّتي سَتَحْدُثُ في الكون، فقد جاء في البيانات القرآنية أنَّ الجبال في أحداث السّاعة تمرُّ بمراحل:

المرحلة الأولى: مرحلةُ تصيير الجبال كالعِهْنِ المنفوش، وهو ما جاء بيانه في سورة القارعة.

المرحلة الثانية: مرحلة بَسِّ الجبال، **البَسُّ**: التفتيتُ الذي تصير به صخور الجبال رِمالاً ناعمةً، فَهَبَاءً مَنْثُوراً، ويَحْدُثُ هذا مع رَجِّ الأرض، وهو ما جاء بيانُه في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) بقول اللّه تعالىٰ:

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾.

الرَّجُّ: الْهَزُّ والتَّحْرِيكُ بشدَّة.

الهَبَاءُ: هو الترابُ الناعم الذي يَنْبَثُّ في الهواء، فلا يَبْدُو إلاّ في ضوء الشمس.

المرحلة الثالثة: مرحلَةٌ تكونُ فيها الجبال كالكثيب المَهِيل، **الكثيب**: الرَّمْلُ المستطيل المُحْدَودِبِ. **المَهِيل**: أي: الذي يَسِيلُ مُتَدافعاً إلى الأسفل بفِعْلِ فاعلٍ يحرّكُهُ أقلَّ تحريك.

دلّ على هذه المرحلة قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (المزمّل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول):

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

المرحلة الرابعة: مرحلة النَّسْفُ، وهو التذريَةُ والتفريق، دلَّ عليها قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾.

النَّسْفُ: التذريَةُ والتفريق.

وبهذا النسف تكون ذرّات الجبال هَباءً مُنْبَثّاً، وقد دلَّ عليه ما جاء في النّصّ الذي اسْتَشْهَدنَا به آنفاً من سورة (الواقعة):

﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾.

وبهذا النّسف يَحْدُثُ تَسْيير الجبال، وبه تَحْدُثُ المرحلة الخامسة.

المَرْحلة الخامسة: مرحَلَةٌ لا يكون فيها وجودٌ للجبال في مواضعها، إذْ تصير سَراباً، دلّ على هذه المرحلة قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (النّبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول):

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾.

المرحلة السادسة: مرحلة تكُونُ فيها الأرضُ سطحاً مُسْتَوِياً، ليس فيها اعْوِجاجٌ، ولا ارتفاعٌ وانخفاض، دلَّ على هٰذه المرحلة قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾.

قاعاً: أي: أرضاً مُسْتَوِيةً.

الصَّفْصَفُ: المستوي من الأرض الذي لا نَبَاتَ فيه.

لا تَرَى فِيها عِوَجاً: أي: لا ترىٰ فيها انْحِرافاً ولا الْتِواءً.

ولاَ أَمْتاً: أي: ولا تَرَىٰ فيها ارْتِفاعاً، بَلْ كُلُّها مُسْتَوِيَةٌ.

ويَدُلُّنا على هٰذِهِ المراحل التسلسل المنطقي للأحداث، بالقِياس على سُنَنِ اللّه في كونه.

وبالنظر إلى هذا التسلسل يَتَرَجَّحُ لَدَيَّ أنّ صيرورة النَّاس كالفراش

المَبْثُوثِ، وصَيْرُورَةَ الجبال كالعِهْنِ المنفوش، من الأحداث التي ستَحْدُثُ عند قيام ساعَةِ إنْهاءِ ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، إذْ تقوم السَّاعة على شِرَارِ الخَلْقِ، لذلك تَتَفَجَّرُ الأَرْضُ من تَحْتِهِمْ تفجُّرات على قَدْرِ سَطْحِها، فتقْذِفُ بهم، فيتطايَرُون تَطَايُرَ الفراش طائشين على مقادير قُوَىٰ التَّفَجُّرات. وتَجْرِي أحداثُ تفجُّرَاتِ داخل ذَرَّاتِ الجبال، فتُبَاعِدُ بَيْنَها حتىٰ تَكُونَ كالصُّوفِ الملَوَّن المَنْفُوش.

وبهذا الفَهْم نُدْرِكُ أنَّ المراد بالقَارعةِ أحداثُ قيام الساعة، التي تنتهي بها ظروف الحياة الدنيا، والله أعلم.

أمّا يوم البعث، فإنهم يخرجون إلى ربّهم ينسلون نَسْلاً[1]، كما جاء في سورة (يس/٣٨ مصحف/٤١ نزول):

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

ويخرجون كأنَّهم جراد منتشر كما جاء في سورة (القَمر/٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿. . . يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾.

أي: يخرجون من قبورهم كما يخرج الجراد حينما يتوالد ويَنْتَشِر، فيَمْشُون مُسْرِعين إلى محشرهم ولاَ يتطايَرُون طائشين كالفراش المبثوثِ.

وبعد تقديم مَشْهَدَيْنِ من المشاهد التي ستحدثُ بالقارعة التي تقوم بها السّاعة الإفنائية، يَقْفِزُ البيان في السّورة إلى بيان الغاية من وراء أحداث السّاعة الإفنائية، التي يأتي بَعْدَها البَعْثُ للحياةِ الأُخْرَى، ألاَ وهو الحسَابُ وفَصْلُ القضاء، وتَحْقِيقُ الجزاء.

---

(١) **يَنسِلُون**: أي: يُسْرِعُونَ في المَشْيِ كمَشْية الذئب إذا أسرع.

وهُنا تأتي في السُّورة آياتُ الدَّرْس الثَّاني من دَرْسَيْها، وفيها دلالة على الغايَةِ بإيجاز.



(٤)
التدبُّر التحليلي للدرس الثاني من درسَيِ السُّورة

وهو الآيات من (٦ ـ ١١)

قال اللّه عزّ وجلّ:

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾.

تمهيد:

بين الدَّرس الأوَّل من دَرْسَيِ السُّورَةِ، والدَّرس الثاني سؤالٌ مطويٌّ مفادُه:

لِمَ هٰذِهِ الأَحْدَاثُ الجِسَامُ وهٰذِهِ التغييراتُ الكونيَّة العظيمة، وما هِيَ الغايةُ منها؟!

وجاء الدَّرْسُ الثَّاني مُتَضَمِّناً مُوجزاً لَمْحِيّاً من الإجابة على السؤال المطويّ، إذْ جاء فيه الاكْتِفَاءُ بذِكْرِ مُجْمَلٍ عن النتيجة، الَّتي تَدُلُّ على سَوَابقها.

والمطويُّ من الجواب هُنا قَدْ صَرَّحَتْ به آياتٌ قُرْآنِيَّةٌ كثيرات، في سُوَرٍ متعدِّدَاتٍ، نَزَلَتْ في مَرَاحِلَ مُتَتَابِعاتٍ من نُجُومِ التَّنزيل.

وخلاصَتُهُ أنَّ هٰذِهِ الأَحْدَاث إنَّما هي مُقدّماتٌ، تأتي بعدها أحداثٌ

مُتتابِعاتٌ، ثُمَّ يكونُ بَعْثُ الأمْوات إلى الحياة الأُخْرَىٰ، ثُمَّ يَكُونُ الحَشْرُ، ثُمَّ يَكُونُ الحِسَابُ، وفَصْلُ القضاء بين العباد، على ما قَدَّمُوا في رحلة امتحانهم في الحياة الدُّنيا، ثُمَّ يكونُ تَحْقِيقُ الجزاء.

والجزاء يَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْنِ عَظِيمَيْن كُلِّيَّيْن:

القسم الأول: قِسْمُ أهل الجنّة على تفاضل دَرَجاتهم، وقد دَلَّ عليه في الدرس الثاني قول اللّٰه عزّ وجلّ:

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾.

القسم الثاني: قِسْمُ أهْلِ النّار، على تَنَازُلِ دَرَكاتِهِم، وتوالي انْحِطاطاتهم حتَّىٰ الدَّرْك الأسْفَلِ من النار. وقد دَلَّ عليه في الدّرس الثاني قولُ اللّٰه عزّ وجلّ:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾.

«أمّا» حرفٌ فيه معنى الشرط والتوكيد دائماً، ويَدُلُّ على معنى الشرط لُزُوم الفاء بعدها، وفيه معنى التفصيل غالباً، ويَدُلُّ عليه استقراء مواقعها، وهي في هذه السّورة تحمل معاني الشرط والتوكيد والتفصيل.

ولمّا كانَ الحِسَابُ العادل الدقيقُ يعتمد على موازين ربَّانيَّةٍ دَقيقة جداً، لا تُغَادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلاَّ أحْصَتْهَا ووزنتها، كانَ من الحكمة البيانيّة المتعلّقة بيوم الدّين، التّنبيهُ على هٰذِهِ الموازين.

ولعلَّ المراد بذِكْرِ الموازين مَجْمُوعَةً غَيْرَ مُفْرَدَة في عبارتَيْ: [ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ] و[خَفَّتْ مَوَازِينُهُ] التّنْبيهُ علىٰ أنَّها موازينُ مُتَنَوِّعَةٌ تُناسِبُ صُنُوفَ الأعمال وأنواعها، القلبيَّة والنفسيَّة والفِكْريَّة والجسَدِيَّة، ثُمَّ تُجْمَع نتائجُ حسابات الموازين، وتُبْنَىٰ عليها أحكامُ العَدْل والفضل الرَّبَّانيّة.

وأبَانَ هٰذا الدَّرْسُ من دَرْسَيْ السُّورة، أنَّ طريقَةَ الوَزْنِ في موازينِ يوم الدّين، تَعْتَمِدُ على ثِقَلِ الأعْمَالِ الصَّالِحَة، أمَّا الأعمالُ السيّئةُ والأعْمَالُ الحياديّة الّتي لاَ تُصَنَّفُ مع الصَّالحاتِ ولا مَعَ السَّيِّئاتِ، فهي سالبة خَفِيفَةٌ، أوْ طائشَةٌ إلَىٰ جانِبِ السَّلْبِ، فالحياديَّةُ لاَ وَزْنَ لَهَا، والأعمالُ السَّيِّئَةُ ذاتُ وَزْنٍ سالبٍ.

وهٰذِهِ الموازينُ لاَ تتحرّكُ إلى جانهبِ الرُّجْحَانِ حتىٰ إشارَةِ النَّجَاةِ، فالنَّجَاحِ، فالفَوْزِ، فالفَلاَحِ، إلاَّ بالأعْمَالِ الصَّالحةِ الَّتي جَعَلَ اللَّهُ لَهَا ثِقلاً، وهذه الأعمال الصالحةُ تَشْمَلُ كُلَّ ما يكسِبُهُ الإنْسَان بإرادَتِهِ الحرّة مِنْ مراضي اللَّه، فتشمَلُ الإيمانَ الصحيح الصادق، والنّيَّاتِ، والأفكارَ، وحرَكاتِ النُّفُوسِ الإرادية، وتَشْمَلُ الأعمال الظاهرة الّتي هي من آثار الإيمان، والمقرونة بالإخلاص للَّه تعالىٰ، مع التزام أحكام شريعته.

فَمِنَ النّاس مَنْ تَصِلُ إشارَةُ ثِقَلِ أعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ إلى الرّقم الذي عنده قرار النجاة من الخلود في النار، بسبب المقدار الكافي من إيمانه لاستحقاقه بعد التطهير بالعذاب أن يدخل الجنّة.

وتَرْتَقِي الإشارة صاعدةً بحسَبِ ثِقَلِ الأعْمَالِ الصالحة، وعند كُلِّ رَقمٍ صاعدٍ مقدارٌ من التخفيف من العذاب على المعاصي والذّنوب والمخالفات، إذا لم يشملْها عفو اللَّهِ وغُفْرانُه، ضِمْنَ حِكْمَتِهِ وعِلْمِهِ بعباده.

ثُمَّ تَرْتقي الإشارةُ صاعدةً بحَسَبِ ثِقَلِ الأعمال الصالحة، وعند كلّ رقم صاعدٍ درجَةٌ من درجاتِ الارتقاء في الجنّة.

وتستمرُّ إشاراتُ الموازينِ صاعدةً، على مقادير الأعمال الصالحة الّتي قَدَّمَهَا العَبْدُ في الحياة الدنيا حياةَ الامتحان، حتىٰ مَنْزِلَةِ الفِرْدَوْسِ الأعلىٰ، حَيْثُ يَنْزِلُ الرَّفِيقُ الأَعْلَى المنعَّمُ في أسْمَىٰ درجاتِ النّعيم.

ومنزلة الفردوس ينالُها بفَضْلِ اللَّه مَنْ كانَ من أهْلِ هذه المرتَبَة، بأعْماله الصالحة ذاتِ الوزن الثقيل عند اللَّه.

وقد عَلِمْنَا من نُصُوصِ الشريعَةِ المختلفة، أنَّ العَمَلَ الصَّالِحَ ذَا الوزن المنجِي من الخلود في عذاب النار، هو الإيمانُ الصّحيحُ الصادقُ، الخالِصُ من الشّرْكِ باللَّه.

واقْتَصَرَ البيان هُنَا في التعبير عن نعيم الجنّة لِمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ على بيان أنَّهُ في عِيشَةٍ راضية، فقال تعالىٰ:

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾.

أي: في عيشَةٍ ذَاتِ رِضا، بمعنىٰ أنَّ صاحِبَهَا يكونُ راضياً كامِل الرضىٰ، إذْ يَنَالُ فيها كُلَّ مَا يَطْلُبُهُ من نعيم، وفَوْقَ ما يَطْلُبُهُ منه بمزيدٍ من فيوضِ عطاء اللَّه، حتىٰ يكونَ راضياً، غيرَ متكدّرٍ من حِرْمَانٍ أو نُقْصانٍ عمَّا يَطْلُبُ أو يتمنّىٰ.

ويرى البلاغيُّون في عبارة: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ أنّه من قبيل المجاز العقلي[1]، إذْ أُسنِدَ الرّضا إلى العيشة، والأصْلُ أنَّهُ هو الراضي بها، والملابَسَة أنَّهُ هُو صاحبُ العيشَةِ، فهي جُزْءٌ من ذاته.

والغرضُ البيانيُّ الإشعارُ بمُصاحَبَةِ الرِّضا لكلّ أجزاء عيشَةِ المؤمن في الجنّة، فَلاَ يُوجَدُ عُنصُرٌ منها، ولا أجزاءٌ زَمَنِيَّةٌ مرافقَةٌ لَهَا تَخْلُو من الرّضا، وهذا المعنى لاَ تُؤَدّيه عبارة: فهو راضٍ عن عيشته، وذلِكَ لأنَّ الإنسانَ قد يَرْضَى عَنْ عيشته ولو دخَلَتْ ضِمْنَهَا مُنغِّصَات، إذْ هو يَنْظُرُ إلى عيشَتِهِ باعتبار الأغلب من أحوالها، بخلاف العيشة نفسها الّتي تَمُرُّ أجزاءً مع توالي الأزمان؛ إذْ كُلُّ جُزْءٍ منها مُنفَكٌّ عن سابقه وعن لاحِقِهِ، فإسناد الرّضا إليها يَدُلُّ على أنَّ كُلَّ أجزائِها مَغْمُورٌ بالرِّضا.

---

(١) **المجاز العقلي**: إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له في اعتقاد المتكلّم، لملابَسَةٍ بينهما، مع قرينة صارفة عن أن يكون الإسناد إلى ما هو له في اعتقاد المتكلم.

ووصْفُ العيشة بأنّها رَاضِيَة بقوّة الإسناد في قولنا: عيشَتُهُ رَاضِية. والأصل: عيشته مرضيٌّ عَنْها.

ولم يأتِ في السورة بيانٌ تفصيليٌّ عن الدّرجات المتفاضلات في جنّاتِ النعيم، أخْذاً بحِكْمَةِ التدرُّج في البيان، وتجزئةِ تقديم المعارف الدينيّة على مراحل، وتوزيعها على متفرّقات النصوص في القرآن، ففي السُّور الّتي نزلَتْ بعد سورة (القارعة) حتى آخِرِ ما نزل من قُرْآن تفصيلات كافِياتٌ يتمّمُ بعضها بعضاً، وهذا منهج قرآنيٌّ يَدُلُّ على أنَّهُ مُنَزَّلٌ من لَدُنْ حكيم حميد، ولو كان من عند غير اللَّه لَوَجَدُوا فيه اختلافاً كثيراً.

واقتصر البيان في السورة أيضاً لدى التعبير عن العذاب في النّار لِمَنْ خَفَّتْ موازينُه على بيان أنَّ أُمَّهُ هَاوِيَة، وعلى أنّها نارٌ حامية، فقال اللَّه عزّ وجلّ:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾.

﴿فَأُمُّه﴾: أي: فَمُسْتَقَرُّه الّذي سيَصِيرُ إليه ويَسْتَقِرُّ فيه، والمكان الذي يضُمُّهُ، ويَجْمَعُ أمْثالَه.

﴿هَاوِيَة﴾: اسم من أسماء جهنّم لأنّها ذَاتُ عُمْقٍ سحيقٍ، يهوي السَّاقِطُ فيه. وهذا من إطلاقِ اسم الفاعل على المكان الذي يحصُلُ الهُوِيُّ فيه.

وقد جاء في النُّصوص بَيَانُ أنَّ بَعْضَ المُعَذّبين في جهنَّم يَهْوُون فيها، في اتّجاه أعماقها.

● روى البخاري عن أبي هريرة أنّ النبيّ ﷺ قال:

«إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّه، لاَ يُلْقِي لَهَا بِالاً، يَرْفَعُ اللَّهُ

بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّم».

● وروى الترمذيّ وابْنُ ماجه والحاكم عن أبي هريرة أيضاً، أن النبيّ ﷺ قال:

«إنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ لاَ يَرَىٰ بِهَا بَأْساً، يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفاً في النَّارِ».

وقد تَرَجَّحَ لديّ أن المراد بقوله تعالىٰ: ﴿فَأُمُّه هَاوِيَةٌ﴾ فمستقَرُّهُ جهنَّمُ الّتي تضمُّهُ وأمثالَهُ، لِمَا ثَبَتَ في اللّغة من أن الأُمَّ لكلّ شَيْءٍ المَجْمَعُ والمضَمُّ.

قال ابْنُ شُمَيل من اللُّغَويّين: الأُمُّ لكلّ شيءٍ المَجْمَعُ والمَضَمُّ، ومِنْهُ إطْلاَقُ أُمَيَّة بْنِ أَبِي الصَّلْتِ على الأرض اسْمَ الأمّ بقوله:

فَالأَرْضُ مَعْقِلُنَا وَكَانَتْ أُمَّنَا فِيهَا مَقَابِرُنَا وَفِيهَا نُولَدُ

وتفسير ﴿فَأُمُّهُ﴾ بقَوْلِنا: فَمُسْتَقَرُّهُ، هو الملائم لمَعْنَىٰ النَّصّ هُنا فيما أرىٰ، وهو أَحَدُ المعاني اللُّغَويَّةِ لِلَفْظِ الأَمّ، دون تأويل ولا تقديرات، وهذا المعنى هو الذي فسَّرَ به الأَخْفَشُ لفظ «الأمّ» في النّصّ هنا، فقال: أُمُّهُ: مستقرُّهُ. وقال قتادة: فَأُمُّهُ: فَمَصِيرُهُ، وهو بمعنى ما قال الأخفش.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ﴾؟! أي: وما أَعْلَمَكَ ما هِيَ هٰذِه الهاوية؟!

وفي هذا الاستفهام معنىٰ تعظيم أمرها، وبيان أنَّها شيءٌ مَهُولٌ مخيفٌ جداً.

قوله تعالىٰ: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾، أي: هي نارٌ عظيمةٌ جداً، وهي حامِيَةٌ شَدِيدَةُ الحرارة.

وبهذا تمّ تدبُّر سورة القارعة والحمد للّه على فتحه ومَنّهِ.

سُورَةُ القِيَامَة

٧٥ مصحف ٣١ نزول



(١)

نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات

سورة القيامة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾

---

١ ـ قرأ ابن كثير والبزي في وجه عنه: ﴿لأُقْسِمُ﴾ بالإثبات.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة والبزّي في الوجه الآخر عنه: ﴿لاَ أُقْسِمُ﴾ بالنفي.

٣ ـ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر: ﴿أَيَحْسَبُ﴾ بفتح السّين.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿أَيَحْسِبُ﴾ بكسر السين، وهما وجهان عَربيان.

٧ ـ قرأ نَافع وأبو جَعْفَر: ﴿بَرَقَ﴾ بفتح الراء.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿بَرِقَ﴾ بكسر الراء، وهما لغتان بمعنى دَهِشَ فَلَمْ يُبْصِرْ.

٢٠ ـ ٢١ قرأ ابن كثير وأبو عَمْرو وابن عامر ويعقوب: ﴿يُحِبُّونَ ـ ويَذَرُونَ﴾ بياء

وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ (٢٨) وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ (٣٥) أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ (٤٠)

الغائب فيهما.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿تُحِبُّونَ ـ وتَذَرُونَ﴾ بتاءِ الخطاب.

وفي هاتين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني.

٢٧ ـ قرأحفص ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ بسَكْتَةٍ لطيفة من غَير تنفّس، على نون ﴿من﴾.

■ وقرأ باقي القراء العشرة بإدغام النون بالرّاء. وهما وجهان من الأداء.

٣٦ ـ قرأ ابْنُ عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر: ﴿أَيَحْسَبُ﴾ بفتح السين.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿أَيَحْسِبُ﴾ بكَسْر السين.

والقراءتان وجهان عَربيان جائزان، وكلاهما بمعنى يظُنُّ ظنّاً ضعيفاً توهُّمياً.

٣٧ ـ قرأ حَفْصٌ ويعقوب: ﴿يُمْنَىٰ﴾ بالياء على أنّ الضّمير في الفعل عائد إلى: [مَنِيّ].

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿تُمْنَىٰ﴾ بالتاء على أنّ الضمير في الفعل عائد إلى: [نُطْفَةٌ].

وفي القراءتين تكامُلٌ في التعبير عن المعنى المراد، إذ النطفة هي نطفَةُ المنيّ، والمنيُّ هو المادّة الّتي اشتملت عليها النّطفة.

(٢)
موضوع سورة القيامة

يتناول موضوع سورة (القيامة) الحديث عن اليوم الآخر والجزاء الرَّبَّانيّ المقرّر على أعمال الممتحَنين في رحلة الحياة الدنيا.

فقد سَبَقَ في طائفة من السُّوَر النّازلة قبل سورة (القيامة) بيانات خَبَرِيَّة، ومعالجاتٌ إقناعيَّةٌ، وتقديمُ لقطاتٍ من مشاهِدِ يَوْمِ الدّين، ولقطاتٍ من مشاهِدِ أحْدَاثِ السَّاعَةِ الّتِي يكُونُ بها إنْهَاءُ ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، وطائِفَةٍ من أَمْثِلَةِ الجزاء الرَّبَّانيّ المعجَّل الّذي أَهْلَكَ اللَّهُ به المكذِّبين الأوَّلِين، الَّذين كَفَرُوا بربّهم، وكذَّبُوا رُسُلَهُ الّذين أرْسَلَهُمْ إليهم، وكذّبوا بما جاءوهم بلاغاً عن ربّهم.

والمتابعة في سورة (القيامة) تشتمل على دَفْعِ تَوَهُّمَاتٍ قَدْ يَتَوَهَّمُهَا المنكرون الجاحِدُون، وعلى بيانِ بَعْضِ الدَّوافع لإنْكَارِ الجزاء الرَّبَّانيّ يَوْمَ القيامة، فنبَّهَتِ السُّورة على رَغَباتِ الفُجُورِ، وحُبِّ العاجِلَةِ وَتَرْكِ الآخرة، في نفوس المكذِّبين.

وتشتمل على عَرْضِ بَعْضِ لقطاتٍ من مشاهد أحداثِ قيام الساعةِ الإفْنَائِيَّة، وبعضِ لقطاتٍ من مشاهِدِ أحْدَاثِ يَوْمِ الدِّين، الّتي تكونُ بَعْدَ البَعْثِ. وبعضِ لقطاتٍ من أحْوَالِ مَوْتِ الإنْسَانِ حين انتهاء أجَلِهِ في الحياة الدنيا.

وتشتمِل على تأنِيبٍ للإنسان المكذّب بيوم الدين، وعرضِ بعض الحجج الإقناعيّة الّتي تَدُلُّ على أنَّ الحِكْمَةَ الرَّبَّانيّة السَّاميَة تقتضي الجزاء حَتْماً، وتَدُلُّ على أنَّ العَقْلَ السَّوِيَّ لا يَقْبَلُ مُرُورَ الإنسان في الحياة الدنيا، وما يَشْتَمِلُ عليه تاريخُه فيها، دُونَ أنْ يُلاقي جزاءَهُ على ما قَدَّم فيها من خَيْرٍ أو شرّ باختيارِهِ الإراديّ. وتَدُلُّ على أنَّ ظواهِرَ بَدْءِ خَلْقِ الإنسان

شواهِدُ كافياتٌ دَالأتٌ على قُدْرَة خالقِهِ على إعادتِهِ إلى الحياةِ بَعْدَ المَوْت.

وجاء في أثناء دُروس السُّورة دَرْسٌ اعْتِراضِيٌّ خارجٌ عن موضوع السورة، فيه تَرْبِيَةٌ للرَّسول محمّد ﷺ، بشأن تعجُّلِهِ في تَلَقّي القرآن، إذْ كان هذا التعجُّل منه قد حَصَلَ أثناء تَلَقّيه سورة (القيامة) فجاءَتِ التربيَةُ الرَّبّانيَّةُ له عندَ تَعَجُّلِهِ، قُرْآناً يُتْلَىٰ ضِمْنَ السُّورَةِ، لِتَعْلِيمنَا أسْلُوباً من أساليب العِلاجِ التربويّ الحَكِيم الذي يكون عند ممارسة العمل المخالف للأكمل والأحسن.

وسورَةُ (القيامة) قد جاءَتْ بمثابةِ إضَافَاتٍ تفصيليَّة لمَا جاء في سُورَتَي «التين» و«القارِعَة» وإضافاتٍ في البناء الكُلّيّ لمَوْضُوع الجزاء الرَّبّاني الّذي تعرَّضَتْ له سَوابقُ السُّور في نُجُومِ التنزيل.



(٣)
دروس سورة القيامة

تشتمل هذه السّورة على سبعة دروسٍ مترابطة في وِحْدَةِ موضوع قرآنيّ، باستثناء الدرس الثاني منها، الذي جاء درساً اعتراضياً خاصّاً بتربية اللّه للرسول محمّد ﷺ، يُعَلِّمُه اللّه فيه أنْ لاَ يُحَرِّكَ بالقرآن لِسَانه مُتَعَجّلاً لِيَحْفَظَ ما يُنَزَّلُ عليه منه، قَبْلَ أنْ يَنْتَهِي الوَحْيُ من تَلْقِينه كامِلَ النَّجْم الّذي يُوحِي به إليه.

والظاهِرُ أنَّ هٰذا الدَّرسَ الاعتراضِيّ قَدْ نَزَلَ عِنْدَ تَعَجُّلِ الرَّسُولِ ﷺ في تَلَقّيه من جِبْرِيلِ عليه السَّلام سُورَةَ القِيَامَة، واقتضت الحِكْمَةُ التَّرْبَوِيَّةُ وضْعَهُ عَقِبَ الدَّرْسِ الأوّل من دُرُوسها، وجَعْلَهُ الدَّرْسَ الثَّاني، لتَعْلِيمِنا كَيْفَ يكون التوجيه التربويُّ التعليميُّ عَقِبَ التصرُّف المخالِفِ لما يَنْبَغِي، أو لمَا هو الأحْسَنُ والأفضل.

أمّا دُرُوسُ السُّورَة فهي كما يلي:

الدَّرْس الأول:

تضمّن معالجة الإنسان المنكر للبعث والجزاء يَوْم القيامة بتأكيد خبره بالقسم، إنْ كان من الَّذِينَ يتأثَّرُون بالمؤكدات الّتي تشتمل على القَسَم، وتضمَّن مناقشته حول توهُّماته التي يحسَبُ فيها عَدَم قُدْرَة اللّه على إعادته إلى الحياة بعد الموت، وبَعْدَ مصير عظامِ جَسَدِه عِظاماً نَخِرَةً بالِيَةً.

وتضمَّن بيان بعض دوافع نَفْسِه لإنكار يَوْم القيامة وما فيه من جزاء، وهي أنَّهُ يُرِيد أن يَسْتَمِرَّ فاجراً حتىٰ تَأْتِيَهُ مَنِيَّتُه في الحياة الدنيا.

وتضمَّنَ عَرْضَ لَقْطَةٍ من مشاهد أحداثِ الساعة الّتي يكون بها إنهاءُ ظُرُوف الحياة الدنيا، ولَقْطَةٍ من مشاهد أحْدَاثِ يوم القيامة، إذْ تُعْرَضُ على الإنسان يَوْمَئِذٍ أعْمَالُه، فَيُنَبَّأُ بكلّ ما قَدَّمَ وكُلِّ ما أخَّرَ من عملٍ، وبَيانَ مُحاولة تَمَلُّصِه من جرائمه الّتي ارتكَبَهَا في الحياة الدنيا، حياة امتحانه، مع أنَّهُ يَعْلَمُ تماماً ما كان قد عمله في الدنيا، ولَوْ حاوَلَ أن يَسْتُرَ قبائحَهُ وجرائمه بالإنكار، وتلفيقِ الأعذار.

هذا الدرس هو ما اشتملت عليه الآيات من (١ ـ ١٥).

الدرس الثاني:

هو الدرس الاعتراضيُّ الذي وجَّه اللّه عزّ وجلّ فيه التربية لرسوله محمّد ﷺ، بأنْ لا يُحَرِّكَ بالقرآن لسانَهُ من قبل أنْ يُقضَى إليه وَحْيُه، وتعهَّد اللّه عزّ وجلّ بأنْ يَجْمَعَهُ لَهُ في ذاكِرَته، ويُعِينَهُ على قِراءَتِهِ، قراءةً سليمة كما أنزلَهُ عَلَيْه، وأبانَ له فيه أنّه جلَّ جلالُه سَيُبَيِّن مُسْتَقْبلاً كُلَّ ما فيه من حقائق، تناولَتْ عُلُومَ الدّين والدُّنْيا والآخرة.

وهو الآيات من (١٦ ـ ١٩).

الدرس الثالث:

درسٌ خاطبَ اللَّه عزّ وجلَّ به النّاسَ جميعاً، وفيهم الّذين يُكَذِّبُون بالدِّين وباليوم الآخر زاجراً لهم، فأبان لهم فيه أن سَبَبَ توَلّيهم عَنِ الإيمان بالآخرة، أو إعراضهم، أو استغراقهم في المعاصي والمخالفات، أنّهم مُتَعَلِّقُو القُلُوب والنُّفُوس بالعاجلة الفانيَةِ، تَارِكُون للآخرة وزاهدون فيها، فَهُمْ يُحِبُّون العاجلة ويَذَرُونَ الآخرة.

وهو الآيتان (٢٠ ـ ٢١).

الدرس الرابع:

تضمَّنَ عرض مَشْهَدَيْنِ من مشاهد النَّاسِ يوم القيامة.

● أحدُهُما يُصَوِّرُ وُجُوهَ المؤمنين الناجين، الَّذِين قضىٰ اللَّهُ لهم بأنْ يَدْخُلُوا جنَّاتِ النعيم، فهؤلاء وجوهُهُمْ ناضِرةٌ.

● والآخَر يُصَوِّرُ وُجُوهَ الخاسرين الّذين قضىٰ اللَّه عليهم بأنْ يَكُونُوا من أهل النار، فهؤلاء وُجُوهُهُمْ كالِحَةٌ باسِرَةٌ.

وهو الآياتُ من (٢٢ ـ ٢٥).

الدرس الخامس:

تضمَّن عرض مَشْهَد الإنسان في السّاعات الّتي تَكُونُ قُبَيْلَ انْتِهاءِ أجَلِهِ في الحياة الدنيا، حتَّىٰ قَبْضِ رُوحِهِ ومُفارَقَتِهِ ما يُحِبُّ ومن يُحِبُّ في دنياه.

وهو الآيات من (٢٦ ـ ٣٠).

الدرس السادس:

تضَمَّنَ عَرْضَ لقطةٍ من حساب الكافِرِ بين يَدَيْ ربّه يوم الدّين.

وهو الآياتُ من (٣١ ـ ٣٥).

الدرس السابع:

تضمّن إقامةَ الحجّة الدَّامِغَة للإنسان المكذّب بِيَوْمِ الدّين، بأنّه من غير المُمْكِنِ في حكمة اللّه عزّ وجلّ أنْ يَتْرُكَ الإنسان سُدىً مُهْمَلاً، دُونَ أن يُتَابِعَ أعماله الاختياريَّة الإراديّة بالحسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء. وتَضَمَّنَ إقامةَ الحجّة له، لدَفْعِ تَوَهُّمِهِ أنَّ الخالقَ جلَّ جلالُه غَيْرُ قادِرٍ علىٰ إحياءِ الموتَىٰ بَعْدَ أنْ تتفرَّقَ أجزاء أجسادهم في تراب الأرض بالفَنَاءِ الَّذِي يَحْدُثُ فيها.

وهو الآيات من (٣٦ ـ ٤٠) آخر السّورة.



(٤)
التدبر التحليلي لآيات الدرس الأول من دروس السورة

وهو الآيات من (١ ـ ١٥)

قال اللّه عزّ وجلّ:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾.

هٰذا دَرْسٌ عظيمٌ جليل يَصْلُحُ أنْ يَكُونَ سُورَةً فَذَّةً، لكنَّ اللّه عزَّ وجلَّ ضَمَّ إليه دُرُوساً أُخْرَىٰ، وجعلها سُورَةً ذاتَ طُولٍ يُعادِلُ نحو سَبْعٍ من قصار السُّوَر، تَرَقّياً في التَّنْزِيلِ، بين قصارٍ من السُّوَر، فأطْوَلَ، فَقِصَارٍ، فأطْوَلَ، حتَّىٰ الطِّوال، ثُمَّ حتَّىٰ سُورَةِ (البقرة) ونَحْوِها في التنزيل المدنيّ، مُراعاةً لأحْسَنِ الأساليبِ التَّعْلِيميَّة، والتكليفيّة الملائمة لطبائع الناس.

وقد اشتمل هذا الدرس على أربع قضايا متعانقة المعاني والأهداف:

القضيّةُ الأولى:

● قول اللّه تعالىٰ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾:

جمهور القرّاء العشرة قرأ: ﴿لاَ أقْسِم﴾ بالنفي في الأولى، وقرأ ابن كثير والبزّي في أحد وَجْهَيْهِ: ﴿لَأُقْسِمُ﴾ بالإثبات. أمّا: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾، فليس فيها من القراءات العشر إلاّ النفي.

يوم القيامة: هو يَوْمُ قِيام الأموات مَبْعوثين للحياة الأخرىٰ، حياة الخلود في نعيم مقيم، أو في عذابٍ أليم، بعد الحِسَاب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء. ويَوْمُ قِيام الخلائق بين يَدَي الحيِّ القيّوم.

يقال لغة: قامَ يَقُوم قَوْماً، وقِيَاماً، وقَوْمَةً. وقيل: **القيامَةُ**: مَصْدَرُ قام الخَلْقُ من قبورهم قِيامَةً، **والقيام**: هو الانتصاب وقوفاً.

النفس اللوّامة: هي النَّفْس الهاديَة بتلويمها صاحِبَها على آثَامِهِ إلى ضرورة وجود قانون الجزاء في خُطَّة الخالق.

ولتوجيه عبارة ﴿لاَ أُقْسِمُ﴾ وأشباهها في القرآن عند المفسّرين عدّة آراء، لَيْسَ لواحد منها مستَنَدٌ من بيانات الرسول ﷺ.

● فقيل: «لاَ» زائدة، والتقدير: أقسم. قيل: وهذه الزيادة جارية في كلام العرب.

● وقيل: «لا» تَنْفي كلاماً مطويّاً، فهي رَدٌّ لكلام منكري البعث. وفِعْل «أُقْسِمُ» بَعْدها إثباتٌ للقسم، فهما جملتان في الحقيقة.

● وقيل غير ذلك من تخريجاتٍ فيها تكلُّفٌ لاَ يُلائم كمال البيان القرآني.

وأقول:

إنّ عبارة ﴿لاَ أُقسِمُ﴾ أسْلُوبٌ بَيانيٌّ قُرآنِيٌّ مُبْتَكرٌ، للدِّلاَلة على أنّ الموضوعَ مع حَالِ المخاطب يقتضي اقتضاءَيْنِ مُتَعَارِضَيْن.

(١) أحَدُهما يَسْتَدْعي البَيانُ فيه القَسَمَ المؤكّدَ للخَبَر الذي يُسَاقُ القَسَمُ لتأكيده.

(٢) والآخر يَسْتَدْعي البيان فيه عَدَمَ القَسَم.

فكان الحلُّ المبتكَرُ في أساليب البيان القرآنيَّةِ اختيارَ أُسْلُوبِ ذِكْر لفظ القَسَم والمُقْسَمِ به تنبيهاً عليه، مع سبقه بأداة النفي، «لا».

فالجانبُ الذي اقتضىٰ القَسَمَ رُوعِيَ حالُه بذكْرِ القَسَم والمُقْسَم به، تنبيهاً على ما في المقْسَمِ به من تأكيدٍ أو حُجَّةٍ هاديةٍ إلى أنّ الموضوع الّذي يُرادُ تأكيدُهُ متحقّقُ الوقوعِ حتماً.

والجانِبُ الذي اقتضىٰ عدمَ الحاجَة إلى القَسَمِ رُوعِيَ حالُه بنفي القَسَم بأداة النّفي «لاَ».

ويُلاحَظُ أنّ المَقْصُودَ بالخطاب في قول اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ①﴾، وكَذٰلِكَ بالعبارة التالية لها هو مُنْكِرُ البَعْثِ، الّذي يَظُنُّ ظنّاً تَوَهّمِيّاً أنّ قُدْرَةَ اللّهِ عزَّ وجلَّ لاَ تَصِلُ إلى جَمْعِ رُفَاتِ عِظَامِ جَسَدِ المخلوق الّذي أبْلَتْهُ الأرض، وإعادَتِهَا إلى الحياةِ مرَّةً أُخرَىٰ. وهٰذا المِنْكِرُ هو الذي يُرادُ تأكيدُ نَبأِ البَعْثِ لَهُ بالقَسَم.

ويُلاحَظُ أيضاً أنّ الحكمة البيانيَّة عِنْدَ إنْزال سورة القيامة اسْتَدْعَتِ التنبيه على أمْرَيْن عظيمَيْن، بَيْنَهُمَا ترابطٌ في خُطَّة الخَلْق، هما:

(١) النَّفسُ اللَّوَّامَة الهاديةُ بتَلْويمها صاحِبَها حينَ يَفْعَلُ الإثْمَ والخطيئة

بإرادته الحرَّة، إلى ضرورة وجود قانون الجزاء الربّانيّ في خُطَّةِ الخالِق، لذوي الإرادات الحرّة.

اللّوّامة: مؤنث اللوّام، وهو من صيغ المبالغة والتكثير، أي: فالنفس الإنسانيّة السّويّة كثيرة اللّوم لذاتها.

(٢) ويَوْمُ القيامة لتحقيق بنُودِ قانون الجزاء.

● أمّا يَوْمُ القيامة فَهُوَ يَوْمٌ عظيمٌ جداً، وهُو في حقيقة أمْرِهِ يَسْتَحِقُّ أنْ يُقْسِمَ اللَّهُ به، لأنَّهُ مَظْهَرٌ من مظاهر عظيم قُدْرَتِهِ، وكَمَال عَدْلِهِ وفَضْلِهِ، وبالِغِ حِكْمَتِهِ.

فهذا مُقْتَضٍ للقَسَمِ بهِ، لكنَّه أمْرٌ غَيْبيٌّ لاَ يُدْرِكُ عَظَمَتَهُ مُنْكِرو البَعْثِ، حتَّىٰ يكونَ القَسَمُ به في نظرهم مُؤكِّداً لقضيَّةِ البعث الّتي هِيَ مَحَلُّ إنْكَارهم. ويُضافُ إلى هذا أنَّ القَسَمَ بِيَوْمِ القيامةِ لتَأْكِيدِ قَضِيَّةِ البعثِ للحساب وفَصْلِ القضاء وتحقيق الجزاء، هو من قَبِيلِ المُصَادَرة في آداب البَحْثِ والمناظرة، إذْ هو بمثابَةِ الاسْتِدْلاَلِ لإثْباتِ المدَّعَىٰ بالمدَّعَىٰ نَفْسِهِ، ولكنْ بصيغةٍ أُخْرَى، وهذا يقتضي عَدَمَ القَسَم بِيَوْمِ القيامة.

● وأمَّا النَّفْسُ اللّوّامَةُ في داخِلِ الإنسان، فهيَ من بَدِيعِ إتْقَانِ صُنْعِ الخالقِ لهذا الإنسان، وإيجَادُهَا فيه هو بمثابَةِ إيجَادِ دليلٍ على الجَزَاءِ الرَّبَّانيّ، وأنَّهُ حَقٌّ لاَ محالة، وهٰذَا الدّليلُ مَوْجُودٌ داخِلَ ذَاتِ الإنْسان، كما هو مفطُورٌ علىٰ مشاعرَ تَهْدِيه إلى الإيمان باللَّه خالقِهِ، والمُهَيْمِنِ عليه دواماً بصفات رُبُوبيَّتِهِ.

إنّ النَّفْسَ اللَّوّامَةَ تُمثِّلُ عُنصُر الفطرة الخيّرة الفاضلة في النفس الإنسانية، لأنَّها تقومُ بِوَظيفةِ لَوْمِ جانب الإرادة التنفيذيَّة داخل الإنسان على أعْمَالِهِ السَّيِّئةِ، وعلى تقصيراته عمّا يَنْبَغي أن يعمله، كلّما نفَّذَ جانِبُ الإرادَة شيئاً من ذلك.

اللَّوْمُ: هو العَذْل والتثريب وتوجيه الملاحظات النَّقْدِيَّة على نَقِيصَة أو إساءة، دون الوصول إلى مستوى الذّمّ والشتيمة، ففي اللّوم مع الوخز غير العنيف معنىٰ النصح، وهو شبيه بالعتاب.

والنفس اللّوّامة[١] باعثٌ فطريٌّ يَهْدِي صاحِبَ البصيرَة المنصفَ إلى قانون الجزاء الرَّبَّانيّ، وهو يأخُذُ بأسْبَابِ الفكر إلى الإيمانِ باليوم الآخر للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء. فإيجاد النفس اللَّوّامة داخل الإنسان أمْرٌ عجيب، يستحقُّ أنْ يُقْسِم اللَّهُ به، لأنَّهُ أَمْرٌ من الخَلْقِ عظيم، ولأنَّ في القَسَم بِها توجيه نظر فكر الإنسان لها، لتَهْدِيَهُ إلى قانُونِ الجزاء الرَّبَّانيّ.

فهذا مقتضٍ للقَسَمِ بالنَّفْس اللّوّامَة.

لكنّ هٰذِهِ النَّفْسَ اللّوّامة ضامِرَةٌ هزيلة داخِلَ مُنْكِرِ البعْثِ، فالقَسَمُ بها لا يُقَدِّمُ للمنكرين تأكيداً على أنَّ البَعْثَ حَقٌّ.

وهذا مُقْتَضٍ لِعَدَمِ القَسَمِ بالنَّفْسِ اللَّوّامَة.

فاجتمع المقتضى الإيجابي للقَسَم بِيَوْمِ القيامة، والْقَسَم بالنَّفْسِ اللَّوّامة، والمقتضى السَّلْبي لعَدَم القَسَم بهما، فكَانَ الحلُّ البيانيُّ البديعُ الجامعُ، هو أنْ يُذْكَرَ القَسَمُ والمُقْسَمُ به، وأنْ يُنْفَىٰ القَسَمُ، بأداة النفي «لا».

وهذا من روائع الأساليب البيانيّة القرآنيّة المبتكَرَة.

---

(١) النَّفسُ اللَّوّامة لذاتها على إساءاتها هو الطرف الأعْلَىٰ السامي منها، ما لم تَفْسُدْ بعوارِضِ الأمراض. ويقابِلُها النَّفْسُ الأمّارةُ بالسُّوء، الّتي هي الطَّرَفُ الأسْفَلُ الشَّهْوَانِيُّ منها.

وتقَعُ الإرادة المنفّذة بين الطرفين، فإمّا أنْ تميل في اختياراتها إلى الطَّرَفِ الأَعْلَى اللَّوّام، وإمّا أنْ تميل إلى الطَّرَف الأسْفَل الأَمّارِ بالسُّوءِ.

وجاءَتْ قِرَاءَةُ ﴿لَأُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ﴿١﴾﴾ بالإثبات مُراعاةً لحالَةِ مَنْ يتيقَّظُ ضَمِيرُهُ، فَيُدْرِكُ حِكْمَةَ اللَّه وعَدْلَهُ وضَرُورة تَحْقِيق الجزاء على ما يجري من الناس في رحلة الابتلاء.

أمّا المرادُ تأكيده بالقسم فَمَحْذُوفٌ دلَّ علَيْه ما رُتِّبَ عَلَيْه من آياتٍ جاءَتْ بَعْدَ الْقَسم، إنَّهُ قضيَّةُ البعث للحياة الأخرى، للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء، والمصير إلى جنَّاتِ النعيم بفضل اللّه، أو إلى عذاب أليم بعَدْل اللّه، أي: ليَكُونَنَّ كُلُّ ذَلِكَ بِمُقْتَضَى الحِكْمَة.

القضية الثانية:

● قول الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾.

انتقل البيان القرآنيُّ بهذا، إلى مناقشة الإنسان المنكر لقضيّة البعث بعد الموت للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، وهي إحدى قضايا الإيمان الكُبْرَىٰ، ولم يواجهه اللّه عزّ وجلّ بالخطاب، بل تحدّث بأُسْلُوب الحديث عن الغائب لأنّه أدْبَر وتَوَلَّىٰ عَنْ مُواجهة الحقّ الذي أنزله اللّه لهدايته.

أي: أيحسَبُ الإنسانُ الكافر بيَوْم الدّين، في ظنِّهِ التَّوَهُّمِيّ الضعيف، أنّ الرَّب الخالِقَ لَهُ في النشْأة الأولَىٰ، لن يَجْمَعَ عظامه بعد موته وفناء جسَدِهِ، وتفتُّتِ ذَرَّاتِ عظامه، مستبعداً أنْ تستطيع قُدْرَةُ الرَّبّ هذه الإعادة.

﴿أَيَحْسَبُ﴾ وقُرِئ: [أَيَحْسِبُ] بكسر السِّين، وهما وجْهَانِ عَرَبيان لنُطْقِ هذا الفعل.

ومن استقراء فِعْل: «حَسِبَ يَحْسِبُ ويَحْسَبُ» وسَبْرِ معناه في القرآن تبيَّنَ لي أنّه قد اسْتُعْمِلَ للدلالة على الظّنّ الضعيف جدّاً، والمساوي للتوهُّم، والذي يجب طَرْحُه واستبعاده.

بخلاف فِعْل: «ظنَّ يظُنُّ ظَنّاً» فهو مستعمل في درجات ما دون اليقين، حتى الظن الضعيف المرفوض، فمن الظَّنّ ما هو مقبول ويجب العمل به، ومنه ما هو من مستوى الشَّكّ الذي يتساوىٰ فيه الطرفان، القبول والرَّفْضُ، ومنه ما هو مَرْفوض، وهو الظَّنُّ التوهُّمِيُّ.

وكان طرح هذه المناقشة في القرآن، قَبْلَ أَنْ يُصَرِّحَ أَحَدٌ مِنْ منكري البعث من المشركين، بمقالةٍ يحتَجُّ بها على إنكاره، وهٰذه المقالَةُ تَدُلُّ على اعتقاده بأنَّ قُدْرَة اللّهِ جلَّ جلالُهُ عاجزَةٌ عن أن تُحْيِيَ العظامَ وهي رَميم، كالمقالة الّتي قالَهَا فيما بَعْدُ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ للرَّسُول ﷺ، إذْ أَخَذَ عظْماً بالياً، فجَعَلَ يَفُتُّهُ بِيَدِهِ وَيقُولُ: يَا مُحَمَّدُ أَتَرَىٰ اللّهَ يُحْيِي هٰذَا بعْدَمَا رَمَّ.

قال رسول الله ﷺ: نَعَمْ، ويَبْعَثُكَ ويُدْخِلُكَ جهَنَّمَ. وأنزل اللّه عزّ وجلّ حينئذٍ قرآناً يُعَلِّمُ فيه رسولَه الحجَّة الدّامِغَة، فقال الله جلّ جلاله في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾.

أمّا عنْدَ إنزال سورة (القيامة) فإنَّ مِثْلَ هٰذِهِ المقالَة لَمْ تَكن قَدْ تردّدَتْ على أَلْسِنَةِ المنْكِرِين الكافرين، الذين يَدْعُوهم الرسُول ﷺ إلى الإيمان باللّه واليوم الآخر، فاقتصر النَّصُّ على نَفْي الظَّنِّ التوهُّمِيّ الذِّهْنِيّ، وإثبات نقيضه.

ففي جواب: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾.

قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: ليس كما يَحْسَبُ هذا الإنسان الكافر، بل سنجمع عظامَهُ كُلَّها، ونُعيدُها إلى مِثْلِ ما كانت عليه، بقُدْرَةٍ تامَّةٍ، لم

يَعْتَرِها إعياءٌ ولا نقص. فالمرادُ بِالإنسان هُنَا الكافر، لأنه هو الذي يَحْسَبُ أَنَّ اللَّهَ لَنْ يَجْمَعَ عظامَهُ بَعْدَ مَوْته.

هذا ما ظهر لي، وذكر القرطبي أنّها نزلت في عَدِيّ بن أبي رَبيعَة، قال للنبيّ ﷺ، «يا مُحَمَّد حدّثني عن يوم القيامة، فأخبره رسُول الله ﷺ، فقال عَدِيٌّ: لو عاينتُ ذلك اليوْم لَمْ أصَدِّقك، أو يَجْمَعُ الله العظام؟! فنزل قول الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ. . .﴾.

وقد سبَقَ هٰذا النّصّ في نجوم التّنْزيل قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول) خطاباً لكلّ صالحِ للخطاب:

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

ولتأكيد ما أثبتَته كَلِمَةُ ﴿بَلَىٰ﴾ أَتَمَّ اللَّهُ عَزَّ وجَلّ الآيَةَ بقوله: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾:

أي: بلىٰ سَوْفَ نَجْمَعُ عظامه حالَةَ كَوْننا قادِرين علىٰ أَنْ نُسَوِّي بنانه، الّتي تُعْتَبَرُ تَسْوِيَتُها مِنْ أَبْدَعِ التّسْوِياتِ في الْخَلْق، وأَشَدِّها إتقاناً لوظائفها في الكَفِّ وحَرَكَةِ الْيَدِ.

﴿أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ أي: أن نجعل بَنَانَهُ مُسْتَويَةَ الْخَلْقِ، بالغَةَ الغايَةَ في أداء وظائِفِها الّتي خُلِقَتْ لتأدِيَتِها.

تَسْوِيَةُ الشيء: جَعْلُه تامّاً بالغاً الغاية المقصودَةَ من صُنْعه، مُحْكماً في مقادير أجْزائه، لتحقيق الغَايَةِ المقضيَّةِ له في إعداد خُطَّةِ تكوينه.

البَنَان: أطراف الأصابع، وهي جمْعٌ واحِدَتُها «بَنانَة».

في ديواني الشِّعْريّ: «آمَنْتُ بِاللَّهِ» تحْتَ عنوان هذه الآية قلْتُ بشأن البنان:

أَخُطُّ. أَقُصُّ. أَخِيطُ الثِّيَابْ ... وَأَبْنِي الْبِنَاءَ بِهَـٰذِي الْبَنَانْ
أُمَارِسُ مَا شِئْتُ مِنْ صَنْعَةٍ ... بِهِنَّ وَتَخْدُمُنِي كُلَّ آنْ
بَوَاسِطُ إِنْ شِئْتُ بَسْطَ الأَكُفِّ ... قَوَابِضُ تَمَّتْ بِهِنَّ الْيَدَانْ
أَنَامِلُ هُنَّ لِقَبْضِ السُّيُوفْ ... وَقَبْضِ الرِّمَاحِ وشَدِّ الْعِنَانْ
وَهُنَّ وَسِيلَةُ ذِي رِيشَةٍ ... وَذِي قَلَمٍ وذَوِي صَوْلَجَانْ
وَهُنَّ وَسِيلَةُ ذِي صَنْعَةٍ ... يُفَاخِرُ بِالْعَبْقَرِيِّ الْحِسَانْ
بِهِنَّ الدِّفَاعُ. بِهِنَّ الْهُجُومْ ... بِهِنَّ الْحُتُوفُ. بِهِنَّ الأَمَانْ
وَهُنَّ لِعُمْيِ الْعُيُونِ الْعُيُونْ ... وَلِلْبُكْمِ هُنَّ بَدِيلُ اللِّسَانْ
وَأعْجَبُ شَيْءٍ بِهِنَّ الْخُطُوطْ ... فَمَا اتَّحَدَتْ فِي الْوَرَى «بَصْمَتَانْ»
وَطَبْعَةُ إِبْهَامِنَا خَتْمُنَا ... يُمَيِّزُنَا مَا تَوَالَىٰ الزَّمَانْ
أَنَامِلُنَا مِنْ بَدِيعِ الْفُنُونْ ... يُقَصِّرُ عَنْ وَصْفِهِنَّ الْبَيَانْ
بَصُرْتُ بِإِتْقَانِهَا الْبَاهِرِ ... فَآمَنْتُ بِالْخَالِقِ الْقَادِرِ
بَنَانٌ بِهِنَّ لِأَهْلِ النَّظَرْ ... رَوَائِعُ آيَاتِ رَبِّ الْبَشَرْ....
فَآمَنْتُ بِهْ

كلمة «بَلَىٰ»: حرْفُ إيجاب عنْدَ علماء العربيّة ويختصُّ بالنفي، ويفيد إبطاله، كما جاء في الآية.

ومن تَتَبُّعِي للنُّصُوص الْقُرآنِيَّة الَّتي فيها لفظة «بَلَىٰ» ظهر لي أنَّ العطْفَ قَدْ يَأْتي بَعْدَها عليها، كأنَّهَا في قُوَّة جُمْلَةٍ مُثْبَتَة، مُنْتَزَعَةٍ من الجملة المنفية السَّابقة لها، ومنه قول اللّه عزّ وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) حكاية لمقالة إبراهيم عليه السلام: ﴿..بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي...﴾.

أي: بلىٰ آمنتُ ولكن...

وَقد يأتي الحال بَعْدَهَا كأنَّ الجملة المثبتَةَ مَوْجُودَةٌ، ومنه ما جاء في هذه الآية: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾.

وقد يأتي غير ذلك مبنيّاً على هٰذِهِ الجملَةِ الّتي جاءَتْ كَلِمةُ «بَلَىٰ» عوضاً عنها، أو دالَّةً عَلَيْها.

وأرى أن نعتبر كلمة «بلَىٰ» عِوَضاً عن الجملة المثبتة هذه، نظيرَ قول النُّحَاة في تنوين الْعِوَض في نحو: «يومئذٍ» و«حينئذٍ».

القضيَّةُ الثالثة:

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝٦﴾.

في هذا النصّ كشفٌ للباعث النفسيّ الّذي يجْعَلُ الْإِنْسَان يَسْتَبْعِدُ عن تَصَوُّرِهِ يوْمَ الدِّين نهائيّاً، حتَّىٰ مُسْتَوىٰ الإنكار، والتكذيب بما جاء عنه من صَادِقِ الأخبار، عن العزيز الجبّار القهار.

﴿بَلْ﴾ حرف ابتداء، ومعْنَاهُ الإضرابُ، والإضرابُ هُنَا إضرابٌ إبْطاليٌّ لمعنًى يُشْعِرُ به تَوَهُّمُ الإنسانِ المنكر للبعث بأنّ اللَّهَ لَنْ يجْمَعَ عِظَامَه، أي: لَيْسَ صحيحاً أنَّ هذا الإنسانَ الكافِرَ شاكٌّ مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِهِ، في قُدْرَةِ الرَّبِّ الخالق على إحياء الموتىٰ بعد أنْ تَبْلَىٰ عِظَامُهُمْ، بَلْ هو واقع تحت تأثير رغباتِ الفجور لدَيْه، إذْ هو يُرِيدُ أَنْ يَنْطَلِقَ فَاجراً في مستقْبَل أيَّامِهِ، دون أَنْ تُعَكِّرَ عَلَيْهِ مَشاعِرُ الخَوْفِ من عقَابِ اللَّهِ، فيَطْرَحُ عبارات الشَّكِّ في الحياة بعْدَ الموت، مُعْلِناً كُفْرَهُ وجُحودَه.

﴿يُرِيدُ﴾: يَدُلُّ الفِعْلُ الْمُضَارع هُنَا على الحركة المتجدِّدة المستَمِرَّةِ لإرادته، كما يَذْكُر البلاغيُّون.

وَجاءت التعدية بحَرْفِ اللاّم في: ﴿لِيَفْجُرَ﴾ مع أن الفعل يَتَعَدَّىٰ بنفسه، فالأصل أنْ يُقالَ: بل يُرِيدُ الإنسانُ أَنْ يَفْجُر، للإشعار بأنّ الْمَفْعُولَ به مَحْذُوفٌ، والتقدير: بل يريد الإنْسَانُ بإرَاداتٍ مُتَجَدِّدات، مُرَادَاتٍ

كثيراتٍ، تَتَدَفَّقُ من مَنَابِعِ أهوائه وشهواتِه ورَغَبَاتِ غَرائِزِهِ وَأَنَانِيَّاتِهِ، ويُرِيدُ أن يُمَارِسَهَا بِمِلْئِه، وبكلّ انطِلاقَاتِه الحرَّة، ويَكْرَهُ أن يكون الإيمان بالدّين وبالعقاب الرَّبّانيّ وكُلُّ التصوّراتِ المتصلة بالجزاء بالعدل غُصَّةً في حَلْقِ ممارساته الحرَّة الْفَاجرة، وقد حُذِف المفعولُ به ليعُمَّ كلَّ المرادات الفاجرات.

لكُلّ ذَلك فهو يريد الكفر بيوم الدّين، ويُرِيدُ صَرْفَ ذِهْنِهِ عن كلّ تصوّراته وتصوّرات الجزاء ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾.

﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾: أي: لِيَنْطَلِقَ في مستقبَلِ أيَّامِهِ فاجراً مُنْبَعِثاً انبعاثاً كُلِّيًا بكُلِّ طاقاتِه لمُمَارَسَةِ شَهَواتِه وأَهْوائِهِ ورَغباتِ نفسه، مهما كان فيها من شرٍّ وضُرٍّ وتَحَدٍّ لكلّ فَضِيلَةٍ، ومَهْما كان فيها من استهانة بكلّ واجب، واستمراءٍ لكلّ رذيلة وفِسْقٍ وعُدْوانٍ، وظُلْمٍ وَبَغْيٍ وَطغْيان.

الْفُجور: هو الانبعاثُ القبيح الوقح الواسع في فعل الشُّرور وارتكاب الآثام والكبائر، وكلّ ما فيه ظلم وضُرٌّ وبَغْيٌ وعُدْوان، دُونَ وازِعٍ ولا رَادِعٍ من داخل نَفْسِ ذي الإرادة، وانْبِعاثُه حاصلٌ بِمِلْءِ سعَةِ نَفْسِه، وبأوسع ما لَدَيْهِ من جُرْأَة.

فالإنسان الكافِرُ بيوم الدِّين عَنْ وعْيٍ وتَصْميم، على الرّغم من ظُهُورِ أدلَّة الإيمان باللَّه وكمالِ صفاته، وأنَّهُ أحكم الحاكمين، وأنّه لا يمكن أن يَخْلُق الناسَ عَبَثاً، ولا يمكن أن يَتْرُكَهُمْ سُدىً، دون حسابٍ وفَصْل قضاءٍ وتحقيق جزاء، هو ذُو كُفْرٍ مُرادٍ، وكُفْرُهُ نَتِيجةٌ خبيثَةٌ لإرَادَةِ جُحُودٍ واعيَةٍ منه، ولهذا الإنْسَانِ غايَةٌ من إرادَتِهِ الكُفْرَ، وهي أَنْ يَفْجُرَ في مُسْتَقْبَل عُمْره، فهذا المستَقْبَلُ هو الممتَدُّ أَمَامَه ولو كانَ لا يَرَىٰ منه شيئاً.

فكشَفَتْ هاتان الآيتان مَعَ بالِغِ ما فيهما من إيجازٍ، الباعِثَ النَّفْسِيَّ لدَىٰ الإنسان الكافِرِ بيَوْم الدّين كُفْراً إراديًّا تَصْمِيمِيًّا واعياً، فالجاهل بأمْرٍ ما

لا يمكِنُ إذا كان عاقلاً، وذا إدْراكٍ واعٍ، أنْ يكْفُرَ به مُثْبتاً بُطْلانَه، بل يقول: لا أعلم. ومثلُه الشَّاكّ في أمْرٍ مَا، الصادِقُ في شَكِّه، والباحثُ عَنِ الحقيقة، لا يمكِنُ أن يَكْفُرَ به مُثْبتاً بُطْلانه، بلْ يقول: أنا ما زلْتُ في مَرْحَلَةِ الشَّكّ، ولَمْ أصِلْ إلى مَرْحَلَةِ الظَّنّ الرَّاجح، فضْلاً عن مَرْحَلَةِ اليقين، إيجاباً ولا سَلْباً.

فعُنْوانُ الكُفر إنَّما يَنْطَبِقُ على ذي الكُفْرِ الإرادِيِّ، الذي هو ثَمَرَةُ وعْيٍ لمَا يكْفُرُ به، وثَمَرَةُ تَصْمِيمٍ على أَنْ يَكْفُر به.

فإنْ كان كُفْرُ الكافِرِ بالشَّيْء نتيجَةَ عِلْمٍ قَائِمٍ على بُرهَانٍ بأنَّهُ باطلٌ، فَهُو فضيلَةٌ يُطَالَبُ بها المؤمنُونَ باللَّه وباليَوْمِ الآخر، ولهذا فَهُمْ مُطَالَبُونَ دِيناً بأنْ يَكْفُرُوا بالطَّاغوت.

وإنْ كان كُفْرُ الكافر بالشَّيْءِ غيْرَ نَاتِجٍ عنْ عِلْمٍ قائم على بُرهانٍ ببُطْلانه، فَهُو أَحَدُ ثلاثَة فُرَقاء:

(١) فريقٌ عَالِمٌ بأَنَّهُ حَقٌّ، وهو يَكْفُرُ بِهِ جُحُوداً، وهذا شَرُّ خَلْقِ اللَّه، ومن هذا الفريق فرعَوْنُ وَقَوْمُهُ، وَقَدْ أنزلَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ بشأنهم قولَهُ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

(٢) وفريقٌ شَاكٌّ بأَنَّهُ حَقٌّ، وهو مع ذَلِكَ يَكْفُرُ بِهِ لأَنَّهُ يَرْغَبُ في أنْ لاَ يكونَ حَقًّا، وهذا دُونَ الفريق الأوَّلِ في السُّوءِ والشَّرّ، ولكِنْ ليْسَ لَهُ أن يَكْفُرَ بِهِ لمجرَّد الشَّكّ، بل عليه أن يبْحَثَ حتَّى يَسْتَيْقِنَ.

وَإنَّهُ ليْسَ لقضيَّةٍ من قضايا الدِّينِ الحقّ ضِدٌّ أَوْ نقيضٌ يُمْكِنُ الإيمانُ به بدليلٍ مَقْبولٍ في العقول، فَلاَ حُجَّةَ للشَّاكّ إذا رفَضَ الإيمانَ بقضيَّةٍ من قضايا الدِّين الحقّ، وآمَنَ بنقيضها، أو بضِدِّها، بلْ يُعْتَبَرُ كافراً بغَيْرِ حقّ.

(٣) وفريقٌ جاهِلٌ بأنَّهُ حَقٌّ جَهْلاً تامًا، وجاهلٌ أَيْضاً بأنَّهُ باطلٌ، ومع جَهْلِهِ به يَكْفُرُ به، وهذا دُون الفريق الثاني في السُّوءِ والشّرّ، لكِنَّهُ ضَالٌّ مُعْتَدٍ على الحقّ، إذْ ليس لَهُ أن يكْفُرَ بشيءٍ يجهلُه، فإذا كفَرَ بِهِ كانَ مسؤولاً عن كُفْرِهِ.

ولمَّا كانَ كُفرُ الإنسانِ الراغبِ في الفجور بيَوْمِ الدّين كُفْراً إرادِيًّا تَصْمِيميًّا، نَابعاً من منابعِ رَغَبَاتِ الْفُجور لَدَيْهِ، لَمْ يَجِدْ حُجَّةً صَحِيحةً تقبلُها العقولُ حتَّىٰ يحتَجَّ بها، ليَجْعَلَ كُفْرَهُ مَقْبُولاً ظاهِرِيًّا بيْنَ النَّاس، لذلك فَهُوَ يَلْجأُ إلَىٰ طَرْحِ أَسْئِلَةِ الاسْتِبْعَادِ والاسْتِغْرَاب، ومِنْها أنْ يَسْأَلَ قائلاً: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾؟!!

«أيَّانَ»: اسم استفهام يُسْتَفْهَمُ به عَنِ الزَّمَان، ويُسْتَعْمَلُ فيما يُرادُ استعظامُهُ واستِغْرَابُهُ واستبْعَادُهُ.

أي: متَىٰ يَكُونُ يَوْمُ القيامَةِ هَٰذا، وقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ الْعَدِيدَة في تاريخ النَّاسِ، دُونَ أَنْ يَحْدُثَ هَٰذَا الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ به.

وحين يسْأَلُ المنكِرُ مثْلَ هذا السُّؤَال، فَمُرادُهُ الاستبعَادُ والإنكار. أي: لَنْ يأتِيَ يَوْمُ القيامَةِ هٰذا.

لكِنَّ صِيغَةَ سؤالِه فيها مُوارَبَةٌ، ظاهِرُها التَّسَاؤلُ، وباطِنُها التكذيب بيَوْم الدين.

القضيَّة الرابعة:

● قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾﴾.

قرأ جمهورُ الْقُرّاء الْعَشَرَة [بَرِقَ] بِكَسْرِ الراء. وقرأ نافع وأبُو جَعْفَرُ: [بَرَقَ] بفتح الرَّاء.

وهما لغتان عربيَّتَانِ بمعنَىٰ دَهِشَ فَلَمْ يُبْصِرْ من الدَّهْشَةِ الّتي أصابته فَحَيَّرَتْه.

إنّ القضيّة التي دلَّت عليها هذه الآيَاتُ، ذاتُ عناصر مترابطة متعانقة، مجتَمِعَةٍ عَلَىٰ غَايَةٍ واحدة، ولَوْ كانت بينها فواصِلُ زمنِيَّةٌ طويلَةُ الْأَمَدِ.

إنَّها قضيَّةٌ وصْفِيَّةٌ تصِفُ لقطاتٍ سريعاتٍ مُخْتَصَراتٍ جدّاً، من أحداثٍ سَوْفَ تكون، يبْدَأُ أوَّلُهَا عنْدَ مَوْتِ الإنسان، واللَّقْطَةُ الثانية تصِفُ حَدَثَ تَغْيِيرٍ كوني هُوَ من مُقَدّمَاتِ سَاعَةِ إنْهَاء ظُرُوف الحياة الدّنيا. واللّقطَةُ الثالثة تحْكِي مقالَةَ يقولُهَا الإنْسَانُ الْكَافِرُ إذا بُعِثَ بَعْدَ الْمَوْتِ للحساب، وفصْل القضاء، وتنفِيذِ الجزاء. واللّقطَةُ الرّابعةُ تَحْكِي مَا يُقَالُ لَهُ جواباً على مقالَتِهِ مَعَ زَجْرِهِ. واللَّقْطَةُ الخامسة تَصِفُ مَشهداً من مشاهِدِ حسابه، إذْ يُنَبَّأُ بكُلِّ ما فَعَلَ وَتَرَكَ في الحياة الدنيا، مع بيان أنَّه خبير بما يُنَبَّأُ به، لأنَّهُ يتَذَكَّرُ يومئذٍ كلَّ ما سَعَىٰ في رحْلَةِ امتحانه في الحياة الدنيا، ومع الإلماح إلى مناقشته الحسابَ، وأنَّهُ يُحَاوِلُ أنْ يُدافع عَنْ نَفْسه، فيُلْقِي مَعَاذِيره الكلاميَّة، وهو يَعْلَمُ أنَّهُ لاَ عُذْر لَهُ، إذْ كان مُجْرِماً حقًّا.

ويُمْكِنُ تفصيلُ بعْضِ هذه اللّقطات فتكونُ بَعْدَ التفصيل سَبْعَ لقطاتٍ.

اللقطة الأولى:

جاءَت في قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾ بكسر الراء وفي قراءة المدنيَّيْن: «نافع وأبي جَعْفَر»: **[فإذَا بَرَقَ الْبَصَرُ]** بفَتْحِ الرّاء من [بَرَقَ].

قال علماء اللّغة: بَرِقَ الْبَصَرُ يَبْرَقُ، وبَرَقَ يَبْرُقُ بُرُوقاً، أي: دَهِشَ فلَمْ يُبْصِرْ. وقيلَ: تَحَيَّرَ فلَمْ يَطْرِفْ.

قَال الفرّاء: بَرَقَ من الْبَرِيق، أي: شَخَصَ. وبَرِقَ بمعْنَىٰ فِزِعَ، أي: فَتَحَ عينَيْهِ من الفزع. وبَرَقَ بصَرُهُ كذلِكَ أيضاً.

وجاء في كُتب اللُّغة أيضاً: الْبَرَقُ: الحيْرَةُ، والدَّهَشُ، والْفَزَعُ، والشُّخُوص، فالمعاني كلّها مستفادة من القراءتين.

فالظاهر أنّ المراد بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾ ما يحْصُلُ للإنسان في لحظة مَوْته ومُفَارَقَتِه للحياة، لأنَّهُ عنْدَهَا يَبْرَقُ بَصَرُهُ دَهْشَةً وَحَيْرَةً وذُعْراً، ثُمَّ يشْخَصُ.

يقال لغة: شَخَصَ فُلانٌ بَصَرَه، وشَخَصَ ببَصَره، أي: فتح عَيْنَيْهِ ولم يَطْرِف بهما متأمِّلاً أو مُنْزَعِجاً.

(ال) في: [الْبَصَر] للجنس، ولكنّ المؤمنين الناجين يشاهدون منازلهم الكريمة في جنات النعيم فيحبُّون لقاء اللّه ولا يحصل لديهم الدهش والذعر، فالمراد بصر أهل العذاب.

فالآية إذن تُعْطِي لقطةً لحالة الإنسان الذي يَشْهَدُ المخاوِفَ سَاعَةَ موته، وما يصِيبُ فيها بَصَرَهُ من حَيْرَةٍ ودهْشَةٍ، وما يصيبُهُ فيها من فَزَع وذُعْر، إذا كان من أهل النار، ممَّا يشْهَدُ من أحوال الآخرة، ثمّ ما يحدُثُ فيه من شُخُوص، وسوابق الكلام في السُّورة تتحدّث عن المكذّب بيوم الدّين.

اللّقطة الثانية:

جاءت في قوله اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨﴾.

هذا حَدَثٌ من أحداث أشراط السَّاعة الّتي يُنْهِي اللّه بها ظُرُوف هذه الحياة الدنيا، أو يكون من مقدّماتها، أو أَحَدَ عناصِرِها.

والمراد بخُسُوف القمر ذهابُ نُوره، أو ذهاب جِرْمِه الذي يَذْهَبُ بذهابِهِ نُورُه.

خَسَفَ: يقال لغة: خَسَفَ المكانُ يَخْسِفُ خَسْفاً وخُسُوفاً، أي: غَارَ بما عليه. ويقال: خَسَفَ اللَّهُ بهم الأرْضَ، أي: غيَّبَهُمْ فيها. ويقال: خَسَفَتِ الْعَيْنُ: إذَا غارَتْ وذهَبَتْ في تجويفِ الرأس. وعَيْنٌ خاسِفَةٌ وخاسفٌ، إذا غارَتْ وغابَتْ حَدَقَتُهَا مِنْ عِلَّةٍ، أَوْ فُقِئَتْ.

هذا أصل معنى الْخُسُوف في اللُّغة، وعلى مِثْلِه يَكُونُ خُسُوفُ الْقَمَر الذي هو من أشراط السَّاعة أو من أحداثها.

أشراط السَّاعة: هي العلامات الّتي تحدُثُ قَبْلَ وُقُوعِها، فتدلُّ على قُرْب وقوعها.

اللّقطة الثالثة:

جاءت في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾.

هذا حدَثٌ يكونُ عقِبَ خَسْفِ الْقَمَرَ أَوْ مُقَارِناً له، إذْ يَنْجَذِبُ الْقَمَرَ إلى الشَّمْس، حتَّىٰ إذا بلَغَها ابْتَلَعَتْهُ، فَيَغُورُ في أَحَدِ تجويفاتها العظيمة العميقة، فيجتمعان.

أمّا ما دام نظام الحياة الدنيا قائماً فإنّ الشَّمْسَ لا ينبغي لَهَا أنْ تُدْرِكَ القمر، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾.

يُلاحظُ في اللَّقَطَاتِ الثَّلاثِ السَّابقات، أنَّ البيان القرآنيَّ قد جاء فيه اختيارُ لَفْتِ نظر الإنسان المكذّبِ بِيَوْمِ الدِّينِ:

- إلى ساعة موته الّتي يَشْهَدُ فيها ملائكةَ العذاب، وَنُزُلَهُ من النار، فَتُصِيبُهُ الحيْرَةُ والدَّهْشَةُ والْفَزَعُ الْعَظِيم، فَيَبْرَقُ بصَرُه، ثُمَّ يَشْخَصُ مع طلوع الرُّوح.

• وإلَىٰ حَدَثٍ آخَرَ يكُونُ قُبَيْلَ أو عنْدَ قيام السَّاعَةِ الَّتي يُقْضَىٰ بها على الخلائق، وهُوَ حَدَثٌ يشْهَدُه الكافرون في الأرض الّذِين تَقُومُ السَّاعَةُ علَيْهم، إذْ تَقُومُ وَلَيْسَ في الأرض من الناس إلاَّ الكافرون، ليس عليها من يقول: الله، كما جاء في بيانات الرسول ﷺ.

وهذا الحدَثُ هُوَ ذهَابُ نور القمر المصحوبِ أو المتبوع بذَهَاب جِرْمِه، إذْ تَبْتَلِعُهُ الشَّمْسُ فَيُجْمَعُ بَيْنَهُما.

فهما حَدَثَان مُتَتَابِعَان أو مُقْتَرنان، والله هو العليم بما سَوْف يَحْدُث.

اللقطة الرابعة:

جاءت في قول الله عزّ وجلّ: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾.

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ﴾: أي: يَقُولُ الإنسانُ الكافرُ، فَهُو المذعُورُ الذي يُريدُ مكاناً يَفِرُّ إليه ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: أي: يوم القيامة الذي يُنْكِرُه.

﴿أَيْنَ﴾: اسْمُ استفهام عن مَكَانٍ، وهو مبنيٌّ في محلّ رفْعِ خبر مقدّم، و﴿ٱلْمَفَرُّ﴾ مبتدأٌ مؤخر.

﴿ٱلْمَفَرُّ﴾: مصدر ميميّ، بمعنى الْفِرار، أي: أيْنَ مَكَانُ الفرارِ من مَوْقف الحسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

أو هو اسم مكان من فِعْل: «فَرَّ يَفِرُّ». الأصل في اسم المكان من «فَعَل يَفْعِل» مَفْعِل، فهو من «يَفِرُّ» مَفِرٌّ، لكن أَجازَ الْفَرَّاءُ والكِسَائي أن يكون «مَفَرّ» اسم مكانٍ.

وأُرَجّح المصْدَرِيَّةَ هُنَا، لأنَّ الكافِرَ يومَئذٍ يَطْلُبُ الْفِرَار ولو إلى الموت الأبَدِي، إذْ يَقُول كما جاء في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول):

﴿. . . يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾.

أي: يقولُ: يا لَيْتَهُ يَصِيرُ مِثْلَ الْبَهائِمِ إِذْ تَصِيرُ إلى التُّرابِ، بَعْدَ أَنْ يُقِيمَ اللَّهُ الْعَدْلَ فيما بَيْنَها.

لم يُقَدِّم النَّصُّ هُنَا لقْطَةً عَنْ سَاعَةِ البعثِ إلى الحياة بعد الموت، اكْتِفاءً بما جاء في صَدْرِ السُّورَةِ، وهو قولُ اللَّهِ عزَّ وجل: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١﴾ فالحدِيثُ عن يَوْمِ القيامة هو المقصود الأساسيُّ في البيان، ونظراً إلى الْبَدْءِ به في صَدْرِ السّورَةِ، انتقل النَّصُّ إلى اللّقطَةِ الرّابعة، وهيَ بيان بَعْضِ ما يَقُولُه المكذِّبُ بيوْم الدّين، إذْ يُدْرِكُ مَا هُوَ صائِرٌ إليه من حسابٍ، وفَصْلِ قَضَاءٍ، وَجَزَاءٍ بعذاب جهنَّمَ خالداً فيها مُخَلَّداً.

اللقطة الخامسة:

جاءت في قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾.

﴿كَلَّآ﴾: أداة ردْعٍ وزجْرٍ في معظم أحوالها، ولهذا يجوز الوقوفُ عليها والابتداء بما بعْدَها.

﴿لَا وَزَرَ﴾: أي: لاَ مَلْجَأَ لَكَ أَيُّها الإنسانُ الكافِرُ تلْتَجِئُ إليه، طالباً فيه حمايتَكَ منْ عذاب الله.

الْوَزَرُ: في كلام العرب الجبَلُ، وكُلُّ مَعْقِلٍ، ويُطْلَقُ علَىٰ كُلِّ مَا يُلْتَجأُ إليه لِلْحمَايَة.

يقال للكافر يوم القيامة جواباً على سؤاله: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾؟ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾: أي: زجراً وردْعاً لاَ وَزَرَ لَكَ.

كان الظاهرُ أن يُقَالَ لَهُ: كَلَّا لاَ مَفرَّ، على وفْقِ سُؤَاله. لكِنَّ جوابَهُ يأتي بِتَيْئِيسِه من الملْجَأ الذي هو أخفُّ من الْمَفرّ، ونَفْيُ الأخفّ يلْزَمُ عَنْهُ عقْلاً نَفْيُ الْأَشَدّ حتماً.

أو يُقال: حُذِفَ من سُؤَالِهِ في النصّ الْوَزَر، وأصْلُهُ: أيْنَ المَفرُّ؟ أو أيْنَ الْوَزَرُ؟

فجاء الرَّدُّ الزَّجْرِيُّ في النَّصِّ بحذف «الْمَفرّ» وإثبات «الْوَزَر». لِيَدُلَّ المذكور في كلٍّ من الطرفَيْن على المحذُوفِ من الطَّرَفِ الآخر.

وهذا على الاحتمالَيْن هو من الْعُمْقِ القرآني.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾:

الْمُسْتَقَرُّ: أي: المكانُ الَّذِي سَوْفَ يستَقِرُّ فيه الكافِرُ يوْم الدين، وهو في جَهَنَّمَ حَتْماً، فهي مستقرّ الكافر لا مَكانُ إقامَتِه المؤقتة، بخلافِ المؤمن العاصي.

اسْتَقَرَّ بالمكان: أي: تَمكَّنَ فِيهِ وَثَبَتَ. **والْمُسْتَقَرُّ**: القرارُ والثُّبُوتُ. ويقال: صار الأمْرُ إلَىٰ مُسْتَقَرِّهِ، أي: تَنَاهَىٰ إلَيْهِ وثَبَتَ فيه.

جاء في هذه الآيَةِ خطابُ الكافِرِ وهو في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا، بدليلِ عبارة: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾.

والمعنى: إنَّ الْحُكْمَ يومَ القيامة بمكانِ استقرارِكَ الَّذِي سَوْفَ تَسْتَقِرُّ فيه خالداً مخَلَّداً، هو إلى رَبّك يَوْمئذٍ، لاَ معقّبَ لِحُكْمِه، ولا رادَّ لقضائه. فَضَعْ في حِسَابِكَ أيُّها الكافر وأنْتَ الآن في رحلة الامتحانِ هٰذه الحقيقة من حقائق أنْبَاءِ يَوْمِ الدِّين، يَوْمِ الْحِسَابِ، وَفَصْل القضاء، وتحقيقِ الجزاء.

ويَحْسُنُ بالمتَدَبِّر الْحَصِيف أنْ يُدْرِكَ، أَنَّ الْبَيَانَ القرآنيَّ بيانٌ عَجِيبٌ، يتنقَّلُ فِيهِ النَّصُّ ما بَيْنَ مراحلِ الدُّنيا حَيَاةِ الابتلاء، ومراحِل الآخِرَةِ حَيَاةِ الجزاء، فالْمَاضِي والْحَاضِرُ والمستقبَلُ صفحَةٌ مَفْتُوحَةٌ في مَدَىٰ عِلْمِ اللَّهِ، يَكْشِفُ منْها لعبادِه بحكْمتِهِ ما يشاء.

اللقطة السادسة:

جاءَتْ في قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يُنَبَّؤُا﴾: أي: يُخَبَّرُ. **النَّبأُ**: الْخَبَرُ ذُو الظُّهُور والارتفاع، لأهَمِيَّته. يُقَالُ: أنْبَأَ فُلانٌ فُلاناً وَنَبَّأَهُ الْخبَرَ وبِالْخَبر، أيْ: أخْبَرَهُ وأعْلَمَهُ به.

﴿الْإِنسَٰنُ﴾: يُرادُ بالإنسانِ هُنَا جِنْسُ الإنسان. و(ال) لا تفيد الاستغراق، لأنَّ الَّذِين يَدْخُلُونَ الجنَّةَ بِغَيْرِ حسَابٍ قَدْ لا يُنَبَّؤُونَ بأَعْمَالِهِم كُلِّها، إغْضَاءً عن تَقْصِيراتهم وبَعْضِ معاصِيهم، وقد جاء في بيانات الرسُول ﷺ ما يُشْعِرُ بهذا.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾: أي: يَوْمَ إِذْ يَكُونُ الحُكْمُ بمَصِيرِه إلى رَبِّهِ فِي موقفِ حِسَابه، للْفَصْلِ في القضاء له أو عليه.

التنوين في «يَوْمَئِذٍ» هو تنوينُ الْعِوَضِ عن هذه الجملَةِ المفهومة استخراجاً من الآيَةِ السَّابقة (١٢).

والمعنى: يُنَبَّأُ الإنسانُ يوْمَ القيامة عند محاسبته على ما كسَبَ في الحياة الدُّنيا، حياة الامتحان، بِكُلِّ ما قَدَّمَ منْ عمَلٍ قَدْ عَمِلَهُ، خيراً كانَ أوْ شَرّاً، وبكلّ ما أخَّرَ، أي: بكُلّ ما لم يَعْمَلْهُ من أَعْمَالٍ كان يجبُ عليه أن يَعْمَلَها، أَوْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أن يَعْمَلَهَا.

وجاء التعبير عمَّا عَمِلَهُ من أَعْمَالٍ في الحياة الدُّنيا بعبارَة: ﴿قَدَّمَ﴾ وعمّا لم يَعْمَلْهُ فيها بعِبَارَة [أَخَّرَ] وهذا من مصطلحات الْبَيَان القرآنيّ، للدّلاَلَة على أنّ كُلَّ ما يَكْسِبُهُ الإنْسَانُ بإرادته في رحلة امتحانه مُدَوَّنٌ، وسَيُحَاسَب عليه، فَهُوَ يُقَدِّمُهُ بيْنَ يَدَيْهِ إنْ كَانَ عملاً، ويُؤَخِّرُهُ وراءَه، إذا كَانَ تَرْكاً لعَمَلٍ مطلوبٍ منه، وسَيُحَاسَبُ على تَرْكِهِ له.

إنّ مقابلة فِعْل «قَدَّمَ» بِفِعل «أَخَّرَ» تَدُلُّ على أنَّ فِعْلَ «أَخَّرَ» يُرَادُ به تَرْكُ الْعَمَلِ الَّذِي كانَ مأمُوراً به إلزاماً أو ترغيباً.

ومن هٰذِهِ الاستعمالات القرآنيَّة، قوْلُ اللَّه عزَّ وجلَّ في سورة (الانفطار/ ٨٢ مصحف/ ٨٢ نزول):

﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾.

وقَدْ وُصِفَ الْعَمَلُ المؤدَّىٰ في الحياةِ الدُّنيا بأنّه «يُقَدَّمُ» لأنَّهُ يَسْبِقُ عَامِلَهُ إلى ديوان أعْمَالِه فَيُسَجَّلُ في كتابِ عَمَلِهِ.

وَوُصِفَ ما لم يَعْمَلْهُ الْإِنْسَانُ في الحياة الدُّنيا بأنَّه «يُؤَخَّرُ» لأنَّ الإنسان حينما يأتي مَوْقفَ الحساب، ولا يأتي معه عَمَلُهُ الّذي كانَ مَأْموراً به، يُدْرِكُ أَنَّهُ قد تَرَكَهُ في زَمَانِ الحياةِ الدُّنيا، وجَعَلَه مُتَأَخِّراً عَنْ رَكْب حَيَاته، ويُدْركُ أنَّه لا رجْعَةَ إلَيْه الْبَتَّةَ، وقَدْ عاش عُمْراً كانَ بإمْكانه فيه أن يَسْتَدْرِكَ ما فاتَهُ فلَمْ يَفْعَلْ، حتَّىٰ وافَتْهُ مَنِيّتُهُ، وانتَهَتْ ظروفُ امْتحانه، وأقْبَلَتْ مَرْحلةُ حسابه، وفَصْلِ القضاء بشأنه، ومجازاتِه على اختياراته الحرَّة في الحياة الدُّنيا.

اللقطة السابعة:

جاءت في قول الله عزّ وجلّ: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾.

﴿بَصِيرَةٌ﴾: أي: كثير الْبَصَرِ والمعرفة بحركاتِ نَفْسِهِ، وتَصَرُّفَاتِهَا، ومُرَاداتِها، وأهوائها، وشهواتها، ونزعاتها ونزغاتها، ونِيَّاتِها، وأعْمَالِهَا الصَّالحاتِ والسّيّئات، وسائر ما يَصْدُرُ عَنْهَا من مكتسباتٍ إراديَّة.

كَلمة «بَصِير» على وزن «فَعِيل» من صِيَغِ المبالَغةِ الّتي يرادُ بها التكثير، أو التكبيرُ والتعظيم. والتاء في «بَصِيرَة» لزيادة المبالغة، وهي التاء التي يُؤْتَىٰ بها أحْيَاناً لتوكيد وزن الفاعل، مثل «رَاوِية» و«نَابغَة» وقد تأتي لتوكيد المبالغة، مثل «علاَّمَة» و«نَسَّابَة» و«فَهَّامَة».

﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾: متعلقٌ بـ﴿بَصِيرَةٌ﴾ مقدّمٌ عليه لمراعاة رؤوس الآيات وفنّيتها، وللتخصيص بأنّ معرفته الزائدة خاصّةٌ بأحوال نَفْسِهِ الإراديَّة.

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾: أي: هو يَعْرِفُ تماماً قبائح نَفْسِهِ، وجرائمها، وخطاياها الظاهرة والباطنة، ولَوْ حَاوَل تلْفِيقَ الأعْذَارِ لتَبْرِئة نَفْسِه بالأكاذيب.

مَعَاذير: جمع «مَعْذِرَة» بكَسْرِ الذَّال وضَمِّها، وتُجْمَعُ أيضاً على «مَعَاذِر» بغير ياء، على وزْنِ «مَفَاعِل».

والْمَعْذِرة: هي الحجَّةُ الّتِي يقدّمها ويجادل بها المعتذر عن ذنْبِه، الذي يُحَاول تَبْرِئة نَفْسِهِ من التقصير أو الذّنب.

والمعاذِير يَشُوبُها الكَذِب، ومن أمثالِ العرب: المعاذِرُ مكاذب.

وتأتي الْمَعاذِيرُ بمعنى السُّتُور في لُغَةِ اليمن، ومُفْرَدُها: «مِعْذَار».

والمعاذير بمعنى الحجج الكلاميّة تشبه السُّتُور الّتي يُلْقِيها الإنسان، ليَسْتُر بها ما وَراءَها من عُيُوب.

ومُقَدِّم الحجج الكواذب يحاول بها سَتْر ذُنُوبه، لعَلَّهُ يَظْفَرُ بحكم البراءة، لكنّها عند الله يَوْم الحساب لا تنفَعُهُ بشيء، فاللّه به وبخفايا نَفْسِه عليم، لا تخفَىٰ علَيْه خافيَة.

عَلَىٰ أنّ الإِنْسَانَ نفْسَه يتذكّر يَوْمَ الدِّين كُلَّ ما سَعَىٰ في الحياة الدنيا، وكُلَّ ما جَنَىٰ من مكتسَبَاتٍ إراديَّة في رِحْلَة امتحانه.

يُضَافُ إلى ذلك أنَّ صُحُفَ أعْمَالِهِ لَمْ تُغَادِرْ صَغِيرَةً ولاَ كَبِيرَةً إلاَّ أحْصَتْهَا، ففِيهَا سِجِلٌّ كاملٌ له بالصَّوْت والصُّورَةِ الظَّاهرة والباطنة، حتَّىٰ حركاتِ الفكر، وحركاتِ النفْس، والنيَّاتِ، وما في عُمْقِ الْفُؤَادِ.

ويُضافُ إلى ذلك أيضاً أنّ جِلْدَهُ وأعْضَاءَه الّتي ارتكبَ بها الذّنوب والمعاصيَ والآثامَ تَشْهَدُ عليه في موقف حسابه.

كُلُّ هذا دلَّتْ عليه نُصُوص من القرآن المجيد والسنة المطهرة.

فَمِنْ بديع البيان القرآنيّ استعمالُ كلمة «معاذير» هنا لتدلّ على معنى الحجج الكواذب التي يحاول بها المجرم تبرئة نَفْسِه يوم الدين، ولتَحْمِلَ معنى تشبيه هٰذِهِ الحجج بالستور التي يُحَاول مُلْقِيها سَتْرَ ما وراءها من عيوب، على طريقة استخدام اللَّفْظِ بمَعْنَيَيْه، أو على طَرِيقة التورية.

وفي استخدام فِعْلِ ﴿أَلْقَىٰ﴾ توجيهٌ لقبول الْمَعْنَيَيْن، فقد استعمل هذا الفعلُ في القرآن في الحسّيّات وفي المعنويّات، فمِنَ الحسّيات: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ ومن المعنويّات: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾.

وفي استعمال كلمة ﴿بَلْ﴾ الَّتي فيها معنَىٰ الإضراب الإبطالي، وما في جُمْلة: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ من دَلاَلَةٍ، بعد بيان أنّ هذا الإنسان خبيرٌ بما قَدَّمَ وأخَّرَ، إذ هو: ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ يُدْرِكُ المتدبّر المتَتَبِّعُ لِلَوازِمِ الأَفكار، أنَّ هذا الإنسَانَ لَدَىٰ مُحَاسَبَتِهِ وَتَنْبِيئِهِ بما قَدَّمَ وَأَخَّرَ، يُجادِلُ عَنْ نَفْسِه، لتَبْرِئَتِها ممَّا جنَتْهُ في رحلة الحياة الدنيا، فَلاَ يُقِرُّ بِمَا جَنَىٰ، مَعَ عِلْمِهِ بمَا جَنَىٰ، ويُحَاوِلُ أَنْ يَسْتُرَ نفسَه بالمعاذير.

ففي النَّصّ القرآنيّ محاذيفُ تُقَدَّرُ ذهناً، وَقَدْ دَلَّ عليها ما سَبَق.

وبإبراز المحاذيف يُمكن أن نفهم النَّصّ على الوَجْهِ التالي:

﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ فَيُنْكِرُ، ويَرْفُضُ الإقرار، ويُحاولُ أن يُلْقِيَ مَعاذيرَهُ ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ لكنَّهُ يُمْنَعُ من ذَلِكَ، فَلاَ يُؤْذَنَ لَهُ بتَقْديم الحجج الكواذب، فوقتُ الحسَاب الرَّبَّانِيّ لا يُشْغَلُ باسْتِمَاعِ أكاذيب المجرمين، دَلَّ علَىٰ هٰذَا قَوْلُ اللَّه عزّ وجلّ في سُورَةِ (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

وقد أبَان اللّه عزّ وجلّ في سُورَةِ (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) أنَّ كُلَّ نَفسٍ حَاملَةٍ أَوْزَاراً، تَأْتي يَوْمَ الْحِسَابِ لتُجَادِلَ عَنْ نَفسِها بَيْنَ يَدَيْ رَبِّها، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

مما جاء في السُّنَّة بشأن جدال الإنسان عن نفسه يوم الحساب:

(١) روى مسلم عن أنس بن مالكٍ قال: كُنَّا عند رسول الله ﷺ فَضَحِكَ، فقال:

«هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟».

قال: قُلْنَا: الله ورسوله أعلم. قال:

«مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يقولُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ تُجرنِي من الظُّلْمِ؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ. فَيَقُولُ: فَإِنِّي لاَ أُجِيزُ علَىٰ نَفْسِي إلاَّ شَاهِداً مِنِّي. فيقولُ: كَفَىٰ بِنَفسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيداً، وبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُوداً.

فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي. فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ. ثُمَّ يُخَلَّىٰ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَم.

فَيَقُولُ: بُعْداً لَكُنَّ وسُحْقاً، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ».

وفي رواية ابْنِ أبي حاتم: «مِنْ مُجَادِلَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ».

(٢) روى ابْنُ أبي حاتم، وابْنُ جريرٍ، عن أبي سعيد، عن النبيِّ ﷺ، قال:

«إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، عُرِّفَ الْكَافِرُ بِعَمَلِهِ، فَيَجْحَدُ، ويُخَاصِمُ، فَيُقَالُ: هَؤُلاَءِ جِيرَانُكَ يَشْهَدُونَ عَلَيْكَ، فَيَقُولُ: كَذَبُوا. فَيُقَالُ: أَهْلُكَ وَعَشِيرَتُكَ،

فَيَقُولُ: كَذَبُوا. فَيُقَالُ: احْلِفُوا فَيَحْلِفُونَ. ثُمَّ يُصِمُّهُمُ اللَّهُ، فَتَشْهَدُ عَلَيْهِم أَيْدِيهِمْ، وَأَلْسِنَتُهُمْ، ثُمَّ يُدْخِلُهُمُ النَّار».

وشهادة أعضاء الإنسان عَلَيْهِ ثابتَةٌ فِي نُصُوصٍ قرآنيّة.



(٥)
التدبّر التحليليّ لآيات الدرس الثاني من دروس السورة

وهو الآيات من (١٦ ـ ١٩)

قال الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

تمهيد:

هذا دَرْسٌ اعتراضيٌّ في موضوع السُّورة، مُوجَّهٌ للرسُول محمّدٍ ﷺ، بِشَأْنِ تَلَقِّيهِ مَا كَانَ يُنَزَّلُ عليه من نجوم القرآن، وقد دعا إليه حالَةُ الرّسُول ﷺ عند نزول الدرس الأول منها، إذْ جَعَلَ يعْجَلُ بمُتَابَعَةِ جبريل عليه السّلام.

فاقتضَت الحكمة التربويَّةُ وَضْعَهُ دَرْساً اعتراضِيًّا في السُّورَةِ، لتَعْلِيمِنَا أُسْلُوباً من أساليب التربيَة، وهو أسْلوبُ التوجيهِ في تعليم ما هو الأفضلُ عَقِب الممارسة الّتي يُراد تصحيحها، أو تَقْوِيمها، ولا سيما عنْدَ مُمَارَسَةِ عَمَلٍ لاَ يَصِحُّ التمادي فيه.

وهذا نَظِيرُ عَمَلِ المربّي إذا رأى ولَدَهُ أو تلميذَهُ يأكُلُ بشمالِه، فإنَّهُ يقولُ له عنْدَ مُمَارسَتِه ذلك: كُلْ بيمنك. وإذا رآه يمُدُّ يَدَهُ لِيَخْتار أجْوَدَ

اللَّحْمِ مِنَ الجَفْنَةِ، ومعه آكلون آخرونَ منها، فإنَّهُ يقول له عندئذٍ: كُلْ ممَّا يَلِيكَ.

فعند تَلَقِّي الرسول محمّد ﷺ أوائلَ سُورة (القيامة) من جبريل عليه السلام، صار يَعْجَلُ بتَحْرِيكِ لسانه يَتْلُو ما كان يتلَقَّاهُ، حرصاً منه على جمْعِ ما يتلقَّاهُ في ذاكرَته مُرَتَّباً، لاَ يَضِيعُ منه شيءٌ، وحرصاً منه على فَهْمِ المراد، وعلى ضَبْطِ ترتيلِهِ مُجَوَّداً، كما يَتْلُوهُ عليه رسولُ الوحي الرَّبَّاني، فأنزل الله عزّ وجلّ عليه هذه الآيات التربوية.

درسٌ من أربع آياتٍ حوْلَ ما يَنْبَغِي للرَّسُول ﷺ أنْ يَفْعَلَهُ عنْدَ تلقّي نُجُوم القرآن، الَّتِي يَنْزِلُ الوحْيُ بها عليه.

وقد سبق هذا الدرس طَمْأَنَةٌ من الله لرسوله بأنَّه سيُقْرِئه القرآن فهو لا يَنْسَىٰ ما يُقْرِئُه منه بما يعطيه من قدرة على الحفظ، إلاَّ ما شَاء اللَّه، فقال له في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول):

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾﴾.

أي: إلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْسَحَهُ من ذاكرته، إذْ يكون أَمْراً مراداً كالنَّسْخ، وحين ينْسَخُ اللَّهُ آيَةً أَوْ يُنسِيها رَسُولَهُ بقضائه وقدَرِه، فإنَّهُ يأتي بخَيْرٍ منها أو بِمِثْلِها لاَ بدُونها، كما قال اللَّهُ عزّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

وكان من مقتضىٰ وعْدِ اللَّه رسُولَهُ بعَدَم نِسْيان ما يُنَزَّلُ علَيْهِ من قرآن، أنْ لا يَتعَجَّلَ الرَّسُول ﷺ بحفْظِ وضَبْطِ ما يَنْزِلُ عليه به الوحي من نجوم القرآن، ولكنَّ شدّة حِرْص الرَّسُول على تَلَقِّي أمانة الله الْمَأْمور بتبليغها كما تَنْزِل عليه، جعلَتْه يَرَىٰ من الخير أن يتعَجّل بقراءة ما يَنْزِلُ عليه، لتحقيق ما

وَعَدَهُ اللّه به، وجعلَتْهُ يَرَىٰ أَنَّ علَيْه أَنْ يَضْبط ما يتلَقَّاهُ بتلاوةٍ مُجَوّدة، كما يَقْرَؤها جبريل عليه السلام، مع حرصه صلوات الله عليه على فهم المراد.

لكلّ ذَلِكَ قال الله لرسوله في هذا الدرس الاعتراضيّ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾:

أي: لا تحرّك بما يُنَزَّلُ علَيْكَ من القرآن لسانَكَ لأجْلِ أن تعجَلَ بجمع كلماته وآياته في ذاكرتك، وتَعْجَلَ بضبط تلاوتِه مُرَتَّلاً مجوَّداً، وتَعْجل بفهم المعاني المرادة.

● ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾: أي: فَلاَ تحذَرْ أنْ ينِدَّ عَنك شيءٌ منه، من كلماته، أو آياته، أو نسَقِه وتَرْتِيبِه وضبطه، فإنّ عَلَيْنا جمعَهُ في صَدْرِكَ وذاكرَتك وفكرك، كما يُلقّنُك إيّاهُ جِبْريل، فتكفّلَ اللّهُ لَهُ بجمعه في ذاكِرَته.

● ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾: أي: ولاَ تَحْذَرْ أنْ يَنِدَّ عنكَ شيْء من ضَبْطِ تِلاَوَتِهِ مجوَّداً، بالأداء المبين الكامل المرتَّلِ، كما يُلَقِّنُك إيَّاه جبريل.

وَقُرْآنَهُ: أي: وقِرَاءَتَهُ، فالقرآن هنا مصدَرٌ كالقراءة.

فالمعنى: وإنَّ علينا أمْرَ ضَبْطِ لسانِك على قراءته وفْقَ التَّلْقِين المنزَّل، فإن كنْتَ تحرّكُ لسانَكَ تَعَجُّلاً لضبط الأداء المرتَّل المجوّد، فإنَّ عَلَيْنَا قرآنه، فتكَفَّلَ اللّه له بضبط تلاوته مُرَتَّلاً، مجوَّداً.

● ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾: أي: فإذا أتممْنَا لَكَ قِراءَة النَّجْمِ الذي يَنْزِلُ عليك به الوحْي، فاتّبعْ قراءتَهُ بَعْدَ ذَلِكَ، كَمَا تَلَقَّيْتَهُ وَتَلَقَّنْته.

في استعمال فعل ﴿قَرَأْنَٰهُ﴾ هُنَا دَلاَلَةٌ علَىٰ أَنَّ جبريلَ كانَ يَقْرَأُ بأمْرِ اللّهِ علىٰ رسُولِه من صحائف قَدْ كُتِبَ عَلَيْها النَّصُّ المنزَّلُ على الرسُولِ، إشعاراً بكمال الضَّبْط. لأنّ القراءة هي في الأصل مُتابعَةٌ في النُّطْقِ لصحائِفَ

مكتوبة، ثمَّ تَوَسَّعَت الدّلالة فصارت تُطْلَقُ القراءَةُ على النُّطْقِ بما هو محفوظٌ في الذاكرة، ولهَذَا لمَّا عَرضَ جبريل عليه السّلام على الرسُولِ محمّد ﷺ في غارِ حراء، عند بدء الوحي خطّاً مكتوباً وقال له: «اقرأ» كان جَوَابُ الرَّسُول: ما أنا بقارئ، أي: لم أتعلَّم القراءَةَ والكتابة، فأنا لا أَعْرِفُ رُمُوز الخطوط حتَّىٰ أقرأها، ولو قال له انطِقْ بما أَقْرَأُ عَلَيْكَ لنَطَقَ مُتَابعاً لَهُ، بَدْءاً من المرَّة الأولى الّتي قال له فيها: اقرأ.

● ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾:

إنّ بَيَانَ مَعَانِي القرآن المنزّل هو القضيّة المهمَّةُ الثالِثةُ بعد قضيَّة الحفظ على وفْقِ التَّنزيل، وقَضِيَّةِ ضبْطِ الأداء والترتيل.

وبَيَانُ معاني القرآن يشمَلُ بيَانَ ما اشتَمَلَتْ عليه دلالاَته من عقائدَ وشرائعَ وأخلاقٍ وآدابٍ وأحكامٍ وتكاليف، ويشْمَلُ ما تَدُلُّ عليه نصوصُهُ من علومٍ عن الكون والماضي والمستقبل والحاضر من عالَمَي الغيب والشهادة، وعن النفوس والحقائق الفكريَّة المجرّدَة.

وفي هذه الآية تكفَّلَ اللَّهُ عزّ وجَلَّ بأنْ يُبيِّنَ كُلَّ ما اشْتَمَلَ عليه القرآن من دَلاَلات، ولكنْ على التراخي، بمقتضى دَلالة حَرْف العطف ﴿ثُمَّ﴾ فيها، وهذا يَشْمَلُ الأزمِنَةَ المستقبلَةَ وَلَوْ بَعْدَ انتِهَاء حياة الرَّسُولِ ﷺ في الدنيا، فَفَهْمُ كامل المعاني القرآنيّة له مراحل مستقبليّة.

أمّا ما يتعلّقُ من معانيه بمطلُوبِ اللَّه من العباد في أُمُور دينهم، فقَدْ جعَلَ اللَّهُ في لَوَاحِقِ نُجُومِ التنزيل، وفي بيانات رسُولِهِ للنّاسِ مَا فيهِ وفاءٌ بذلك.

وأمَّا ما يتعلَّقُ من معانيه ودَلالاته بأمُورٍ أُخرى فَقَدْ تكفَّلَ الله ببيَانِهِ بوسائل مختلفةٍ يَهْدِي اللَّهُ إليها عباده في القُرون المتتابعات، ومنها اكتشاف حقائقَ كانت مجهولةً للناس، في السَّمَاواتِ والأَرْضِ والأَنْفس، عن طَرِيقِ التجربات، والملاحظات، واستخدامِ الوسائل والأدوات الّتي يَتَوَصَّلُ النَّاسُ

إلى اكتشاف خصائصها، واستخدام ما فيها من قُوىً وطاقات، وهٰذِهِ لم يَطْلُبِ الله من الرسول محمد ﷺ أنْ يُبَيِّنها للناس.

لكنّ الله عزّ وجلّ قَدْ تَكَفَّل ببَيَانِها مستقبلاً، بما يفتح به على عباده من أبواب معارِفَ كوْنيّة، ولو كانوا من الكافرين بالرَّسُولِ وبالقرآن المنزَّل علَيْه.

وفي هذا الإطار ظهرت قضايا الإعجاز العلميّ في القرآن، وفي هذا الإطار أيضاً نفهم قول الله عزّ وجلّ في سورة (فصّلت/ ٤١/ مصحف/ ٦١ نزول) في مَعْرِض الحديث عن القرآن:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾.

ويظهر أنّ الرسول ﷺ على الرُّغم من أناته وصَبْرِهِ لدَىٰ تلقّي القرآن من الوحي، واستجابته للتعليم الرَّبَّانيّ، لمَّا صَارَتْ نُصُوصُ نجوم التنزيلِ تنزِلُ عليه أطْوَلَ ممّا كانت تَنْزِلُ، صَارَ يتَعَجَّلُ بتلاوَةِ ما يُوحِي إليه به جبريل، قبْلَ أَنْ يَنتَهِيَ من وحْيِهِ، ظَنّاً منه أنَّ النَّجْمَ قَدْ تَمَّ، مع أَنَّ جبريل عليه السّلامُ لَمْ ينْتَهِ بَعْدُ من قراءته عليه، فأنزل اللّه عَزّ وجلّ عليه قَوْله في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿...وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

فعلّمَ اللّه رسولَهُ في هٰذه الآية أنْ يَنْتَظِرَ حتَّىٰ يعلَمَ أَنَّ جبريلَ قد أَنْهَىٰ كامل النَّجم الذي يوحي به إليه، وأنّه قد فرغ مِنْ تَلْقِينِه إيّاه تماماً.

(٦)
التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دُروس السورة وهو الآيتان (٢٠ ـ ٢١)

قال اللَّهُ عزّ وجل:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾.

- قرأ جمهور القرّاء العشرة [تُحِبُّون] و[تَذَرُونَ] بتاء الخطاب.

- وقرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمْرٍو، وابْنُ عَامرٍ، ويعقوب: [يُحِبُّونَ] وَ[يَذَرُونَ] بياء الغائبين.

وبين القراءَتَيْنِ تكامُلٌ في الأداءِ البيانِيّ، فالمستجيبون للخطاب القرآني يلائم حالَهُمْ قراءَةُ الجمهور. والمعرضون والمدْبِرون يلائم حالَهُمُ القِراءة الأُخرى: [يُحِبُّونَ] و[يَذَرُونَ].

هذا الدرس موصول بموضوع الدرس الأوّل، المتعلّق بقضيَّةِ الدنيا دار الابتلاء، والآخرة دار الجزاء، في خُطَّة الخالق ربّ العالمين، وأَحْكَمِ الحاكمين، الذي بيده ملكوت السَّماوات والأرض، وهو على كلّ شيءٍ قدير.

إلاّ أنَّ هذا الدرس موجَّهٌ لعموم النَّاس، لا لخصُوص الكافرين المكذّبين بيوم الدّين، الَّذِين جاء الدرس الأوّل موجّهاً لهم.

وقد صدَّر الله عزّ وجلّ هذ الدرس الثالث بعبارة الزَّجْر لعموم الناس، على واقعِ غيْرِ سَوِيٍّ هم فيه، إذْ يُحبُّون العاجلَةَ الفانية السَّريعة الزّوال، وهي الحياة الدنيا، ويترُكون الآخرة الباقية الخالدة، ذاتَ النعيم العظيم الذي لا يزول، فلا يسْعَوْنَ لها سَعْيَها، ولو كَانوا مؤمنين بها، ومؤمنين بأنّها هي دار الحيوان الباقية.

والناس بالنظر إلى هذا الواقع الذي هم فيه يستحقّون الزجْرَ عليه، والرَّدْع عنه.

﴿كَلَّا﴾: أدَاةُ رَدْعٍ وَزَجْرٍ في معظم أحوالها، ولهذا يجوز الوقوف عليها، والابتداء بما بعدها.

وقد جاء هذا الردْع والزجْر في صَدْر التوجُّهِ لخطاب النّاس، ليعلَمُوا أنّهم في واقعٍ غَيْر سَوِيّ، وهم يسْتَحقُّون عليه الزَّجْرَ والرَّدْع. ألاَ وهو حُبُّهم للدُّنيا الّتي هي العاجلة، وتَرْكُهُمْ لِلآخِرَة الّتي هِيَ الآجلة.

﴿بَلْ﴾ حرف إضرابِ انْتقالي كما يقول المعْرِبُون الذين لا يَبْحَثُونَ في الْعُمْق، لكنَّنا إذا تعمّقْنَا في التّدَبُّر وجدْنا أنَّ كلمةَ ﴿كَلَّا﴾ الرَّادِعَة الزاجرة، تُشْعِرُ بأنَّ النَّاسَ يتَّخِذُونَ لأنفسهم ذرائع ومعاذير تَصْرِفهم عن السَّعْي للآخرة، وتَجْعَلُهُمْ يُوجّهُونَ اهتماماتهم للحياة الدُّنيا وزينَتِها، وذرائِعُهُم ومعاذيرهم باطلَةٌ، يُدْرِكُ بُطْلاَنَها أولو الألباب.

فجاءت كلمة ﴿بَلْ﴾ لِلإِضْراب الإبطالي، لا لمجرّد الإضراب الانتقاليّ من غرضٍ في البيانِ إلى غرضٍ آخر.

إنّ حبَّ الناس للعاجلة، بِسَبَب نَظَرِهم القاصر، وتعجُّلهم لاغتنام اللَّذَّاتِ، وإجابَة مطالِبِ الشهوات، يجعلُهم يتعلَّقُونَ بالْحَيَاة الدنيا وزيناتها، ويوجّهُونَ كلّ أعمالهم واهتماماتهم، أو معظمها، لنَيْلِ متاعها، ولذّاتِها وشهواتِها، فيصرفُهُمْ ذلك ويُلهيهم عن الآخرة والعَمَل لها، فهم وإنْ كَانُوا يؤمنون بالآخرة يتركونها ويضيّعون حقُوقَها، فَيَخْسَرون كنوزها المدَّخرة، ويخْسَرُون أنفسهم في الفاني، لأنّهم وجَّهُوا له كلّ وسائلهم، آخِذين بأسْبَابه، تاركين أسباب الآخرة، فإذا ماتُوا نبَذَتْهُمْ الدّنيا عنها، وتوجَّهَتْ لمتعلّقين بها آخرين ما زالوا فيها أحياء.

ثُمّ إذا بُعِثُوا للحياة الأُخرى وجَدُوا أنفسهم خاسرين، لأنّهم كانوا قد تركوا أسبابها، وتلَهَّوْا عن العمل لها بالعمل للعاجلة.

ألا يستحقّ هذا الواقع عِبَارَة الزَّجْر والرَّدْعِ «كلاَّ» تَنْبِيهاً للغافل، وحثًّا للمؤمن العامل المقصِّر على مُضَاعفة جُهودِهِ ومجاهدته في ابتغاء نعيم الآخرة، ومراتِبِها الرفيعة في جنَّات النعيم، فضلاً من الرّبّ الرحيم الكريم.

وترجع **أسْبَابُ حُبِّ النَّاسِ العاجلَةِ** وتَرْكهم الآخرة إلى ما يلي:

السبب الأوّل: أنّ الدُّنيَا حقِيقَةٌ مُشَاهَدَةٌ مُدْرَكَةٌ بالحواسّ، أمّا الآخرة فهي غيبيَّةٌ مستقبليّة يربط بها الإيمان.

السبب الثاني: أنّ الناس يَحْيَوْن الحياة الدنيا، ويَعيشُون فيها، لحظَةً فلَحْظَةً، فتَشْغَلُهم بها، وتَمْتَلِكُ أحاسيسهم الظَّاهِرَة والباطنة، أمّا لذّاتُها فيطلُبُونَ منها المزيد، وأمَّا آلاَمُها وأكدارُهَا فَيَكْدَحُونَ للخَلاَصِ منها في الحاضر، والتوقي منها في المستقبل، وهَذا يُنْسِيهم الدار الآخرة وما فيها، ولو كانوا يُؤْمِنُونَ بها، إلاَّ مَنْ كان الموتُ واعظاً له، وكانت الآخِرَةُ حاضِرةً في ذَاكِرَته بالمواظبة على تلاوة القرآن الكريم، ولا سيما الآياتُ الّتي تتحدَّثُ عَنِ الآخرة والجنَّة والنار، ومَا فيهما من نعيم مقيم، وعذابٍ أليم.

السبب الثالث: أنّ حرَكَةَ شهوات النّاس وأهواء نفوسهم تُلِحُّ عليهم إلى حدِّ النُّباح أحياناً، ونُبَاحُهَا يَدْفَعُهم بقُوَّةٍ إلىٰ أن يَعُبُّوا من لذّاتها وصُنُوف متَاعِهَا بلا حساب، فَهُم يلْهَثُونَ وراء جَمْع الأَسْبَاب الّتي يَرَوْنَ أنَّها تُوصِلُهم إلى ذلك، وهُمْ في الغالِب لا هَمَّ لَهُمْ إلاَّ إرْضاءُ أهْوائهم وشهواتهم الجسديّة والنّفسيّة.

السبب الرّابع: أنَّ الآخِرَةَ حقيقةٌ غيْبيَّةٌ مَوعُودٌ بها، وهي غَيْرُ مُدْركة بالحواسّ حتَّىٰ تَتَهَيَّجَ الأهْواء والشهوات لها، وأنَّ الإيمانَ بالآخرةِ إيمانٌ عقليٌّ ووجدانيٌّ.

ويَحْسُنُ بنا هُنَا أن نُذَكِّرَ بِأَنَّ عقَبَة الامتحان الأُولىٰ في الحياة الدُّنيا، هي الإيمان بالغيب، عن طريق برهان الْعَقْلِ، ومؤيّداته الوجدانيّة، وبَرَاهِينُ

العقلِ تَسْتَنِد إلى دلائل الحسّ وأماراته، مع ما لَدَيْه من أحكامٍ ومقاييس وموازين فطريَّةٍ فطَرَهُ البارئُ عليها.

السبب الخامس: أنّ الآخرة تقع في المستقبل البعيد بحَسَب تصوّر الناس، مع أنَّهُ في حقيقَةِ الأمْرِ قريبٌ جدًّا، ليْسَ بيننا وبينه إلاَّ عَتَبَةُ الموت.

أمّا البرْزَخُ الذي بين الموْت والبعث إلى الحياة الأخْرى، فإنَّ الميّت لا يُحِسُّ بزَمَنِه، إذْ يُلْغَىٰ مِن مشاعر الميِّتِ الإحساسُ بمُرُور الزّمَنِ، ويَبْقَىٰ لدَيْهِ الإِحْسَاسُ بمشاعر النّعِيم إذا كان من المنعّمين السُّعَداء، والإحساسُ بمشاعر العذاب إذا كان من المعذّبين الأشقياء، وذلك في مراكز الشعور التي تبقَىٰ له، في خريطة نفسه، مع إشعاعٍ عليها من روحه، أو في رُوحِه، وليس لدينا بشيْءٍ من ذلِكَ عِلْمٌ نُقَدّمُ به تحديداً واضحاً، غير أن النَّعِيمَ والْعَذَابَ في مدَّةِ الْبَرْزَخ ثابتَانِ في النُّصوص الصحيحة الصريحة، من القرآن والسُّنّة.

وإذْ يُلْغَىٰ الإحساس بالزَّمَنِ من النُّفُوس والأرْواحِ بَعْدَ الموْت، فاللَّحظَةُ والسَّاعَةُ وملايينُ القرونِ بالنسبة إلى إحساس الموتى بالزّمَنِ سواء، وحين يبعثُون من قبورهم لا يَشْعُرُونَ مشاعر زمَنيَّةً إلاَّ كما يشْعُرُ النائم نوْمَةَ القيلولة في النهار، يسْتَوي في هذا الشعور من ماتَ من أوَّلِ النّاس، ومن ماتَ عنْدَ قيام سَاعَةِ الْإِفناء العامّ.

وهٰذِهِ قضيَّةٌ تَدُلُّ عليها في تجربات الناس حالة النوم، وحالة الإغماء، وحالاتُ التخدير لإجراء العمليَّات الْجِرَاحِيَّة، ويَدُلُّ عليها موتُ الْعُزَيْرِ، ونَوْمُ أهل الكهف.

وقد دلَّتْ عليها بالنسبة إلى عُموم الموتى، نُصُوصٌ مُتَعَدّدَةٌ من نصوص القرآن المجيد، ومنها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) يصِفُ حِوَارَ المجرمين في موقف الحشر، عَقِب بعْثِهم إلى الحياة للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء:

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴿١٠٣﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً﴾: أَيْ: أحْسَنُهُم في طريقة تقدِير الزّمن بين الموت والبعث في إحْسَاسِ الموتى.

﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا﴾: أي: ما لبِثْتُمْ بَيْنَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ إلاّ يَوْماً واحداً.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

فدَلَّتْ هذه الآيَةُ على أنَّ الناسَ بعْدَ بعْثِهم وحَشْرِهِمْ، يَشْعُرُون كَأَنَّهُمْ لم يَلْبَثُوا بَيْنَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ في البرزَخِ الفاصل إلاَّ سَاعَةً من النَّهار، أي: أقلَّ من نَوْمِ اللّيل.

﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾: أي: وَمَا كانوا مُسْتَعِدِّين لأنْ يَهْتَدُوا في الحياة الدنيا، مهما مدّ اللّهُ في أعمارهم، فاسم الفاعل هنا يَدُلُّ على الاستقبال.

إنَّ يَوْمُ البعْث هو في الحقيقة بالنسبَةِ إلى الإدْراك الّذي يُحِسُّ به النّاس، يومٌ قريبٌ جداً، ليْسَ بين الموْتِ وبَيْنَه إلاَّ مِثْلُ نومَةٍ ينامُها النائم، لا يُحِسُّ بزمَنِها الطويل، إلاّ كَمَا يُحِسُّ إذَا نَامَ سَاعَةً من النَّهارِ، إذْ يُلْغَىٰ الإحْسَاسُ بمرُور الزّمَنِ من مَشَاعِرِ نفوس الموتى.

ولهذا وصَفَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ يَوْمَ الْبَعْثِ وَمَا يَجْرِي فيه بالْقُرْب.

(١) فقال اللَّهُ عزَّ وجلّ في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول) يَصِفُ العذاب الواقع بالكافرين يَوْمَ الدين بأنَّه قريب:

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾.

(٢) وقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول):

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ۝٤٠﴾.

❊ ❊ ❊

حبُّ العاجلة في النصوص القرآنية:

جاءت معالجة القرآن لحبّ الناس الحياة الدنيا الْعَاجلة في عِدَّةِ نصوص، يَحْسُنُ بِنَا هُنَا أن نَسْتَعْرِضها بشيءٍ من التدبر:

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول) خطاباً للنَّاس:

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾.

فأبان الله عزّ وجلّ للناس في هذا النّص أَنَّهُمْ في واقع حالهم يُؤْثرون الحياة الدنيا، وأرشدَهم إلَىٰ أن يَعْمَلُوا للآخرة الّتي هي خَيْرٌ لهم وأبْقَىٰ، دون أنْ يُوجِّه لهم زَجْراً وَرَدْعاً، نظراً إلى أنه هو النَّصُّ الأوّل في هذا الموضوع.

النّصّ الثاني:

ثمَّ أنزل الله عزّ وجلّ قَوْلَهُ في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول): خطاباً للناس:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾:

فجاء في هذا النَّصّ زَجْرٌ ورَدْعٌ للنَّاسِ على إيثارهم للحياة الدنيا العاجلة، بدافع حُبّهم لها، وعلى تَرْكهم للآخرة، الَّتي أبَانَ لَهُمْ في نصّ سورة (الأعلى) أنَّها خَيْرٌ لهم وأبْقَىٰ.

النصّ الثالث:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ قولَهُ في سورة (صٓ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بياناً لقول الكافرين الَّذِين يُؤْثِرُونَ الحياة الدُّنيا ويَذَرُونَ الآخرة ولاَ يَعْبَؤُون بها:

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾:

أي: رَبَّنَا عَجّل لنا نَصِيبَنَا من العطاء الَّذي تمنحه عبادَك.

أصل «**الْقِطُّ**» الرُّقْعَة التي يُكْتَبُ فيها عَطَاءُ الملِك لمن يَحْبُوه بعطائه.

النصّ الرابع:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) مبيناً سنّته في معاملة عباده تجاه اختياراتهم للعاجلة أو للآخرة:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

فَدَلَّ هذا النَّصُّ على أنَّ الحياة الدنيا حياة امتحان، ومن شأن الامتحان أن تكون ظروفه للمُحْسِنِينَ ولِلْمُسِيئين مَشْمُولَةً بنظامٍ عامٍّ واحد، لِيَسْتَوْفِيَ كلٌّ منهم شُروط الامتحان الأمثل.

فمن كان يُريد الحياة الدنيا لم يحرمْه اللَّه من عطاءاته المقَدَّرَة له فيها، لكنَّهُ يكون في الآخرة من أهل جهنَّم يصْلاَها مَذْموماً مَدْحوراً.

أمّا من أراد الآخرة وَسَعَىٰ لها سَعْيَها وهو مُؤْمِنٌ، فإنَّهُ يُصِيبُ من دُنياه عطاءاتِ رَبّه المقدَّرَةَ له فيها، ثم يُثيبُهُ اللَّهُ يَوْم الدّين على إيمانه وأعمالِهِ الصالحة ثواباً جزيلاً، إذْ يكُونُ سَعْيُه عِنْدَ رَبِّهِ مَشْكُوراً، أي: مأجُوراً أجراً عظيما.

النّص الخامس:

ثُمَّ أنْزَلَ الله عزّ وجَلَّ قولَهُ في سُورَةِ (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

فدلّ هذا النصُّ على أنّ المرادَ بإيثار الحياة الدنيا تَرْك الآخرة تَرْكاً كلّياً، بإهمالها وعدَمِ العملِ لَهَا مطلقاً، لأنّ الجَحِيم يوْمَ الدّين هي مأوىٰ من آثرها هذا الإيثار الكليّ.

النّص السادس:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) بشأن الكافرين المصرّين على كفرهم:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾.

أي: يُدْبِرُون وَيَتَوَلَّوْن نَابذِينَ وَرَاءهم الإيمان بيَوْم الدّين الّذي هو يَوْمٌ ثقيلٌ، في كلّ ما فيه من عقاب وثواب وبقاءٍ بلا نهاية.

❁ ❁ ❁

(٧)
التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس السورة
وهو الآيات من (٢٢ ـ ٢٥)

قال اللَّهُ عزّ وجل:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾.

في هذا الدرس عرض للَقْطَتَيْن من مشاهد الناس في موقف الحشر يوم القيامة، إذْ تَبْدو في هذا المشهد صورتا صنفين من وجوه النّاس:

الصنف الأوّل: وجُوهُ المؤمنين، فهي وجُوهٌ ناضِرَة، إلى ربّها ناظرة.

الصنف الثاني: وجُوهُ الكافرين، فهي باسِرَةٌ، تخشَىٰ عقاب اللَّه وعذابه.

وجاءتْ كلمة ﴿وُجُوهٌ﴾ منكرةً في عرض كلٍّ من الصّنفين، لأنَّ الغرض بيان انْقِسَام الوجوه في موقف الحشر إلى قسمين: قسم وجوه المؤمنين، وقسم وجوه الكافرين.

فمن أشْرَف من عُلْوٍ على موقف الحشر ليشْهَدَ النَّاس فيه، رأىٰ هٰذَيْن القسْمَيْنِ من الوجوه بعَلاَمَاتهما الظاهرات.

■ أمَّا علامَةُ وجوه المؤمنين فهي أَنَّها ناضِرَةٌ، إلى رَبِّها ناظرة، كما قال الله تعالى:

● ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾: الكلام في السُّورَةِ عَنْ يَوْمِ القيامة، وما يجري فيه من أحداث، أي: يوم تجري أحداث القيامة إلى الحساب، وفصل القضاء، وتحقيق حكمة الجزاء. التنوين في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ عِوَضٌ عن هذا الكلام الطويل المفهوم من سوابق العبارة.

﴿نَّاضِرَةٌ﴾: أي: حَسَنَةٌ غَضّةٌ نَاعِمَةٌ، مؤنّث «ناضِر» اسْم فاعل من فِعْلِ «نَضَرَ يَنْضُرُ، وَنَضِرَ يَنْضَرُ، ونَضُرَ يَنْضُرُ» نَضْراً، ونَضْرَةً، ونَضَارَةً، ونُضُوراً، أي: حَسُنَ، فهو ذو بريقٍ تَظْهَر عليه علامات السُّرور والنِّعْمة والْبِشْر، فَهُو نَاضِرٌ، ونَضِيرٌ، وَنَضِرٌ.

ويُقَالُ لغة: نَضَرَ اللَّهُ وَجْهَهُ، ونَضَّرَ اللَّهُ وجهه، وأنْضَرَه، أي: نَعَّمَه.

● قال الله عزّ وجل في سورة (المطفّفين/ ٨٣ مصحف/ ٨٦ نزول) يَصِفُ الأبْرار وهُمْ في الْجَنَّةِ يُنَعَّمُونَ:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾:

﴿نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾: أي: حُسْناً ذَا بَرِيقٍ تَظْهَرُ عليه السِّمَاتُ الدَّالاَّتُ على أنَّهم سُعَداءُ بما هم فيه يُنَعَّمون.

● وقال اللَّهُ عزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) في وصْفِ الأبْرار أيضاً وهم في الجنَّةِ يُنَعَّمُونَ:

﴿. . . فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

الأرائك: جمع «الأَرِيكة» وهي المقْعَدُ المنجَّدُ الوثير الموطّأُ اللّيّن.

● قول الله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾:

﴿نَاظِرَةٌ﴾: اسم فاعل من فِعْلِ: «نَظَرَهُ، ونَظَرَ إلَيْه» أي: رآه بحاسَّةِ الْبَصر.

دلّت هذه الآية على أنَّ المؤمِنين يَرَوْنَ رَبَّهُمْ في الآخرة، أمّا كيفيَّةُ الرُّؤيَةِ فاللَّهُ أعْلَمُ بها، وقد ثبَتَتْ هٰذِهِ الرُّؤيةُ في المتواتر عن الرسول ﷺ، ومنها ما يلي:

(١) روى البخاريُّ ومسلم وغيرهما عن أبي هريرَة قَال: قال الناس: يَا رَسُول اللَّه، هل نَرَىٰ رَبَّنا يَوْمَ القيامة؟.

قال: «تُضَارُونَ في الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟».

قالوا: لاَ، يا رَسُول اللَّه.

قال: «فَهَلْ تُضَارُونَ في الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟».

قالوا: لا، يَا رَسُول الله.

قال: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ».

تُضَارُونَ: أي: يُصِيبُكُمْ ضَرَرٌ، يقالُ لغة: ضَارَهُ يَضِيرُهُ ضَيْراً، وَضَارَهُ يَضُورهُ، أي: أضَرَّ به.

(٢) وَروى ابن مَرْدَوَيْهِ عن أنس بن مالكٍ قال: قالَ رسُولُ اللَّه ﷺ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ قال: «يَنْظُرُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ بِلاَ كَيْفِيَّةٍ، وَلاَ حَدٍّ مَحْدُودٍ، ولاَ صِفَةٍ مَعْلُومَةٍ».

إلى غيرهما من أحاديثَ ورواياتٍ بَلَغَتْ عندَ أهل الحديث مبْلَغَ التواتر.

■ وَأَمَّا عَلامَةُ وُجُوهِ الكافرين فهي أنّها بَاسِرَةٌ خائفةٌ مَذْعُورَة، كما قال اللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿بَاسِرَةٌ﴾: أي: عابسَةٌ كالِحَةٌ كئِيبةٌ مُقَطِّبَةٌ مُتَقَبِّضَةٌ، مُصْفَرَّةٌ مَعَ سَوَادٍ وأَلْوانٍ تَدُلُّ على الكآبَةِ والْخَوْفِ من أَثَرِ الشُّعُورِ بسُوءِ الْمَصِير.

يقال لغة: «بَسَرَ الرَّجُلُ يَبْسُر بَسْراً وَبُسُوراً» أي: عبَسَ، وكَلَحَ، وتقَبَّضَ، من أَثَرِ الكراهِيَةِ الشديدة، فهو «بَاسِر».

وقد يوصَفُ بالمصْدَرِ فيُقَالُ: وَجْهٌ بَسْرٌ.

ويُسْتَعْمَل الفعل متعدّياً، فيُقالُ: بَسَرَ الرَّجُلُ وَجْهَهُ، إذَا جعلَ فيه الْعُبُوسَ والكَلاَحَةَ والتَّقْطِيب.

﴿فَاقِرَةٌ﴾: أي: داهِيَةٌ عظيمةٌ وشَرٌّ كبير، وأصل الْفَاقِرة: الداهيَةُ العظيمة الكاسِرَة لِفَقَارِ الظَّهر أي: لِفِقَرَاتِ الظهر. **«فَقَار»** جَمْعٌ مُفْرَدُهُ **«فِقَرَة»**.

وتُطْلَق كلمة «فاقِرَة» على الوسْمِ بحَدِيدَةٍ مَحْمِيَّة، أو بنارٍ على أنْفِ البعير حتَّىٰ تَخْلُصَ إلَىٰ أصْلِ العظم، كذا قال الأصْمعي. ومن هذا قولهم: قد عَمِلَ بهِ الْفَاقِرَة.

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾: أي: تَظُنُّ وهي في مَوْقف الحشر أنَّه سَيُفْعَلُ بها داهيةٌ عظيمةٌ وشَرٌّ كبير، وعذابٌ أَليم بسبب أنها بصيرة بما قدّمَتْ في الحياة الدنيا، من كفر وجرائم تَسْتَحِقُّ عليها الخلود في عذاب جهنّم.

نسب الفعل إلى الوجوه، والمراد أصحابها، وهذا من المجاز المرسل، من إطلاق بعض الذاتِ على الذات، ويُحسِّن مثْلَ هذا المجاز أنَّ الوجوه هي الجامعة لأَجَلِّ الحواسِّ الظاهرة، ومن ورائها الأدمغة المفكّرة، وهي الّتي تُواجَهُ بالخطاب.

وَجاء في الجملة اسْتِعْمَال فعل ﴿تَظُنُّ﴾ دون نحو: «تَعْلَم» أو «تَتَيَقَّنُ» لأنَّ الكافِرينَ في موقف الحشر يبقَىٰ لدَيْهم أمَلٌ مَهْما كان ضعيفاً، بأن يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُمْ مَخْرَجاً من العذاب، كأن يَأْذَن اللَّهُ لهم باستئناف رحْلَةِ امتحانهم، أو يَجْعَلَهُمْ تُراباً كما يجعل البهائم والأنْعَام، بعد حشرها وإقامة العدل بينها.

وقد جاءت الْبَيَانَاتُ القرآنيّة المتعدّدة مُؤَكّدةً لهذا الفهم.

فمنها قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾.

أي: فَظَنُّوا ظنًّا رَاجحاً أنَّهم مُخالطُوها ومُصَاحِبُوها ومُلازِمُو عذابها، مع بقاء أمَلٍ ضعيفٍ لديْهم بأنْ يستجيب اللَّهُ طَلَبَهُمْ، في أن يُعيدَهم إلى الحياة الدنيا، ليَسْتَأْنِفُوا رِحْلَةَ الابْتِلاء، فَيَعْمَلُوا عملاً صالحاً يسْتَحِقُّون به النجاةَ من النّار، والفوز بدخول الجنَّة.

﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾: أي: ولم يَجِدُوا مكاناً يَنْصَرِفُونَ منه عن مُوَاقعة النار، فهُمْ مَحْصُورونَ مَدْفُوعُونَ لاَ طريق لهم غَيْرُ الوقوع في النار ومُخَالَطَةِ عَذَابها.



(٨)
التدبر التحليلي للدرس الخامس من دروس السورة
الآيات من (٢٦ ـ ٣٠)

قال الله عزّ وجل:

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾.

في هذا الدرس بَيَانُ حالَةِ الإنْسانِ ساعَةَ مَوْته، مع إعلامه بأنّ سَوقَهُ إلى حُكْمِ رَبِّه، لا إلَىٰ الْعَدَم الكلّيّ وانتهاء الوجود، فالموتُ بانفصال الروح عن النفس والجسَدِ ليس عدماً، إنّما هو مرحلةٌ بَرْزَخِيَّةٌ فاصِلَة، ذَاتُ وجودٍ مختلف عن الوجود الّذِي تكون فيه الأرواحُ مُقْتَرِنةً وَداخلة في خريطة النفس وذَرَّات الجسد، كدُخُولِ الطاقة الكهربائية في الأجهزة الّتي تَعْمَلُ وتُؤَدّي وظائفها بالكهرباء.

وقد بدأ هذا الدَّرْس بعبارة الرَّدْع والزَّجْر ﴿كَلَّآ﴾ لأنَّ المقصُودَ بالخطاب الإنسانُ المنْكِرُ للبعث، الكافِرُ به، ويُلْحَقُ به من كان في سلوكه وإعراضِه عن السَّعْي للفَوْزِ بجَنَّاتِ النعيم شبيهاً بمنْكِرِ البعث.

﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾: أي: إذا بَلَغَتِ الرُّوحُ عِنْدَ خُروجها من الجَسَدِ في حالة النَّزْع الذي تَذُوقُ به النفوس الموت، حُذف الفاعل وهو «الروح» للعلم به من القرائن الواردة في السّياق.

﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾: جمع مفرده «التَّرْقُوَة» وهِيَ عَظْمٌ بين ثُغْرَةِ النَّحْرِ والعاتِقِ من أمام، وللإنسان تَرْقُوَتان، إحداهما يُمْنَىٰ، وَالْأُخْرَىٰ يُسْرَىٰ.

وجاء التعبير في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿ٱلْحُلْقُومَ﴾: مجرىٰ الطعام والشراب والنَّفَسِ، ويَقَعُ بين الترقُوتين، فالتعبيران مُؤَدَّاهُما واحد، لأنّ مُسْتَوَاهُمَا في الجَسَدِ واحد.

وبلوغُ الرُّوحِ التّراقيَ أو الحلقوم يدلُّ على أنّ نَزْعَ الرُّوح يَبْدَأُ من أَبْعَدِ الأَطْرَافِ فصاعداً، فالْأَقدام تَبْرُدُ أوّلاً، ثم ما فوقها.

● قول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾؟.

أي: وقال أهْلُه ومُحِبُّو بقائِه في الْحَيَاة: مَنْ يَرْقيه رُقْيَةً تَرُدُّ إليه حيَاتَه.

ويُلْجأُ إلى الرُّقْيَةِ عادَةً حينما لا تنفع وسائل العلاج الطّبيّ، فإذا عَجَزَ الناسُ عن اتّخاذ وسيلَةٍ طبيَّةٍ نافعةٍ، لجَؤُوا إلى الرُّقىٰ، باعتبارها من الوسائل ذاتِ التأثير الغيبي الّذي قد ينفَعُ في ظنِّهِمْ إنْ كَانَ لمحتَضَرِهم بَقِيَّةٌ منْ حَيَاة.

وقد جاء التعبيرُ في الآيَةِ عن آخر وَسِيلَةٍ يُمْكِنُ أنْ يُلْجأَ إليها، ليُفْهَمَ منها لزوماً أنَّه قد اتُّخِذَتِ الوسائلُ السابقةُ لها.

فيكُونُ المعنَىٰ: كلاَّ. إذا بلَغَتِ الرُّوحُ التَّرَاقِيَ، واتُّخِذَتِ الوسائل العلاجِيَّة الطِّبِّيَّةُ المختلفة، للمحافظة على استمرار الحياة، فَلَمْ تُفِدْ شيئاً، حتَّىٰ بدأ أولياءُ المحتَضَرِ ومحبُّوهُ، بدافع الحرْصِ على بقاء الحياة له مُلْتَمِسين له الرُّقَىٰ، يَقُولُون: مَنْ رَاقٍ يَرْقِيه رُقية تَحْفَظُ له حياته؟

لكنّ لِسَانَ واقعِ حالِ الأجل المحتوم يجيبُهم: لقَد انتهىٰ الأجَلَ، ونزلَتْ بمَنْ تُحبُّونَ له الحيَاةَ مُصِيبَةُ الموت، وبدأَتْ رحْلَةُ البرزخ، ومن ورائها البعْثُ للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

● قول الله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾:

أي: وظنَّ المحتَضَرُ الذي بلغَتْ روحُهُ الحلْقُومَ أنّ الأَمر النّازل به هو فراقُ الحياةِ الدنيا، وفراقُ الأَهْلِ والمال والْوَلَدِ وسائر من يُحِبُّ وَما يُحبُّ.

وجاء التعبير بالظّنّ هُنَا للدَّلاَلَة علَىٰ أنَّ الأملَ مَهما كَانَ أَملاً ضعيفاً باستمرار الحياة، فإنّه لاَ يُفَارِقُهُ حتَّىٰ مع بلُوغ الرُّوح التراقي.

● قول اللَّه تَعالَىٰ: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: وخَرَجَتِ الرُّوحُ، وَمَاتَ مَنْ بَلَغَتْ رُوحُه التراقيَ، وكُفِّنَ بالأَكْفان.

وقد دلَّتْ هٰذِهِ الآيَةُ على هٰذا، بذِكْرِ مَشْهَدٍ من مشاهد تكفين الميِّتِ، وهو مشْهَدُ الْتفَافِ ساقه اليمنَىٰ بساقه اليسْرَىٰ.

كقَوْلِ رَجُلٍ عجوز لولَدِ صديقِه القديم الَّذي لم يَرَهُ من نَحْو عَشْرِ سنين، كيْفَ حالُ أبيكَ صَدِيقِنَا وَرَفيق صبَانا.

فأجَابَهُ وَلَدُهُ: النَّاسُ يأكُلُونَ من شَجَرَةِ التُّوتِ الَّتي زَرَعْنَاهَا على قَبْرِهِ. أي: مات قبل أن نَزْرَع هذه الشجرة التي هي الآن مُثْمِرَةٌ وَيَأْكُلُ النَّاسُ من ثمَرِها.

ولَفُّ إحدى ساقَي الميّت بالأُخرى ممّا اعتاده مكفِّنوا الموتى، لتسهيل حمْل الميّت ودفنه، وقد جاء الاستغناء بذكر لفّ السَّاق بالسَّاق عَنْ سائر عمليّةِ التكفين، أسلُوباً من الأساليب البيانيّة الأدبيّة الحسَنَة، إذ فيه دلالة على بقيّة الأعمال التي تأتي بعْدَه، حتَّى حَمْلِه وسَوْقِه إلى مَدْفنه، كما دَلَّ عَلَىٰ الأَعمال الّتي تكون قبله.

ويسَمَّىٰ هذا عند علماء البيان «الكناية»[1].

● قول اللّه تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾:

قد يَسْأَلُ شاهِدُ حالِ الذي ماتَ والْتَفَّت إحدىٰ سَاقَيْه في نَفْسِه: إلى أيْنَ مساقُ هذا الميّت؟ هلْ هُو إلى فناءٍ أبديّ؟ أم إلى حساب الله، وفصْل قضائه، وتنفيذ جزائه؟

وجاء الجواب الرَّبَّانيُّ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾:

﴿ٱلْمَسَاقُ﴾: مَصْدرٌ ميميٌّ من فِعْلِ «سَاق» أي: إلى حُكْمِ رَبِّكَ يَوْمئذٍ السَّوْقِ.

أمّا سَوْقُ الْجِسْمِ فإلَىٰ حُكْم اللّه بالإفْنَاءِ وَعَوْدَتِهِ إلَىٰ التُّراب، أو إلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ من حفْظٍ أو تحويل.

وأمّا سَوْقُ الرُّوح فإلَىٰ حُكْمِ اللّهِ حيْثُ مُسْتَقَرُّها.

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ الْبَعْثُ، فالسَّوْقُ إلى الْحَشْر، فالسَّوْقُ إلى موقف الحساب، وفَصْلِ القضاء، فالسَّوْقُ إلى تَنْفِيذِ الجزاء، والحُكْمُ في كلّ ذَلِكَ إلَىٰ رَبِّكَ وحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لا رَادَّ لحُكْمِه، ولا مُعَقِّبَ له.

---

(٢) الكناية: اللفظ المستعمل فيما وُضع له في اصطلاح التخاطب للدلالة على معنىً آخر لازم له، أو مصاحبٍ له، أو يشار به عادة إليه، لما بينهما من الملابسة بوجه من الوجوه.

وجاء التعبير بعبارة: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ دُون نَحْوِ إِلَىٰ اللَّه، أو غَيْرِهِ من أسماء اللّه الْحُسْنَى، لتَوْجِيهِ المخاطَبِ إلى معاني رُبوبيَّة اللَّه لعباده، وصِفَاتِ اللّه وأسمائه المشمولة بها، ذَاتِ العلاقَةِ بالْخَلاَئِقِ إيجاداً وإعداماً، وتَدْبيراً، وحُكْماً، وسُلْطاناً، وحَيَاةً وَمَوْتاً، ورِزْقاً، وَبَسْطاً وقَبْضاً، وابتلاءً، وحِسَاباً، وفَصْلَ قضاءٍ، وتَنْفِيذَ جزاء، وغَيْرَ ذلِكَ مِمَّا يَدُلُّ على تصاريف اللّهِ بعبَاده.

وفيه تذكيرٌ بأنَّ الموْتَ النازِلَ بالمخاطَبِ، وبكُلّ مَنْ سيَنْزِلُ به الْمَوْتُ، هو من تصاريف رُبوبيَّةِ الرَّبّ لعباده، فهو الْمُحْيِي وهُوَ الْمُمِيت، وهو الباعث إلى يوم الدّين يَوْمِ الْحِسَاب وفَصْلِ القضاءِ، وتنفيذِ الجزاء، إليه الحكْمُ في كلّ ذَلِك.

وَفي اختيار كلمة «رَبّ» تنبيهٌ عَلَىٰ أَنّ عَمَلِيَّاتِ الْخَلْقِ الرَّبَّانيّ تَتِمُّ وفْقَ نِظَامِ التربية، وهي الإنْشاء المتدرِّج، حتَّىٰ بلُوغ المخلوق الغايَةَ المقدَّرَةَ لَهُ، والْهَدْمُ المتَدَرِّجُ أيضاً، في خَطٍّ بيانيٍّ صاعِدٍ أو نَازِلٍ.



(٩)
التدبّر التحليلي للدّرس السّادس من دروس السورة

الآيات من (٣١ ـ ٣٥)

قال اللّهُ عَزّ وجل:

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ (٣٥)﴾.

في هذا الدّرس مشهَدٌ مُوجَزٌ مِنْ مَشَاهِدِ الْحِسَاب وفَصْل الْقَضَاء يَوْمَ الدّين.

وهذا المشْهَدُ خاصٌّ بِالإِنْسَان الكافر المكذِّب بيَوْم الدِّين، الذي دارَتْ حَوْلَهُ السُّورَةُ في معظم آياتِها، وهو الذي جلَبَتْ له إرادتُهُ الّتي كانَتْ تتجدَّدُ دواماً في الحياة الدنيا أن يَفْجُر فيما يأْتِيه من ساعاتِ دَهْرِهِ ولحظاتِ عُمْرِهِ، على أوْسَعِ ما لَدَيْهِ من قبائح ورغباتٍ فاحشات، حتَّىٰ كان الفجورُ أمَامَه، يتَقَدَّمُهُ إلى موقف حسابه.

وقد اقْتَصَرَ هذا الْمَشْهَدُ على فِقَرَاتٍ كافياتٍ لإدانة هذا الكافر الفاجر، من اللاَّئحة الّتِي يُعْلَنُ فيها مُقْتَضِيَاتُ إدانَتِه بجَرِيمته، والحكْمِ عليه بالعذاب الأبديّ، بالاستناد إليها.

فالقرار الذي يَصْدُر بشأْنِ هذا الكافِر الفاجر المستند إلى محاسبته ومحاكمته يتضمَّنُ مادّتَيْن:

المادّة الأولى:

دلّ عليها قول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾.

المعنى: بناءً على مَوْقفِ الحساب الذي جَرَىٰ لَهُ، وَمَا أَثْبَتَهُ كِتَابُ أعْمَالِهِ في الحياة الدنيا، ومَا قَدَّمَهُ شُهُودُ الإثبات من جوارحِه وأعضائِه وجِلْدِهِ، ومِنَ الملائكة المكرَّمين، تحقَّقَ ما يلي:

أولاً: جاءَهُ الرَّسُولُ المؤيَّدُ مِنْ رَبّه بالمعجزاتِ الباهرات، وبالآيَاتِ البيّنات، وبالقرآن الذي أقام عليه البراهين الدّامغة، الّتي حاصَرَتْهُ من كلّ مَهْرَبٍ فكْرِيٍّ، فَلَمْ تَدَعْ لَهُ معاذيرَ تَصْلُحُ لأنْ يعْتَذِرَ بها.

- فَمَا استجاب لدَعْوَة اللَّه ورسوله، الّتي تضمَّنَتْ دَعْوَتَهُ لِمَا يُحْيِيه، كَمَا جاءَ في بيانات نُصِوصٍ أُخرى.
- وَلاَ صَدَّقَ الرَّسُولَ، ولاَ صَدَّقَ بالقرآن، ولاَ صَدَّق بالآيَاتِ

الْبَيِّنَاتِ، ولا بالمعجزات الباهرات، ولا بنَبَأِ يَوْم الدّين، والبعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ للحسَاب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزَاء.

﴿فَلَا صَدَّقَ﴾: الفاء هُنَا فَصِيحةٌ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ، أي: ما استجابَ للدَّعْوة إلى دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ، فَمَا أطاعَ، ولاَ صَدَّقَ الرَّسُولَ.

ثانياً: ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ لِرَبِّه الّذي خلَقَهُ وَرَبَّاهُ، وأمَدَّهُ بكُلِّ مَا كانَ يَحْتَاجُ إليه في الحياة الدّنيا، وأعْطاهُ الأسبابَ وخلَقَ له المسبَّبَات، وسخَّرَ لَهُ الأشياء، ومكَّنَهُ من الانتفاعِ بها، فَلَمْ يَعْبُدْ ربَّه بالصَّلاةِ له، والخضوع لعزّتِه وجَلاله، عبادَةً خالصةً من الشّرْك، إنَّه لَمْ يَعْبُدْ رَبَّه عبادَةَ شُكْرٍ لنَيْلِ الأجر العظيم، والسّعادة الخالدة، ولَمْ يَعْبُدْهُ عِبَادَة خَوْفٍ من الْعِقاب والعذاب الخالِدِ في الجحيم.

ثالثاً: وَإِذْ لَمْ يُصَدِّقْ ولَمْ يُصَلِّ لِرَبِّه، لَمْ يكُنْ من أَمْرِهِ أَنَّهُ وَقَفَ مَوْقفاً وَسَطاً مُتَحَيّراً، بحْثاً عن الدّليل إنْ كانَ قَدْ قامَ لَدَيْهِ شَكٌّ أَوْ ظَنٌّ قَوِيٌّ يقْتَضِي منْهُ أنْ يَتَأَنَّىٰ حتَّىٰ يَقْتَنِع. بل أخذ الطَّرَفَ المقابل الأَقْصَىٰ.

إنَّ المواقف تُجاهَ أيّة فكْرةٍ ثَلاَثَةٌ لا اثنان، وهي:

(١) التصديق. (٢) التكذيب. (٣) التوقُّف دُون تَصْدِيقٍ وَلاَ تكذيب.

فَمَنْ لَمْ يَقُمْ لدَيْهِ أنَّ الفِكْرَة حَقٌّ، فَلَيْسَ مِنْ حَقِّه أَنْ يُكَذِّبَ بها، حتَّىٰ يَقُومَ لدَيْه دَليلٌ صَحِيحٌ مقبولٌ بِأَنَّها باطل، وإنَّما عَلَيْهِ أنْ يَتَوَقَّفَ وَيَتَرَيَّثَ، ويَبْحَثَ حتَّىٰ يتَرَجَّح لَدَيْهِ دَلِيلُ الإثْبَاتِ أو دَلِيلُ النَّفي.

لكِنَّ هذا الْكَافِرَ الفاجرَ مُعَانِدٌ مكابرٌ يتَّبعُ الْهَوَىٰ ورَغباتِ الفُجُورِ لديه، وقَدْ أَخَذ بنقِيضِ القضايا الّتي جاء بها رَسُولُ رَبّه، دون أنْ تكونَ لدَيْهِ أيَّةُ حُجّةٍ تَصْلُحُ لأنْ يعْتَذِرَ بها عِنْدَ رَبّه، فيما اعْتَنَقَهُ وَأَخَذَ بِهِ مِنْ كُفرِيَات.

فَكَذَّبَ الرَّسُولَ بِرسالته، وكَذَّبَ بالْقُرآن المنَزَّلِ من عند اللّه الحكيم

العزيز، وكذَّبَ بأَنْبَاءِ يَوْمِ الدّين، وبكُلِّ ما جَاءَ به الرَّسُول عَنْ رَبّه، واسْتَهَانَ بالْوَعِيدِ، وقَدْ دَمَغَتْهُ الحججُ والبراهين فَلَمْ يَكْتَرِثْ لها، ولَمْ يَعْبأْ بها.

دلَّ علىٰ مَوْقِفِهِ المعانِدِ هذا قَوْلُ اللَّهِ تَعالَىٰ: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾.

دَلَّ قولُهُ تَعالىٰ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾ على أنَّهُ لَمْ يَتَّخِذْ مَوْقِفاً إيجابيّاً مِنَ الدَّعْوَة الرَّبَّانيَّة الحقّ.

ودَلَّ قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ عَلَىٰ أنَّهُ لَمْ يَتَّخِذْ مَوْقِفاً مُتَوَسِّطاً، مُتَرَيِّثاً، بَاحِثاً عَنِ الحقّ، بل اتَّخذ مَوْقفاً سَلْبيّاً من الدَّعْوَةِ الرَّبَّانيَّةِ الحقّ.

﴿كَذَّبَ﴾: أيْ: كَذَّبَ الرَّسُولَ، وكَذَّبَ بكُلِّ ما جَاء به عَنْ رَبّه.

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾: أي: وأَدْبَرَ وابتَعَدَ نَائياً، وأدَارَ ظَهْرَهُ رَافِضاً ما جَاءَ من الحقّ، عاصِياً لربِّه منَ الدَّرَكَةِ القُصْوَىٰ، إذْ رَفَضَ الإيمانَ، واعْتَنَقَ الكُفْرَ، واتَّبَعَ أهواءَهُ وَشَهَواتِهِ، وَرَغَبَاتِ الفُجُور لَدَيْه، وَوَسَاوِسَ الشَّيَاطِين وتَسْويلاتهم.

رابعاً: وَبَعْدَ أنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ انْتَفَخَ كِبْرُهُ في صَدْرِهِ، فَذَهَبَ إلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ يَمُدُّ يَدَيْهِ مُتَبَخْتِراً مُسْتَكْبراً.

دلَّ علَىٰ تَصَرُّفِه الأَحْمَقِ هذا قولُ اللَّهِ تَعالَىٰ: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾:

﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾: أي: يَمُدُّ يَدَيْهِ مُتَبَخْتِراً مُسْتَكْبراً مُخْتالاً، يتَعاظم بعِنَادِهِ وكُفْرِهِ بالحقّ، مُعْجَباً بنَفْسِهِ ورَصَانَتِهِ وَعَقْلِهِ المتحجّر، إذْ لم يَسْتَجِبْ لدَعْوَةِ مخالِفَةٍ لِمَا عَلَيْهِ آباؤه وأجْدادُه، مع أنَّه يُقَلِّدُهم تَقْليداً أعْمَىٰ، ويَزْعُمُ أنَّهُ أرفَعُ وَأعظم رأياً وَنَفْساً ومَكَانَةً من أن يكُون تابعاً لِرَسُولٍ من البشر، أو خاضعاً لربٍّ غَيْبِيّ غَيْرِ مَشْهُودٍ، يَسْلُبُه حُرِيَّتَهُ، ويَأْمُرُه بالإيمانِ به، وبطاعَتِه في أوامِرِهِ ونواهيه.

وهذا ما يُعْلِنُهُ بعْضُ الْمُلاَحِدَة بعباراتٍ صريحاتٍ، ويَدُور في خَلَد سائر الكَفَرَةِ باللّه ورُسُلِه والْيَوْمِ الآخِرِ، ولَوْ لَمْ يُصَرِّحُوا به في عباراتهم.

المادَّةُ الثانية:

دلَّ عَلَيْهَا قولُ اللَّهِ عزّ وجلَّ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾:

بَعْدَ بيانِ المادّة الأولىٰ الّتي تضمَّنَتْ ذكر مقْتَضِيَاتِ إدَانَةِ الكافِرِ الْفَاجِر، المكذّبِ بيَوْمِ القيامة، بذكْرِ أقْبَح ما كانَ مِنْهُ في الحياة الدنيا، ممَّا يقتضي الحكْمَ عليه باستحقاقِ العذابِ الأبَدِيّ، تَأتي المادّة الثانيةُ مُتضَمِّنَةً إصْدَارَ الحكْم عليه، بعبارَةٍ عَجِيبَةِ الاختيار والتَّوْجِيه، إذْ يُواجَهُ فِيهَا بالْخِطَابِ، فيَقُولُ لَهُ الرَّبُ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه:

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾:

أي؛ تقرَّرَ الحكْمُ عَلَيْكَ بِالْعَذَابِ الأبَدِيّ، وصَارَ تنفِيذُهُ قَرِيباً مِنْكَ.

فالعبارَةُ الاصْطِلاَحيَّةُ الدَّالةُ على هذا المعنى هي: «أَوْلَىٰ لَكَ».

أمّا التحليلُ اللُّغوِيُّ لهذا التعبير، فَقَدْ قَالَ الأصْمَعِيُّ بشأنه: «أَوْلَىٰ لَكَ» أي: قارَبَكَ ما تكْرَهُ.

قال ثعلبُ: لَمْ أجِدْ في «أَوْلَىٰ لَكَ» أحْسَنَ مِمَّا قالَ الأصْمَعِيُّ.

أقول: إنَّ كلمة: «أَوْلَى» عَلَىٰ ما فَهِمَ الأَصْمَعِيُّ هِيَ من فِعْلِ: «وَلِيَهُ الشَّيْءُ يَلِيهِ» أي: تَبِعَهُ دُونَ فَاصِلٍ، فَهُو تابعٌ قَرِيبٌ منه. وتَقُولُ لغة: أولَيْتُه إيَّاه، إذا أَتْبَعْتَهُ إيَّاهُ، وجَعَلْتَهُ قريباً منه.

فإذَا كانت «أَوْلَىٰ» صيغة «أَفْعَل تفضيل» كان معنىٰ «أولى لَكَ» صَارَ العذابُ أقْربَ لَكَ من أيِّ قَرِيب.

وهذا قرارٌ رمْزِيٌّ مُوجزٌ بِحُكْمِ التَّعْذِيب، فمِنْ شَأْنِ العظماء عادَةً أن يكْتَفُوا في أوامر التعذيب أو القتل بالإشارات، أو بالرُّمُوز الكلاميّة.

وإذا كانت «أَوْلَىٰ» فعلاً مُتَعَدّياً إلَىٰ مَفْعُولَيْن، من فِعْل: «أَوْلَيْتُ الرَّجُلَ الشَّيْءَ» أي: أتبعْتَه إيّاه، وجعلْتَهُ قريباً منه، كان المعنىٰ: أوْلاكَ مُقَدِّماً لَكَ العذابَ ما قَدَّمْتَ من تكْذِيبٍ وتَوَلٍّ واستكْبار. أي: أتْبَعَكَ الْعَذَابَ عَمَلُكَ.

واللّام في «لَكَ» من عبارة: «أولَىٰ لَكَ» إمَّا للتقوية، وإمَّا للتعْدِيَة على تضمِينِ فعل: «أولَىٰ» معنى فعل «قَدَّمَ» أي: قَدَّمَ لَكَ عَمَلُكَ العذاب.

والتكريرُ في: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ يحتمل وجْهَيْن:

الوجه الأول: أن يكون لتأكيدِ تَقْرِير العذاب، بتكْرِيرِ الْعِبارَة مَع التعقيب، ومع التراخي.

الوجه الثاني: أن يكُونَ للإشارة إلىٰ أنواعٍ من العذابِ يأتي بعضُها أوّلاً، فيتْبَعُه نَوْعٌ آخَرُ دُونَ فاصل، بدليل «الفاء» الّتي للترتيب مع التعقيب، ثُمَّ يَتْبَعُهُ نَوْعٌ ثالثٌ من العذاب بعْدَ مُدَّةٍ متراخية، بدليل «ثُمّ» الّتي للترتيب مع التراخي، فيَتْبَعُ هَٰذَا الثالِثَ نوْعٌ رابعٌ من العذابِ دون فاصل، بدليل «الفاء» الّتي للترتيب مع التعقيب.



(١٠)
التدبّر التحليلي للدرس السّابع من دُرُوس السورة

الآيات من (٣٦ ـ ٤٠)

قال اللّه عزّ وجل:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

● قَرَأَ ابْنُ عَامرٍ، وعاصِمٌ، وحمزة، وأبو جعفر: [أَيَحْسَبُ] بفتح السين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [أَيَحْسِبُ] بكَسْرِ السّين.

وهذان وجهان عرَبيان لنطق هذا الفِعْل، وقد سبق بيان أَنَّ فعْلَ «حَسِب» جاء في القرآن مستعملاً للدّلالَةِ على الظنّ التوهميّ الضعيف جدّاً.

جاء هذا الدرس السَّابعُ مَوْصُولاً بالدّرس الأوّل من دُروس السورة، ومُتَمّماً لمَا جاء فيه.

ففي الدرْسِ الأوّل جاء عرضُ احتمال توهُّم الإنسان المنكر للبعث أنَّ قُدْرَةَ الرَّبّ الخالق لا تَصِلُ إلى مستوىٰ جمع ما يَبْلَىٰ من عَظْم الميّتِ وإِعَادَةِ تَرْكِيبه، ثُمَّ إعادةِ الحياة إليه، وكانَ الرَّدُّ القرآنيُّ فيه بقول اللّه تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾.

أمّا هذا الدرس السَّابعُ الأخِير من دُروس السّورة، فقد جاء فيه عرض احتمال توهُّم الإنسان المنكِرِ للبعث، أنَّ الرَّبَّ الخالِقَ لم يَضَعْ في خُطَّتِهِ التَّدْبيريَّةِ للخَلْق، مُحَاسبَةَ النَّاسِ على أَعْمالهم وتصرُّفاتهم الإراديَّة في الحياة الدُّنيا، وأَنَّهُ سَيَتْرُكُهم مُهْمَلِينَ، وأنّه قَدْ خَلَقَهُمْ تَفَنُّناً في الْخَلْقِ، وَتَركَهُم لأنْفُسِهم دونَ ابتلاء ودونَ تكليفِ، وسيتركُهُمْ سُدىً دُونَ حسَابٍ وَلاَ فَصْلِ قَضاءٍ وَلاَ تَنْفِيذ جزَاء.

وجاء هذا العرض بأسلوب سؤال المسْتَفْهِم، لانتزاع ما عند المنكر ليوم القيامة من أفكارِ حَوْل الموضوع، ولاسْتِدْراجِهِ إلى المناظَرَةِ، بُغْيَةَ دَفْع توهُّماته، وإقامَةِ الحجَّة عليه، فقال اللّهُ عزَّ وجلّ:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾:

﴿سُدًى﴾: أي: مُهْملاً، كالسَّائمة الّتي ترعَىٰ بِنفْسِها بِلا راعٍ. يُقالُ

لغة: إبِلٌ سُدىً، أيْ: مُهْمَلَةٌ تَرْعَىٰ بلا رَاعٍ، فَتُفْسِدُ مَا تُفْسِدُ دُونَ مُرَاقبةٍ ولاَ مُحاسبة.

قال أهل اللّغة: السُّدَىٰ: المهْمَلُ، الواحِدُ والجميع فيه سواءٌ، وبعْضُ العرب يقولُ: «سَدىً» بفتح السّين.

وفعله «أسْدَىٰ يُسْدِي إسْداءً». تقولُ: أسْدَيْتُ إبِلي إسْدَاءً، إذَا أهْمَلْتَها. والاسْمُ منْهُ «سُدىً».

بعد هذا الطَّرْح بأسْلوب السؤال الاستفهاميّ، تضَمَّنَ الدرْسُ التَّنْبِيهَ على صِفَتَيْن من صفاتِ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه، يكْشِفُهُما الاسْتِنْبَاط الفكري:

الصّفة الأولى: صفَةُ حِكْمَةِ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ الظَّاهرة في آيات خلقه، ومنها خَلْقُ الإنْسَان من نُطْفَةٍ فعَلَقَةٍ فَخَلْقٍ كاملٍ سَوِيّ.

الصّفة الثانية: صفة قُدْرَتِه البالغَةِ غايَةَ المدى، والقادرة على خَلْقِ مَا يَشَاءُ ابْتِدَاءً أوْ إعادةً، وتُدْرَكُ هٰذِهِ الصِّفَةُ من تصاريف خَلْقِ اللَّهِ للإنسانِ أيْضاً.

والمعنى: أَنَّ الحكيم العليم لا يخْلُق خَلْقاً لَهُ إرادةٌ واختيارٌ، وهُوَ مُمَكَّنٌ من أنْ يَعْدِلَ وَيَظْلِمَ، ويُحْسِنَ ويُجْرِمَ، ثُمَّ يَتْرُكَهُ سُدىً، دون أن يضَعَهُ مَوْضِع الامتحان، ويُتَابعهُ بالتكليف، ثُمَّ بالْحِسَاب وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

وأنَّ ذا القدرة البالغَةِ الظاهِرَةِ للنَّاسِ آثارُهَا في الْخَلْقِ الأوّل، لا يُعْجِزُهُ إعادَةُ الْخَلْقِ بَعْدَ إماتَتِهِ وإفناءِ جَسَدِه، بلْ هو جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ قادِرٌ علَىٰ أنْ يُحْيِيَ الموتَىٰ حيَاةً أُخرى.

فَهُوَ عزَّ وجلّ سَوْفَ يَبْعَثُ الموتَىٰ من الناس، ليُحَاسِبَهُمْ، وَيَفْصِلَ

قَضاءَهُ فيهم محسنين أو مُسِيئين، ويجازيَهُم على مَا كان منهم في رِحْلة امتحانهم في الحياة الدُّنيا، بالْعَدْلِ إذَا أَسَاءُوا وَقَدْ يشْمَلُهُمْ بغفرانِه وعفوه بمقتضىٰ حكمته، ما لم يكونوا من أهل الكفر به أو الشِّرْك، وبالفضل إذا أحْسَنُوا مؤمنين به وبما أمرهم أن يُؤْمِنُوا به.

ودليل هاتين الصفتين ما شَهِد الإنسان ويشْهَدُ دواماً من آثار حكْمَةِ اللّه الجليلة، وقُدْرَتِهِ العظيمة، في خَلْق الإنسانِ نَفْسِه الذي كان تُرَاباً، فصارَ غذاءً، ثمَّ صار دماً، فصار نُطْفَةَ مَنِيٍّ.

والتقط النَّصُّ من هٰذِهِ الأطوار طَوْرَ النُّطفة من المنيِّ الذي يُمْنى، فيكونُ بَدْؤه في بطْن أمّه من جزءٍ صغير جدًّا لا يرى بالأبصار، ضمن النطفة الَّتي تَحْوي منْ أمثاله مئات الملايين. وهذا الجزء الصغير الذي هو أحَدُ الحيوانات المنويَّة يُلَقِّحُ الْبُيَيْضَة الّتي تهْبِطُ في بَطْن أمّه من بُرْجِها، في الزَّمَن المقدَّر للْقَاح، فيتَّحِدَان مُتَكَامِلَيْن، ثُمَّ بالتنامِي الصَّاعد يَكُونُ عَلَقَةً، والْتَقَطَ النَّصُّ من أطوار التنامي طَوْرَ الْعَلَقة الَّتِي يصِلُ إليها الجنين، فنَبَّهَ عليه بأسْلُوب الاستفهام لانْتِزَاع الإقرار بهذه الحقيقة، فقال اللَّهُ عزَّ وجل:

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾.

﴿أَلَمْ يَكُ﴾: أصْلُها «أَلَمْ يكُنْ». حَذْفُ النُّون من فِعْلِ «يَكُن» المجزم لغةٌ عَرَبيّةٌ، جاء اسْتِعْمَالُها في خَمْسَةَ عَشَر موضعاً من القرآن الكريم، سبعة في: [تَكُ] وثمانية في [يَكُ].

واسم ﴿يكُ﴾ ضمير يعود على الإنسان.

﴿نُطْفَةً﴾: النُّطْفَةُ والنُّطَافة في اللُّغَة: القليلُ من الماء، ولا فعل لهاتين الْكَلِمَتَيْن. نُطْفَةً: خَبَرُ ﴿يكُ﴾ لأنَّه من الأفعال الناقصة.

والمراد بالنطفة ماء الرجل الذي هو المني، وأُطْلِقَ عليه لَفْظُ النطفة لِقِلَّةِ مقداره.

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾: أي: ثمّ كان الإنسان علقةً. **العَلَقة** في اللّغة: قِطْعَةٌ من الدَّم المتجمِّد، وهي في فَهْم الأطِبَّاءِ المعاصِرِين المرحَلَةُ الّتِي تتحوَّلُ إليها النّطفَةُ الأمْشَاجُ، فَتكُونُ شيئاً يعْلَقُ بجدار الرّحِمِ وَيَتَشَبَّثُ فيه، وهٰذه تكون مُحَاطَةً بالدَّمِ المتَخثِّرِ المتَجمِّد، وفَهْمُ ما جاءَ في الآيَةِ على ما اكْتَشَفَهُ عُلَمَاءُ الأجنَّةِ، هُوَ الّذي يَنْبَغِي المصِيرُ إليه، وفي اللُّغَةِ مَا يُؤَيِّدُه.

وجاء العطف بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ للدَّلالَةِ على أَنَّ طَوْرَ الْعَلَقَةِ تَسْبِقُه أطوار تَتْلُو طوْرَ النُّطْفَةِ، وهٰذِه الأطوارُ تكون بين النطفة والعلقة.

وبعد التَّنْبِيه على طَوْرِ النُّطْفَةِ، وطوْرِ الْعَلَقَة، جَاءَ في النَّصِّ اخْتِيَارُ طَوْرِ الْخَلْقِ فَالتَّسْوِيَةِ، فَقَال اللَّهُ عزَّ وجلَّ:

﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾:

أي: فخلقه الله ربّه فسوّاه. حذف فاعِلُ «خَلَق» ومفعولُ «سَوَّىٰ» إيجازاً للعلم بهما.

والمعنى: فصَوَّر اللّٰه أعضاء الجنين الإنسانيّ الظاهرةَ والباطنةَ. وميَّزَ خَلْقَ كلِّ واحِدٍ منها، ووضع كُلَّ جُزْءٍ في مكانه المقدَّرِ له، فَجَعَلَها مُسْتَوِيَةً مضْبُوطةً بضابط العدْل.

التَّسْوِية: إحْكَامُ مَقَادِير أجزاء المخلوق المصَوَّر، وجعْلُه يَتَدَرَّجُ مُتَكاملاً حَتَّىٰ يبلُغَ الغايَةَ المقْضِيَّةَ لَهُ في خُطَّة التكوين، وتكُونُ التَّسْوِيَةُ بإعْطاءِ كلّ شيْءٍ خلْقَهُ بالْعَدْل، أي: بإعْطَاءِ كلّ عُضْوٍ وكلّ جُزْءٍ من أجْزاء المخلوق أو المصنُوع من العناصر والصفاتِ، مَا يَجْعَلُه صالحاً مُؤَدِّياً وَظيفَتَهُ دُونَ زِيادةٍ ولا نُقْصان.

وكُلٌّ من الْخَلْقِ والتَّسْوِية لا بُدَّ أنْ يكُونَا مَسْبُوقَيْن بتَقْدِيرٍ وقَضاءٍ في خُطَّةِ التَّكوين.

ثُمَّ تكُونُ أعْمالُ التَّنفِيذِ مطابقةً لمَا سَبَقَ به القضاء والقدر.

وهذه التَّسْوِيَةُ أمْرٌ مُخْتَلِفٌ عَنِ التَّسَاوِي والمساواة، إنَّ التسويَةَ هي إعْطاءُ كلِّ شيْءٍ حقَّهُ بالْعَدل، أمّا المساواة فهي إعطاء الشَّيْئَيْنِ أو الأشْيَاءِ مقاديرَ مُتَسَاوِيَة وَلَوْ كانَتِ الْحُقُوقُ مُتَفَاضِلَةً، وهذا عملٌ فاسِدٌ يُؤَدِّي إلى إفساد.

أمّا الْعَدْلُ فَهُوَ إعطاءُ كُلِّ ذي حقٍّ حقَّه، فَمَا حقُّهُ عشرة، يُعْطَىٰ عشرةً بلا زيادَةٍ ولاَ نَقْصٍ، وما حقُّه عشرون يُعطَىٰ عشرين، وَما حقُّه مئة يُعْطَىٰ مئة، وهكذا بحسب الحقوق والمصالح.

وقد وصَفَ اللَّهُ كلمتَهُ الخبريَّة بالصّدْق، ووصَفَ كَلِمَتَهُ الْجَعْلِيَّة بالْعَدْل، سواءٌ أكانت كَلِمَةً تكْوِينيَّةً أم كلمةً تَشْرِيعيَّة.

فقال اللّه عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾.

● فكلمة اللّه الخبرية عمّا كان وعمَّا هو كائن وعما سيكون قد تَمَّتْ صِدْقاً مطابقاً للواقع، أي: تمت حالة كونها صِدْقاً.

● وكلمةُ اللّهِ التشريعيّة قد تمَّتْ عدْلاً، أي: تمَّتْ حالة كوْنِها عدْلاً.

● قول اللّه تعالىٰ: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: فجَعَلَ منَ الْمَنِيّ الَّذي يَقْذِفُه الرَّجُلُ كِلاَ الزَّوْجَيْن الذّكرِ والأُنْثَىٰ، وَهٰذَا ما قَرَّرَتْهُ البُحوثُ الإنسانيَّةُ أخيراً، إذِ اكتشفَ عُلَماءُ البحث الكَوْنِيّ في نشْأَةِ تكوين الجنين، أنَّ بُيَيْضَةَ المرأة وسَطٌ صالح للتَّلْقيح بحُوَيْنٍ ذكَرٍ، أَوْ بِحُوَيْنٍ أنْثَىٰ. وأنَّ نُطفةَ الرَّجُل هِيَ الّتي تَحْمِلُ الْحُوَيْنَاتِ من النَّوْعَيْن،

الذُّكُور والإناث، فإذَا سَبَقَ حُوَيْنُ الذكر بقضاء اللّهِ وقَدَرِه، جاء الجنينُ ذكراً، وإذا سبَقَ حُوَيْنُ الأنثَىٰ بقضاء اللّهِ وقَدَره، جاء الجنِينُ أنثَىٰ، والأَمْرُ يخْضَع في أصْلِ التكوين لأمْرِ اللّه التكويني.

فَمَنْ دَرَسَ هٰذه الحقائق المدهِشَةَ، الّتي يكْشفها تتبُّعُ مراحِل خَلْقِ الإنسانِ، عَظُمَ في نَفْسِهِ جَلاَلُ الرَّبّ عزَّ سُلْطانُه، وتصَاغَرَ في نَفْسِه أمَامَ اللّه، وَوَجَدَ رَبَّهُ عالياً في العلُوّ اللاّنهائي.

● قول اللّه تَعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾؟

أي: إنَّ ذَلِكَ الرَّبَّ الْعَلِيَّ الجليلَ العظيمَ الكبير، الّذِي هُوَ في العلوّ اللاّنهائي، والّذِي أتْقَن خَلْقَ الإنسان، وجعَلَهُ في أحْسَنِ تقويم، أَلَيْسَ بقادر على أن يُحْيِي الموتَىٰ، فَيَبْعَثَهُم إلى الحياة بعْدَ الموت، ليقيم فيهم مقتضىٰ حكْمته، فيُحاسبَهم، ويفصل فيهم قضاءه، ويُنَفِّذَ فيهم جزاءه على ما قدَّمُوا من كسْبٍ إراديٍّ في الحياة الدُّنيا، الّتي كانت بالنّسْبَةِ إليهم رحْلَةَ امتحانٍ وابتلاء؟!

جاء اسْتِعْمالُ اسم الإشارة الذي يُسْتَعْمَلُ للمُشَار إلَيْهِ البعيد، للدلالَةِ عَلَىٰ أنّ الرَّبَّ الخالقَ عليٌّ في العلُوّ اللاّنهائي.

والجوابُ العلميُّ لهذا السُّؤالِ كما يلي:

بلَىٰ. إنَّهُ لَقَادِرٌ على أنْ يُحْيِيَ الموتَىٰ، وعلى أن يخْلُقَ ما يَشاءُ، وعلى أنَّه على كلِّ شيءٍ قدير، سُبْحانه وتعالَىٰ عمّا يَصِفُون.

وبهذا تمّ تدبّر سورة القيامة

والحمد لله على فتحه وتوفيقه ومعونته



ملحق لسورة القيامة

(١١)

ملحق

حول إبداعيات بلاغيّة في سورة القيامة

تُوجد في هذه السورة إبداعَاتٌ بلاغيّة متعدّدة منها ما يلي:

(١) فنيَّةُ الْقَسَمِ وعدَمِ الْقَسَم معاً بابتكار أُسْلوب إيراد لفظ الْقَسم مقروناً بنفيه، لمراعاة اقتضاءين أحدهما يقتضي القسم، والآخر يقتضي عدم الْقَسَم.

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾.

(٢) حذف الْمُقْسَمِ عليه إيجازاً، للعلْم به من السّباق ومن السياق، وهو:

«لنُحْيِيَنَّ الموتَىٰ، ولنحاسَبنَّهم، ولَنَفْصلَنَّ القضاء بشَأْنِهم، ولنَجْزِينَّهُمْ يوم الدّين على ما عَمِلُوا في الحياة الدنيا من خيرٍ وشرّ».

(٣) الإيجاز بالحذف في عدّة مواضع من السّورة، مثل:

● ﴿بَلَىٰ﴾ لَنجْمعَنَّ عِظَامَهُ الّتي نَخِرَتْ وتفتَّتَتْ، وتَفَرَّقَتْ في التراب ﴿قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾.

● إنّ الإنسان الذي يُنْكِرُ يَوْم القيامة وما سيجري فيه لا يُنْكِرُ ذلك لأنَّهُ قامَ لدَيْه دليلٌ يَدُلُّ على أنَّ قُدْرَة البارئ لاَ تَصِلُ إلَىٰ مُسْتَوىٰ إحياء الموتى للحساب وفصل القضاء وتحقيق الجزاء ﴿بَلۡ يُرِيدُ﴾ هذا ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ مُرادَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ ﴿لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦﴾.

● ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ الكافر ﴿يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ فيَجْحَدُ، ويجادل عن نفسه، ويُقَدِّمُ المعاذير الكواذب غَيْرَ مُقْتنِعٍ بها، إذ لا يقولُها جاهِلاً بحقيقة نفسه ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ۝١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾.

● إنّ الإنسانَ الكافر المنكِرَ ليَوْم القيامة، ما استجاب في الحياة الدنيا لدعوة الحقّ الّتِي جاء بها الرسول ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ الرَّسُولَ وبما جَاءَ به عن رَبّه ﴿وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾.

● حَذْفُ الفاعِلِ للعلم به في: ﴿إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ أي: الروح، وفي ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي: اللّه.

(٤) الاكْتِفاءُ بذِكْرِ لقطاتٍ بَعْضُها مِنْ أحْداثِ ساعَةِ إِنْهاء نظام الحياة الدنيا، أو قُبَيْلَها، والقفز إلى ذكر لقطة خطيرة من لقطات يوم الدّين، وهي الّتي تتعَلّقُ بالإنسان الكافر حين يقولُ: ﴿أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾.

نلاحظ هذا في: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ﴾ أي: الرُّوحُ ﴿التَّرَاقِيَ﴾. وفي ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾.

(٥) الاعتراض بدَرْسٍ تَرْبَوِيّ مُوَجَّهٍ للرَّسُولِ ضِمْنَ وَحْدَةِ مَوْضوعِ السُّورَة.

(٦) التَّنَقُّلُ بيْنَ أُمُورٍ هي من أَحْداث الحياة الدنيا، وأُمُورٍ أخرى هي من مشاهد يَوْمِ الدّين، على أنَّ شريط الزّمَنِ واحدٌ ما يجري فيه من أمور الدنيا، وما يجري فيه من أمور الآخرة.

وهذا الأسلُوبُ الفنيُّ لم يَعْرِفْهُ الناس إلاّ بعْدَ أن مَهَرُوا أسَالِيبَ الإِعْلاَنِ عن عناصر بارِزَةٍ من عناصر «الفِيلْم» قَبْلَ عرض وقائعه بالتسَلْسُل.

(٧) استخدام الأسلوب غيْرِ المباشر للدّلالة على الأفكار في عدّة مواضع من السّورة:

● الكناية عن تَلَقّي الحكم بالظفر بالنعيم في الجنّة، بأسلوب التعبير عن ظواهر يلاحظها المشاهِدُ في وجوه المحكوم لهم بأنَّهُمْ من أهل جنّاتِ النّعيم:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

● والكناية عن تَلَقِّي الحكم بالعذاب في جهنّم، بأسلوب التعبير عن ظواهر يُلاحظها المشاهِدُ في وجوه المحكوم عليهم بأنّهم من أهل النار:

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾.

● الكناية عن حالة احتضار الميّت بذكر أحداث مرافقةٍ عادةً لاحتضاره ومَوْته، وهذا في:

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ (٢٨) وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩)﴾.

● الكناية بعبارة ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ عن الكبر والتبختُر وإعجابِ الكافر بنفسه إذْ عاند الحقّ وأصرَّ على إنكاره.

(٨) الاكْتِفَاءُ بِذِكْر مراحِلَ بَارِزَةٍ من أطوار خَلْقِ الإنسان، وتَرْكِ الذِّهْنِ يَتَصَوَّرُ ما بَيْنَ المراحل المذكورة، من أطوارِ خلْقٍ غَيْرِ مذكورة، على أنَّ هذه سيكْتَشِفُها، أو يكتشفُ بعْضَها، البحثُ العلميُّ الإنساني.

(٩) استخدامُ أسْلُوب الاستفهام التقريري لانتزاع اعتراف الموَجَّهِ له السُّؤال بالحقيقة، نجد هذا في:

● ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ (٣)﴾.

● ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦)﴾.

● ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ (٤٠)﴾.

(١٠) استخدام اسم الإِشَارَةِ الموضوعِ للمشار إليه البَعِيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ في مقام الْعَلِيّ الأعْلَىٰ، جلّ جلاله وعظُمَ سلطانه.



سُورَةُ الهُمَزَةِ

١٠٤ مصحف ٣٢ نزول



(١)

نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات

سورة الهمزة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾

١ ـ ● قرأ ابْنُ عامر، وحمزة والكسائي، وأبو جعفر، ورَوْح: [جَمَّعَ] بتشديد الميم.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿جَمَعَ﴾ بتخفيف الميم.

وقد روعي في القراءتين اختلاف أحوال المتحدَّث عنهم. فمنهم من يَجْمَعُ جمعاً بدون مبالغة، ومنهم من يُجَمِّعُ بنهم ومبَالغة.

٣ ـ ● قرأ ابْنُ عامر، وعاصم، وحمزة وأبو جعفر: [يَحْسَبُ] بفتح السين.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿يَحْسِبُ﴾ بكسر السين. والقراءتان وجهان عربيان لنُطق هذا الفعل.

٨ ـ ● قرأ أبو عَمْرو، وحَفْص، وحمْزَة، ويعْقُوب، وخلف: [مُؤْصَدَةٌ] بإثبات الهمزة.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿مُوصَدَةٌ﴾ بجَعْل الهمزة واواً. والقراءتان وجهان من الأداء في النطق.

٩ ـ ● قَرَأ شعبة، وحمزة، والكسائي، وخَلف: [فِي عُمُدٍ] بضَمّ العين والميم.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿فِي عَمَدٍ﴾ بفتح الْعَيْن والميم. «عَمَد، وعُمُد» كلٌّ منهما جمْعٌ مفردُهُ «عَمُود» فهما وجهان عربيان.

(٢)
من ذُكر من المشركين أنّه كان همّازاً لمّازاً للّذين آمنوا

ذكر بَعْضُ كتّاب سِيرَة حَيَاة الرَّسُول ﷺ، وبَعْضُ المفَسِّرين، أسْماءَ عَدَدٍ من كُبَراء مُشْركي مكّة، الّذينَ كانوا يتعَرَّضُونَ بالْهَمْزِ واللَّمْز، للَّذِينَ يَسْتَضْعِفُونَهُمْ، من الّذِين آمنوا واتَّبَعُوا الرسُول.

ومن الّذين ذُكِرَتْ أسْماؤهم في استخدام هذه الرّذيلة من المشركين:

«الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَة المخزومي ـ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَف ـ أُبَيُّ بْنُ خَلَف ـ الْعَاص بْنُ وائل من بني سَهْم ـ الأسْوَدُ بْنُ عبد يَغُوث ـ الأَخْنَسُ بْنُ شَرِيق ـ وهٰذان الأَخيران ثقفيّان من سادَة ثقيف في الطائف».

ولا يعني ذكْرُ هؤلاء أنّ السورة خاصّة بهم، بلْ هي عامَّةٌ تشْمل كلّ هُمَزَةٍ لُمَزَة، في عَصْرِ الرّسول ﷺ، وفي سائر العصور حتّى آخر التاريخ الإنساني، وهم الذين يستخدمون وسيلة الهمز واللّمز للصّدّ عن دين الله الحقّ.



(٣)
موضوع السورة

هذه السُّورَةُ ذَاتُ دَرْسٍ واحد، وموضوعها يَدُورُ حول وعيد الْهَمّازِين اللَّمّازين، الّذين يسْتَخْدِمُونَ قبيحَةَ الْهَمْزِ واللَّمزِ، احْتِقَاراً وازْدراءً لضُعَفَاءِ الّذين آمَنُوا واتَّبَعُوا الرَّسُول ﷺ، بغْيَة رَدِّهِمْ عن دينِ اللّه، وصَدِّ أمْثالِهِمْ عن الدّخول فيه، ممَّنْ تُحَدِّثُهُمْ نفوسُهم بأَنْ يسْتَجِيبُوا لدَعْوةِ الحق.

وَهؤلاء الهمَّازُون اللَّمَّازُون يكونُون عادة من فئَةِ الأثْرِياء، الذين يَجْمَعُونَ الأموالَ ويُعَدِّدُونَها، ويعْتَزُّونَ بها، ويَتَصَوَّرُون أنّها سَتُبْقِيهم في مراكز الْقُوّة والسِّيَادة في مُجْتَمَعَاتهم ما داموا أحياء.

وجاء في السُّورَة بيَانُ وعِيدِهم الشَّديد، بأَنَّهُمْ سَيُنْبَذُونَ مُهَانِين مُحْتَقَرِين، في نارِ اللّه الموقَدَةِ، الّتي يصْلَوْنها يَوْمَ الدّين، ويكونون مِنْها في أماكنَ تتزاحَمُ فيها أجسادُهم، حتّىٰ يَحْطِمَ فيها بعْضُهُمْ بعضاً، ويُحْبَسُونَ فيها، وَتُوصَدُ عليهم أَبْوَابُها، فَلا يَسْتَطِيعُون الخروج منها خالِدِين مُخَلَّدِين.

❁ ❁ ❁

(٤)
التدبّر التحليلي لآيات سورة الْهُمَزَة

قال اللّه عزّ وجل:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ①﴾:

﴿وَيْلٌ﴾: يأتي في اللّغة بمعنى الْحُزْنِ، والْهَلَاكِ، والمشقَّةِ من العذاب. قال ابْنُ سِيدَه: ويلٌ كلمةُ عذاب.

وفي كلمة «ويْل» معنى الوعيد بعذاب اللّه.

ويقابلُ كلمة: «ويْل» التي هي كَلِمةُ عذابٍ في اللّغة، كلِمةُ «ويْح» الّتِي هي كَلِمَةُ تَرَحُّم.

وورد أنَّ لفظ «ويْلٍ» اسْمُ علَمٍ على وادٍ في جهنَّم.

روى الإمام أحمد، والترمذيُّ، وابن حبَّان في صحيحه، والحاكم، عن أبي سعيد الخدريّ، أنّ النبيّ ﷺ قال:

«الْوَيْلُ: وَادٍ في جَهَنَّم يَهْوِي فيهِ الْكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفاً، لَوْ أُرسِلَتْ فِيهِ الْجِبَالُ لَمَاعَتْ مِنْ حَرِّهِ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ قَعْرَهُ.

والصَّعُودُ: جَبَلٌ مِنْ نَارٍ يَصَّعَّدُ فِيهِ سَبْعِينَ خَرِيفاً، ثُمَّ يَهْوِي كَذَلِكَ».

لم يصل هذا الحديث إلى درجة الصِّحّةِ عند المحدثين، لكن يمكِنُ

الاستئناسُ به، إذْ فيهِ بيَانٌ لنوعٍ من أنواع العذاب الذي تدلُّ عليه كَلِمةُ «ويل» في اللُّغة، فيُحمل اللفظ في القرآن على المعْنَيَيْن.

وجُمْلَة: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ مؤلفة من مبتدأ وخبر «ويْلٌ» مبتدأ، وجاز الابتداء بها مع أنّها نكرة لأنّ فيها معنى الدعاء أو التهويل، و﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ خبر.

ويمكن اعتبار كلمة «ويل» في الآية خبراً لمبتدأ محذوف تقديره: الْعَاقبةُ أو الجزاءُ ويْلٌ لكلّ هُمَزَةٍ لُمَزَة.

وأرجَح الإعرابَ الأوّل، لأنّ فيه إبقاءَ ما في كلمة «ويْلٍ» في بَدْءِ الكلام من تهويلٍ وإرهابٍ، أي: عذابٌ عَظِيم مَهُول، لكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ.

﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾: لفظان على صيغة «فُعَلَة» وهي من صيغ مبالغة اسْم الفاعل التي ورَدَتْ قليلةً في كلام العرب، ومنها «ضُحَكَة» لمن هو كثير الضَّحِك، و«صُرَعَة» يُطْلق على بطَلِ المصارعة الّذِي يَصْرَعُ الناس كُلَّما صارعه أحد، و«لُعَنَة» لِمَنْ هُو كثير اللَّعْن للناس.

وتُشْعر هٰذه الصيغة مع الدلالة على المبالغة بأنَّ الوصْفَ الذي دلَّت عليه قد صَارَ سَجِيَّةً وطَبْعاً وأمراً مُلَازماً غَيْر منفك.

﴿هُمَزَةٍ﴾: وصْفٌ لموصُوفٍ مَحْذُوفٍ قام مقامه. وأصْلُ الْهَمْزِ في اللُّغَةِ الْغَمْزُ بإيلام، ومنه «الْمِهْمَاز» وهو حديدة يَضَعُها راكِبُ الدابَّةِ في مؤخّر خُفِّه أو نحوه، فيَهْمِزُها بأسنانٍ في طرفِهِ على بطْنِها، فيُؤْلِمُهَا مستحثًّا إيّاها لتُسْرِع.

ونُقِلَ الْهَمْزُ من الْغَمْز الفِعْليّ بإيلام إلى نَظِيرِه من الكلام، على طريقَةِ التوسُّع في اللُّغَةِ، تَشْبيهاً للمَعْنَويَّاتِ بالحِسيَّات.

فالهَامِزُ بالكلامِ هو الذي يَعِيب النّاس بأقواله، **والهمَّازُ والْهُمَزَةُ**: الْعَيَّاب. يقالُ: رجُلٌ هُمَزَةٌ، وامْرأةٌ هُمَزَة.

وقد يكون الْهَمْزُ بحركاتٍ تُعَبِّر عن أقوالٍ، كبعض حركاتِ الشِّدْق، والعين، والرأس، والأيدي، والأصابع.

وخُصَّ الهمْزُ غالباً بما يكون من طعْنٍ لا يَشْعُرُ بِه المطعون عنْد فعل الطاعن، فتَدْخُلُ فيه الغيبَةُ والنميمَةُ والإشارات الطاعنات المُلْحَقَاتُ بهما.

﴿لُّمَزَةٍ﴾: وصْفٌ أيضاً لموصوفٍ محذوف قام مقامه. وأصل اللَّمْزِ في اللُّغَة الدَّفْعُ والضَّرْب. ونُقِلَ على سبيل التوسُّع في اللُّغَةِ إلى معنَىٰ الإيذاء المؤلم للنَّفْس، بأسْلُوبِ الإشارَة بالْعَيْنِ أو بالرَّأسِ، أو بالشَّفَةِ، أو بغَيْرِها من الجوارِح، مع كلامٍ خَفِيٍّ.

وخُصَّ اللَّمْزُ غالباً بما يكون من ذلك يحضُورِ الْمَلْمُوز.

وصارَ يُطْلَق على الْمُغْتَاب النَّمَّام العيَّابِ الطَّعَّانِ في أعراضِ النَّاس: همَّازٌ لَمَّاز، وهُمَزَةٌ لُمَزَة.

و«كُلُّ هُمَزَةٍ لُمَزَة» قضيَّةٌ كُلِّيَّةٌ، فيها أداةٌ من أدوات العموم، الَّتي تَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ كُلَّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ مُوَجَّهٌ له الْوَعِيدُ بعذابٍ شديدٍ في وادٍ من وِدْيَانِ جهنَّمَ يقال لَهُ: وادِي وَيْل، إذا كانَ مِنَ الذين يَصُدُّون عن دين اللّه بهَمْزِهم ولَمْزِهم، أو يُحَرِّضُونَ به الضُّعفاء على الرِّدَةِ عنه.

فالمعنى: عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الدِّين، في وادٍ من وديان جهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ: «وَادِي وَيْل» لكلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ يَتَّخِذُ الْهَمْزَ واللَّمْزَ وَسِيلَةً للتَّحْرِيضِ على الرِّدَّةِ عَنْ دِينِ اللّه، وللصَّدِّ عن الدخول فيه.

● قول اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾﴾:

﴿جَمَعَ﴾ وَقُرِئَ في المتواتِر من القراءات [جَمَّعَ] إشارَةً إِلَىٰ أنَّ بَعْضَ الهمَّازين اللَّمَازِين المحرِّضِين على الرِّدَّةِ عن دينِ اللّهِ بما يفْعَلُون، والصادِّين

عنه مَنْ يتأثّر بهَمْزِهم ولَمْزِهم، يَجْمَعُونَ مَالاً وَفِيراً ويُعَدِّدُونَهُ، دُونَ مُضاعفةٍ في أعمالهم واجتهاداتهم في جمعه. وأنّ بعضهم الآخَرَ يُضاعِفُون أعْمالَهُمْ كادِحِينَ في هذا الجمْعِ للْمَال الوفير.

﴿مَالًا﴾: جاء اللَّفظُ منكَّراً، للإشارة بالتنكير إلى الكَثْرةِ والْوَفْرَة، أي: مالاً كثيراً وافراً، وهذا أحد أغْراض اختيار النكرة، كما ذكر عُلَماء المعاني، والقرائِنُ في هذا الموضع تدُلُّ على هذا الْغَرض.

المال: كُلُّ شَيْءٍ مَرْغُوبٍ في امْتِلاكه، ممّا به نَفْعٌ ما، وكانت الإبل عند العرب قَدِيماً أنْفَسَ أمْوالِهِمْ.

﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾: أي: وكرَّرَ إحصاءَه بالْعَدِّ، مَرَّاتٍ مُتَتَابعاتٍ، إذْ هو يسْتَمْتِعُ ويتلَذَّذُ بعَدِّ مَا يَمْلِكُ من مالٍ، وقد تكونُ لَذَّتُهُ بعَدِّه وإحصائه ومَعْرِفَةِ مقدار ما يَمْلِك منه، أكثر من اسْتِمْتَاعه ولذّته بالانتفاع به مُسْتَهْلِكاً له.

يقال لغة: **عدَّ ذا الأَفْراد**، إذا أحصاه ليَعْرِفَ مقدارَ أفْرَاده، **وعدَّدَه**، إذا كرّر إحْصَاءَه. والتكْرِيرُ يَدُلُّ على الاستمتاع والتلَذُّذِ بمشاعر بما يَمْلِكُ من مال.

﴿يَحْسَبُ﴾ وفي القراءة الأخرى [يَحْسِبُ] قراءَتَان متواترتان، وهما لغتان عربيّتان، كما سبق بيانه.

والمعنَىٰ يظُنُّ ظنّاً ضعيفاً توهُّميّاً، دلّ على هذا استقراء استعمال هذه المادّة في القرآن، فمادّة «حسب» لم تستَعْمل في القرآن إلاّ بمعنى الظَّنّ التوهُّميّ.

﴿أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾: **الْخُلود**: يأتي بمعنىٰ البقاء بلا نهايةٍ، ويأتي بمعْنَىٰ طول مُدَّةِ الْبَقَاءِ النّسْبِي، ومن هذا أطلق الْعَرَبُ علىٰ الجبال والْحِجَارَةِ والصُّخُور كَلِمَةَ «الخوالِد» لطول بقائها بعد دُرُوس الأطلال.

لكن الفعل الماضِيَ من مادّة «الخلود» لا يَدُلُّ إلاّ عَلَىٰ البقاء حتَّىٰ لحظة الحاضر، ولا يتَعَرَّضُ للْخُلُودِ الأبَدِيّ، ولا للخلود النِّسْبِيّ.

فاسْتِعْمال الفِعْلِ الماضي؛ «أخْلَدَهُ». بقَوْلِ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ في وصْفِ المذْمُوم المهَدَّدِ بالوعيد الْهُمَزَةِ اللُّمَزَةِ: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾﴾ قد دلَّ علَىٰ أَنَّهُ يَحْسَبُ مَعَ كُلِّ زَمَنٍ يتَجَدَّد له في الحياة أنَّ مالَهُ هُوَ الّذِي أبْقَاهُ فيما مضَىٰ حَتَّىٰ لحظة الحاضر عزيزاً في قَوْمِه، مَكْفِيَّ الحاجات، ذَا مَكانةٍ اجتماعيَّةٍ رَفِيعَةٍ، لَهُ فيها أمْرٌ ونَهْيٌ وسُلْطَان، ولاَ يَدُلُّ على معنى البقاء الدائم مستقبلاً، إذْ لم تأْتِ العبارة في النّصّ: يحسب أنَّ مالَهُ يُخْلِدُهُ، حتَّىٰ يَكُونَ فيها إشكالٌ بأنَّ أحداً من النَّاسِ لا يتصَوَّر الخلُودَ بلا نهاية في الحياة الدنيا، ولو كان مِنَ الكافرين باللّه وبرُسُله وبكُتُبه وبالْيوم الآخِر.

ولكن نَسْأَلُ هنا: كيْفَ يحسَبُ الكافر أنَّ مالَهُ هو الّذي أبْقَاهُ فيما مضَىٰ حتَّىٰ لحظة الحاضر؟

وأقول: باستطاعة المتأمّل أنْ يُدْرِك أنَّ الكافر يَحْسَبُ أنّ ماله هو الّذي أبْقَاهُ فيما مضَىٰ، حتَّىٰ لحظة الحاضر عزيزاً في قَوْمِه، مَكْفِيَّ الحاجات والْمُؤَن، ذا مكانةٍ اجتماعيَّة رفيعة، له فيها أمْرٌ ونهْيٌ وسلطان، ولولاَ مالُه لمَا بَقِيَتْ له هٰذِه العزَّةُ والقُوَّة والمكانَةُ الاجتماعيّة الرَّفيعة.

هذا التوهُّمُ الباطل يُسَيْطِرُ على نفوس معظم أَصْحاب الْغِنَىٰ والثَّرَاء، إذْ يَنْسَوْنَ أنّ اللّه هو الّذي منَحهم العزَّةَ والقوَّةَ والمكانَةَ الاجتماعيَّة الرَّفيعَةَ في أقوامهم، وربما كان المال من الأَسْبَاب الظاهرة، ولو شاء اللّه لسلبهم أموالهم وعزّتهم وقُوَّتَهُمُ الاجتماعيَّة الرفيعة، فهو جلّ جلالُه مالِكُ الملْكِ، يُعِزُّ بحِكْمَتِهِ لابتلاء عباده مَنْ يَشَاء، ويُذِلُّ مَنْ يشاء، بِيَدِهِ الْخَيْرُ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير.

والكافر بيوم الدين لا يتَطَلَّع إلاَّ إلَىٰ مَتَاعِه من الحياة الدُّنيا، إذْ يرَىٰ

أنَّ كُلَّ وجُودِه منْحَصِرٌ في هذه الحياة الّتِي يعيشُ ظرُوفهَا، فهي فُرْصَتُه الوحيدة للاستمتاع، وانتِهَابِ اللّذات، وتحقيق الشهوات، وهو يَرَىٰ أنَّ وَسيلته إلى ذَلِكَ ما جمع من مالٍ وعَدَّدَه، وأَعَدَّهُ لتحقيق هذه الغاية، ويَرَىٰ أنّ بقَاءَهُ طَوَال حياته في متاعِ الحياة الدنيا هُوَ الْخُلُودُ الَّذِي تَطْمَحُ نَفْسُه إلَيْهِ، وتَنْحَصِرُ فيه.

والكافر الْهُمَزَةُ اللُّمَزَةُ المغتاب النَّمَّام العيَّابُ الذي لا يُؤْمِن باللّه وعَدْله وجَليل حكْمته، ولا يُؤْمِنَ بالْيَوْم الآخر الّذي يكون فيه الحسابُ، وفَصْلُ الْقَضاء، وتحقيقُ الجزاء، يتَوَهَّمُ توهُّمَاتٍ لا قيمة لها في موازين الفكر السَّلِيم، منها أنَّ ماله الذي يجمعه، هُوَ إكْسِيرُ بَقَائه عزيزاً منعَّماً ذا مكانة رفيعةٍ بين الناس، وهو الوسيلة الّتي يَدْفَعُ بها عن نفسه الضُّرَّ، وهو الوسيلة التي يجْلُبُ بها لنفسه النَّفْع وما يشْتَهِي وما يُرِيدُ، حتَّىٰ آخِرِ لَحْظَةٍ من حياته، وهو الوسيلة لاغتنام سَعَادَتِه في فُرْصَةِ وجُودِه الوحيدَة في الدَّهر.

بكلِّ هذه التوهُّمَاتِ الْبَاطِلات، يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ فيما مضى عزيزاً قويّاً ذَا مكانَةٍ اجتماعيّة رفيعة، وهو يُبْقِيه كذلك في أيّام عُمْرِهِ الآتياتِ في المستقبل، فهو يَقِيسُ مستقبلَهُ على مَاضِيه.

● قول اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾﴾.

﴿كَلَّا﴾ كلمة رَدْعٍ وزَجْر، وهي هنا لردع الهمزَة اللُّمزَة.

﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾: اللاّم واقعة في جواب قَسَمٍ مَنْوِيٍّ، كما قال الخليل في مثل هذا الاستعمال، فالفعل مؤكّدٌ بقَسَمٍ مُقَدَّرٍ، وبنُون التوكيد الثقيلة.

«يُنْبَذَنَّ»: أي: يُطْرَحَنَّ مزهوداً فيه. أصل النَّبْذِ طَرْحُ الشيء وإلقاؤه، مع زُهْدٍ فيه، أوْ مَعَ إِهَانَةٍ واحتقارٍ له. وإذا أراد النابذ صَرْفَ الشيء الذي يَنْبِذُه عن بصَرِهِ، نَبَذَهُ وراءَ ظَهْرِه.

وآكل التَّمْرِ مثلاً ينبذُ النّوىٰ إلى أيّة جهةٍ بعيداً عنه إذا كان في الخلاء.

واللّقيط ولَدُ الزِّنَىٰ يُسَمَّىٰ منبُوذاً، لأنّ والدَته نَبَذَتْهُ في الطريق حين ولَدَتْهُ، فيَلْتَقِطُه من يلتقطه.

والشّاةُ النّبِيذَةُ والمنْبُوذَةُ هيَ الّتي لا تُؤكَلُ من الْهُزَالِ والضعف.

فَفِي استعمال فعل «النَّبْذِ» حينَ الإلقاء في النار، مَعَانِي الازدراء والإهانة والاحْتِقار، والْعُقُوبة بالذِّلّة والصَّغار، لهذا الصنف المستكبر من الكُفّارِ، الْهُمَزَةِ اللُّمَزَةِ، الصّادّ عن دين اللّه، والّذي يتّخِذُ وسيلة الْهَمْزِ واللَّمْزِ لجَعْلِ ضُعَفاء المؤمنين يَرْتَدُّونَ إلىٰ الكُفْر بَعْد أَنْ آمَنُوا برَبّهم واتَّبَعُوا الْهُدىٰ، والذي لم يكن له هَمٌّ في الحياة الدنيا إلاّ أنْ يَجْمَعَ الْمَالَ ويُعَدِّدَه، ويتَّبع أهواءه وشهواته ولذّاته.

﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾: **الْحُطَمَةُ**: اسم من أسماء دار العذاب يوم الدين، سمّاها اللّه في القرآن حُطَمَة، لأنّها تَحْطِمُ كلَّ شيءٍ يُنْبَذُ فيها، أي: تُكَسِّرُهُ تكْسِيراً بعُنْفٍ وشِدَّة، ليَذُوق مع عذاب الإهانة والإذلالِ والْحَرِيق، عذابَ التحطيمِ وتكْسِير العظام.

صيغة «حُطَمَة» من أبْنِيَةِ المبالغة كالهُمَزَة واللُّمَزَة والصُّرَعة. أي: فإذَا كان هذا الكافر هُمَزَةً لُمَزَةً، عُجْباً بنفسه واستكباراً، فلْيُنْبَذْ في الْحُطَمَةِ التي تُحَطِّمه وتكَسِّر عظامه إهانة له واحتقاراً، تحقيقاً لقاعدة، «الجزاءُ من جنْسِ العمل» فهذا ما يقضي به قانونُ العدل الرّبّاني.

أصلُ الْحَطْمِ في اللّغة الكَسْرُ عَلىٰ أيّ وجْهٍ، دون عناية بالمكسُور، ولا مُبالاةٍ به، ولا بأيّ شأنٍ من شؤونه، أو مع قصد التخلّص من هيئته وصورته.

تقولُ لغة، حَطَمْتُ الشيءَ أحْطِمُه حطْماً، إذا كَسَرْته على أيّ وجْهٍ،

وتقولُ: حطَّمْتُه تحطِيماً فانْحَطَمَ وتحَطَّم، إذا أردت التعريف بأنَّكَ زِدْتَ في أَعْمَال التّحطيم كمّاً أوْ كيفاً.

والْحُطَامُ: الأشياءُ المحطَّمَةُ المُكَسَّرَة المكوَّمَة بغير نظام أو المنثورة.

ويقال: رَجُلٌ حُطَمَةٌ، أي: كثير الأكْلِ يَحْطِمُ كُلَّ طَعَام يضَعُه في فيه. ويُقالُ: إبلٌ حُطَمَةٌ، أي: كثيرةٌ متزاحِمَةٌ تَحْطِمُ الأرْض والكَلأَ بخفافِها، وكذلك يقال في قُطْعان البَقَرِ والغنم.

وروى مسلم وأحمد في مسنده، أنّ الرسول ﷺ قال:

«إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ».

أي: إنّ شَرَّ الرِّعَاء العنيفُ الشّدِيدُ القاسي في رعايته، الّذي يسُوق رَعِيّتَهُ بشدّة وعُنْف، فيجعَلُها تتزاحم حتَّىٰ يحْطِمَ بعضُها بعضاً، وتُحَطِّمَ ما تمُرُّ عليه.

- قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥﴾؟!

استفهامٌ يُرادُ به التعجيبُ والتعظيم والتهويل، كما سبَقَ في نظائر هذه العبارة، وقد غدا معلوماً أنّهُ أسلوبٌ قُرْآنيٌّ من أساليب التعظيم والتهويل والتكبير والتعجيب.

أي: وَأيُّ شيءٍ أعْلَمَكَ عَظَمَةَ الْحُطَمَة وخَطَرَهَا العجيب، والمعنَىٰ: لم تَبْلُغْ دِرَايَتُكَ عِظَمَ الْحُطَمَةِ، ولاَ مَبْلَغَ الْعَذَاب الذي تشتمل عليه، إذْ هي أمْرٌ فظيعٌ جدّاً.

- قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦﴾:

بعْدَ الاستفهام التعظيميّ عن الْحُطَمَةِ، المتضمّن التعجيبَ من هَوْلِهَا، جاء الجَوابُ الرَّبّانيّ بأنّها نَارُ اللّهِ الْمُوقَدَة، مع سَائر صفاتها الآتِيَاتِ في السُّورَة.

أي: هي نارُ اللّه، وإذا كانت نارَ اللّهِ فأمْرُها مَهُولٌ وخَطَرُها عظيم. وهذه الإضافة في «نَارُ اللّهِ» تُشْعِرُ بأنّ نَارَ اللّهِ هٰذِهِ الّتِي أعَدَّها دَاراً لِعَذَاب مستحقّي العذابِ يوم الدّين، هي إعْدَادُهُ جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانُه، وليْسَت إعداد أحَدٍ من خَلْقِه.

إنّها نَارُ اللّهِ العظيمَةُ، فالمؤمن العاقل يخْشَاها أشدّ الْخَشْيَة، ويجتَنِبُ كلَّ قولٍ أو عَمَلٍ يُقَرِّبُهُ إلَيْهَا.

﴿ٱلْمُوقَدَةُ﴾: أي: تُمَدُّ دواماً بالْوَقُودِ الّذي يَجْعَلُها في حالَةِ اشتعالٍ دواماً حالاً ومستقبلاً. فاسْمُ المفعول مثلُ الفعل المضارع المبنيّ لما لَمْ يُسَمَّ فاعله، يَدُلُّ على الحال والاستقبال والتجدُّد. واسْمُ الفاعل مثل الفعل المضارع المبني لمَا سُمِّيَ فاعله، يَدُلُّ على الحال والاستقبال والتجدّد(١) أيضاً.

الْوَقُودُ والْوِقاد: ما تَشْتَعِل به النّار من حطب وغيره، وقد جاء في البيان القرآني أنّ وَقُودَ نَارِ اللّه يوْمَ الدّين النَّاسُ والْحِجَارَة، فالحجارَةُ وَقُودُها قبل إدْخال المعذّبين بالاحتراقِ فيها.

يقال لغة: أوْقَدَ النّار، أي: أشْعَلها.

● قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾:

---

(١) هذا ما ظهر لي في دلالات النصوص القرآنية الكثيرة، ولم يظهر لي فيها ما ذكرَهُ علماء أصول الفقه، من أنّ اسم الفاعل حقيقَةٌ في الحال مجازٌ في الماضي والاستقبال. بل كلٌّ من اسم الفاعل واسم المفعول كالفعل المضارع في الدلالة على الحال والاستقبال والتجدُّد.

وصَفَ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ نارَ جهنَّم يَوْمَ الدِّين، بأنَّهَا تَطَّلِعُ على الأَفْئِدَة، فما المرادُ بهٰذِهِ العبارة؟

اطَّلَعَ علَىٰ الشيْء: أي: أشْرَفَ عليه ناظراً إلَيْهِ.

يمكن أنْ نَفْهَمَ من هذا الوصف أنَّ مَسَّ عذاب النَّار لا يقْتَصِرُ على الْجُلُودِ، الّتي كُلَّما نَضِجَتْ خلَقَ اللّه للْمُعَذَّبينَ بها جلوداً غَيْرَها، ليَتَجدَّدَ إحْسَاسُهُمْ بعذابِ الْحَرِيقِ، وإنَّمَا ينفُذُ حرُّها إلىٰ أفئدَتِهم أيضاً كَمَا يَنفُذُ بَصَرُ الرَّائي إلَىٰ الشَّيْءِ الّذي يطَّلِعُ علَيْه.

شُبِّهَ وصُولُ حرِّ النَّارِ إلَىٰ الشيء، بوُصُولِ نَظَرِ المطَّلِع على الشَّيءِ، فاسْتُعِيرَ فِعْلُ ﴿تَطَّلِعُ﴾ للدّلالة على وصُول حرِّ النَّار إلى أفْئدَةِ المعذَّبين فيها بشَكْلٍ مُتَجَدِّدٍ، علىٰ مثل إدْراكِ النَّظَر الّذي يُحِيطُ بالمنظور إليه.

وقد يكون المراد أنَّ النَّار تَطَّلِعُ على الأفْئدَةِ الّتي هي محَلُّ النّيَّاتِ والمقاصد، ومنَابعُ الكِبْرِ والْعُجْبِ والكُفْرِ ورَغَبَاتِ الفُجُور، فَتُعْطِي من قُوَّةِ تَعْذِيبها وشِدَّتِه ما يُنَاسِبُ ما في الأفْئِدة ممّا يستحقّ العذابَ كمًّا وكيْفاً، وقد يَدُلُّ هذا على أنَّ ما كانَ في الأفئدة في الدّنيا من ذَلِكَ يَبْقَىٰ فيها مسجَّلاً كما كان تماماً، وهو يشبه ما يُسَمَّىٰ بالصُّنْدُوق الأَسْوَد في الطَّائرات إذا تحطَّمَتْ، يُسَجِّلُ فيه ما جَرَىٰ فيها قبْلَ التَّحْطيم.

قول اللّه عزّ وجل:

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾﴾ وفي القراءة المتوارة الأُخْرى «مُوصَدَة» وهُما وجْهان لنُطْق الكلمة في العربيّة.

وصَفَ اللَّهُ عزّ وجلَّ «الْحُطَمَةَ» التي هِيَ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَة، بأنَّها علىٰ كُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ كافرٍ باللَّه والْيَوم الآخِرِ مُؤْصَدَةٌ، أي: مغْلَقَةُ الأبوابِ، مقفلَةٌ، فلا يسْتَطِيعُونَ الخروجَ منها.

مُوصَدَةٌ: اسْم مفعُولٍ من فِعْل «أَوْصَدَ يُوصِدُ» تقولُ لُغَة: أوصَدْتُ الْبَابَ وأوصَدْتُ القِدْرَ، إذا أَطْبَقْتَه وأغْلَقْتَه وأقْفَلْتَه.

وأصَدَ البابَ يَأْصُدُهُ أصْداً وإصَاداً، أي: أغلقه، فَهُو مَوْصُودٌ، وأَوْصَدَهُ يُوصِدُه فالباب مُوصَدٌ.

وآصَدَ البابَ يُؤْصِدُه فهو مُؤْصَدٌ.

قولُ اللّه عزّ وجل:

﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾ وفي القراءة الأخرى المتواترة «عُمُدٍ» عُمُد: جَمْع عَمُود وعماد، وقال الفرّاء: «عَمَد وعُمُد» كلاهما جَمْعُ عَمُود. وقيل: عَمَدٌ اسْمُ جَمْع مفردُهُ عمود وعِمَاد. والمؤدَّى في المعنى واحد.

والعمود كلُّ ما يُحْمَل عليه من فوقه شَيْءٌ ثقيل، كالسَّقْفِ يُعْمَدُ بالأساطين المنصوبة.

ولكن ما المراد بقول اللّه تعالى: ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾؟

أقول:

● لو كان الْمُرَادَ أَنَّ أبوابَ الْحُطَمة الّتي هي نار اللّه الموقدة موصَدَةٌ مقفلة في عَمَدٍ مُمَدَّدَة، لكان الأولى في التعبير أن يقال: بِعَمَدٍ مُمَدَّدَة، لأنّ حرف الباء هو الأَصْلُ في الدّلالة على معنى السببيَّة.

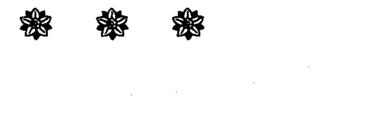
يُضَاف إلى هذا أنّه لا حاجَةَ يوْمَ الدِّين لأنْ يكونَ إيصَادُ أبواب دار العذاب وإقفالُها بالأعْمِدَةِ الممدّدة، فقد اكتَشَفْنا من ظواهر آيات اللّه في كوْنه في الحياة الدُّنيا أنّ إغلاق الأبواب وإقْفَالَها له وسائل أخْفَىٰ وأدَقُّ من الأعْمِدَة الّتي كانت إحْدَىٰ وسائل الحضارات الإنسانيّةِ غَيْر المتَقَدِّمَةِ لإيصاد الأبواب وتَثْبيت إقفالها.

● والأَرْجَحُ فيما ظهر لي ـ واللّهُ أعلم ـ أنْ تكون عبارة: ﴿فِى عَمَدٍ

مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾ وَصْفاً للْحُطَمَة، فهي نَارُ اللّه الموقَدَةُ، وهي الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَىٰ الْأَفْئِدَة، وهي على المعذّبين فِيها مُوصَدَة، وَهِيَ في عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ، وقد تكونُ هٰذِهِ الْعَمَدُ الْمُمَدَّدَة عَمَداً نارِيَّةً مُحِيطَةً بها، تَنْشُرُ النَّارَ واللَّهَبَ في وِذْيانِها، بحَسَب منازلِ أَهْلِهَا الْمُعَذَّبِينَ فيها، وَعَلَىٰ مقاديرِ ما يَسْتَحِقُّونَ من عذَابٍ في دركاتِهِمْ منها.

على أنَّ هذه القضيَّة من قضايا الغيب الّتي قضاها اللّهُ وَقَدَّرَها، وأعَدَّها ليَوْمِ الدّين، فاللّهُ أعْلَمُ بحَقِيقَتِها، ولا نَسْتَطِيعُ أَنْ نجْزِم بِصُورَةٍ مُحَدَّدَة.

وبهذا تمّ تدبُّر سورة الْهُمَزَة والحمد للّه على توفيقه وفتحه.



سُورَة المرسلات

٧٧ مصحف ٣٣ نزول



(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

سورة المرسلات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾

---

٦ - • قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿عُذْراً﴾ بإسْكَان الذال.

• وقَرَأ رَوْح: [عُذُراً] بضَمّ الذّال. وهو وجه عربيّ لنطق الكلمة باتباع حركة الذال لحركة ما قبلها.

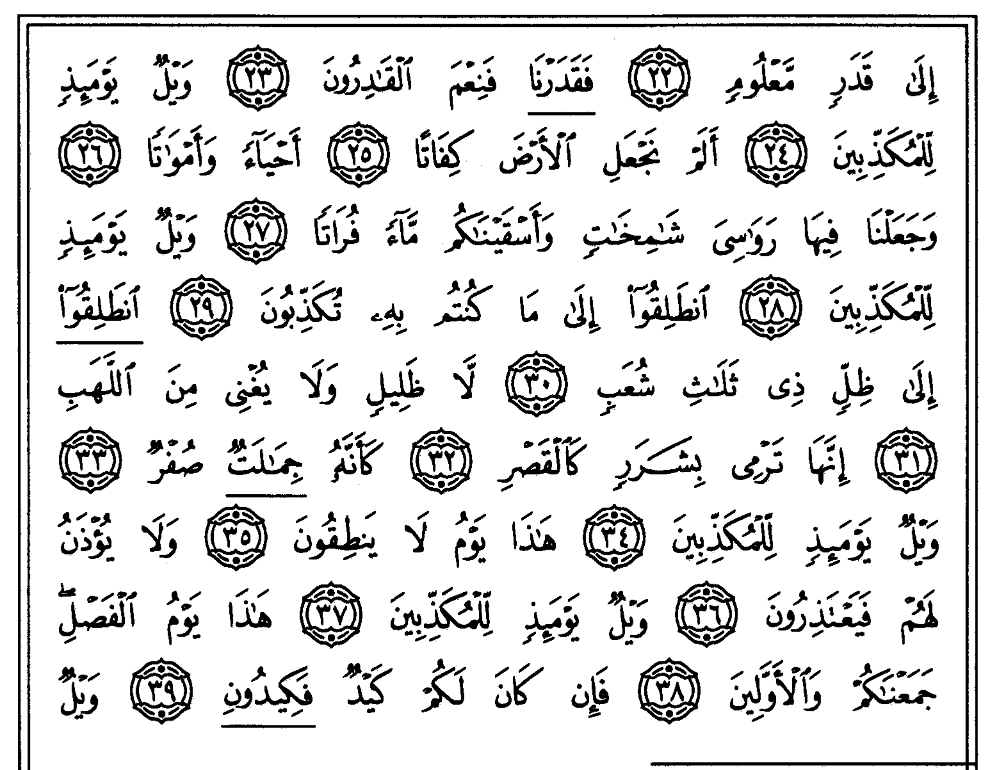
• وقرأ أبو عمرو، وحفص، وحمزة، والكسائي، وخلَف: [نُذْراً] بإسكان الذال.

• وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿نُذُراً﴾ بضمّ الذال، والضمّ وجه عربيٌّ لنُطْقِ الكلمة.

١١ - • قرأ أبو عَمْرو: [وُقِّتَتْ].

• وقَرَأ أبو جعفر: [وُقِتَتْ].

• وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿أُقِّتَتْ﴾. والمعنى فيها واحد.



٢٣ ـ ● قرأ نافعٌ، والكسائيّ، وأبو جعفر: [فَقَدَّرْنَا] بتَشْدِيد الدَّال.
● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ بتخفيف الدال.
التشديد يدلُّ على العنايَةِ بتحديد المقادير. والتخفيف يدل علىٰ التنفيذ بالْقُدْرة. فالقراءتان متكاملتان في أداء المعنىٰ المراد.

٣٠ ـ ● قرأ رُويس: [انْطَلَقُوا] بفتح اللاّم.
● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿انْطَلِقُوا﴾ بكَسْر اللاّم. والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد. إذْ يُؤْمَرُ المكذّبون بالانطلاق، إلى دَرَكَاتِهِم في جهنم، وهذا ما دل عليه الفعل بكسر اللام. فيتمُّ انطلاقهم وهذا ما دلَّ عليه الفعل بفتح اللاَّم.

٣٣ ـ ● قرأ حفصٌ، وحمزة، والكِسائي وخَلَف: [جِمَالَةٌ] بكَسْرِ الجيم، أي: طائفة مجتمعة من الجمال.
● وقرأ رُويس: [جُمَالاَتٌ] جمع جُمَالَةٌ وهو الحبل العظيم.
● وقرأ باقي القرّاء العشرة: [جِمَالاَتٌ] أي: قُطْعَانٌ من الجمال، إذْ هو جَمْعُ جَمْع.

٣٩ ـ ● قرأ يعقوب: [فَكِيدُونِي] بإثبات ياء المتكلّم في الوقف والوصْل.
● وقرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿فَكِيدُونِ﴾ بحذْف ياء المتكلم إيجازاً.

يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

❋ ❋ ❋

٤١ ـ ● قرأ ابن كثير، وابنُ ذَكْوان، وشعبة، وحمزة، والكسائي: [وَعِيُونٍ] بكسر الْعَين.

● وقَرَأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَعُيُونٍ﴾ بضمّ العين. وهما وجْهان لنطق الكلمة في اللّسان العربي.

٤٣ ـ ● قرأ حَمزَة [هَنِيّاً] وقرأ باقي الْقُرّاء العشرة: ﴿هَنِيئاً﴾.

[هَنِيّاً] وجْهٌ من وَجْهَيْ نُطْقِ الكلمة في العربية.

(٢)
مما ورَد بشأن سورة المرسلات

(١) روى البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعودٍ قال:

«بَيْنَما نَحْنُ مع النبيّ ﷺ في غَارٍ بمِنَىٰ، إذْ نَزَلَتْ سورةِ المرسلات عُرْفاً، فإنَّهُ لَيَتْلُوها، وإِنِي لأَتَلَقَّاها مِنْ فيه، وإنَّ فَاهُ لَرَطْبٌ بها، إذْ وَثَبَتْ عَلَيْنا حَيَّةٌ. فقال النبي ﷺ: اقْتُلُوها، فابْتَدَرْنَاهُ فَذَهَبَتْ، فقال النبيّ ﷺ: وُقِيَتْ شَرَّكُم كَمَا وُقِيتُمْ شَرَّهَا».

(٢) وروى البخاريّ ومسلم وغيرهما عن ابْنِ عبّاسٍ أنَّ أُمَّ الْفَضْلِ

سَمِعَتْهُ وهُوَ يَقْرأُ وَالْمُرْسَلاَتِ عُرْفاً، فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ لَقَدْ ذَكَّرْتَنِي بِقِرَاءَتِكَ هٰذِهِ السُّورَة، إِنَّها آخِرُ ما سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ بِهَا في الْمَغْرِب».

(٣) وروىٰ أبو داود عن ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قال:

«كَانَ النبيُّ ﷺ يَقْرأُ النَّظَائِرَ السُّورَتَيْن في رَكْعَةٍ، الرَّحْمٰنِ وَالنَّجم فِي رَكْعَة، واقْتَرَبَتْ والْحَاقَّة في رَكْعَةٍ، ثُمَّ قال: وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ والْمُرْسَلاتُ فِي رَكْعَة».

(٤) ورُوِي عن ابْنِ عبَّاس أنّ سورة «المرسلات» نزلَتْ في مكة إلاَّ قَوْلَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ فيها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ فهي مَدَنِيَّة.



(٣)
موضوع السّورة

يدور موضوع السورة حول معالجة المكذبين بيوم الدين إقناعاً فكريّاً، واستثارة نفسيّةً ووجدانيّةً من مِحْوَرَي الخوف والطمع في عُمْقِ النفس الإنسانيّة، وإنذاراً مُتكرّراً عشر مرّات بعبارة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ في مفاصل من السّورة، بِفَنِّيّة تَهُزُّ أعْمقَ المشاعر الغافلة الغارقة في نَوْمٍ عَمِيقٍ.

بدأت السورة بالْقَسَم ببعض آيات اللَّهِ في كَوْنِه على أنَّ يَوْم الدّين الموعودَ به لواقع حتماً لا محالة.

وأُتْبع الْقَسَمُ بعَرْض طائِفَةٍ من الأحداث المستقبليّة التي جعلها اللّه عزّ وجلّ في تَسَلْسُل أحْداثِ الكَوْنِ مُقَدِّماتٍ وعَلاَمَاتٍ وأَمَارَاتٍ وَتَوْطئاتٍ لساعَةِ إِنْهَاء ظُروف الحياة الدُّنيا، وأنْظِمَتِها، ثم لِسَاعَةِ بَدْءِ ظُرُوفِ الحياة الأخرى، وبعْثِ الخلائِقِ إليها، وقيامهم لِمُوَاجَهَةِ يَوْمِ الدّين، يوم الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء بالْعَدْلِ أو بالفضل.

وأُتبِعَ هذا العَرْضُ بتَوْجيه طائفةٍ من الأدلَّة على قانون الجزاء الرَّبّاني، في خُطَّةِ الخالِقِ الرَّبِّ جلّ جلالُهُ وَعظُمَ سلطانُه، وعَلَىٰ قُدرَتِهِ على إعادة الموتَىٰ إلى الحياة بَعْدَ فَنَاءِ أجسادِهِم وتفرُّقِهَا في تُرَاب الأرْض.

وأُتبِعَتْ هٰذِه الأدلّة بعَرْضِ مَشْهَدٍ رَهِيبٍ من مشاهِدِ يوم الدِّين، منتزَعٍ ممَّا سوفَ يكُونُ للكافِرِينَ المكذّبين بِيَوْمِ الدين، وأُتبع هذا المشهد بعرض مَشْهَدٍ آخر مُنتزَعٍ ممّا سَوْفَ يكُونُ من نعيم للمتّقين ولِلْمُحْسِنين، ويُفْهَمُ من ذَلِكَ لُزُوماً أنّه سَوْفَ يكونُ أيْضاً للأبْرَار الَّذِين هم أصحاب المرتبة الوسْطَىٰ فَوْقَ مَرْتبة المتقين، وتحت مرتبة المحْسِنين.

ثُمَّ جاءَ في السورة تَوْجيهُ خطابٍ تَهْدِيدِيّ من الرَّبِّ جلّ جلالُهُ وعَظُم سلطانُه، للمكَذّبين بيوم الدِّين، يخاطبهم فيه بقوله: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: وأنْتُمْ بسَبَب كونِكُمْ مُجْرِمين تَسْتَحِقُّونَ الوعيد الشَّدِيدَ بالمقالة الّتي جاء تكريرها في السُّورَة عشْرَ مرّاتٍ، بفنّيَّةٍ بارِعَةٍ عَقِبَ كُلِّ مَفْصِلٍ مِن مَفاصِلِ مَوْضُوعِها: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

وأخيراً جاء في السُّورة بيانُ أنّ من مظاهر كِبْرِ المكذِّبين بِيَوم الدّين على رَبِّهم، واسْتِنْكَافِهِمْ عَنْ عبادَتِه، في سلوكهم الدائم، أنَّهُمْ إِذَا قِيلَ لهم ارْكَعُوا لِرَبِّكُمْ لاَ يَرْكَعُونَ، مَعَ أنَّهُ قَدْ سَجَدَ لَهُ في الوجود كُلُّ خاضِعٍ لسُلْطَانه بالجبر، وَسَجَدَ لَهُ مَنْ في السَّمَاواتِ، وسَجَدَ لَهُ المؤمِنُونَ به في الأرض بإراداتِهِمْ طَوْعاً.

ولَمَّا اشتملَتْ سُورة المرسلات عَلىٰ كلّ هٰذِهِ العناصر التي تخاطب العقول بالدّلائل والبراهين والآيَات، وتُلامِسُ مِحْوَرَي الْخَوْفِ والطَّمَع في عُمْقِ النفس الإنسانيّة، وَتَعْرِضُ طائفةً من المشاهد المنتزعَة من الواقِع الذي

سوْفَ يَحْدُثُ يَوْمَ الدّين، تَأْكيداً لأَنَّهُ سَوْفَ يَقَعُ حتْماً، ناسَبَ أَنْ تُخْتَمَ السُّورَةُ بقول اللّهِ عزّ وجلّ في آخرها: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.



(٤)
دروس السورة

تشتمل سورة «المرسلات» على سبعة دُروس:

الدرس الأوّل:

درس اشتمل على الْقَسَم ببعض آيات اللّه في كونه، واخْتِير منها آيَةُ الرِّياحِ على اختلاف صفاتها وخصائصها وآثارها، أمّا الْمُقْسَمُ عليه فَهُو الْمَوْعُودُ بِه يَوْمَ الدِّين، بعْدَ إِنْهاء ظُرُوف الحياة الدنيا، وبَدْءِ ظروف الحياة الأخرى، بقيامة الأموات، وبعْثِهم للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء.

وهو الآيات من (١ ـ ٧).

الدرس الثاني:

درس تضمَّن عَرْضَ طائفةٍ من الأَحْدَاثِ المستقبلِيَّةِ الّتي جَعَلَها اللّه عزّ وجلَّ في تَسَلْسُل أَحْداثِ الكَوْنِ، مُقَدمات وعلامات لسَاعة إِنْهاء ظروف الحياة الدنيا، فاشْتَمل على بيانِ طَمْسِ النُّجُوم، وفَرْجِ السّماء، ونَسْف الجبال، وتأْقيت الرُّسل.

وهو الآيات من (٨ ـ ١٥).

الدرس الثالث:

درسٌ تضَمَّنَ الاستدلاَلَ على قانون الجزاء الرَّبَّانيّ، والْقُدْرَةِ على الْبَعْثِ، بعَرْضِ ظَواهِرَ كونيّةٍ مَعْلُومَةٍ من أَحْدَاثِ تاريخ الأُمَمِ الغَابِرَةِ ذَاتِ

الآثار الباقية، وظواهر كونيّةٍ مَشْهُودَةٍ، في مجاري تصاريف اللَّهِ عزّ وجلّ في كونه، فمن الظواهر الكونيّة التاريخيَّةِ الغابرة إهْلاَكُ اللَّهِ المكَذِّبين المجرمين الأوّلين، وإهلاكه أمثالَهُمْ ما تَوالَتِ الْقُرون. ومِنَ الظواهر الكونيّة المشهودة، أطوار خَلْقِ الإنسان، وتَصَاريفُ اللّه عزّ وجَلّ في الأرض أَحْيَاءً وأمْوَاتاً، وإقامة الجبال الراسيات الشامخات، وإنعامُ اللَّه على عباده بالماء العذب الفرات.

وهو الآيات من (١٦ ـ ٢٨).

الدرس الرابع:

درسٌ تضمَّنَ عَرْضَ مَشْهَدٍ مُقْتَطعٍ ممَّا سَوفَ يَكُونُ في يَوْمِ الجزاء للمكذبين بيوم الدّين الكَفَرَةِ المجرمين، ومشهد آخر مقتطع ممّا سوف يكون لأهل دار النعيم متقين، وأبرارٍ، ومُحْسِنين.

وهو الآيات من (٢٩ ـ ٤٥).

الدرس الخامس:

درسٌ اشتمل على خطاب من الرَّبّ جلّ جلالُهُ وعظُم سلطانه، موجّه للكافرين المكذّبين، فيه وعِيدٌ بعذابٍ شديدٍ يومَ الدّين، بَعْدَ رِحْلَةِ حَيَاةٍ في الدُّنيا يُمَكَّنُونَ فيها من أنْ يأكُلُوا ويَتَمَتَّعُوا بما فيها من أنواعِ متاعٍ قليلٍ زائل، وفيه مُوَاجَهَةٌ لَهُمْ بأَنَّهُمْ مُجْرِمون، فهم داخِلُون في وعيد: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

وهو الآيتان: (٤٦ ـ ٤٧).

الدرس السادس:

درسٌ تَضَمَّن إشارةً إلى ما في نُفُوس المكذبين المجرمين من كِبْرٍ يَجْعَلُهُمْ لا يَرْكَعُونَ لربّهِمْ فَضْلاً عَنْ أَنْ يَسْجُدُوا، وهذا أَحَدُ البواعثِ الكُبْرَىٰ على الكُفر.

وهو الآيتان: (٤٨ ـ ٤٩).

الدرس السابع:

دَرْسٌ من آيَةٍ واحدة يختم اللَّهُ عزّ وجلّ بها السُّورَة، مبيّناً فيها، أنَّهُ لا تُوجَدُ وسيلة بيانيَّةٌ قوليَّةٌ تعالجُ ما في أفكار ونفوس الكفرة المجرمين المكذبين معالجةً أكْثَرَ ممَّا اشتملت عليه هذه السورة، وما نَزَلَ قبلها في نجوم التنزيل، فإذا لم يُؤمِنُوا بهٰذا البيان القوليِّ الكافي لمَنْ لديه استعداد ما للاستجابة للحق: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾؟؟

أي: لا يُوجد حديث بعْدَ هذا الحديث يجعل هؤلاء يؤمنون إذا لم يؤمِنُوا بهذا الحديث.

(٥)
القسَمُ في سوابق نجوم التنزيل لتأكيد قُدوم يوم الدين

جاء في سوابق نجوم التنزيل تأكيدُ قُدُوم يوم الدين، يوم الحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، بالْقَسَمِ الرَّبّاني بآيات اللّه في كونه الّتي هي ظواهر لقدرته وحكمته وعلمه المحيط بكلّ شيء، وظواهر لرُبُوبيَّتِهِ في كونه الّتي لا يُشَارِكه فيها أحَدٌ، ثماني مرَّاتٍ في ثمانية نصوص، وما جاء في سورة (المرسلات) هو الْقَسَم التاسع:

النصّ الأول:

ما جاء في سورة (اللّيل/ ٩٢ مصحف/ ٩ نزول) فقد أَقسم اللّه عزّ وجل فيها باللّيل إذا يغشى، وبالنهار إذَا تَجلّىٰ، وبخَلْقِه الذكر والأنْثىٰ، فقال تعالى فيها:

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ ...﴾ وحتى الآية (١١).

النصّ الثاني:

ما جاء في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول) فقَدْ أقْسَم اللّه عزّ وجلّ فيها بأزمِنَةٍ جرَتْ فيها أحداث إهلاكه عاداً وثمود وفرعون وجنوده، باعتبار ما جرى فيها من آيات اللّهِ الجزائية في كونه، فقال تعالى فيها:

﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ ...﴾ وحتى الآية (١٤).

النصّ الثالث:

ما جاء في سورة (العصر/ ١٠٣ مصحف/ ١٣ نزول) فقد أقْسَم اللّهُ عزَّ وجلّ فيها بالزَّمَنِ (العصر) الذي هو آيَةٌ من آياتِ اللّهِ في كونه، وهي آية مشهودة، على أنَّ الإنسان لَفِي خُسْرٍ دائم من رأس ماله في حياته، إلاَّ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ وتواصَوْا بالحقّ وتواصَوْا بالصَّبْر، ولا يكون في خُسْرٍ ما لم يكُنْ يوْمُ الدِّين أحَدَ عَناصر خُطَّةِ الرَّبّ جلّ جلالُهُ في برنامج التكوين، وهو ما تَقْضِي به حِكْمَتُه سُبْحانه.

النصّ الرابع:

ما جاء في سورة (العاديات/ ١٠٠ مصحف/ ١٤ نزول) فقد أقسم اللّه عزّ وجلّ فيها بالخيل، وهي إحدى آياته المشهودة في خلقه، على أنَّ الإنسان لكنودٌ جَحُودٌ، غيْرُ عابئٍ بما في خُطَّةِ اللّه من أحداث يوم الدين، إذا بُعْثِرَ مَا في القبور، وحُصِّلَ ما في الصدور.

النصّ الخامس:

ما جاء في سورة (الشّمس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول) فقد أقسم اللّه عزّ وجلّ فيها بطائفة من آيَاته في كَوْنه على أنَّ الجزاء الرَّبَّانيَّ واقِعٌ لا محالَة، وهذا إنّما يكون يوم الدّين، فقال تعالى فيها:

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

الفلاح والخيبة إنَّما يكونَانِ يَوْم الدِّين.

النصّ السادس:

ما جاء في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول) فَقَدْ أَقْسَمَ اللَّهُ عزّ وجلّ فيها بالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوج، وهي إحدى آيات اللَّهِ المشهودة في كونه، وأقْسَمَ بالقرآن الشّاهد وبالرَّسُول المشهود لَه، وأَقْسَمَ ضِمْنَ ذَلِكَ بالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وهُوَ يَوْمُ الدِّينِ، إشَارةً إِلَىٰ أَنَّهُ هو المقْصُودُ بتَأْكِيدِ وُقُوعِهِ بالْقَسَم ببَعْضِ آياتِهِ المشهُودة، مع بَيَان أنَّه ممَّا يُقْسَمُ به إذْ هُوَ ممَّا يَدُلُّ عليه الدليل العقلي المستند إلى حكمة اللَّهِ السَّامِيَة، وأَنَّهُ لا يمكن أنْ يَخْلُق الناسَ عبثاً.

النصّ السابع:

ما جاء في سورة (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول) فقد أقْسَمَ اللّه عزّ وجلّ فيها بمهابط الوحي، لما في الرسالات الرّبّانيّة من آياتِ إعجاز عظيمة، وهي آيات مشهودة الآثار، في عظمة الدين الّذي يمثّلُهُ الإسلام، والذي بعَثَ اللَّهُ به خاتم أنبيائه ورُسُلِه محمد بن عبد اللَّهِ، عليه أفضل الصلاة وأتَمُّ التَّسْلِيم.

النصّ الثامن:

ما جاء في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) فقد جاء فيها الْقَسَمُ الْمَنفِيُّ بِيَوْمِ القيامة وبالنَّفْسِ اللَّوَّامة على أنّ يَوْم الدين واقع لا محالة، وقد ظهر لنا أنَّ الْقَسَمَ المنفِيَّ قَدْ رُوعي فيه اقتضاءانِ أَحَدُهُما يقتضي الْقَسَم بالقيامة وبالنفس اللّوَّامة، والآخر يقتضي عَدَم الْقَسَم بهما،

لأنَّ مَنْ يُوَجَّهُ له الْقَسَمُ لا يَسْتَفِيدُ من الْقَسَمِ تأكيداً، إذْ ما يُقْسَمُ لَهُ به هو ما يُنْكِرُه.

وقد سبَقَ شرح هذا لدَىٰ تَدَبُّرِ سُورَةِ (القيامة).

النصّ التاسع:

ما جاء في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) التي سنشرع إن شاء الله بتدبُّر آياتها، فقد جاء فيها الْقَسَمُ بآيَةِ الرِّياح إحْدَىٰ آيات اللَّه العظمىٰ في كَوْنه، على أَنَّ يَوْمَ الدِّينِ واقِعٌ مُسْتَقْبلًا لا محالة.



(٦)
التدبُّر التحليلي للدرس الأول من دروس السورة

الآيات من (١ ـ ٧)

قال اللَّه عزّ وجلّ:

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾.

قُرِئ: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾. وقُرِئَ [عُذُراً أَوْ نُذُراً] كما سبق بيانه في حاشية نصّ السُّورة، والقراءتان وجهان لنُطْقِ الكلمتين عند العرب.

تمهيد:

هٰذا الدّرس اشتمل على قَسَم بآيَةٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ في كونه هِيَ آيَة الرّياح ذاتِ القوّة الكونيّةِ الْعُظمىٰ، وتَصْرِيفها بالنَّفْعِ العظيم لسُكَّانِ الأرض، وبالعقاب والعذاب الأليم للمجرمين من الناس، أو بالتخويف والإِنْذار.

أمّا المقْسَمُ عليه لتأكيد وقوعه، فهو ما تضمَّنَهُ قول اللَّهِ عزّ وجل:

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾:

وما وَعَدَنا اللّٰهُ عزّ وجلّ إيَّاهُ هو القيامة والبعث للحياة الأخرى، والحسابُ وفَصْلُ القضاء، وتحقيق الجزاء، بالنّعيم المقيم في جنَّةِ الخلْد بفضل اللّه وواسع رحمته، أو بالعذاب الأليم لمستحقيه في دار العذاب النار، الّتي أعدّها اللّٰهُ بحكمتِه للكافِرين والعاصين.

التدبُّر:

● قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾ الواو هي واو الْقَسَم [الْمُرْسَلات] وصْفٌ لمَوْصُوف محذوفٍ قامَ مقامه، وأظْهَرُ أقوال أهل التأويل فيما أرىٰ أنّ الموصُوفَ المحذوف هنا هي الرّياح، فقد تتبّعْتُ باستقراء تامٍّ ما جاء في القرآن عن الرِّيَاحِ فرأيْتُها خَمْسةً وعشرين نَصّاً، وتأمّلْتُ في صفاتها فظهر لي أنَّ اللَّهَ عزّ وجل يُقْسِمُ بها في الآيات السّتّ الّتي افتتح بها سورة (المرسلات) فذكر فيها أرْبَع صِفاتٍ للرّياح، دالاّتٍ علىٰ أنّ الرّياحَ من آياتِ اللَّهِ الْعُظْمَىٰ في كَوْنِهِ، وأنَّ لها وظَائفَ سَببيَّةٍ في الكَوْنِ تُؤَدِّيها، بَعْضُهَا من النِّعَم، وبَعْضُهَا من المصائب، وبَعْضُها يأتي بِالثّواب للمتقين والأبرار والمحسنين، وبَعْضُهَا يأتي بالعقاب للعصاة والمجرمين والكَفَرَةِ الْفُجّار.

وهي في كُلّ ذَلِكَ تَكْشِفُ عن حكمة اللَّهِ في مقاديره، فإمَّا أَنْ تَدُلَّ على الْعُذْرِ في الابتلاء أو الجزاء، وإمَّا أَنْ تكُونَ مُنْذِرَةً لمستحقِّي الْعِقَابِ المعجّلِ بأنَّ اللَّهَ لَهُمْ بالْمِرْصاد، ومن وسائله الظاهِرةِ لإهلاك المجْرِمين الرّياح.

والرِّياحُ أَصْنافٌ مُتَعَدِّدَة، ولكلّ صِنفٍ مِنْهَا صِفَاتٌ وخَصَائِصُ ووظائف في مُجْرَيَاتِ أحداث الكون.

● فمنها الْمُرسَلاَتُ تِباعاً بيُسْرٍ وسُهُولَةٍ إرْسالاً عُرْفاً.

● ومنها الْعَاصِفَاتُ اللّواتي تَعْصِفُ عَصْفاً شديداً فَتَحْمِلُ ما على وجه الأرْضِ من عَصْفِ (وهو النّبَاتُ اليابس).

● ومنها النَّاشِراتُ اللاتي تَنْشُر بخار الماء، وتَنْشُر نويات اللِّقاح وغُبارَ الطَّلْع، وبزور النَّبَاتات، والروائح، والغازات، وغير ذلك.

● ومِنْها الفارقات اللاّتي تُفَرِّقُ بينَ الأشياء الّتي تَحْمِلُها عَقِبَ نَشْرِها، فتوزّعُها بحَسَب مقتضيَاتِ حكمة اللّه عزّ وجلّ.

فمعنى ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾ أُقْسِمُ بنَوْع الرِّيَاحِ الْمُرْسَلاَتِ تِبَاعًا بِيُسْرِ وسُهُولَةِ إِرْسَالاً عُرْفاً، أي: معروفا من أمْرِها غير منكر، إذْ تكون مُبَشِّرات برحمة الله، ولِهذا فهي رياحٌ يُسْتَأْنَسُ بها إذَا قَدِمَتْ، ويُسْتَبْشَرُ بالْخَيْرِ الذي قد تأتي به، فقد تكونُ مُبَشِّرَاتٍ بمطَرٍ يُحْيِي الأرْضَ الظَّمأىٰ بعْدَ مَوْتها. وقَدْ تكونُ أَنسَاماً مُنعِشَةً طيّبَةً، وقد تَحْمِلُ أنواعاً من اللّقاح للزّروع والثّمار، إلى غير ذلِكَ من آثار رحمة اللّه جلَّ جلاله.

هذه الرِّيَاحُ تَسْتَحِقُّ أَنْ يُقْسِمَ الرَّبُّ بها، لأنّها إحدى آياتِه في كونه، وإِحْدَى آثارِ رحمَتِهِ بعبادِه.

الإرسال: هُو التوجيه لأداء مَقْصُودٍ مَا بتُؤَدَةٍ وتَرَفُّقٍ وأَنَاة، ولتحقيق أمْرٍ حكيم، ففي الإرسال معنى الحركة اللّيِّنةِ المتابعة.

والْمُرْسَلُ: هو الذي يقوم بما وُجّه له بأناةٍ وحِكْمَةٍ، ويُؤَدّي وظيفته بتتابع، أخذاً من قول العرب: جاءت الإبلُ رَسَلاً، أي: متتابعة، قطيعاً بَعْدَ قطيع. **المرسَلاَت**: جمع «مُرْسَلَةٍ» مؤنث «مُرْسل».

عُرْفاً: الْعُرْفُ المروف ضدّ المنكر، وما تعارف الناس عليه في عاداتهم ومعاملاتهم. والجودُ وبَذْلُ النِّعْمة. ويقال: جاء الْقَوْمُ عُرْفاً، أي: بعضهم وَرَاءَ بَعْض.

وعُرْفُ الْفَرَس: شَعَرُ عُنقه، وهو يكون مصفوفاً بالتَّتابع.

والمناسب من هٰذهِ المعاني هنا: معنى الجود والإنعام، ومعنَىٰ التتابع.

أي: والرِّياحِ الْمُرْسَلاَتِ بتَتَابُعِ إرْسالَ إنْعَامٍ ورحمة.

وهي الرِّياح المبشِّراتُ برحمةِ اللّه لعبادِهِ، بمطَرٍ وغَيْرِه من فيوض عطاءاته الّتي لا يَسْتَطِيع الْعِبَادُ إحْصَاءَها، وتأتي بالنفع الرَّبَّاني، والبشريات الطيّبات.

ولفظ «عُرْفاً» منصوبٌ على أنه حَال، أي: والمرسلات متتابعةً.

● قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ۝٢﴾: أي: فأُقسم بالرّياح العاصفات عَصْفاً شديداً.

الْعَاصِفات: هيَ التي تَحْمِلُ ما على وجْهِ الأرض من عَصْفٍ لشِدَّتها.

يقال لغةً: عصَفَتِ الرِّيحُ تَعْصِفُ عَصْفاً، أي: اشْتَدَّ هبُوبُها، فهي عاصِفٌ، وعاصِفَة، تذكّر وتُؤنث.

الْعَصْفُ: النَّباتُ الْيَابس. وحُطَام التِّبنِ وَدُقَاقُه. وَورَقُ الزَّرْع. والْوَرَقُ الذي يَتَفَتَّحُ عن الثَّمر.

هذه الرياح العاصفات تَحْمِلُ ما على وجْهِ الأرض من عَصْفٍ، فَتَدُور به، وتتنقَّلُ لتُؤَدِّي وَظائف مختلفة، فمنها ما يَنْفَعُ الناس، ومنها ما يكون لامتحانهم، ومنها ما يكُون لتربيتهم، ومنها ما يكون لجزائِهِم وعقابهم.

والعاصفاتُ الّتي تأتي بالعذاب والهلاك، تكون في العادة والسُّنَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ المتَّبَعَةِ عَقِبَ الْمُرْسَلات.

عصفاً: مَصْدَرٌ لتأكيد الحدث الذي دلَّ عليْه اسم الفاعل: «العاصفات».

● قول اللّه عزّ وجل: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۝٣﴾ أي: وأُقْسِمُ بنوع الرّياح النَّاشراتِ.

النَّشْرُ: الْبَسْطُ والْمَدُّ وتوسِيعُ وُجُودِ الشَّيْءِ أو أَجْزَائِه في أماكن متعَدِّدَةٍ بحسَبِ قُوَّةِ النَّشر والمدَى الّذِي يصِلُ إليه.

والرّياح الناشرات: هي الّتي تَنشُر بخار الماء وتُكوّن منه السُّحَب، وتَنشُرُ نَوَيَاتِ اللِّقاح وغُبارَ الطَّلْع فيكُونُ بنَشْرِها تَلقيحُ الثمَرَات الّتي يتطَلَّبُ نُضْجُهَا للانتفاع بها لِقاحاً، وتَنْشُرُ بُزُور النباتات لتحقيق منَافع للأحياء في مواضِعَ مُخْتَلِفة من الأرض، وتَنْشُر الرَّوائح، وتنشُر الغازات.

وبأدائها هذه الوظيفة الّتِي جعلها اللّه لها تجتمع بحكمة اللّهِ متباعدات فيحْصُل باجتماعها خَيْرٌ للعِباد، وتَتَفَرّقُ بحكْمَةِ اللّهِ مُجْتَمِعَاتٌ، فيَحْصُل بتَفَرُّقِها خَيْرٌ للعباد، ولولا نَشْرُ الرِّياح بقَضَاءِ اللّهِ وقَدَرِهِ لقَتَلَتْ بَعْضُ الرَّوائِحِ، والغازاتُ الضّارّات السَّامَّاتُ الأَحْياءَ الْمَوْجُودِين في أمكِنَةِ تَجَمُّعِهَا.

نَشراً: مفعول مطلق لتأكيد الحدث الذي دلّ عليه اسم الفاعل: «الناشرات» وللدلالة على قيمة وظيفتها.

● قول اللّه عزّ وجل: ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤﴾ أي: فَأُقْسِمُ بالرِّياح الْفَارِقاتِ بين الأشياء الّتي تَحْمِلُها عَقِبَ نَشْرِها، فَتُوزِّعُها بحَسَبِ مُقْتَضَيَاتِ حِكْمَةِ الرَّبِّ مُوَجِّهِهَا ومُسَيِّرِها.

يُقَالُ لغة: فَرَقَ بَيْنَ الشيئَيْن يَفْرُقُ فَرْقاً وفُرْقَاناً، أي: فَصَل ومَيَّزَ أَحَدَهُما من الآخر. وفَرَقَ الشَّيْءَ، أَيْ: قَسَمَه.

فالرّياحُ الْفَارِقَات: هي التي تَفْصِل الأشياء الّتي تَحْمِلها، وتُمَيّزُ كلَّ نوعٍ وصِنْفٍ منها، وتُوزّعُه بحسَبِ مقتضيات حِكْمَةِ الرَّب جلَّ جلاله. فهذا لِلّقَاح، وهذا للاتّحاد مع غيره، وهذا لتَغْذية النَّبَات، وهذا للزَّرْعِ، وهذا للرِّزْقِ، وهذا لرَمْيِهِ في الْقُمَامَاتِ، وهذا، وهذا، وهذا، إلى أُمُور كثيرة يتعذَّرُ عَلَيْنَا إِحْصَاؤها.

ومن اللّقاح النويَات الّتي تَصِل إلى أمكنتها في السَّحَاب ليجتمع عليها البخار ويتكاثف وتكوّن قطرات ماء، وهذا من الفرق بعد النشر.

فَرْقاً: مصدَرٌ لتأكيد الحدَثِ الذي دلَّ عليه اسْمُ الفاعل «الفارقات» وللدلالة على قيمة وظيفتها.

● قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾:

أي: فأُقْسِمُ بالرِّياح ذوات الصّفاتِ المختلفات، الَّتي تُلْقِي في أفكار ونُفُوسِ أولي العقول والألباب، ذِكْراً باللّه، وبصفاته الجليلَة، وبأسمائه الحسْنَىٰ.

ومن صفاته جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُهُ، رَحْمَتُهُ بعباده، وفَضْلُهُ العظيم على مَنْ آمَنَ وأطاعَ، وَعَدْلُهُ الحكيم في عقاب منْ كَفَرَ وعصَىٰ.

فاللَّهُ عزَّ وَجَلَّ بتَصَارِيفِ رحَمْتِهِ وعطاءاتِهِ، وما يُفيضُ على عباده من صنوف نِعَمِهِ عَلَيْهِم، يُذَكِّرُ بفَضْلِه.

وهو عزَّ وجَلَّ بتَصَارِيفِ عُقُوباتِه للمجرمينَ والْعُصَاةِ من عبادِه، يُذَكّر بعَدْلِهِ.

وهو عزّ وجلّ ببيَاناتِهِ عن تصاريفه المتنوّعَةِ في الرِّيَاحِ، يُلْقِي الْعُذْرَ قَبْلَ تَنْفِيذِ الْعِقَاب فيمَنْ يسْتَحِقُّونه، ويَقْطَعُ بذلك اعتذارَاتهم، إذْ لا يكُونُ لهم عُذْرٌ بِهِ يَعْتَذِرُونَ.

وهو عزّ وجلّ بما أجرى من عقابِ بالرّيح المدمِّرة للأُمَم المجْرِمَةِ السابقة، يُنْذِرُ بأنَّه سَيُجْري نظير عقوباته السابقاتِ، على الْمُجْرِمين المعاصِرين لتنزيل القرآن، أوِ الّذِين يَصِلُون إلى مِثْلِ ما وصَلَ إليه المجرمُون السّابقون الذين أهلكهم اللّهُ بالرّيح الْمُدَمِّرَة، ما توالَتِ القرون حتَّىٰ قيام السَّاعة.

﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ﴾: أَلْقَىٰ الشَّيْءَ، أي: طَرَحه لمن يأخُذُهُ، ويَنْتَفِعُ به. وكُلُّ آيَاتِ اللَّه في كوْنه تُلْقِي علماً لمن يَتَعَلَّم، وتُلْقِي ذِكْراً بَعْدَ ذلك لِمَنْ يتذَكَّر.

فإذا أَلْقَتْ آيَاتُ اللَّهِ الكونيَّة عِلْماً في أَوَّلِ ما يُشَاهِدُها المشاهِدُ من أُولي الألْبَابِ، الّذِين يتفَكَّرُونَ فيما تَدُلُّ عَلَيه، كانَ من وظائِفِها أنْ تُلْقِي بَعْدَ ذلِكَ ذِكْراً في فِكْرِهِ وَنفْسِه، كُلَّمَا شَاهَدَهَا، أو سَمِعَ بخبر حُدُوثها.

وما دَامَتْ آيَاتُ اللَّهِ في كوْنِه دَائمةَ الظُّهُور أَوْ مُتكَرّرةَ الحدُوث، فَإِنَّها تُلْقِي في نَفْسِ كلِّ مُدْرِكٍ لَهَا عِلْماً ابتداءً، وتُلْقِي بَعْدَ ذَلِكَ ذِكْراً دَوَاماً أو متكَرّراً.

﴿ذِكْرًا﴾: أي: تَذْكيراً. **الذِّكْرُ**: هو اسْتِحْضارُ معنَىٰ الشَّيْءِ في الذَّاكِرَة. وهو ضدُّ النّسيان. **والذُّكْرُ**: استعادة الشَّيْءِ إلى الذاكرةِ حيناً فحيناً.

ويطْلَقُ الذِّكْرُ على ترديد لفْظِ الشَّيْء على اللّسان، لأنَّه من وسائل التَّذكُّرِ الفكرِيّ له. والتَّذكُّرُ الفكْرِيُّ يسْتَدْعي أيضاً تَرْدِيدَ اللَّفْظ الدَّالّ علَيْه باللِّسَان.

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾:

الْعُذْرُ: الحجَّةُ الّتي يُعْتَذَرُ بها، والجمْعُ «أعْذار»، وهو مصْدَرُ عذَرَهُ يَعْذِرُه، أي: قبل حجَّتَهُ فرَفَعَ عنْهُ اللَّوْم.

ويأتي اسم مَصْدرِ أَعْذَرَ إعْذَاراً، أي: أَبْدَىٰ عُذْراً، وفي المثل العربي: «أعْذَرَ مَنْ أَنْذَر» أي: قدّم الاعتذار الذي يُعْذَرُ به، وصارَ ذا عُذْرٍ، مَنْ قَدَّم إنْذَارَهُ.

ومن الجلِيّ الواضح لكلّ ذي فكر سليم، أنَّ آياتِ اللَّه في كوْنه، ومنها آيَةُ الرّياح، وآثارُ هذه الآيَةِ، الّتي تَظْهَرُ بنِعَمِ اللَّهِ على عباده، أو ابْتِلَاءَاتِه وتَرْبِيَاتِهِ وَجزَاءَاتِه بالثواب أو بالعقاب، هي حُجَجٌ من اللَّهِ جلَّ

جلالُهُ وعظُمَ سُلطانُهُ، يُلْقِيهَا لِمَنْ يَتَفَكَّرُ فيها من عباده، فيَعْلَمُ ما تَدُلُّ عليه، ثُمَّ يَتَذَكَّرُ ذلِكَ حيناً فحيناً، أو كُلَّما شَهِدَها أو سَمِع بخبرها.

وبها يُقدّم اللَّهُ عزّ وجلّ العذر في أنّه أبان في آياته لعباده آيات صفاته، ومنها رحْمَتُه، وقُدْرتُه، وعِلْمُهُ المحيط بكلّ شيءٍ، وحِكْمَتُه في تَصاريفه، بالْفَضْل أو بالْعَدْل.

فإذا أَنزَل بهم عقابه بَعْدَ ذلِكَ على كُفرِهم وعصيانهم، فَلاَ يَلُومُوا إلاّ أَنفُسَهُمْ.

النُّذْرُ: اسْمُ مصْدَرٍ: «أَنْذَرَ يُنْذِرُ إِنْذاراً». **الإنْذَارُ**: هو التحذير والتَّخويف بمَكْرُوهٍ قادمٍ للتوقي منْهُ.

وجليٌّ أَنَّ آيَة الرِّياح تَشْتَمل في بعض تَصارِيفِها العاصِفَةِ، والْقَاصِفَةِ، والمدَمِّرَة، والْمُهلِكَة لِمُجْرِمينَ مِنْ أَهْل القرون الأولى، على إِنْذَارٍ من اللَّهِ جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانُه، بعقابه وعذابه للمجرمين من عباده، ضِمْنَ سُنَنِهِ في كونِه، الّتي لاَ تَبْدِيلَ لَها، ولا تَعْدِيلَ فيها.

عُذْراً أو نُذْراً: بَدَلاَنِ من «ذِكْراً». أو منصوبان على الحال من «الْمُلْقِيات».

● قول اللَّهِ عزّ وجل: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾:

هذا هو الْمُقْسَمُ عليه، أي: إنّ الّذي توعَدُونَهُ من بعْثٍ، للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء، في الدار الآخِرة لواقِعٌ في المستقبل حتماً، وهو خَبَرٌ من اللَّه صَادِق.

وَاقع: اسْمُ فَاعل يَدُلُّ على الاستقبال كالفِعْلِ المضارع، أي: لَسَوْفَ يَقَعُ حتماً.

فَمَنْ يُجْرِي في كونه آيَةَ الرِّياح العظيمة الجليلة الخطيرَةِ، ويُعَاقِبُ بها

عِبَادَهُ الْمُجْرِمين، بالإهلاك الشامل في الحياة الدنيا، كَمَا فَعَلَ بمُجْرِمي القرون الأولى، لا يُمْكن عقلاً أنْ يخْبِرَ إلاّ بصِدْق.

فلا تَغُرُّوا أنفسكم أيها المكذِّبُون المجرِمُون بإمْهال اللّه لَكُمْ، وَعَدَمِ تعْجِيلِ عقابه، فإنَّ من سنَّتِه أَنْ يُمْهِل، لكِنَّهُ لاَ يُهْمِلُ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانه.



(٧)
التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة

الآيات من (٨ ـ ١٥)

قال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

- قرأ أبو عَمْرٍو: [وُقِّتَتْ] بالواو وبتشديد القاف.
- وقرأ أبو جَعْفر: [وُقِتَتْ] بالواو وبتخفيف القاف.
- وقرأ باقي القرّاء الْعَشَرةِ: [أُقِّتَتْ] بالهمزة وبتشديد القاف.

وقَتَ، ووَقَّتَ الشَّيْءَ: جَعَلَ لَهُ وَقْتاً، فيُقَال: وَقَّتَ وَوَقَتَ الرَّجُلَ ليُؤَدِّي الْعَمَل المطلوبَ منه، ويقال: وقَّتَ ووَقَتَ الْعَمَلَ لِيُؤَدِيَهُ المكلَّفُ أَنْ يَعْمَله.

ويقال لغة أيضاً: أَقَتَه وأَقَّتَه، وهو من التبادل بين الواو والهمزة في اللغة، يقول علماء العربية: أصل الهمزة هنا الواو، وأبْدِلَت الواو همزةً،

لأنَّ الواو إذا كانت أوَّلَ حَرْفٍ وضُمَّتْ، جاء في اللُّغة إبدالُها همزة، ومنه: وجُوه وأَجُوه، ووُقّت وأُقِت.

والمعنَىٰ في الكُلِّ يَرْجِعُ إلى تحديد الوقْتِ بمُبَالَغَةٍ ودِقَّةٍ بحسب دلالة الفعل المشَدَّد، وبِسَعَةٍ بحسب دَلالة الفعل المخفَّفِ، فيكُونُ بَيْنَ وُقِتَ، وَوُقِّتَ تكاملٌ في الدَّلالَةِ على المعنى المراد، فمِمَّا يُحَدَّدُ وقْتُهُ لا يُجْعَلُ له في الوقت سَعَةٌ، ومنه ما يُحَدَّدُ لَهُ وقْتٌ مُوسّع، كالتَّوسيع في الوقت لأداء الصلوات المفروضة.

تمهيد:

أبان اللَّه عزّ وجلّ في هذا الدرس من الأحداث المستقبليّة الّتي سوف تحدث قبْل يوم القيامة، يوم الدين، الذي تُبْعثُ فيه الخلائق للحساب وفَصْلِ القضاء وتحقِيق الجزاء، أربعة أحداثٍ عظْمَىٰ، ثلاثة منها كونِيَّة، والحدث الرابع منها تكليفيٌّ للرسُل من عباد الله.

الحدث الأوّل: طَمْسُ النجوم.

الحدث الثاني: فَرْجُ السَّمَاء، بإحداثِ انفتاحٍ وانْشِقَاقٍ ما فيها.

الحدث الثالث: نَسْفُ جبال الأرض.

الحدث الرابع: تأْقِيتُ الرُّسل، وهو حدَثٌ تكليفِيٌّ يُوجَّه للرسُل من الملائكة، وقَدْ يكون من غيرهم أيضاً، للقيام بالوظائف الَّتي يكلّفُونَ القيام بها يَوْمَ الدين، وهو يوم فَصْلِ أقضية اللّه بَيْنَ الذين كانوا ممتحنين مُكَلَّفين في رحلة الحياة الدنيا.

● قولُ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۝٨﴾:

﴿طُمِسَتۡ﴾: أي: ذَهَبَ ضوْؤُها ومُحِي، أو انْدَرَسَتْ وذهب كُلُّ أثر لها.

الطَّمْسُ في اللُّغَة: هو الدُّرُوسُ وذهابُ كلِّ أثرٍ للشَّيْء.

فإذا أَرَدْنَا أن نَجْمَع جمعاً تكامليًا بين هذا النَّصّ الذي جاء في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) وبين النَّصّ الآخر الذي جاء في سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول) وهو قول اللَّهِ عزّ وجلّ فيها:

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾.

ظهر لنا ما سبق بيانه لدى تدبُّر سورة (التكوير)، وهو: أنّ الانكدار يأتي بمعنىٰ الإسراع المتوسط في الْعَدْو، ويأتي بمعنى الانقضاض، ومنه انكدارُ الطير الكاسر إذْ ينقضُّ على فريسته، ويأتي بمعنَىٰ الكُدْرَةِ، وهو اللَّوْنُ الضَّارِبُ إلى السَّواد والْغُبْرَة.

ومن جَمْعِ هذه المعاني مع ما دَلَّ عليه الطَّمْسُ، نُدْرِكُ أَنَّ النجوم في الأحداث المستقبليّة الّتي تكون قَبْلَ يَوْمِ الدين، تَمُرُّ في مراحل.

- فهي تنفَلِتُ من نظام جاذبياتها، وتخْرُج عن مداراتها وطُرُق سيرها.

- وبَعْدَ ذَلِكَ تُسْرِعُ كالطّائرِ المنقضّ على فريسته، وتتناثر في الجهات على خلاف مواقعها ومسيراتها الّتي كانت لها في نظام ظروف الحياة الدنيا.

- وأثناء ذلِكَ تَخْفِتُ أضواؤها وتغشاها كُدْرَة.

- وبَعْدَ كُلّ ذَلِكَ تنطَمِسُ انطِمَاساً كُلّيّاً وتَنْدَرِسُ، ويذْهَبُ كُلُّ أثَرٍ لها، وقد يكون انطماسها بسَبَبِ انفِجاراتٍ تَحْدُثُ فيها، فتتناثر شظايا في السّماء الواسعة، ويُمْحَىٰ كُلُّ أَثَرٍ لها يُرَىٰ بالأبْصار، وتصير السَّماءُ في ظُلْمَةٍ تَامَّة، لا أثَرَ فيها لأضواءِ أو أنوار النجوم.

وهذه الظاهرة قَدْ تَحْدُثُ أحْيَاناً لبَعْضِ النجوم في هذا النّظام الأوّل

الذي نحيا فيه الحياة الدُّنيا، دليلاً على ما سَوْفَ يَحْدُثُ لسائر النجوم، عند إنْهاءِ برنامج الْيَوْم الأوّل، ثم البدْء ببرنامج اليوْم الآخِر.

● قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩﴾.

﴿فُرِجَتْ﴾: أي: فُصِمَ مَا فيها من الْتحام في نِظامها الشّامل، فَجُعِلَ فِيها مَنَافِذُ مُنفَرِجة، ويَكُونُ هٰذا بتغيير نظام التَّماسُك والترابُطِ بَيْنَ عناصِرها الملْتَحمَةِ، وقد يكون هذا بفَكِّ الجاذبيات بيْنَ أجرامها.

تقول لُغةً: فَرَجَ فُلاَنٌ بين الشَّيْئَين المتلاصقَيْن يَفْرِجُ فَرْجاً، أي: أحْدَثَ بينهما شقّاً، ففَصَلَهُما به.

أمّا السَّماءُ في نِظَام هذا اليوم الأَوّل قَبْلَ إنْهائه، فهي مَبْنِيَّةٌ بناءً مُتَمَاسِكاً لا فُرُوجَ فيه ولاَ شُقُوق، وليْسَ معنَىٰ هذا أَنّها مُتَلاصِقَةُ الأَجْرام، فبِناءُ كُلِّ شيءٍ يكون بحَسَبِ نِظَامِهِ، إنَّ نظامَ بناء بيْتِ أَهْلِ البادية من الخيام، غَيْرُ بناء أهل الحضر من لَبِنٍ وحِجَارة وطين، وغَيْرُ بناء الخليَّةِ في الجسم.

قال اللَّهُ عزّ وجَلَّ يَصِفُ السَّمَاءَ القائمة في هذا الْيَوم الأَوّل بقوله تعالى في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾.

أي: فهي الآن مبنيَّةٌ بنظام متماسِكٍ، لا شقُوقَ فيه يَحْدُثُ عَنْها خَلَلٌ في تَمَاسُكِ أجْرَامِهَا، وقَدْ يكونُ هذا بالجاذبيّاتِ فيما بينها، واللَّهُ أعلم.

ما جاء في القرآن المجيد عن الأحداث المستقبليَّة في السّماء:

لقد جاء في القرآن المجيد بيانٌ لَمْحِيٌّ موجزٌ عن أحداث مستقبليَّةٍ تحدُثُ في السَّماء، أَستَعْرِضُها بحسَبِ تَرْتيب نُزُول سُورها:

النصّ الأول:

قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول):

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾:

﴿كُشِطَتْ﴾: أي: نُزِعَتْ كَمَا يُنْزَعُ الْجِلْدُ حينَ تُسلَخُ الذبيحة.

الكشطُ في اللّغة: يأتي بمعنى إزالة نَحْوِ الْجِلْد عن اللّحم ونزعِهِ عنه.

ويأتي بمعنى نزع كُلّ ظاهِرٍ متماسكٍ نوع تماسُكٍ بباطن، وبمعنى رفْع شيءٍ عن شيءٍ قَدْ غطَّاهُ وغَشِيَه، ومنه كَشْط جُلّ الفرس عن جسْمه. **الكشْطُ والْقَشْط:** بمعنى واحد.

الْجَلُّ والْجُلّ: مَا تُغَطّىٰ به الدابة لتُصَان.

النصّ الثاني:

قول اللّه عزّ وجل في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) الّتي نتدبّر دروسها وآياتها:

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾﴾:

وقد سبَقَ آنفاً بيان معناها، بحَسَب مفهوم «فُرِجَتْ» في اللّغة.

النّص الثالث:

قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (الحاقّة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

أي: تَنْشَقُّ انشقاقاً مَا تكونُ بِهِ واهيةً، أي: تكون به ضعيفة التَّماسُك، ضعيفَةَ الْقُدْرَةِ على الحمْلِ بسبب الانشقاق الذي يَحْصُل فيها.

النَّصُّ الرابع:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الانفطار/ ٨٢ مصحف/ ٨٢ نزول):

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢﴾.

الانْفِطَارُ والتَّفطُّرُ هو أوّل الانشقاقِ في ظاهر الشيء، وقد جاء في الحديث أنّ الرسول ﷺ قام من اللّيْلِ يُصَلِّي حتَّىٰ تفطّرتْ قَدَمَاه، أي: تشقَّقَتا.

ويقال: تفطَّرَتِ الأرضُ عن النَّبَات، أي: تشقَّقَتْ، فَهُو تشقُّقٌ ابتدائيٌّ يحْصُل للشيء.

النصّ الخامس:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الانشقاق/ ٨٤ مصحف/ ٨٣ نزول):

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢﴾:

وقد جاء بيان هذا الانْشِقاق مقترناً ببيان أنّ السّماءَ قَدْ استَمَعَتْ مطيعةً أمْرَ رَبِّها، وببيان أنّها مَحْقُوقَةٌ بقَضَاءٍ جبريٍّ أنْ تَسْمَعَ وَتُطِيع، ولعَلَّ في هذا إشارةً إلَىٰ آخِرِ أطوار الانشقاق فيها.

النصّ السادس:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الرحمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٨ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ۝٣٩﴾.

أي: إنَّ السَّمَاءَ تنشَقُّ انشقاقاً تكُونُ معَهُ ورْدَةً كالدّهان، أي: حمراء كَلَوْنِ الورْدَةِ الحمراء، ومائِرةً مائجةً صافيةً كالدّهان، جَمْع دُهْن، أو كالأَدِيم الأحْمَر.

هذه الأحداثُ الّتي دلّت علَيْها هٰذهِ النُّصُوص ممّا سوْفَ يحْدُثُ في المستقبل، يُمْكِن أنْ نتصَوّر ترتيبها على الوجه التالي بالنظر إلى ترتيب الأحداث وفق سُنَن اللّه في كَوْنه:

أولاً: يحدُثُ في السَّمَاءِ انفطارٌ أوَّليٌّ غير عميق.

ثانياً: ثم يحدُثُ بعْدَه انفِرَاج ما.

ثالثاً: ثم يحدُثُ فيها نشقاقٌ تضْعُفُ فيه فتكونُ واهية.

رابعاً: ثم يزيد الانشقاقُ حتَّىٰ تكونَ السَّماء كالوردَة الحمراء بانعكاساتِ أشِعَّةٍ خاصَّةٍ عليها، وتكون رَجْرَاجَةً كالدُّهْنِ السَّائل في عَيْنِ النَّاظر إليها.

خامساً: ثُمَّ تَنْشَقُّ انشقاقاً كُلّيّاً تامّاً.

سادساً: ثُمَّ تُكْشَطُ كَمَا يُكْشَطُ جِلْدُ الذّبيحَةِ عنْدَ سَلْخِ جلْدِها عنها.

واللَّهُ أعلم.

وهل هٰذه الأحداث تكونُ في السماء القريبة المحيطَةِ بالأرْض، وهو ما نُسَمّيه بالْغِلاف الجوّيّ، المؤلف من الغازاتِ التي جعَلَها اللَّهُ عزّ وجلَّ مادّة من موادّ شُروطِ حياة الأحياء على الأرض.

أو هي أحداثٌ تكونُ في السَّماءِ البعيدة الّتي تَسْبَحُ فيها النجوم؟

اللَّهُ أَعْلَمُ بمراده، وقد ينكَشِفُ في المستقبل لعلماء البحث العلميّ في الظاهرات الكونيّة ما يَهْدِي إلى المراد إنْ شاء اللَّهُ ذلك من أمارات ودَلالات كونيّة.

● قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾:

﴿نُسِفَتْ﴾: أي: ذَهَبَتْ بها الرّياح فلَمْ يبْقَ على ظاهر الأرض جبال.

النَّسْفُ في اللغة: اقتلاع الشيْء والذَّهابُ به، يقال لغة: نَسَفَتِ الرِّيحُ الشيْءَ تَنسِفُه نَسْفاً، وانتسفَتْهُ، أي: سَلَبَتْهُ، وَحَمَلَتْهُ، وَذَرَتْهُ.

وهذا الحَدَثُ يكونُ بعْدَ مَرْحلة بَسِّ الجبال، وبَعْدَ جعْلِهَا كَكُثْبَانِ

مَهِيلَةٍ من الرِّمال، إذْ تأتي الرّياح فَتَنْسِفُهَا، وتَسْفِيها، ولا تُبْقِي لها أثراً مُرْتفعاً، وعندئذٍ تكُونُ الجبال قَدْ سُيِّرَت، أيْ: ذُهِبَ بها، وتكُونُ الأرضُ كُلّها عندئذٍ بارزةً سَطْحاً مُسْتَوِياً، لاَ يَرَىٰ فيه الرائي عِوَجاً ولاَ أَمْتاً[1].

وقد سبق لدىٰ تدبُّر سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول) بيانُ المراحل التي تتعَرَّضُ لها الجبال قُبَيْلَ السَّاعَةِ وعند قيامها، أخْذاً من دلالات النصوص القرآنية، وهي إحدى عشرة مرحلة:

(١) مرحلة الدَّكّ.

(٢) مرحلة جعل الجبال ليّنَةً كالعِهْن، أي: كالصوف المصبوغ ألواناً.

(٣) مرحلة جعل الجبال كالْعِهْنِ المنفوش.

(٤) مرحلة بَسّ الجبال، ويكون به تفْتِيتُها إلى أجزاءٍ صغيرة.

(٥) مرحلة جعل الجبال بالبسّ كالكثيب الْمَهِيل، أي كالرمل الذي يتساقط بتدافع من الأعلى إلى الأسفل بأدنى حركة.

(٦) مرحلة سَيْرِ الجبال سيراً غير شديد.

(٧) مرحلة مُرُور الجبال كمَرِّ السَّحاب.

(٨) مرحلة تسيير الجبال بقُوَّة.

(٩) مرحلة نَسْفِ الجبال وتذرِيتها متناثرة.

(١٠) مرحلة تسيير الجبال حتَّى لا يُرَىٰ من آثارها إلاَّ مِثْلُ السَّراب، رُؤيةً بلا حقيقة.

(١١) مرحلةٌ لاَ يَبْقَىٰ فيها من الجبال أَيُّ أَثَرٍ ولا مِثْلُ السّراب.

---

(١) **الأَمْتُ**: الاختلاف في المكان ارتفاعاً وانخفاضاً ورِقَّةً وصَلابةً.

واللّه أعلم كيف يكون ترتيب هذه المراحل.

• قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾؟

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾﴾: أي: وَإِذَا الرُّسُلُ حُدِّدَتْ أوقاتُ قيامها بوظائفها المأمُورَةِ بقِيَامِهَا يَوْمَ الدين، والمعنى أنَّها أُعْلِمَتْ بوظائفها الّتي علَيْها أن تَقُومَ بها يوم الدّين مع إعلامِها بأوقاتِ قيامها بها، فلا أحد يوم الدّين يقومُ بعملٍ ما إلاّ بأمْرِ اللّه أو بإذْنه.

في هذا بَيَانُ أنّ الرُّسُلَ المعنيّين يُعْلَمُونَ في وقْتٍ من الأوقاتِ قبْلَ يوم الدّين، وقد يكون بعْدَ طَمْسِ النجوم، وفَرْج السَّمَاءِ، ونَسْفِ الجبال، بوظائفهم في المواقيت المحدَّدة الّتي يخْبَرُون بها، مؤجَّلَةً إلى يوم الْفَصْل بين الخلائق، وهو يَوْمُ الدّين.

ونَفْهَمُ من معنى: ﴿أُقِّتَتْ﴾ بُيّن لها تَحْدِيدُ أعمالها وأمكنة القيام بها وأوقاتها المؤجلة، للقيام بوظائفها المتعلِّقَة بأحْدَاث يوْم الدين، ضمن التكليف.

أصل التوقيت تحديد الوقت الزماني، ثمّ جرى التوسُّعِ اللُّغوي فيه، فصار يَشْمَلُ تحديد الزّمَانِ والمكانِ والعمل[1].

قول اللّهِ تعالى: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾:

إنَّ التَّوْقِيتَ يَدُلُّ علىٰ تَحْدِيدِ وقْتٍ مُؤَجّلٍ، ولا يَدُلُّ عَلَىٰ القيام

---

(١) من التوقيت المكاني تحديد مواقيت الإحرام بالحجّ والعمرة، فتُسَمّىٰ الأماكن: مواقيت.

ومن التوقيت الخارج عن الزمان والمكان، ما جاء في حديث ابن عباس، قال: «لَمْ يَقِتْ رسُولُ اللّهِ ﷺ في الخمر حدّاً» أي: لم يُحَدِّدْ مقدار عقوبة شرب الخمر بعدَدٍ مخصوص من الجلدات.

بالْعَمَل عنْدَ تَوْجيه الأمْرِ التكليفيّ، وهذا يستَثِيرُ في نَفْسِ المتلَقِّي سُؤالاً، جاء التعبير عنه في النّصّ بقوله تَعَالَىٰ: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾﴾ وهَـٰذا من أساليب البيان البديعة، أن يأتي في النَّصّ ما تَطْلُبُ نُفُوسُ المتَلَقِّين الإجابَةَ علَيْه، فيقوم المتَحدِّث بطَرْحِ السؤال الذي يَدُورُ في نفوس المتلَقِّين، مُسْتَفْهِمين وطالبين الإجابَةَ عليه، وبَعْد طرحه يُجيب عنه.

وَأجَابَ النَّصُّ بقول الله تَعَالىٰ: ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾: أي: لِيَوْم الْفَصْلِ بَيْنَ الْخَلاَئِقِ يَوْمَ الدّين، بأحْكَام اللّٰهِ الجزائيّة عَلَىٰ ما قَدَّمُوا في رِحْلَةِ الحياة الدنيا، رِحلة الامتحان.

واختير هنا من أحداث يوم الدين ذكر «الْفَصْل» وفي نُصُوصٍ أُخْرَىٰ اختير من أحداثه ذكْرُ «الحساب» وفي نُصُوصٍ أُخْرى اختير من أحداثه ذكر «الجزاء» على منهج القرآن في تَوْزيع عناصر الموضوع على مختلف النُّصُوص، ليظهر بين النُّصوص التكامل على رغم ما بينها من تَعَدُّدٍ في السُّور، وتباعُدٍ في أزمان النزول، وهذا من عناصر إعجاز القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجَدَ الباحثون فيه اختلافاً كثيراً.

ويُمْكِنُ أن نَفْهم أنّ الْمُرادَ بالرُّسُل الرُّسُلُ من الملائكة المكلّفينَ أن يكتُبوا أقوالَ النّاسِ وأعمالَهم لتقديم شهاداتهم بما دَوَّنُوا وكتَبُوا، والمكلَّفين أنْ يَسُوقوا أصْحَابَ النّار إلى دَرَكَاتِهِمْ فيها، وأنْ يَسُوقُوا أصْحَابَ الجنة إلى دَرَجَاتِهم ومَراتِبهم فيها، إلَىٰ غير ذَلِكَ من أَعْمَالٍ وَضَعَ اللّٰهُ عزَّ وجلَّ في خُطَّتِهِ لِيَوْمِ الدّين تَكْلِيفَ الرُّسُل من الملائكةِ أن يَقُومُوا بها، في موقف الحشْر، وفي موقف الحساب وفَصْلِ القضاء، وعنْدَ التَّوْجيه لتحقيق وتنفيذِ الجزاء الذي يقضي به الباري جلّ جلالُهُ، وعَظُمَ سلطانه.

وقَدْ يشْمَلُ لفظ ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ الرُّسُلَ من البشر أيضاً، واللّٰهُ أعلم بمراده.

قول اللّٰهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾:

سبَق أن علمنا أنَّ هذا التّعْبير ونظائِرَهُ في القرآن، أسْلُوبٌ قرآنيٌّ مبتكَرٌ للتعجيب والتهويل والتعظيم.

أي: أعْظِمْ بيَوْم الْفَصْل إعْظَاماً كثيراً لاَ يَصِلُ إليه مدَىٰ إدْرَاكِكَ مَهْما سبَحْتَ في التخيُّل.

قول اللّه تعالَىٰ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾:

سبق لدى تدبُّر سورة (الهمزة) شرح نظير هذا التعبير، وبيان معنى كلمة: «وَيْل» وأُوجزه بما يلي:

﴿وَيْلٌ﴾ كلمة تهديد بعذاب شديد. وورد أنَّها اسم علَمٌ على وادٍ في جهنم، والجملة مؤلفة من مبتدأ وخبر.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ التنوين هنا هو تَنْوِينُ العوض عن إعادة ما سَبَقَ بيانُه، وهو هنا: ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: عذابٌ شَدِيدٌ في وادٍ سحيقٍ من وِدْيَان جهنَّم، يَوْم إذ يكون الْفَصْلُ في الأحكام بين العباد، للمكذّبين بِيَوْمِ الدِّين الذي يُوعَدُونه، والتكذيب بيَوْمِ الدّين مصحوبٌ دواماً بتكْذِيب الرَّسُولِ في نُبوَّتهِ ورِسالته، وبالتكذيب بالقرآن، وبالآيات الباهرات على صِدْق الرَّسُول، والدالاّت على أنَّ القرآنَ كَلامُ اللّه المنزّل، الذي لاَ يأتيه ولَمْ يأته الباطل من بَيْنِ يَدَيْهِ ولا من خلفه.

وجاء هذا التحذير مُكرَّراً في السُّورَةِ بفنّيّةٍ جميلة عِنْدَ مفاصِلها عشْرَ مرَّاتٍ، إذْ يأتي قَرْعُ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ عَقِبَ كُلِّ مَفْصِلٍ مِنْ مَفَاصِلِها، وسيلةً من وسائل العلاج النَّفْسِيّ، المناظِرِ لتكرير العلاج الدوائي آناً فآناً عَقِبَ كلّ وجْبَةٍ من وَجباتِ الطَّعَام، وجاء التكرير هُنَا عَقِبَ وجبات البيان الإقْنَاعي، أو الوعيد بالعذاب الأليم يوْمَ الدين، أو الوعْدِ بالنّعِيم العظيم المقيم في الجنَّاتِ الَّتِي أعَدَّهَا اللّه للمتَّقِينَ والأَبْرار والمحسنين.

❁ ❁ ❁

(٨)

التدبّر التحليلي للدّرسِ الثالث من دروسِ السورة

الآيات من (١٦ ـ ٢٨)

قال اللّه عزّ وجل:

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

- قرأ نافِعٌ، والكِسَائي، وأَبُو جَعْفَرٍ: [فَقَدَّرْنَا] بِتَشْدِيد الدّال.

قرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ بتخفيف الدال.

التشدِيدُ يَدُلُّ على العناية بتحديد المقادير في خُطَّة التكْوين.

والتخفيف يدُلُّ على التنفيذ بالْقُدْرَةِ الّتي يخلق اللّه عزّ وجلّ بها ما يشاءُ على ما يشاء بأمر التكوين: كن.

فالقراءَتَانِ مُتَكَامِلَتَانِ في أداء المعنى المراد.

تمهيد:

هذا الدَّرْسُ من دُروس السورة تضمَّن الاستدلال على قانون الجزاء الرَّبَّاني، بالإشارة إلى أحداث تاريخ الأمم الغابرة، الّذين أهلكهم اللّهُ بسبب تكذيبهم رُسُلَ رَبّهم، وتكْذِيبهم بيوم الدّين.

وتضمَّن الاستدلال على قُدْرَةِ اللّه على بعْثِ الموتَىٰ للحِسَابِ وفَصْلِ القضاء وتحقيق الجزاء، بظواهر كونيَّةٍ مَشْهُودَة، هي آياتٌ قائماتٌ دوماً دالاّتٌ على أنَّ اللّهَ عزّ وجَلَّ قديرٌ على أَنْ يَخْلُق ما يشاءُ بَدْءاً وإعادة، على غَيْر مثالٍ سبَقَ، أو على مثالٍ سبَقَ.

التدبّر:

● قول اللّه تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾:

أي: إنَّ من الأدلَّةِ الْوَاقعيَّة على قانون الجزاء الرَّبَّاني، إهلاكَ اللّه عزّ وجلّ للمجرمين الأوّلين، الذينَ كذبوا رُسُلَ ربّهم، وكذّبُوا بنبأ يوم الدين وما فيه من حساب، وفَصْل قضاء، وتَنْفِيذِ جزاء، ومنهم قومُ نوحٍ، وأقوام عادٍ وثمود وفرعون.

إنّ قِصَص إهلاك اللّه مجرمي القرون الأولى قِصَصٌ معروفة مَشْهُورة، وبَعْضُ آثارهم مشهودة، وما كان الرّبّ الحكيم الرحيم ليُهلِكَهُمْ إهلاكاً جماعيّاً شامِلاً، إلاّ بذُنُوبٍ كُبرىٰ أصَرُّوا على ارتكابها، فكان من الحكْمَة تطهيرُ الأرض منهُمْ، فأنذرهُمُ اللّه بالإهلاك الشامل على أَلْسِنَةِ رُسُله، فاستهانوا بإنذار اللَّهِ لهم، ولم يَعْبَؤُوا بأوامر اللّه ونواهيه لهم، وأكثَرُوا في الأرض الفساد، فأهلكهم ربُّهم على ما فصَّله في نُصُوصٍ متعدّدة من سُور القرآن المجيد.

جاء التَّنْبيه على هذا الدليل بأُسْلوب الاستفهام التقريريّ، لانتزاع اعتراف المخاطبين، وإقرارهم بأمْر إهلاك اللَّه المجرمين الأوّلين، نظراً إلىٰ أنَّ إهلاك المجرمين الأوّلين من الأمور المعلومة تاريخيّاً، ونظراً إلىٰ أنّ الآثار الدالّة على إهلاكهم ظاهرةٌ في مواقِعَ كثيرة يَعْرِفُها المخاطَبُونَ، ولا سيما ما كان منها في الجزيرة العربيَّةِ وَما حَوْلَها.

والكلام على تقدير محذوف هو لفظ «الْمُجْرِمين» بدليل قول اللّه عزّ وجلّ بعْدَ آية: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ أي: بكلّ المجرمين، فَسُنَّةُ اللّه بعباده واحدة حتّىٰ يرث اللَّهُ الأرض ومَنْ علَيْها.

● قول اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾:

أي: ثُمَّ في الزّمن الْبَعِيد المتراخي الَّذِي يُوجَد فيه مُجْرِمُونَ آخِرُونَ مُشَابِهُون للْمُجْرِمين الأَوّلين، فَنُهْلِكُهم إهلاكاً عامّاً شاملاً، ونجعلُهم تابعين

للمجرمين الأوَّلين الّذين أكثَرُوا في الأرض الفساد، ضمْن أفواج الحشراتِ البشريَّة المهلكَةِ في التاريخ.

هٰذه الآيَةُ تُشِيرُ إلَىٰ أَنَّ آخِر النَّاسَ في الأجيال البشريَّة سيَكُونون مُجْرِمين يستَحِقُّون الإهلاك الشامل، ولا يكونُ فيهم من يؤمِنُ باللّٰهِ، وعَلَيْهِم تَقُومُ السَّاعَة.

وقد ثبت في الصحيح عن النبيّ ﷺ أنّ السّاعة لا تقوم إلاّ على شرار الناس، ولا تقوم حتَّىٰ لا يبقَىٰ على الأرض من يقول اللّه اللّه، وهؤلاء الأشرار يتهارجون فيها تَهارُجَ الْحُمُر، أي: يتسافَدون علانية كالحمير، فعليهم تقوم الساعة[١].

● قول اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾:

أي: مثل ذلك الإهلاك الذي فعلْنَاهُ بالمجرمين الأوّلين، وسَوْفَ نَفْعَلُهُ بالْمُجْرِمين الآخِرِين، نَفْعَلُ أيضاً بسائر المجرمين الّذِين يوجَدُون بيْنَ الأوّلين والآخِرين، من الأُمم التي تَصِلُ في جرائمها وَإفسادها في الأرض، إلَىٰ مِثْلِ مَا وصَلَ إليه المهْلَكُونَ مِنَ المجرمين الأوّلين، والمراد الإهلاك الجماعيُّ العامّ.

وقد كان إهلاك المجرمين الأوّلين بأنواعٍ من وسائل الإهلاك الرَّبَّانيّة، عقوبةً معجّلةً لهم، وتطهيراً للأرض منهم، وبرهاناً على قانون الجزاء الرَّبَّاني، أمَّا العذابُ فيكُون بحسَبِ جرائم كُلِّ فرْدٍ منْهُم يَذُوقُه على مقدار استحقاقه بالعدل.

وإذْ قَامَ الدليلُ على قانُون الجزاء الرَّبَّانيّ الحكيم العادل، فَمِنَ المناسب اعتبارُ هٰذِه الفقرة من السورة مَفْصلاً للتحذير والتهديد بعبارة:

---

(١) من هذه الأحاديث ما رواه مسلم عن النوّاس بن سمعان، وقد تضمّن بيان خروج الدجال ونزول عيسَىٰ عليه السلام، وقتله الدّجال.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾ الّتي سبق بيان اختيارها للتكرير العلاجي، عند مفاصِلَ محدَّدَة بإحكام من مفاصل هذه السورة العظيمة.

❁ ❁ ❁

● قول اللّهِ تعالَىٰ: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾:

● قرأ نافع، والكسائيّ، وأبو جعفَر: [فَقَدَّرْنَا] بِتَشْدِيد الدال.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ بتخفيف الدّال.

يقال لغة: قَدَرَ الأمْرَ وَقَدَّرَه، أي: حدّد مقاديره، ودَبَّره قبل إيجاده.

ويقال لغة أيضاً: قَدَرَ على الشيء فَهُو قادِرٌ وقدِير، أي: تمكَّنَ منه، فإذا كان فعلاً فعله باستطاعة تامّة وإذا كان خلْقاً خَلَقَه كما قَدَّره في خُطّةِ إيجاده باستطاعة تامّة.

قَدَرَ عَلَىٰ الشيء يَقْدِرُ وَيَقْدُرُ، وَقَدِرَ عليه، أي: تمكَّنَ بقوَّتِه من التصرّف فيه على ما يشاء.

واللّهُ عزّ وجلّ قَدْ حدَّدَ مقادير مخْلُوقاته في خُطَّتِه السَّابقةِ لتكوينها، وأَوْجَدَ مَا خَلَق بقُدْرَةٍ تَامَّةٍ لم يحدُثْ فيها إعْياءٌ ولا ضعف ولا كَلَلٌ ولا مَلَل.

فبَيْنَ قراءتي: [فَقَدَّرْنَا] و﴿فَقَدَرْنَا﴾ تَكَامُلٌ في أداء المعنى المراد، وهذا من الإيجاز في القرآن، وهو من عناصر الإعجاز.

جاء في هذه الفقرة عرض دليلٍ مشهود في الكون على قدرة اللّهِ على البعث.

● ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾:

جاء استعمال نون المتكلم العظيم وهو الرّبّ جل جلاله، إشارة إلىٰ عظَمَة إتقان الخلق.

﴿مِن مَّآءٍ﴾: هو ماء الرَّجُل وهو «المنيّ».

﴿مَّهِينٍ﴾: أي: قليلٍ حقيرٍ ضعيف. «مَهِين» على وزن «فَعِيل» من فعل «مَهُنَ يَمْهُنُ مَهَانَةً» أي: قَلَّ وصَغُرَ وضعُف.

● ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾﴾:

أي: فجَعَلْنَا هذا الماء الَّذِي هو المنيّ في استقرارٍ أو في مكان استقرارٍ ملائم تماماً لوضع نُمُوّ الجنين، وحمايته، وثباته وتغذيته، حتى نضجه وولادته طفلاً.

﴿فِى قَرَارٍ﴾: قرار: مَصْدَرُ قَرَّ بمعنىٰ استقرّ وثبت. أو في مكان استقرار حيث يتمُّ تلقيحه لبُيَيْضَةِ الأنثى، وحيث يتمّ علوقه بجدار الرحم، ثم نُمُوّه مستقرّاً فيه، حتَّىٰ حين ولادته طفلاً.

﴿مَّكِينٍ﴾: أي: هذا القرار مَكِين، بمعنى أنه ذو مكانٍ ملائمٍ تماماً لنموّ الجنين وثباته حتى ولادته.

وكلُّ ذَلِكَ يَتِمُّ بجعل اللّه وتقديره وخَلْقه، إذْ يُوَجّهُ الأسباب للقيام بوظائفها، لتحقيق الأطوار المقدّرة بقضائه وقَدَرِه، ويكونُ تَنفِيذُها وتكوينها بقُدْرَتِه.

وجاء استعمال ضميرِ المتكلّم العظيم الرّبّ جلّ جَلاله إشارةً إلَىٰ عظمة جعل الجنين في قرارٍ مكين.

● ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾:

أي: إلى تحقيق قَدَرٍ مقدّرٍ مقضيٍّ ومعلومٍ سابقاً، وهذا القَدرُ يشْمَل المقادير الزمانيّة والمكانية والذّاتية والوصفية، ومقاديرَ كلّ شيءٍ في خَلْقِ كلّ

جنين، من ذوات وصفات، وأطوارٍ وأحْوَال وغير ذلك.

فكُلُّ خلْقٍ محدَّدٌ بمقدار، وكُلُّ حَرَكةٍ محدّدَةٌ بمقدارٍ، وكُلُّ طوْرٍ محدّدٌ بمقدار، وكُلُّ وصْفٍ مُحَدَّدٌ بمِقْدار.

● ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣﴾:

يدلُّ فعل: «فَقَدَرْنَا» على تَحْدِيدِ المقادير، وعلى الْقُدْرَةِ على تكوين المخلوق وفْقَ المقادير المحدَّدةِ في خُطَّة تكوينه.

وكذلك اسْمُ الفاعل «الْقَادِرُون» يدُلُّ على المعنيين.

وجاء استعمال ضمير المتكلم العظيم، واستعمال لفظ الجمع، لأنَّ خَلْقَ الأجنَّةِ على ما وصَفَ النَّصُّ، لا يُمْكن أن يَفْعَلَهُ إلاَّ الرَّبُّ العظيم، الذي يَخْلُق ما يشاء ويختار بعلمه وحكمته وقُدْرَته.

﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾: أي: فنِعْمَ الْمُقَدِّرُونَ نَحْنُ، ونِعْمَ ذَوُوا القدرة القادرَة علىٰ خَلْقِ مَا نَشَاءُ ونَخْتار نَحْن.

والمعنى: فَحَدَّدْنَا مقاديرَ كُلِّ شيءٍ في خَلْق الأجنَّةِ بأبْدَع نظام، وأتْقَنِه وأحْكمه، وأصْلَحِه لتحقيق الغاية منه.

وقَدَرْنَا على تنفيذِ وخَلْق مَا قَدَّرْنَاهُ في خُطَّة التكوين، بقُدْرَةٍ قَادِرَةٍ على خَلْقِ مَا نشاء، مهما كانت عظيمة وجليلة.

وكلٌّ من الأَمْرَيْنِ نَسْتَحِقُّ المدْحَ والثناءَ والحمْدَ عليه، بفعل المدح «نِعْم» فقال جلّ جلالُهُ ثَنَاءَ على وصْفَيْه بأنَّه مقَدِّرُ المقادير، والقادر على تنفيذها: ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾. فكلٌّ من الأمْرَين هو من الأمور الجليلة العظيمة التي لا تَصْدُرُ إلاَّ عن رَبٍّ خَلَّاقٍ عظيم جليل عليم حكيم قدير.

إنَّه جلّ جلالُهُ وعظم سلطانُه مستحقُّ الحمْدِ كلّه، وكُلُّ مَحْمُودٍ في الوجود هو خلْقٌ من خلقه.

وقد جاء التنبيه على هذا الدليل أيضاً بأُسلوب الاستفهام التقريريّ، لانتزاع اعتراف المخاطبين وإقرارهم بعظمة خلق الإنسان وإنشائه من ماء مهين، نظراً إلى أنّ هذه الآية من آيات الله في كونه آيةٌ مشهودة ومتكرّرة الحدوث في إنشاء الأحياء.

فهل يَعْجِزُ هذا الخلاَّقُ العظيم العليم القدير عن إعادة الناس إلىٰ الحياة بعد الموت؟!

تَعالَىٰ اللَّهُ عمَّا يصِفُون.

وَإِذْ قام الدليل القاطع على قدرة اللَّه عزّ وجلّ على إعادة الموتَىٰ إلى الحياة، للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء.

بعد أنْ قام الدليل القاطع على أنَّ قانون الجزاء الرَّبَّاني حقٌّ لاَ شكَّ فيه.

فمن المناسب اعتبارُ هَٰذه الفقرة الَّتي تضمّنت التنبيه علَىٰ أنَّ اللَّه جلّ جلالُهُ قدير على البعث للحساب وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، مَفْصِلاً للتحذير والتهديد بعبارة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ الّتي سبَقَ بيان اختيارها للتكرير العلاجي، عند مفاصل محدّدةٍ بإحكامٍ من مَفَاصل هذه السُّورة العظيمة.

❁ ❁ ❁

● قول اللَّهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

● ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾.

استفهام تقريريٌ كسابقيه، لانتزاع اعتراف المخاطبين بعظمة الخالق وحكمته وعلمه الشامل وقدرته على أن يخلُقَ ما يشاء، من خلال

ملاحظتهم لآيات اللّٰه العجيبة في الإحياء والإماتة، وإقامة الجبال الشامخات الراسيات في الأرض، وفي تهيئة الماء العذب الفرات لسُقْيَا الناس.

فهٰذه الآيات هي من آيات اللّٰه المشهودة في كونه، وهي من الأدّلة الدَّامغة على قُدْرَة اللّٰه على بعث الناس للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء، يوم الدين.

﴿كِفَاتًا﴾: أي: وِعَاءً جامعاً لدورة الحياة والموت، يقال لغة: كفَتَ الشَّيْءَ يكْفِتُهُ كَفْتاً، وكَفَّتَهُ تَكْفِيتاً، إذا قبضَهُ وضَمَّه، ويقالُ: كَفَتَهُ اللّٰهُ، أي: قبضَهُ اللّٰه.

والكِفَاتُ: هو الْمَوْضِعُ الّذِي يُضَمُّ فيه الشيءُ ويُقْبض.

قال ابن سِيدَه: وعندي أن ﴿كِفَاتًا﴾ في الآية مصدرٌ من مصادر «كَفَتَ» إذا ضمَّ وقبضَ، وأنَّ ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ منتصبٌ به، أي: ذات كِفَاتٍ للأحياء وللأموات.

وتقول العرب: المنازل كِفَاتُ الأحياء، والمقابر كِفَاتُ الأموات، أي: جامعةٌ وضامّة.

قال صاحب التهذيب في تفسير الآية: يُريد: تَكْفِتُهُمْ أَحْيَاءً على ظهرها في دورهم ومنازلهم، وتكفِتُهُمْ أمْواتاً في بطْنِها، أي: تحفَظُهُمْ وتُحْرِزُهم، ونصَبَ ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ بوقوع الكِفَاتِ عليه، كأنَّكَ قُلْتَ: ألم نجعل الأرض كِفاتَ أحياءٍ وأمواتٍ، فإذا نَوَّنْتَ نَصَبْتَ[١].

أقول: يدلُّ هذا النّصّ القرآنيُّ مع التفكُّر في واقع حال الأرض، بعناصرها التي تنقسم إلى التراب والماء، إنما هي وعاءٌ للحياة، إذْ ليست

---

(١) انظر لسان العرب في مادة «كَفت».

الحياة من طبيعتها، بل الحياة أَمْرٌ خارجٌ عنْها، وهي تحلُّ فيها ضِمْن نظامٍ رَبَّانِيٍّ خاصّ.

فإذا حلّت الحياة في قبضةٍ من طين الأرض كانت هذه القبضة وعاءً ضامًّا كافتاً للحياة، وعند الموت تُسْلَبُ الحياة من الجسَدِ الذي هو من عناصر الأرض، ثم يعود الجسَد تُراباً، وينْحَلُّ إلى مثل ما كان عليه قبل أن تدِبَّ فيه الحياة.

وتضمُّ الأرضُ الجسَد الميّت حتّى تستهلكه، ثُمَّ تَنْشأُ حياةٌ أخْرىٰ من عناصر الأرض نفسها، وقد تدخلُ في تركيب الأجساد الحيّة الجَديدة موادُّ وعناصر انْحلّتْ من أجساد الأحياء السابقة، التي ماتَتْ وانْحَلّتْ عناصرُها إلى التراب، وهكذا تتكَرَّرُ دَوراتُ الحياة والموت في الأرض.

فالأرض كما هو مُشاهد كِفَاتٌ، يخْرُجُ منْها أحياء بتقدير اللّه وخلقه، وهيمنته بصِفَاتِ رُبوبيّته، ويعُودُ إلَيْها أمْوَاتٌ بتقدير اللّه عزّ وجلَّ وخلقه، وهيمنته بصفات ربوبيّته على كلّ شيءٍ، ورُبَّ قبضةٍ من تراب الأرضِ ومائها، دَارَتْ عليها نَفْسِهَا دَوْرَة الحياة والموت مِرَاراً وتكراراً، مجتمعة أو متفرّقَةً في الأحياء.

فأيُّ استغرابٍ واستبعادٍ لأنْ يَبْعَثَ اللَّهُ جلَّ جلالُه وعظُمَ سُلْطَانُه الموتَىٰ يوم القيامة، إلى الحياة بحَقِيقَةِ ذواتهم وصفاتهم مرّةً أخرىٰ، للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء؟!! وإذا تَعَمَّقْنا في تَفَهُّم خلق الله للأشياء فإننا نَصِلُ إلَى أنَّ كُلَّ ما في الوجود يَخْلُقُه اللّه عزّ وجلّ خَلْقاً من بَعْدِ خَلْقٍ، فكُلُّ شيء يُخْلَقُ خَلْقاً جَدِيداً بعَدَدِ وَحَدَاتِ الأزمنةِ الَّتي تمرُّ عليه، والشيءُ الواحد في صورته الظاهرة، هو متعدّد الوجودات بتعدّد الأزمان، فما خُلِقَ جسداً لحيٍّ في أزمنته، غير ما خلق جسداً لحيّ آخر في أزمنته، ولو كان في الظاهر من رفات جسد الحيّ السابق.

ولا يصحّ أن يغيب عن تصوُّرنا أنّ دورة الحياة والموت ظاهرةٌ في تكرير إعادة النباتات من بزورها، وفي نشأة أجيال الأحياء من النَّسل، فتأتي أحياءٌ لم تكُنْ، ثُمَّ يكونُ لها نسْلٌ، ثُمَّ تموتُ، وتَنْمُو أنسالُها في الحياة، ثم تفْعَلُ مثل أُصولِها، وهكذا تداوُلاً حتَّىٰ تَنْتَهِي ظروف الحياة الدّنيا، ضمن خُطَّة الرَّبّ الجليل العظيم الذي أحْكم مقاديرَه، وأتْقَنَ كلَّ شيْءٍ صُنْعاً.

أفَلا تَدُلُّ هذِه الظَّاهِرَةُ المتكرّرَةُ الّتي تَنشأُ بها الحياة من الأرضِ ثُمَّ تَعُود إليها، على قُدْرَةِ اللَّهِ جلّ جلاله على بَعْثِ الموتىٰ إلى الحياة الأخرى، للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء؟!!.

عِلْماً بأنَّ الحياة في الأرض ليْسَتْ من طبيعة الأرض، بل هي وافدةٌ حديثَةٌ إليها، تتّخذُ منها وِعاءً ولباساً، ثُمَّ تخرُجُ من هذا الوعاء، وتخْلَعُ عنها هذا اللّبَاس، فيَعُودُ كُلٌّ منهما إلى أصْلِه ومصْدَرِه.

أفَلا تَدُلُّ هٰذه الظّاهرةُ المدهشة المتكرّرة على أنَّ الْمُبْدِئ الّذي أحْيَا في الأولى، قادِرٌ على أن يُعِيدَ في الأخرى، ليحاسب، ويفصل قضاءه بين عباده، ويُنَفّذ جزاءاته جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه؟!!

أفلا يَدُلُّ الإبْدَاعُ الحكيمُ الرّائع على أنَّ المبْدِع سوْف يُعيدُ بحكمته وقدرته المكلفين من عباده إلى الحياة الأخرى، ليُجْري ما تبقّىٰ من خُطَّته في خلْق عباده الممتحنين المكلّفين في ظروف الحياة الدنيا؟!!.

قال اللّه عزّ وجل في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) بشأن الأرض:

﴿۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

هذه الآية تُلْقِي الضَّوْءِ الذي يكشِفُ للمتدبّر المراد بقول اللّه عزّ وجلّ في السورة التي نتدبَّرُها:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾﴾.

وقد أدْرَكَ «أبو العلاء المعَرّي» أنَّ سَطْحَ الأرض فُتَاتٌ من أجساد الآباء والأجداد، تداولَتْ علَيْها حيَوَاتهم فقال:

خَفِّفِ الْوَطْءَ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الْأَرْضِ إلاَّ مِــنْ هٰــذِهِ الأَجْسَــادِ
رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْداً مِرَاراً ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاحُمِ الْأَضْدَادِ

● قَوْلُ اللّه تَعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ... ﴿٢٧﴾﴾:

أي: وَجَعَلْنا في الأرض جبالاً رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ.

﴿رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ وصفانِ لموصوف محذوف يُعْلَمُ من ذكرهما مع قرينَة أنّ الموصوف بهما موجودٌ في الأرض، وهو من آيات اللّهِ فيها، فالفكر يُدْرِكُ بداهة أنّ الموصوف المحذوف الجبال.

﴿رَوَاسِيَ﴾: جمع «راسية» مؤنث اسم فاعل من الرُّسُوّ، وهو الثبات والرُّسُوخ.

تقول لغة: رَسَا الشيءُ يَرْسُو رُسُوّاً ورَسْواً، أي: ثبَتَ ورسَخَ. ورَسَا الجبَلُ: أي: ثبت أصْلُهُ في الأرض، فهو «رَاسٍ». وهي «راسية».

والرَّواسي من الجبال الثوابتُ الرواسِخُ، وأرسَىٰ اللّه الجبال يُرْسِيها، أي: ثبّتَها وَجعلَها راسخات.

﴿شَامِخَاتٍ﴾: جمع «شامخة» أي: عالية مرتفعة. تقول لغةً: شَمَخَ الجبَلُ يشمَخُ شُمُوخاً، أي: عَلَا وارْتفع.

والجبال الشوامخ: هي الجبال الشواهق. وجَبَلٌ شَامخ وشَمَّاخٌ، أي: طويل في السَّماء، ومنه قيل للمتكبّر: شامخ.

وصَفَ اللّه عزّ وجلّ الجبالَ في الأرض بأنّها رَواسي، وبأنّها شامخات، وفي ذِكْرِ هٰذين الوصفين إشارةٌ إلى عناية اللّهِ بعباده في الأرض،

فَرُسُوُّ الجبال ورُسُوخُها في مواضع من الأرض مختَلِفَةٍ، مثبّتٌ لِقِشْرَةِ الأرض من أنْ تكون عُرضَةٌ دواماً للتشققات والزلازلِ، والتحرّك والاضطراب، بتأثير الغليان النّارِيِّ الْفَوَّارِ النّاشر للغازاتِ الضّاغِطَةِ في باطن الأرض.

وشُموخ الجبال وارْتفاعُها يُحَقّق للناس وغيرهم منافع كثيرة، ففيها تكونُ مخازِنُ للمياه العذبة، ومن صخورها يقتَطِعُونَ لمبانيهم، وعليها يَبْنُون قُصُورهم وحُصُونهم، وعلى مُرْتفعاتها يَسْتَمْتعون بنزهاتهم، وفي مغاراتها يتحصَّنُون ويَحْتَمُون، وبها يَدْرَأُ بعضُهُمْ عن نَفْسِه بأسَ بعض.

● قولُ اللّه تعالى: ﴿... وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾:

﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم﴾: أي: وجَعَلْنا لكُمْ ماءً صالحاً للشرب.

تقول لغة: سقَاهُ يَسْقِيه سَقْياً، وأسْقَاهُ، وسَقّاهُ، أي: جعل له ماءً لِيَشْرَبَ منهُ طَلَباً للرّيِّ.

﴿فُرَاتًا﴾: **الْفُرات**: أعذَبُ الماء وأنقاه. يقال لغة: فَرُتَ الماءُ يَفْرُتُ فُروتَةً، أي: عَذُبَ، فَهُو فُراتٌ بمعْنَىٰ أنّه بالِغُ العذوبة.

في ظاهرة الجبال الرّواسي الشّامخات، وظاهرة الماء الْفُرات، من ظواهر خلْق اللّه آياتٌ جليلاتٌ، يَكْتَشِفُ دَقَائِقَها عُلَماءُ البحوث الكونيّة، ويكْتُبُونَ فيها البحُوث المستفيضة، وهٰذِه البحوث تَهْدِي إِلَىٰ عظيم قُدْرَةِ اللّهِ وجَليل حكمته، وهي تُقدّمُ الإقْناعَ الكافيَ بأنّ البعْثَ للحياة الأخرى حقٌّ، وفي هذه الحياة الأخرى يكونُ الْحِسَابُ، وفَصْلُ القضاء، وتحقيق الجزاء.

أفلا تدُلُّ هاتان الظّاهرتان من ظواهر آيات اللّه في كونه، على أنّ الرَّبّ الْقَدِير العليم الحكيم سَوْفَ يُعِيدُ المكلّفِين من عباده، إلى الحياة بعْدَ الموت، لِيُجْرِيَ مَا تَبَقّىٰ من خُطّتِه في خَلْقِ عباده، الممْتَحنين المكلّفين في ظُرُوف الحياة الدُّنيا؟!!.

ومن المناسب والبديع عند هذا المَفْصِل من مفاصل السُّورة، تكرير التحذير والتهديد بعبارة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ الّتي سبَقَ بيان اختيارها للتكرير العلاجيّ، عنْدَ مفاصلَ محدّدَةٍ بإحكامٍ من مفاصِلِ هذه السُّورَة العظيمة، وسبَقَ تدبُّرها.

❁ ❁ ❁

(٩)
التدبّر التحليلي للدرس الرابع من دروس السورة

الآيات من (٢٩ ـ ٤٥)

قال اللَّهُ عزّ وجل:

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

● قرأ رُوَيس: [**انْطَلَقُوا إلىٰ ظِلٍّ**]: بصِيغَة الفِعْل الماضي في الآية (٣٠).

وقرأ باقي القراء العشرة ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ بصيغة فعل الأمر وبين القراءتين تكامل في أداء المراد.

وقَرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلَفٌ [**جِمَالَةٌ**] وهو اسم جمْعٍ لطائفةٍ من الجمال، القراءة بكسر الجيم، وفي اللّغة يجوز ضمُّها وفتحها.

الجمل: الكبير من الإبل.

وقرأ رُويسٌ عن يعقوب [جُمَالاَت] جمع «جُمَالَة» وهو الحبْلُ العظيم الذي تُشَدُّ به السفينة، ويُسَمَّىٰ «القَلْس». وهو أيضاً جمع لجمع «جَمَل».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿جِمَٰلَتٌ﴾ بكسر الجيم، وهو جمْعٌ لجَمْعِ «جَمَل».

● وقرأ يعقوب [فَكِيدُونِي] بإثْبَاتِ ياء المتكلّم وصلاً ووقفاً.

وقرأ باقي القرّاءِ العشرة ﴿فَكِيدُونِ﴾ بحَذْف ياء المتكلّم وصلاً ووقفاً.

حذْفُ ياء المتكلّم من النُّطْقِ إيجازٌ يكْثُر في القرآنِ، وهو من لطائفه.

● وقرأ ابن كثير، وابْنُ ذَكْوان، وشُعْبَة، وحمزَة، والكسائي: [وَعِيُونٍ]: بكسر العين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَعُيُونٍ﴾ بضَمّ العين.

كَسْرُ العين وضَمُّها في لفظ «عيون» لغتان عرَبيتان.

● وقرأ حمزة [هَنِيًّا] بإبْدَالِ الهمزة ياءً، وإدْغام الياء التي قبلها فيها، وهذا وجْهٌ من الأداء.

وقرأ باقي القُرَّاء العشرة ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ بإثبات النُّطْق بالهمزة حسب الأصل.

الهَنِيءُ: السَّائِغُ اللَّذِيذ.

تمهيد:

يبْدأ اللّٰهُ عزَّ وجلّ في هذا الدَّرس بتوجيه الخطاب للمكذِّبين بيَوْمِ الدِّين، يوم الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء، مع ما يرافق هذا التكذيب من تكذيبٍ للرَّسُولِ، وتكذيب بالقرآن الذي يبلّغه عن ربّه.

وهذا الخطابُ صورَةٌ مقْتَطعَةٌ ممّا سَوْفَ يُوَجَّهُ لَهُمْ يَوْمَ الدِّين، حينما يؤمَرُون بالانطلاق إلى دَرَكاتِهِمْ في جهنَّم.

وهو يحْكِي في يوم الحياة الدنيا ما سَوْف يُخاطَبُونَ به بعد حِسَابِهم، وفَصْلِ القضاء بشأنهم، والْحُكْم عليهم بالْخُلُودِ في عذاب النار، حَيْث منازِلُهم في أعماقها، حتَّىٰ الدَّرْك الأسْفَل منها.

وفنُّ الاقتطاع هٰذا من الأساليب القرآنيّة البديعة، الّتي تَعْتَمِدُ علَىٰ عرض صورة المشْهَدِ الّذي سوف يَكون مستقبلاً، كأَنَّ الحدَثَ واقعٌ الآن، للإشعار فكريًا بأنَّهُ سوف يتحقَّقُ حتماً، ولإعطاء الْمَشْهَد صُورَةَ أَمْرٍ واقع الآن، ففي هٰذا من الإمتاعِ ما في المشاهدة الفعليَّةِ لدىٰ وقُوع الحدَث. ولم يكن هذا الأسلوب البيانيُّ من الْفُنُون المعروفة لدى الْبُلَغاء إبَّان نزول القرآن.

واكتشفه في عصرنا الحاضر صانِعوا الأفْلام الّتي تحكي الوقائع والأحداث، ولا سيما المبدعون منهم.

وقد جاء خطابُ الحكاية هذا عَقِب خطاب المكذّبين وهم في حياة الابتلاء، في يوم الحياة الدنيا، بتقديم الأدلَّة الدافعة لشبهاتهم، حول قضيَّة البعث للحياة الأخرى، للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء.

إنَّ هذا الخطاب الذي ينتَقِلُ بصورَةٍ مفاجِئَةٍ مِنْ وَاقِع حياة الابتلاء، إلى مَشْهَدٍ مقْتَطعٍ ممَّا سَوْفَ يَكُونُ في يوْمِ الجزاء، فَنٌّ جميلٌ بديع، من فُنُونِ الأدَب الرَّفيع جدًّا، وهو من عناصر إعجاز القرآن.

لقد فاجأ اللّه عزَّ وجَلَّ المكذّبين بالآخرة، فخاطَبَهُمْ كَأَنَّهُمُ الآنَ في يَوْم الدِّين، ووصَفَ لهم بهذا الخطاب المكانَ السَّحِيق الْمُعَدَّ لتعذيبهم في جهنَّم، وهو وادي «وَيل». ووصَفَ لهم قاعَ هذا الوادي الّذي سوف يكونون فيه، بَعْد حسابهم، وقرار معاقبتهم.

● قول اللّه تعالى:

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

يقول هذا النّصُّ في مضمونه للمكذّبين بيوم الدِّين، وكأنّهُمْ بعْدَ مَوْقفِ الحساب وفَصْلِ القضاء بشأنهم، والْحُكْمِ عليهم بالعذاب في وادِي «وَيل»:

انطَلِقُوا إلَىٰ نُزُلِكُمْ في دار العذاب، في قاع وادي «وَيْل».

لكنّ النّصّ لم يسْتَعْمل هذا الأسلوب التّلقائِيَّ السَّاذج، وإنّما قال لَهُمْ مذَكّراً بعباراتِ الوعيد، يوم كانوا في حياة الابتلاء.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

فالنّار، ووادي «ويْل» فيها، ومعاقبتُهم بالعذاب يوم الدّين، هو ما كانوا به يكذّبون.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾: أي: اذْهَبُوا سريعاً، فالانْطِلاَقُ في اللُّغَةِ، هو سُرْعة الذّهاب، يقال: انطلَقَ الظبْيِ ونحوه، أي: مرَّ سَرِيعاً لا يَلْوي على شيء. وانْطلقَت الخيل، أي: مضَتْ في السِّبَاقِ إلى الغاية المحدّدة لها.

أصل الإطلاق التحريرُ من القيد، ومن شأن المقيّد إذا أُطْلِق من قَيْدِهِ أن ينطَلقَ مُسْرِعاً شطر الجهة الّتي يريد الذهاب إليها.

جاء في العبارة فعل «انْطَلِقُوا» دُون اذْهَبُوا أو انْصَرِفُوا أو نحو ذلك، ليَدُلَّ هٰذا الفعل على أنّ المكذّبين يُكَلَّفُونَ يوم الدين، بعْدَ مُحاسبتهم وفَصْل القضاء بشأنهم، أن يُسْرعوا في الذهاب إلى دار العذاب، وإلى نُزُلهم فيها، ليَنَالُوا جزاءهم فيها جزاءً وفاقاً معادلاً لكُفْرهم وجرائمهم.

وفي هذا التكليف حزْمٌ لا تساهُلَ مَعَهُ ولا تهاون، فقد أُبرِمَ الأمْرُ، وتَمَّ بشَأْنهم الحكْمُ، فَلْيُسْرِعُوا إلى منازلهم في الدَّرَكات، وإلى مُسْتَقَرَّاتهم في دار العذاب، جَهَنَّمَ وبِئْسَ الْقَرار.

وتصويراً بارعاً ورائعاً لموقعهم في قَاعِ وادي «ويل» موطِنِ تعذيبهم،

رسَمَت الكلمة الفنيّة الأدبيَّة الموقع، ببَثّ لقطاتٍ تَصْوِيريّة يستطيع الذَّكاءُ اللَّمَّاحُ مِن خلالها تَحْدِيدَ مَعَالِمِهِ، بمَلْءِ الْفَرَاغَاتِ المتروكَة بين هذه اللَّقَطاتِ، وهذا من أروع التَّصْوير الفنّيّ الأدبي.

فجاء التعبير التالي من فقرات هَٰذا التَّصْويرِ الْفَنِّيّ الرائع بقول اللّه تعالى:

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾.

في هذا التعبير تحديدٌ وصْفِيٌّ لِلْمَكانِ الّذي أُمِرُوا بالإسراع إليه.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ﴾:

أي: انطَلِقُوا إلى مَكانِ ظلّ، هذا التعبير يدُلُّ على أنَّهُ مكَانٌ مُظْلِمٌ ظُلْمَةً وُسْطَىٰ، إذْ لا يَصِلُ إليهِ شُعَاعٌ إشراقيٌّ، كشُعَاعِ الشَّمْسِ في الضُّحَ الّذي هو ضدُّ الظّل. فَدَلَّ على أنَّهُ لا يَصِلُ إِلَيْه ضَوْءُ لَهَبِ النّار، بسَبَب حاجِبٍ يحجُبُ عنه ضَوْءَ اللَّهَب.

لكِنَّ الّذِي يحْجُبُ الضَّوْءَ عنه لا يحجُبُ الحرارة، بدليل قول الله تعالى:

﴿..وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾.

فما هو هذا الحاجب؟

إنّ الذهن ليسْتَدْعِيه دُون كُلْفة، إذْ يُدْرِكُ أنّه حاجِبُ دُخَانِ لَهَبِ النَّارِ الموقَدَة، فهُو يُعْطِي ظِلاً ما، لاَ ظُلْمَةً دامِسَةً، فأهْلُ هٰذا الموقع يُشاهد بعضُهُمْ بعضاً، ويَرَوْن مسَالِكَهُمْ فيه، لكِنَّ هذا الظِّلَّ لا يَحْجُبُ عنْهُمْ حَرارةَ اللّهب، ألاَ يَدُلُّ على هٰذهِ المفهومات، قولُ اللّه تَعالَىٰ:

﴿لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾.

﴿لَّا ظَلِيلٖ﴾: أي: غَيْرُ ذي ظلٍّ دائم، وغير مَانعٍ للرُّؤية.

﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾: أي: غيرُ ساترٍ للحَرَارة، [لاَ يُغْنِي]: أي: لا يكفي. ﴿مِنَ ٱللَّهَبِ﴾: أي: من دفع أيِّ شيءٍ من اللَّهب.

من طبيعةِ الظلِّ أنه لا يحجُبُ الرؤية، إذْ تبقَىٰ معَهُ انعِكاسَاتٌ ضَوْئِيَّة تَسْمَحُ برُؤْيَةِ ما على مِقدار كثَافَةِ الظلّ.

جاء في كتُب اللُّغَة: مَكانٌ ظَلِيلٌ، أي: ذو ظلّ، وقيل: الدَّائِمُ الظِّلّ. وصيغَةُ «ظَلِيل» على وزْنِ «فَعِيل» هي من صِيَغِ المبالغة، ونَفْيُ كَوْنه ظليلاً يدُلُّ على نَفْي ما تَقَعُ عليه المبالغة، وهي تقع على الدَّوام، وتَقَعُ على ما هو المقصود بالظِّلّ، وهو سَتْرُ الحرَارةِ وحَجْبُها.

ويدُلُّ على عدم الدَّوام لهَٰذا الظِّلّ أنَّ المقيمين فيه يَرَوْنَ شَرَرَ نار جهنَّم، إذْ جاء بَعْدَ بيان كونِهِمْ في ظِلٍّ غَيْرِ ظليلٍ وهو لاَ يُغْنِي من دَفْع اللَّهَبِ شيئاً، قولُ اللّهِ تَعالَىٰ:

● ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

فالظِّلُ في جهنّم غير دائم، وغَيْرُ حاجبٍ للحرارة، وهذا يَدُلُّ على أنّ لفحاتِ لَهَب النار تأتيهم بالوهَج اللاهب حيناً فحيناً في أوقاتٍ أكثرها ظلٌّ.

﴿إِنَّهَا﴾: أي: إنَّ النّارَ المحيطَةَ بوادِي «ويل» والمفهومَةَ من السِّبَاق والسِّياق، ولو لم يُذْكَرْ لها لفظٌ يَعُودُ الضمير عليه، وهذا من الأساليب القرآنيّة البديعة، الّتي يعتَمِدُ فيها النّصُّ على ذَكَاءِ المتلَقِّي، وإدْراكِه للمرادِ، دُون التَّصْريح باللَّفظ الخاصّ الدالّ عليه.

﴿تَرْمِى﴾: أي: تَقْذِف، وباستطاعَتِنا قياساً على نَارِ الدّنيا حين تقذفُ بالشَّرَرِ، أنْ نتَصَوَّرَ بعْضَ تَصوُّرِ الْقَذَائِفَ من الشَّرَرِ الّتي تَرْمِي بها نارُ جِهَنَّم.

﴿بِشَرَرٍ﴾: **الشَّرَرُ**: اسْمُ جِنْسٍ جمْعِيٌّ، واحِدَتُه: «**شَرَرَة**».

وشَرَرُ النار جُزَيْئَاتٌ مُلْتَهباتٌ تَقْذِفُهَا، نَاتجاتٌ عن تَفَجُّرَاتٍ في أجْرَامِ

الْوَقُود، وأعْظَمُ وَقُودِ نار جهنَّمَ الحجارَة، وقد تكون حجارةً على مقدار قَصْرٍ عظيم.

إنَّ هٰذَا الشَّرَرَ العظيمَ الّذي يَرَاهُ أهْلُ وادي «وَيْلٍ» يُعْطِي ضياءً يشُقُّ الظّلّ، فيَجْعَلُهُ ظِلًّا غير دائم.

وهو يَدُلُّ عن طريق اللُّزُومِ الذهْنِيّ، علَىٰ أَنَّ لَفَحَاتِ لَهَبِ النّار تأتِيهِمْ بالْوَهَجِ اللَّاهِبِ السَّمُومِ حيناً بَعْدَ حين، في أوقاتٍ أكثَرُها ظِلٌّ.

وجاء التَّصْريح بأنَّ هٰذا الظّلّ هو بسبب الحاجب من دُخَانِ نار جهنَّم في قول اللّٰهِ عزّ وجلّ في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) مبيّناً منازل أصحاب النار فيها:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿فِى سَمُومٍ﴾: **السَّمُومُ**: الرّيحُ الحارَّةُ الّتِي تنفذ في المسَامّ.

﴿وَحَمِيمٍ﴾: **الحَمِيمُ**: الماء الحارُّ ذو الحرارة الشديدة.

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾: أي: وظِلٌّ من أَثَرِ يَحْمُوم. **اليَحْمُوم**: هو الدُّخان. والأسْوَدُ من كلّ شيءٍ، فهو دُخانٌ أسْوَد.

بهذا تمَّتِ اللَّقْطَةُ السّريعة الأُولى من تصوير موقع المكذّبين، في قاع وادي «ويْلٍ» من وديان جهنَّمَ يَوْم الدّين.

وهنا ينْطَلِقُ بنا الذّهْنُ إلَىٰ مَوْقعِ المنَعَّمِين في الجنَّةِ دارِ نعيم المتقين، فقد جاء في القرآن أَنّهم يكونُون في ظلٍّ ظَلِيلٍ دائم مَمْدُود.

- فقال اللّٰه تعالى في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):
﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾.

- وقال تعالى في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول): ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: **الأرائك**: جمع «الأريكة» وهي المقعد المنجّدُ الوثير.

﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾: «**المتّكِئ**: مَنْ يسْتَوي قَاعداً على وِطَاءٍ مُتَمَكِّناً.

● وقال اللّه تعالَىٰ في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول):

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾: أي: في شَجَرٍ من نوع شجَرِ السّدْرِ منْزُوعِ الشّوْك. **مخْضُود**: أي: منْزُوع شوْكُه.

﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾: **الطَّلْحُ**: الموزُ. **المَنضُود**: المضْمُومُ بعْضُه إلى بعض مُتّسِقاً بنِظَامٍ جميل.

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾: أي: وظلّ دائم وشَامِلٍ لكل موقعٍ في الجنّة.

● وقال اللّهُ تعالَىٰ في سورة (النِّساءِ/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾:

أي: ظِلاًّ دائماً، لا تخْتَرِقُهُ أَشِعَّةٌ حارَّةٌ مؤذية، أو غَيْر سَارَّة.

● وقال اللّه تعالَىٰ في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول) في وصف الجنّة:

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ ﴿٣٥﴾﴾: أي: وظلُّها دائمٌ أيضاً.

● وقال اللّهُ تَعالَىٰ في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) في وصْف نعيم الأبرار في الجنّة:

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾:

القُطُوف: جمع «القِطْف» وهو ما يُقْطَفُ من الثَّمَرِ ساعَةَ قَطْفِه، أي: فَصْلِه عن شَجَرَتِه.

والتَّذْليل: التَّسْهيلُ والتَّمْهيد والتَّيْسِير.

ونُلاحظ في معظم هذه النُّصُوص أَنَّ ذِكْرَ الظِّلّ قَدْ جَاءَ كنَايَةً عن دار النعيم يوْمَ الدِّين، والكِنَايَةُ من أساليب البيانِ غير المباشر، وهو سبيل الْبُلَغاء في التعبير عَنْ مُراداتهم.

بَعْدَ هذا الاستعراض للنُّصُوصِ القرآنيَّة عن الظِّلّ بشيءٍ ما من التدبُّر، أعُود إلى متابعة تَدَبُّر الدَّرْس الرابع من سورة (المرسلات).

■ وفيما سبَقَ كانَ التَّدَبُّر مُتَعَلِّقاً باللُّقْطَة الأولى من الصورة الّتي وصَفَ اللَّهُ عزّ وجلّ بها مَوْقع المكذبين في قاع وادي «ويل».

■ **أمَّا اللَّقْطَةُ الثانية**: فهي وصْفُ الظِّلّ الّذي يُكَلَّفُون الانطلاق إليه، بأنَّهُ ذو ثَلاَثِ شُعَب.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾.

جاءت قراءة ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ بصيغَةِ فعل الأمر، للدَّلاَلَة علىٰ توجيه الأمْرِ التَّكْليفي الجبْرِيّ، الّذي لاَ يستطِيعُ واحِدٌ من المأمورين به مُخَالفته.

وجاءَتْ قراءة ﴿انطَلَقُوا﴾ بصيغَة الفِعْل الماضي، للدَّلالَةِ علَىٰ مطاوَعَتِهم في تَنفِيذِ الأَمْر، إذْ لا تَخْيِيرَ لَهُمْ، ولا قُدْرَةَ لهم على المخالَفَة، فَهُمْ يتحرَّكُونَ يوْمَ الدِّينِ بالجَبْر، إذْ قَدْ انْتَهَىٰ زَمَنُ تخييرهم مع انْتِهاء ظُرُوف الحياة الدنيا، يوم مُنِحُوا حُرِّيَّة الاختيار لابتلاء إراداتهم.

كَيْفَ يكونُ مَكَانُ الظِّلّ في قَاعِ وادي «وَيْلٍ» ذَا ثَلاَثِ شُعَبٍ؟؟.

إنَّ باستطاعة الذِّهن اللَّمَّاحِ، مُسْتَدْعِياً الأَشْباه والنَّظَائِر في المشاهدات الحسِّيَّةِ الدُّنيويّة، أنْ يُدْرِك أنَّ مكان هذا الظِّلّ غير الظَّلِيلِ في جهنَّمَ، يقَعُ

في أسْفل وادٍ من وِدْيَانها، وفِي سَمَاءِ هٰذا الموقع يمُوجُ الدُّخَانُ الأسْودُ الّذي يُلْقِي ظلَّهُ عليه.

وَبأَنَاةٍ وَتَأَمُّلٍ نُدرك أنَّ الوِدْيَانَ لا بُدَّ أن تقَع بيْنَ جبالٍ، وأنَّ المداخلَ أو المخارِجَ من هذه الوِدْيان هيَ شُعَبٌ، أو شِعَاب، في المضايق الّتي تتقارَبُ فيها الجبال.

﴿شُعَبٍ﴾ جمْعُ «شُعْبَة» وهي صَدْعٌ في الجبل بمثابة طريقٍ، أو مضيقٍ بيْنَ جبلَيْن.

فإذَا كَان مَكَان المكذبين في قَعْرِ وادي «ويْل» الْمُجَلَّلِ بالظِّلّ الموصوف، ذَا ثلاث شُعَب، فلا بُدَّ أنْ يكون مكاناً فيه سعَةٌ ما، وسط وادٍ تُحيطُ به ثَلاثُ جبالٍ من جهَاتٍ ثلاث.

ومن الطبيعيّ أيضاً أنْ يكون لهذا الوادي مخارج في أطرافه هي شُعَبٌ ثَلاثٌ.

إذَن: لَقَدْ تَمَّ بهذا رسْمُ صُورَة الموقع في أسْفَل هذا الوادي الذي يُطْلَقُ عليه اسم «ويل» كما سبَقَ بَيَانُه، والاستدلال عليه بالحديث الّذي رواه أحمد في مُسْنَدِه، والترمذيُّ، وابْنُ حبّانَ في صحيحه، والحاكم في مستدركه، عن أبي سعيد أنّ النبي ﷺ قال:

«وَيْلٌ وادٍ في جَهَنَّمَ يَهْوِي فِيهِ الْكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفاً قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَعْرَهُ».

ولئن لم يَرْقَ سَنَدُه عند المحدّثين إلى درجَة الحديث الصحيح، إلاّ أنّ معناه يلْتَقِي مع دلالَةِ البيان القرآنيّ في هذا النّصّ من سورة (المرسَلات).

ومعلُومٌ أنّهُ لاَ يكون وَادِياً إلاَّ أَنْ يكون بين جبال، وتَحْدِيد الشُّعَب

الثلاث لهذا الوادي يَدُلُّ عن طَرِيق اللُّزُوم الذِّهْنِيّ على أنَّه بَيْنَ ثلاثَة جبالٍ غَيْر مُتَلاصقة، وهٰذِهِ الشُّعَبُ الثلاث هي المخارج الضَّيِّقَة لهذا الوادي.

فالذين يكونُون من أهل العذاب في هذا الوادي، لا مَخْرج لهم إلاّ أن يَصَّعَّدُوا في جبلٍ من هٰذه الجبال، وهذا التَّصَعُّد يتحمَّلُون فيه عذاباً أشَدّ ممّا هم فيه في قاعِ الوادي، إذْ فيه إرْهَاقٌ من جِهَة، واقْتِرَابٌ من مصادر اللَّهَبِ وشِدَّة الحرّ من جهة أخرى. أو بأن يَدْخُلوا في إحدى هذه الشُّعَب الثلاث، وهي مضايقُ أشدُّ حرّاً، وأشَدُّ عذاباً، فاللَّهَبُ مُحيطٌ بالوادي، وبجباله، وبشُعَبه.

■ **وأمّا اللَّقطة الثالِثَةُ مِنْ تصوير الموقع**: فقد جاء فيها وصْفُ ما تَرْمِي به النَّارُ من حَوْلِه إلَىٰ سَماءِ وَادِي «وَيْلٍ» من شَرَرٍ، واحدتُها «شَرَرَة». فقال الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

بهذا التعبير يضيف النَّصُّ لَقْطَةً تَصْوِيريَّة لبَعْض الأحْداث الَّتي تَجْري في الموقِع الَّذي أُمِرَ المكَذِّبُونَ بأنْ ينطَلِقُوا إليه، فانطَلَقُوا مُكْرَهِين.

إنَّ الموقعَ جُزْءٌ من جهَنَّم الَّتي توقَدُ فيها النّار الحامية، فكان من الأدَب الرّفيع التَّحَدُّثُ عن النار بالضّمِير «إنَّها» والقرينة تُعَيِّنُ المراد، إذْ لاَ يَرْمي بالشَّرَرِ غير النار، فهي تَرْمي بالشَّرَرِ إلى جَوّ وادي «ويل» على وفْقِ الوصف الْبَدِيع الذي جاء في النصّ.

إنَّ من طبيعَةِ الشَّرَر أنَّهُ جَمْرِيٌّ مُتَوَهِّجٌ ولَهُ ضَوْءٌ ما، فيكْفي ذكْرُ الشَّرَرِ عَنْ وَصْفِه بالتَّوَهُّجِ، وبثُّ الضَّوْءِ الْقَاطِع أحياناً لدوام الظّلّ غَيْرِ الْبَارِدِ، وغَيْرِ الكريم، في وَادي «ويل».

جاء وصْفُ الشَّرَرِ في النَّصّ بأنَّه مِثْلُ الْقَصْر، وهو الْبنَاء العظيم العالي الواسعُ المحصَّن، وسُمّي قصْراً لأنّه تُقْصَرُ فيه الْحُرَمُ، أي: تُحْبَسُ، ويُقْصَرُ

عن دخوله والاقتراب من أسواره إلاّ بإذن، إذ القصور في الغالب مساكن الملوك والعظماء، وأصحاب المكانات.

هذا الوصْفُ القرآنيُّ يوحِي بأنَّ النّار تَرمي من أعْلَىٰ الجبال المحيطة بوادي «ويل» بشَرَرٍ قَدْ اجتَمَعَ بعْضُهُ إلىٰ بعْضٍ اجتماعاً في أشكالٍ هَنْدسيَّةٍ، تُشْبِه القصْرَ الْعَظِيم، في مُرْتَفِعَاتِهِ، ومُنْخَفِضاته، وشُرُفَاتِه، وَنَوَافِذِهِ، وأسواره، وأبْراجه، وَحَدَائقه، وأشجاره، إلى غير ذلك.

هل رأيتُمُ الأسْهُمَ النّارِيَّة العظيمةَ الّتي تَنطَلِقُ صاروخيَّةً، ثُمَّ تَنفجرُ في الجوّ، فتُصَوّرُ أشكالاً مختلفة.

إنَّ هذا النَّصَّ القرآنيَّ قَدْ قَدَّمَ للنَّاس صُورةً تعبيريَّةً فيها أكْثَرُ تشكيلاً هَنْدَسِيّاً رَائِعاً، من هٰذه المستَحْدَثَاتِ المعاصرات لَنَا الْيَوْم.

وبَعْدَ وَصْفِ الشَّرَرِ مُجْتَمعاً في الجوّ بأنّه يُشْبِهُ القصر، جاء وصْفُه في قول اللّه عزّ وجلّ كَمَا جَاءَ في قراءة جمهور القرّاء العشرة: **[كَأَنَّهُ جِمَالاَتٌ صُفْرٌ]**. وفي قراءة أُخْرَىٰ متواتِرَة: **[كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ]**. وفي قراءة ثالِثَةٍ مُتَوَاتِرَةٍ أيْضاً: **[كَأَنَّهُ جُمَالاَتٌ صُفْرٌ]**.

ولدى تَدَبُّر هٰذه القراءات تَدَبُّراً تَحْليليّاً، نُدْرِكُ أنَّ هذا الوصْفَ اللاَّحِقَ بقراءاتٍ بدائل ومن دُون حَرْفِ عطْفٍ يُوحي بإشارتِه السَّريعَةِ الخفيفَةِ إلَىٰ مَا يلي:

(١) إنّ الشَّرَرَ المجتمع المتفجّرَ في سماء وادي «ويل» يَكُونُ أوّلاً يُشْبِه القَصْر.

(٢) وبَعْدَهُ يتَشَكَّلُ تَشكُّلاً آخَرَ، تكُونُ فيه كُلُّ شرَرَةٍ على شكْل جَمَلٍ أصْفَر، وهو مشْهَدٌ كُلّيٌّ دَلَّتْ عَلَيْه قراءة: **[كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ]** أي: طائفَةٌ من الجمال الصُّفْر المجتمعة، هاجِمَةً في اتّجاه قاعِ وادي «ويل».

(٣) وَبَعْدَهُ يتشكَّلُ تشكُّلاَ ثَالثاً، فيَكُونُ الْمَشْهَدُ الكُلِّي موزَّعاً في الجهات، كأنَّهُ قُطْعَانٌ من الْجِمال الصُّفْر، كُلُّ قطِيع منْها يَهْوِي إلَىٰ جِهَةٍ من الجهات، على مُحِيط الدّائرة، وهو مشهد دلّت عليه قراءَةُ: **[كَأَنَّهُ جِمَالاَتٌ صُفْرٌ]**.

(٤) وبعْدَهُ يكُونُ تَشْكِيل المشهد يُشْبِهُ حِبَالاً عظيمةً مُتَدَلِّيَةً في اتّجاه بَطْن الوادي، ومن كُلِّ جِهاته، وهو ما دَلَّت عليه قراءَةُ رُوَيس: **[كَأَنَّهُ جُمَالاَتٌ صُفْرٌ] جُمَالاَتٌ**: جمْعُ «جُمَالَة» وهو الحبْلُ العَظيم الَّذِي تُشَدُّ به السّفينة، وقد سبَق بيان هذا.

فتكامَلَتِ القراءاتُ في رسْمِ المشْهَدِ العجيب، مع غاية الإيجاز.

ولا يخْفَىٰ ما في مَشْهَد **«الْجِمَالَةِ الصُّفْرِ»** وبَعْدَهُ مشْهَدُ **«الجِمَالاَت الصُّفْرِ»** قُطْعَاناً موزّعةً هاجمَةً بشَكْلٍ مُخِيفٍ من أعْلَىٰ إلى أسْفل، حيْثُ مَوْقع المكذّبين، وبَعْدَهُ مَشْهَدُ **«الْجُمَالاَتِ الصُّفر»** وهي الحِبَالُ النَّارِيَّةُ العظيمة الممتدَّةُ، منْ إثَارَةٍ للرَّهَبِ في النفوس، مع ما فيه من دِقَّةٍ حَرَكِيَّةٍ في التَّصْوير الْفَنِّيّ الأَدَبيّ.

وتتبُّعاً للدّقّة الرائعة الرائقة البديعة في التصوير جاءت عبارة التشبيه اللاّحِق، للحركة التّالية بعْدَ الشَّرَرِ المجتَمع كالْقَصْر بصِيَغ ثلاثٍ **[كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ]** ـ **[كَأَنَّهُ جِمَالاَتٌ صُفْرٌ]** ـ **[كَأَنَّهُ جُمَالاَتٌ صُفْرٌ]** في حركاتٍ ثلاثٍ متواتراتٍ من دون فاصل بعطف، مع المحافظة على الوصْفِ بالصُّفْرَة، للدَّلاَلَة علَىٰ أنَّ الشَّرَرَ قَدْ وَصَلَ إلى مرحَلَةِ الْحِبَالِ العظيمة ولَمْ ينْطَفِئ.

إنّ هذا التَّشْبيه يُصَوِّر المرحلَةَ الْجَمَلِيَّةَ كُلَّ شَرَرَةٍ بجَمَلٍ أصْفر، فهي أوّلاً قطيعٌ واحدٌ ضخْمٌ من الجمال الصُّفْر، وهي ثانياً قُطْعَانٌ من الجمال المتدافعة السَّاقِطَة في الجوّ بانْتِظَامٍ في كُلّ الجهات.

وأخيراً تتدلَّىٰ علَىٰ شكْلِ حِبالٍ عظيمةٍ في اتِّجاهِ أسْفَلِ الوادي، حيْثُ مَوْقع المكذبين.

إنَّه لمشهَدٌ مُرْعِبٌ حقّاً، وقد جاء التَّتابعُ في التشبيه من دون عَطْف دليلاً على التتابُع السَّريع في حركة الواقع، حتَّىٰ كأنّ الأحداثَ المتلاحقة تأتي في وقْتٍ واحدٍ.

هذا هو الصّدْقُ الْفَنّيُّ حقّاً، إذْ يكُون الأَدَاءُ التعبيريُّ مطابقاً لحالة الشُّعُورِ النَّفسِيّ، إنْ لَمْ يَكُنْ بالنسْبَةِ إلى المتكلّم، فبِالنِّسْبَةِ إلى الْمُشَاهد، أو المخاطب، مع كمال الْإيجاز باستخدام القراءات لكلمة واحدة من كلمات الْجُملة.

ونُلَاحظُ أنَّهُ لم يُوصَفِ الْقَصْرُ بالصُّفْرَةِ اكتفاءً بأمْرَين:

الأمر الأول: أنَّهُ جاءَ وَصْفاً للشَّرَرِ، والشَّرَرُ جَمْرٌ أصْفر، وحجارة القصور لدَىٰ المخاطَبين من الْعَرب أكْثَرُها ذاتُ لَوْنٍ أصْفر.

الأمر الثاني: أنَّ مَرَاحِلَ «الجِمَالَة» فـ«الْجِمَالاَتِ» فـ«الْجُمَالاَتِ» قَدْ وُصِفَتْ بالصُّفْرَة.

وهذا الوصف بمُجْمَلِه من نوع تشبيه التمثيل، الذي يجْمَعُ الصُّورَة واللَّوْنَ والحركَةَ مع المؤثرات النفسيَّة.

عنْد هذا المفْصِل من مفاصِل السُّورَة نُدْرِكُ أنَّه من المناسِب والبديع تكرير التحذير والتهديد بعبارَة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾ الّتي سبَق بيانُ اختيارها للتكرير العلاجيّ، عنْدَ مفاصلَ محدَّدَةٍ بإحكامٍ من مفاصل هذه السُّورَة، وسبَقَ تَدَبُّرُها.

❀ ❀ ❀

● قول اللّه تعالى:

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

اعتذَر مِنْ ذنْبه: أي: تنصّل منه، واحتجَّ لنفسه مُدَافعاً عنها.

نتساءل لدى تدبّر هذه الفقرة:

هل يُمْنع المكذّبون يوم القيامة من النُّطق منعاً كُلّيًا، فيُبْعثُونَ بُكماً، أم يُمْنَعُونَ من النُّطْق عند رغبتِهِمْ في الثرثرة بتقديم المعاذير الكواذب؟؟.

لقد دلّت نصوص قرآنيّةٌ أُخرَىٰ، وبيانات نبويّة، على أنّ الكافرين يوم القيامة يَنْطِقُون، وأنّهم يحاولون الدّفاع عن أنفسهم بالمعاذير الكواذب، فَيُخْتَمُ عَلَىٰ أفواهِهِمْ، وتَنْطِقُ جوارِحُهُم وجُلودُهم بما كانوا يفعَلُونَ في الدُّنيا من كفريّاتٍ وجرائم أخرى.

وثبَتَ في القرآن: أنّهم يَدْعُونَ رَبّهم دُعاءً جماعيّاً قائِلين: ربَّنا أبْصرْنَا وسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إنّا مُوقِنُونَ. وأنهم يقولون: عند رؤيتهم العذاب: هَلْ إلَىٰ مَرَدٍّ من سبيل. وأنّهم يَقُولُونَ حين يُوقَفُون على النار: يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بآياتِ رَبِّنَا ونكونَ من المؤمنين، أمّافي داخل جَهَنَّمَ فإنّهم يَصْطَرِخون، ويُخاطبون مالكاً خازنَها بأنْ يَقْضِيَ عليهم ربُّهُمْ بالْمَوْتِ، إلى غير ذلك ممّا دلّتْ عليه النُّصوص المختلفة.

بقي أنْ نَفْهَمَ أنّهم عنْدَ مُحاكَمَتِهِمْ إمَّا أنّهُمْ لا يَنطِقُونَ باختيارهم، لاقتناعهم بثبوت جرائمهم عليهم، وقَدْ يكُونُ هٰذا من بعضهم فقط. وإمَّا أنّهُمْ يُمْنَعُونَ بالْجَبْرِ من الثَّرْثَرَةِ بتقديم المعاذير الكواذب، وهٰذا يكون من أهْل الجدل والمماراة والثرثَرَةِ فيهم.

وأستعرض بعض النُّصوصِ الكاشفة والدّالّة على هذا الْفَهم.

النّص الأول:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بياناً لبعض ما سوف يخاطَبُ به الكافرون يوم الدين، وبياناً لبعض الأحوال التي سَوْف يَتَعَرَّضُون لها.

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

هذا الختم على أفواههم يكُونُ في حالة جُحُودِهم جرائمهم وإنكارهم لَهَا، كما جاء في بيان الرَّسُول ﷺ الآتي ذكره إن شاء الله.

النّص الثاني:

قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

فدلَّ هذا النَّصُّ على أنَّ المجرمين يتكلَّمُونَ يوم القيامة فيما بيْنَهُم كلاماً خافتاً، فَهُمْ إذَنْ لا يكونون يوم القيامة بُكْماً، إلاَّ أنّ الموقف الرّهيب يَجْعَلُهم يتخافتُونَ بَيْنَهُمْ.

النّص الثالث:

قول الله عزّ وجلَّ في سُورَةِ (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ...﴾.

فَدَلَّ هذا النَّصُّ على أَنَّهم يُخَاطِبُونَ جُلُودَهم الّتي تَشْهَدُ عليهم، فلَيْسُوا بُكْماً.

ممّا جاء في بيانات الرسول ﷺ:

(١) روى مسلم عن أنَسِ بن مالك قال: كُنَّا عِنْدَ رسول اللَّهِ ﷺ فَضِحِكَ، فقال:

«هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟».

قُلْنَا: اللَّهُ ورسُولُهُ أعلم.

قال: «مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟».

قالَ: «يَقُولُ: بَلَىٰ».

قال: «فَيَقُولُ: كَفَىٰ بِنَفسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيداً، وَبِالْكِرَامِ الكاتبين شُهُوداً».

قال: «فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِه: انطِقِي. فتنطِقُ بأعْمَالِهِ. ثُمَّ يُخَلَّىٰ بَيْنَهُ وبَيْنَ الكلام، فيقول: بُعْداً لَكُنَّ وسُحْقاً، فَعَنكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ»[١].

(٢) وروى ابْنُ أَبي حَاتِمٍ وابْنُ جريرٍ عن أبي سعيد عن النبيّ ﷺ، قال:

«إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ عُرِّفَ الْكَافِرُ بِعَمَلِهِ، فَيَجْحَدُ ويُخَاصِمُ، فَيُقَالُ: هَٰؤُلَاءِ جِيرَانُكَ يَشْهَدُونَ عَلَيْكَ، فَيَقُول: كَذَبُوا. فَيُقَالُ: أَهْلُكَ وَعَشِيرَتُكَ. فَيَقُولُ: كَذَبُوا. فَيُقَالُ: اِحْلِفُوا فَيَحْلِفُونَ. ثُمَّ يُصِمُّهُمُ اللَّهُ، فَتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَيْدِيهِمْ، وَأَلْسِنَتُهُمْ، ثُمَّ يُدْخِلُهُمُ النَّار».

فدلَّتْ هٰذِهِ النُّصُوصُ وهٰذِهِ الْبَيَانَاتُ على أنَّ المجرمين لاَ يُمْنَعُونَ يوْمَ الدِّين من الدّفاع عن أنفُسِهم، لكِنَّهُمْ يُمْنَعُونَ من الثرثرة بالباطل، ومن تقديم الأعذار الّتي ليس لَدَيْهم منها إلاّ الأكاذيب.

إنّ أرْكانهم «سَمْعَهُمْ وأبْصَارَهم وجُلُودَهُمْ» تَشْهَدُ عليهم يوم الدّين بكُلِّ ما كانوا قد كَسَبُوهُ في الحياة الدنيا، ويَدْخُلُ في عُمُوم جلودِهم جُلُودُ

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ـ كتاب الزهد.

أفْوَاهِهِمْ وألْسِنَتِهِمْ ممَّا كانَ من ذُنوب وجرائم ارْتَكِبُوها فيها، أمَّا النُّطْقُ الّذي يُريدُون التعبير به عمَّا يَصْطَنِعُون من تَلْفِيقات وأكاذيبَ ومعاذير، فَهُو الذي يُمْنَعُونَ منه، إذْ يُخْتَمُ علَىٰ أفواههم فَلاَ تَسْتَطِيعُ التعبيرَ عن رَغَبَاتِهِمْ في الدّفاع الكاذب عن أنفسهم.

هذا ما دَلَّ عليه الْجَمْعُ بَيْنَ مُخْتَلف النُّصُوص، وهو المنْهَجُ الذي يجب اتِّباعُهُ في كُلّ النُّصُوص القرآنية الدائرة حَوْل موضوع كُلّيٍّ واحد.

وقد خُتِمَت هذه الفقرة كسابِقَاتها بعبارة الوعيد: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٧﴾ ضمن الأسلوب العلاجيّ المختار لهذه السورة.



قول اللّه تَعَالَىٰ:

﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ۝٣٨ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ۝٣٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٠﴾.

الآيتان (٣٨ ـ ٣٩) قَوْلٌ مُستَقْطِعٌ بفَنِّيَّةٍ بَديعةٍ مِمَّا سَوف يُخَاطَبُ بِهِ المكذِّبُونَ يَوْمَ الدّين، والظّاهر أنّه يكونُ عند إقامة محكَمَةِ العدْلِ الرَّبَّانيَّة، ويكونُ خطاباً من الرَّبّ جلَّ جلالُهُ لعباده.

﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾: أي: يُقَالُ لهم يَوْمَئِذٍ هذا يَوْم الْفَصْل.

الفَصْلُ في اللُّغَة: الْفَرْقُ والتَّمييزُ بَيْنَ الشيئَيْن أو الأشياء. والْقَضَاءُ، والحكْمُ الفاصل. يُقَالُ لغة: فصَلَ يَفْصِلُ فَصْلاً وفُصُولاً. وفَصَلَ الحاكم بيْنَ الْخَصْمَيْن، أي: قَضَىٰ وحَكَمَ، وَيُفْصَلُ أهْلُ الموقف إلى زُمَرٍ على وفق الأحكام الّتي صدَرَت بشأن كلّ زُمْرَة منهم.

ولمَّا كانت محْكَمَةُ الْعَدْل الرَّبَّانِيَّةُ يوم الدّين تَفْصِلُ بين العباد، بأحكامٍ قضائِيَّةٍ، فَتُمَيِّزُ أَهْلَ الجنَّة عَنْ أهْل النار، وتُمَيِّزَ بَيْن مراتب أهْلِ الجنَّةَ

ودَرَجَاتهم، وتُمَيّزُ بين مَنَازِلِ أهلِ النّار ودَركاتهم. أَطْلَقَ اللَّهُ عزّ وجَلَّ على يَوْمِ الدّين اسْمَ «يَوْمِ الْفَصْل» إِذِ الْفَصْلُ أَحَدُ عناصر يوم الدّينِ الكُبْرَىٰ، قَبْلَ تَنْفِيذِ الجزاء، وبعْدَ الْبَعْث والحشْرِ والحِسَاب، فمِنْ دُونِ الْحُكْمِ الْفَصْل لا يكُونُ جزاء.

﴿جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾: أي: جَمَعْنَاكُمْ يا أيُّها الذين كذَّبُوا محمّداً وكذّبوا بالقرآن، وبيوم الدين، وجَمَعْنَا الْأَوَّلين من أَهْلِ القرون الأولى، حتَّىٰ بِعثَةِ مُحَمَّد وإنْزَال الرسالة الخاتمة عليه، وهذا الخطاب يَشْمَلُ كُلَّ المكذّبينَ بَعْدَ بَعْثَةِ محمّد حتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَة.

ويُوَجَّه هذا الخطابُ للكَفَرَةِ المكذّبين، لأنّ المؤمنين لا يَحْتَاجُونَ مثْلَ هذا الخطاب يَوْمَ الدّين، إذْ كانُوا في الحياة الدنيا به موقنين.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾: هذا تابع لخطاب المكذبين يوْمَ الدِّين، إذْ يَقولُ اللَّهُ لَهُمْ: إنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ.

كيف يكُونُ لهم كيد، وهم عاجزُون عن أنْ يتصرَّفوا في تحرُّكاتهم أيّ تصرُّف، إذْ هم يومئذٍ مَجْبُورُون، يتحرَّكُونَ بالجبْرِ، دُونَ أَنْ تكون لهم الخِيَرَةُ في شيْءٍ من أعمالهم، باستثناء أقوالهم، وخواطِرِ أفكارهم ونفوسهم؟!!.

وفي هذا تَحَدٍّ من الْقَدِير على مايشاء، للعاجِزين عن كلّ شيءٍ فَلاَ يسْتَطِيعون فِعْلَ أيّ شيءٍ يشاؤون، والغرضُ تَذْكيرُهُمْ بالأَحْوَال الّتي كانوا مَعَها في الحياة الدنيا، حياةِ البتلاء، مُمَكّنينَ من مُعَانَدَةِ رَبّهم ومَعْصيته، ومُمَكَّنِينَ من مُقَاومَةِ دَعْوَةِ رَسُوله، واضطهادِ الذين آمنوا به واتَّبَعُوه.

الكَيْدُ: الحيلة، والحربُ وإعداد وسائلها وأسلحتها ودفاعاتها، وكُلُّ تدبير ظاهِرٍ أو خَفِيٍّ بحَقّ أو بباطل، وفيه مكرُوهٌ لمَنْ دُبِّر ضدّه، وكُلُّ تَدْبير يحقّق لصاحبه النّصْر أو النجاة.

والمعنى: فإنْ كَانَ لَكُمُ اليوم كَيْدٌ تَنصُرُونَ به أنفُسَكُمْ، أَوْ تُنْجُونَ بِهِ أَنفُسَكُم من عذاب ربّكم الّذي كفَرْتُمْ به وبرسُوله وبكتابه، أوْ تحارِبُونَه به، فافعَلُوا. ولَنْ يَسْتطيعوا أيّ كيد.

جاء في العبارة استعمال حرف الشرط «إنْ» للإشارة إلى أنَّهُمْ يكونُون عاجِزين، فهي في الغالب تُسْتَعْمَلُ في المستحيل، أوالمتعذّر، أو فيما هو مشكُوكٌ فيه ومستَبْعَدُ الوقوع، وقد استعملَتْ هُنَا في المستحيل، فالمتحدّي هو الرَّبُّ الخالِقُ الذي لا حول ولا قُوَّة إلاَّ به.

وحُذِفَتْ يا المتكلّم من ﴿فَكِيدُونِ﴾ بحسب قراءة جُمْهورِ القرّاء العشرة إيجازاً، وحَذْفُها مَأْلُوفٌ في الاستعمالاتِ العربيّة، وكثيرٌ جدًّا في القرآن. وأُثْبِتَتْ هذه الياء في قراءة يَعْقُوب مُراعاةً للأصْل.

إنَّهم يوم الدين عاجزون عن فعل أيّ شيءٍ ممَّا كانوا يَفْعَلُونه في الحياة الدنيا، لا يملِكُون إلاَّ تَلَقِّي ما يَقْضِيه اللَّهُ عزّ وجلّ علَيْهم، أوْ فيهم، لَقَد انْتَهَىٰ دَوْر الابتلاء، وجاء دَوْرُ الجزاء.

وعند هذا المفصل البياني جاء موقع تكرير العبارة العلاجيَّة التي فيها تحذير وتهديد ووعيد، والمختارة لهٰذه السورة بفَنّيَّةٍ رائِعةٍ، فقال اللَّهُ تَعالَىٰ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

❊ ❊ ❊

قول الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

من الأسلوبِ التربَوِيّ النافع في القرآن الكريم، أنّه إذا جاء فيه بيَانُ

جَزَاءِ الكافرين المكَذّبين، أو جزاء الْعُصَاة والمذنبين، أُتْبِعَ ببيان ثواب المتقين وَأهل الاستقامة والطاعة، والعكس كذلك.

وتمشِّياً مع هٰذه الطريقة التربوية الحكيمَةِ، جاءَتْ هذه الفِقْرة من فِقَرات هذا الدرس الرابع الذي نَتَدَبَّرُ آياته، لتقدّم صورة من صور نعيم المتقين والأبرار والمحسنين.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١﴾: جاءت هذه الجملَةُ مؤكَّدَةً بمؤكّدَيْن: «إِنَّ» و«الجملة الاسميّة» كما يَقُول عُلَمَاءُ البلاغة.

المتَّقُون: هم أهْلُ مَرتبة التقوىٰ على تفاضل دَرَجاتهم.

التقوى في اللغة: أن تجعل بينك وبين ما تحذَرُ من مكروه وقايةً بفعل أو ترك، ففعلُ الواجباتِ يقي عقوبة تركِها، وتركُ المحرَّمات يقي عقوبة فعلها.

ومَرْتبة التقوى ذات درجات، وأدنىٰ درجاتها أنْ يتّقي المـمْتَحَنُ المكلّف الخلودَ في عذاب النار يوم الدين، بإيمان ينجيه من هذا الخلود، وتَرْتَقِي الدرجات بمقدار أدائه الواجبات، واجتنابه المحرَّمات، وأعْلَىٰ دَرَجَةٍ من درجاتِ هذه المرتبة، هي درجة مَنْ يُؤَدِّي كُلَّ الْوَاجبات، ويَجْتَنِبُ كلَّ المحرّمات، وقد يحتَلُّها مَنْ يغْفِرُ اللَّهُ له خطاياه الّتي ارْتَكَبَها بِتَرْكِ واجباتٍ، أو فِعْلِ مُحَرَّمات، إذا عَلِمَ اللَّهُ بحِكْمَته أَنَّهُ أَهْلٌ لأَنْ يحتلَّها، كأَنْ يَتُوبَ ويَسْتَغفر، أو يفعل من النوافل ما يمْحُو به الخطايا، فالحسنات يُذْهِبْنَ السَّيِّئَات بفَضْل اللَّه وغُفْرَانِه وعَفْوه.

وتأتي «مَرْتَبةُ البِرّ» فَوْقَ مَرْتَبَة التقوىٰ، وهِيَ أيضاً ذَاتُ دَرَجاتٍ كثيرات، ويَرْتَقي في درجات هٰذه المرتبة من يَتَوَسَّعُ في فِعْلِ النَّوافِلِ من الصالحات الّتي رغَّبَ اللَّه فيها دون إلزام، ورتَّبَ على فِعْلِها ثواباً جَزِيلاً للمتطوّعين، دون أن يرتّب عقاباً على تاركيها.

ويَرْتَقِي في «مرتبة البرّ» الأبْرار، وهم يتفاضَلُونَ بحسَب توسُّعَاتِهم في فعل النوافل ابتغاء مرضاة اللّه، ولا يكون الارْتقاء في هذه المرتبة إلاّ بَعْدَ اسْتِيفاء حقوق مرتبة التقوىٰ، في نوع العمل الذي يُؤَدّي فيه المؤمن النَّوافلَ تَبرُّراً.

وتأتي «مرتبة الإحسان» فَوْقَ «مَرْتبة الْبِرّ» وهي ذَاتُ درجاتٍ كثيراتٍ أيضاً، والإحْسَانُ يكُونُ بأنْ يَعْبُدَ العبْدُ رَبَّهُ كَأَنّه يَراه، فَهُو إتْقانٌ في عَمَلِ العبادة مع غاية الإخلاص للّه عزّ وجل، وابتغاء مرضاته.

ويرتقي في «مرتبة الإحسان» المحسِنُونَ، وهم يتفاضلون على مقادير إحسانهم في عباداتهم لربّهم، وابتغائهم رضوانه، ولا يكون الارتقاء في هذه المرتبة إلاّ بعْدَ اجتياز مرْتبة التقوى فمرتبة البرّ في نوع العمل الذي يؤدّيه العابد لربّه.

وأهل هذه المرتبة المرسلون والأنبياءُ ويَصِلُ إلى بعض درجاتها الصّدِّيقُون والشهداء والصالحون من المؤمنين المسلمين لله ربّ العالمين من غير الأنبياء والمرسلين.

﴿فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾: أي: في جنَّةٍ ذَاتِ ظِلاَلٍ وذاتِ عيون تجري منها أنهار، وقد جاء في غير هذا النَّصّ بيَانُ أنّ أنهار الجنَّةِ متنوعة، فمنها أنهار مياهٍ شديدة العذوبة، ومنها أنهارٌ من لَبَنٍ، ومنها أنهارٌ من عَسَلٍ مُصَفًّىٰ، ومنها أنهار من خَمْرٍ لذَّةٍ للشّاربين، لا غَوْلٌ فيها، ولا هم عَنْها يُنْزِفُون، أي: يَسْكَرُون.

ذِكْرُ الظِّلاَل كنَايةٌ عن وُجُودِ قُصُورٍ وأشجارٍ باسقات تُعْطي ظلاًّ دائماً. واستعمال الجمع«ظلال» يَدُلُّ على أنها ظلاَل متنوعة من أشجار وقصور كثيرة الأنواع، على خِلاَفِ ظلّ الدخان الذي يكون لأهل النار.

وذكر العيون كنايةٌ عن وجود أرْضٍ تتفجَّرُ فيها هٰذه العيون.

وكُلُّ ذَلك كناية عن الجنَّةِ الّتي أعَدَّها الرَّبُّ جلَّ جلالُهُ لسُكْنَىٰ المتّقين

الخالدين فيها يوم الدِّين، ولسكنىٰ الأبرار والمحسنين، فهم متقون وفوق المتقين.

وظاهرٌ أنّ استخْدَام هذه الكنَايات هو من أساليب البيان غير المباشر، وهو من أساليب البلغاء الرفيعة.

﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾: وذاتِ فَواكه مُثِيرَةٍ لشهواتهم، ومُلَبِّيةٍ لرَغَبَاتِ شَهَواتهم أن يَأكُلُوا منها، متَنَعِّمين.

[فَوَاكِه] جمع «فاكهة» وهي تُطْلق في اللُّغة على كلّ الثَّمَر، ومنه: «التَّمْرُ والعِنَبُ والتّين والرُّمَّان» إلى سائر ثمرات الأشجار اللّذيذة المثيرة لشهوات الآكلين.

﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾: أي: من جُمْلَة ما يشتهون أنْ يتَنَعَّمُوا به في الجنة. «مِنْ» في «مِمّا» للتَّبعيض. وفي هذا إشارة إلى مشتَهَيَاتٍ أخرىٰ لا تُحْصَرُ ينَعِّمُ اللَّهُ عزّ وجلّ بها أهل دار كرامَتِه.

في مقابل بيان أَوْصاف مكان المكذبين في جَهَنَّم يوم الدِّين، بأنَّهم يكونون في ظلٍّ ذي ثَلَاثِ شُعَبٍ، لا ظليلٍ ولا يغني من اللَّهَب، إذْ يكونُ من يحْمُوم، وهو دُخانُ نَارِ جهَنَّمَ الأسْود.

جاء بيان صفات مكان المتقين في الجنّة يوم الدين، على طريقة مقابلة الأوصاف بأضدادِها من أجناسها، فالمتَّقون في جنَّةٍ ذاتِ ظلالٍ وعيونٍ مُتَدَفِّقة بالمشارب، فهي ظِلالٌ باردَةٌ وكرِيمة، مع مُرافقَاتٍ تنعيميَّة أخْرَىٰ.

وعبارة [في ظلال] وما عطف عليها، تُشْعِرُ بأنَّ المتَّقين مُحَاطُونَ بوسائِلِ نعيمهم إحاطة الظَّرْف بالمظروفِ فيه.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾: حَدَثٌ مُسْتَقْطَعٌ من أحداث

ما سَوْفَ يكُونُ للمتقين في جنَّاتِ النعيم، وهذا الاستقطاع من أحداث المستقبل، وتَقْدِيمُهُ في البيان الحاضر، من الْفُنون البيانيَّة القرآنيَّة البديعَة.

ويُفْهَمُ عن طريق اللّوازم الفكريَّة، أَنَّ المتقين في جنَّاتِ النَّعيم يُقَالُ لَهُمْ هذا الْقَوْل على سبيل التكريم.

أي: كُلُوا ممَّا تَشْتَهُونَ من الفواكه، واشْرَبُوا ممّا يلَذُّ لكُمْ من الْعُيُون، بإباحَةٍ تامَّةٍ لا حَجْرَ مَعَها وَلاَ غُصَّة، حالَة كَوْنِ مَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَشْرَبُون هَنِيئاً.

﴿هَنِيٓـًٔا﴾ أو [هَنِيًّا]: أي: سائغاً لذيذاً. يُقَالُ لُغَةً: هَنِيءَ الطعامُ أَوِ الشرابُ يَهْنَأُ هَنَأً وَهَنَاءَةً، أي: سَاغَ وَلَذَّ.

السائغ: هو الذي يمُرُّ في الْحَلْق سَهْلاً طيّباً مستَمْرَأً.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أي: بسبب ما كنتم تَعْمَلُون في الحياة الدُّنيا من عمل صالح مُسْتَنِدٍ إلىٰ إيمانٍ صحيح صادق، ومصحوب بابتغاء مرضاة ربّكم.

في هذه العبارة زيادَةُ تكريم لأَهْل دار النعيم يوم الدين، مع التذكيرِ بِصِدْق وعد اللّه الكريم، فالإشعارُ بأَنَّ ما هُمْ فيه قَدْ تحقَّقَ لَهُمْ بسبب ما كانوا يَعْمَلُونَ، فيه غايَةُ المبالغة في تكريمهم، مع أَنَّ ما هُمْ فيه إنَّما هو بفَضْل اللّهِ عليهم، أمّا أعمالهم في الحياة الدنيا فهي لا تكفِي لشُكْرِ ما أنْعَمَ اللّهُ عليهم به فيها، ودُخُولُهُمْ الجنَّةَ ونَعِيمَها قَدْ كانَ بمَحْضِ فَضْل اللّه علَيْهم.

ونظير هذا ـ وللّهِ المَثَلُ الأَعْلَىٰ ـ أنْ يضَعَ الْمَلِكُ أَوْ صاحِبُ فَضْلٍ عظيم، جائزَةً كبيرةً جدًّا، لصاحب الجواد الفائز في حلَبَةِ السِّباق، أو لصاحب أجمل قَصِيدَةٍ غزليَّة، أو لأوّل داخلٍ إلى مائدَتِه وآكلٍ منها.

فالدُّخولُ إلى المائدة والأكْلُ مِنها دَعْوَةٌ لتناوُلِ فَضْل الداعي، والمكافَأَةُ بالجائزة العظيمة هي أيضاً من فضله، وهكذا الدُّخولُ في الإيمان والإسلام، والمكافأةُ عليه بجنّاتِ النَّعيم يوم الدين.

وجاء في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) بيَانُ أنّ المتقين في جنَّاتِ النعيم، وأنّهم يقالُ لهم يومئذٍ:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

مع إضافات لم تأتِ في سورة (المرسلات) من نعيم أهل الجنّة.

وجاء في سورة (الحاقّة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) بيان أنَّهُ يقال لهم يومَئذٍ:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

● قوله تعالى:

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

يتحدَّثُ رَبُّنا في هٰذِه الآيَةِ بضَمِير المتكلّم العظيم، فيُبيِّن أنَّهُ يجزي المحسنين وهم أهْلُ مَرْتبة الإحسان الْعُلْيَا، جزاءً مُمَاثلاً لجزاء المتقين، أيْ: مَعَ ما يُفَضِّلُهُمْ به من جزاءٍ أعْلَىٰ، فما يُعْطِيهم من جزاءٍ أَعْلَىٰ لاَ يُوقِفُ عَنهُمْ ما دُونه مِنْ جزاء المتقين، إذْ هُمْ مُتَّقُونَ أوّلاً، وارْتَقَوْا عَنْ مَرْتَبَةِ المتقين إلى مَرْتَبَةِ الأبرار، ثُمَّ ارْتَقَوْا إلَىٰ مَرْتَبَةِ المحسنين، فاكْتَسَبُوا بذلِكَ جزاءاتِ المرتَبَتَيْن الدنيا والوسطى، مع جزاءات الدَّرجَةِ الّتي يكونون من أهلها في مرتبة الإحسان.

واقتصر النصُّ على ذِكْرِ المتقين أهل المرتبة الدنيا، والمحسنين أَهْلِ المرتبة العليا، لتُدْرِكَ عن طريقِ اللُّزُوم الذّهنِيّ والدَّلاَلات الفكريَّةِ أنَّ الأبرار وهم أهل «مرْتَبة الْبِرّ» ينالون في الجنة حظوظ مرتبة المتقين، لأنَّهُمْ مُتَّقُونَ وزِيادَة،

وينالون أيضاً حظوظاً أخرىٰ مخصَّصَةً للأبْرار بحسَبِ دَرَجاتهم في «مَرْتَبَةِ الْبِرّ».

وهذا من الإيجاز البديع في القرآن، الذي يَعْتَمِدُ على ذكاء المتلَقِّين الذين يتدبَّرُونَ النُّصُوصَ القرآنيَّةَ بأناة وتعَمُّقٍ.

وعند هذا المفصل يَأتي تكرير لازمة السُّورَةِ أمْراً مُحْكماً، فيَقُول اللَّهُ عزّ وجل:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.



(١٠)
التدبر التحليلي للدرس الخامس من دُروس السورة

الآيتان (٤٦ ـ ٤٧)

قال اللّه عزّ وجلّ:

﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

الْتِفَاتٌ بالخِطَاب، من الحديث عن المتقين، ووصْفِ بعْضِ ما سَوْفَ يكُونون فيه من نَعِيم يَوْم الدِّين في الجنّة، إلَىٰ مُوَاجَهة الكَفَرَةِ المكَذِّبين وهم ما زالُوا في حياة الامتحان في الدُّنيا.

إنّ فنِّيَّةَ التنقُّل في الْخِطَاب بين حيَاتَي الابتلاء والجزاء، من البدائع القرآنيّة الَّتي لم تُعْرَفْ عنْدَ الْبُلَغاءِ قبْلَ نزُول القرآن، وهذا الْفَنُّ الجميل من عناصر إعجاز القرآن المبتكرة.

إنَّ اللّه عزّ وجَلَّ يَقُولُ في هَٰذَا الدرس من دُروسِ السورة للكَفَرَةِ المكذِّبين:

﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾: أي: كُلُوا ممَّا خلَقْتُ للنّاسِ من

رزْقٍ في الحياة الدّنيَا، في الأرْض دار الابتلاء، واشْرَبُوا ممَّا جَعَلْتُ فيها للناس من مشارب، وتَمَتَّعُوا بشَهواتها، ولذَّاتها، ولَهْوِهَا ولَعِبها وَتكاثُرِها وتفاخُرِها وزِينَاتها، متاعاً قليلاً، في الكمّ وفي الكيف، وقَلِيلاً في الدّوام، إذْ هو متاعٌ ضئيل المقدار، وسَرِيع الزّوال.

المتاع: ما يُنْتَفَع به والفناءُ يأتي عليه في الدنيا.

وقد وصف اللَّهُ كلَّ ما في الدّنيا بأنَّهُ متاع قليل، لأنَّهُ قليل فِعلاً بالقياس على الخلود الذي يكون في الحياة الأخرى.

وقد جاء وصْفُ محَابّ الناس من الحياة الدنيا بأنّه متاعٌ قليل في عدّة نصوص قرآنية، وفي عِدَّة مناسبات، ومنها النُّصوص التالية:

(١) قول اللّه عزّ وجلّ في سُورَةِ (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) معالجةً تَرْبويَّةً للمؤمنين الذين كرهوا الدّخول في معارك قتاليّة مع الكافرين:

﴿...قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

الْفَتِيل: الخيط الذي يكُونُ في شقّ نَواة التّمر.

(٢) وقول اللّه عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾.

(٣) وقول اللّه عزّ وجل في سورة (الرّعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول) بشأنِ أهل النار، الّذين لهم اللَّعْنَةُ ولهم سُوءُ الدَّار:

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: وما الحياة الدنيا في جنْبِ الآخِرَة وبالقياسِ عَلَيْها إلاَّ مَتَاعٌ سَريع الزَّوال، وعُرْضَةٌ للْفَنَاء.

أمّا مَا في الجنة من جزاء فسمَّاه اللَّهُ عزّ وجلَّ في القرآن نعيماً مقيماً دائماً لا زوال له.

وفي قول اللّهِ عزّ وجلّ خطاباً للمكذبين وهم ما زالوا في ظروف الحياة الدنيا: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ بيانٌ لإمْهَالِهِمْ مع إشارةٍ ضمنيَّةٍ فيها تَهْدِيدٌ لَهُمْ وَوَعِيد، إذْ فيها إشعارٌ لَهُمْ بأنَّهم تَحْت المراقَبَةِ الدّائمة، وبأنَّ تمتُّعَهم بما يُحِبُّونَ من الْحَياة الدُّنيا خاضِعٌ لقضاء اللَّه وقَدَرِه، ضِمْنَ ظُرُوف امتحانهم.

وحكمَ اللَّهُ عزّ وجلّ عليهم حُكْماً وِجَاهيّاً خاطبهم فيه بقوله لهم: ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ أي: إنَّكُمُ الآنَ مُجْرِمُون، ما لَمْ تُقْلِعُوا عمّا أنتم فيه بالتوبة والإيمان والإسلام والعمل الصالح. أمّا إذا بقيتم مُصِرِّين على كُفْركم وتكذيبكم على الرُّغم من كلّ البيانات الإقناعيَّةِ والتَّرغيبيّة فإنَّكم ستظَلُّونَ مُجْرِمين، وستأتُون يَوْمَ الدّين مُجْرِمين، ويَنْطَبق عليكم أنّكُمْ مُكَذِّبون، وتسْتَحِقُّونَ الدُّخول في وعيد:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

هٰذه اللاّزمَة المختارة لِتَكْرِيرها عنْدَ مَفَاصِلِ السُّورَةِ بِفَنِّيَّةٍ بديعة.

الْجُرْمُ والْجَرِيمة في اللّغة: الذّنْبُ والتعدي. يقال: جَرَمَ وأجْرَمَ واجترم، أي: اكتسب إثْماً.

الْمُجْرِمُ: هو المذْنِب ذنباً عظيماً، وقد جاء لفظ «المجرمين» في القرآن عنواناً مُقَابلاً لعنوان «المسلمين» ووصفاً للكافرين الّذِين أهْلَكَهُمُ اللّه عزّ وجلّ في الدنيا، ووَصْفاً للمعذبين في النار، وهذا يَدُلُّ علَىٰ أنَّ الْمُجْرِمين في الاصْطِلاح القرآني هم الذين يرتكبُون الآثَامَ من مستوىٰ

الكفر، ولِهٰذا فَهُمْ من أهل النار الخالدين فيها. وهذا المعنى الاصطلاحي لا يخرج عن أصل المعنى اللّغوي الذي هو قطع الشيء من أصله.

ومن الأدلة على هذا المعنَى الاصطلاحي ما يلي:

(١) قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول):

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾؟!

(٢) وقول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الزّخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

ولمّا كانت خواطر كثيرةٌ مُزَلْزِلةٌ تَشغَلُ بعْضَ المؤمنين، إذْ يَرَوْنَ الكافِرين المجرمين ذوي مالٍ وسلطانٍ وقُوّةٍ أحْيَاناً، وتَقَلُّبٍ في بلاد الدنيا بحُرّيَّةٍ واستمتاعٍ بما يُحِبُّونَ، فَتَغُرُّهُمْ هٰذِهِ الظّواهِرُ، وتُوسْوِسُ لهم شياطينُ الإنْسِ والجنّ وَساوس شَتَّىٰ، قد تُزَلْزِل ما لديهم من ثوابت إيمانيَّة، كان من الحكمة العلاجيَّة أن يخاطب اللّه عزّ وجلّ كُلَّ مُؤْمِنٍ ومُسْلِمٍ خِطَاباً إفرادياً، فيَقُول لَهُ كما جاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾.

أي: كُلُّ ما في الدُّنيا من لَذّاتٍ يُصِيبُها النَّاسُ، وتَحقيقِ شهوات، وإرْضاءِ أهواء، مَتَاعٌ قليل، ضئِيلُ الْقِيمَةِ، سَرِيع الزّوال.

مَأْوَاهُمْ: أي: مَنْزِلُهُمُ الذي ينزلون فيه يوم الدين، ومَكانُ إقَامَتِهِمُ الذي يقيمون فيه. **المأوى**: المنزلُ الذي يُنْزَلُ فيه ويُسْكن.

جَهَنَّمُ: اسْمُ علَمْ من أسماء دار العذاب يوم الدّين، ويقال للقَعْرِ البعيد في اللُّغَة: «جِهَنَّم».

الْمِهَادُ: الْمَكانُ الْمُمَهَّدُ الموطّأ، وأطلَقَ اللّه على مكان الذين كَفَرُوا في جهنم لفظ «الْمِهادِ» على سبيل التهكّم بهم، إذْ هو مُعَدٌّ لتعذيبهم لا لتكريمِهِمْ، ولهذا قال اللّه بشأنه: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: وبئْسَ المكان المعَدُّ لهم فيها. بئْسَ: فعل ذَمٍّ، والمعنى: بئس المهادُ مِهَادُهم.



(١١)
التدبر التحليلي للدرس السادس من دروس السورة

الآيتان (٤٨ ـ ٤٩)

قال اللّه عزّ وجل:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

في هذا الدرس الْتِفَاتٌ عن خِطَاب الكَفَرَةِ المكذّبين، إلى الحديث عنهم بضمير الغائبين.

رُوِيَ أنّ هذا الدَّرْسَ من التنزيل المدنيّ، وأرى أنَّ السِّبَاق والسِّياق يَدُلاّن على أنّه من التنزيل المكّيّ، فالظاهر أنه لم يتأخَّرْ عن نزول السّورة، واللّه أعلم.

الرُّكُوع: هو في اللّغة الانحناء، وأقْصاهُ أَنْ تَمَسَّ الركبتان الأرض. والرُّكوع الشرعيُّ في الصلاة هو الانحناء بعْدَ القيام حتى توضع الراحتان على الرُّكبتين.

هذه العبارة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ فيها كنايةٌ عن كِبْرِهِمْ، حتّىٰ على خالِقِهم، وبارئهم، ورازقهم، ومن بيده حياتُهم وموتُهم، وهو الّذي وَضعهم في الحياة الدنيا موضع الامتحان، ليخْتَبِر ما منحهم من

إرادةٍ حُرَّةٍ بالإيمان والعمل الصالح وأضدادهما، فَهُو مالِكُ مُحَاسبتهم وفصْل القضاءِ بشأنهم ومجازاتهم يوم الدين على اختياراتهم في الحياة الدنيا.

واختير الرُّكوعُ دون السُّجُودِ لأنَّه أدنَىٰ الخُضُوع الماديّ للّه عزّ وجلّ في عبادته.

ولو جاء في الآية السجودُ بدل الرُّكوع لكان محتملاً للدّلالَة على أنَّهم أنصَاف متكبّرين، فهم قد يركعون ولكنّهم لا يَسْجُدون.

إنَّهم لا يكْتَفُونَ باتّباع أهوائهم وشهواتهم عُصَاةً فاجرين، يرتكبُونَ الآثام من الكبائر، بل هم مستكْبِرونَ أيضاً على ربّهم، فلو لم يكُنْ لهم شهواتُ بُطُونٍ وفُروج، وجَاهٍ وزعاماتٍ، ولَعِبٍ ولَهْوٍ، وتعلُّقٍ بزُخْرُف الحياة الدنيا، وحُبٌّ للتكاثر والتّفاخر، لَمَا خَضَعُوا لبارئهم أدْنَىٰ خُضوع، لأنَّهم في نُفُوسهم مستكْبِرُونَ، وكِبْرُهُمْ جعَلَهم يرتكِبُون أقْبَحَ الحماقاتِ وأخَسَّها.

وفي مقابلَةِ إدْبارِهم وتولّيهم عن الاستجابة لدعوة اللّه لهم لمَا فيه سعادَتهم في دُنياهم وآخِرَتهم، تَوَلَّىٰ اللّهُ عنهم، فتَحَدَّثَ عَنْهُمْ بضمير الغائبين، الّذِين لا يستحقُّون مواجَهتَهُمْ بالخطاب، فقال تَعالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

ومن حِكَم هذا الالتفات عن مخاطَبَتِهم أنّ الرُّكوع المطلوب منهم، إنَّما هو لَهُ سُبْحَانَه، وهُو الذي يتحدَّثُ عنهم.

وعند هذا المفْصِل من السورة كانَ من المناسب تكريرُ لازمتها المختارة للتكرير العلاجي، فقال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾.



(١٢)
التدبر التحليلي للدرس السابع من دروس السورة

الآية الأخيرة من آيات السورة وهي الآية الخمسون

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾؟!!.

الحديث: الكلام الهادئ الّذِي يتكلّم به المحدّث في مجلس متكافئ بينه وبين من يستمع إليه، فلا يَشْعُر المستمع بأنّه في موقع الأدنَىٰ الذي يتلَقّىٰ من الأعلى، بل يَشْعُرُ بأنَّهما على سواء، في التَّلقِّي والعطاء.

بخلاف عَمَل الخطيب، أو الْمُعَلِّم، أو المدرّس، أو من يلقي محاضرة، أو الآمِرِ النَّاهِي، أو الشّاعر، أو نحوهم.

والحديثُ أكثر الكلام قبولاً وتأثيراً في النفوس البشرية، إذْ لا يُواجِه عقَبةً صادَّةً في الغالب من الأحوال، ولا يُواجه نُفُورَ مستَكْبِرٍ يَرْفُضُ تلَقِّيَ الْعِلْمِ من مُعَلِّم.

ولهذا وصَفَ اللَّهُ كلامَهُ لعباده في كتابه بأنَّهُ منْ نَوْع الحديث، وأرْشَدَ بهذا الوصْفِ الدُّعَاة إلَىٰ دين اللَّه بأنْ يكونوا مُحَدِّثين، حتَّىٰ تكُونَ دَعْوَتُهم أوْقَعَ في نُفوس مَنْ يُوجِّهون لَهُمْ الدَّعْوَة.

فخاطب المشركين الذين كَفَروا باللّه ورسوله بقوله في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

وقال عزّ وجلّ في سورة (الزُّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾.

وقد أدرَكَ أئِمَّةُ الضلال المعاصرون في الأرض قيمةَ تأثير الحديثِ الهادئ، فيمن يُوجَّه لهم، فأوصَوْا جنُودَهم بأن يستَخْدِموا أسلوب الحديث الفردي، أو في جماعات صُغْرىٰ، لإقناع الناس بأفكارهم، ومذاهبهم، وضلالاتهم، فقدّمَ لهم استخدامُ هذا الأسلوب تأثيراتٍ كثيراتٍ، وجلَبَ إلَىٰ صُفُوفهم وتكتُّلاَتهم قُطْعاناً بشريَّةً كثيرة.

أمّا ختم سورة (المرسلات) بقول الله عزّ وجل:

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾؟!!

فمعناهُ: فَبِأَيِّ حَدِيثٍ آخر يؤمنون بَعْد هذا الحديث البيانيّ الإقناعيّ، والترغيبيّ، والترهيبيّ، الّذي اشتملت عليه هذه السّورة، والكافي تماماً لهداية من هو مستعدٌّ للهداية، فلا يَرْفُضُها ولا يَرْفض التصديق بالحق الذي هدَتْ إليه، إلاّ جَحُودٌ معانِدٌ مُجْرم.

إنّ هذا الحديث قد حاصرهم محاصَرةً تامَّةً فكريَّةً عقليّةً منطقيَّة، ومحاصرةً نفسيَّةً من مِحْوَرَي الخوف والطّمع، فإذا لم يؤمنوا تأثُراً به فَمِنَ المستَبْعَد أن يكون لدَيْهم استعدادٌ لأنْ يؤمِنُوا بالرَّسُول وبالقرآن وبيَوْمِ الدين تأثُراً بأيّ حَدِيثٍ بَعْدَه.

ماذا يَطْلُب الحريصُ على نَجَاةِ نَفْسه وسعادتها، أكْثَر من حدِيث مُوَجَّهٍ لمصلحته، مُشْتَمِلٍ على ما يُقْنِعُه بالْحَقّ، ويُخَوِّفُهُ من الخلود في العذاب الأليم، ويُرغبه في النعيم المقيم، بجنّاتِ رَبّ العالمين.

إنّ إصراره على التكذيب بعد هذا الحديثِ لا يكُونُ إلاّ ناشئاً عن عنادٍ وإصرارٍ على الباطل بحمَاقَةٍ طاغية، وعن اتّباعِ للهوىٰ ورغبات الفجور، والتعلُّق الشديد بارتكاب الجرائم والآثام.

والاستفهام في هٰذه العبارة اسْتِفْهامٌ تعجيبيٌّ منْ أمْرِ المكذّبين الذين يستحقّون الدُّخُولَ في وعيد:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

ومثل هذه العبارة قد جاء في موضعين آخرين من القرآن المجيد:

الموضع الأول: ما جاء في سُورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بَعْدَ بياناتٍ إقناعيَّةٍ وترغيبيَّةٍ وتَرْهبيَّة، وهو قول الله عزّ وجل فيها:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾؟!!.

الموضع الثاني: ما جاء في سورة (الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٦٥ نزول) وهو قول الّه عزّ وجلّ فيها:

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾؟!!

إنّه لا يوجد للإقناع بالغيبيَّات إلاَّ الآيات الكونية ذوات الدلالات العقلية، والبيانات الكلامية الإقناعية والترغيبيَّة والترهيبيّة، فمن لم يؤمن بالآيات الكونية، ولا بالبيانات الكلامية، فلا سبيل إلى تحويله من الكفر إلى الإيمان إلاّ بالجبر، وهذا ينافي الابتلاء.



(١٣)
تلخيص ما اشتملت عليه السُّورة

تلخيصٌ جامع لما اشتملت عليه سورة (المرسلات) في الفقرات التاليات:

(١) الاستدلال بظاهرة كونيّة عظمَىٰ هي ظاهرة الرّياح، إذْ هي تدلُّ على الخالق الجليل، وجُمْلَةٍ من صفاته السنيَّة، بأسلوب الْقَسَمِ بها على أنّ

يوم الدّين حقٌّ لاَ شكَّ فيه، إذْ هو من عناصر برنامج خلق الناس للابتلاء، فالحساب، ففصْل القضاء، فتحقيق الجزاء.

(٢) بيان أحداثٍ تفصيليَّةٍ هي من مقدّماتِ يوم الدين، ومن العلامات الموطئة له.

(٣) الاستدلال بإهلاك المجرمين السَّابقين الّذين كذّبوا المرسلين، على قانون الجزاء الرَّبَّاني.

(٤) الاستدلال بخلق الإنسان من ماءٍ مَهينٍ على قُدْرَة اللّه العظيمة وحكمته الجليلة. ومن لازم الحكمة ومقتضياتها قانون الجزاء.

ومن الأمور البدهيّة أنّ القادر على بدْءِ خلق الإنسان ولم يكُنْ شيئاً مذكوراً، قادرٌ على إعادة خلقه بعْدَ موته، ليحاسبه، وليفْصِل القضاء بشأنه، وليُجَازيه.

(٥) الاستدلال بدَوْرة الحياة والموت من الأرض وإلى الأرض، على صحّة خبَرِ البعْثِ للحساب وفَصْل القضاء والجزاء، الأمْر الذي جاءت به رسَالاتُ اللّهِ للناس، على ألسنة رُسُلِ اللّه، وبيَّنَتْهُ الكُتُبُ الرَّبَّانيّةُ بصُورَةٍ صَريحَةٍ لا غُموض فيها.

(٦) عَرْضُ صُورَةٍ تَرْهيبيَّة مخيفةٍ جدّاً، من مشاهِدِ عذاب المكذّبين، في جهنَّمَ دَار المجرمين يوم الدين.

(٧) عَرْضُ صورَةٍ تَرْغيبَّةٍ مُطْمِعَةٍ من مشاهد نعيم المؤمنين المتقين في جنَّاتِ النّعيم، يوم الدّين.

(٨) التهديدُ بالعاقبة الوخيمة للمكذّبين، بَعْدَ الإمْهَالِ الّذِي هُمْ فِيه، ليقْطَعَ اللّهُ بِهِ أعذارَهم، ولعَلَّ بعْضَ الّذِين يجتازون رِحْلَةَ النَّزَوَاتِ الرَّعْنَاء منْهُمْ، أنْ يَتُوبُوا إلى بارِئهم فيَكُونُوا من الناجِينَ المغْفُورِ لهم، وهُمُ الذين لَدَيْهم استِعْدادٌ للتوبَةِ والرَّجْعَةِ إلى الحقّ والْهُدَىٰ، ولكنَّ

غِشَاوَاتِ الأهواء والشهوات ورُعُوناتِ نَزَعاتِهم الحمقاء حَجَبَتْ عَنْ بَصَائِرِهِمْ رؤيَةَ الحقّ، والانتفاعَ بأنوار الهداية.

(٩) مخاطبةُ المكذّبين بحقيقة حال نُفُوسِهم المجْرِمَة، ببيَانِ أنّ تكذيبَهُمْ ناتجٌ عن رغبات الإجْرام الجامحة الّتي فيهم، فَهُمْ مُجْرِمُون راسِخُونَ في الإجرام، ولَيْسُوا واقِعِين في عوارضِ أهواءٍ ونزواتٍ عابراتٍ في حياتهم.

(١٠) بيانُ أنّهُم مستكْبِرُونَ حتّىٰ على بارئهم، فَهُمْ إذا قيل لهم: ارْكَعُوا لِلّهِ الّذِي خلقَكم وصوّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ لاَ يَرْكَعُونَ، فضلاً عن أن يَسْجُدوا له، أو يُطِيعُوا أوامره، أو يجتَنِبُوا نواهيَهُ، على خلاف رغبات نُفُوسِهم وأهوائهم وشهواتهم ونزعاتهم، ونزغات الشياطين الذين يوسوسون لهم ويُسَوّلُون.

(١١) خَتْمُ السُّورَة باستفهامٍ تعجيبيّ من المكذبين، فيه معنَىٰ نفْي أن يكون لَدَيْهم بَعْدَ بيانات السُّورَةِ العلاجيَّة وإصرارهم على التكذيب، استعدادٌ للإيمان والإسلام بتأثير أيّ حَدِيثٍ آخَرَ بَعْدَه.

وهكذا جَمَعَتِ السُّورَةُ بعناصِرِها كُلَّ ما يلْزَمُ للوحْدَةِ الموضوعيَّةِ، ضِمْنَ الْمَنْهَج الشَّجَريّ المتَّبَع في السُّوَر القرآنيَّة، والقائم على العلاج الشامل للمقصودين بالخطاب، فكريًّا، ووجدانيًّا ونَفْسِيًّا، دُونَ التزام بصِلَةِ كُلِّ آيَةٍ بالّتي قَبْلَها، فقد تأتي آيَةٌ أَوْ عِدَّةُ آيَاتٍ منها مُشْتَقَّة مِنْ سَاقِ شجرة موضوع السُّورَةِ، أو متفرّعَةً من أَحَدِ فُروعها، أو موصُولَة بجَذْرِها مباشَرَة.

وبهذا تَمَّ لي تَدَبُّر آيَات السُّورة على قَدْر وعائي، والحمد لله على فتحه وتوفيقه.

❀ ❀ ❀

(١٤)

ملاحق لتدبُّر سورة المرسلات

الملحق الأول: حول بلاغيات في السّورة.

الملحق الثاني: حول الرياح في القرآن المجيد.

الملحق الثالث: حول القسم بالمرسلات.



الملحق الأول
حول بلاغيات في سورة المرسلات

توجد في سورة (المرسلات) بلاغيَّاتٌ محكمات الاختيار، ومنها روائع مبتكرة لم يكن البلغاء قد توصَّلُوا إلى إدراكها في روائعهم الشعريّة والنثريَّة، ولولا القرآن المجيد لما عَرَفُوها، أو لتأَخَّرَتْ معرفَتُهم لَهَا جدًّا.

وأذكر من هذه البلاغيات ما يلي:

(١) تأكيد الخبر بالقسم بأشياء هي بمثابة الأدلّة على تحقُّق المقسم عليه، في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ①﴾ وما بَعْدَها، والْمُقْسَمُ عليه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ⑦﴾.

(٢) تأكيد الخبر بأدواتِ تأكيدِ مُرَاعَاةً لأحوالِ المخاطبين:

● بحرف التأكيد «إنَّ» وباستخدام «الجملة الاسميّة» في: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ㉜﴾ وفي: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ㊶﴾.

● التأكيد بتكْرِير عبارة الوعيد في: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ⑮﴾.

(٣) الكنَاية عن الأشياء بذكر بعْضِ صفاتها دُون الألفاظ الخاصَّةِ بها، وهو من استخدام الأسْلُوب غير المباشر في القول، ونجد هذا في:

● الكناية عن الرّياح بذكر بعض صِفاتها، في: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ① فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ② وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ③ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ④﴾.

● الكناية عن الجبال بذكر بعض صفاتها، في: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ شَامِخَاتٍ . . . ﴿٧﴾﴾.

● الكناية عن مكان المكذّبين في جهَنَّم بذِكْر بعض صفات نُزُلهم فيها: في: ﴿انطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾.

● الكناية عن الجنّة بذكر بعض ما يكون فيها من نعيم للمتقين، في: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

(٤) اقتطاعُ الأحداث ممّا سوْفَ يكونُ يَوْمَ الدّين، وتقديمُه كأنّه واقعٌ الآن عند الخطاب، ونجد هذا في:

● ﴿انطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾.

● ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

(٥) الإيجاز بالحذف، اعتماداً على استخراج المخاطب الذكيّ لَهُ، ونجد هذا في حذْفِ جزاء الأبرار، أصحاب المرتبة الوسطى، اعتماداً على ذكر جزاء المتقين أصحاب المرتبة الدنيا، وذكر جزاء المحسنين، أصحاب المرتبة العليا. وقد سبَقَ شرح هذا في التدبّر.

إلى غير ذلك من بلاغيات جاء تحليلُها لدى تدبُّر آيات السُّورة، وبلاغيات أخرى يمكن استخراجها بالتفكر العميق.



الملحق الثاني
حول الرياح في القرآن المجيد

جاء في القرآن المجيد خَمْسةٌ وعشرون نصّاً موزّعَةً في السُّورِ حول الرّياح، وفي هذا الملحق أَسْتَعْرِضها بشيء من التدبر على وفق ترتيب نزول سُورِها، مع استنباط وظائفها المادّيّة والمعنوية ما تيسّر لي ذلِكَ.

النص الأوّل:

قول اللّه عزّ وجل في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾.

وقد سبَقَ لنا تَدَبُّر هذا النّص لدى تدبر الدرس الأوّل من دُروس هذه السّورة.

النصّ الثاني:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بشأن إهلاك عاد قوم الرسول هُودٍ عليه السلام:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٢١﴾.

﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾: أي: ريحاً باردةً شديدَةً ذات صَوْتٍ شَدِيدٍ مخيف، وهذا يكون من شدّة سُرْعَتِهَا واصطدامها بالأشياء ذواتِ الحجُوم المادّية.

﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾: أي: في يَوْمِ بُؤْسٍ وشُؤْمٍ وعذابٍ، وقد تَتَابَعَ على طَرِيقَةٍ واحِدَةٍ في أجْزَائِه الزَّمَنيَّة، فهو يَوْمٌ شَديدٌ قَوِيٌّ في الشُّؤم والبؤس والعذاب الذي حصل فيه لقوم عاد.

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾: أي: تقتلع هذه الرّيح الصرصر النّاسَ من قوم عادٍ اقتلاعاً، ثُمَّ تَرْمِيهِمْ صَرْعَىٰ هلكَىٰ، فتَجْعَلُهُمْ إذا رمَتْهم كأنَّهُم أصُولُ نَخْلٍ مُنْقَلعٍ من جذُوره، ومَرْميّ كَيْفَمَا اتَّفَقَ مُكوَّماً حَطباً.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٢١﴾: أي: فانظر أيُّها المتفكّرُ في تصاريف جزائي، كيْفَ كَان عذابي، وكَيْفَ كانت نُذُرِي، فما حصل لعادٍ من إهلاك

شاملٍ قَدْ كان مسبوقاً بإنْذارِهم بالإهلاك إذا لم يتوبوا ويؤمنُوا، لكنَّهم لم يكترثوا له ولم يَعْبؤوا به، فنزل بهم العذاب المهلِكُ لهم إهلاكاً عامًّا.

لقد أنذرهم اللّه قبل أن يُهلكَهُمْ، ومَنْ أنْذَرَ فقد أعْذر، أي: قدّم عُذْرَه الكامل فيما فعل، ولم يُبْقِ لِمَنْ عذَّبَهُ وأهْلَكَهُ عُذْراً يعْتَذِرُ به.

وما حصل لعادٍ من الإهلاك الشامل هو لمن جاء بعدهُمْ من أهل الكفر والتكذيب بقانون الجزاء الرَّبَّانيّ إنْذارٌ وعبْرَةٌ، لمنْ لدَيْه رغْبَةٌ في الاعتبار، وذِكْرَىٰ لمن لديه رغبة في الادّكار، ممَّنْ كان لَهُ قلْبٌ أَوْ أَلْقَىٰ السَّمْع وهُو شَهِيدٌ.

إنّ هذه الريح الّتي أرسلها الله عزّ وجلّ على عادٍ قوم الرسول هود عليه السّلام فأهلكهم بها:

- آيَةٌ من آياتِ اللّه في كونه، وقُوَّةٌ من القوى العظيمة في خلقه، وهي دالّة على قدرته أنْ يُسَخّرها في إهلاك مَنْ يشاء، متى شاء بحسب حكمته.

- وإرسالُها للإهلاك بها قد كان مسبوقاً بالإنذار، فالعذْرُ بما أجراه بها قائم.

- وهي لمن سيأتي بعد قوم عاد من الذين يسْمَعُونَ أخبارهم، أو يشاهِدُونَ آثارهم، عبْرَةٌ تتضَمَّنُ إنْذاراً بعقوبة اللّه لِمَنْ يفْعَلُ مثل أَفعالهم، ويكْفُر مثل كُفرِهم، فالنُّذُرُ (أي: الإنْذارُ) بها قائم.

- وما أجرى اللّه بها من عقابٍ للكَفَرَةِ المكذبين من قوم عادٍ دليلٌ على قانون الجزاء الرَّبَّاني.

- وقِصَصُ المهلَكِين بها ومواطنُ إهلاكهم الماثلةُ في الأرض مُذَكِّرَةٌ بعذاب اللّهِ عزّ وجلّ للكافرين المكذبين بالدّين، فالذكْرُ (=التذكير) باللّهِ وعقابِهِ في آثارها قائم دائم.

إذن فَوُجود الرِّياح الدائم، وتصاريفها، من الأمور الّتي تقدِّم لأهل البصيرة الذِّكْرَ، ودَلاَلاَتِ العذر، ودَلاَلات النُّذر.

وهذا يلقي الضَّوْء على ما وَصَفَ اللّه عزّ وجل به الرّياح في قوله في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾.

فنفَهَمُ المراد به بتوفيق الله ومعونته وتفهيمه.

النص الثالث:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (صَ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بشأن امتنانه على سليمان عليه السلام إذْ سخّر له ممّا سخَّر الريح تجري بأمْرِه رُخاءً حيث أصاب، بعْدَ أن سأل ربَّهُ أن يَهَبَهُ ملكاً يَخُصُّهُ به، لا ينبغي لأحدٍ من الناس من بعْده:

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٣٥ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦﴾.

﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾: أي: تجري الريحُ بأمْرِ سليمان عليه السّلام ﴿رُخَآءً﴾ أي: خفيفةً ناعِمَةً ليّنَةً ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي: في المكان الذي يُرِيد أَنْ تَجْرِيَ فيه كذلك، وإلى المكان الذي يُرِيد أَنْ تَجْرِي إليه كذلك.

يقال لغة: أصاب صَوْباً، أي: أراد أمْراً صواباً. **والصَّوْبُ:** الْقَصْد.

فمعنى: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ حيْثُ قصد قصْداً صَوَاباً، وفي هذا ثناء على سليمان عليه السلام، بأنّه لم يكن يستَخْدِمُ الريح الّتي سَخَّرَها اللّه عزَّ وجلَّ له في أعمالٍ خارجَةٍ عن مَنْهَجِ الصَّواب.

وضدّ الصواب الخطأ، وما لا خير فيه، واللَّهْوُ واللّعبُ.

وفي تسخير اللّه عزّ وجلّ الريح لسليمان عليه السَّلام تجري بأمْرِه شاهدٌ على صِدْقِ رسالَتِه، وصدْق دعوته لربّه.

وبما أنَّ سُلَيمان عليه السّلام واحدٌ من رُسُل اللّه، وبما أنّه مُصدِّقٌ بسائر الأنبياء والرُّسُل، فتسخير الريح له يُلْقي في عقول النّاس وقُلوبهم ذكْراً باللّه وبرسالاته، وبما جاء فيها من وعْدٍ ووعيد، وفي إلْقَاء هذا الذكر إعذارٌ وإنْذار، وهو من الأمور التفصيليَّة، لمجمل قوله تعالى في سورة (المرسلات) بشَأن وظيفة الرّياح في دَلاَلاَتِها الإيمانية: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾.

النصّ الرابع:

قول اللّه عزّ وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧﴾.

● قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائيُّ، وخَلَفٌ [**يُرْسِلُ الرِّيحَ**] بالإفراد.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع.

والمعنى واحد.

● وقرأ عاصم: [**بُشْراً**] مصْدَرُ «بَشَرَهُ يَبْشُرُهُ» أي: أخْبَره بما يَسُرُّهُ ويُفرحه.

وقرأ نافع، وأبو جعفر، وابن كثير، وأبو عُمْرو، ويَعْقُوبٌ: [**نُشُراً**] جمْعُ «نَشُور» مثل: «رَسُول ورُسُل» **النَّشْرُ**: الحياة.

وقرأ ابن عامر: [**نُشْراً**] بإسكان الشين، وهو تخفيف لـ«نُشُر» جمع نَشور.

وقرأ حمْزَةُ، والكسائي، وخلف: [**نَشْراً**]: أي: حياة.

وبين القراءات تكامُلٌ في أداء المعنىٰ المراد، ووجوه عربية متماثلة.

دلّت هذه الآية على أنّ من وظائف الرياح السببيَّة على سَطْح الأرض، أن تأتي منتَشِرَةً لتَجْمَع بخار الماء، وتَحْمِلَه سحاباً ثقالاً بماء المطر، ليتِمَّ بأمْرِ اللّه وقضائه وقَدَره سَوْقُه لأرض ميّتةٍ لا نبات فيها، فتكون به حياتُها، إذْ يُنْزل اللّه الماء بهذه الأرض من السّحاب، فَيُخْرِجُ النباتَ من بزورها، ويُخْرِج به من كلِّ الثمرات.

فإذا انتشَرَتِ الرّياح هٰذا الانتشار النافع استبشَر النَّاسُ بالْغَيْثِ، وفَرِحوا بمَقْدَمِهِ، فكَانَتِ الرِّياح بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رحمة اللّه عزّ وجلّ.

ولفظ «سَحَاب» اسم جنْسٍ جَمْعيّ مفرده «سَحَابة».

ومعنى «أَقَلَّتْ» حمَلَتْ ورفَعَتْ.

أمّا وظيفة الرّياح في دَلاَلاتِها الإيمانية فهي:

● التذكير باللّه، الذي بيَدِه مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ والأرض، والّذي يرحَمُ عباده، بنشر الرّياح، وإنْزَال الغيث.

● والتذكير بالبَعْثِ والنشور، بإخراج الموتَىٰ من القبور، الّذي يُشْبِه إحياءَ البلَدِ الميّت، وإخراجَ النبات في الأرض من البزور، وعودتَهُ إلى الحياة، يُعْطِي الظِّلَّ والثمرات، وعظيم الخيرات.

وفي هذا إشاراتٌ تفصيليَّةٌ لمجْمَلِ قوله تعالَىٰ في سورة (المرسلات) بشأن وظيفة الرّياح في دَلاَلاَتها الإيمانية: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾.

النص الخامس:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝٤٨ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ۝٤٩﴾.

● قرأ ابنُ كثير: [الرِّيحَ] بالإفراد.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع.

ودلالَة القراءتين واحد.

● كلمة: ﴿بُشْرًا﴾ فيها من وجوه القراءات ما سبق بيانه في آيَةِ الأعراف: [نُشُراً ـ نُشْراً ـ نَشْراً ـ بُشْراً] وسبَقَ بيَانُ دلالالتها، في النصّ الرابع الذي من سورة (الأعراف).

● وقرأ أبو جعفر: [مَيِّتاً] بتشديد الياء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿مَّيْتًا﴾ بإسكان الياء.

«مَيِّتٌ ومَيْتٌ» بمعنى واحد، وإسْكَان الياء تخفيف.

الكلامُ في هذا النصّ كالكلام الذي سبَقَ لدى تدبُّر آية (الأعراف).

إلاَّ أنَّ النصّ من سُورَةِ (الفرقان) قد استُعْمِلَ فيه الفِعْلُ الماضي، ﴿أَرْسَلَ﴾. أمّا في (الأعراف) فقد استعمل فيه الفعل المضارع [يُرْسِلُ] أخذاً بمنهج القرآن في تجزِئَةِ عناصر الأفكار على النصوص ذوَات الموضوع الواحد.

وذُكِرَ في هذا النصّ من سورة (الفرقان) أشياء لم تُذْكَرْ في آيَةِ (الأعراف).

فقد جاء فيه ما يلي:

(١) وصف الماء الذي يُنزله اللَّهُ عزّ وجلّ من السّماء، أي: من السَّحَاب الثقال (كما جاء في سورة الأعراف) بأنّه طَهُورٌ، أي: هو طاهِرٌ بنَفْسِهِ، ومُطَهِّر لغيره.

(٢) التَّصْريح بلفظ إحياء البلَدِ الميِّت.

(٣) جاء في (الأعراف) تذكير لفظ [**بَلَد**] وجاء في (الفرقان) تأنيثه [**بَلْدَة**] وهما وجهان عربيان.

(٤) جاء في (الفرقان) بيان أنّ من أغراض إنزال الماء الطهور أنْ يُسْقِي اللَّهُ ممّا خلَقَ في الأرض أنْعاماً وأناسِيَّ كثيراً.

وجاء فيها استعمال ضمير المتكلّم العظيم، للإشعار بعظمَة فَضْلِ اللَّهِ على عباده.

وكلُّ ذَلِكَ من آيات اللّه المذكَّرَة به، وبصفاته، وبِعَدْلِهِ، وبرَحْمَته، وبقُدْرَتِه على إحياء الموتى.

فظهر لنا أنّ النصَّيْنِ متكاملان لا مكرّران.

النص السادس:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾.

- قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وخلف [**الرِّيح**] بالإفراد.

وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿ٱلرِّيَـٰحَ﴾ بالجمع. والمؤدى واحد.

أبانت هذه الآية من وظائف الرّياح السببيَّةِ لحياة الأحياء في الأرض أنَّها تُثير سحاباً، فساقَهُ اللّه عزّ وجلّ بعظمة رُبوبيته إلى بلَدٍ ميّتٍ، فأحْيَا به الأرْض بَعْدَ مَوْتها، وهذا وصف لما وقع في الماضي. واستعمال الفعل المضارع في ﴿فَتُثِيرُ﴾ للدّلاَلَة على العمل المتكرّر المتجدّد الذي تقوم به الرياح من إثارة السّحاب، فهو من السُّنَنِ.

وأبانت أنّ من وظائف الرياح في دلالاتها الإيمانيَّة أنَّ ما يتَسَبَّبُ بها من إحياء الأرض بعْدَ مَوْتِها يُذَكّر ويقْنِعُ بِنُشُور الناس إلى الحياة بعد الموت، وسَوْقهم للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء.

وأضافت هذه الآية أنّ إرسالَ الرّياح عَمَلٌ من أعمالِ اللّه عزّ وجلّ لاَ شَرِيكَ له، وأنَّ من نظام الرّياح في سُنَّة اللّه أن تُثِيرَ السّحابَ المتجَمّع بالتبخّر، وهذه الإثارة من وظائف الرياح دواماً، دلَّ على هذا استعمال الفعل المضارع: ﴿فَتُثِيرُ﴾ كما سبَقَ بيانه.

وأضافَتْ أنّ سَوْق الرّيَاحِ إلَىٰ بلَدٍ ميّتٍ إنّما يتمُّ بأمْرِ اللّهِ مع السَّوْق، لا بالوظيفة ذاتِ النّظام الدائم بإثارَة السّحاب، وكذلك إحياءُ الأرْض بعد موتها إنّما يتمُّ بأمْرِ اللّهِ جلّ جلاله، لا بالوظيفة ذَاتِ النظام الذي لا يتخلّف.

فالرّياحُ بما تكونُ سبباً فيه، تُلقِي ذِكْراً، عُذْراً أَوْ نُذْراً، وهو تفصيل بيانيٌّ لما جاء في سورة (المرسلات) مجملاً عن وظائف الرياح:

﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾.

وقد جاء في آية (فاطر): ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾.

أمّا آيَة (الأعراف) فقد جاء فيها: ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾.

فدَلَّ استعمال حرف [إِلَىٰ] على المكان البعيد. ودَلَّ استعمال [لِ] على المكان القريب.

في لفظ [مَيّت] في هذه الآية قراءتان: [مَيّتٍ] و[مَيْتٍ].

فقرأ نافع، وحفص، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر [مَيّتٍ] بتشديد الياء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة [مَيْتٍ] بإسكان الياء.

والقراءتان بمعنى واحد كما سبق بيانه في نصّ (الفرقان).

النص السابع:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) يَطْرَحُ

سؤالاً على أهل الأفكار والعقول فيه حصارٌ منطقي، لإثبات أنّه لا رَبَّ إلاّ اللّه فَلاَ إلَه سواه جلّ جلالُه، وهو خطاب موجّهٌ للمشركين:

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

● قرأ ابْنُ كثيرٍ، وحمزة، والكسائي، وخلف: [الرِّيحَ] بالإفراد.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع.

والدّلالة المستفادة من القراءتين واحدة لأنَّ الريح اسم جنْسٍ يدلُّ على كلّ أنواع الرّياح، إلاّ أنّ الرّيَاحَ تُشِيرُ إلى أَنَّها أنواع.

● في كَلِمَة [بُشْراً] القراءات التي سبق ذكرها في النص الخامس الذي من سورة (الفرقان) وسبق بيان دلالاتها في النصّ الرابع الذي من سورة (الأعراف).

﴿يَهْدِيكُمْ﴾ أي: يَدُلُّكم على طُرُقكم بالنور، وبالنجوم، وبما جعل لكم من وسائل أخرى تكْتَشِفُونها.

في هذا النصّ يَضَعُ الرَّبُّ جلَّ جلالُهُ المشركين أمامَ سؤالٍ مُحْرِجٍ ليس له إلاَّ جوابٌ واحد لدَىٰ أهل الفكر والعقل السليم، وهو: الّذي يُرْسل الرّياح هو الرّبّ الخالق وحده لا شريك له، لأنَّ أحداً غَيْرَهُ لا يَمْلِكُ سبَباً مادّيًا أو معنويًا يُصَرّفُ به الرّياح، فقُوَّةُ الرّياح العظيمَة خارجَةٌ عن مدىٰ دوائر الأسباب الّتي أعطىٰ اللّهُ الناس القدرة على استخدامها فيما سخَّر لهم.

إذَنْ: فظاهرة الرّياح إحدى الظواهر الكونيّة العظمىٰ الدالَّة على الرَّبّ العظيم، والمذكّرَةِ في تصاريفها باللّه وبقدْرَتِه العظمى، وبحكمتِه.

فأضاف هذا النَّصُّ السُّؤال المحرِجَ الموَجَّهَ للمشركين، بغية لفت

أنظارهم وأنظار سائر الناس، إلى إحدى آيات اللّه في كونه، الّتي تتضمَّنُ الهدايةَ إلى وجود الرّب المتصرّف في كونه بصفاته الجليلة.

وفي لَفْتِ النظر هذا إعلامٌ ابتداءً وَتذكيرٌ دواماً.

وفي هذا توجيه تفصيليٌّ للمجمل الذي جاء في سورة (المرسلات) وصفاً للرّياح: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ الذي هو أوّل النصوص المنزَّلةِ بشأن الرياح.

النصّ الثامن:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٦٦ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ۝٦٧ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ۝٦٨ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ۝٦٩﴾.

● قرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمْرو بِنُونَ المتكلّم العظيم في: [**نَخْسِفَ - نُرْسِلَ - نُعِيدَكُمْ - فَنُرْسِلَ - فَنُغْرِقَكُمْ**].

وقَرَأَ أبو جعفر، وابْنُ وَرْدَانٍ في إحدى روايتينِ عنه، ورُوَيس في إحدى روايتَيْن عنه: [**يَخْسِفَ - يُرْسِلَ - يُعِيدَكُم - فَيُرْسِل**] بضمير الغائب العائد على اللّه جلّ جلاله. و[**فَتُغْرِقَكُمْ**] أي: الرّيح.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**يَخْسِفَ - يُرْسِلَ - يُعِيدَكُمْ - فَيُرْسِل**] بضمير الغائب العائد علىٰ اللّه جلّ جلاله، كقراءة أبي جَعْفَر ومن معه.

و[**فَيُغْرِقَكُمْ**] بضَمِير الغائب العائد على اللّهِ عزّ وجلّ أيضاً.

ويُلاحَظُ أنّ بَيْنَ هٰذه القراءات تَكامُلاً بيانياً، ومُؤَدّاها واحد.

● وقرأ أبو جَعْفر [مِنَ الرِّياحِ] بالجمع.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ بالإفراد.

ومؤدَّىٰ القراءتين واحد، كما سبق بيانه في النصّ السابع الذي من سورة (النمل).

﴿يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾: أي: يَسُوقُهَا وَيَدْفَعُها، وقد كانت الرِّياح هي وسيلة سَوْق الفلْكِ الشّراعيَّةِ ودَفْعِها لنَقْل حُمولاتها عبْرَ البحار.

﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾: أي: ضاع وخفي وغابَ عنكُم مَنْ تَدْعُونَ من شُركائِكُمْ، ولَمْ تَجدُوا مُجيباً يسْتجِيب لِدُعائِكُمْ سائلين النَّجاةَ، إلاَّ اللَّهَ رَبَّكُمْ.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾: أي: فلمّا نَجّاكُمْ مُوصلاً إياكم إلى الْبرّ، ضُمِّنَ فِعْلَ ﴿نَجَّىٰكُمْ﴾ معْنَىٰ فِعْلِ «أَوْصَلكُمْ» فعدِّيَ تَعْدِيته فأغْنَتِ الجملة الواحدة عن جُمْلَتين.

﴿أَعْرَضْتُمْ﴾ أي: أعْطَيْتُمْ مِنْ وُجُوهكم عَارِضَها. الْإِعْرَاضُ وسَطٌ بين المواجَهَةِ والإدْبار.

﴿كَفُورًا﴾: صيغة من صيغ المبالغة، أي: شديد الكُفْر.

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾: أي: أن يُغَيِّبكُمْ في باطِن الأرض، إذْ يغَوِّرُها إلى الْعُمْقِ ويَدْفنكم فيها.

﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾: **الحاصِبُ**: الريحُ الّتي تَحْمِلُ التُّرَابَ والْحَصْبَاءَ فتضْرِبُ بها الأشياء، فَيُصِيبُ اللّه بها من يشاء.

﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ الريح القاصِفُ هي الريحُ الشديدةُ الّتي تَقْصِفُ الأشجارَ بِشِدَّتها، وتُكَسِّرُهَا، وتُحَطِّمُها.

● فأبان هذا النص أنّ من وظائف الرياح السببيَّة في تصاريف مقادير الله على وجه الأرض، سَوْقَ الْفُلْكِ في البحر ودَفْعَها، ليبتغي النَّاس بأسْفارهم على ظُهورها أرْزاقَهُمْ ومصالحَ معاشِهِمْ من فَضْلِ اللّه.

وقد سخّرَها اللّهُ لهم رحْمَةً بهم، وهو برحمته يحميهم من الانْكِفَاءِ والغرق.

فإذا تَعَرَّضُوا وهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِها ضِمْنَ تصاريفه في كونه للمخاوف الشديدة، لم يَجِدُوا مَنْ ينْجِدُهم ويحميهم إلاَّ أن يَدْعوا اللّه ربَّهُمْ، حتَّىٰ إذا أنجاهم وسلَّمَهُمْ، وأوصَلَهُمْ إلَىٰ البرّ الآمِنِ بحَسَب تَصَوُّرِهم أعْرَضوا عَنْه، فلَمْ يَحْمَدُوهُ ولَمْ يشكُرُوه، بَلْ انطَلَقُوا يَعْصُونه ولا يَعْبُدُونه، مُجَاهِرِين بارْتكاب الذُّنوب والآثام، كأنَّهُمْ لَمْ يكُونُوا قَدْ الْتَجَؤُوا إليه داعِينَ حينما كانوا في الشّدّة.

وكَانَ الإنْسانُ كَفُوراً جَحُوداً.

● وأبانَ هذا النّصّ أنّ من وظائف الرّياح الشديدة، أن تَكُونَ حاصبةً، وأَنْ تكونَ قاصفة، وأنْ تكون سبباً لإهلاك من يُريد اللّهُ إهلاكهم، فإذا كانُوا في الْبَرّ أهلكهم بالريح الحاصب أو القاصف، وإذا كانوا في الْبَحْر أهلكهم اللّه عزّ وجلّ بالريح القاصف التي تَقْصِفُ صوارِيَهم، وتكْفَأُ سُفُنَهم وتُغْرِقُهم.

ألسنا نُلاحظُ في هذا النّصّ بياناً تفصيليّاً للمجمل الذي جاء في أوّل النُّصوص المنزَّلَةِ بشأن الرّياح، وهو قول اللّه عزّ وجلّ في صدر سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾.

حقّاً إنَّ الرّياح بتَصْرِيفِ اللّهِ عزّ وجَلَّ تُلْقِي ذِكْراً باللّهِ والْيَوْم الآخر،

وفي هذا التَّذْكِير إعْذَارٌ وإنْذار، مع ما فيه من تذكِيرٍ بنِعَم اللَّهِ على عباده، حين تُزجي الْفُلْكَ، وحينَ تَأْتي بِبُشْرَيَاتِ الخيْر والْغَيْث والخصْب والنَّفْع العظيم.

النّصّ التاسع:

قول اللّهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (يونُس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

● قَرأَ جُمْهُور القرّاءِ العشَرَةِ: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ من التسيير وهو النقل من مكانٍ إلى مكان آخر.

وقرأ ابْنُ عامِرٍ، وأبُو جَعْفر: [يَنْشُرُكم] من النَّشْرِ الَّذي هو الْبَسْطُ والمدُّ والتَّفْريق.

بين الْقِرَاءتَيْنِ تَكَامُلٌ في أَدَاء المعنىٰ المراد، فالناس يَسِيرونَ في الْبَرّ والْبَحْرِ والْجوِّ، لابتغاء أرزاقِهِمْ في أَمَاكِنَ مختلفةٍ من الأرض، شرقاً وغَرْباً وجَنُوباً وشمالاً وفي كلّ الجهات، واللَّهُ هو الذي يُسَيِّرُهُمْ بإعطائهم القدرةَ على السَّيْر، وبتَيْسِير اللَّه لهم طُرُقَهم ووسائِلَ تَنَقُّلِهم. واللَّهُ هُوَ الّذي يَنْشُرُهم بجَعْلِ مصالحهم وحاجاتِهِمْ موزَّعَةً في شَتَّىٰ أماكِنِ الأَرْض، وبإيصالهم إليها.

ويُفْهَمُ تَسْيِيرُهُمْ ونَشْرُهُمْ في الْجَوّ باللُّزُوم العقليّ، فَمَنْ يكُونُ هو المسيّر والناشر في البرّ والبحْر، لا بُدَّ أَنْ يكُونَ هو المسيّر والناشر في الجوّ، فالجوُّ أَشَدُّ صُعُوبَةً وأَشَدُّ حاجةً إلى تَسْيير اللّه.

● وقرأ حفصٌ: [مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنيا] بفَتْح العين، أي: تَتَمَتَّعُونَ متاعَ الحياة الدنيا، أو حالة كوْن بغيكُم متاعَ الحياة الدنيا.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [متاعُ ٱلْحَيَاةِ الدُّنيَا] بضَمّ الْعَيْن، خَبَرٌ ثانٍ للمبتَدأ [بَغْيُكُمْ] والمعنى: بَغْيُكُمْ على أنْفسِكُم. بَغْيُكُمْ مَتَاعُ الحياة الدنيا.

والقراءتَانِ وجْهانِ للدّلاَلَةِ على المعنى المراد في الإعراب، والمؤدّىٰ بهما واحد.

بين هذا النصّ والنّص السابق من سورة (الإسراء) تكامل في بيان واقع معظم الناس إذْ يجْحَدُونَ نِعَمَ اللّهِ عليهم التي هي من آثار رَحْمَتِهِ.

فَهُمْ إذا أحاطَتْ بهم المخيفات المرهبات الْقَاتِلاتُ من كلِّ جَانِبٍ، ولم يَجِدُوا وسائل نجاةٍ ممّا هُمْ فيه، لجؤوا إلىٰ اللّهِ ربِّهمْ داعِين لِيُنْجِيَهُمْ، مُخْلِصين له الدُّعَاء، فَلا يُشْرِكون بدعائه أحَداً، حتَّىٰ إذا أَنْجَاهُمْ وصرَفَ عنهم ما هم فيه من بلاء، عَادُوا إلَىٰ ما كانوا عليه من خروج عن صراط اللّه المستقيم، بغياً وعُدْواناً، واتّباعاً للأهواء والشهوات، وزُخْرُفِ الحياة الدنيا.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: وفي الجوّ كما سبَقَ بيانه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾: أي: حتَّىٰ وَقْتِ كَوْنِكُمْ في الْفُلْكِ...

«حتَّىٰ» هنا حَرْفُ جرٍّ، بمعنى «إلَىٰ» الدّالَّة على انْتهاء الغاية المكانية أو الزمانية.

الْفُلْكُ: مركَبُ البحور. يُطْلَقُ على الواحد والاثنين والجمع، ويذكر ويؤنث. فيقال: هي الفلك، وهو الفلك.

﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾: التفاتٌ في الكلام من الْخِطَابِ إلَىٰ الحديث عن غائبين، نظراً إلَىٰ أنَّ بَعْضَ المخَاطَبين قد لا يتعرّضُون لرُكُوبِ الْفُلْك،

وللأحداث المخيفة الّتي وصفها النَّصّ، لكنَّهم في الغالب مِثْلُهم فيما لَوْ تَعَرَّضُوا لهٰذِه الأَحْداث أو لمثلها.

الضمير في ﴿وَجَرَيْنَ﴾ يَعُودُ على الفُلْكِ. ﴿بِهِمْ﴾ أي: براكبيها من الناس. ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي: خالية من الضُّرِّ والأذىٰ، وغير ذاتِ آثار مخيفة.
الطيّبُ: ضِدُّ الخبيث، وكلُّ نَافع طيِّب، وكلُّ ضَارٍّ أو مؤذٍ بلا نَفْعٍ خبيث.

﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾: أي: وفَرِحُوا بالرّيح الطيّبَة الّتي تُجْرِي فُلْكَهُمْ.

﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾: أي: جاءَتِ الفلْك رِيحٌ شديدة من نوع الرّيح العاصِف، وهي التي تضربُ وجْهَ الأرض فَتَحْمِلُ ما عليها من أشياء كالْعَصْفِ وهو الزَّرْعُ اليابس، وكالتُّرابِ، ونحوهما.

يقال لغة: ريحٌ عاصِفٌ، وريحٌ عاصفة، تُذَكّر وتُؤَنّث.

﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾: أي: وجاءهم الموجُ يضربُ فُلْكَهُمْ مِنْ كُلِّ مكانٍ، فصارتِ الرّيحُ تخبِطُ فُلْكَهُمْ وتَرْتَفِع بها وتَنْزل، ووقَعُوا في رعْبٍ شَدِيدٍ خَوْفاً من الغرق.

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾: أي: وظنُّوا ظنًّا راجحاً أَنَّهم هالِكُون.

يقال لغة: «أُحِيط بفُلاَنٍ» أي: دنا هلاكُه. و«أُحِيطَ بالشّيء» أي: هَلَك. والأَصْلُ في هذه العبارة أنَّها مأخوذة من إحَاطَة الْعَدُوِّ بِعَدُوّه بوسائل إهلاكه، فتُسْتَعْمَل كنَايَةً عن دُنُوِّ الْهَلاك. وقد تستعمل كناية عن الهلاك.

﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾: أي: دَعُوا اللّه مُخْلِصين لَهُ الدُّعَاءَ لا يُشْرِكُون بدُعائه أحداً، وقد أبان اللّهُ عزّ وجل بهذا أنَّ الدُّعاء من الدّين، أي: لأنَّهُ عبادة للّه تعالَىٰ، والعبادة له هي الدّين، وقد صحّ أنّ الدُّعاء هو العبادة أي: أعظم عناصرها، وورد أنّ الدُّعاءَ مُخُّ العبادة.

﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾: أي: نُقْسِمُ لَئِنْ أنجيتَنا

مِنْ هٰذه المهْلِكَاتِ الّتي أحاطَتْ بنا، لنَكُونَنَّ في المستقبل من الشَّاكِرِين، القائمين بواجب الشكر لَكَ في أَعْمالنا وكَسْبِنَا الاختياري.

الشكر: هو مقابلة إنْعام المنعم بما يرضيه من عَمَلٍ أو اجتنابٍ، أو أيّ شيءٍ مادّيٍّ يسُرُّه. وقد يشْمَلُ القول الذي فيه ما يرضي المنْعِم. إلاّ أنّ بعض القول يختصُّ بعنوان الحمْدِ والثناء.

فالْحَمْد كالمدح: الثناء على المحْمُود بذكر اتّصافه بصفاتٍ جميلة فطريَّةٍ أو مكتسبة، أو بقيامه بأفعالٍ حسنة، أو باجتنابه لما لا يَحْسُن أن يَصْدُرَ منه أو من مثْله، من مكتسبات إراديَّة.

فَهُمْ يَحْلِفُون على أنَّهم سيكونون من الشاكرين لربّهم، إذا أنجاهم ممّا هم فيه، وأن لا يَقْتَصِروا على مجرَّد عباراتِ الحمْدِ والثناء.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: أي: فلَمَّا أنجاهم رَبُّهُمْ، إذ أسْكن لهم الرّيح، وجعلها رخاءً وأوصلهم إلى البرّ الآمِنِ في تَصوُّرِهم، فاجَؤُوا بنَقْضِ مَا عَاهَدُوا رَبَّهُمْ عليه، وجَعَلُوا يَبْغُونَ في الأرض عصاةً للّهِ جلَّ جَلاَلُه، ويتجاوزون الحدود بغير حقّ.

﴿وَإِذَا﴾: هنا حَرْفٌ يَدُلُّ علىٰ معنَىٰ المفاجَأة. وهي غير «إِذَا» الشرطيّة.

البغي: تجاوُزُ الْحَدّ المأذون بِهِ في السُّلوك الإرادي. ويُطْلَقُ علىٰ الكِبْر والظلم والفساد في الأرض.

ولمَّا كان تجاوز الحدّ قَدْ يكُونُ مأذوناً به كالقصاص، والقتال في سبيل اللّهِ، كان من الحكمة تَقْيِيدُ العبارة بقوله تَعالَىٰ: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ فالقصاصُ بالعدْلِ حقّ، والقتالُ في سبيل اللّه حقٌّ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾: أي: ما تجاوزُكم الحدَّ بغير

حقٌ إلاّ سَبَبٌ يُعَرِّضكُمْ لعقابِ اللَّهِ بالعدْل، فهو في الحقيقَةِ عليكُمْ لا لكُمْ.

﴿مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: وإنَّما بغْيُكم الّذي تَبْغُونه لإرضاءِ أهوائكم وشهواتكم ومطالب نفوسكم، لا يُقدّمُ لكم إلاّ متاعَ الحياة الدنيا، ومعْلُومٌ أنَّ مَتاعَ الحياة الدُّنيا قَليلٌ وإلَىٰ زوال، بخلاف لذّاتِ الجنَّةِ فهي نعيمٌ مقيم.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أي: ثُمَّ إلَىٰ مقتضَيَاتِ حِكْمَتِنا مَرْجعُكُمْ بالبعث، إذْ نَبْعَثُكُمْ إلَىٰ يوم الدّين، الذي نقيم فِيه محْكَمةَ الْعَدْل، فنحاسبكم، ونفْصِل الأقضية بينكم، ونُجازِيكُم علَىٰ ما قَدَّمْتُمُوه من كسب إراديٍّ في الحياة الدنيا.

واقْتَصر النَّصُّ هنا على بيان أَنَّ اللَّهَ يُنبِّئُهم بما كانوا يَعْمَلُون في الحياة الدنيا، وهذه فِقَرَةٌ من الفِقَرات التي يَتَعرَّضُون لها يوم الدينِ، في محكمة العدْلِ التي سَوْف يُقيمُها اللَّهُ لعباده.

ومعلومٌ أنَّ ذِكْرَ بَعْضِ الفِقَراتِ يُومِئُ إلى سائرها، ممَّا يكُونُ قبْلَها، ومِمَّا يكونُ بَعْدَها، ولا سيما أَنّ القرآنَ ببيانه الْبَدِيع قَدْ اختار اللَّهُ عزَّ وجلّ له أسْلُوبَ تَجزئة عناصر موضُوعَاته وتوزيعها في النُّصُوص الموزَّعَةِ في مختلِفِ السُّور، ليكون التكامل فيما بين النُّصُوص أحد عناصر الإعجاز في القرآن، ولو كان من عند غَيْر اللّه لوجَدَ الباحِثُونَ فيه اختلافاً كثيراً.

ويطولُ الكلامُ إذا وضعْتُ هَـٰذا النصّ التاسع الذي جاء في سورة (يونس) والنّصّ السابق له الذي جاء في سورة (الإسراء) وقابَلْتُ بينهما مُقَابلَةً تكامليّة.

على أنّ المتدبّر الحصيف يُدْرِك بالتأَمُّلِ المتعمّق، ما بينهما من تكامل رائع، بعيدٍ عن تكرار الْعَنَاصِر، إلاّ ما تَسْتَدْعيه سلاسل الخواطر.

ونلاحظ في النصّ التاسع ما يلي:

(١) أنّ اللّهَ عزّ وجلّ يمتَنُّ على عباده، بتسخيره الريح الطيّبة، الّتي تجري السُّفُنَ الشراعيّة وتأتي بالنفع العظيم.

ويقاسُ عليه تسخِيرُ اللّه لعباده النِّفْطَ والآلات الميكانيكيّة الَّتي اكتَشَفَ النّاسُ تسْيِيرَ السُّفُنِ العظمىٰ بها.

(٢) أنَّ اللّه عزّ وجلّ يخَوّفُ عباده بالرّيح العاصف الّتي هي من أدواتِ تَعْذِيبه وإهلاكه لأهل الكفر والتكذيب، الّذين يكذّبون رُسُلَ اللّه، ويكذّبون بيَوْم الدين.

(٣) أنَّ اللّه عزّ وجلّ يكْشِف للناس صورةً من صُورِ نُزوعِهِمْ، بدواعي فِطرتِهِم الكامِنَةِ في أعْمَاقِ قُلُوبِهِم، إلى الالتجاء إلى اللّه رَبِّهِم، والتَّوَجُّهِ له بالدُّعاء مخلصين له الدّين، حين تشتَدُّ بهم الأزمات، وتحيطُ بهم المخاطر، ليَصْرِفَ عنهم بقُدْرَتِهِ العظيمة ما أحاط بهم، معلنين إيمانَهُمْ به ساعَتَئِذٍ، ويتعهَّدُون لَهُ بأن يكونوا إذا أنجاهم شاكِرِين، عاملين بمراضيه، مطيعين أوامره، ومُجْتَنِبِينَ ما نَهاهم عنه.

(٤) أنّ من اختيارات معظم الناس الإراديَّة، أن ينْقُضُوا عُهُودهم لربّهم، الّتي يُوَثِّقُونها بأيمانهم، وأن يَعُودُوا إلى شِرْكهم، أو إلى ما كانوا عليه من كُفْر، وأَنْ يُتَابِعُوا مَسِيرَة بَغْيِهم في الأرض بغير الحقّ.

والحديث عن الرياح في هذا النّصّ هو بمثابة التفصيل لما جاء في صَدْرِ سورة المرسلات، أوّل النُّصُوص عن الرياح نزولاً.

النّصّ العاشر:

قول اللّه عزّ وجل في سورة (الحِجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

● قرأ حمزة، وخلف [الرِّيح] بالإفراد. وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع.

أبانَ هذا النصّ من وظائف الرّياح السَّبَبيَّة في سُنَن اللّه التكوينيَّةِ، الّتي تكونُ بها منافع ومصالح للناس وأرْزَاقٌ وخيْرَاتٌ، أنَّها لواقِحُ، أي: تكُونُ وسِيطَ لِقَاحٍ.

رُوِي عن ابن عباسٍ: «أنّ الرّياحَ تُلَقِّحُ السَّحَابَ، وتُلَقِّح الأَشْجار».

أما تلقيحها الأشجار والنَّبَاتَات فيكون بِحَمْلِها اللّقَاحاتِ من ذُكُور النَّبَاتَاتِ والثمار، إلى الإناث منها، وبذلك تنْضَج وتصِيرُ صالحةً لِلأَكْل.

وأمَّا تَلْقِيحُها السَّحَابَ، فقد أثبتَهُ عُلَماءُ الكون، إذْ تَحْمِلُ الرّياحُ إلى السَّحَاب دقَائِقَ الْغُبار الّذي تتجمَّع عليه حبَّات المطر.

وتقومُ الرّياح أيضاً بوظيفة جَمْعِ السَّحَابِ المشحونَةِ بالكَهْرُبَاءِ الموجبة، والسَّحاب المشحونة بالكهرباء السالبة، لِيَتِمَّ باجتماعهما التّلاقُح، فتتكاثَفَ حبّاتُ المطَر، فتهطل بإذْنِ اللّه على البلد الّذي قضَىٰ اللّه عَزَّ وجلَّ بأن يُسْقِيَه.

هذه الوظائف السببيَّةُ التي جعَلَها اللَّهُ عزّ وجَلَّ للرّياح، ممّا يتَّصِل بمنافع العباد، رحْمةً من اللّه بهم، تُضَاف إلى الوظائف الأخرىٰ الّتي دلَّتْ عليها أوْ أشارت إليها سائر النصوص، أو كشفها أو ستكشفُهَا البحوثُ العلميَّةُ الإنْسَانيَّة.

أمّا الوظيفة الدينيَّةُ فهي التذكيرُ باللَّه وبصفاته، والتذكير بالْيَوم الآخِر، يوْمِ الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذِ الجزاء.

فالبعث إلى الحياة بَعْدَ الموتِ مُشابِهٌ لِظَاهِرَةِ إحياء الأرض بالنبات، وقد أشار إلى هذا المعنى قول اللّه عزّ وجلّ في النصّ:

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

فجاء فيه استعمال ضمير المتكلّم العظيم إشارة إلى عظيم قُدْرته، وسامي حكمته، وجاء فيه تأكيد الخبر بمؤكِّدَات: «إنَّ» والجملة الاسمية، واللاّم المزحلقة إلى الخبر.

﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾: أي: ونحن الذين نَرث جميع ما جَعَلْنا فيه لعبادَنا تملُّكاً صُورِيّاً، إذْ تَقُومُ السّاعَة، ونَقُولُ: لِمَنِ الْمُلْكُ اليوم، ويأتي الجوابُ الصّادِرُ عَنْ كلّ شيءٍ: لِلّهِ الْوَاحِدِ الْقَهّار. وهذا ما جاء بيانه في الآية (١٦) من سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول).

النصّ الحادي عشر:

قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ... ﴿١٢﴾﴾.

● قرأ شعبة: [**وَلِسُلَيمَانَ الرِّيحُ**] بالإفراد والرَّفع.

وقرأ أبو جعفر: [**وَلِسُلَيمَانَ الرِّيَاحَ**] بالجمع والنصب.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ بالإفراد والنصب.

أي: وسخَّر اللّه عزّ وجلَّ لسُلَيْمانَ الرِّيحَ ذاتَ الأنواع تجري بأمْرِهِ بسُرْعَةٍ، فتقطَعُ مَسافة شَهْرٍ في الْغُدُوّ صباحاً، وتَقْطَعُ مسافة شَهْرٍ في الرّواح مساءً.

وسبق في النصّ الثالث الذي هو من سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بيان أنَّ اللّهَ عزّ وجلّ سخَّرَ لسُلَيْمَان الرّيحَ ذَاتَ الأنواع المختلفة تجري بأمْرِهِ رُخاءً (أيْ: ليِّنَةً نَاعِمَةً رَفِيقَةً) حَيْثُ أصَاب.

وهنا في آية (سبأ) أبان اللّهُ عزّ وجلّ أنَّهُ سَخَّرَ له الرِّيح الشّديدة السّريعة بأنواعها المختلفة، فهِيَ تَجْرِي بأمْرِه في غُدُوّها مسِيرَةَ شَهْرٍ، وفي رواحِهَا مَسِيرَةَ شَهْر.

ومَسِيرَةُ الشَّهر تُعَادِلُ مَا يَزيد علَىٰ أَلْفِ كيلومتر، وإذا قسَمْنَا ساعات الْغُدُوّ على ألف كيلومتر، أمكننا أن نتصوَّر أنّ الرّيح والرياح السَّرِيعَةَ المسخَّرَةَ لسُلَيْمان، والّتي تَجْرِي بأمْرِه، قَدْ تُبْلُغُ سُرْعَتُها قُرَابَة مِئَتَيْ كيلومتر في السَّاعَةِ أَوْ أكثر، وهي سُرْعَةٌ قادرَةٌ على نَسْف المساكِن واقتلاع الأشجار، وحَمْلِ جَيْشٍ كامِلٍ بعتاده ورجاله وكُلِّ أَسْلِحَتِه، وَنَسْفِه وتَدْمِيرِه.

فتكامل النَّصان في بيان ما آتاه اللَّهُ عزّ وجل لسليمان عليه السلامُ من تسخير الرياح لأمْرِه، رُخَاءً ليِّنَةً نَاعِمَةً رفيقَةً، أو سَرِيعةً عنيفَةً شديدة، قادرةً على تحقيق النَّصْرِ لِقُوَّةِ الحقّ على قُوىٰ الباطل والكُفْر والْبَغْي.

وفي بيان هذا التسْخير لسليمان عليه السلام تذكير بنعمة اللّه عليه، وعلى أوليائه ضدّ أعدائه، وتذكير باللّهِ وبصفاته، وبواجب العمل بمراضيه، وفي التذكير إعذارٌ وإنْذار.

النّص الثاني عشر:

قول اللّه عزّ وجل في سورة (فُصّلَت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) بشأن عادٍ قوم الرسول هود عليه السلام:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (١٦)﴾.

- قرأ حمزة، ويَعْقُوب: [فَأَرْسَلْنَا عَلَيهُمْ] بِضَمّ هَاءِ الضَّمير.
  وقرأ باقي القرّاءِ العشرة: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ بكَسْرِ هاء الضمير.
  وهما وجهان عربيّان لِنُطْق هاء الضمير.

- وقَرَأ نافع، وابْن كثير، وأبو عَمْرو، ويعقوب: [نَحْسَاتٍ] بإسْكان الحاء.

وقرأ باقي القراء الْعَشَرة: ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ بكسر الحاء.

وهما وجهان عربيّان لنُطْق هذه الكلمة.

﴿يَجْحَدُونَ﴾: الجحودُ: إنكار الشَّيْءِ وادّعاءُ بُطْلاَنِه مع العلم بأنَّه حَقٌّ.

﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾: أي: ريحاً شديدةً بارِدَة، يُحْدِث اندفاعُها الشديد أصواتاً مُرْهبة مُرْعبةً.

سبق في النص الثاني الذي من سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بيان إهلاك عادٍ بريح صرْصر جاءتهم في يومِ نَحْسٍ مُسْتَمِرّ، فَدَلَّ على أنّ إهلاكهم قَدْ تَمَّ في اليوم الأول. أمّا الرّيح فقد استمَرَّتْ على ديارهم بَعْدَ إهلاكهم أيّاماً نَحِسَات.

النصّ الثالث عشر:

قول اللّه عزّ وجل في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾.

● قرأ نافع، وأبو عَمْرو وأَبُو جعْفر بإثبات ياء [الجوارِي] في الوصل. وقرأ بإثباتها في الوصل والوقف ابنُ كثير، ويعقوب.

وقرأ باقي القرّاء العشرة بحذْفها في الوصل والوقف تخفيفاً في النطق، وهو من أساليب النُّطْق العربي لمثل هذه الياء في آخر الكلمة.

● وقرأ نافع، وأبو جعْفر: **[الرِّياحَ]** بالجمع.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بالإفراد.

والمؤدّى واحد، لأنّ الريح اسم جنس يشمل أنواع الرّياح.

﴿ٱلْجَوَارِ﴾: هي السُّفُن في البحار.

﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾: أي: كالجبال، في عِظَمها وعِظَمِ ما تَحْمِلُ.

﴿رَوَاكِدَ﴾: أي: ثوابتَ سَواكِنَ، لا تجري إلى حيث يُريد ركّابها.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾: أي: أَوْ يُهلِكُهُنَّ بإرسالِ ريحٍ قاصِفٍ تُكَسِّرُ سُفُنَهُمْ وَتُغْرِقُهُمْ.

فنبَّهَ هذا النصّ على الاحتمال المضادّ لإرسال الريح، وهُوَ احتمال إسكانها، وجَعْلِها ساكنةً لاَ تتحرَّكُ، وبذلك تثبتُ السُّفُنُ في البحر، وتظَلُّ رواكِدَ علَىٰ ظَهْرِه، والمراد السُّفُن الشراعية.

وفي هذا تذكير بأنّه هو سبحانَه الذي يُرْسِلُ الرّياحَ، فيُجْري السُّفُن، ويُحَقِّقُ بإرْسالها المنافع للناس.

فَسُنَنُ اللّه الّتي تجري بها السُّفُن الجواري في البحر، والتي هي كالأعلام، معَ وُجُودِ الاحتمالاتِ المضادّة لها، أمُورٌ تتضمَّن آياتٍ من آياتِ اللّه، وعلامات على حكمته وقُدْرته ورحمته، يَنْتَفِعُ بها كُلُّ صَبَّارٍ علَىٰ صُنُوف الامتحان الّتي يَمْتَحِنُ اللّهُ بها عباده، شَكُورٍ لأَنْعُم اللّه عليه.

﴿صَبَّارٍ﴾: صيغة مبالغةٍ وتكثيرٍ لـ«صابر» أي: كثير الصَّبر.

﴿شَكُورٍ﴾: صيغة مبالغةٍ وتكثيرٍ لـ«شاكر» أي: كثير الشكر.

ونبّه النَّصُّ على احتمال مضادٍّ آخَر، وهو احْتِمال بعْثِ الرّيح بعْثاً شديداً عنيفاً قَاصِفاً كاسراً، وهو أمْرٌ إنْ شاء اللّه فَعَلَه، فيحطّم بها السُّفُن، ويُهْلِكُ رُكّابَها، فقال اللّهُ عزّ وجلّ فيه:

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾:

يُوبِقْ: يُهْلِك. أي: أو يُحطّم السُّفُنَ، ويُهْلِكُ الرَّاكبين فيها.

وأخيراً نَبَّهَ النَّصُّ على الغالب من تصاريف اللّه في مقاديره، وهو أن يعْفُوَ عن كثير من ذُنُوب عباده، فَلا يُعاجلُهم بالعقاب، فقال اللّهُ عزّ وجلّ في بيان الاحتمال الثالث.

﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾: بجَزْم فعل «يَعْفُ» عطفاً على فعل جواب الشرط: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾.

النصّ الرابع عشر:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٦٥ نزول):

﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾.

- قرأ حمزة، والكسائي، ويعقوب، بنَصْبِ **[آياتٍ]** من **[آياتٍ لِقَوْم يُوقِنُونَ]** ومن [آياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ].

وقرأ باقي القرّاء العشرة بالرَّفْعِ فيهما.

والقراءتان وجْهان إعْرابيّانِ جائزان، فالرَّفْع لُوحظَ فيه أن الْجُمْلَتَيْن مُسْتأْنَفَتَانِ، والنَّصْبُ لُوحِظَ فيه أنَّهما معطوفتان على ما جاء في الآية (٣).

أضاف هذا النَّصّ التَّنْبِيهَ علَىٰ ظاهرة تَصْرِيف الرّياحِ، في الأزمنة، والأمكِنَةِ، والجهاتِ، وتَصْرِيفِها شدَّةً وضَعْفاً، بمستويات مختلفات من السُّرْعَةِ، والكثافة، والحرارة والْبُرودة، والنَّقَاء والصفاء، والاختلاط بالشوائب، إلى غير ذلك من أمور.

وأضاف ظاهرة التأثير بها على المياه، والْبِحَار، والسُّحُب، والأمطار، وأنواع الثلج والْبَرَد، وسُفُنِ الْبَحْرِ، وكلّ شَيْءٍ حيٍّ وغَيْرِ حيّ، حتّىٰ الجبال

الرواسي، بَحَتّها وتَعْرِيتها، فضلاً عن الأشجار ونبات الأرض، والتُّراب والرَّمْل والْحَصَىٰ.

دلَّ علىٰ كُلِّ هذا عُمومُ عبارة ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ مع النظر إلى الواقع.

إنَّ الرّياح لقُوَّةٌ عظيمة في الكون، فقد تكون سبباً لنفع عظيم، وقَدْ تكون سبباً لهلاك ودمار جسيم.

أفلا تُذَكّر بمَنْ يمْلِكُ تَصْريفها برحمته، أو بَعَدْله، فتُنبِّهُ على عُذْرِه أو نُذْرِه كما جاء في صَدْرِ سورة (المرسلات/ ٧٧ مصف/ ٣٣ نزول):

﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾.

النص الخامس عشر:

قول اللّه عزّ وجل في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) بشأن عادٍ قوم الرَّسول هُودِ عليه السّلام، وظنّهم أنّ الرّيح الّتي ساقَتْ سحَاباً، وأقْبَلَتْ علَىٰ أوديتهم، قد أقبلَتْ بالغيث والمطر النافع، مع أنّها قَدْ أَقْبَلَتْ لإهلاكهم وتدمير كلِّ شيءٍ في بلادهم عليهم:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿عَارِضًا﴾: **العارض**: السَّحَابُ الْمُطِلُّ القادم. وكلُّ ما يَعْتَرِضُ في الأُفُقِ فَيَسُدُّه، كالجراد، والمهاجراتِ من الطيْر.

هذا النصّ أضاف بعض تفصيلات تتعلّق بقصة إهلاك «عاد» قوم الرسول هُودِ عليه السّلام.

وأضاف بشأن الرّيح أنّ مقدّماتها قَدْ لاَ تُشْعِرُ بأنّها ريح إهلاك وتَعذيب وتَدْمير، إذْ قد تأْتي مُرْسلَةً ناعِمَةً لطيفة كَرِيح المطر، ثُمّ تتواتَر

شديدَةً عاصِفَةً قَاصِفَةً حاصِبَةً مُدَمِّرَة، بأمْرِ رَبّها، وهذا يَدُلُّنا على بعض المراد بقول اللّه تعالى في سورة ((المرسلات)):

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾﴾.

● قرأ عاصم، وحمزة، ويعقوب، وخلف: **[لاَ يُرَىٰ إلاَّ مَسَاكِنُهُمْ]** بالياء.

وقرأ باقي القراء العشرة: **[لا تُرى إلا مساكنهم]** بالتاء.

وهما وجهان جائزان لغة.

النصّ السادس عشر:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورةِ (الذّاريّات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾﴾.

● قرأ أبو جَعْفَر: **[يُسُراً]** بضمّ السين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿يُسْرًا﴾ بإسكان السّين.

وهما وجهان عربيّان لِنُطْقِ الكلمة.

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾﴾: **الذَّرْوُ**: هو الْبَثُّ والنَّشْرُ لذَرَّاتِ أيّ شيءٍ لَهُ دقَائِقُ صغيرة يمكنُ بثُّهَا في فضاء واسع، كَبَثّ ونَشْرِ الْغُبار، والتّراب، والدّقيق، وذرّات الماء، وذَرَّات بخار الماء.

والذي يكون سبباً في هذا الذَّرْو، ضِمْن سُنَن اللّهِ الظاهرة في كونه، هي الرّياح.

فلَفْظُ «الذَّارِيَات» وصْفٌ لموصُوف محذوفٍ ينْطَبِقُ على الرياح في ظاهرات الكون، وجاء تأكيد هذا الحدث الوصْفِيّ بالمفعول المطلق «ذَرْواً»

لتفخيم شأن هذه الظاهرة، ولا سيما إذا لاحظنا ما تُسَبّبُه الرّياحُ من إثارَة ذَرَّاتِ الماء الدقيقة وبثِّها ونَشْرِها بُخَاراً، ثُمّ تَجْمِيعِها سُحُباً، وما تُسَبّبُه من إثارة دَقائِقِ الغبار، وذَرْوها لتكوينِ نويَاتِ الأَمْطار.

ونظراً إلى عظمة هٰذِهِ الظَّاهرة من ظاهرات قُدْرَة اللّٰهِ وحِكْمَتِهِ في كونِه، أقْسَمَ اللّٰهُ بها، لتأكيد صِدْقِ وَعْدِه بإحياء الناس يوم القيامة، وتأكيد أنَّ الدِّينَ وهو الجزاء واقع لا محالة.

﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢﴾: الْوِقْرُ بكَسْر الواو الشيْء الثقيل. والحاملاتُ شيئاً ثقيلاً قد جاء وصفاً للرّياح أيضاً، إذْ هي تَحْمِلُ السُّحُبَ الثّقال بالماء.

﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣﴾ أي: فالجاريات جَرْياً يُسْراً هيْناً ليّناً رَفيقاً لاَ عُسْر فيه، وهذا وصْفٌ للرّياح أيضاً، إذْ تجري بالسَّحاب في الْجَوِّ جَرْياً يُسْراً.

﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾ وهذا وصْفٌ للرِّياح، إذْ تُقَسِّمُ بأمْرِ اللّه السُّحُب، وتُوَزِّعُها على البلاد، لإنْزال الأمطار والثّلْج والبرَدِ منها بقضاء اللّه وقَدَرِه وأمْرِه، على وفْقِ حِكْمَتِه رحْمَةً أو عَدْلاً.

إنّ المتفكّرين في هٰذِه الظَّاهِرَة الكَوْنِيَّةِ العظيمة، الّتي هي من ظَواهِرِ قُدْرَةِ اللّه وحكمته في كَوْنه، يُدْرِكُون أنّها تَسْتَحِقُّ أن يُقْسِمَ اللّٰهُ عزّ وجلّ بها باعتبارها من آثار صفاته الجليلة، على أنّ البعث حقٌّ، وأنّ الحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء، أمْرٌ واقعٌ لاَ محالة.

النّصّ السابع عشر:

قول اللّه عزّ وجل في سورة (الذّاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) أيضاً، بشأن عادٍ قوم الرّسُول هود عليه السلام:

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾.

● قرأ أبو عَمْرو [عَلَيْهِم] بكَسْرِ الهاء والميم.

وقرأ حمزة، والكسائيّ، ويعقوبُ، وخَلَفٌ: [عَلَيْهُمْ] بضَمّ الهاء والميم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة [عَلَيْهِمْ] بكسر الهاء وضمّ الميم.

وهي وجُوه من النُّطق كلّها عربية.

﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾: هي الرّيح التي لا تنتج خيراً.

﴿كَٱلرَّمِيمِ﴾: أي: كالْبَالِي المتَفتّت، والذي صار نخراً غير متماسك الذرّات.

وقد أضاف هذا النصّ وصْفَ ريحِ الإهلاك بأنّها رِيحٌ عقيم، وبأنّها ذَاتُ قُدْرَةٍ عظيمة فائقة، تجعل الشيء الذي تأتي عليه متفتّتاً منخوراً كالرّميم، وهذا يذكّرُنا بالتعرية التي تفعلها الرياح بالجبال، إذْ تُجَزِّئُ بعض صخورها إلى رمال، وإذ تَجعل بعض الصخور كالعظام البالية النخرة.

النص الثامن عشر:

قول اللّه عزّ وجل في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾.

● قرأ نافع وأبو جعفر: [الرِّيَاحُ] بالجمع.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿ٱلرِّيحُ﴾ بالإفراد.

والمؤدّى واحدٌ كما سبقَ بيانه.

﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾: أي: اشتَدَّتِ الريحُ بتَذْرِيَته وتَفْرِيق ذرّاته، فَهَلْ تُبْقي منْهُ شيئاً مجتمعاً بعْضُهُ إلَىٰ بَعْضٍ؟

كذلِكَ أعمال الذين كَفَرُوا برَبّهم، لا يحْصُلُونَ منها على أَيِّ نَفْعٍ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الدِّين، لأنَّهُمْ لم يَعْمَلُوها إيماناً باللّه، وابتغاءَ رضوانه وثوابه.

﴿فِي يَوۡمٍ عَاصِفٍۖ﴾: أي: في يوم ذي ريح عاصف، **الريح العاصف**: هي الريح الّتي تأتي على مستوى سَطْح الأرض، فتحمل التُّرابَ. والرَّمَادَ، والعصف (وهو يَابِسُ الزّرع) ونحو ذلك بحسب قُوَّتِها وسرعَتِها وشِدّتها.

فَأَبان هذا النّصُّ من أوصاف الريح أنّها تحْمِلُ الدّقائق فتذْرُوها وتُفَرّقُها في أماكن شتَّىٰ متباعِدَةً، حتَّىٰ لا تقدر الخلائق أن تَحْصُل على شيْءٍ ممَّا نَثَرَتْهُ ونشرَتْهُ، وفرَّقته.

كذلك أعمال الذين كفرُوا بربِّهم، فقال اللّه عزّ وجل بشأنها:

﴿لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ﴾.

النَّصّ التاسع عشر:

قول اللّهِ عزّ وجل في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

بشأن تَسْخِير الرِّيح العاصفة للنّبِيِّ الرسول سليمان عليه السلام:

﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾.

- قرأ أبو جَعْفَرَ: [**الرِّياحَ**] بالجمع.

وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بالإفراد.

ومؤدّى القراءتين واحد، كما سبق بيانه في نصوص متعدّدة.

أضاف هذا النصّ بشأن الريح الّتي سخّرَها اللّهُ عزّ وجلّ لسليمان عليه السلام، أنَّه قد سخَّر له الرّيح العاصفَةَ تَجْرِي بأَمْرِهِ إلى الأرض المقدسة التي بارك اللّه فيها.

وقد سبقه نصان في نجوم التنزيل:

الأول: ما جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) وهو يتضمّن أنّ اللّه سخّر له الرِّيحَ تَجْرِي بأمْرِه رُخاءً حيْثُ أصاب.

الثاني: مَا جاء في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) ويتضَمَّنُ أنّ اللّه قد سخَّرَ له الريح السّريعة، الّتي يعادل غُدُوُّها مسيرة شَهْر، ويُعادلُ رواحُها مسيرة شهر، وأدْركنا بالتقريب شدَّة سُرْعتها.

فهي أنواع ثلاثة من الرّياح سخَّرَها اللَّهُ عزَّ وجل لسليمان عليه السلام:

(١) الريحُ الرُّخاء الناعمة الرفيقة.

(٢) والرّيح السّريعة الّتي غُدُوُّها شَهْرُ ورَواحها شهر.

(٣) الرّيحُ العاصفة التي تَنسِفُ ما على وجه الأرض من عَصْفٍ وغُبار ورَمَادٍ ونحوها.

النّصّ العشرون:

قول اللّه عزّ وجل في سورة (الحاقّة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) بشأن إهْلَاكِ عَادٍ قَوْمِ الرَّسُولِ هود عليه السلام:

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾؟!.

﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾: أي: بريحٍ بارِدَةٍ شَدِيدَةِ الْبُرودَةِ، وقويَّةٍ سَرِيعَةٍ تَصْطَدِمُ بالأشياء فيكُونُ لَهَا دَوِيٍ وصوتٌ مخيفٌ فيه صَرِير. يقال لغة: صَرْصَرَ، أي: صاح صياحاً شديداً فيه صَرِير.

﴿عَاتِيَةٍ﴾: أي: متجاوزة حُدود النفع والسَّلامة، ومُحَطّمةٍ مُهْلِكَةٍ.

﴿حُسُومًا﴾: أي: مُتَتابعَةً لحَسْمِ مادّتِهِمْ، واستئصالهم، كالْكَيّ بعْدَ الْكَيِّ لحَسْمِ العِلَّةِ. «حُسُوم» جمْع «حَاسِم» مثل «شهود» جمع «شاهد».

﴿صَرْعَىٰ﴾: أي: هَلْكَىٰ مقتولين مطروحين.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾: أي: كأنَّهُمْ أصول نخل فَارِغَةٍ شُبِّهوا بها لتصوير حالة بُطونهم الّتي بُقِرَتْ، وخَرَجَ ما فيها، فَصَارَتْ خاوية.

هٰذه هي الحالة الثانية الّتي يصيرون إليها.

أمّا الحالةُ السابقة لها قَبْلَ أن تُبْقَر بُطونُهُم وتفْرُغ من أحشائها، فقد جاء وصفهم فيهَا في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بقوله تعالى:

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

فأصول النخل المنقَعِر (أي: المنقلِع لساعَتِه) لا تكونُ خاوية، لكنّها بعْدَ حين تجفُّ وتَيْبَسُ ويَبْلَىٰ باطِنُهَا، فتكونُ خاوية.

فجاء في النَّصّيْن تكامُلٌ وصْفِيٌّ لهُمْ باعتبار حالَتَيْن، تكُونُ الأولَىٰ أوّلاً، ثُمَّ تَحْدُثُ الثانية.

وجاء في هذا النَّصّ إضَافة وصف الرّيح الّتِي أهلكَ اللّه بها عاداً بأنَّهَا عاتية، وبأنَّها قد كانت حُسُوماً توالت على أرضهم سبْعَ ليالٍ وثَمانية أيّامٍ، مع أنّهم قد أهلكوا في اليوم الأوّل منها.

وهذا من التوزيع التكامُلِيّ، المعهود في النُّصوص القرآنيّة الّتي تَبْدُو في ظاهرها أنَّهَا مُكرَّرَات، وهي في واقع حالها غَيْرُ مكرَّرَات، بلْ هي متكاملات، ويكشف تكاملها التَّدَبُّر المتأنّي العميق.

وهذا من عناصر إعجاز القرآن.

النصّ الحادي والعشرون:

قول اللّه عزّ وجل في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

● قرأ ابنُ كثير، وحمزة، والكسائي، وخَلَفٌ: [اللَّهُ الّذِي يُرسِلُ الرِّيحَ] بالإفراد.

● وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع.

● وقرأ هشام في إحدى روايتين عنه، وقرأ ابنُ ذكوان، وأبو جعفر: [كِسْفاً] بإسكان السين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة وابن هشام في الرواية الأخرى عنه: ﴿كِسَفًا﴾ بفتح السّين.

الكِسْفُ والكِسَفُ جَمْع «كِسْفَة» وهي القطعة من الشيء.

● وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب: [يُنْزَلَ] من فعل «أنزل».

وقرأ باقي القراء العشرة ﴿يُنَزَّلَ﴾ من فعل: «نزّل».

● وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمرو، وشُعْبة، وأبو جَعْفَر، ويَعْقُوب: [فَانْظُرْ إِلَىٰ أَثَرِ رَحْمَةِ اللَّه] بإفراد «أَثَر».

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ﴾ بالجمع «آثار».

والمؤدّىٰ واحد.

● وقرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] بضم هاء الضمير.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بكَسْر هاء الضمير.

وهما وجهان عربيان لنطق هاء الضمير.

جاء في هذا النّصّ بيانٌ لطائفة من وظائف الرياح في سُنَنِ اللّه السّببيَّة في كونه، مع بيانِ وظيفتيها الدينيَّة في الترغيب والترهيب، وهي كَما يلي:

الوظيفة الأُولَىٰ: كونُهَا مُبَشّراتٍ بنزول الأمطار التي هي من رحمة اللّهِ بعباده، فَيُسْقيهم، ويُنْبت زروعهم، ويُخْرِجُ لهم الثمار المختلفة الأنواع والمنافع، دلّ على هذا في النّصّ.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾.

الوظيفة الثانية: كونُها سبَباً لتجْرِيَ الْفُلْكُ في الْبَحْرِ بأَمْرِ اللّهِ، وليبتغي الناس بركوبها مِنْ فضله أرزاقهم وتحقيق مصالحهم في البحر والبرّ. دلَّ على هذا في النصّ.

﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

الوظيفة الثالثة: كونُها وسيلة من وسائل اختبار الناس الموضوعين في الحياة الدُّنيا موضع الامتحان، وما تَشْتمل عليه من سبب لمنافع الناس يُقْصَدُ به تحريض دوافع الشكر في قلوبهم، رغبةً في أن يشكُروا نِعَمَ اللّهِ عليهم.

دلَّ عليه قول اللّه تعالى في النّصّ:

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

الوظيفة الرّابعة: كونُها قُوَّةً عظيمة تُثيرُ الْخَوْفَ والذُّعْرَ من عقاب اللّه وانتقامه من المجرمين، فهي تُنْذِرُ بالجزاء الرَّبّاني، دلّ على هذا دَلاَلَةً ضمنيَّة يُدْرِكُهَا المتدبّرون باللَّمْح، قول اللّه عزّ وجلّ في النصّ خطاباً لرسوله:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

ومَعْلُومٌ أَنَّ إهْلاَكَ معظم المجرمين من الأمم السالفة قد كان بِالرياح، أو كانت الرّياح من وسائل إهلاكهم.

الوظيفة الخامسة: أنها تكون سبباً يُثِيرُ اللّه به السَّحَابَ فَيَبْسُطُهُ في السَّمَاء كيْفَ يشاءُ، ويَجْعَلُه قِطَعاً فيَخْرُجُ المطر من خلاله، فَيُصِيبُ به مَنْ يشاءُ من عباده، فيستَبْشِرُون به، بعد أن كانوا يائسين، دلَّ على هذا قول اللّهِ عزّ وجلّ في النّصّ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾: أي: فَتُحَرِّكُ الرِّياحُ ضِمْنَ نظامها السَّبَبِيّ المياه على الأرض، وتحرّكُ الأبخرة الصاعِدَة من المياه، وتُهَيِّجُها، وتَحْمِلُها، وتجمع بعضَها إلَىٰ بَعْض فتكُونُ سحاباً.

سَحَابٌ: اسم جنس جَمْعِيّ واحِدَتُهُ سحابَة. ويُلاحظ معنى الجمع فيه فيوصف بالجمع، ومنه: «سَحَابٌ ثِقَال» ويُلاحَظُ معْنَى الإفراد فيه فَيُوصَفُ بالمفرد، ومنْهُ: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ﴾.

﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾: أيْ: يَمُدُّه اللّه في الجوّ كيف يَشَاءُ من جَمْع أو تفريق، وقِلَّةٍ أو كثْرَةٍ، ورقَّةٍ أَوْ كَثَافَةٍ، وبأشكالٍ وصُورٍ مختلفة، تَبْدُو حَرَكاتٍ طبيعيَّةٍ وهي من فعل اللّه جلّ جلاله.

والوسيلة الظاهرة هي الرّياح.

﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾: أي: ويجعلُه قطعاً. **الكِسْفَةُ** في اللّغة: هي القطعة من أيّ شيءٍ. وجمعُها كِسْفٌ وكِسَف.

﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾: أي: فترىٰ المطر يخرجُ من خِلاَلِ السَّحَاب. تقول لغة: وَدَقَتِ السَّمَاءُ، إذا أمْطَرَتْ.

﴿لَمُبۡلِسِينَ﴾: أي: لَيَائِسين، أَوْ مُتَحيِّرين. الإبلاسُ في اللّغة: اليأس، والتحيّر، والانقطاعُ، والسّكُوت، والنَّدَم.

الوظيفة السادسة: إقناعُ أهلِ العقل والرُّشد بقُدْرَة اللّه عزّ وجَلَّ على إحياء الموتى للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء يوم الدّين، قياساً على قُدْرَتِهِ على إحياء الأرض بمياه الأمطار بَعْدَ مَوْتها، دلَّ على هذه الوظيفة الفكريَّةِ الدّينيَّة، قول اللّه عزّ وجلّ في النصّ:

﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾﴾.

الوظيفة السابعة: أنَّهَا تُنْذِرُ بعذاب اللّهِ إذا أَرْسَلَهَا اللّهُ مُصْفَرَّةً، فيخَاف الْمُجرِمُونَ فَيُعْلِنُونَ تَوْبَتَهُمْ إذا رَأَوْهَا كذلك، فَإِذَا صَرَفَ اللّهُ عَنهُمُ العذابَ عادوا إلى ما كانوا فيه من الكُفْر، وظَلُّوا بَعْدَ ذَلِكَ يَكْفُرُونَ باللّهِ وبآياته، دلَّ على هذا قول اللّه عزّ وجلّ في النصّ:

﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا﴾: أي: مُنْذِراً بالعذاب الذي يدُلُّ عليْه اللَّوْنُ الأصفر، والمعنى: لأعْلَنُوا إيمانَهم وتَوْبَتَهُمْ، ولَعَادُوا بَعْدَ أن يَصْرِفَ اللّه عنهم العذاب، و﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ﴾: أي: لاسْتَمَرُّوا دواماً من بعد انصرافه عنهم يكْفُرُونَ باللّه وبِآياتِه.

النصّ الثاني والعشرون:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ

مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

● قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [وتَصْرِيفِ الرِّيحِ] بالإفراد.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ بالجمع.

ومؤدّى القراءتين واحد.

التصريف: التدبير، والتوجيه، والتّنويع، والتغيير، واتّخاذ مختلِف الوجوه الممكنة للوصول إلى الغاية المقصودة.

أَبان اللّه عزّ وجلّ في هذه الآيةِ أنَّ تَصْرِيف الرّياح في الكون من آياته العظيمة، فقد ذكرها سبحانَه مع آيَة خَلْقِ السَّماء والأرض، وآيَةِ نظامِ حركَةِ الأرض ضمن المجموعة الشمسيّة التي بها يحدُثُ نِظَامُ اختلاف اللَّيْلِ والنّهار، مع ما في الأرض من آياتٍ جَليلات، وآيَةِ أنظمة الماء، والأَوْزانِ النَّوْعيَّةِ للأشياء، والطَّفو، والريحِ والحركة الّتي بها تجري الْفُلْكُ في الْبَحْر، وآيَةِ الدَّورة المائيَّةِ ونظام تَحْلِيَةِ الماء بالتَّبَخُّرِ والاجتماع في السحاب، ثُمَّ هُطولِهِ مطراً على مَا يشاءُ اللّه بحكْمَتِه ولمن يشاء، وآيَةِ دورة الحياة النَّباتيَّة، وآية خَلْق أصناف الأحياء الّتي تَدِبُّ على الأرض، وآية نظام السَّحَاب المسخَّر وَفْق مقادير اللّهِ وأوامره الحكيمة بين السماء الْعُلْيا والأرض.

فالرّياح، وتسخيرها، وتَصْرِيفُها في الأماكن والأزمِنَة، وتصريف أنواعها الكثيرة الرُّخاء والعاصف والقاصف والمدمّرة وغير ذلك، بحسَب الأغراض النفعيَّةِ للأحياء، والتذكيرية بعناصِرَ إيمانية للنّاس، والتحذيريّة والإنْذاريَّة، والعقابيَّة الجزائيّة، هي من آياتِ اللّهِ العظيمة في الكون.

النصّ الثالث والعشرون:

قولُ اللّه عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا

وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ﴾: أي؛ كمثل ريحٍ فيها بَرْدٌ شدِيدٌ.

الصِّرُّ: شِدَّةُ الْبَرْدِ.

فأبان اللّه عزّ وجلّ في هذا النصّ، أنَّ من وظائف الريح، أَنْ يُرْسِلَهَا اللَّهُ بحكْمَتِه باردَةً شديدَة البرودة، فَيُهْلِكَ بِهَا زَرْعَ قَوْم ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بالمعاصي، أو بأَكْل أموال النّاسِ بالباطل، أو بمَنْع الزّكاة الّتي فَرَضَهَا اللّهُ في أمْوالهِم، أو بأَكل الرّبا، أو بتَرْكِ فرائضِ العبادات، أو بارتكاب الكبائر، أو نحو ذلك.

وقد جعل اللّه عزّ وجَلَّ هؤلاء الّذين يُعَاقِبُهُمْ بإهلاك زُروعِهِمْ في مَجَاري سُنَنِ عِقَابه المعجّل، مثلاً لِنَتيجَةِ مَا يُنْفِقُهُ الكافِرُون في الحياة الدنيا، ابتغاءَ منافِعَ غيبيَّةٍ يَرْجُونَ تَحْقيقها. لكِنَّ اللَّهَ جلَّتْ حكْمَتُه يأتِي إلى كُلّ ما أنفقوهُ، فأعَدّوا وَدَبَّرُوا به أشياء تُشْبِهُ عَمَل الزارع الظالم لنَفْسِه في مَزْرَعَتِه، فيبْعَثُ عليه مَا يجعلُهُمْ لاَ يَنْتَفِعُونَ ممَّا أَنْفَقُوا شيئاً ممّا كانوا يَرْجونه.

هذه الوظيفة من وظائف الريح لم يأْتِ التصريحُ بها في النصوص السابقة لهذا النّص في نُجُوم التنزيل.

النصّ الرابع والعشرون:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول): يمتنُّ على المؤمنين بتسخِير الرِّيح لِرَدِّ أحزاب الشِّركِ عَنهم في غزوة الخندق، وجَعْلِهِمْ يَرْجِعُونَ خَائِبِينَ عن الْمَدِينَة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾.

● قرأ أبو عَمْرو: [بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيراً] بياء الغائبين.

وقرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ بتاء المخاطبين.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، إذِ اللّه عزّ وجَلّ بَصيرٌ بمَا يَعْمَلُ المخاطَبُون في الآية وهم الّذين آمَنُوا، وبما يَعْمل الجنود الذين جاءُوهم من المشركين، وهم غير مخاطبين في الآية. فأغنت القراءتان عن أَنْ يُقَال في الآية: وكان اللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ويَعْمَلُون بَصِيراً.

وقد أبان اللّه عزّ وجلّ أنّ من وظائف الريح في سُنَن اللّهِ السّبَبِيَّة، أنْ يَرُدَّ بها كَيْدَ وبَأْسَ الكافِرِينَ عن المؤمنين الصادقين، الذين تقضي حكمتهُ عزّ وجلّ أنْ يُؤَيِّدَهم، ويَرُدَّ كيْد أعدائهم عنهم، وهو البصير بما يَعْمَلُون وبما يَعْملُ أعداؤهم.

وما نَصَرَ اللّه به المؤمنين في غزوة الأحزاب، مثالٌ علَىٰ إحدى أفعال اللّه السببيّة في نُصْرَة أوليائه على أعدائه، وكانت الرّيح يومئذٍ سبباً في صَرْف كيد المشركين عن المؤمنين.

النّصّ الخامس والعشرون (وهو آخر النُّصوص حول الرِّياح في القرآن):

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾.

● قرأ نافِعٌ، وأَبُو جَعْفر: [فَتَخَطَّفُهُ] بفتح الخاء وتشدِيد الطاء المفتوحة.

وقرأ باقي القُرّاء العشرة: ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾ بإسْكان الخاء وفتح الطاء دون تَشْدِيد.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى: فالفِعْلُ المشدَّدُ الطَّاء يَدُلُّ على حالةِ كثْرَةِ جماعَةِ الطَّيْر الَّتي تَتَخطَّفُهُ، وهذه تُصَوِّرُ شِدَّة التَّمَزُّقِ النَّفْسِيِّ لدَىٰ بَعْضِ المشركين.

والفعلُ المخفَّفُ الطاء يدُلُّ على الحالَةِ العاديَّةِ الّتي لا تكون فيها كثْرَةٌ مِنْ جماعة الطَّيْرِ الّتي تخْطَفُهُ، وهٰذه تُصَوِّر حالة التمزُّق النفْسِيّ غَيْرِ المشدّدة لدىٰ بَعْضِ المشركين، إذ المشركون مُخْتَلِفُو الدَّركات في الشْرك.

وقد أبان هذا النَّصُّ، أَنَّ مِنْ وظائفِ الرِّيح أَنْ تُسَاعِدَ على دفع من خَرَّ من السّماء، باتّجاه جاذبيَّةِ الأرض، فَتَزيد مِنْ هُوِيِّه، وتُوَجِّهَهُ بَعِيداً عن الأماكن المرتَفِعَةِ الَّتي قَدْ تُخَفِّفُ من قُوَّةِ اصْطِدامِه بالأَشياء الصُّلْبَة، الّتي يقَعُ عليها، لِتَهْوِي به في مَكانٍ سحيقٍ.

وهذا يكونُ في نوْع الرّيح الّتي تأْتي من عُلْوٍ إلى سُفْلٍ، مائلةً عن المرتفعات إلى الوديانِ السحيقة.

وعكسُها الرّياح الّتي تَحْمِل السَّاقِطَ فتَرْفَعُه إلى الأعالي قليلاً أو كثيراً، وتُدْنيه من المرتَفِعات، فَتُخَفِّفُ من شدَّة صَدْمَتِهِ وهو ساقِطٌ، وقد تكُونُ سبباً في إنْقاذه.

والآيَة تُصَوِّرُ حالة التمزُّقِ النَّفْسِيّ لدَىٰ المشركين، وعاقِبَتَهُم التعيسة الّتي توصلُهُمْ إلَىٰ العذاب الحتميّ.

وتُصَوِّرُ أَنَّ الإيمانَ في مَوْقِع السُّمُوّ والْعَلاء، وأَنَّ الشِّرْكَ الذي هو أَخَفُّ أنواع الكُفْرِ هو بمثابَةِ مَنْ يخِرُّ من السَّمَاء، فيتَعَرَّضُ إلى عذاب التمزّقِ وهو يخِرّ، وإلَىٰ عذَابِ المصير، حينَ يَصِلُ إلىٰ عاقبة الْجَزاء، بعْدَ رِحْلَة الابتلاء.

وبهذه النظرة التَّتَبُّعيّة للنُّصُوص القرآنيّة حول الرّياح، ظَهَر لنا أَنّ الرّياح ذواتُ وظائف دنْيَوِيَّة، ضمْن أنظمة سببيَّةٍ ربّانية، وذَواتُ وظائف

دينيَّة، إذْ تُلْقي دَلالاتٍ بيانيّةً تذكيريَّةً، فتَدُلُّ على طائفة من صفات الرَّبّ جَلَّ وعلا، وتُحَذِّرُ وتُنْذِرُ بِقَانُونِ الجزاء الرَّبّانيّ المعجّل والمؤجّل إلى يوم الدين.

ويجْمَع ذَلِكَ عُنوانٌ كُلّيٌّ جامع، جاء في أوَّل تنزيل قرآنيّ عن الرّياح، وُهو قول اللّه عزّ وجلّ في صدر سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾.

❁ ❁ ❁

تلخيصٌ موجز لما جاء عن الرياح في القرآن

أخذاً من التتبع السابق للنصوص القرآنيَّةِ الّتي جاء فيها بيانٌ عن الرّياح، باستقراء شامل، وتدَبُّرٍ فيه بغْضُ السَّبْرِ باتّجاه الْعُمق، أقدّم التلخيصَ التالي:

أوّلاً: الرّياح ذوات تصاريف بتصريفِ اللّه لها، فهُو جلّ جلالُه يُوَجِّهها بحكْمَتِه، علَىٰ ما يشاءُ بسُلْطان رُبُوبيّته لكلّ ما سِوَاه، وجُوهاً مختلفة، بصِفَاتٍ ومُرَادَاتٍ متنوعة تَنَوُّعاً كثيراً.

ثانياً: الرّياح تختلف اختلافاً كثيراً في صفاتها:

(١) فهي تختلف باختلاف نِسَبِ عناصِرِ الغازاتِ فيها.

(٢) وتختلف باختلاف نِسَب بخار الماء فيها.

(٣) وتختلف باختلاف ما تَحْمِلُ من أشياء.

(٤) وتختلف باختلاف درجاتِ الحرارة والبرودة فيها.

(٥) وتختلف باختلاف شدَّةِ السُّرْعَةِ والْحَرَكَةِ وضعفهما حتى السكون.

(٦) وتختلف باختلاف نوع حركتها في الْجَوّ، فقد تكُونُ أُفُقِيَّة، وقد تكون عَمُودِيَّةً من الأعْلَىٰ إلى الأسفل، أو من الأسْفَلِ إلى الأعلى، وقَدْ تكون بمُسْتَوى سطحِ الأرض، أو بحُدُود مُسْتَوى الأشجار، أو فوق ذلك حتَّىٰ السُّحُبِ فَمَا فَوْقها، وقد تكُونُ مُرْسَلَةً بخُطُوطٍ مائِلَةٍ من الأعلى إلى الأسفل، أو من الأسفل إلَىٰ الأعلى، باحتمالاَت كثيرة يَصْعُبُ حصرها.

(٧) ومنها رياحٌ كونية في عوالم النجوم والمجرّات.

ثالثاً: الرّياح ذواتُ آثارٍ نافعة، بحكْمَةِ الرَّبّ مُصَرِّفِها وذات آثارٍ ضارَّة، بحكمة الرَّبّ مُصَرِّفِها.

- **فمِنْ تأثيراتها النافعات بحكمة اللّه وأمْرِه، ما يلي:**

(١) إثارتها المياه وحملها لبخار الماء وتكوين السُّحب، وسوقها لإنزال الأمطار، على البلاد والأراضي التي يأمُرُ اللّه بإغاثتِها وإحيائها.

فإذا جاءت كانت نَاشرة، ومبشّرَةً برحمة الله.

(٢) إثارَتُها للسحاب، وبَسْطُهُ، وجَمْعُهُ، وتفريقه، على مُرَاد اللّه وأمْرِه الحكيم.

(٣) حَمْلُها اللّقاحات، للنباتات، وللسحاب، وحملُها للروائح الزكيّة.

(٤) إجراؤها للسُّفُن في الْبَحْر، بأمْر اللّه، وعلى مقتضىٰ حكمته.

(٥) تَذْرِيَتُها لأشياء نافعة، إذْ تَنقُلُها من أمكنَةٍ في الأرض إلى أمْكِنة أُخرىٰ.

(٦) تأديتُها وظيفة نَصْرِ أولياء اللّه على أعدائه، بأمْرِ ربّها.

إلى غير ذلك من أمُورٍ فيها نَفْعٌ عظيم للنّاس.

- **ومن تأثيراتها الضارّات بحكمة اللّه وأمْرِه، ما يلي:**

(١) أنْ تكون صَرْصَراً عاتيةً بارِدَةً فَتُهْلِكَ وَتُدَمِّر.

(٢) أَنْ تكون قاصِفَةً للأشجار والصواري.

(٣) أن تأتيَ مُصْفَرَّةً مُنْذِرَةً بالْهَلاك.

(٤) أنْ تأتي عَاصِفَةً تَحْمِلُ ما خَفَّ عل سطح الأرض، فَتُحْدِثُ بعضَ الضَّرَرِ.

(٥) أن تأتي هاوية من أعْلَىٰ إلى أسفل، ومائلة إلى أعماق الوديان، فَتَرْمي، وتُحَطِّمُ وَتُدَمِّر.

(٦) أنْ تأتي حافرةً ومُقْتَلِعةً للأشياء، وناسِفَةً إلَىٰ الأعْلَىٰ، ثُمَّ رَامِيَةً بالأشياء ومُحَطِّمَةً لها.

(٧) أن تأتي شديدة عنيفة فتضْرِبَ البحارَ، وتجعل أمواجها كالجبال يَصْدِمُ بعْضُها بعضاً، وتُغْرِقَ السُّفُنَ الَّتي تجري عليها.

إلى غير ذلك من صور تأتي بالبلاء والعذاب والعقاب، بحسب حكمة اللّهِ في عباده.

تلخيص وظائف تصريف الرياح:

حين نتفكر في وظائف تصريف الرياح يَتَبيَّنُ لنا أنها تشتمل على الوظائف التالية:

الوظيفة الأولى: أن تكون سبباً لإمداد الأحياء المتَنَفِّسَةِ بالأكسجين اللازم لحياتها.

الوظيفة الثانية: أن تكون سبَباً لتحقيق أرزاق الأحياء على الأرض، بتكوين المطر، وإنزاله، وبحمل عناصر اللّقاح للنباتات وللسُّحب، وأن تكون سبباً لتحقيق منافع كثيرة للناس كَإجراء السُّفُن، وحَمْل الطائرات، وسوق السّحاب.

الوظيفة الثالثة: أن تكون سبباً لامتحان الناس بالنِّعَمِ، أو بالمصائب والمكاره.

الوظيفة الرابعة: أن تكون سبباً لعقاب مستحقي العقاب المعجّل، حتَّىٰ مُسْتَوَىٰ الإهْلاَكِ الماحِق المدمّر.

الوظيفة الخامسة: أن تكون سبباً لتأييد المؤمنين، ونصرهم على الكافرين، أو صَرْف كيْدِ الكافرين عن المؤمنين.

الوظيفة السادسة: أنْ تكون مسخَّرَة لبعض عباد اللّه المرسلين، كما كانت مُسَخَّرةً لسُلَيْمانَ عليه السلام، إذْ سخَّر اللّه له الرّيحَ الرُّخَاءَ، والرّيحَ السَّرِيعة الّتي غدُوُّها شَهْرٌ ورَواحُها شهر، والرّيحَ العاصفة.

الوظيفة السابعة: أن تكُونَ مُذَكّرَةً باللّه جلّ جلاله، وبعظيم صفاته، إذْ هي آيةٌ من آياته في تصاريفها ذواتِ الآثار العظيمة والجسيمة والخطيرة.

الوظيفة الثامنة: أنْ تكون مُنْذِرَةً بعقاب اللّه وعَذَابه، لكلّ من يَفْعل مثل أفعال مَنْ أُهْلِكُوا في سَالِفِ الأيّام بأنواعٍ منها. وَأنْ تكُون منبِّهَةً على عَدْلِ اللّهِ وجزائه المؤجَّلِ إلى يوم الدّين.

إلى غير ذلك من وظائف يستطيع المتفكر المتدبّر أن يكتشفها بالبحث والتأمل.



الملحق الثالث
حول الأقسام الواردة في صدر سورة المرسلات

جاء عند المفسّرين تفسير «المرسلات» بالرّياح، وبالملائكة، وبالأنبياء، وتفسير «الفارقات» و«الملقيات ذكراً» بالملائكة، ورأيْتُ أنَّ هذه التفسيرات لا تَسْتَنِدُ إلى بيانٍ نَبَوِيٍّ، وإنّما هي آراء اجتهاديّة ذكرها المفسّرون.

ثم نظرتُ في الأقسام القرآنيّة بنظراتٍ تَدَبُّرِيَّة، فظهر لي أنَّ اللّهَ عزّ وجلّ يُقْسِمُ بآيَاتٍ من آياته في كَوْنِه، وهذه الآياتُ مشْهُودَةٌ أَوْ مَعْلُومَةٌ لدىٰ المقصودين بالخطاب، لتأكيد نَبَأٍ غَيْبِيٍّ يُبَلِّغُهُمْ إيّاه، ومضْمُونُ هذا النبأ ممّا ينكرُونَ، أو ممَّا يشكُّونَ فيه، أو تكُونُ حالَتُهم مثْلَ حالَةِ المنكر أو

الشَّاكّ، أو تكون حالَتُهم النفسيَّةُ في قَلَقٍ، أو اضطرابٍ، أو حُزْنٍ، أو خَوْفٍ، أو أيّ انفعالٍ آخر يجعلُ تصَوُّراتهم لِلأشياء رَجْرَاجَةً مُهْتَزَّةً، غَيْرَ واضِحَةٍ ولا نقيَّةٍ، فَهُمْ بحاجَةٍ إلَىٰ ما يُسَكِّن نفوسَهُم ويُعيدُها إلَىٰ سوائها، ومن وسائل ذلك التأكيد بالْقَسَم.

ودَلَّني الاستقراء القرآنيّ، مع التدبُّر المتأنّي على أنَّ من المستَبْعَد جدًّا، أنْ يُقْسِمَ اللَّهُ الرَّبُّ الحكيمُ بأمُورٍ غيبيَّة هي ممّا يِنْكِرُهُ المقصودونَ بالخطاب أو يشكُّونَ فيه، على قضيَّةٍ غيبيَّةٍ أُخْرَىٰ لتأكيدها.

فالأمور الغيبيَّةُ الَّتي لا يُؤْمِن بها الذين يُوجَّهُ لَهُمُ الخطاب مُتَساوِيَةٌ لَدَيْهم إنكاراً لها، أو شكًّا فيها، والقسم ببعضها لتأكيد بعْضها الآخر مُساوٍ لعكسه، وهو في العادَةِ لا يُعْطي قوّةً ولاَ تَرْجيحاً، وحكمةُ الرَّبّ الحكيم أجَلُّ، فمِنْ غَيْرِ المقبولِ في العقول، أنْ يُقْسِمَ الرَّبُّ جلَّ جلالُه لمنكِرِ الْبَعْثِ أو الشَّاك فيه، علَىٰ أنَّهُ حَقٌّ، بمَلاَئِكَةٍ مُرْسلاتٍ، وهو أيضاً يُنْكِرُها ولاَ يُؤْمِنُ بها.

والواجب على متدبّر كلام اللّه في كتابه المجيد أن يُمْعن النظر، ويُمِدَّ تفكُّرَهُ وتَدَبُّرَهُ بمَزِيدٍ من الصَّبْر والتَّأنّي، ومُتَابعة التفكُّر والتدبّر، حتَّىٰ يفتح اللّه عليه بالفهم الصحيح المطابق لمراده من كلامه.

هذا ما جعلني أستبْعِدُ الآراء التي ذُكرت في تفسير ما أقْسَم اللّه به في صَدْرِ سُورَةِ (المرسلات) باستثناء الرّياح، لأنّها من آيات اللّه الكبرى المشهودة في الكون، أقسم اللّه بها لمنكري البعث للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء، على أنَّ ما يُوعَدُونَه لَواقعٌ حتماً، ومثل هذا القسم معقولٌ ومقبولٌ، وهو يتضَمَّنُ حُجَّةً على قُدْرَةِ اللّه، وعلى قانون الجزاء الذي هو ثَمَرَةُ حكمة الابتلاء، فقد كانت الرّياح في تاريخ الأمم سبباً في إهلاك مجرمي أهل القرون الأولى.

❁ ❁ ❁

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

(٢٣)
سورة النّجم
٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول

الموضوع | الصفحة

(٢٤)
سورة عبس
٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول

الموضوع | الصفحة

(٢٥)
سورة القدر
٩٧ مصحف/ ٢٥ نزول

(٢٦)
سورَة الشمس
٩١ مصحف/ ٢٦ نزول

الموضوع	الصفحة

(٢٧)

سورة البروج

٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

(٢٨)

سورة التين

٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول

(٢٩)

سورة قريش

١٠٦ مصحف/ ٢٩ نزول

(٣٠)

سورة القارعة

١٠١ مصحف/ ٣٠ نزول

(٣١)

سورة القيامة

٧٥ مصحف/ ٣١ نزول

(٣٢)

سورة الهمزة

١٠٤ مصحف/ ٣٢ نزول

الموضوع	الصفحة

(٣٣)
سورة المرسلات
٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

